

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

King Faisal Center for Research and Islamic Studies

مهمّة في بخارى

في السنوات ١٨٤٣-١٨٤٥م

تأليف
جوزيف وولف

ترجمة وتعليق
محمّد بن عودة المحيميد

مُهِمَّة في بُخَارَى

في السنوات ١٨٤٣ - ١٨٤٥م

للتحقق من مصير

الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي

تأليف

جوزيف وولف

ترجمة وتعليق

محمد بن عودة المحيميد

مراجعة وتحرير

قاسم السامرائي

يوسف عبدالله حجاج   إبراهيم باجس عبدالمجيد

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

ⓗ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
وولف، جوزيف
مهمة في بخارى في السنوات ١٨٤٣-١٨٤٥م للتحقق من
مصير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي/ جوزيف وولف؛
محمد بن عودة المحيميد.- الرياض، ١٤٣٤هـ
٦٠٦ص؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ٤-٣٧-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨
١- بخارى - وصف ورحلات ٢- آسيا الوسطى - وصف
ورحلات. أ. المحيميد، محمد بن عودة (مترجم) ب. العنوان
ديوي: ٩١٥,٨٤٠٤ ١٤٣٤/١٠٤١١
رقم الإيداع: ١٤٣٤/١٠٤١١
ردمك: ٤-٣٧-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨

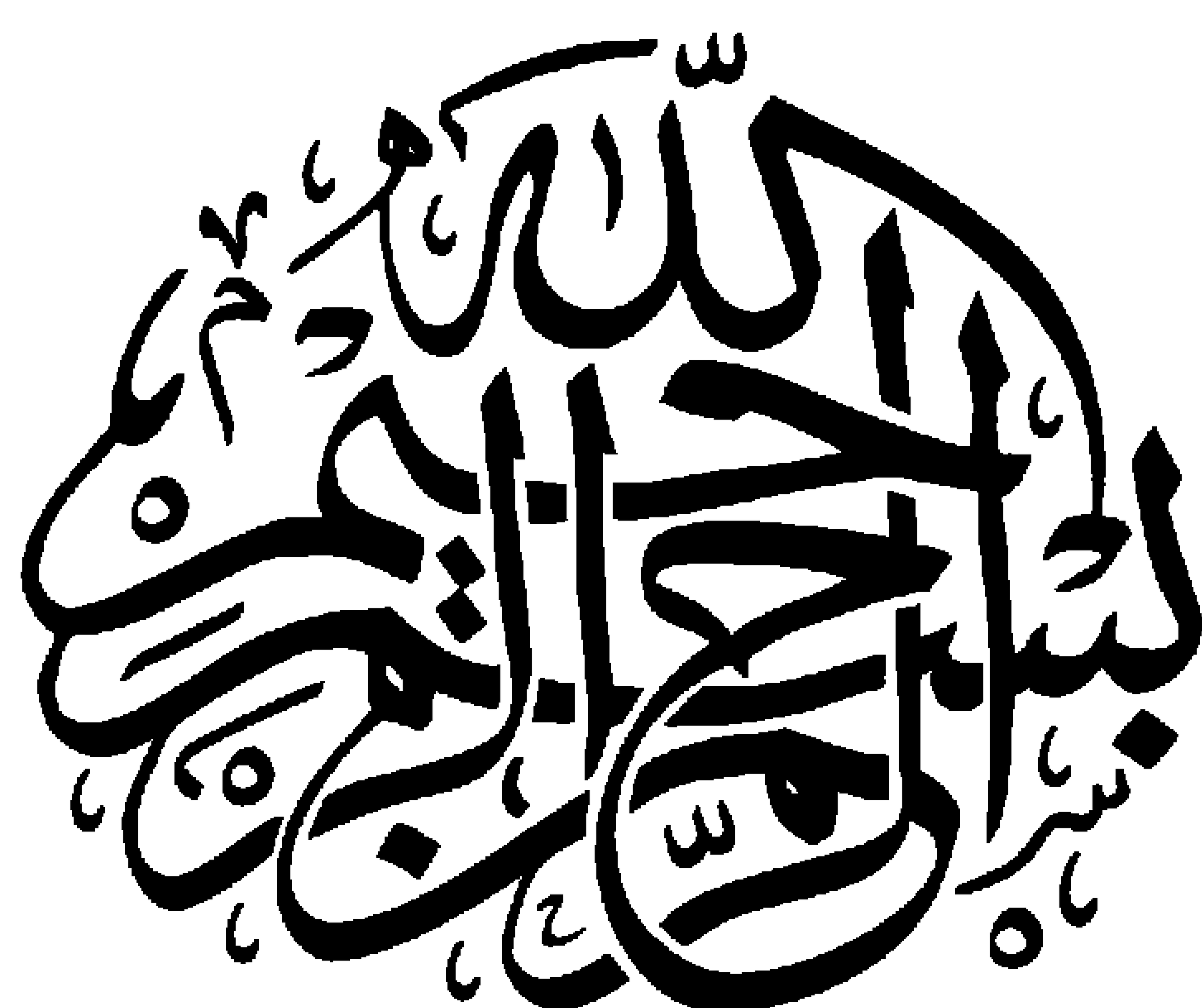
عنوان هذا الكتاب باللغة الإنجليزية:

NARRATIVE OF A MISSION TO BOKHARA IN THE YEARS 1843-1845
TO ASCERTAIN THE FATE OF COLONEL STODDART AND CAPTAIN CONOLY

William Blackwood and Sons, Ltd.
Edinburgh - London, 1848

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين، والشكر له على ما أنعم به علينا من نعم لا تُعَدُّ ولا تُحصى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار الأخيار؛ وبعد:

فهذه الرحلة الغريبة المدهشة التي تكتنفها الغرابة، ويلُفُّها العجب، وهي - بعدُ - لا تكاد تخلو من مبالغة الرَّحَّالين، وتلفيقهم للحوادث أحياناً، وإضفاء الطابع البطولي على نشاطهم فيها، قام بها القس الدكتور جوزيف وولف من إنجلترا إلى بخارى، وواجه خلالها الكثير من الأهوال والمشقة والتعرُّض للسرقة (فقد سُرق وكاد هو نفسه يُباع في سوق النِّخاسة)، وقسوة المناخ، ومحاولة القتل والاغتيال. كان دافعها - كما قال مراراً - هو التحقُّقَ من مصير ضابطيْن اختفيا في بخارى؛ لذا فهي تستحق أن تُنقل إلى اللغة العربية، ليتسنى للقارئ العربي أن يستخلص منها أموراً تاريخية وعقدية كثيرة، تخص الحقبة التي حدثت هذه الرحلة خلالها، وبخاصة فيما يتعلق بأوضاع الإمبراطورية العثمانية آنذاك، التي أصابها الوهن، ودبَّ في أنحائها الضعف، وأحوال البلدان التي مر بها المؤلف، وعلاقاتها بمركز الخلافة، وتجارتها مع البلدان الأخرى، ووصف الحالة السياسية، وتقاليد الدول، وخاناتها، ورعاياها في بخارى وما جاورها من المدن والأصقاع، إضافة إلى وصف لبعض المدن التي مرَّ بها في طريقه إلى بخارى.

وسوف يستشفُّ القارئ من التلميحات والتعليقات التي يوردها المؤلف النظرة الغربية الاستعلائية تجاه المسلمين ودينهم وبلدانهم، وجهود اليهود لنصرة بني قومهم، وعملهم على المزاوجة بين اليهودية والنصرانية لتحقيق

أهدافهم، والتبشير بقيام دولتهم في فلسطين؛ إذ كان وولف وكثير من السياسيين الإنجليز من أشد المناصرين لذلك.

وكما سيلحظ القارئ؛ فقد كان صاحب الرحلة ينطلق دائماً من أساس ديني عرقي بالدرجة الأولى، ووطني بالدرجة الثانية. فرغم أنه اعتنق النصرانية، إلا أنه لا ينسى يهوديته أبداً، ورغم أن موطنه الأصلي ألمانيا، ووطنه بالهجرة إنجلترا، إلا أنه لا يفتأ يذكر اليهود، ويبحث عنهم أينما حل، ويبشر بقيام موطن لهم في فلسطين. وفي هذه المقدمة القصيرة أقدِّم موجزاً عن حياة المؤلف:

جوزيف وولف (١٧٩٥-١٨٦٢م): مبشر يهودي نصراني، ولد في فايلرزباخ، بالقرب من مدينة بامبرج في ولاية بافاريا الألمانية. وحين أصبح والده حبراً في ورتمبرج في عام ١٨٠٦م، أرسله إلى الجمعية البروتستانتية للمحاضرات في شتوتجارت، وقد تحول وولف إلى النصرانية من خلال قراءة كتب يوهان ميشال فون سلار، أُسقف ريجنسبرج، وقام بتعميده الراهب البندكتي في إماوس، بالقرب من براغ عام ١٨١٢م.

وهو يخبرنا في كتاباته عن قناعاته المبكرة بأن يسوع هو المسيح المنتظر؛ فعندما كان في السابعة من عمره، جعل يتفاخر أمام أحد كبار السن النصارى من الجيران بالنصر المستقبلي لإسرائيل عند مجيء المسيح، عندها قال له الرجل المسن بلطف: «ولدي العزيز، سوف أخبرك من كان المسيح الحقيقي: لقد كان يسوع الناصريَّ، الذي صلبه أجدادك، كما قتلوا أنبياء الأزمان السالفة. اذهب إلى المنزل، واقرأ الإصحاح الثالث والخمسين من سفر إشعيا، وسوف تقتنع بأن يسوع المسيح هو ابن الله». وسرعان ما اقتنع بذلك؛ فذهب إلى المنزل، وقرأ الإنجيل، وفوجئ عندما وجد فيه أن يسوع الناصري هو المسيح المنتظر الحقيقي؛ فطلب من والده تفسيراً للنبوءة، غير أنه قوبل بصمت مطبق للغاية، جعله لا يجرؤ على إثارة الموضوع مرة أخرى. وهذا على أية حال

ما زاد في رغبته في أن يعرف أكثر عن الدين النصراني.

كان جوزيف وولف عالماً لامعاً بالاستشراق، وقد تابع دراساته في توبنجن (جنوبي ألمانيا) وفي روما؛ إلا أنه طُرد من كلية الإرساليات التتصيرية في عام ١٨١٨م لهجومه على عقيدة العصمة التي تُضْفَى على البابا، ونقده لمعلميه. وبعد إقامة قصيرة في دير المُخَلِّصين في فال سانت، بالقرب من فرايبورج بألمانيا، ذهب إلى لندن، والتحق بالكنيسة الأنجليكانية، واستأنف دراساته الشرقية واللاهوتية في جامعة كامبردج.

وفي عام ١٨٢١م بدأ رحلاته التتصيرية في الشرق بزيارة مصر، وشبه جزيرة سيناء، والقدس، وحلب، وبلاد الرافدين، وفارس، وتفليس، وجزيرة القرم، عائداً إلى إنجلترا في عام ١٨٢٦م. عندها عرَّفه إدوارد إيرفنج إلى الليدي جورجيانا ماري والبول، الابنة السادسة لهوراشيو والبول، إيرل أورفورد، التي تزوجها في السادس والعشرين من فبراير ١٨٢٧م في كنيسة القدِّيس جورج، في ساحة هانوفر.

وفي عام ١٨٢٨م غادر وولف إنجلترا للبحث عن القبائل اليهودية العشر التائهة، مسافراً - عبر الأناضول، وأرمينيا، وتركستان، وأفغانستان - إلى سملا وكالكوتا، متحملاً الكثير من المتاعب، وواعظاً - أينما حلَّ - بحماسة شديدة، فزار مدراس، وبونديتشيري، وتينيفيالي، وجوا، وبومباي، ومن ثم كرَّ عائداً إلى الوطن عن طريق مالطا، مروراً بمصر.

وفي عام ١٨٣٦م التقى صامويل كوبات في الحبشة، فصَحِبه إلى جدَّة، ثم زار اليمن وبومباي، وبعدها سافر متجهاً إلى الولايات المتحدة، حيث رُسِّم شَمَّاساً في ١٨٣٧/٩/٢٦م في نيوآرك، نيوجيرسي. وحين عاد إلى الوطن منحته كلية ترينتي بدبلن الدكتوراه الفخرية في القانون، ورُسِّم قساً في عام ١٨٣٨م من أسقف داون ودرومور، وفي السنة نفسها مُنِحَ

منصب القسيس للنثوايت في يوركشاير.

وفي عام ١٨٤٣م سافر في رحلته المذكورة في هذا الكتاب إلى بخارى للبحث عن اثنين من الضباط البريطانيين؛ هما: الكولونيل تشارلز ستودارت والكابتن آرثر كونولي، اللذان قتلهما أمير بخارى نصر الله خان في يونيو ١٨٤٢م؛ لأنه عدَّهما جاسوسين إنجليزيين بعد اندحار الجيوش الإنجليزية في أفغانستان. وكان وولف قد شكك في التقارير التي تقول بمقتلهما، فعرض أن يذهب إلى بخارى ليستطلع أمرهما، فإن كانا حيين أتى بهما، وإن كانا غير ذلك، فسيطالب بدمهما، وذلك اعتماداً على خبرته السابقة في المنطقة، ومقامه لدى أمير بخارى، ومعرفته بسكانها، حيث زار هذه المدينة من قبل. وكما وصف وولف نفسه، فقد نجا من الموت بسبب سخرية أمير بخارى من مظهره؛ حين قابله وهو في حلته الكهنوتية النصرانية الكاملة.

في عام ١٨٤٥م عُيِّنَ وولف قساً في آيل برويرز، سومرست، وبعد وفاة زوجته الأولى، في عام ١٨٦١م، تزوج لويزا ديسما، ابنة جيمس كينج، قسيس سانت بيتر - لو - بوير، لندن.

وقد كان يخطط لرحلة تنصيرية طويلة؛ إلا أن المنيَّة أعجلته في آيل برويرز في الثاني من مايو ١٨٦٢م.

ويعد ابنه هنري دروموند تشارلس وولف (١٨٣٠-١٩٠٨م) أحد السياسيين البارزين في إنجلترا، وكان مفوضاً سامياً لبريطانيا في مصر إبان الاحتلال بين عامي ١٨٨٥-١٨٨٧م.

إن رواية هذه المهمة مبسوطة في سبع طبعات أُنجزت بين العامين ١٨٤٥م و١٨٥٢م.

وفي إحدى تلك الطبعات، التي قامت مؤسسة أرنو بإعادة طباعتها في عام ١٩٧٠م، ترد تفصيلات كثيرة حول رحلاته التي سبقت هذه الرحلة في

مهمات أخرى (طلب العلم والتنصير ومساعدة بني قومه في أنحاء كثيرة من العالم)؛ منها مروره بمدينة جدَّة، التي وصفها بفقرة وجيزة حفلت بالمغالطات والأوهام، ونصها: «... في جدة يقال إن أم البشر ترقد مدفونة هناك، وخارج بوابات جدة يشيرون إلى قبر حَوَّاءَ. وجدة كلمة عربية تعني الأم الجَدَّة، أي: حواء. وتحوي جدة ستين ألف نسمة. وهي بلدة كبيرة، وممر إلى مكة، التي يزروها اثنان وسبعون ألف حاجٍّ سنوياً. وإذا نقص العدد، فإن الملائكة تملأ الفراغات حسب المعتقد المحمدي(١). ويرمي الحاج سبع حصيات صغيرة على الشيطان، وسِتَّ عشرةَ على طفلي الشيطان(٢)... إن سبب الاستخدام القاسي للأطفال غير واضح تماماً... ومن جدة ركبت نحو السويس، وبعدها زرت القاهرة، وذهبت منها إلى الأسكندرية. ومن هناك وصلت إلى مالطا في العشرين من مارس ١٨٣٤م... إلخ».

وفي هذه الرحلة التي قمت بترجمتها يورد المؤلف الكثير مما هو مناف للحقيقة حول الإسلام ونبيه ﷺ، إما جهلاً منه، أو تقصُّداً للإساءة إلى الدين الإسلامي، وهو المنصِّر المحترف. و قد قُمت بالرد على بعض مغالطاته في

---

(١) هذا التعبير يستخدمه المؤلف في مواضعَ متعددة من كتابه، وكذلك يستخدمه غيره من المؤلفين الغربيين، فيقولون: (الديانة المحمدية، أو العقيدة المحمدية، أو المعتقد المحمدي، ...)، كما يقولون: (الديانة الموسوية، والعقيدة الموسوية)، ويقصدون بذلك اليهودية. ومع الأسف؛ فإن كثيراً من الكتاب المسلمين درجوا على ذكر هذه المصطلحات، فيقولون: الموسوية بدلاً من اليهودية، والمسيحية بدلاً من النصرانية.

(٢) هذا جهل من المؤلف - أو تجاهل - بالدين الإسلامي، وبفقه الحج عند المسلمين، والحكمة من رمي الجمار فيما يعرف بالجمرة الكبرى والوسطى والصغرى؛ فظن المؤلف أن الجمرة الكبرى هي الشيطان الأكبر، وأن الجمرتين الوسطى والصغرى هما ولد الشيطان. ونقول أيضاً: إن أول من رمى الجمار هو إبراهيم عليه السلام، وبنوه من بعده، ولو رجع المؤلف إلى الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين، لوجد مصداق ذلك.

الحواشي؛ لتبيان الحقيقة وكشف زيف ما أورده، وقد فعل المراجعون ذلك أيضاً في جملة من المواضع، إلا أننا تركنا كثيراً منها دون تعليق؛ معوِّلين على فطنة القارئ. أمّا أهم الفصول التي يرد فيها خلط للحقائق وإيراد أساطير على أنها حقائق تاريخية فهو الفصل العاشر، الذي يدَّعي فيه أن أمير بخارى كَلَّفَهُ كتابة موجز لسيرة الرسول محمد ﷺ، وهو الأمر الذي يُشَكُّ فيه بداهة، فأن يضطر أمير بخارى، وهي ما عليه من شهرة في العلم والعلماء، إلى اللجوء لمنصِّر نصراني يهودي لكتابة سيرة الرسول ﷺ، مهما بلغ علمه ودرايته، ويترك الثِّقاة من علماء الدين الإسلامي الذين تزخر بهم بخارى، فأمر يدعو؛ ليس إلى الشك فقط، وإنما إلى السخرية كذلك. والأدهى أنه يدَّعي أن القوم هناك فرحوا أيَّما فرح بهذه السيرة، ونسخوها ووزعوها على الأمصار الإسلامية.

ولعل من المناسب، بل من الواجب، ألاَّ أختم هذه المقدمة دون أن أشكر الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة ليدن بهولندا سابقاً، لقيامه بالمراجعة المبدئية للترجمة.

وأُثَنِّي بالشكر والتقدير للأستاذ إبراهيم باجس عبدالمجيد لجهوده في المراجعة والتدقيق والتعليق، كما أنوه بجهد الأستاذ عبدالغفار عبدالعاطي عبدالغني في مراجعة الكتاب لغويّاً.

وأختم بالشكر والعرفان للأستاذ يوسف عبدالله حجاج الذي تولَّى التحرير النهائي للكتاب، وأعاد صياغة كثير من الفقرات على نحو دقيق جداً، وعلَّق على بعضها، كما قام بعمل الكشاف العام للكتاب.

وكما يُرى؛ فإن الترجمة عمل جماعي تضافرت فيه جهود هؤلاء الأساتذة. ولا أنسى تقديم شكري وتقديري لكل من أسهم في هذا العمل، صفّاً وإخراجاً وطباعةً، وغير ذلك مما اقتضاه إخراج هذا الكتاب للقارئ العربي، وأخص بالشكر الأستاذ سعيد محمد غانم لجهوده المتميزة في هذا المضمار.

والله نسأل أن يلهمنا الصواب إنه سميع مجيب.

عنوان الكتاب باللغة الإنجليزية هو:

NARRATIVE OF A MISSION TO BOKHARA IN THE YEARS 1843-1845 TO ASCERTAIN THE FATE OF COLONEL STODDART AND CAPTAIN CONOLY

وكما أسلفت، فقد طُبع الكتاب عدة طبعات باللغة الإنجليزية، وقد وقع اختياري على الطبعة الخامسة منها (التي نشرتها دار وليم بلاكوود وأولاده، أدنبرة، ولندن عام ١٨٤٨م)، لأن الطبعات التي تلتْها تحتوي على تفاصيلَ عن رحلات سابقة بصورة مطولة ليست لها علاقة بهذه الرحلة.

محمد بن عودة المحيميد

إهداء

إلى معالي السير ستراتفورد كاننج، جي سي بي[1]:

السفير البريطاني في القُسطنطينية، الذي أفتخر بأن أعترف له بصداقته الوفية، وحمايته المتميزة، وضيافته اللطيفة. وإلى الكابتن جروفر صديقي الحميم المتحمِّس، رئيس لجنة ستودارت - كونولي، وإلى السادة أعضاء تلك اللجنة. الاحترام والإجلال بالتساوي لإنسانيتهم البريطانية الصادقة، ومواساتهم النصرانية لإخوانهم الواقعين في العذاب والسجن، أهدي الصفحات الآتية.

جوزيف وولف

---

(١) Knight of the Grand Cross، فارس الصليب الكبير (لقب بريطاني). (المترجم).

تمهيد

كلمات قليلة قد تفي لبيان الأسباب التي قادت إلى نشر هذه الرحلة على الرأي العام الآن؛ ففي عام ١٨٤٣م قمت بهذه الرحلة، بناءً على رغبة لجنة ستودارت وكونولي، للتحقق من مصير هذين الضابطين، وأنا واثق بأن الأمر - في النهاية - سَيُظْهِرُ أنني قد حققت ما تعهَّدت به في حينه، ولا أدَّعي أكثر من فضيلة الوفاء بوعدي لهم (أعضاء اللجنة). لقد زوَّدوني بالمال اللازم للقيام بالرحلة، ويجب هنا أن أشكر اللورد أبردين لتأييده المهمة التي كنت أعتزم القيام بها من كل النواحي، والتي كادت تجعل مني مبعوثاً بريطانيّاً.

وكما سيأتي لاحقاً، فإن جهود المبعوث البريطاني في طهران من أجل الحصول على خطاب من الشاه أنقذت حياتي، ومن دون شك، فأنا مدين بسلامتي مرتين للسلطة الصديقة في بلاد فارس.

إن هناك عدداً لا يُحْصَى من الأشخاص في هذه الجَوْلات يستحقُّون الشكر لاهتمامهم بي، غير أنه يجب عليّ الاعتراف، على وجه الخصوص، بلطف الأدميرال إدوارد أوين، والسير باتريك ستيوارت في مالطا، والسيد ستيفنز في طرابزون، وصديقي الكريم، وافر العقل، الكولونيل وليامز، وكذلك الكولونيل شيل في طهران. كما يجب عليّ أن أشكر، على وجه الخصوص، السير ستراتفورد، والسيدة كاننج، لما أسبغاه عليّ من لطف خلال إقامتي في القسطنطينية، ويجب عليّ ألاَّ أغفل - كذلك - ذكر كلٍّ من أصحاب المعالي: الكونت ستورمر وعقيلته، والكونت فون موريم، والسيد تيتوف.

ويجب أن أُعْلِمَ هنا، أصدقاء الضابطين المقتولين: الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، أنهما ذُبِحا بوحشية في بخارى، بعد أن عانيا الآلام من جراء

التضييق عليهما في السجن إلى حدٍّ مخيف. لقد تآكل لحمهما، وانفصل عن العظام، وغَزَتْه الحشرات في عام ١٨٤٣م. أما من تسبب في هذه الأفعال الوحشية الغبية التي مُورِسَتْ عليهما، والعامل الموجب لما أصابهما من تعاسة، فقد كان عبدالصمد خان، نائب نصر الله بهادر، أمير بخارى. ولهذا فإنني أُحمِّل ذلك الصديق المزعوم للشعب الإنجليزي تبعات هذه الوحشية الغبية، وأتمنى أن يجد هذا الإعلان المفتوح من جانبي طريقاً له إلى الصحف الفارسية الصادرة في مملكة السيخ في لاهور، وكذلك في دلهي، وأتمنى أن يصل إلى أمير بخارى، من أجل أن يدرك - وهو العاهل الذي لُوِّثت أذناه بوشايات غبية - أنه قد استُدرج ليتصرف تحت تأثير انطباعات كاذبة وخاطئة فيما يتعلق بالأهداف الحقيقية لدى الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وأن عبدالصمد خان كان عازماً على أن يُلْحِقني بهما في قبريهما الدامِيَيْن. وأنا هنا أخاطب فيه حصافته؛ فسواء تم تَسَلُّمُ خطابٍ وقتها من إنجلترا من إحدى سلطاتنا أم لا، ألا يؤدي ذلك إلى مشاركة هذين الوكيلين الدبلوماسيين مصيرهما؟! أنا رحّال بسيط، وأؤكد أن عبدالصمد خان، النائب، تمنى عليَّ أن أعطيه ثلاثين ألف تيلاه؛ لكي يُجهِزَ على العاهل الذي رفع مكانته لأعلى الدرجات. إن هذه اتهامات مميتة؛ فَدَعُوا ذلك الفارسي يسمع هذه الاتهامات ويحاول أن يدحضها، ويثبت عدم صحتها.

وفي سياق هذا العمل يجب عليّ أن أُقِرّ بامتناني لـ (فون هامر) مرات كثيرة. وقد قدمت في تمهيدي السابق أسماء مختلف الرجال الذين زوّدوني بموادَّ لُملحَقَيْن في الطبعتين الأولى والثانية، وأودُّ أن أكرِّر لهم شكري على لطفهم، رغم أن جهودهم المبذولة في إضافة موضوع جديد لم تُضمَّن في المجلد الحالي لظروف خارجة عن الإرادة.

١٨ أغسطس ١٨٤٦م

الفصل الأول

الدكتور وولف يترك لينثوايت لرعاية أبرشية هويلند العليا. يسمع بسجن صديقه كونولي في بخارى. يكتب لأسرته عارضاً التوجه إلى هناك في عام ١٨٤٢م. يغادر هويلند العليا. يتلقى من جماعته في الأبرشية شهادة تقدير. ينشر رسالة في جريدة مورنينج هيرالد في يوليو ١٨٤٣م، يبيِّن فيها رغبته في الذهاب إلى بخارى. الكابتن جروفر يرد على الرسالة. يسافر مع أسرته إلى بروخز. مراسلات مع الكابتن جروفر. يصل إلى إنجلترا. يقابل لجنة ستودارت وكونولي. يعقد اجتماعاً عاماً. خطاب الدكتور وولف. حديث للرئيس السير جي براينت، مفصلاً الصداقة الحميمة السابقة بين الدكتور وولف والكابتن كونولي. مباشرة العمل في المهمة، ١٤ أكتوبر ١٨٤٣م. الوصول إلى جبل طارق. شخصية الأُسْقُف توملينسون. الدردنيل.

إلى جانب الدخل المتواضع في لينثوايت - حيث كنت راعيَ الأبرشيةِ الدائمَ هناك منذ ديسمبر ١٨٣٨م حتى مارس ١٨٤٠م - كان التهاب اللوزَتَيْن يهاجمني أنا والسيدة جورجيانا[1] باستمرار، بسبب الموقع المكشوف لمكان سُكْنانا. لذا فإنني بعد البقاء في هذا المكان مدة عامين حصلت على وظيفة راعي الأبرشية لهويلند العليا بالقرب من ويكفيلد في عام ١٨٤٠م بتوصية من القسيس الذي كان يعيش على بعد مئتي ميل، وهو رجل يستحق التقدير. وهذه بالتأكيد أسعد أيامي؛ فقد قمت بزيارة الناس الفقراء، وهناك نشأتْ صلات متبادَلَة بيننا، ولكن مصاريفنا تجاوزت مدخولاتنا بصورة كبيرة، ووقعنا تحت طائلة الدَّين مما تَفْرِضه حالتنا، ولذلك كتب أُسقف ريبون، الأبرشيُّ العزيز

(١) هي زوجته كما بينا في المقدمة، لكنه يدعوها السيدة تقديراً واحتراماً. (المترجم).

لدي، إلى أُسْقُفِّ لندن يوصيه أن يدبر لي وظيفة مطران في الخارج، فوعد سيادة أُسْقُف لندن أن يضع ذلك في حسبانه، فغادرت وأنا في غاية الأسف جماعة أبرشيتي في عام ١٨٤٣م، وتسلمت شهادة تقدير واحترام تحمل مشاعر جمهور المصلِّين نحوي، نُقشت على لوحة معدنية. كنا على وشك الاستقرار في بروخز، غير أنه قبل مغادرتي هويلند العليا عرضت نفسي للذهاب إلى بخارى لإنقاذ ستودارت وكونولي، وكان أنْ قدَّمت هذا العرض في عام ١٨٤٢م، وعرضت كذلك خدماتي للذهاب إلى كابل لإنقاذ المساجين هناك، ولكن الأمر لم يبدُ ضرورياً في ذلك الحين، وبعدها ذهبت للسُّكنى في ريتشموند في سري (في إنجلترا)، وفي شهر أغسطس/آب من عام ١٨٤٣م نشرتُ في جريدة مورنينج هيرالد الرسالة الآتية:

اقتراح لتحرير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي إلى جميع الضباط في الجيش البريطاني.

١٣ ريتشموند جرين، ريتشموند، لشهر آب ٢:

أيها السادة، بالرغم من كوني مُنَصِّراً وقَساً، ولست ضابطاً، فلم أمسك قلمي لكي أُثير تعاطفكم مع قَسٍّ أو مُنَصِّرٍ، ولكن مع ضابطين من زملائكم، هما الكابتن كونولي والكولونيل ستودارت، اللَّذان هما في الوقت الراهن أسيران في مدينة بخارى العظيمة. ولكوني قد مكثت في بخارى مدة شهرين، وأعرف طبائع سكانها، فإنني مقتنع تماماً بأن التقرير حول مقتلهما مشكوك فيه، مثلما أشك في المصدر الذي جاء منه ذلك التقرير. ومن أجل ذلك، أيها السادة، فإنني آمل أن يتطوَّع أحدكم لمصاحبتي إلى بخارى، أو لتحمُّل مصاريف الرحلة فقط، وأنا على أتمِّ استعداد للذهاب إلى هناك، وكُلِّي ثقة بأنني سأكون قادراً، بعون الله، على تحريرهما من أسرهما، وذلك بمساعدة أصدقائي التركمان في صحراء خيوه وأحد الدراويش هناك. ولكنني سأقوم بالرحلة دون أن ألزم نفسي بمسؤولية

تجاه الحكومة البريطانية؛ لأنني سأتحمل المسؤولية بكاملها وحدي.

وكل الذي أريده هو تأمين مصاريف الرحلة فحسب، ولا أريد لنفسي مكافأة ولا حتى قطعة واحدة من الفارذنج[1]، حتى لو وُفِّقت في مهمتي.

سوف أمكث في ريتشموند سري عشرة أيام أخرى، ولذلك إذا كان أحدكم، أيها الضباط الشجعان، على استعداد لصاحبتي في القيام بالرحلة، أو مساعدتي على القيام بها، فليتفضل بزيارتي، وسنتحدث حول الأمر بتفاصيل أكثر.

أيها السادة، أنا خادمكم المتواضع.

جوزيف وولف

راعي الأبرشية السابق في هويلند العليا، يوركشاير،

منصِّر في بلاد فارس وبخارى وأفغانستان سابقاً

تسلَّمت في اليوم التالي رسالة من الكابتن جروفر، الذي أخبرني أنه سوف يوفر التمويل اللازم، وأنه سيقوم بزيارتي في اليوم التالي في ريتشموند. ولأنني لا أحب أن تنزعج السيدة جورجيانا بشأن رحلتي المزمعة إلى بخارى، حتى تتم تسوية جميع الأمور بصورة نهائية، فقد عزمت على أن أستَبِق زيارة الكابتن جروفر إذا ما كان ذلك ممكناً. ولذلك، فبعد تناول الإفطار مباشرة، جُبْتُ ريتشموند جرين جيئَةً وذهاباً؛ لكي أعترض طريق الكابتن، وأتفاهم معه قبل أن يرى السيدة جورجيانا. وسرعان ما تبينت شخصاً غريباً يتلفت حوله في قلق، وخمَّنت أن يكون هو الكابتن جروفر. وعند مخاطبته وجدته هو نفسه، فتصافحنا بحرارة قلبية، وأخبرني في الحال أنه يعرض المضي قدماً إلى بخارى على حسابه الخاص، إذ رفض المسؤولون تأمين سلامته التي فكر فيها، وهي عبارة عن خطاب من الحكومة والموافقة على أن يرتدي زِيَّه العسكري.

---

(١) كانت أصغر قطعة نقدية إنجليزية قبل تبديل العملة.

وتمنى أن أمضي عبر أورينبورج[١]؛ حيث إنه لا يتوقع أية مساعدة ودية من الحكومة البريطانية، التي تركت – في رأيه – الضباط لمصيرهم بطريقة غير مسؤولة. بعد ذلك أخبرني أنه سيجعل من ذلك قضية وطنية إذا لم يستطع دفع القضية كي تكون حكومية حسب اعتقاده، وأَعْرَبَ عن عزمه على أن يدعو لعقد لقاء عام وتشكيل لجنة تُعِينُه على التواصل مع الحكومة، وكذلك تعزيز الإجراءات الضرورية لحمايتي.

وعند مفاتحة السيدة جورجيانا في الموضوع أبدتْ معارضة حول مواجهتي للأمر. رحلنا إلى بروخز[٢] في انتظار ما تُسفر عنه جهود الكابتن جروفر، ووجدت المعلومات التي تتصل بهذين الضابطين كما يأتي: كان الكولونيل ستودارت في مهمة مباشرة من الحكومة إلى بخارى؛ أما الكابتن كونولي، فكان مرسلاً من الحكومة الهندية في مهمة إلى خوقند وخيوه، وكان قد تلقى تعليمات إضافية لتعيين الكولونيل ستودارت في بخارى، كما كان لديه تعليمات مشددة بأن للكولونيل ستودارت الحق في طلب خدماته في أي وقت يشاء خلال مهمته السياسية هناك.

بعد ذلك حدثت عدة اتصالات بيني وبين صديقي الكابتن جروفر، وضَّح خلالها تفاصيل الترتيبات التي قام بها لتنفيذ هدفه، كما أصدر كُتَيِّباً صغيراً يبين فيه تفاصيل موجزة قليلة وواضحة حول قضية ستودارت وكونولي في ذلك الوقت، وقد أثار هذا الكتيِّب انتباه الرأي العام للأمر، ثم ظهرت بعده رواية حول موت هذين الضابطين في الصحف، وذلك بناءً على إفادة شخص

---

(١) مدينة روسية تقع على الحدود بين قارتي آسيا وأوروبا في جنوبي جبال الأورال على نهر أورال عند التقائه بنهر ساكمارا. تبعد عن موسكو نحو ١,٥٠٠ كم. كانت قاعدة الروس لغزو آسيا الوسطى وكازاخستان منتصف القرن ١٨.

(٢) هي مدينة في بلجيكا الحالية.

يدعى صالح محمد، الذي أفاد ببساطة أنَّ ذلك ما سمعه، لا ما رآه. وكان على الإفادة تصديق رسمي، هو توقيع القائم بأعمال السفير في طهران، الكولونيل شيل. ولم تكن لهذه الإفادة شِبْهِ الرسمية تأثيرٌ يُذكر. وفي اتصالات الكابتن جروفر معي، وفي ضوء مراجعة تأكيد ما أعتقده حول تلك الإفادة، كتبت إليه الرسالة الآتية، التي أُدْرِجُها هنا لتوضيح المشاعر والحوافز التي أثَّرت فيَّ للقيام بهذه الرحلة.

بروخز، ٢٧ أغسطس ١٨٤٣م

سيدي العزيز، قرأت الإفادات التي أدلى بها محمد صالح[1] في جريدة كلوب نقلاً عن التايمز، وذلك قبل يومين من تلطفك بإرسال التايمز إليَّ، وأعترف بأنني تشكَّكت أكثر من ذي قبل في حقيقة التقرير القاضي بأنهما (الضابطان) قد قُتلا، حيث إنه لو حدث مثل هذا الأمر في مدينة بخارى، التي يقطنها ١٨٠٠٠٠ نسمة، فإنه لن يسمع (محمد صالح) من أحد الأشخاص الذين قاموا بتنفيذ حكم الإعدام بهما فقط، بل سيواجه سخطاً عارماً من آلاف القاطنين في بخارى، غير أنه يبدو من تقرير محمد صالح أن أحد الجَلاَّدَيْنِ هو وحده الذي أطلعه على تاريخ الإعدام. وأقول إنه سيكون هناك سخط عارم؛ لأنني كنت قد أمضيت شهرين في بخارى، وأعرف أن الضيف مُقدَّسٌ هناك، وأن الملالي، الذين يتمتعون بسلطة كاملة في بخارى، سيخلعون الأمير. لقد أخبرني ملالي بخارى بأنفسهم أن أمير المؤمنين (وهذا هو لقبه) لو حامت شكوكه بقوة حول شخص ما، فإنه إما أن يدس له السم سراً، أو يأمر بخنقه بعيداً من بخارى؛ لأنهم لا يقطعون الرؤوس بالسيوف.

---

(١) يورد المؤلف الاسم مرة: صالح محمد، ومرة أخرى: محمد صالح. (المترجم).

وإلى جانب هذه الاعتبارات، اسمح لي بأن أقدم لك هذا الوصف حول رحلتي إلى بخارى في عام ١٨٣١م:

عندما وصلت، للمرة الثانية، إلى طهران، وذلك في يوليو ١٨٣١م، (وقد كنت هناك للمرة الأولى في عام ١٨٢٥م)، قمت بزيارة صديقي القديم خسرو خان أحد وزراء فتح الله شاه، الذي عرّفني به في العام ١٨٢٥م السير هنري ويلُوك والسير جون ماك نيل، فقام (خسرو خان) في الحال بالاتصال بأحد التجّار الفرس، الذي كان عائداً لتوه من هناك، وعندما حضر التاجر دار بيني وبينه حوار في حضور خسرو خان، الذي أفصح لذلك التاجر عن نيتي الذهاب إلى بخارى، عندها استدار التاجر وقال لي:

- «نيم توفاني بيروفي»، أي: إنك لا تستطيع الذهاب.

- وولف: «چرا؟»، أي: لماذا؟

- التاجر: «حالما تصل إلى خُرَاسَان، فإن التركمان - وهم سُنَّةٌ ملعونون، ولذا يغزون خراسان (التي يقطنها شيعة طيبون)، من أجل استعبادهم - سوف يأخذونك رقيقاً، أما إذا نجحت في الوصول إلى سَرْخَسَ أو مَرْوَ، فإن التركمان سيقتلونك في اللحظة التي تصل فيها إلى هناك. وإذا ما قُدِّر لك الوصول إلى قره قول، فإن الحاكم، وهو ابن حرام آخر من السُّنَّة، سيستقبلك بألطف صورة، ثم يعطي أوامره السرية لإغراقك في نهر آمو (اكسوس)[1]، وسيكون الحظ الأسوأ لك هو الوصول سالماً إلى بخارى، لو علمت أن مور كروفت وكوثري وتريبك صاحب، بعد أن دفعوا آلاف الروبيات للأمير بهادر أعطى أوامره السريعة بقتلهم في بخارى».

---

(١) «أكسوس» هي التسمية القديمة لما يعرف الآن بنهر آمو أداريا، وقديماً أطلق العرب على هذا النهر اسم «جيحون».

وعلى أية حال، لقد تابعت مسيرتي دون خوف إلى بخارى. وقد وقعت بالفعل أسير العبودية في خراسان، ولكن ليس على أيدي «السُنَّة الملعونين»؛ أي الخراسانيين التركمان، وإنما على أيدي لصوص محمد إسحاق، خان توريان حيدرية. فأهل خراسان، وهم من طائفة الشيعة، هم الذين استعبدوني أنا وعشرة من رفاقي، كانوا كلهم من الشيعة، وأصبحوا رقيقاً على أيدي إخوانهم في المذهب، وقد كانوا عازمين على بيعنا للتركمان، غير أن حقيقة كوني أحد الرعايا الإنجليز لم يكن السبب الوحيد في تحريري وحدي، ولكنه كان أيضاً سبباً في تحرير الأسرى الشيعة جميعهم، حيث كانت هناك سوقٌ منتظمة لبيع الرقيق تُباع فيها كل عام مئات من الشيعة، من طريق الخان الشيعي المذكور! وقد صرَّح رؤساء التركمان، الموجودون في ذلك الوقت في توريان، بأنني ضيفهم (مِهْمان) الذي سيقطعون آلاف الأميال لبذل أرواحهم في سبيله. وأرسلوا الأناجيل العربية التي أعطيتهم إياها إلى ملاليهم في سَرْخَسَ وخيوه، وأعلنوا أنني البشير الذي ينبئ عن ظهور المهدي والمسيح، كما رغبوا في مباركتي لهم.

بعد وصولي إلى مشهد عاصمة خراسان، أكد لي - مرة أخرى - تجار الشيعة وملاليهم هناك أن مور كروفت وكوثري وتريبك قُتِلُوا عَلَناً، في بخارى. وعندما حللت بين التركمان في صحراء سَرْخَسَ سكنت مع اليهود؛ غير أن أبناء الصحراء البرِّيِّين قدموا لي كل احترام، وحتى الـمُلاَّ الذي حصل على الإنجيل الذي أعطيته للتركماني سعيد نياز عندما كنت في توريان، أتى وطلب مني الفتخة المباركة[1]! فقمت بتثبيت بيانات عامة فوق خيامهم، معلناً لهم المجيء

(١) المقصود بالفتخة المباركة: الخاتم المقدس أو المبارك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، حسب ما يعتقده الشيعة.

الثاني للمسيح في حالة من المجد والجلال، ودعوتهم للتوبة من أعمالهم الشائنة، وحضضتهم على أن يقلعوا - خصيصاً - عن استرقاق الفُرس. مكثت بينهم اثنين وعشرين يوماً، كانوا فيها أبعد ما يكونون عن محاولة قتلي، وكان يأتي إليَّ عدد من التركمان طالبين أن أباركهم، وكنت أمنحهم البركة شرط أن يتخلوا عن مهنة الچابو، أي: استرقاق الناس.

بعد ذلك خرجت مع أحد التركمان من سَرْخَسَ إلى مَرْوَ وبخارى، ولم يُقْدِمْ أحد على محاولة اغتيالي في أي من المدينتين، رغم أنه أمر توقَّعه ذلك التاجر في طهران. وقد قدَّم لي حاكم قره قول، حسب عادة ذلك البلد، خبزاً وملْحاً للأكل، وشاياً مخلوطاً بالملح، إلى جانب لحم حصانٍ، ورأيته بعيداً كل البعد من الميل إلى أن يعطي الأوامر بإغراقي في نهر آمو (أكسوس). وعند وصولي إلى بخارى - وكان هناك يهودي، اسمه إلياس، تعرَّف إليَّ في بغداد - أبدى موقفاً عدائيًا تجاهي، منطلقاً من قناعته أنني أتيت لكي أحوِّلهم عن دينهم، وقد أعلن أمام الملأ أنني جاسوس روسي؛ إلا أن الحضور تعاملوا معي على نحو كريم. وقد دهشت عندما علمت أن (مور كروفت) و(كوثري) و(تريبك) لم يُقتلوا في بخارى. فقد مات مور كروفت بسبب الحُمَّى في أنخوي، التي لم تكن ضمن سيادة مملكة بخارى، أما كوثري وتريبك، فقد ماتا في مزار، التي يحكمها خان، هو أحد المتمردين على ملك بخارى. وقد أخبرني القوش بك (وزير) ملك بخارى أن لديه شكوكاً قوية في أن (خان مزار) قد دَسَّ السم لكوثري وتريبك. والآن ها هنا ملحوظة! فبعد وصولي إلى هناك بأيام قلائل، ذهب ملالي بخارى مجتمعين إلى الأمير، وقالوا: سمو الأمير! لقد أخبر جوزيف وولف، الإنجليزي الذي وصل إلى هنا، وزيركم بصراحة أن الفرس قد أخبروه أننا قتلنا مور كروفت وكوثري وتريبك، وتطابق روايته ما سمعناه من الآخرين. لقد صبغ الشيعة الأنذال مدينة بخارى، التي هي قوة لدين الإسلام، باسم «قاتلة الضيوف» الذين

نَعدُّهم مقدَّسين بالنسبة إلينا؛ ولذلك يجب علينا معاملة جوزيف وولف، وكل رَحَّالة إنجليزي يأتي من بعده، بتقدير عالٍ واحترام، ويجب أن نبذل له المال إن اراد ذلك؛ من أجل ان ينقل صورة حقيقية عن ميولنا تجاه الضيوف، وحرصنا في معاملتهم!.

«وقد أجاب الأمير بالقول: ورأسي! إن جوزيف وولف يجب ان يعامَل معاملة حسنة، وسيقتنع سريعاً بأن القزل باش(1) كاذبون!».

وقد عوملت بالفعل معاملة حسنة، وأنا الآن أحمل جواز سفر، وقد عوملت معاملة حسنة في جميع أرجاء مملكة بخارى، وكذلك حدث للملازم بيرنز، الذي أصبح فيما بعد السير أ. بيرنز.

حقاً؛ لقد سُلِبتُ مرة أخرى بعد ذلك، ولكن ذلك لم يكن في مملكة بخارى، وإنما على مسافة أربعين يوماً منها، في دو آب، بالقرب من بَتّ باميان(2)؛ ولم يكن مَن سلبني من السُّنَّة، ولكنهم الشيعة، الذين كانوا أسوأ بكثير من السنّة. صحيح أن البعثة إلى أفغانستان ربما غيرت في مشاعر القوم تجاه الإنجليز، غير أن ذلك كان سيؤدي، فقط، للاحتجاز والمراقبة المشددة للكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وليس لقتلهم بهذه الصورة البشعة. وإذا ما قاد الأمر إلى هذه الحالة، فلماذا لم يؤكد ذلك تجّار «شيكاربور» في طهران ويهودُ مشهد؟ حيث إن

---

(1) القزل باش (*Kizilbas*) بالعثمانية التركية تعني: ذوي الرؤوس الحمراء، وهم مجموعة من الجنود الشيعة الذين يقال إن أصولهم من إيطاليا، وقد التحقوا بالدولة الصفوية زمن إسماعيل الصفوي وحيدر الصفوي ضمن جنودها، وكانوا يلبسون الطرابيش الحمراء. وهو وصف ساخر، أطلقه عليهم العثمانيون، وكانوا من أشد الموالين لشاهات الصفويين وللإنجليز في أفغانستان والهند.

(2) بت هاي باميان، أو كما تُعرف باسم: بوذا باميان، هما تمثالان أثريان منحوتان على منحدرات وادي باميان في منطقة هزارأستان في وسط أفغانستان. عُدّا ضمن التراث العالمي في منظمة اليونسكو. قامت حركة طالبان بتدمير التمثالين في مارس ٢٠٠١م.

التجار في نُزُل شيكاربور في بخارى لديهم اتصالات مستمرة مع تجار شيكاربور في طهران، ولا بد أن يُشيِعَ تجار شيكاربور الموجودون في بخارى الخبر، في الخارج؛ لشعورهم بالغيرة من الرحَّالة الإنجليز، إذا ما كانت هذه الفعلة قد ارتُكبت فعلاً في بخارى. وقد نسيت، كذلك، أن أضيف أنني بينما كنت أتلقى معاملة حسنة في بخارى، وصلتْ رسائل من يهود مشهد تذكر أنه قد أُشيع حديثاً في مشهد وأصفهان أنني قد قُتلِت بأوامر من الأمير.

والآن، بعد أن بينتُ لكم الأسباب التي تجعلني لا أصدق رواية صالح محمد، فإنني أكرر مرة أخرى استعدادي للمُضيِ قدماً إذا ما تم ترتيب جميع الأمور في الأول من أكتوبر.

لقد تلقيت الرسائل تلوَ الرسائل، وكلها تتضمن تساؤلات تستوضح الأمر، كما لو أنهم كانوا سيمنحونني مِنَّةَ شخصية، بينما كنت أتمنى أن أضطلع بالرحلة؛ ليس لمتعتي الشخصية، ولكن من دافع إحساس إنساني؛ ولكون دوافعي هكذا، فإنني: أظل المخلص لكم.

جوزيف وولف

إنني واثق بأن قُرَّائي لن يحسبوني متحاملاً على رواية صالح محمد، المشار إليها في هذه الرسالة، وأنها مجافية للحقيقة، حيث إنها أثبتت - فيما بعدُ - أنها كانت كذلك، أو أنها كانت غير حاسِمة في تعليل تلك الرواية، وكذلك فيما يتعلق بمصداقيتها، وذلك بوضعها قصة موت الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي على أساس مشابه لتلك القضية التي أمامنا المتعلقة بموت الرَّحَّالة الإنجليز، والتي اتضح أنها لم تحدث مطلقاً. بعد فترة قصيرة تلقيت اتصالات جديدة حول التطورات الإضافية للمهمة نيابة عن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وقد أجبت عنها بالعبارات الآتية:

بروخز في بلجيكا، ٤ سبتمبر ١٨٤٣م

عزيزي الكابتن جروفر، إنني مسرور بمعرفتي أن المشروع المتعلق بالكولونيل ستودارت والكابتن كونولي يسير في الطريق قُدماً من أجل تحقيقه.

ولن تكون المرة الأولى التي أُمكّن فيها من خدمة الآخرين، حتى لو كان الأمر على حساب إرساليتي التنصيرية؛ ففي عام ١٨٣٦م عزمت على التوجه إلى تمبكتو من أبيسينيا[1]، غير أنه عند وصولي إلى أدوا في تيجري (Tigree)، وجدت السيد جوبات (Gobat) المنصِّر مريضاً جداً، وغير قادر على الرجوع إلى أوروبا مع زوجته وطفله، ولذلك تخليت عن خطتي للذهاب إلى تمبكتو، وأخذت السيد جوبات وأسرته إلى جدة بأمان. بعد ذلك وقعت أنا فريسة للمرض، الأمر الذي ألزمني تغيير خططي كلها. وقد شكرت لي لجنة جمعية التنصير الكنسيَّة ذلك العمل.

وفي عام ١٨٢١م، عندما كنت في جزيرة قُبرص، قمت بإنقاذ أرواح أربعة من القساوسة، المحكوم عليهم بالموت، وثلاثة صبيان من اليونانيين، الذين سبق أن أُعدِم آباؤهم، وقد أرسلتهم إلى إنجلترا. وفي العام نفسه قمت بتأسيس دار إرسالية تنصيرية في القدس، عندما كان كل الأصدقاء في الوطن يعتقدون أن ذلك مستحيل.

يمكنك استخدام هذه العبارات في حال ظننت أنها ستكون ذات فائدة، ولكن لك أن تقدمها بصمت إذا ما رأيت ذلك مناسباً.

وبعد أن أُبلغت بأن خمسمئة جنيه إسترليني أو ستمئة قد دُفعت في مصرف السادة درومونذز وشركائهم: ٤٩، تقاطع شارنغ (Charing Cross)، وبأن جوازاً من اللورد أبردين قد صدر، فَحْوَاهُ: القس جوزيف وولف، قس إنجليزي يسافر في وسط آسيا، وينبغي أن يُزَوَّدَ مع الجواز بخطابين، حسبما وعد اللورد أبردين

---

(١) يريد: أثيوبيا أو الحبشة.

نفسه بالوصاية بي لدى مساعي السير إس. كاننج (S. Canning) والكولونيل شيل (Sheil)، الحميدة، من دون تحميل اللورد أبردين أو السفيرين أيَّ مسؤولية، فإنني سأتوجه فوراً من بروخز مع السيدة جورجيانا إلى لندن، لرؤية ابني الذي يتلقى تعليمه في رَجْبي (Rugby) مرة أخرى، غير أنني سأبقى في لندن حتى الأول من أكتوبر؛ لأبحر على سفينة من فولوث إلى مالطا. وربما سيعطيني وزير المستعمرات خطاباً إلى الحاكم في مالطا، وكذلك سيعطيني وزير الحرب خطاباً إلى أدميرال البحر المتوسط.

لقد كانت شخصيتي بوصفي منصَّراً بمنزلة جواز سفر لي في بخارى في عام ١٨٣٢م، وكذلك في أماكن أخرى أكثر خطورة، وأنا واثق بأنها ستبرهن مرة أخرى فائدتها لي ولستودارت وكونولي، بعون الله، في عام ١٨٤٣م.

وبعد أن يتم ترتيب كل الأمور، آمل أن تطلب من الجمعية اليهودية رزمة من الأناجيل العبرية وكتب الطُّقوس الدينية، من أجل اليهود في بخارى. المحب لكم:

جوزيف وولف

آمل أن يدرك قُرَّائي هدفي من إيراد كمٍّ كبير من المراسلات التي سبقت مغادرتي؛ إذ إنني واثق بأنه سيكون لها هذه النتيجة المهمة، أي الإشارة الواضحة بأن طريقي وخطتي كانا جيِّدين، وأنه تم ترتيبهما دون عواطف، وأنه ليس هناك عجلة غير ملائمة في أدائي، أو في أعمال أي من الأطراف المعنية.

استمررتُ في تسلُّم تأكيدات متوالية من الكابتن جروفر عن الثقة التي تتمتع بها جهودي، ومرة أخرى كتبتُ إليه كما يأتي، فيما يتعلق باجتماع عام كان قد عزم على الدعوة إليه وعقده:

بروخز، ٦ سبتمبر ١٨٤٣م:

عزيزي جروفر، أرجو منك أن تُطْلِع بصراحة وشَفَافيةِ السيداتِ والسادةَ في الاجتماع، أنني أعي تماماً الشكوك التي تحيط بحياة الكولونيل ستودارت

والكابتن كونولي؛ هذا إذا كانا حيين. ولكن، في الوقت نفسه، أخبرهم كذلك بأنه ليس هناك ما يوهن عزمي في التأكد من الحقيقة بعيني، وإذا كانا قد تُوفِّيا، (الأمر الذي أثق بأنه غير صحيح، وعندي أسباب للشك)، فإن أهل بخارى وأميرهم سوف يَصْعَقُهم العجب والفزع، عند ملاحظتهم مثل هذا الاهتمام الذي ظهر في إنجلترا بحياة رجال منها؛ وربما أحدث ذلك تأثيراً أخلاقياً ودينياً كبيراً فيهم. فعندما خرجت في عام ١٨٢١م من أجل الوعظ بالإنجيل في القدس، فإن كل أصدقائي - ومن بينهم رجل الدين السيد سيمون نفسه - اعتقدوا أن ذلك مستحيل. وعلى أيٍّ حال، لقد ذهبت إلى هناك، ووعظت بالإنجيل، وبعون الله، كانت رحلتي السبب الأول الذي حث الإنجليز على تشجيع النصرانية بين اليهود؛ ليرسلوا بعثة دائمة إلى هناك، وربما قاد ذهابي إلى بخارى للمرة الثانية إلى نتائج أخرى مشابهة، فدعونا نُري المسلمين أن النصارى يحبون بعضهم بعضاً حباً جَمّاً، وأنهم مستعدون لفداء بعضهم بعضاً بأرواحهم. محبكم:

جوزيف وولف

عند إعادة النظر في محتويات هذا الخطاب، بعد هذه الفترة من الزمن، ما زلت مقتنعاً بأن المبدأ الذي عرضته آنذاك، من أن مهمتي سيكون لها مردود طيب على إنجلترا - وهو ما قد يحدث لي شخصياً - قد تحقق فعلاً؛ ولهذا أشعر بأنني راضٍ كل الرضا بأن هذه المهمة قد أسبغت على إنجلترا منزلة أخلاقية رفيعة بين الشعوب الشرقية (!) وأنها ستدوم، وستثمر نتائج أخرى نافعة تزيد في قوة إنجلترا أكثر كما لو أنها لقيت من العناية ما يحقق لها أكبر قدر ممكن من النجاح. لقد بَرْهَنَتْ، في الأقل، أن الموت لا يخيف الرجل الإنجليزي، وأنه سيطالب الجلادين الذين عذبوا رجال بلده بأكثر التفاصيل دقة عن هذه الشناعات، سواء أكانوا قادةً للجيوش، أم نصارى

بسطاء لا يملكون من الأسلحة سوى كلمة الحق - الإنجيل (؟). ولذلك أحتاج، فقط، إلى أن أُلْمِحَ إلى الحقيقة الإيجابية - التي تَتَكَشَّف، فيما بعد - وهي أن أمير بخارى، ورغم أنه لا توجد قوة تؤازرني أكثر من كوني (درويشاً) بسيطاً، عرض إرسال مبعوث معي لكي يقوم بشرح تصرُّفه لحكومتنا. ومع أنني أكدت له أن مهمتي ليست سياسية، إلا أنه أرسل المبعوث، الذي كان عليه الاتجاه إلى السلطان أولاً[1]؛ لكي يحصل على وَسَاطته لدى إنجلترا. ولكن سيرد المزيد من هذا فيما بعد؛ ولهذا لا أحتاج إلى أن أستعين ببيِّنة إضافية غير تلك، وكذلك فيما يتعلق بنُبْل المهمة المنوطة بلجْنة ستودارت وكونولي.

استُقبلت رسالتي المُؤَرَّخة في السادس من الشهر استقبالاً حسناً، عندما قُرئت على لجنة ستودارت وكونولي، التي تشكلت في السابع من سبتمبر ١٨٤٣م؛ وقد أَبْدَتْ تلك المجموعة من السادة اهتماماً بالغ الحماسة بمهمتي؛ وعُيِّنَ الكابتن جروفر رئيساً لها، وهو ما يعد إجراءً بالغ الأهمية، فقد مكَّنه ذلك من الاتصال بالحكومة، وطلب كافة الاحتياجات الضرورية. كما شجعتني هذه اللجنة أكثر على المُضِيِّ قدماً في خطتي، حيث إنني سأتعامل مع عضو اتصال معترَف به. وقد أعلم الكابتن جروفر اللجنة بأنني جاهز للبدء عندما يتم جمع ٥٠٠ جنيه إسترليني لذلك الهدف، غير أنه كان واثقاً بأنه سيتم جمع ٢٠٠٠ جنيه إسترليني سريعاً. وبناءً على هذه الاتصالات أجبت اللجنة، مبدياً خطة تحركي، وفي المقابل تلقيت خطاباً مُؤَرَّخاً في الخامس عشر من سبتمبر، من الكابتن جروفر، يخبرني فيه بأن اللجنة قد وافقت على الطريق المقترح لسفري، وأنه سوف يستأجر شقة من أجلي في لندن بالقرب من ساحة بورتمان. وحمل الخطابُ كذلك خبراً ذا قيمة عالية، هو قبول بطل

(١) يقصد السلطان العثماني عبدالمجيد. (المترجم).

نافارين (*Navarin*)، السير إي. كودرنجتون (*E. Codrington*)[1]، والرحَّالة المشهور السيد جي. سيلك باكنجهام (*J. Silk Buckingham*)، أعضاءً في اللجنة، وكذلك حُمِلت الإسهامات السخية من كلٍّ من اللورد بيوفيل (*Beauvale*) واللورد ميلبورن (*Melbourne*) للصندوق.

وفي هذه الفترة شرفني الملازم آير (*Ayer*)، وهو معروف جيداً؛ لعمله المميز في كابل، بخطاب بعث به إليَّ تشيع فيه روح التشجيع والثقة يقول فيه:

ميروت، ١١ سبتمبر ١٨٤٣م:

الموقر وسيدي العزيز، لقد فرغت للتَّوِّ من إنعام النظر في خطابكم المؤرَّخ في الثاني من يوليو الماضي، والذي عرضتم فيه، بكل نُبل، التوجه إلى بخارى لغرض إطلاق سراح الضابطَيْن الشجاعَيْن سيئي الحظ: الكولونيل ستودارت والكابتن آرثر كونولي؛ اللَّذَيْنِ كان لي شرف التعرف إليهما بصورة شخصية، كما كان لي مع الأخير علاقات صداقة حميمة وقوية. ولو أسعدني الحظ وكنت حاضراً في إنجلترا عند ظهور خطابكم، لَمَا ترددت لحظة واحدة في قبول الدعوة التي تقدمتَ بها لأي ضابط بريطاني لمرافقتك، وأشعر بأنني متأكد من أنه بإمكاننا التنسيق فيما بيننا لجمع المال الكافي من أجل هذا الغرض، وحتى الآن، إذا لم أكن تأخرت كثيراً، فإنني أعرض نفسي أن أكون مرافقاً لك، وقد فرغت للتَّوِّ من إرسال خطاب لسكرتير لجنة كابل الإغاثية، حاثاً إيَّاهم على وضع قدر كافٍ من المال في الحال تحت تصرفك؛ لاستخدامه في حالة الضرورة، ولن أفقد الأمل في أن تؤخذ مقترحاتي في الحسبان.

---

(١) إدوارد كودرنجتون (١٧٧٠-١٨٥١م): إميرال بحري بريطاني. قاد تحالفاً بحرياً بريطانياً - فرنسياً - روسياً لمجابهة تحالف عثماني - مصري - جزائري بقيادة إبراهيم باشا في معركة نفارين البحرية في ٢٠/١٠/١٨٢٧م، وأسفرت المعركة عن هزيمة التحالف العثماني وتدمير معظم سفنه، ولا سيما سفن الأسطول الجزائري، ومعظم سفن الأسطول المصري.

ورغم أنني لم أتشرف بمعرفتك الشخصية، لكني أعرف بصورة كافية سجاياك، ما يجعلني واثقاً بأنك أكثر الرجال ملائمة للنجاح في الهدف الذي تعرضه في الوقت الحالي. لقد سمعت عنك الكثير عندما كنتُ في الهند، وذلك من صديقيْنا المشتركيْن، دي آركي تود (D'Arcy Tood)، والمسكين آرثر كونولي نفسه. وربما لا يكون اسمي معروفاً تماماً لديكم، بصفتي واحداً من أولئك الضباط البريطانيين الذين وقعوا في يدي أكبر خان، عند الانسحاب من كابل، في يناير ١٨٤٢م، والذين شهدوا، بعد أَسْرٍ دام أكثر من ثمانية أشهر، خلاصاً رائعاً وغير متوقع، عندما كانوا على وشك أن يُقتادوا إلى داخل تركستان مع زوجاتهم وأُسَرهم.

إن الذكرى السعيدة لتحريري تسلِّحُني بكل الثقة اللازمة والتصميم للاشتراك في هذا الجهد، نيابة عن رجال بلدي الأقل حظاً، والذين ربما لا يزالون يعانون بؤس السجن في بخارى، ولكي أقدم أقصى جهد ممكن في سبيل تحريرهم، يجب أن أنظر إلى السعادة البالغة التي ستحل بي عند ذلك. وإذا لم يتقدم شخص أكثر مناسبة مني لمرافقتكم فور تسلمكم رسالتي هذه، فلعلنا نتدبر الأمر للقاء بعضنا في بومباي، أو أي مكان آخر، ومن هناك يمكننا متابعة السفر عبر أيِّ طريق تراه أكثر ملاءمة لك.

لن أقنط من الوصول إلى بخارى بسلام من طريق كابل؛ لأنني أعرف أن كلاً من دوست محمد خان وابنه، محمد أكبر، مهتمان بمصير ستودارت؛ فقد سُجنا معه في السجن نفسه في بخارى، وعقدا معه صداقة حميمة إبان وجودهم معاً في السجن. ولذلك فمن المرجح أن يقدما كل التسهيلات لمثل هذه الرحلة التي تعتزمها، وربما شعرا بالرضا لرؤية شخص سبق أن كان - لوقت قصير جداً - سجيناً معهما، يظهر بينهم بجرأة كبيرة، واثقاً بمشاعرهما الإنسانية. وعلى أية حال، فإن طريق (خيوه)، الذي اقترحته، يبدو أكثر الطرق خُلُوّاً من المخاطر،

وهو الأسهل في الإنجاز بالنسبة إلى شخص يبدأ رحلته مباشرةً من إنجلترا.

وسأخبرك الآن بكل ما استطعت معرفته حول أسيرَيْنا:

آخر نبأ موثوق به موجود في خطابين من آرثر كونولي نفسه، موجَّهين إلى أخيه جون، الذي كان حينذاك رهينة في كابل، في صيف عام ١٨٤٢م، وقد رسم فيهما صورة كئيبة لحالتهما في السجن في بخارى؛ فقد مرّت عليهما أربعة أشهر دون أن يُغيِّرا ملابسهما، وكانت زنزانتهما بالغة القذارة وغيرَ صحية، تَعُجُّ بالحشرات لدرجة جعلت الحياة عبئاً ثقيلاً عليهما، وقد تحول ستودارت إلى هيكل عظمي، وغطّت جسمَه قروحٌ مُتَعَفِّنَةٌ. وقد أقنعا بكل صعوبة أحد الحراس لرفع حالتهما البائسة إلى الملك، وهما الآن ينتظران إجابته، وقد سلّما أمرهما لله، مؤكِّدَيْن تأكيداً كاملاً أنه ما لم يُطْلَقْ سراحهما سريعاً، فلا بد أن يُنهي الموت معاناتهما.

وكان الأفغان دائماً ما يصفون لنا الملك بأنه مجنون ومستبدٌّ لا يعرف الرحمة، يتعرض لنوبات من الجنون على الدوام، ما يجعل مَنْ حوله يرتجف خوفاً على حياته. ربما كانت هذه الصورة مبالَغاً فيها، غير أنها إن كانت حقيقية، فإنها قاضية على أيِّ أمل.

ولا شك في أنك سمعت الرواية المتواترة، عبر الكولونيل شيل، عن رجل فارسي ادّعى أنه رأى - حقيقةً - القبرين اللذين دُفن فيهما ستودارت وكونولي. وعلى أية حال، فإن هذه الرواية قد عارضها يهوديان محترمان غاية الاحترام، أعرفهما معرفة جيدة، وأعتقد أنهما رجلان أمينان ومستقيمان. وقد تسلما خطابات من أصدقاء في بخارى، أشير فيها إلى أن كلا الضابطين ما زال على قيد الحياة، وقد تلقيت معلومات من أماكن أخرى، تفيد بأن القبرين كانا لخادمين أغضبا الملك. وكان هناك اعتقاد عام، وقت إعدامهما، بأنهما كانا ضابطين بريطانيين، وربما كانت هذه الإشاعة هي التي ضلّلت مَنْ أخبر الكولونيل شيل.

١٨ سبتمبر:

بعد كتابة ما سبق، تلقيت رداً على طلبي من لجنة الإغاثة في كابل، التي أبدت أَسَفَها من أن قوانين الصندوق تحْظر عليها تخصيصَ أيِّ مبلغ من المال؛ ليكون تحت تصرفكم؛ غير أنهم عبَّروا عن استعدادهم لمساعدتكم في مهمتكم بأقصى طاقة تُمكنُهم من تحقيق ذلك. ولهذا فإنني آسف أشد الأسف على أنه لا يمكن عمل شيء عن طريق هذا البريد، ولكني سوف أثير الموضوع في الصحف. وقد علمت للتوِّ بأن قواتي قد أُمرتْ بالتحرك إلى أجرا (Agra)، لتكون جزءاً من جيش أُمر بالتجمُّع هناك، وإذا ما تداخلت واجباتي العامة في هذا البلد مع أمنيتي الخاصة التي أبديتها لكم هنا، فأريدكم أن تعتقدوا أنني مهتم أشد الاهتمام بتحرُّكاتكم، وسأبتهج من كل قلبي حين أسمع بنجاحكم في مسعاكم. كان الله معكم، يا سيدي العزيز، وصدقني أنني مخلص لكم أشد الإخلاص.

فنسنت آير

ضابط بسلاح مدفعية الفرسان

من غير الضروري تفصيلُ المقترحات المتعددة والمفيدة التي حواها هذا الخطاب، وقد سُررت لأني وجدت الطريق الذي اقترحته، بدا أنه الأفضل بالنسبة إلى هذا المسافر الجوَّال المجرِّب، ولا أحتاج إلى القول بأن معاناة الضابطين البريطانيين، كما وصفها هذا الخطاب، شدت من عزيمتي وزادت في رغبتي الصادقة في الوصول إليهما. ورغم أن شخصية الخان، التي تعرفت إليها كاملة فيما بعد بنفسي، كانت مرضية لمشاعري، فإنني أعترف بأنني لو كنت أمتلك في تلك اللحظة سجادة سحرية، لاستخدمتها في الحال؛ لنقلي إلى بخارى؛ للتحقق من مصير الضابطين، إذا ما كان ذلك ممكناً وإصلاح ما وقعا فيه من أخطاء.

وبالطبع لم يكن في الإمكان الرد على هذا الخطاب الذي وصل إلى إنجلترا بعد أن بدأت الرحلة، وتسلمته في القُسطنطينية.

لم يكن هذا العرضَ الوحيد الذي تسلمتُه، إلا أنه يشير إلى دلالات التعاطف العميق تجاه المبعوثَيْن البريطانِيَّيْن، فعندما سمع المقدم نابيير (*Napier*) بعرضي، تطوع في الحال لمرافقتي، كما جاء في الخطاب الآتي:

قاعة ميرجستون، هورندين، هانتس، ١٧ أغسطس:

سيدي، رأيت في الصحف العامة أنك مهتم بالسفر إلى بخارى؛ للتحقق من قضية الكولونيل ستودارت، وأنك تأمل أن يصاحبك أحد الرجال العسكريين. لقد كنتُ في الشرق مدَّةً ليست بالقصيرة، وإذا ما كانت مثل هذه البعثة يمكن أن يتم تكليفها من الحكومة البريطانية، وتتولى هي إدارتها، فإنني سأكون في غاية السرور (بشروط معينة) أن أستفيد من مصاحبة رحَّالة مجرِّب مثلكم. وصدقني، سيدي الموقر، أنني سأظل ذلك المخلص لكم.

إي. نابيير، المقدم إتش. بي. يونات

ولكي أتابع خيوط قصتي؛ فإنني أُضمِّن إجابتي عن الخطاب الذي ألمحت إليه سالفاً، والذي تسلَّمته من الكابتن جروفر:

بروخز (Bruges)، ١٨ سبتمبر ١٨٤٣م.

عزيزي الكابتن جروفر:

ألتمس منك أن تخبر أعضاء اللجنة أنني ممتَنٌّ جداً للثقة التي منحوني إياها وأسبغوها عليَّ. وأعتقد أن مالطا ستكون أقصر الطرق؛ ولذلك حاوِلْ إقناعَهم حتى أتمكن من بدء رحلتي على متن أول سفينة بخارية في شهر أكتوبر، ولعل كل شيء يكون معداً في ذلك الوقت. وأنا سعيد جداً بأن اللورد ميلبورن وبطل نافارين مهتمان بهذا الأمر. سيكون في إمكاني أن أدعم المبلغ الذي يصل إلى واحد وأربعين جنيهاً، والذي هو في يد دروموندز، وسيكون الدعم من اللجنة المنفصلة، وبعد جمع مبلغ خمسمئة جنيه، وبعد تدبر أمر الجوازات والخطابات من مكتب الشؤون الخارجية لكلٍّ من السير ستراتفورد كاننج والكولونيل شيل،

سأكون سعيداً جداً لحضور الاجتماع في لندن، وسأبين بالتفصيل أهمية تأكيد حقيقة ما ورد في تقرير محمد صالح، حسبما ورد في الصحف، فقد عارضها منذ ظهورها روايات الحجاج القادمين من بخارى، الذين عبروا القسطنطينية.

وإنه من الغريب جداً ألاّ يذكر شيل، أو أي شخص من طهران، أن التقريرَ لم تؤكده القوافلُ القادمة من بخارى، كما أن يهود مشهد لم يؤكدوه، وقد اعتمدت البيِّنة بتمامها على رواية محمد صالح، كما كتبت لي الآنسة ستودارت مؤخراً بذلك.

لا أود المجيء إلى لندن مع السيدة جورجيانا حتى تتم تسوية جميع الأمور، وذلك بسبب المصاريف التي ستترتب عليَّ في لندن، ولأنه لم يكن لدي مصدرُ رزقٍ قط في إنجلترا، ولكوني أصبحت مؤخراً راعيَ أبرشية في يوركشاير بدخل يعادل ستين جنيهاً سنويا فقط، الأمر الذي أجبرني على ترك المكان من أجل أن أعيش في البلدة الرخيصة الأسعار، وهي بروخز، حيث استأجرت شقة، ولهذا فإنني لا أود الرحيل من هنا، لأنه سيترتب عليَّ تحمُّل مصاريف استئجار شقة أخرى في لندن، إلى أن يحين موعد الانطلاق إلى بخارى، وأعتقد أن مثل هذا الاجتماع سيكون مفيداً للغاية.

إذا وجدنا كلاً من كونولي وستودارت ميتين، فستدرك الشعوب الآسيوية، والمسلمون، من شدة اهتمامي بالراحلَيْن، أن النصارى يحبون بعضهم بعضاً، وأنهم لم يكونوا غير مكترثين بمصائر اثنين من إخوانهم في الدين؛ وسيهتفون، كما هتف الوثنيون في زمن ترتوليان (Tertullian)[1]:- «كيف يحب هؤلاء النصارى بعضهم بعضاً!». وعلاوة على ذلك، فإن هذه المهمة ستجعل أهل

---

(١) كوانتوس سبتيموس ترتوليانوس (١٥٠-٢٣٠م): لاهوتي كاثوليكي، ولد في قرطاجة في أسرة وثنية. كان قوي الحجة، بليغ البيان. يُستشف من بعض آرائه عدم ميله إلى عقيدة التثليث. له مؤلفات متعددة.

بخاري يتوجسون من العواقب، وتمنعهم من تكرار ذلك مرة أخرى؛ وكذلك ما أعرفه أنا، من أن الخانات الأقوياء في خيوه وشهر سبز وخوقند (وخصوصاً خان شهر سبز) هم أعداء لملك بخاري، لذا يمكنني أن أتحقق إلى أي مدى سيكون هؤلاء الخانات مستعدين لتبنّي القضية، ويتحدوا مع إنجلترا في معاقبة خان بخاري، لو كان ارتكب فعلته حقاً. وقد تنتج - إضافة إلى ذلك - نتائج كثيرة مفيدة من هذه الرحلة. ولكنّي أكرر إيماني الراسخ والأكثر ثباتاً، بأنني لا أصدق كلمة واحدة من الرواية التفصيلية التي أدلى بها محمد صالح؛ لأنه لا يوجد شعب في العالم مثل الفُرْسِ، يمكنه أن يكذب في أحلك الظروف وبطريقة خاصة به!!.

١- سآخذ معي قفطانَ قَسٍّ ورِدَاءَ كاهنٍ والبُرْنُسَ الخاصَّ بي، وقبعة كهنوتية.

٢- دزينة أو اثنتين من نسخ الأناجيل والتوراة والوصايا، ومن كتاب الصلاة العامة بالعبرية من أجل يهود بخارى وشهر سبز وخيوه وسمرقند وبلخ وخوقند. وبإمكانكم الحصول على هذه من جمعية لندن لدعم النصرانية بين اليهود.

٣- دزينتين أو ثلاث دزينات من الساعات الفضية لكبير الملالي، وللالي بخارى، ولخانات خيوه وشهر سبز وخوقند. ولن يحصل أمير بخارى على شيء في حال ثبت كونه السبب في وفاتهما.

٤- دزينتين أو ثلاث دزينات من الخرائط بالحروف العربية التي نشرتها جمعية التنصير الكنسيَّة.

٥- ثلاث دزينات من رواية روبنسون كروزو مترجمةً إلى العربية، بترجمة شلاينز (Shlienz) في مالطا. لقد سبق أن وزَّعت أعداداً كثيرة جداً من هذا الكتاب، عندما كنت في صنعاء واللحيَّة في جزيرة العرب، وأؤكّد لكم أنها أثارت مشاعر كثيرين؛ حيث إن المسلمين قرؤوا مغامرات روبنسون كروزو وحكمته[1] في الأسواق

(١) علَّق المؤلف هنا قائلاً: عند قراءتهم الكتاب الذي أعطيتهم إياه صاح العرب هاتفين: «آه، لا بد أن يكون روبنسون كروزو هذا نبياً عظيماً».

في صنعاء والحُديدة واللحيَّة، وأثارت إعجابهم وصدَّقوها! وسأطرح كل هذه الأحوال في الاجتماع الذي سيكون ممتعاً.

كتب إليَّ اللورد فيكونت كاننج (Vicount Canning)[1] أنني إذا ما جئت إلى لندن ورغبت في رؤيته، فإنه سيكون أكثر سعادة باستقبالي، وأعتقد أن من المستحسن اطلاعه هو واللورد أبردين على محتويات رسائلي؛ وذلك من أجل أن يدركا أن لديَّ خطَّةَ كاملة النضج، وأنني لا أعتزم استخدام اسم الحكومة في مهمتي؛ وفي النهاية، وبعد ذلك كله، أنني لا أعتزم الإسراع بإلقاء نفسي في الخطر مثل المتعصِّب الطائش.

لو كنت في لندن، لكان باستطاعتي جمع الكثير عن الأشياء التي لا يمكن القيام بها عن طريق الرسائل، بعضها مع بعض، غير أنني - كما قلت سلفاً - أخشى المصاريف. إن صحتي جيدة جداً، ولهذا السبب لست خائفاً من عدم قدرتي على القيام بالرحلة.

المخلص

جوزيف وولف

ملحوظة:

يجب أن تُرْسَلَ كرَّاسكم، وكافَّة محاضر جلسات اللجنة لسفراء تركية وروسيا وفارس، في لندن، وكذلك لآرتين بك مبعوث محمد عليّ، فبهذه الطريقة، سوف تنتشر الأخبار في بخارى قبل وصولي إلى هناك، وربما ستساعد في التأثير على تحرير ستودارت وكونولي قبل أن أصل إليها. وكذلك أَرْسِلُوها إلى السفير الفرنسيّ.

حول هذا الموضوع أودُّ أن أعرض بعض الملحوظات القليلة، ماعدا تبِّيان المصاعب التي عرَّضني لها فرد من أسرة ستودارت، لكنني لن أقدم له مزيداً

---

(١) نبيل دون الكونت وفوق البارون. (المترجم).

من الاحترام، وإنما أقول: إنه إذا ما تمّ اختيار شخص من أقطار العالم كافة، فإنه يجب عليه أن يقع على ركبتي صديقي، الكابتن جروفر، فيبلّلهما بالدموع امتناناً لما فعل. وهذا الشخص من الطبيعي أن يتوقع المرء أن يكون هو من قام بإهانة الكابتن جروفر وشَتْمه بصورة فَظّة في الاجتماع العام في قاعة إكستر، عقب عودتي إلى إنجلترا! وقد أبدى المجتمع البريطاني في تلك المناسبة مشاعر تدل على نكران الجميل، بذلك الهجوم الكريه على صديق ستودارت، بتعبيرات غير أخلاقيّة من دون شكّ.

غير أنني لن أستَبِق الأحداث، وأثق بأن النقاط المفصَّلة في هذه الرسالة تُبيِّن أنني لست الرجل المهيَّأ بصورة جنونية ومتهوّرة للمخاطرة بحياتي، ولكنها تثبت، كما أتصور، أن خطّتي للمهمّة كانت متكاملة وآمنة، بقدر ما تسمح به الظروف. وبعد تواصل مستمر مع الكابتن جروفر حول انعقاد اللقاء العام، الذي أرغب في أن أعرض فيه أمام الجمهور تجربتي السابقة حول عادات تلك البلدان، وتفاصيل رحلتي إلى بخارى في عام ١٨٣٠م، واستقبالي الغريب في تلك المدينة التاريخية والممتعة، ومرة أخرى في ٢٦ من سبتمبر، حين أعلنت له عن عزمي على المجيء إلى إنجلترا للإعداد للرحلة، وكذلك عن خطتي في السفر بواسطة سفينة النقل المبحرة في ١٥ أكتوبر من العام نفسه من ساوثهامبتون إلى مالطا، وبأنني أنوي ترك بروخز في الأول من أكتوبر لذلك الشأن، وعلى أية حال، فقبل أن أقوم بذلك وجهت إلى الكابتن جروفر الرسالة الآتية:

بروخز، هوتيل دو كوميرس، ٢٨ سبتمبر ١٨٤٣م

إلى الكابتن جروفر: سوف تتسلّم رسالتي المؤرَّخة في الثامن والعشرين، رداً على رسالتك التي تسلّمتها عن طريق أنتفيرب (Antwerp)، وستدرك من خلالها أن خطّتي المقترحة تتوافق، تماماً، مع أمنية اللجنة الموضَّحة في رسالتك المؤرّخة في ٢٥.

سوف آتي إلى إنجلترا عبر أوستند (Ostend)، مساء يوم الاثنين؛ لأننا سنبحر من أوستند في الأول من أكتوبر مساءً. وأتمنى أن تكون السفينة أيبريا (Iberia) تعمل بالبخار؛ لأنني لا أريد خوض أي متاعب في سفينة إبحار شراعية في هذا الفصل من السنة، وفي حال ما إذا كانت سفينة حكومية، فلعل الأدميرالية تمنحني ركوباً مجانياً عليها، وعلى أية حال، فإن هذا استفهام فقط؟ وفيما يتعلّق بالساعات التي ذكرتها، يجب عليك أن تعمل على أن يكون ثمنها من ضمن الخمسمئة جنيه، التي يجب إنفاقها بتمامها على مصاريفي في السفر إلى بخارى ورجوعي منها إلى لندن.

إن أسباب ذهابي إلى بخارى هي:

أولاً: لأداء خدمة دينية، وذلك في محاولة تحرير شخصين رفيقين لنا، ضابطين نبيلين من أهل بلدي بالتبني(١).

ثانياً: لتحرير صديق، بل صديق حميم لي، يتمثّل في شخص كونولي.

ثالثاً: لأكون نافعاً لإنجلترا.

رابعاً: للوفاء بوعد قطعته لرئيس وزراء بخارى، بأنني سأزيل التحامل لدى الأوروبيين، الذي تسبّب فيه افتراء الفرس، بأن أهل بخارى هم «قتلة الضيوف».

خامساً: لنبيِّن للآسيويين إلى أيّ مدًى يكون تقدير الإنجليزي والنصراني لحياة إنسان مثله في الإنسانية، وذلك بتعريض نفسي لمتاعب ومخاطر رحلة من نهر التايمز إلى نهر أكسوس؛ وبذلك نُرسّخ الاحترام لاسم الرجل الإنجليزي في عقول الأوزبك وأميرهم.

سادساً: وأخيراً، لأكون عاملاً مساعداً في تخفيف دموع أسرة كونولي.

---

(١) يقصد أنه اتّخذ إنجلترا موطناً بعد أن هاجر من ألمانيا، كما هو موضّح في المقدمة. (المترجم).

واتمنى، صديقي العزيز، ألاّ يكون هناك ما يخيّب الأمل؛ لأن ذلك سيكون مزعجاً إذا ما قُدِّر لي أن آتي إلى إنجلترا، ثُمّ يتمّ التخلّي عن الخطّة. وإن كانت هناك خيبة واحدة يمكن أن أتلقاها بسعادة، فهي أن تصل إليكم تقارير تفيد بأن ستودارت وكونولي قد وصلا إلى طهران، فهذه ستكون بالتأكيد خيبةَ أمل مُرضيةً لي.

أرجو منك أن تعبّر للّجنة عن شعوري القلبيّ بالامتنان للثقة التي أولتني إيّاها. كما أرجو منك أن تقنع السير إدوارد كودرنجتون - الذي كان لي شرف التعرف إليه عندما كنت في مالطا - بقبول احترامي المتواضع له، وتحياتي الطيبة لإخوان المرثيّ له السير ألكسندر بيرنز.

المخلص لك: جوزيف وولف

وصلت إلى إنجلترا في الأول من أكتوبر ١٨٤٣م. وفي اليوم التالي لوصولي إلى لندن أجريت مقابلة مع أعضاء اللجنة، وعندها أعطاني الكابتن جروفر، حسب وعده، شيكاً، لتحصيله من صيارفته، بمبلغ خمسمئة جنيه. وشرحت لأعضاء اللجنة الأسباب التي تمنعني من تصديق إفادة صالح محمد، التي صدَّقَتْها الحكومة، وقدّمتُ شرحاً مفصلاً للخطة التي أنوي اتّباعها خلال رحلتي وإقامتي في بخارى، ووعدت بالذهاب مباشرة إلى هناك، وألاّ أحيد، بأيِّ حال من الأحوال، عن الطريق المرسوم. وتم الاتفاق بيننا على إنهاء ارتباطي مع اللجنة فور تأكدي من مقتل ستودارت وكونولي، أو تمكّني من إيصالهما سالميْن إلى طهران، وبعدها أكون حرّاً للسفر حيثما أرغب.

وأبدى أعضاء اللجنة قلقاً بالغاً حول سلامتي الشخصية، وقام الكابتن جروفر بعمل كلِّ ما في وسعه لتبيان المخاطر والمصاعب الجَمَّة التي كنت على وشك تعريض نفسي لها؛ وكذلك ما يتعلّق بالشكوك حول مقدرتي على إزالة الغموض، إذا ما قُدِّرَ لي الوصول إلى بخارى.

لقد قدَّمت لأعضاء اللجنة تقريراً موجزاً عن رحلاتي السابقة إلى بخارى، والمعاملة اللطيفة التي عاملني بها أميرها، وعن تعرُّفي إلى الكثير من أهمِّ شخصيَّات تلك المدينة المشهورة بالقداسة والعلم. ولا أشكُّ في أن شخصيَّتي الدينية - كوني مُلاًّ[1] أيضاً - سوف تفرض الاحترام؛ وأنا واثق بأن المقصد الخيريَّ لرحلتي سوف يضمن لي الإحسان من الجميع، وستمكِّنني معرفتي بالعبريَّة من التواصل سرّاً مع اليهود، ومعرفتي بالفارسية والعربية ستمكنني كذلك من الاتصال مع الأطراف الأخرى. وقد أشار الكابتن جروفر إلى أن كلَّ الوسائل سوف تُستغلُّ هناك لإقناعي بأن الضابطين قد قُتلا؛ وقد أجبت عن ذلك بأنْ لا شيء يقنعني سوى رؤية رُفاتهما، التي سوف أُحضرها إلى اللجنة.

وقد عبَّرت عن أمنيتي بأن يُعْقَدَ اجتماعٌ عامٌّ، لعدة أسباب:

أولاً: لكي تكون أهداف المهمَّة مفهومة؛ مما يفيدني في أنها سوف تكون معروفة في أي مكان قبل وصولي إليه.

وثانياً: لتحقيق فكرة قيام المجتمع البريطاني بتعويض الكابتن جروفر ماديّاً.

وثالثاً: لكي يغتنم أيُّ شخص من أسرة ستودارت أو كونولي، أو من غيرهم، الفرصة للتعبير عن تعاطفهم مع مهمَّتي، وذلك بدعمها بكافَّة السبل التي يقدرون عليها.

عُقِدَ لقاءٌ، في الحال، في غرف ساحة هانوفر، ترأَّسه الجنرال السير جيرامايا براينت، قائد نظام الإمبراطورية البريطانية، وقام صديقي الكابتن جروفر بتقديم شرح مفصَّل للظروف الاستثنائية التي أصبحت مألوفة لنا،

---

(١) يستخدم لفظة (مُلاًّ) التي أخذها من الشرق؛ للتعبير عن المتديِّن أو العالم بأمور الدين. (المترجم).

ومنها بالتأكيد، وَضَعْنا جنباً إلى جنب، كضابط بريطاني وقسّ بروتستانتي، كلاهما يشغله بإخلاص وخشوع غرض عامّ من الإحسان - ألمح إليه ببلاغة - وهو الأمر الذي كان استثنائياً وحده بصورة واضحة. وقد أشرت في هذا الاجتماع إلى أنه في مهمّتي الأولى إلى بخارى، في عام ١٨٣٢م، سَرَت هناك شائعة بأن الرحَّالَيْن مور كروفت وتريبك قد ذبحهما خان بخارى بوحشية، وقد ثبت أن ذلك غير صحيح تماماً. وأشرت كذلك إلى استقبالي من القوش بك، أو «آذن الملك» الذي أعلمته بأن غرض زيارتي إلى بخارى وبلخ؛ هو التحدث إلى قومي من اليهود حول المسيح، وإذا كان ممكناً كذلك، التحرِّي عن قبائلهم في الشتات.

ووضحت أنني، بعد ثمانية عشر عاماً أمضيتها في العمل التنصيريّ، أرى أن لبخارى وسمرقند المكانة نفسها أينما كان موقعهما، وهو ما يتفق مع تصوُّر حاخام يهودي مشهور في القدس، ويؤيِّد تصوُّري ذلك ما نراه في القطعة القيّمة من سِفْرِ أخبار الأيام الأُول، الإصحاح الخامس، الفُقرة «٢٦»[١]. وبينت في الاجتماع أنني تعرضت للسلب والضرب والاستعباد من قِبل التركمان، إلا أنني استعدت حرِّيَّتي بسبب ذلك الاحترام الجمِّ الذي يتمتَّع به الدراويش (المتدينون). وقد أظهرت لهم مشاعري عند دخول بوَّابات بخارى: قوة إسلام الدين، مدينة أفراسياب[٢]، الخابور المفترض في الكتاب المقدَّس، منافسة سمرقند والبديلة لها، ومكان إقامة بهادر خان، والمَوْئِل المشهور للكنوز الكثيرة،

---

(١) يشير بذلك إلى ملك آشور الذي سَبَى قوماً من بني إسرائيل، وأتى بهم إلى حلح وخابور وهارا ونهر جوزان إلى هذا اليوم، وفي زعمه أن هذه الأوصاف تنطبق على بخارى وسمرقند. (المترجم)

(٢) أفراسياب: اسم الملك الأسطوري وبطل الطوران، والعدو اللدود لفارس. وسوف تَرِدُ عنه بعض التفاصيل لاحقاً. (المترجم).

التي وردت في قصائد حافظ، والملجأ الآمن للنوجاي (*Nogais*) واليهود والقرغيز، والتي تعرضت لمعاملة قاسية من قبل جنكيز خان حين وقعت تحت السيطرة الهندوكية، وكذلك فعل تيمور لنك من بعده[1]. وقد دخلتها وبيدي نسخة من الإنجيل فوق حصان أرسله إليَّ «آذن الملك».

وأوضحت في الاجتماع ما أعرفه عن اليهود، وعن جهلهم بديانتهم، وأن الملالي كانوا ساخطين جداً على الشائعة التي سرت حول موت موركروفت وتريبك، وعدم تصديقي مطلقاً إفادة صالح محمد، وثقتي التامَّة بأنني يجب أن أعود بسلام.

وقد قام الرئيس، السير جيرامايا براينت، بسرد عدد من النقاط التي لها علاقة بالكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وخاض في الحديث عن فضائل أسرة كونولي بمشاعر فيَّاضة، فأوضح أن أحد إخوته مات سجيناً لدى الأفغان، والآخر أصيب برصاصة اخترقت قلبه، عندما كان يعمل معاوناً للجنرال السير آر. سايل؛ أما الثالث، (وهو آرثر كونولي)، فقد كان موضع اهتمامهم الحاليِّ، وقد كانت مذكرات الكابتن كونولي معروضة أمام الجمهور.

وذكر السير جيرامايا أنه شاهد بنفسه وولف وكونولي مع بعضهما في عام ١٨٣٢م في كاونبور، حيث كان الدكتور وولف طرفاً في جدل ديني مع بعض الفقهاء المسلمين. واختتم السير جيرامايا حديثه معرباً عن قناعته بأنني لائق بصورة جيدة لهذه المهمة، وذلك من خلال تجربتي السابقة ومعرفتي العامَّة بالبلدان الآسيويَّة، وصلتي الشخصية القوية بالكابتن كونولي.

وَصَوَّتَ المجتمعون بأكملهم وهم وقوف بتقديم الشكر لصديقي الكابتن

(١) لم تكن بخارى تحت سيطرة هندوكية، كما أن تيمورلنك - فيما نظن - لم يمسها بسوء لأنه من المنطقة نفسها، والدمار الذي أوقعه كان خارج وسط آسيا.

جروفر، لإخلاصه وشهامته وروحه العالية تجاه القضية. وبالمقابل رد الكابتن جروفر قائلاً: إن العرض للدخول في المهمَّة، الذي قام به شخصياً، ليس إلا صدى للعواطف العامَّة للجيش البريطاني، وقد تطوَّع عدد لا يحصى من الضبَّاط للقيام بهذه المهمّة، والكثير منهم عرضوا مرافقة الدكتور وولف، وقد كان بإمكانه أن يسمِّي من بينهم الكولونيل إي. نابيير، شريطة أن يُسْمَحَ لهم أن يذهبوا بصفتهم ضباطاً بريطانيين.

وأما ما يتعلق بموقف الحكومة الذي اتخذته في هذا الأمر تجاهي، فإن الخطاب الآتي – وهو ردٌّ على خطاب من الكابتن جروفر، وصل إليه من الأستاذ أدينجتون – سيكون برهاناً كافياً وافياً على موقف الحكومة:

سيدي، لقد تم توجيهي لإشعارك بتسلُّم خطابك، بخصوص اقتراح مقدَّم من الدكتور وولف للتوجه إلى بخارى؛ وذلك بقصد تأكيد الحقائق بالملاحظة الشخصية، فيما يتعلق بالكولونيل ستودارت والكابتن كونولي. وأوضِّح لك – إجابة على خطابك – بأن اللورد أبردين يأسف أشد الأسف؛ لأنه لا يستطيع مشاركتك الشكوك التي عبَّرت عنها بخصوص صحة البيان المرسل إلى الوطن من القائم بأعمال سفارة صاحبة الجلالة في طهران. ولأن رواية محمد صالح واضحة جداً ومتسقة بأكملها، كما يعضد صحة بعض أجزائها بيِّنة أخرى؛ فإن اللورد أبردين لا يسوِّغ لنفسه تشجيع أيِّ شخص ليضطلع بمهمة إلى بخارى بُغية تأكيد حقيقة لا يرى اللورد أبردين نفسه سبباً في أن يشوبها الشكّ، إذ ربما تعود هذه المهمة على البعثة والشخص المرسل بنتائج كئيبة كتلك النتائج التي يأسف لها اللورد أبردين بشدَّة، مشاركاً فيها أُسَرَ الضابطيْن المفقوديْن. علاوة على ذلك، فإن التعليمات التي وجَّهها سيادة اللورد إلى المقدّم شيل، بعد أيام من تلقِّي نبأ وفاة الضابطيْن، وتلك التي

وُجِّهت؛ استجابة لطلبك، للمقدم شيل نفسه، في الرابع من أبريل والتاسع والعشرين من مايو، مرسلين له في المناسبة الأخيرة توضيحاً للتقرير الوارد من الهند، وبالإضافة إلى هذه التعليمات أُرسل إليه بيانٌ بالنتيجة نفسها؛ حيث تم ذلك بتوجيه من حاكم الهند العامّ في الخامس والعشرين من مارس، فإن ذلك كله سوف يكون سبباً يدعوه إلى إيقاف أيِّ محاولة لإجراء تقصّيات إضافية يقوم بها في سفره، مما يمكن أن تمنحه إياه الفرصة للمضيِّ نحو تبديد القلق الذي تشعر به أسر المفقودين.

وعلى أية حال، فإذا كان الأستاذ وولف لا يزال مُصِراً على المضيِّ قدماً في مهمَّته المقترحة، فإن اللورد أبردين، بالطبع، سيوصيه بالاستفادة من الجهود الحميدة التي بذلها الكولونيل شيل، غير أن سيادة اللورد لن يجد لنفسه مسوِّغاً في تحمل أية مسؤولية، لها علاقة بهذه المهمَّة، من جانب حكومة جلالة الملكة. سيدي، خادمك المطيع.

(التوقيع) إتش. يو. ادينجتون

لقد استعجلت الأمور بكل سرعة ممكنة، ووصلت إلى ساوثهامبتون للإبحار في الرابع عشر من أكتوبر. وفي أثناء وجودي هناك، تقدّمت المؤلِّفة المشهورة لكتاب «*الواحد الذي لا يموت*» السيدة المحترمة نورتون، لمصافحتي، ولتتمنى لي التوفيق في رحلتي، وكنت ممتناً للغاية لاهتمام هذه السيدة، وأنا واثق بأنني سوف أكسب الكثير من الاحترام في سبيل الوصول إلى الحقيقة، عن طريق تلك الظروف الاستثنائية، التي رضي الله بها ليقدر ما قُسم لي.

كما زارني أيضاً على ظهر السفينة الشاب النبيل، ذو الأصل الرفيع والأسرة الكريمة، المحترم فريدريك والبول، الذي كان غاية في اللطف؛ معبراً عن أمنيته في مرافقتي، إذا سمحت له الظروف، فشكرت الله إذ لم يحقق له

تلك الأمنية، فلم أكن أتمنَّى أن أرى أيَّ شابٍّ يدخل بخارى، وإن كان لا بد من ذلك في الوقت الراهن؛ فأن تتجلى له مشاهد تعكس الوصايا المرعبة في الكتاب الثالث من التوراة (*Leviticus*) ضِدّ الشعوب الكنعانية، فهي بالتأكيد حدثت في تلك المدينة الشرِّيرة.

أبحرنا على الباخرة إيبريا، في الرابع عشر من أكتوبر ١٨٤٣م متَّجهين إلى جبل طارق. وكان عدد رفاقي في السفر ثلاثة وعشرين، ومن بين هؤلاء المسافرين تعرفت إلى الليدي أوجستا باجيت وابنتها، وقد تحادثَتْ معي في اليوم الأول بشكل مسهب، غير أنه في اليوم الثاني بدأت نُذر شرور تلك الرحلة البحرية المشؤومة تلوح؛ ما حدا بتلك السيدة إلى لزوم مقصورتها.

وقد كان الدكتور جيلكرست - مدير الهيئة الطبية في جبل طارق، وهو من معارفي القدماء - موجوداً على ظهر السفينة، وكذلك كبير مهندسي السلطان، السيد هايغ، وزوجته، وكلاهما من أتباع الويسليانية، وهما من بيزانس في كورنوول، وقد أكَّدا لي بقوَّة أنه لا بد من أن ألتقي بعض الناس الطيِّبين الآخرين على ظهر السفينة.

ويجب ألاَّ أغفل كذلك أن من بين رفاقي الآخرين السيد ريتشاردسن وزوجته، فهذا الرجل النبيل من أفضل الناس الذين يتحلون بالطيبة الفطرية في شخصياتهم، وكان متوجِّهاً إلى القسطنطينية؛ للإشراف على بناية القصر الإنجليزي.

لقد مكَّنتني عاداتي السابقة من تحمُّل مشاق الرحلة أكثر من أيِّ شخص آخر من رفاق السفر، فكنت أتمشَّى فوق ظهر السفينة من دون قبَّعة، كما كنت أصب فوق جسدي من ماء البحر كل صباح، وكنت أنام فوق كنبة في غرفة الطعام، ونادراً ما أنام في مقصورتي. كنَّا نسير تسعة أميال في الساعة، وقد

وصلنا إلى شواطئ يوشانت في الخامس عشر (من الشهر). وفي هذه الفترة كتبت لزوجتي العزيزة وابني، طالباً منهما الدعاء لي، وأنني، بمشيئة الله، واثق بأنه لا بدَّ أن يَلْتَمَّ شملنا عاجلاً، وأن نعيش بسعادة معاً في رعاية الله، وأنه إذا لم يكافئني العالم والكنيسة - وكلاهما أهمل من هو أكثر منِّي استحقاقاً - فاجعلا عقليكما مركَّزَيْن على المسيح؛ ذلك المسيح الذي، بعد كل ما فعله في تسعة عشر قرناً، لا يزال مُنْتَظَراً، وحيث لا يزال الوثنيون لا يسلِّمون له بميراثه، ومعظم أرجاء الأرض خارج ملكوته.

وكما بيَّنت، كنا قد غادرنا يوشانت في الخامس عشر (من الشهر)، وفي يوم الأحد، السادس عشر منه، كان رفاقي المساكين يعانون من شدة المرض في أثناء السفر، بحيث لم يستطيعوا قبول أدائي لصلاة القدَّاس، ولم تصلح الأمور عندما عَبَرْنا خليج بسكاي. وفي يوم الاثنين، السابع عشر من الشهر، ألقيت محاضرة على ركَّاب السفينة، وعند الساعة السادسة بعد الظهر عبرنا رأس فينستير. وفي يوم الثلاثاء، الثامن عشر من الشهر، ألقيت محاضرة أخرى، وفي هذه الأثناء كنا نرى رأس سانت فينسنت، وفي التاسع عشر من الشهر، عندما كنا خارج قادس، واصلت إلقاء محاضراتي.

وفي الصباح الباكر من اليوم العشرين من الشهر، دخلنا جبل طارق، وذهبت في الحال إلى الساحل، وتناولت الإفطار مع الدكتور جيلكرست، وبعد ذلك قمت بزيارة صديقي القديم الدكتور بورو، رئيس قساوسة جبل طارق، وعند إعلامه باسمي، من قِبَلِ رئيس شمامسته، خرج وقادني إلى قاعة الاستقبال الخاصَّة به، ثم قَدَّمني إلى ابنتيه، وإلى القس الموقَّر بوكانن الواعظ بالقوات البريطانية؛ والتقيت كذلك بالسيد ليفي، المنصِّر ليهود جبل طارق. وقد أبدى رئيس القساوسة الموقَّر اهتماماً بالغاً بمغامرتي الحالية، وقدَّمني مباشرة إلى معالي الحاكم، السير روبرت ويلسون؛ الذي كان لمبادرته النبيلة

أكبر الأثر في تحرير السيدة لافاليت من السجن والموت؛ تلكم السيدة الحنون الجميلة التي كنت أشعر نحوها دائماً بكثير من الاهتمام، ما جعل لقائي به ودياً للغاية؛ وما جعلني أتمنى لو أن الظروف كانت قد سمحت للسير روبرت بمرافقتي إلى بخارى.

لو تم سرد حيوات بعض الرجال من جديد، فكم ستبدو تلك الحيوات أكثر روعة من الخيال!

لقد استقبلني الحاكم وابنته بطريقة وديَّة، وعبَّرا عن تعاطفهما العميق معي في مهمتي الحالية، وقُدِّمت كذلك للميجور ويلبراهام، السكرتير الذي كان في بلاد فارس، ويَعْرِفُ الكولونيل ستودارت. وقد كان الميجور ويلبراهام يميل إلى تصديق تقرير صالح محمد؛ إلا أنه أقر بأن من الأفضل أن يتم التأكد من هذا الموضوع.

لقد ترك أُسْقُفُّ جبل طارق تلك القلعة قبل أسابيع قليلة، وعاد إلى مالطا، ولم يكن بمقدور الكنيسة في إنجلترا إرسال رجل إلى منطقة البحر المتوسط أفضل من الدكتور توملينسون؛ فهو يمتلك في شخصيته كل المقوِّمات الخاصَّة بقس يعمل في بلدان الجزر الواقعة في الجزء الشرقي من البحر المتوسط. والدكتور توملينسون لا يمكث في مكان واحد، فهو يقوم برحلات قصيرة للتسلية؛ فقد يُشاهَد مرة في أثينا، يقدم قداساً في كنيسة هناك، ومرة أخرى في القسطنطينية، وبعد ذلك في أوبورتو، ثم سرعان ما يعود إلى جبل طارق. ولا بدّ أن يكون القس الإنجليزي الذي يعمل في هذه الجزر على معرفة تامَّة بتقاليدها، وأن يكون متقناً للغتين الفرنسية والإيطالية، وأن يعرف كذلك شيئاً من الأدب العربي، والدكتور توملينسون يتقن كل هذه اللغات، ومع هذه السجايا كلها يتمتع بأكثرها جوهريَّةً، ألا وهي التقوى.

من حسن الطالع أن يُجري كبير الأساقفة في لندن، قُبَيْلَ اقتراحه إرسال أسقف إلى البحر المتوسط، محادثةً مع القسّ سي. شلينز، المنصِّر في جمعية التنصير الكنسية. وبسبب كون شلينز على معرفة جيِّدة باللغات الشرقية، وكذلك عادات الشرق وأعرافه، فإنه كان قادراً على اقتراح شروط، يبدو أن أساقفة إنجلترا قد تصرَّفوا في ضوئها عند إرسال الأُسقف الرائع الدكتور توملينسون إلى مالطا، وسيكون من باب النُّصح الرشيد لو تم إرسال الدكتور توملينسون إلى بلاد الكلدانيين من أجل التحقق من الحالة الراهنة للنسطوريين، وتوفير العون لهم؛ وإذا لم يكن لدى الدكتور توملينسون وقت، فيكون من المستحسن إرسال القس جورج وليامز إلى هناك؛ لإتقانه اللغة الكلدانية التي عانى من أجل تَعَلُّمِها، كما أنه سافر إلى فلسطين، وهو أيضاً زميل في كليَّة الملك بكمبردج.

غادرنا جبل طارق في مساء اليوم نفسه الذي وصلنا إليه فيه؛ وقد تمنَّى رئيس القساوسة الرائع الدكتور بورو أن أمكث معه شهراً أو شهرين، وقال: إن آراءه لم تتوافق مع آراء شخص، كما توافقت مع آرائي. وفي الحادي والعشرين من أكتوبر واصلت إلقاء محاضراتي على المسافرين؛ وفي يوم الأحد، الثاني والعشرين من الشهر، قمت بالوعظ وقراءة صلاة عامَّة، وفي يوم الاثنين، الثالث والعشرين، قدَّمتُ محاضرة أخرى، وفي يوم الثلاثاء، الرابع والعشرين، كنا قرب سواحل تونس. وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين أبحرنا عكس اتجاه الريح، وعبرنا في الصباح الباكر جزيرة زيمرا؛ وكان أمامنا جزيرة تدعى بانتليريا في خليج نابولي المكتظ بالسكان. وجرى حوار بيني وبين عدد من المسافرين حول ضرورة الإيمان والطاعة، وحول الحكم الشخصي للمسيح، وإعادة اليهود.

وفي العاشرة صباحاً من اليوم السادس والعشرين من أكتوبر، وصلنا إلى مالطا، وعند دخولنا المرفأ صعد خادم للسيِّد هنتر على ظهر السفينة لاصطحاب أبوت، وهو صبيٌّ من أزمير، كان مسافراً على متن السفينة إيبيريا من لندن، في طريقه إلى أزمير. ولأنه ابن تاجر من أزمير، كان يدير محجراً صحيّاً في مالطا، فقد كلف والده السيد هنتر الاعتناء بابنه. ولذلك أردت أن أرافق الخادم، قبل كل شيء للقاء السيد هنتر، إذ كنت أحمل رسالة لذلك الرجل النبيل من بيت بارنج؛ ولكن القوارب كانت مزدحمة بالقرب من السفينة إيبيريا، بحيث إن أحد رجال القوارب النشيطين أمسك بإحدى قدميَّ، وسحبني في قارب غير ذلك الذي انطلق وهو يحمل أبوت. وما كدت أصل إلى الشاطئ حتى صاح عدد من المالطيين: كيف حالك ياسيدي، كيف حال السيدة جورجيانا؟ مما كان له أثر بالغ في نفسي.

بعد ذلك أسرعت إلى الحاكم. وكان أول شخص التقيته هو الخادم العجوز للسير فريدريك بونسونبي، وقد أوصل بطاقتي إلى الكابتن تدي، معاون الحاكم، الذي حضر ورحب بي قائلاً: «أوه، دكتور وولف، لقد كان وصولك متوقَّعاً؛ لقد كنتُ رفيق الكابتن كونولي في الاستيلاء على... (نسيت اسم المكان)». صافحني كلٌّ من الجنرال ستودارت والليدي ستودارت بحرارة، ودعياني للغداء معهما عند الساعة السابعة مساءً. ولأن قبطان إيبيريا كان عازماً على المكوث حتى منتصف الليل، فقد كان في وسعي قبول الدعوة، وكنت أظن الأمر في البداية غير ممكن؛ ووعدني معاليه بتقديم ما في وسعه من مساعدة. وعند خروجي مرة أخرى من غرفة الجنرال سألني الخادم إن كنت رأيت الليدي إملي بونسونبي؟ فأخبرته كل ما أعرفه عن سيادتها، وأن وجهها دائماً ما يشرق عندما كنت أذكر لها اسم مالطا ونحن في إنجلترا.

بعد ذلك أرسل الجنرال معي مرافقاً إلى الأدميرال السير إدوارد أوين، وهو شيخ جليل نبيل. وكان معاونه، الآمر بدفورد، قد تعرَّف إليَّ في وقت سابق، وكان في غاية السعادة لرؤيتي؛ ولتعريفي بذلك الأدميرال الطيب، وطلب مني تناول الإفطار معه. وكان السير إدوارد قد تلقى خطاباً بخصوصي من الأدميرالية، عن طريق مرسيليا، وتأسف لأنه لم يحتجز (السفينة) أوريستس، التي أبحرت قبل يومين من وصولي متجهة إلى القسطنطينية؛ غير أنه أخبرني بأنني سأصل في (السفينة) إيبيريا بأسرع مما لو أبحرت في أوريستس، لأن الأخيرة ستضطر للتوقف عدة أيام عند مدينة كورفو. وأعطاني خطابات لكل من الأدميرال ووكر (ياور باشا) في القسطنطينية، وقبطان (السفينة) ديفاستيشن في القسطنطينية أيضاً، والكابتن ستيرلنج، قبطان (السفينة) إندوس، والسير إدموند ليونز في أثينا. ثم وضع عربته تحت تصرفي.

عقب ذلك ذهبت إلى الدكتور توملينسون، وكان الشخص الذي فتح لي الباب كارلو، خادم السيد شلينز، وهو الآن في خدمة أسقف جبل طارق. ثم استقبلني سيادة اللورد (!) بلطف بالغ، وأخبرتني أخته أنها تعرف الليدي جورجيانا والليدي ماريا وست، وسألتْ عنهما بكل لطف.

بعد ذلك خاض سيادة اللورد، بكل صراحة، معي في الحديث عن مهمتي إلى بخارى. وأعطاني سيادته خطابات للقس الإنجليزي في أثينا، وللدكتور بينيت، والدكتور ساوثجيت في القسطنطينية؛ وخطاب إطراء من سيادته لكل الأساقفة والقساوسة في الشرق، أثبته هنا:

مالطا، ٢٦ أكتوبر ١٨٤٣م

سيدي العزيز الموقَّر، سرَّني أن أسمع بأنك سوف تنطلق مباشرة للتأكد من مصير المسكين الكولونيل ستودارت ورفيقه في المتاعب في بخارى. وآمل أن توفق في طريقك، وأن تنجح في مسعاك بتسديد من الله. من المحزن أن نفكر أن

مثل هذين الرجلين يظلان متروكين دون مساعدة، إذا كانا لا يزالان على قيد الحياة، ولكن في كل الأحوال لا بد أن ينتج من رحلتك شيء جيد. وأعلم أنك سوف تحتاج إلى القليل جداً لمن يقدمك في البلدان التي أنت ذاهب إليها؛ إلا أن لك الحرية الكاملة في إظهار هذا الخطاب حيثما كان ذلك يخدمك. ورجائي أن تذكرني بخير لأي من الأساقفة والقساوسة الشرقيين من معارفي الذين يمكن أن تلتقيهم في رحلاتك، وأدعو أن يحفظك الله برحمته ولطفه من مخاطر الطريق. وأظل، سيدي العزيز، خادمك المخلص في المسيح.

جي. جبل طارق

أخبرني سيادة اللورد بأن السيد فرير كان متلهفاً لرؤيتي؛ ولذلك ذهبت إليه في صَوْمَعَتِه، وكان موجوداً هناك مع خادميه الشيخين: بيبو وآخر، وقد ابتهجا لرؤيتي. وأُدخلت، كما هي العادة قديماً، غرفة استقباله؛ وكانت طاولته مغطاة بالكتب وبعض الهدايا التذكارية من المالطيين الفقراء. وبعد قليل دخل صديقي الشيخ العزيز الغرفة يبكي من الفرح، وسأل عن زوجتي وابني هنري بلطف بالغ، وتحدث عن ذكرياتنا الحميمة السابقة، وكان حديثه واهناً نوعاً ما، وقد أخبرني أنه تعرض في روما لجلطة دماغية، إلا أن ذاكرته ظلت جيدة إلى أبعد حد. مكثت معه زهاء الساعة، وقد أسف عندما علم بأنني سأبحر في اليوم نفسه، حيث أراد أن يدعو إلى حفل لاستقبالي، يضم الحاكم والأدميرال والآنسة هاميلتون. وقبل أن أغادره تلطَّف بإعطائي أمراً بصرف مبلغ واحد وعشرين جنيهاً من (بيل) وشركاه، وخطابَ تعريف قوي اللهجة إلى السير سترانفورد والليدي كاننج. وبعد ذلك استأذنت الشيخ الطيب وذهبت في العربة إلى الآنسة هاميلتون.

وبعد محادثة سارة مع هذه الشخصية المحبوبة من معارفنا القدماء (التي تُوفيت - وياللأسف - إبان تحرير هذا الكتاب!)، قمت بزيارة للسيد

كـريسـتـيـان، وقـد تمنى أن أصـحـبـه لمنزله الريفـي؛ إلا أنه لم يكن لـديَّ الوقت لذلك، وقـد سـأل عن كل أصـدقـائي وعـن الليـدي إملِي بونسـونبي، ثـم ودعـتـه، وعند مغادرتي منزله، التقيت باولو، طباخي القديم، وكان من دون عمل. بعدها ذهبت لزيارة السـيـد فيـيـز، الـذي ابتهج كثيـراً لـرؤيتي، وكـان قـد ترك جـمـعـيـة التـصـيـر الكنسية ولم تعد له صلة بها.

وفي طريق عودتي إلى قصـر الحـاكم، التقيت رئيس القساوسـة لوميسورير، الذي أبدى سـروراً عظيـمـاً برؤيتي؛ وبدا بصـحـة جيـدة كمـا كـان قـديمـاً، وبقـوته ونشـاطه المعـهـودين. ولا بـد أن هنـاك سـراً مـا في طقس مـالطا، يجـعـل النـاس يبدون أصغر سناً مما هم عليه.

عند السـاعة السـابعة وصلت إلى منزل الحاكم، عنـدهـا قدمني إلى الليـدي ستودارت وبناتها؛ وقـابلت عند الطاولة صـديقي القـديم السـير هيكتـور جـريج؛ والتقيت كذلك الكولونيل إدوارد، والكابتن تدي، وبعض السيدات.

وتمنى السـير هيـكتـور أن أعـود إلى مـالطا، وعـرض عليَّ مـهـجـعـاً في منزله، لكني لم أسـتطع القبـول، وعـدت إلى إيبـيـريا عند السـاعـة الحـادية عشـرة ليـلاً. كـانت (السـفينـة) فيـرنون التي يقـودهـا القبطان وليـام والبـول راسـيـة في الجـهـة المقابلة، فصـعـدت إلى متنهـا، ولكن القـبطان كـان قـد نزل إلى الشـاطئ؛ فتـركت عنده رسالة تحوي أسطراً قليلة لأصدقائي في الوطن.

غادرنا مالطا تلك الليلة، في السادس والعشـرين، وفي السابع والعشـرين كان الجو حاراً، ولكنه رائع، وكان تقدمنا بمعدل تسع عُقَد[١] في السـاعة متجهين إلى أثينا. وصلنـا إلى مـرفأ بيرايوس في السـاعـة الثـالثـة بعد الظهـر من يوم التـاسـع والعشرين من أكتوبر، وعند وصـولي ذهبت إلى (السـفينة) إندوس، التي كانت في

(١) العقدة هي وحدة قياس السرعة البحرية، وتساوي ١,٨٥٢ كم/ ساعة، وتساوي العقدة ميلاً بحرياً واحداً.

ذلك الوقت راسية في بيرايوس، وهناك التقيت السير جيمس ستيرلنج، قائد البحرية البريطانية في الأرخبيل، وقبلت دعوته الكريمة للإفطار. بعد ذلك تابعت السير إلى أثينا لرؤية السير إي. ليونز، لكنِّي لم أجده في المنزل، فقمت بزيارة القس البريطاني الملحق هناك في أثينا، إتش. دي. ليفز. وبصحبة هذا الرجل النبيل - الذي استقبلني بمودة بالغة هو وبناته - واصلت مسيري إلى الأكروبولس، وفوق سهب أريوباجوس، حيث وعظ القديس بولس، قرأت الإصحاح السابع عشر من أعمال الرسل: «يا رجال أثينا... إلخ».

وخلال مكوثي مع السيد ليفز رأيت جوناس كنج، رفيقي القديم في السفر، والسيد بنيامين وزوجته، وهما منصِّران من أمريكا؛ كما رأيتُ قسطنطينوس، وهو يوناني كنت أرسلته عام ١٨٢٢م من قبرص إلى إنجلترا، ويمتلك الآن مدرسة مزدهرة في أثينا. وحين قُطع رأسُ والده في عام ١٨٢٢م، خلال الثورة، أنقذته مع ثلاثة صبيان آخرين من العبودية، وأرسلتهم إلى إنجلترا: أحدهم هو باولو بيريدس، وهو الآن طبيب في سكوتلانده، وأخوه مدير مدرسة في لارناكا.

وعند رجوعي من منزل صديقي القديم، القس السيد ليفز، وجدت رسالة قصيرة من السير إي. ليونز، يدعوني فيها إلى الإفطار معه عند الساعة الثامنة صباحاً، وقد لبَّيت دعوته، وقد أبدى رغبته في تقديمي إلى الملك أوثو وصاحبة الجلالة الملكة؛ فأبديت سعادتي وتمنيت لو تحقق لي ذلك؛ فبادر - مشكوراً - إلى إعداد الترتيبات لهذا الأمر. وقام السيد ليفز - امتثالاً لطلب السير إي. ليونز - بتقديمي لرجل من بافاريا، هو الدكتور روسر الذي قام بأخذي مباشرة إلى القس الأب أرنوت، وهو قس اعتراف الملك. وقد كان هذا الأمر مخالفاً لقواعد التشريفات بالنسبة إلى السفير، وهو أن يقوم بتقديم أي شخص لم يمرَّ على قدومه يومان، وهذا ما لا تسمح به مدة إقامتي. وأخبرني

الأب أرنوت، عند مقابلتي له، أنه سبق أن رأى خطابات مني كُتبت إلى دومرايخير في الأسكندرية. وأبدَوا سعادة عظيمة للتعرف إليَّ شخصياً. وفي أثناء انتظاري لمقابلة جلالة الملك قدموني لوصيفة الملكة، ذاكرين أنها وُلدت على بعد ميلين من فايلرزباخ، موطني الأصلي، فتحدثت معها كثيراً، وضحكنا حول عدد من المواضيع. وفي أثناء ذلك أعطوا إشعاراً للكونت مافروميشال، حاجب الملك، بوجودي؛ فبادر بإبلاغ جلالته بحضوري، فأمر جلالته في الحال بإدخالي إلى غرفته. وقد وجدته رجلاً طويلاً، نبيلاً، نحيل القد، يرتدي زيّاً يونانيّاً. فانحنيت انحناءة بالغة، فقال جلالته مباشرة:

لقد قمت، وتقوم، حالياً برحلة عظيمة لغرض كريم.

وولف: لقد حظيت بالشرف العظيم إذ قابلتُ والد جلالتكم في روما.

الملك أوثو: في أي عام؟

وولف: في عام ١٨١٨م، عندما كان يصاحبه الدكتور رنجسيس (*Ringseis*) والكونت ساينهايم (*Seinsheim*) والكونت ريكبيرج (*Rechberg*).

الملك: ما الشعوب التي زرتها وتحادثت معها؟

وولف: اليهود والمسلمون والكلدانيون واليزيديون والسريان والصابئة والفرس... إلخ.

الملك: ما وضع الكنائس الكلدانية والأرمنية؟ وما هي عقائدهم، وهل يمثِّل الكنيسة الأرمنية رئيس ديني لها مثل بابا روما؟

وولف: إن بطريرك إتش ميازين، عند سفح جبل أرارات، يلقَّب كاتوخليكوس، أي: الكاثوليكوس (بطريرك الكنيسة الأرمنية)، وهو وحده من له سلطة ترسيم الأساقفة، وإرسالهم إلى كل البلدان التي يوجد بها أرمن.

الملك: وممن ينحدر الأرمن؟

وولف: حسب المؤرخين الأرمن، هم من سلالة حايك، أخي بيلوس، أحد بناة برج بابل.

الملك: وهل لدى الأرمن آداب؟

وولف: نعم؛ ففي القرن الخامس قام ميسروب الكبير بترجمة الإنجيل إلى اللسان الأرمني، ويُعَدُّ موسى فوكازير، والمؤرخ كورينازي، وإسحاق، من الكتّاب المشهورين في الأرمن. وفي القرن الثاني عشر كان لديهم بطريرك عظيم هو نيرسيس شنور - هال (*Nerses Shnor-Haal*)، ورئيس للأساقفة هو نيرزير اللامبروني (*Nerser Lampronazi*). وفي الوقت الحاضر لديهم رجال أذكياء جداً في سانت لازاروس في البندقية؛ مثل الأب باسكوال أوشر، وفي كالكوتا الأب هوانيس أفدال.

وبعد أن أطلعتُ جلالته على تفاصيل معتقداتهم، سألني عن الأسباب التي جعلتني أثق بأن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي لم يزالا أحياءً؛ فأبديت له أسبابي، وأخبرته بأنني آمل أن أجد كذلك الملازم أول ستير والدكتور بلفور اللذين سُجنا في أثناء الحرب في أفغانستان. وسألني جلالته: أين تركت زوجتي السيدة جورجيانا وأسرتي، وكم لديَّ من الأطفال؟ فأفدت جلالته حول هذا الموضوع، وقد استغرقت المحادثة ساعة كاملة.

بعد ذلك قُدِّمْتُ لمدام بلوسكو، ني كومتيس دو فتزلين (*Blosco, née Comtesse de Witzlien*)، وهي ابنة أخي فريدريك ليوبولد، كونت ستولبرج[1]،

(١) علَّق المؤلف هنا قائلاً: هذا الكاتب الرائع لا يعرفه إلا القليل في إنجلترا. وأستخلص من عمله الأخير حول «الحب» القطعة الآتية؛ فهي تتنفس حقيقة الروح المسيحية التجريبية: «عن طريق المعاناة نبدأ الانتباه لأنفسنا، فالمحن تجعلنا نضجر من العالم؛ وفي المحن نبحث عن العون والمواساة من الله. وكلَّما كان الشخص أكثر انقياداً لله في مدرسة الحب تلك، فإنه يحقق تقدماً أكثر في طريق الخلاص؛ لذا فإن الأرواح المقدسة لا تعاني فقط مع التسليم لله، بل إنها تبتهج في المحن أيضاً؛ ذلك لأنهم فيها يبدؤون في تسليم أنفسهم لله بقلب تام، ليثبتوا حبهم له، ذلك الحب الذي يتزايد عن طريق الشكر للطفه، وهو الذي يطهِّرهم مثل ما يُطهَّر الذهب في النار، في أتون=

والتي تحدثتُ معها حول عمها؛ وقد أَعْلَمَتْ جلالة الملكة بحضوري، فأمرت على الفور بالسماح لي بالمثول أمامها. وهي، حقيقة، أجمل الملكات وألطفهن، ويتمثل فيها المفهوم المثالي لجمال ملكة، وعندما تقدمت إليها بغرض تقبيل يديها الجميلتين، أسرعت بخلع أحد قفازيها، فقبّلتُ يدها.

الملكة: يا لها من أسفار قمت بها! يا لها من أسفار مذهلة!

وولف: من أجل تحقيق هدف عظيم، يجب على الإنسان أن يبذل جهداً عظيماً.

الملكة: هل وجدت اليهود ممانعين كثيراً؟

وولف: في بعض الأحيان، ولكنهم - بوجه عام - عاملوني بلطف بالغ.

الملكة: هل حدث في الغالب أن هُوجمت في سفرك؟

وولف: لقد استُعْبِدْتُ مرة.

الملكة: لا بد أنك على قدر كبير من الشجاعة.

وولف: أكثر ما أخاف منه هو البحر؛ لأن هناك مثلاً عند اليهود في ألمانيا يقول: إن الماء ليست له دعامات.

= المعاناة بنار الحب لكي يرضى عنهم. وهم يزيدون في التشابه مع ذلك المنقذ، الذي لم يلج إلى السعادة السماوية حتى عانى ذلك على الصليب(!). وأبناء الله لا يعانون فقط في العموم مع الرجال الآخرين، ولكنهم يجربون كذلك معاناة الروح التي يجهلها الآخرون، معاناة الحب. يجتاحهم شعور حب الله، ويشعرون بألم قاس وحزن بأنه معروف لدى القليلين جداً ومحبوب من قبل القليلين جداً، وبأنه، حتى الآن، يعد صلب المسيح عقبة وغباءً للملحدين المعمَّدين، كما كان كذلك في السابق لليهود والوثنيين، وبأن أعداء البشارة يبتهجون باستهزاء، ويشعر المؤمنون كأن قتلاً يحدث في عظامهم، بينما يقولون لهم بشكل يومي: أين إلهكم؟ المزمور ١٤٨، ١٠. يجتاحهم شعور بأن الله يحبهم، فيشعر المؤمنون بأسى مرير بأن حبهم لله في المقابل بارد جداً»... إلخ.

ضحكت جلالتها، فعلَّقت على ذلك بقولي: لعل جلالتك تعتقدين الآن أنني أخون أصلي اليهودي بتلك الملحوظة، حيث إن اليهود لا يحبون البحر.

الملكة: كم من الأرمن الكلدانيين انضموا إلى كنيسة روما؟

وولف: زهاء ٦٠,٠٠٠ أرمني، و٣,٠٠٠ كلداني انضموا إلى كنيسة روما.

الملكة: ما ديانة الأرمن؟

وولف: إنهم منوفيستيون[١]، ولكنهم أكثر الشعوب اهتماماً وتطلعاً إلى المعرفة.

الملكة: من أي الشعوب ينحدر الكلدانيون؟

وولف: يعيشون في الموصل وديار بكر وأورمية وسلماست وجبال كردستان. وهم، دون شك، من سلالة اليهود الذين تحوَّلوا إلى النصرانية؛ لأنهم يطلقون على أنفسهم «أبناء إسرائيل». ولديهم بطريرك اسمه مار شمعون، يدَّعي أنه من سلالة القدِّيس بطرس، وقد تحول بضعة آلاف منهم إلى كنيسة روما، خصوصاً أولئك القاطنين في الموصل وفي قرية تدعى ألقوش[٢]، مسقط رأس النبي ناحوم، وهي كذلك المكان الذي دُفن فيه.

الملكة: هل المنصِّرون من الكاثوليك الرومان أكثر أم البروتستانت؟

وولف: الكاثوليك الرومان.

الملكة: من الذي يحقق نتائج أكثر؟

---

(١) طائفة تؤمن بأن الطبيعة البشرية لسيدنا (المسيح) قد تشرَّبتها الهوية الإلهية، وبذلك فإن كلا الطبيعتين هي طبيعة واحدة؛ بعكس الاختلاف الجميل في عقائد النيقيين والآثاناسيان *(Nicene and Athanacian)*، والإعلان القريب للفقرة الثانية لكنيستنا «بأن طبيعتين كاملتين وتامتين، كأن تقول: إلهي وإنساني، انضمتا لبعضهما في شخص واحد ولن تنقسما، والذي منه المسيح، الله كلية والإنسان كلية». (تعليق المؤلف).

(٢) بلدة تقع في شمالي العراق، ضمن محافظة نينوي، على بعد نحو ٥٠ كم شمالي مدينة الموصل، مركز المحافظة.

وولف: الكاثوليك الرومان، ولكن البروتستانت حققوا مؤخراً نجاحاً ملحوظاً في الهند.

الملكة: يا لك من رجل متحمس ومخلص! أُكبر فيك حماستك. ألا تخشى الآن الذهاب إلى بخارى؟

وولف: إنني مدفوع لتحقيق هذا الغرض.

الملكة: سيكون من الحسن لو تتحد الكنائس جميعها بعضها مع بعض.

وولف: هذا ما نصلي من أجله، غير أن هذا الاتحاد سيتحقق فقط عند الرجوع الثاني لسيدنا[1].

الملكة: هل تتوقع أن يحدث ذلك عاجلاً؟

وولف: نعم، أتوقع ذلك، ولكن إذا ما كان عليَّ أن أعظ بالإنجيل مرة أخرى في روسيا، فإنني أعتزم ألاَّ يكون ذلك تحت إشراف المجلس الكنسي الروسي اللوثري، ولكن تحت إشراف المجمع الكنسي الروسي، وأجعل من يتحولون على يدي يُعَمَّدون في الكنيسة الروسية.

الملكة: مقصد حسن، ولكن أشك في أن يوافق عليه المجمع الكنسي الروسي.

وولف: أعتقد أنهم سيوافقون؛ فقد كان ذلك هو الخلاف مع المنصِّرين الأسكوتلانديين في أستراخان؛ لأنهم لم يُسمح لهم بالمضي في مهمتهم، حيث رفضوا أن يدَعُوا الروس يُعَمِّدون المتحولين.

الملكة: هل أصبت نجاحاً كبيراً في مهمتك؟

وولف: لقد كنت أول من ذهب إلى القدس لوعظ اليهود بالإنجيل، في الوقت الذي كانت الحرب على أشُدِّها بين اليونان وتركيا[2]، وقد استرعت

---

(١) يريد عودة السيد المسيح ثانية إلى الأرض.

(٢) هذا من ترهات المؤلف، أو أكاذيبه. فالثورة اليونانية على الحكم التركي وحرب المورة كانت بين عامي ١٨٢١ و١٨٢٩م، ولم يكن لليهود - أيامئذ - أدنى وجود في فلسطين؛=

مهمَّتي هناك نظر الجمهور في إنجلترا إلى أهمية الأعمال التنصيرية في القدس. وبعد وصولي بدأ اليهود، في القدس أولاً، بطرح الأسئلة عن فضائل الدين النصراني، وقد استمالهم إلى ذلك محادثاتي معهم. ومن خلال ممارسة رسالتي التنصيرية في القدس، فإن اليهود في القدس والشام وحلب وبغداد وجَّهوا انتباههم إلى موضوع النصرانية.

وقد كنت، كذلك، أول شخص جعل اليهود القاطنين في فارس وخراسان وجميع بلاد بخارى وأفغانستان وصحاري التركمان وخوقند والصين التترية، يتعرفون إلى الإنجيل، وبذلك تنصَّر الكثير من اليهود في القسطنطينية من خلال مهمتي، وقمت بتعميد مَن تنصَّر مِنَ اليهود في مصر وجاوة وصنعاء واليمن وبخارى. وأيضاً، كنت أول مَن أثار موضوع اليهود أمام جامعات أكسفورد وليدن وأُوترخت، وأمام الكونجرس في الولايات المتحدة الأمريكية.

تطرق الحديث إلى مواضيع أخرى مختلفة، وبعد ذلك استأذنتُ جلالةُ الملكة بتهذيب جَمٍّ، فانحنيتُ وخرجتُ. وقد استغرقت المحادثة ساعة كاملة، وبعدها أخبرتني مدام بلوسكو أن جلالة الملكة كانت مسرورة جداً من لقائي معها.

بعد ذلك ذهبتُ مع السيد ليفز والسيد كنج لرؤية رئيس المجلس الأعلى اليوناني، الأسقف نيوفيتوس، حيث إن المجمع الكنسي يتألف من خمسة أساقفة، وأسفت لدى علمي بأن الكنيسة الإغريقية في اليونان لم تعد تحت إمرة بطريرك القسطنطينية. بعد أن انتهت زياراتي، تناولت العشاء مع السيد ليفز، ومن ثم ودَّعته. اصطحبني السيد ليفز والسيد كنج في طريقي إلى السفينة (إيبيريا)، ولكننا كنا قد تأخرنا أكثر من اللازم، حيث وجدنا (إيبيريا)

= إذ لم يبدأ قدومهم المنظم لاستيطانها إلا قرابة عام ١٨٧٠م؛ أي بعد وفاة المؤلف نفسه، والأعداد القليلة جداً التي كانت موجودة لا تسمح بوجود واعظ يُلفتها عن دينها للدخول في دين آخر.

قد أبحرت متجهة إلى سيرا؛ ولذلك صعدت إلى متن (إندوس) سفينة جلالة الملكة، وذهب كل من السيد ليفز والسيد كنج مباشرة إلى السير إي. ليونز. ولأن السير جيمس ستيرلنج، قبطان (إندوس)، كان يتناول العشاء، فقد نزل الملازم لايسيستر المسؤول في (إندوس) إلى الشاطئ؛ لإبلاغ السير جيمس عن إخفاقي في اللحاق بالسفينة (إيبيريا)؛ فعاد السير جيمس إلى إندوس، وأمر الكابتن أوماني، قبطان السفينة البخارية (فيسوفيوس)، بالاستعداد مباشرة لحَمْلِي حتى سيرا، حيث ستتوقف (إيبيريا) مدة اثنتي عشرة ساعة؛ وعند الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي والثلاثين لحقنا، لحسن الحظ، بإيبيريا، وعندها تعالت هتافات طاقم السفينة والمسافرين؛ وبعدها، في الساعة الرابعة، أبحرنا إلى أزمير، حيث وصلنا إليها في الأول من نوفمبر.

وقد توقفنا مدة ساعتين فقط، رأيت خلالهما تيمبل المنصِّر الأمريكي، والسيد كالهون وكيل جمعية الإنجيل الأمريكية، أمَّا الصديقان لويس وميرديث فقد كانا في الوطن.

وفي الثاني من نوفمبر وصلت إلى الدردنيل. وعليَّ أن أعترف بأنني أصبت بخيبة أمل فيما يتعلق بالتحصينات. وأعتقد، حقاً، بأن جبل طارق سيكون أكثر صعوبة للاستيلاء عليه من الدردنيل. وقد يقتبس العسكريون لي القول: «لا تسافر أبعد من بخارى». أو: «صانع الأحذية يجب ألاَّ يبدي رأيه أبعد من الحذاء»[1]، وأعترف بحرية تامة بأنني سأجد قليلاً من الصعوبة في الأخذ بأيهما.

(١) أورد وولف هنا مثلاً باللاتينية هو: *Ne sutor ultra crepidam* وهو جزء من المثل: *Ne sutor supra crepidam iudicaret lett* ومعناه: «صانع الأحذية يجب ألاَّ يبدي رأيه أبعد من الحذاء».

الفصل الثاني

القسطنطينية - مقابلة مع السير ستراتفورد كاننج. تقارير متشككة في القسطنطينية حول ستودارت وكونولي. مقابلة مع القائم بأعمال سفارة نابولي، من أقارب السيد بي. ناسللي، الذي زار بخارى. طبيعة الأدلة الواردة إلى القسطنطينية حول وجود ستودارت وكونولي. أوراق رسمية من السلطان وشيخ الإسلام وآخرين. زيارات للكونت ستورمر. محاولات قامت بها أطراف معينة لثني الدكتور وولف عن السفر إلى بخارى. رسالة السيد جيمس كالفرت. مقابلة مع الريس أفندي ومع شيخ الإسلام. الكنيسة السورية؛ أفرام سيروس. لطف السير ستراتفورد كاننج. معاليه يدفع تكاليف سفر الدكتور وولف إلى طرابزون. رأي وجيه تتبناه الأطراف كافة حول الكابتن جروفر. الإبحار إلى طرابزون.

في الثاني من نوفمبر وصلت إلى مرفأ القسطنطينية، وأبلغتُ مباشرة عن وصولي الموقر هوراثيو ساوثجيت، الأسقف والمنصِّر الأمريكي الذي كنت أحمل إليه خطاباً من أسقف جبل طارق، وقد استقبلني هو وزوجته بكل مودة. وكان لديهما طفلان جميلان، أمَّا السيدة ساوثجيت فكانت غاية في اللطف.

جلستُ في الحال، وكتبت للسير ستراتفورد كاننج، الذي يقطن الآن في بويو كدير «الوادي الكبير»، وهي قرية كبيرة تقع على البوسفور، وتبعد اثني عشر ميلاً من القسطنطينية، وأعلمت معاليه بوصولي إلى القسطنطينية؛ فتسلمت في اليوم التالي جواباً منه، أضمِّنه هنا حرفياً؛ لكي أكشف مدى اللطف البالغ لسفيرنا المميز:

بويو كدير، ٣ نوفمبر ١٨٤٣م

سيدي العزيز، إنني سعيد بالسماع عن وصولك، وآمل أن أحظى برؤيتك هنا في أي وقت يكون مناسباً لك للمجيء. هل لك أن تتناول طعام العشاء معنا يوم

السبت، أو يوم الأحد؟ نحن نتناول طعام العشاء عند الساعة السادسة والنصف. ولا أستطيع أن أعرض عليك النوم في منزلي، ولكن هناك فندق محترم على مسافة ليست ببعيدة؛ وإذا ما فضّلت العودة إلى بيرا في الليل، فإن القمر وقتها يكون منيراً.

أمّا فيما يتعلق بخطاباتك، فقد تقدمت بطلبها قبل وصولك، وأعتقد أن من الأفضل أن ترى السيد فريدريك بيساني، المترجم الأول في هذه السفارة، وذلك من أجل إخباره بمزيد من التفاصيل حول رغباتك.

أما فيما يخص (السفينة) البخارية، فإن صلاحياتي محدودة بهذا الخصوص ولا يمكنني تلبية رغبتك. فالمركبة مخطّط لها كل يوم التحرك في اتجاه مختلف عن اتجاهك؛ وقبل أن تكون متفرغة لك، فربما تكون قد انطلقت في أحد القوارب الأسبوعية إلى طرابزون. أعيد إليك الخطابات التي أرسلتها إليَّ لأطّلع عليها. وأرجو أن تصدقني، يا سيدي العزيز.

المخلص لك جداً. ستراتفورد كاننج

وأعطى معاليه الإذن للسيد ساوثجيت للسماح لي بالوعظ في الكنيسة الملحقة بالسفارة، في يوم الأحد الثاني عشر من نوفمبر. وفي الخامس من نوفمبر تلقيت خطاباً من السيد ليفز من أثينا، متضمناً المحتويات السارة الآتية:

عزيزي السيد وولف، أنتهز الفرصة التي تتيحها لي (السفينة) البخارية الفرنسية لهذا اليوم؛ لأقوم بما تمنيتُ أن أقوم به ليلة البارحة مع السير جيمس ستيرلنج، ولكن لم يكن هناك وقت كافٍ لذلك، وهو أن أكتب إليك سطراً. وسوف تتذكر المثل الإغريقي الذي ذكرته لك في السفينة (إندوس) ليلة البارحة: «كل عائق يقود إلى الخير»[1]. وأنا واثق أن المثل تحقق الآن؛ لأن سوء

(١) قد يقابل هذا المثلُ المثلَ العربي الشعبي «كل تأخيرة وفيها خيرة».

الحظ الذي صادفك ليل البارحة جلب الكثير من التعبيرات اللطيفة والمتعاطفة مع مهمتك الخيِّرة والنبيلة. فعندما ذهبنا إلى منزل السير إدموند ليونز ليل البارحة، كانت أول خلجة اعترت قلب السير جيمس ستيرلنج، عند سماعه هذا الحدث المؤسف، أن قال: «يجب ألا ندع هذا يؤثر في مال السيد وولف، ويجب علينا جمع مورد مالي فيما بيننا؛ لدفع تكاليف سفره على (السفينة) البخارية الفرنسية». وعندما عاد السير إدموند ليونز، الذي كان عندها خارج الغرفة، ختم الحديث بفكرة إرسالك في (فيسوفيوس)؛ وقد تمت تسوية الأمر بالكامل بينه وبين السير جيمس ستيرلنج قبل مجيء الملازم لايسيستر من السفينة لتقديم تقريره المعتاد لقبطانه.

آمل أن يكون ذلك بشير خير فيما يتعلق بمهمتك، وبأن يفتح الله قلوب كل الرجال؛ الإنجليز، واليونانيين، والأتراك، والفرس، والأكراد، والبخاريين، واليهود، والوثنيين؛ ليوفروا لك الأسباب لنجاح مهمتك، وأن تُسفر عن الكثير من النتائج الجيدة، المباشرة وغير المباشرة. وأحسب أن من بين نتائجها الجيدة أنني وجميع أفراد أسرتي قد جددنا معرفتنا بجوزيف وولف، وأثق بأننا سوف نتذكرك في صلاتنا. ونرجو أن تفعل ذلك من أجلنا، وتقبَّل تحيات أفراد المجموعة أجمع، من الذين قُبِّلوا والذين لم يُقَبَّلوا(١).

وهلاً تتحفنا بسطر من قِبَلِكَ في وقت ما؟ فإن هذا سيكون ممتعاً للجميع هنا، وليس لديَّ شك في أنه سيكون ممتعاً للملك والملكة، اللذيْن كانا مسرورين بمقابلتهما إياك. والآن أدعو الله أن يحفظك، ويُنجح مسعاك نجاحاً باهراً، ويعيدك سالماً إلى زوجتك وابنك، وإلى بلدك الثاني، وكنيستك!.

المحب لك: إتش. دي. ليفز

---

(١) قد يقصد الرجال والنساء والأطفال من عائلته الذين ودعوه.

لا يمكن أن يكون هناك من هو ألطف ولا أكثر حزماً من السير إدموند عندما وضع السفينة فيسوفيوس تحت تصرفك.

في الرابع من نوفمبر زارني السيد شاوفلر، المنصِّر في اللجنة الأمريكية للمهمات الأجنبية في القسطنطينية المختصة بتصيير اليهود، وكنتُ قد أرسلتُه إلى أمريكا قبل سبع عشرة سنة على حسابي الخاص، بُعيد السيد جوديل، ورحب بي بمودة بالغة.

وفي الخامس من نوفمبر، الذي صادف يوم الأحد، ذهبت مع السيد ساوثجيت وزوجته إلى الكنيسة، وكنت مرشداً له. وفي الساعة الثالثة استأجرت عربة، وذهبت إلى السير ستراتفورد كاننج في بويوكدير، فاستقبلني هو وزوجته ألطف استقبال، وكذلك فعل اللورد نابيير وبقية أعضاء الملحقية في السفارة البريطانية، وهناك التقيت كذلك بالأميرة مافروكورداتو.

وكان الرأي العام يميل كثيراً إلى الشك في مصير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وكان هناك رجل نبيل من روسيا لديه معارف في خيوه، ويبدو أنه يميل إلى تصديق قصة موتهما، ولَكِنَّ بعض البخاريين الموجودين في القسطنطينية ذكروا أن هناك رجلين إنجليزيين في بخارى؛ أحدهما طويل، والآخر قصير وبدين، وأن الأخير محتجز من قِبَلِ أحد حراس المساجد خارج مدينة بخارى. وأَرْجأ السفير، على أي حال، حكمه حول الموضوع، ونصحني بألاَّ أزور البخاريين حتى يقوم بمزيد من التحرِّيات عنهم، وبعد العشاء، طلب مني السير ستراتفورد كاننج أن أقوم بالوعظ وقراءة الصلوات.

غادرتُ معاليَه عند الساعة الثانية عشرة منتصفِ الليل، حيث أمر بحَّارته بأخذي على متن (السفينة) ديفاستيشن، وكنت أحمل خطاباً من الأدميرال السير إي. أوين إلى قائد السفينة الكابتن روبنسون، الذي كان في غاية اللطف

حينما دعاني إلى النوم في سفينته البخارية. حقاً، إن الكابتن روبنسون رجل نبيل وفي غاية الأنس والورع.

في السادس من الشهر زرت الدكتور بينيت، القس الملحق بالسفارة، واصطحبني مباشرة إلى الكابتن ووكر، أميرال الأسطول التركي، والحائز على منصب ياور باشا. وكان قد تعرَّف إليَّ من قبل في لندن، ووعد بمساعدتي بكل ما يمكنه من سُبل، وهو رجل متواضع جداً ومحبوب، وزوجته سيدة من الطراز الأول في حُسن السمت واللطف. ولم يكن يملك عربة لإرجاعي إلى بيرا، حيث أسكن مع السيد ساوثجيت؛ لذلك عرض عليَّ جواداً؛ ولكن لكوني أخاف ركوب الجياد، فقد فضلت استئجار عربة تجرُّها الثيران. وهكذا عدت إلى القسطنطينية، وعند عودتي إلى ساوثجيت، علمت أن السيد براون، الملحق الأمريكي، قد أتى لزيارتي، وكان يريد إعلامي بأن الملحق في سفارة نابولي يرغب في زيارتي من أجل الحديث عن السنيور ناسللي، الذي ذهب إلى بخارى، ولا يُعلم مصيره.

نسيت أن أذكر أن السيد فريدريك بيساني، المترجم الأول في السفارة البريطانية، زارني يوم الأحد، الخامس من نوفمبر، عند الساعة الثامنة صباحاً، وأخبرني أن المراسلات الرسمية من الحكومة في إنجلترا قد وجَّهتهم بتعليمات تقتضي تزويدي بكل الوثائق الضرورية لي، تماماً حسب رغبتي، وبأنه يجب أن أحصل عليها في السابع عشر من نوفمبر، وهذه الوثائق ممنوحة لي من السلطان، ومن شيخ الإسلام، ولذلك تقدَّم للحصول عليها. كما ذكر لي أن الأتراك أبدوا دهشتهم من شجاعتي وتصميمي على المضي قدماً فيما أنا بسبيله.

في السابع من نوفمبر، وعندما كان السفير السير ستراتفورد كاننج في قصره في بيرا، مع زوجته الليدي كاننج واللورد نابيير، أجريت مباحثات سرِّية

معه حول موضوع كونولي وستودارت، وكل ما يمكنني قوله حول هذه المباحثات، إنها ليست مُثَبِّطَةً للعزيمة. ودعاني مرة أخرى لتناول طعام العشاء معه في الأسبوع المقبل، ولكي أقوم كذلك بالوعظ مرة أخرى، ووعدني بإرسالي إلى طرابزون وأرضروم، وبذلك لن تكلِّف رحلتي إلى فارس إلا القليل.

في هذه الأحيان زارني القائم بأعمال سفارة جلالة ملك نابولي، الذي حدثني عن الخيَّال بيترو ناسللي فلوري، أحد أبناء صقلِّيَةَ، الذي أشيع أنه قُتل، ولكن ثبت أن هذا الخبر ملفَّق، ولذلك أكّد لي الشكرَ الخالص من جلالة ملك نابولي، إذا رأيت أن في وسعي التحرِّي عنه عند وصولي إلى بخارى، وقد وعدته بالقيام بذلك.

إن الدلائل التي صادفتها في القسطنطينية، فيما يتعلق بالكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، كانت متناقضة تماماً. وهنا أدرج التفاصيل التي وصلت إليَّ وقتذاك:

١- لقد أكد السيد دانيلفسكي، القنصل السابق لجلالة الإمبراطور في خيوه - والذي يشغل الآن المنصب نفسه في بلغراد - للسير ستراتفورد كاننج أنه رأى عدداً من الأشخاص من بخارى عندما كان في خيوه، وقد صرَّح بعضهم بأنهم شهدوا تنفيذ حكم الإعدام في ضابطين بريطانيين. بينما ذكر البعض الآخر أنهم استَقَوْا الخبر من الإشاعات التي سرت هناك، وفريق ثالث وصف ملامح هذين الضابطين، متفقين بذلك مع الانطباع الذي كوَّنه السيد دانيلفسكي من أقوال الآخرين فيما يتعلق بالمظهر الشخصي لهما حين رأياهما في مناسبات سابقة، قبل أن تصبح محنتهما ومعاناتهما موضع اهتمام الجمهور.

٢- وقد وصل إليَّ كذلك الخطاب الآتي الموجه إلى السير ستراتفورد كاننج:

طرابزون ١٦ أغسطس ١٨٤٣م

سيدي، لقد أخبرني الدكتور كاسولاني، من قسم الحجر الصحي، أن عدداً من

سكان بخارى الأصليين وصلوا مؤخراً إلى مستشفى الأمراض السارية من داخل البلاد، وقد تجاذب الدكتور كاسولاني مع أحدهم أطراف حديث يتعلق بالكولونيل ستودارت والكابتن كونولي. وأفاد البخاري أنه ترك موطنه الأصلي بخارى منذ قرابة ستة أشهر، وأنه كان هناك في الوقت الذي وصلت فيه الأخبار عن النكسات التي تلقتها القوات البريطانية في أفغانستان. وأنه، عند وصول مثل هذه الأنباء إلى الأمير أو رئيس ذلك البلد، استدعى المبعوثَين الإنجليزيين اللذين كانا وقتها هناك (يعني السيدين ستودارت وكونولي، اللذين وصفهما البخاري بأن أحدهما طويل، والآخر قصير القامة) للحكم عليهما. وعند عرض العفو عنهما بشرط اعتناقهما الإسلام، رفض الرجل الطويل ذلك، فأُعدم بقطع حلقومه، وعندما رأى الرجل القصير مصير رفيقه المحزن، اعتنق الإسلام وأبقى على حياته. وحسب رواية البخاري، فإن الأخير الآن موجود، ويعمل خادماً في أحد المساجد في بخارى. واسم البخاري الذي قدم المعلومات للدكتور كازولاني هو عبدالرحيم جان محمد، وهو متجه إلى القسطنطينية مع رفاق له على متن إحدى (السفن) البخارية، التي ستبحر غداً، وهو يحمل جواز سفر تركياً، منحه له قسم الحجر الصحي بالرقم (١١). ولو استُجْوِبَ الشخص المذكور بصورة مناسبة وَبِلُغَةٍ يفهمها، فلا شك في أنه ربما يتم الحصول منه على معلومات ذات أهمية، تتصل بمصير الضابطين البريطانيين في بخارى... إلخ.

فرانسيس. جي. ستيفنز، نائب القنصل

٣- أرسل إليَّ السير ستراتفورد كاننج فجأة في الثامن من هذا الشهر، (نوفمبر) ليخبرني بهذه التفاصيل: «لدي أخبار طيبة لك: يوجد هنا أناس من بخارى، يقولون إن ستودارت وكونولي على قيد الحياة[1]، ولذلك أنصحك بألاَّ

(١) للرد على أولئك الذين قالوا إن رحلتي تقررت على أساسٍ غير كافٍ، أحيلهم بكل بساطة إلى رأي سفيرنا في فارس.

تذهب لرؤية هؤلاء الناس من بخارى مدة يومين أو ثلاثة أيام، حتى أراهم أنا بنفسي، ومن ثَمَّ أخبرك متى تذهب لرؤيتهم أنت. أنا لست متحمساً مثلك، ولكني سأبتهج إذا وجدت ما يؤيد هذه الأنباء».

٤- صحيفة الإمبرسيال، سياسية، تجارية، أدبية، أزمير - الجمعة ٣ نوفمبر ١٨٤٣م - نُشرت فيها فقرة بعنوان: الهند الشرقية، بومباي في ٢ أكتوبر «تدور الشائعات في هذه الأيام، كما ورد من مصدر موثوق، بأن الكولونيل ستودارت، الذي سبق أن أعلنَّا عن وفاته، ما زال على قيد الحياة ومسجون في بخارى».

وقد زارني فريدريك بيساني، المترجم الأول في السفارة البريطانية، في الخامس من نوفمبر (صباح الأحد)، فطلبت منه أن يحصل لي على المستندات الآتية:

١- تصريح عام من السلطان للسفر، تُذكر فيه مدن بخارى وخوقند وخيوه.

٢- رسائل من السلطان موجهة إلى ملك بخارى، تأمره أن يطلق سراح الرحالين الإنجليزيَّيْن: الكولونيل ستودارت، والكابتن كونولي، وكذلك الضابطَيْن: الملازم ستير، والدكتور بلفور، إذا كانا موجودين. وإذا ما كان الضباط المذكورون آنفاً قد ماتوا، فيجب أن يُبَيِّنَ الأمير أسباب مقتلهم، ومدى استعداده لدفع تعويضات ترضي أقارب هؤلاء الضُّبَّاط.

٣- يجب ألاَّ يتم احتجازي، ولو يوماً واحداً، في بخارى، وأن يعيدوني مباشرة بصحبة الضباط المذكورين إلى القسطنطينية، حيث يتوقَّع السلطان عودتي؛ على أية حال، بعد ستة أشهر من مغادرتي القسطنطينية.

٤- يجب أن يمنحني السلطان كذلك رسائل إلى ملكَيْ خوقند وخيوه.

٥- رسائل من شيخ الإسلام إلى ملالي بخارى وخوقند وخيوه للغرض نفسه.

وقد تم إشعاري بأن الرسائل والتصاريح سيتم الحصول عليها قبل الخامس عشر من نوفمبر، وبأنه في السابع عشر من نوفمبر سيرسلني السير ستراتفورد على متن (سفينة) بخارية، بالمجَّان، إلى طرابزون وأرضروم.

أثار مكوثي في القسطنطينية اهتماماً حيوياً شديداً في كل الاتجاهات؛

فقد وعظت مراراً في الكنيسة الخاصة بالسفير، كما قمت بالوعظ لعائلة معاليه. وقد تلطف ووكر باشا بدعوتي إلى رؤيته؛ ودعاني كذلك المبعوث النمساوي الكونت ستورمر وزوجته الكونتيسه ستورمر، لتناول العشاء معهما في الثالث والعشرين من نوفمبر. وقالت الكونتيسة ستورمر في تلك المناسبة: «كم ستكون سعيداً إذا ما قابلت الكابتن كونولي مرة أخرى؛ فأنت تستحق ذلك، وكونولي يحبك كثيراً، وكان دائماً يتحدث عنك عندما كان في القسطنطينية». وقد ذكر معالي الكونت ستورمر أنه علم من عدة أشخاص أن فكرة حكم المسيح الشخصي وإعادة اليهود، يؤمن بها الكثيرون في إنجلترا[١].

والتقيت هناك بالسفيرين الروسي والبروسي، وكذلك الجنرال جوكموس، الذي تحادث معي كثيراً حول تشارلس تشرشل[٢]، الذي أخبرني الجنرال جوكموس بأنه مهتمٌ بالشعب اليهودي، وأنه كان يتمنى أن يصبح يوداس مكابيوس الثاني[٣].

وبعد العشاء ألقيت محاضرة بالألمانية:

١- حول عودة المسيح بشخصه، وحكمه على الأرض.

٢- البعث الأول.

٣- إصلاح الأرض بكاملها.

---

(١) يريد، بالطبع، إعادة اليهود إلى فلسطين حتى ينزل المسيح ليحولهم إلى النصرانية، والظاهر أن الفكرة بإنشاء وطن لليهود كانت تسري منذ ذلك الحين في أوساط المنصِّرين والساسة الإنجليز.

(٢) تشارلس هنري تشرشل (١٨٠٧-١٨٦٩م): ضابط صهيوني بريطاني، من أوائل من دعوا إلى عودة اليهود إلى فلسطين. عمل مع موسى مونتيفيوري على إذكاء هذه النزعة في إنجلترا من منطلق استعماري، ومنطلق ديني في الوقت نفسه.

(٣) يوداس: هو يهوذا المكابي ابن ماتاتيا الحشموني. قاد ثورة المكابيين اليهود على السلوقيين الإغريق في القرن الثاني قبل الميلاد.

٤- إعادة اليهود إلى أرضهم[١].

٥- تحوُّل جميع القبائل في إسرائيل إلى الإيمان بعيسى المسيح.

٦- مباركة المؤمنين في القدس المقدَّسة، الذين سيصبحون ملوك الأرض، بينما ستكون الشعوب التي لا تتحوَّل إلى النصرانية رعايا لهم.

٧- حدوث تواصل بين القدِّيسين في الأعلى والناس في الأسفل.

٨- مجيء إليجا الحقيقي[٢] قبل عودة المسيح إلى العالم ثانية.

وقد لاحظ الكونت والكونتيسة ستورمر، أن أفكاري توافقت بدرجة كبيرة مع تلك التي يتبنَّاها القس جورج فيسك، الكاهن الفخري في ليجفيلد، الذي تعرفا إليه في القسطنطينية.

قد يبدو الأمر من ذلك كله أنني كنت مهملاً للأهداف السامية لمهمتي وسط تلك العناية السارَّة، ولكن الخطاب الآتي من المترجم الرئيس للسير ستراتفورد كاننج، قد يثبت تبرئتي من أي تأخير غير ضروري:

پيرا، ١٤ نوفمبر ١٨٤٣م

سيدي العزيز، لقد تلقَّيت خطاب معاليه بخصوص قضيتك، وأجبت عنه، فأنا أسير قُدُماً مع أوراقك، ولكن على الرغم من حماستي وإرادة معالي وزير الشؤون الخارجية، فإننا نخشى أنه يستحيل علينا تجهيز الأوراق لك هذا الأسبوع.

أرجو تلطفك وإرسال ملحوظة تحتوي على أسماء المدن الرئيسة التي سوف تمر بها، وستكون سبع مدن أو ثمان كافية لكل المنطقة التركية في آسيا.

المخلص: فرد بيساني

المترجم الأول لمفوَّضيَّة صاحبة الجلالة البريطانية

---

(١) هذا هو بيت القصيد.

(٢) أحد الأنبياء العبرانيين في القرن التاسع قبل الميلاد.

في هذه الفترة أرسلت إلى صديقي الودود الكابتن جروفر الخطاب الآتي:

القسطنطينية ١١ نوفمبر ١٨٤٣م

عزيزي جروفر، كان الاهتمامُ الأكثرُ إثارةً هنا بين أعضاء السلك الدبلوماسي، حول مهمتي في بخارى. وقد عبَّر معالي الكونت دو ستورمر، سفير جلالة الإمبراطور النمساوي لدى الباب العالي، عن تمنياته بأن يتعرف شخصياً إليَّ، ودعاني لتناول العشاء معه يوم الاثنين القادم. وغداً (الأحد) عند الساعة الرابعة سأقوم بالوعظ من الكتاب المقدس في السفارة البريطانية، وعندها سيكون الأميرال ووكر والليدي ووكر مدعوَّيْن للحضور إلى هناك، وكذلك لتناول العشاء. لقد وُعدت بأن أحصل على أوراقي من السلطان وشيخ الإسلام في السادس عشر، وفي السابع عشر سأبحر إلى طرابزون، ومن ثَمَّ لن يكون هناك تأخير حتى طهران. وآمل أن أصل إلى بخارى في نهاية شهر كانون الثاني (يناير). الرجاء أن تسأل الحكومة ما إذا كان يُسمح لي بافتدائهم (ستودارت وكونولي) أو أي سجناء بريطانيين آخرين أم لا، إذا ما طُلب مني ذلك.

محبُّكم جوزيف وولف

وقد زوّدني السفير النمساوي، الذي وعد أن يساعدني بأقصى ما يمكنه، بألطف ما يمكن من إثبات، حيث وجه إليَّ الخطاب الآتي:

(ترجمة)

القسطنطينية ٢٠ نوفمبر ١٨٤٣م

سيدي القس، مع الأسف! لم أنجح في مساعيَّ للحصول على رسائل توصية لك لمساعدتك في خيوه وبخارى. فالباب العالي فقط هو الذي يتراسل مع هذين البلدين، ومن تلك الجهة ستتلقى رسائل تعريف، وذلك من خلال طلب السفارة البريطانية، وأرفق لك بطيه رسائل توصية لقنصل النمسا الرائع، الذي يعمل في الوقت نفسه قنصلاً لروسيا، وأرسل إليك ضمنه كذلك

خطاباً لصديقي الشخصي الكونت كولوريدو، سفير جلالة إمبراطور النمسا في بلاط سانت بطرسبرج.

ودليلاً على احترامي لك، أرجو أن تتقبل كتاب هامر «تاريخ الإمبراطورية العثمانية»، الذي قد يكون مسلِّياً لك في رحلتك الطويلة، وإذا عدت سالماً إلى إنجلترا، أرجو أن ترسل إليَّ مقابل هذا الكتاب يوميَّاتك، التي سأقرأها أنا وزوجتي باهتمام بالغ.

هل لنا أن نُسَرَّ برؤيتك مرة أخرى على العشاء يوم الاثنين القادم؟ أم تريد أن تحدِّد يوماً آخر يناسبك، غَيْرَ يوم الجمعة، إذا أردت تناول اللحم؟ مع تحياتنا الصادقة.

وأنا، سيدي الموقر المخلص لك جداً: كونت ستورمر

في هذه الأثناء حدثت محاولات مختلفة لثنيي عن مواصلة السفر إلى بخارى، ونشرت تلميحات تشير إلى أنه من الأفضل ألا أتعدَّى مشهد، وأصرف النقود في بخارى. على أي حال، تمكنت بمساعدة السير ستراتفورد كاننج، وبسرعة، من إعلام صديقي الكابتن جروفر بمغادرتي، في الخطاب الآتي:

بويوكدير، القصر البريطاني، في ٢٤ نوفمبر ١٨٤٣م

عزيزي جروفر،

ستقنعك الترجمة المرفقة لخطابات السلطان الموجهة إلى مَلِكَيّ خيوه وبخارى، بمدى التأثير الكبير الذي يتمتَّع به السير ستراتفورد كاننج في الباب العالي. وَسَيُسَرُّ أعضاء اللجنة عندما يعلمون أن السير ستراتفورد كاننج أمر ترجمانه السيد ستيفن بيساني أن يقدِّمني شخصياً لكبير الوزراء، الريس أفندي ولشيخ الإسلام، اللذيْن عاملاني بتمييز عظيم. سأسافر هذا اليوم بأقصى سرعة، إلى طرابزون.

المخلص: جوزيف وولف

لقد عاملني السير ستراتفورد والليدي كاننج كأبوَيْنِ لي، وأبدى المترجمون، السادة: فريدريك، وستيفن، والكونت بيساني، حماستهم الشديدة تجاهي، على الرغم من مشاغلهم المتعددة، كما أبدى اللورد نابيير والسيدة أليسون وبقية أعضاء الملحقية، اهتماماً بالغاً بقضيَّتي.

أضمِّن هنا خطاب السلطان الموجَّهَ إلى أمير بخارى؛ وهو مثل ذلك الخطاب الموجَّهِ إلى ملك خيوه، قد صيغ بألفاظ متشابهة؛ باستثناء حثٍّ ذلك الملك بكل بساطة لكي يوصي بي ملكَ بخارى، وأن يعاملني بأقصى ما يستطيع من معاملة متميِّزة، في حال وصولي إلى الأراضي الخاضعة لسيادته، وأعتقد أن من الضروري تقديم الخطاب الأخير.

خطاب من السلطان عبدالمجيد إلى خان بخارى

التاريخ: ٢١ نوفمبر ١٨٤٣م

تعلمون عظمتكم أن الحكومة الإنجليزية قد طلبت منذ وقت مضى أن نعمل بإخلاص على المساعدة في إنقاذ ضابطين إنجليزيين قمتم بسجنهما، وقد كتبنا لكم بهذا الخصوص.

وحيث إن الدكتور وولف، وهو رجل دين إنجليزي متميِّز، قد أرسله الشعب الإنجليزي إلى بخارى؛ للحصول على معلومات تتعلَّق بمصير هذين الضابطين، وكذلك مصير رجلين إنجليزيين آخرين وصلا منذ زمن إلى هناك؛ وذلك لاصطحابهم معه وإيصالهم إلى بلدهم، فقد رأت الحكومة الإنجليزية مرة أخرى بهذه المناسبة، وبأسلوب خاص، انه يجب أن نكتب إلى جلالتكم خطاباً نطلب فيه منكم إيصال السجناء المذكورين ليتم تسليمهم إلى الدكتور وولف، والسماح لهم بالعودة إلى بلدهم.

ولسنا بحاجة إلى إعلام عظمتكم بأن صيانة الصداقة الحميمة والمخلصة

القائمة، منذ أقدم العصور، بين الباب العالي وبلاط إنجلترا، والحفاظ عليها، يعد هدفاً لرغبة الفريقين؛ ولذلك فإن طلبات البلاط المنوه عنها من قبل قد تلقيناها بشكل إيجابي؛ ومن المؤكَّد أننا سنواصل اهتمامنا بهذا الموضوع إلى أن يتم الإفراج عن السجناء وإعادتهم إلى بلدهم. وفي الحقيقة، إنه لأمر يتعارض مع المبادئ المرعيَّة من الحكومات، ومع شرف السيادة، أن يُعتقل مثل هؤلاء المسافرين؛ ومن اللائق أن يقوم عظمتكم بردِّهم إلى حيث أتوا.

ومن منطلق فكرة المساواة والعدل التي تتصف بها، وطاعتك لشخصنا المهيب بصفتنا خليفة، فنحن متأكِّدون أنك - انسجاماً مع ما ذكرناه أعلاه - ستميل بكرم إلى تحرير هؤلاء السجناء، إذا كانوا لا يزالون في بخارى. ونتوقع من عظمتكم أن يتلطَّف ويسلمهم لرجل الدين المذكور اسمه أعلاه، ويتركهم يغادرون مباشرة، وأن يعودوا إلى بلدهم عن طريق القسطنطينية.

قد كتبنا لكم هذا الخطاب السلطاني؛ لكي نعبر لكم عن أملنا هذا، ولتعزيز صَرْحِ صداقتنا، وكذلك السؤال عن حالتكم الصحية، وعندما تتلقَّون هذا الخطاب، فإننا - إذا كان ذلك يرضي الله - نتوقع من عظمتكم استخدام سلطانكم لإنهاء هذا الموضوع.

ويمكن تكوين فكرة ما عن الاهتمام الدائر حول مصير المحتجزين في بخارى من الفقرة الآتية، التي ظهرت في المجلة التركية «توركش جازيت» المؤرَّخة في السادس والعشرين من شوال [١٢٥٩هـ]، العشرين من نوفمبر ١٨٤٣م:

منذ قرابة ثلاث سنوات مضت أو أربع، كان هناك ضابطان إنجليزيان، متضلعان من العلم والأدب، يقومان برحلة استكشافية، وعند وصولهما إلى مدينة بخارى شكَّ الحاكم هناك في كونهما جاسوسين، فأمر بإلقاء القبض عليهما وزجِّهما في السجن. ولكون أقاربهما وأصدقائهما لم يتلقَّوا معلومات منهما أو عنهما، فقد

قلقوا أشدَّ القلق لمعرفة الحقيقة عنهما، وقاموا بعدد من التحقيقات؛ ولكن المعلومة الوحيدة التي كان بإمكانهم معرفتها كانت من بعض تجّار بخارى، الذين نقلوا أنهم، حينما كانوا هناك، سمعوا أن الحاكم نفّذ حكم الإعدام فيهما. ولكون هذه المعلومة ليست مرضيَّة ولا إيجابية، وللرغبة الشديدة لدى أصدقاء الضابطين وأقاربهم في معرفة ما حدث، قاموا باختيار السيد وولف للتوجه إلى بخارى والتأكد من مصيرهما، وهو رجل نبيل متضلع من عدد من اللغات، وكان رحَّالاً كبيراً في آسيا. وقد وصل إلينا الآن، وسوف يواصل سفره على (السفينة) البخارية إلى طرابزون، ومن هناك إلى أرضروم وفارس... إلخ.

وتشير معلومة أخرى من السيد جيمس كالفرت، وكيل شركة الهند الشرقية في مالطا، إلى الاهتمام الواسع بمعاناة الكولونيل ستودارت ورفيقه، نصها:

القسطنطينية ٢٣ نوفمبر ١٨٤٣م

إذا ما حالف الحظ السعيد، ووجد الدكتور وولف، الكولونيل ستودارت حيّاً، فإنه يتعيَّن عليه إبلاغه بأن صديقته السيدة سيدني هورتون، التي تعيش في سيناء منذ بضع سنوات، مهتمة به اهتماماً بالغاً؛ ففي التاسع والعشرين من نوفمبر ١٨٤١م، كتبت (السيدة هورتون) لابني تشارلز تقول: «أتوقع أن ابني قد يصل في أيِّ لحظة إلى مالطا من الهند، وكذلك سيفعل أحد أصدقائي في (السفينة) البخارية القادمة قريباً. فهل ستقوم بتحرِّي ذلك من أجلي، إذا ما كان هناك، وتكلف نفسك توصيل المذكرة المرفقة(١) [موجهة إلى الكولونيل ستودارت]، وتسأله: بأيِّ وسيلة يمكنك أن تقدم له المساعدة؟ إنني أطلب منك ذلك بوصفي صديقة، فالكولونيل ستودارت شخص ممتع ورائع، وأرجو أن يتحرَّر من أَسْرٍ شديد الوحشيَّة زاد على سنتين في بخارى».

---

(١) هذه الملحوظة في مالطا.

وفي الرابع والعشرين من يناير ١٨٤٢م كتبت السيدة هورتون لابني: «آمل أن يَرِدِ في موجز بومباي أخبار جيدة عن ابني، الذي تلقيت منه خطاباً جيداً للغاية، وأنا شاكرة لهذا الخبر، بحيث يمكنني القول: إنه انضم إلى فوجه الجديد في بوناه (Poonah). وأخشى أنه ليس هناك فرصة لمجيئه إلى أوروبا لسنوات قادمة. وأنا بالأحرى قلقة بشأن الكولونيل ستودارت، حيث إنه سيضطر للمرور عبر دولة (أفغانستان) التي أصبحت تشكل خطراً كبيراً على المسافرين».

وكتبت لي السيدة هورتون في السابع والعشرين من فبراير ١٨٤٣م تقول: «لعلك قرأت في الصحف عن المصير المفجع لصديقي المسكين الكولونيل ستودارت؛ لقد أثَّر ذلك فيَّ بأكبر مما يمكنني التعبير عنه، ويبدو أنه لا يمكن عمل شيء يحقِّق ما نطمح إليه، ولا حتى معرفة أسباب هذه الوحشية».

لقد كنت غائباً عن مالطا، وأقيم هنا، منذ أبريل الماضي، ولكنني سأعود إلى هناك في أقرب وقت. ومع أن مراسلاتي مع السيدة هورتون نادرة جداً؛ فقد تسلمت رسالة منها هنا، أعيد إرسالها من مالطا، لأنها تتعلق ببعض الأمور التي تحتاج إلى عناية خاصة، ولا أتذكر تاريخها، ولكن لا بد أن تكون مؤرَّخة قريباً من أغسطس الماضي.

ولا أحتاج كثيراً إلى التعبير عن مدى سروري عند سماعي بسلامة الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وإذا كان الكولونيل سيمرُّ عبر مالطا، فكم سأكون سعيداً بتقديم ما في وسعي له من خدمات.

إذا ما كان لدى الدكتور وولف فرصة للكتابة إلى أوروبا قبل عودته، فسأشعر بالسرور لسماع أيّ تفاصيل منه يمكنه الحصول عليها من بخارى ويقدمها إليَّ، أو، إذا ما كتب عبر القسطنطينية، فيمكنه توجيه خطاباته إلى عناية السادة سي. إس. هانسون وشركاه. مع أمنياتي الحارة بعودته سالماً بصحبة

الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وأي محتجزين آخرين يمكن أن يوفَّق في إطلاق سراحهم.

جيمس كالفرت

وكيل شركة الهند الشرقية في مالطا

سأكون في أشد الحاجة إلى جميع مبادئ الامتنان والحبّ، إذا ما غَفلْتُ عن اللطف العظيم الذي أبداه لي كلٌّ الوزراء المقيمين في القسطنطينية. وكان أكثرهم لطفاً سفيرنا المميَّز السير كاننج وزوجته؛ فقد تلطَّف بالإذن لي بالوعظ في كنيسته الملحقة بالسفارة، وبعد ذلك دُعِيتُ مراراً إلى بويوكدير (*Buyukdere*)، وبعد الفراغ من أشغالي في بيرا، في الثاني عشر من نوفمبر، غادرت إلى بويوكدير، ووعظت وتَلَوْتُ الصلوات هناك أيضاً. وقد مَكَثْتُ هناك حتى الحادي والعشرين من نوفمبر، عندما ألقيت محاضرة في كنيسة السفير، وقد حضر الدبلوماسيُّون المذكورون وأشخاص آخرون، ازدحمت بهم الكنيسة. وفي يوم الأربعاء أرسل السفير الروسي مترجِمَه الأول السيد دو سمايلوف، معي إلى بيت الريس أفندي، (وزير الدولة للشؤون الخارجية) وذلك من أجل التعرُّف إلى الحاجٍّ محمد شريف، وهو شيخ من بخارى، كان قد وصل لتوِّه من مكة، في طريقه إلى بخارى.

وعند وصولنا إلى قصر الريس أفندي، كان معاليه في عربته في طريقه إلى سراي السلطان. فنزل السيد دو سمايلوف من العربة التي أتينا بها سويّاً، وتقدم نحو الريس أفندي؛ ليسأله الإذن لتقديمي إليه، فسأله الريس أفندي: «هل جوزيف وولف معك»؟ فأجاب: «سم»، أي: «نعم»، فقال: «أرجوك، أحضره إلى هنا، فأنا أود أن أراه». وقال معاليه (واسمه رفعت باشا) عندما رآني: إن السلطان قد كتب الخطابات بأقوى العبارات، وإن جلالته وأعضاء البلاط جميعاً يُكَبِّرون فيَّ شجاعتي وإنسانيتي. وتمنى معاليه أن يتحدث معي في اليوم التالي. وأرسل أحد ضباطه في الحال ليعود معي إلى قصره؛ كي يقدمني لشيخ بخارى،

الذي تذكَّر فوراً أنه رآني قبل اثنتي عشرة سنة في منزل القوش بك في بخارى. ووعدني بتقديم كل مساعدة ممكنة عند وصوله إلى بخارى، ولم يكن في إمكاني أن أسافر معه؛ لأنه سافر عن طريق أورينبورج.

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر أرسل السفير السير ستراتفورد كاننج معي السيد فريدريك بيساني، أكثر مترجميه حيويَّة وذكاءً، إلى شيخ الإسلام، وهو كبير علماء الإسلام في القسطنطينية، كما أنه الشخص الوحيد المسموح له بالجلوس في حضرة السلطان، حتى إن السلطان يقبِّل يده. ولا يقتصر تأثيره على تركيا والبلاد العربية فقط، وإنما يمتد إلى وسط آسيا، وفي أي مكان يوجد فيه أهل السُّنَّة من المسلمين. وقد تلقاني بلطف بالغ، وأخبرني أنه أرسل إليَّ الخطابات الموجهة إلى ملالي خيوه وبخارى وخوقند وداغستان. وسعادته (هذا هو لقبه) رجل في السبعين من العمر تقريباً، له لحيَةٌ بيضاء، ويعتمر عمامة كبيرة خضراء، ويرتدي قفطاناً من النوع المخملي الأحمر، مع حزام أبيض يلتفُّ حوله. وكان هناك مُلاَّ آخر يجلس إلى يساره على مسافة كبيرة منه على الديوان. وعرض عليَّ شيخ الإسلام مقداراً صغيراً من السعوط؛ فأجبته قائلاً: «بالرغم من أنني لست معتاداً على استنشاق السعوط، إلا أنني أَعُدُّ ذلك شرفاً رفيعاً أن أقوم به مع شخصية مشهورة، لذا سوف آخذ مقداراً وافراً». وقد فعلت ذلك، إلاَّ أن عطاسي أقنعه بحقيقة ما قلت. بعد ذلك عبَّرت عن سعادتي لرؤية مختلف رؤساء الأديان على وجه الأرض؛ وإنني أتمنى أن يستمرَّ التفاهم الجيِّد الموجود وقتها بين إنجلترا والباب العالي، فأجاب شيخ الإسلام بأنَّ ذلك يعبِّر عن رغبته الحارة أيضاً.

بعد ذلك زرت الريس أفندي، الذي أعطاني ثمانية خطابات تعريف:

أولاً: من السلطان:

١- إلى ملك خيوه.

٢- إلى ملك بخارى، كتبه جلالته بيده في الليل.

ثانياً: من شيخ الإسلام:

١- إلى ملالي بخارى.

٢- إلى ملالي خيوه.

٣- إلى ملالي خوقند.

ثالثاً: من الريس أفندي:

١- إلى باشا طرابزون.

٢- إلى باشا أرضروم.

٣- إلى القائد العام للجيش في أرضروم.

ثم نصحني الريس أفندي بزيارة كبير الوزراء وقاضي الروملي، وذلك ما فعلته، وقد استقبلاني بلطف بالغ وأدب جَمٍّ، وأوصيا بي بشكل خاص عند الشيخ البخاري الذي سبق ذكره، واسمه حاجي محمد شريف بخاري.

عدتُ مرة أخرى إلى الريس أفندي الذي قال لي: «إنني مهتم بك بشكل كبير، ولست وحدي؛ بل جميع أهل البلاد، ومن ثَمَّ يجب ألا تقتصر زيارتك عليَّ فقط، بل ينبغي أن تزور وزراء السلطان جميعهم؛ مثل كبير الوزراء، وقاضي الروملي. ويمكنك أن تتحدث بالعربية والفارسية مع القاضي، إذ إنه رجل متعلِّم جداً». وقد تصرَّفت وَفْقَ نصيحته، وأبدى كل من كبير الوزراء وقاضي الروملي اهتماماً بالغاً بمهمتي، والتقيت هناك بالسيد أليسون، السكرتير الأول للسفارة البريطانية، الذي أخبرني بأن الانطباع العام حولي هو أنني كنت سفيراً.

عند عودتي إلى منزل السيد ساوثجيت، التقيت بقسٍّ سوريٍّ يعقوبيٍّ من ماردين، جعل يُهدِّدُ السيدَ ساوثجيت بتشجيع السوريين على الاتحاد مع الكنيسة الروسية إذا لم يعطه مالاً أكثر. ويستطيع المرء أن يدرك من هذا الحدث الحالة المحزنة للكنائس الشرقية، وأن أفضل أسلوب لإيجاد اتِّحاد معهم هو العمل على

زيادة معرفتهم بالإنجيل، ومساعدتهم على الاطِّلاع على التراجم العربية، المنقولة عن اللغة السريانية القديمة، التي لا يفهمها العامة من الناس في الكنيسة السورية، والطقوس الدينية الجميلة لأفرام سيروس[1]. وأقدِّم نموذجاً على تقوى ذلك الرجل بترجمة أحد أدعيته، وقد ولد في مسقط رأس إبراهيم، أُور العتيقة الخاصة بالكلدانيين[2]، التي يسمِّيها الأتراك الآن: أورفه، ويسميها العرب: الرَّها، ويسميها الأرمن: أوديسا. ولد سيروس في أوديسا في عام ٣٧٠ بعد الميلاد، حيث أكَّد لي أهلها ذلك عندما كنت هناك في عام ١٨٢٤م، ولكن التاريخ الكَنَسي والسمعاني يُخْبِرَانِنا بأنه ولد في نصيبين المجاورة، وهي أَكَد[3] في سفر التكوين الإصحاح العاشر[4] الفقرة ١٠. وقيل عن والديه، اللذيْن كانا مزارعيْن: إنهما جعلاه، عندما كان صبياً، يتعلم الكتاب المقدس، والذي أصبح له مفسِّراً متنوِّراً. وقد أبدى أسفه ذات مرة لأنه في بداية حياته كان يشكُّ في وجود العناية الإلهية، لكنه - فيما بعد - آمن بالقضاء المحتوم، وأصبح أحد مريدي

---

(١) هو قدِّيس وأحد آباء ومعلِّمي الكنيسة. من أكبر كُتَّاب الشرق المسيحي وشعرائه، لُقِّبَ بقيثارة الروح القُدُس. ولِد عام ٣٠٨م في مدينة نَصِيبِينَ (شرقي نهر الخابور)، من أسرة مسيحية. سيمَ شماساً قبل عام ٣٣٨م، وبقي كذلك حتى وفاتِه.. أسَّس المدرسة اللاهوتية في نصيبين، وفي عام ٣٦٣م عندما ترك الإمبراطور يوفانوس المدينة في يد الساسانيين، انتقل أفرام إلى الرها (آنذاك تحت الحكم الروماني) وتوفي هناك عام ٣٧٣م.

(٢) أور الكلدانيين ليست هي أوديسا أو الرها أو أورفه، فالثلاث الأخيرة أسماء مختلفة لمنطقة تقع ضمن حدود تركيا حالياً. أما أور فتقع في جنوب غربي العراق، وهي قريبة من بلدة الناصرية العراقية.

(٣) وقع وولف في أخطاء كثيرة، وهذه واحدة من كثير، فإن أكد ليست نصيبين، لأن نصيبين تقع حالياً ضمن محافظة ماردين في تركيا.

(٤) وهنا يخطئ مرة أخرى، فقد ورد ذكر النمرود في سفر التكوين عند كلامه على أولاد نوح، وأنه كان في بداية مملكته بابل وأكد وأرك وكلنة، وكلها كانت في أرض شنعار، وأرض شنعار التاريخية هي من وسط العراق الحالي إلى جنوبه فقط.

يعقوب، أسقف نَصيبين. وقيل كذلك عن أفرام سيروس إنه لم يكن لديه معرفة كافية بالعلوم الدنيوية، بل كان مهتماً فقط بالكتاب المقدس؛ وإن يَنْبُوعَه هذا الذي لا يَنْضَبُ جعل منه أحد أعلم آباء الكنيسة.

وهذه ترجمة لأحد أدعية أفرام سيروس، التي يرتِّلها الموارنة في كل يوم في كنائسهم في جبل لبنان، والسريانيون في بلاد الرافدين:

صلاة أفرام سيروس

«يا عيسى! يا أبا رعاة الكنيسة وأفضلهم، أدعوك بتضرُّع وتفجُّع، كما أرشدني داود النبي الملك، كاتب المزامير: أن ترحمني، يا إلهي، برحمتك العظيمة، واغسلني غسلاً تاماً من شروري، وطهِّرني من آثامي. فبحقِّك ارتكبتُ الآثام، وعملتُ الشرور، وأنت تراني، وفعلتُ من الأعمال الفظَّة ما أثار غضبك عليَّ، ولكنك كريم، وتتألَّم فوق حدود إيماننا؛ فلا تجعل سخطك يحرقنا، ولا تَدَعْ فضل وجهك ينوء بحمل خطايانا، وأدعوك بمحبة أبيك وبروح قدسه، أن تعفوَ عن آثامي كلها؛ فإنك تراني واحداً من أسعد القطيع الذي يحيا تحت عنايتك، ولكنني رجل بائس! فقد انفصلت عن القطيع بغباء، هائماً هنا وهناك، تاركاً نفسي تنخدع بحيل المضللين. آه! أيها الراعي المحبوب! تقدَّم، أرجوك، وابحث عني، وعندما تجدني ردَّني إلى الحظيرة على أكتافك؛ لعلَّ الملائكة في السماء، وقرينتك الكنيسة في الأرض يسعدان مع بعضهما ومع كافة أبنائك فرحاً بالخروف الذي وجدوه بعد أن ضلَّ».

«لا تبعدني، يا سيدي، عن طريق رحمتك التي تغري وتجتذب لك أكثر الناس بؤساً، اقبل توبة أقل خدمك شأناً، الذي يتوسَّل بجلال كرمك، وبفيض منِّتك أن تتلطَّف بالمغفرة له كما تلطَّفت على السارق، وأن ترضى بشفاء كل جروح الذنوب العصيَّة، التي لا يمنح الخلاص منها إلا أنت.

آه! يا عيسى، أيها المبارك الكريم! أنت سبب صفاء كل الرجال وخلاصهم، وأنت مانح كل ما هو حسن، وأنت الذي عرَضْت نفسك فوق جبل كافاليري، بأن

تروض طبيعتنا لأبيك السرمدي بالتضحية الغالية لجسدك، وأَسَلْتَ روحك في الموت، فأتوسَّل إليك أن تتقبل ابتهالي وصلاتي، من أجل اسمك! آمين»[1].

مات أفرام سيروس شماساً في الكنيسة السورية.

وقد زار أحد السريانيين، السيد ساوثجيت، وهو الآن يلقب بالدكتور ساوثجيت، وأخبرني هذا السوري الرواية الآتية حول أفرام سيروس، قال: عندما وصل أفرام سيروس قريباً من أورفه، دعا الله بأن يخبره أول شخص يلقاه في الطريق شيئاً من الكتاب المقدس. وكان أول شخص لقيه امرأة سيئة الأخلاق، فنظر إليها لحظة، ثُمَّ صرف نظره عنها محزوناً متوجِّعاً؛ لأن دعاءه لم يُستجب، إلا أن المرأة لاحظت استغراقه في التفكير، بعد أن نظر إليها، فاعترضت طريقه، ونظرت إليه، فسألها: لماذا تقف أمامه؟ فأجابت قائلة: «لي الحق أن أفعل ذلك؛ لأنني مخلوقة منك؛ لكونك رجلاً، وأنت تنظر إلى الأرض، التي أنت مخلوق منها!» فذهل أفرام؛ وعلم أن الله قد استجاب دعاءه بهذه الطريقة الخارقة للعادة، وأن يكون أول شخص يصادفه قد أخبره شيئاً من الكتاب المقدس.

وعندما اتَّخذ منزلاً في المدينة، لحظ أن امرأة لَعُوباً تسكن بالقرب منه، وكان باستطاعتها رؤية ما في داخل غرفته من نافذتها. ونادته مرة قائلة له: «يا أبت، امنحني مباركتك». فاتَّجه إلى النافذة، وعندما أدرك أي امرأة هي، قال: «أدعو الله أن يباركك!»؛ فسألته عَمَّ إذا كان يحتاج إلى أي شيء في مسكنه، فأجابها قائلاً: «نعم، بعض الحجارة والطين؛ لكي أسد النافذة التي تسترقين من خلالها النظر إليَّ». فقالت: «إنك تعاملني بخشونة، وأنا أود أن أقيم معك علاقة حميمة، وأنت تنفر من الحديث معي». فأجاب أفرام قائلاً: «تعالي معي إلى السوق العام». فردَّت قائلة: «ألن نستحي هناك في حضور

---

(١) الدعاء كله قائم - بالطبع - على العقيدة النصرانية، وإيمانها بالتثليث، والخطيئة والتكفير والفداء والصلب، وهذا كله مما يخالف عقيدة الإسلام.

الكثيرين من الناس؟!» فأجاب قائلاً: «إذا كان لدينا ما نستحي منه أمام الناس، ألا يَجْدُرُ بنا أن يكون لدينا سبب أقوى لنستحي منه أمام الله، الذي ينظر إلى أعمق أعماق قلوبنا؟» فتأثَّرت المرأة، وشَعَّتِ الرحمة في قلبها، وتابت، وقرأ معها الكتاب المقدس، وماتت تائبةً.

وقد وعظ أفرام سيروس بأنباء الخلاص لليهود والوثنيين.

ولقد التقيت كذلك بالسيد نيكولايسون، الذي وصل توّاً من القدس، وكان مسروراً للغاية برؤيتي، وتمنى أن آتي لزيارته في القدس. ثم تلقيت بعدها مذكِّرة من السير ستراتفورد، يطلب منِّي العودة معه إلى بويوكدير في (السفينة) البخارية ديفاستيشن، فلبيت رغبته.

وفي الرابع والعشرين من نوفمبر قامت الليدي كاننج بخياطة خطاباتي التي حصلت عليها من السلطان وشيخ الإسلام في معطفي، وأعطتني شاياً وسكراً وسرجاً ولجاماً، كما أعطاني السير ستراتفورد منظاراً مقرِّباً وبوصلة. لا أستطيع أن أعبر عن مدى امتنان أعضاء اللجنة جميعاً للسير ستراتفورد والليدي كاننج.

وقبل يومين من ترك القسطنطينية قمت بزيارة تكيَّة دراويش بخارى وسمرقند، الذين ابتهجوا عندما علموا أنني أعرف بلادهم، ولكن لم يكن لديهم أي معلومات عن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي.

وهنا يجب، على أيِّ حال، ألاَّ أنسى ذكر تعهُّداتي للورد نابيير، والسادة أليسون، وتود، ووود، وإف. بيساني، والكونت إيه. بيساني. وكلهم مرتبطون بالبعثة الدبلوماسية البريطانية، وللسيد لافونتين، بأريحيته؛ الذي لم يدَّخر جهداً في سبيل الحصول على معلومات لي عن ستودارت وكونولي. وكذلك كان السيد هنتر، وهو أحد مالكي التايمز، الذي عمل بمنتهى النشاط على نشر تقرير مؤيِّد لمهمتي. وزوَّدني الكونت والكونتيسة ستورمر، والسيد دو تيتو بخطابات قد أحتاج إليها في الطريق. ودفع سفيرنا السير ستراتفورد كاننج تكاليف سفري إلى طرابزون. وقبل مغادرتي قال لي: «يجب أن تعود عبر

القسطنطينية؛ ذلك أنه إذا نجحت، فسنلقاك بفرحة النصر، وإذا لم يكن ذلك، فسنحاول مواساتك. وفي كلتا النتيجتين، يجب النظر إلى مهمتك على أنها عمل وطني، وستكون محل افتخار الشعب البريطاني».

وعلَّق كثير من الأشخاص الآخرين بقولهم: «يا للكابتن جروفر! يا له من رجل نبيل مِقْدَامٍ مستقيم كريم!».

وعند الساعة الواحدة (٢٤ نوفمبر) صعدت إلى متن ميترنيخ، وهي (سفينة) بخارية نمساوية، يقودها قبطان لطيف؛ هو السنيور كليسيان، وهي المركبة التي أمر بها الكونت ستورمر؛ لأخذي من بويوكدير. وأعطاني اللورد نابيير، ونحن على سطح السفينة، شرح لوثر على رسالة القدِّيس بطرس، وهو مطبوع بالألمانية قبل ثلاث مئة سنة، وكذلك كتاب حياة جوته[1]، الذي كتبه فولك، وهو عمل متميِّز، حيث إن فولك مات قبل جوته.

رافقني بقية العاملين في الملحقية إلى متن السفينة لوداعي. واصطحبت معي خادماً اسمه مايكل من صربيا، وأطلعني السنيور كليسيان على سجلٍّ دون فيه المسافرون معه أسماءهم، عثرت فيه على ما يأتي:

لورد بولينجتون، مايو الثامن والعشرون ١٨٣٨م، من القسطنطينية إلى طرابزون. لقد أمضيت ثلاثة أيام جميلة جداً على متن (السفينة) ميترنيخ، ولديَّ كل الأسباب لشكر القبطان فورد على لطفه.

وما هو أكثر روعة، ارجو أن أضيف شكري للقبطان كليسيان على لطفه خلال عبورنا من القسطنطينية إلى طرابزون.

آرثر كونولي

٢٤ أغسطس ١٨٣٩م

---

(١) يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩-١٨٣٢م) أحد أبرع شعراء ألمانيا وأدبائها. ترك إرثاً أدبياًوثقافياً ضخماً، وكان مهتماً بالثقافة والأدب الشرقيين؛ إلى جانب كونه عالماً ورجل دولة.

الفصل الثالث

الوصول إلى طرابزون - تقرير السيد غريزي الغريب. لقاء مع باشا طرابزون. تبرُّع للمهمة في طرابزون. المغادرة لأرضروم - طريق مروِّع - جوموش خانة. اقتناع الأتراك بأن إمبراطوريتهم تغرق. مراد خان أوغلو - بالاهور - بايبوت - كوب. حكاية غريبة لدرويش في هذه القرية. أشكاله - إليجي تيبيد - ينابيع دافئة. أرضروم. نزاع بين الأتراك والفرس حول مسألة الحدود. السيد برانت، القنصل - لطفه. لقاء مع باشا أرضروم. جذر كلمة أرضروم. باشا أرضروم يدفع تكاليف سفر الدكتور وولف إلى الحدود الفارسية. رسالة من أرضروم إلى الكابتن جروفر. تعميد يهودي متنصِّر. طريق مُقتَرَح. طقس عاصف يحتجزنا في أرضروم. لطف الكولونيل وليامز والسيد والسيدة ردهاوس. رسالة إلى الكابتن جروفر. رسالة من الكولونيل وليامز. خطاب عام للمسلمين. رسائل إلى إنجلترا. إسهام في المهمة من رجل نبيل في طرابزون. خطاب للأرمن.

في السادس والعشرين من نوفمبر، توقفت (السفينة) البخارية عند المساء ساعة واحدة في سامسون، حيث يوجد السيد ريتشارد وايت ستيفنز نائب القنصل البريطاني، وهو أخو السيد فرانسيس جي. ستيفنز، نائب القنصل البريطاني في طرابزون. وقد صعد السيد ستيفنز إلى متن (السفينة) ميترنيخ، وأخبرني أنهم ينتظرون وصولي في طرابزون وأرضروم، وأن أخاه في طرابزون قد أعدَّ لي مسكناً. بعد ذلك توقفنا ساعات قليلة عند سينوب، حيث ولد ديوجينس[1].

(1) فيلسوف يوناني من الكلبيين (٤١٢-٣٢٣ ق. م). عاش في أثينا داعياً إلى البساطة، وجعل من التواضع والفقر فضيلة. اشتهر بمصباحه الشهير الذي كان يحمله في وضح النهار ليبحث في ضوئه عن «الإنسان».

وفي السابع والعشرين وصلت إلى طرابزون، وهو موقع مشهور في التاريخ بكرم الضيافة، حيث استقبل ١٠,٠٠٠ من الإغريق الذين أتوا مع زينوفون[١]. وحالما رأوا البحر صاحوا: «البحر! البحر! البحر!» وقد قام جوستينيان وهادريان بتجميل هذا المكان وتحسينه.

وطرابزون هي الموطن الأصلي للكاردينال بيساريون، الذي جذبته وأغرته الهدايا الرائعة ووعود الحَبْر اللاتيني في القرن الخامس عشر، واستخدم كل ما في وسعه من سلطة ومن قوة في فصاحته، لإقناع اليونانيين بقبول شروط السِّلم التي عرضها إيوجينيوس فيما يتعلق بانبثاق الروح المقدسة - المطهرة من الذنوب - ومشروعية الخبز الفطير في عشاء الرب، وقبول سيادة البابا المطلَقَة.

كان بيساريون، الحامي والداعم للمدرسة الأفلاطونية، رجلاً ذا عبقريَّة فَذَّةٍ ومعرفة واسعة.

وطرابزون هي كذلك مسقط رأس جورج طرابزون، أو جورجيوس طرابزونتيوس، إلا أن الطرابوشي يرى خلاف ذلك، وينسبه إلى طرابزونتيوس؛ بسبب سكن أسرته السابق في ذلك المكان. كما ينسبه الطرابوشي إلى جزيرة كريت، وأنه ولد هناك في سنة ١٣٩٥م، ودرس مدة طويلة في بادوا، وكان أستاذ اللغة اليونانية في فيسنزا، وبعد ذلك اسْتُدْعِيَ إلى روما، ولكنه نُفِيَ منها؛ للأخطاء التي ارتكبها في ترجمته للمجسطي لبطليموس[٢]، ورغم أنه أعيد مرة ثانية، إلا أنه كان قليل الحظ، بما يكفي ليتعرض لمحنة جديدة، ويُسجن في قلعة القديس أنجيلو، وقد توفي في عام ١٤٨٨م.

تشتهر طرابزون بالكُمَّثْرَى. وقد استولى القوط عليها وقطّعوا آلافاً من سكانها إرَباً.

(١) جنرال ومؤرِّخ إغريقي.

(٢) كتاب شهير في الفلك.

عند وصولنا، صعد إلى متن (السفينة) الدكتور كاسولاني، المشرف على المحجَر الصحّي، وعبّر عن سروره البالغ وتعاطفه مع هدفي الحالي. وسرعان ما أرسل إليَّ السيد ستيفنز، نائبُ القنصل البريطاني، السيدَ ديكسون، ابن الدكتور ديكسون المقيم في طرابلس، والذي تعرَّفنا إليه في مالطا، وقد رحَّب بي ذلك الرجل النبيل باسم السيد ستيفنز. بوصولنا إلى منزل السيد ستيفنز، استقبلنا هو وأختاه اللطيفتان بأَحَرِّ المشاعر الودِّية، وجهَّزوا لي غرفة. وفي المساء التقيت بمجموعة كبيرة وقت العشاء. وقد زارني كذلك نائب القنصل النمساوي السيد غريزي، الذي تعرفت إليه قبل اثنتي عشرة سنة، وأخبرني بأن ثمانيةً من سكان بخارى وصلوا للتوِّ، وقالوا: إن كلاً من ستودارت وكونولي ما زالا أحياءً، وإن الأول يحمل اسم عبدالصمد خان، ويقود سلاح المدفعية، وإن كونولي يعمل تحت قيادته مساعداً له.

وفي الثامن والعشرين من نوفمبر، قدَّمني السيد ستيفنز، إلى باشا طرابزون، الذي أحمل له خطابَ توصية من الريس أفندي. وقد استقبَلَنا استقبالاً حسناً، وأعطاني جواز سفر للطريق، ومرافقاً من التتر. لكني أراه، على أي حال، رجلاً قاسياً، فظّاً، شديد التعصُّب لرأيه، وعدوّاً للإصلاحات التي يقوم بها السلطان. وهو لا يحتمل رؤية الأوروبيين، ويحاول إعاقة كل محاولة تستهدف تحضير شعبه في طرابزون أو تمدينه، ويسيء معاملة النصارى متى ما سنحت له الفرصة؛ لذا، يجب إنشاء جمعيَّة من النصارى الأوروبيين؛ لحماية النصارى الشرقيين والأرمن والإغريقيين والكلدانيين. إن النصارى في الشرق الآن، وبسبب الاضطهاد الطويل، في حالة متردية للغاية، لذا فإنهم لن يشعروا كثيراً بالامتنان للعون من الأوروبيين، غير أننا يجب ألاَّ نبذل مجهوداً من أجل تلقي الشكر من الناس، بل من أجل الإنسانية. فأبناء المرء نفسه لا يُشعرونه دائماً بالامتنان والعرفان بالجميل.

يقطن طرابزونَ الأرمنُ والنصارى الإغريقُ، إلى جانب الأتراك، وبعض النصارى الأوروبيين، ويوجد حولها عدد كبير من القرى، يسكنها الإغريق الذين يعلنون إسلامهم ظاهرياً، ولكنهم في السرِّ يمارسون طقوسهم النصرانية، وهم يفعلون ذلك منذ استيلاء المسلمين على القسطنطينية، ولهم قساوستهم، الذين يعيِّنهم بطريرك القسطنطينية سراً وأسقف الكنيسة الإغريقية في طرابزون.

ألقيت محاضرة باللغة الإيطالية في الأمسية نفسها، ومن خلال مساعدة السيد ستيفنز جُمع مبلغ أربعة آلاف وأربع مئة بيزو (الدولار الإسباني القديم) لدفع نفقات رحلتي إلى أرضروم، وهو ما يعادل أربعة وأربعين جنيهاً إسترلينياً؛ ما يعني أنني لم أنفق حتى ولا ربع بنس من نقودي منذ أن تركت إنجلترا.

إن السيد ستيفنز واختيه هم أبناء السيد ستيفنز، محاميَّ الشخصي في مالطا، وهو أكثر الناس الذين التقيتهم كرماً ودماثة خُلق وطيبة قلب، وكذلك السيد غريزي؛ هو شخص لطيف جداً، منفتح القلب، ويتمتَّع بحرِّية عقلية، ومثله أيضاً الدكتور كاسولاني.

بدأت رحلتي لأرضروم في الأول من ديسمبر، مع مرافقي الصِّرْبي مايكل، والتَّتَري المقدَّم لي من الباشا، إضافة إلى أحد الأتراك الرائعين، الذي كان يمشي بالقرب مني عندما أهبط منحدرات طرابزون، وكان الطريق من طرابزون إلى أرضروم مروِّعاً؛ ولذلك مشيت طوال اليوم على قدمي.

عند وصولي إلى جوموش خانة، التي تعني «بيت الفضة» لوجود مناجم للفضة فيها، كنت أحمل رسالة من غريزي، القنصل النمساوي والروسي في طرابزون، موجهة إلى رجل أرمني ثريٍّ، يُدعى آراكيل سيبوكسي - أوغلو (أي ابن صانع الغلايين)، وبتُّ عنده، حيث التقيت رئيس الأساقفة الأرمن، وهو رجل نبيل حسن الاطِّلاع، وقد كان مسروراً للغاية بالتعرف إلى «السيد وولف» الذي سمع عنه الكثير.

والتقيت في منزله كذلك بحاجٍّ أرمنيٍّ عائد من القدس، وصل لتوِّه من تلك المدينة، ورأى هناك أسقف البروتستانت. وعلى أية حال فإن الأرمن في «جوموش خانة» غير راضين عن رئيس أساقفتهم، ويتَّهمونه بالاستبداد؛ فالسلطان منح الأساقفة الأرمن والإغريق سلطات واسعة؛ وكان يشجِّعهم على معاقبة أبناء دينهم الذين يتواصلون مع المنصِّرين البروتستانت؛ ولذلك فإن أيدي المنصِّرين النشيطين الموجودين في طرابزون وأرضروم مغلولة، ولا يستطيعون عمل أي شيء.

كما لقيتُ هناك السيد بليس والسيد بنيامين، وهما منصِّران من أمريكا يقيمان في طرابزون، كما كان هناك السيدان بيبودي وجاكسون اللذان يقيمان في أرضروم، وهم جميعاً من أكثر الناس احتراماً، ويتمتَّعون بالهدوء والمسالمة والحماسة في عملهم، ولكن أساقفة الأرمن يُحظرون على أتباعهم استقبالَ هؤلاء المنصِّرين في منازلهم.

وكم كانت بلاد الإمبراطورية التركية ستغدو جميلة، لو كانت بأيدي سلطة أوروبية؛ ذلك لأن الطبيعة تباركها في كل شيء؛ غير أنها لن تتطور على أيدي الأتراك؛ لأنهم، بجانب طبائعهم الكسولة، فإن لدى المسلمين قناعة تامة في أذهانهم بأنهم سوف يُطْرَدُون من ممتلكاتهم الحالية، وأن ثمرة جهودهم سيقطفها النصارى الذين سيصبحون حُكَّاماً لبلادهم؛ وهذه القناعة لم تنتج فقط من التفوُّق الذي تمارسه عليهم القوى الأوروبية، ولكنها نتاج التقاليد القديمة والأقوال والنبوءات الخاصة بهم كذلك[1]؛ ولهذا السبب أسترعي دائماً انتباه علمائهم عندما أحدثهم عن المجيء الثاني للمسيح، وإعادة اليهود، وأن

---

(١) لم يكن ذلك نتيجة تقاليد قديمة ونبوءات خاصة لدى الأتراك، بل قد عاينوا السعي الحثيث لدى الأوروبيين للعمل على القضاء على دولة الخلافة الإسلامية، وهذا ما تم بالفعل في نهاية المطاف.

هذه الأحداث ستعلن بأحكام لم يُسمع بها من قبل في كل البلدان.

يوجد في جوموش خانه مئتان من الأرمن، ومئتان من المسلمين، وأربع مئة من الإغريق، وثمانية من الأرمن الكاثوليك. ويمتلك الأرمن كنيسة، ويمتلك الإغريق أربع كنائس. ويشتكي الأرمن مديرَ مدرستهم الذي تركهم لتوِّه، وأنهم من دون مدرسة في الوقت الحاضر؛ غير أن رئيس الأساقفة كتب يطلب واحداً من القسطنطينية. ويحتلُّ رئيس الأساقفة في جوموش خانه المنصب نفسه لطرابزون، ويصل مقدار صافي دخله السنوي إلى ثمانين دولاراً، أي ما يعادل ستة عشر جنيهاً إسترلينياً.

غادرت جوموش خانه يوم الاثنين الرابع من ديسمبر، وبعبور النهر مرة أخرى قبالة البلدة، اتخذت اتجاهاً أكثر ميلاً إلى الشرق عبر وادٍ صخريٍّ، تحيط به سلسلة جبال، وبعد بضع ساعات من الركوب، اتخذت الأرض مظهراً أكثر صفاءً، وصارت تكسوها المروج الخُضر التي تتراكض فوقها الأغنام. نمنا تلك الليلة في مكان كئيب يدعى مراد خان أوغلو، وبعد ظهر اليوم التالي وصلنا إلى قرية تدعى بالاهور، يسكنها أرمني يدعى ستيفان، كنت أحمل إليه رسالة من رئيس أساقفة جوموش خانه، وقد استقبلني بكرم في منزله المتميِّز بقبَّته، قياساً بعموم السقوف المسطَّحة في الشرق التي تتميز بها معظم البيوت الكردية، وكذلك في أرمينيا. وهي مُعتِمة بشكل بالغ. وقد كان مضيفي المسكين غاية في اللطف.

في السادس من ديسمبر وصلنا إلى بايبوت، المحاطة بجبال عالية جرداء، يقطعها جدول مائي سريع. وتضمُّ (القرية) أربع مئة من المسلمين ومئة من الأرمن، وبها ستة مساجد وكنيسة واحدة، وكان معي رسالة إلى مومبجو أوغلو ستيفن، وهو تاجر أرمني، وقد استقبلني بحفاوة، كما زارني القس الأرمني كذلك.

وقد أقيم هناك محجرٌ صحيٌّ، يُلْزَمُ فيه الأتراكُ وغيرُهم من القادمين من داخل تركيا الخضوع للحجر الصحي مدة تسعة أيام. وكان على إدارة المحجر طبيب إيطالي اسمه لويجي إركولاني، وقد قام بزيارتي، فوجدته مُتضلعاً من الأدب الإيطالي، ولأنه روماني المولد، فقد كان على دراية بخصائص تلك المدينة المميزة. ويبدو أنه بارعٌ في مهنته كذلك. وقد أخبرني أن أعظم الأطباء في إيطاليا في تلك الفترة هم: بوفاليني في فلورنسا، والدكتور فولشي، والدكتور متّاي في روما.

وزارني كذلك أرمني يُدعى الحاج عنبر (!)، قوبل باحترام من الجميع عندما دخل الغرفة؛ لأنه عاد من القدس منذ ثلاثة أشهر فقط. وقد تحدث باحترام عن الإنجليز، وذكر أن الوضع في القدس مَرْضيٌّ، وأن الأرمن يعيشون في سلام، من غير تضييق أو اضطهاد من قبل الأتراك. وأن الأب الروحي لهم هو البطريرك زكاريوس واردابيت. كما أخبرني أنه صَاحَبَ الأسقف ألكسندر إلى بيت لحم.

في السابع من ديسمبر وصلنا إلى قرية اسمها كوب، حيث اضطر رفيقي التّتَري إلى الاستعانة برجلين؛ لحملي مدة ساعتين فوق الجبال المغطاة بالثلوج، وقد دفعت للمسكينين أربعة عشر قرشاً. والآن أشعر بأنني فارس سيئ، بل أسوأ بكثير مما كنته في السابق، ولذلك رأى الدكتور كاسولاني والسيد ستيفنز، نائب القنصل في طرابزون، أن من المناسب إرسال أحد الأتراك معي، واسمه عمر، وكان دائماً يمشي إلى جوار حصاني عندما أركب، ولكني في الغالب كنت أسير على قدميَّ. وقد كان رفيقاً رائعاً؛ فعندما عثر حصاني، عند نهاية المطاف، صرخت، فأمسك مباشرة باللجام وصاح: «ضرر يوك بيك زاده!» أي: «ليس هناك ضرر، يا ابن البيك!».

وفي أيام السلطان مراد كان هناك رجل صالح يقطن في قرية كوب. التقى به السلطان مراد عند مروره بالقرية في أثناء عودته من حملة في بلاد فارس فأخذه معه إلى القسطنطينية، ليسخر منه بوصفه درويشاً. وعند وصولهم إلى إستانبول، كان ذلك الدرويش على قدر من رباطة الجأش كي يستنكر علناً طغيان السلطان؛ ما جعل السلطان، في فورة غضبه، يأمر بإلقاء الدرويش في موقد ملتهب، لكنه خرج منه دون أن يصاب بأذى، فأدرك السلطان عندها أنه يتعامل مع أحد رجال الله الحقيقيين، ففتح له خزانته، وطلب منه أن يأخذ منها ما يشاء. فاختار الدرويش حزاماً وكتاباً، ما جعل السلطان في غاية الدهشة، فسأله: لماذا لا يأخذ مالاً، فكان جوابه أنه لا حاجة به إلى المال، لكنه طلب من السلطان أن يأذن له بالعودة إلى قريته، وأن يمنحه حقولاً ومزارعَ ينتفع منها هو وأحفاده من بعده، فَسُرَّ السلطان من اعتداله، وأعطاه فَرَمَاناً؛ ضماناً لطلبه، وبه أمّن له ولورثته قرية كوب، من دون دفع ضريبة.

وبعد أن عاد إلى قريته شرع في ممارسة الزراعة، وتحسَّنت حاله. واعتادت زوجته أن تحمل إليه طعامه في الحقل، وكانت له ابنة، ذهبت ذات يوم حاملة طعام والدها، وعند وصولها إلى الحقل اكتشفت أن المحراث الذي يستخدمه والدها تجرُّه غرافين(١)، وأن المشدَّات (المربوطة بالحصان) كانت من الأفاعي والثعابين. فعادت إلى المنزل، وقصَّت ما شهدته، ما أغضب والدها، فدعا بأن لا تبلغ أنثى من العائلة سِنَّ الزواج. والآن يعيش الجيل الثاني، ولم يعد في مقدورهم تربية إحدى بناتهم إلى ما بعد العاشرة من العمر، ولكن لديهم أبناء ذكور. ولا يزال أحفاد هذا الدرويش الطيب يقطنون هذه القرية،

(١) حيوانات خرافية برأس وجناحَيْ نسر، وجسم أسد.

وقد ابتنوا مدرسة، وكل شخص في قرية كوب يعرف القراءة والكتابة، كما امتنعوا عن التدخين؛ لأنهم يرونه عادة تافهة، ولا يمكن رؤية غليون في القرية. ويعيش في القرية ستون رجلاً، كلهم فوق الثامنة عشرة من العمر، أما البقية فإناث، ورئيس القرية، الشيخ عبدالله، هو حفيد الدرويش الصالح الذي سبق ذكره، وهو الآن يؤدي مناسك الحجِّ في مكة.

وصلنا بعد سبع ساعات من مغادرة كوب إلى قرية تدعى أشكاله، يعبُر منها المرء أولاً الفُرَاتَ الغربي الذي يسميه الأتراك «قَرَه سو»، وقريباً من ديادين يجري الفرات الشرقي، ويُدعى مراداً، ثم يتَّحدان ويحملان مسمى «فرات» عند كابان مادان. وفي أشكاله التقيت ثلة من الدراويش من بخارى، خرجوا منها منذ أربعة أشهر. وسألتهم: هل رأوا في بخارى بعض الرحَّالة الإنجليز؟ فذكروا أن المتداول أنهما رجلان، وقد قُتلا؛ ولكن ذلك غير صحيح؛ لأن أحدهما قدم من خوقند؛ ما أغضب ملك بخارى عليه؛ إذ ظنَّهُ جاسوساً لملك خوقند؛ ولذلك زجَّ بهما في السجن، ثم أطلق سراحهما بعد زمن، وهما الآن يعلِّمان جنود بخارى النظام الأوروبي.

وقد أوصيت بهؤلاء البخاريين السيدَ ستيفنز في طرابزون، وطلبت منه أن يرسلهم على متن (سفينة) بخارية إلى السفير البريطاني في القسطنطينية، وقد تم ذلك على حسابي الخاص، ودفعت مقابله ست مئة قرش. وأسماء هؤلاء الدراويش:

١- محمد بهادر، من طشقند، الواقعة في منطقة بخارى.

٢- محمد ناصر، من مدينة بخارى.

٣- حاجي فهلوان، من مدينة شهر سبز، بالقرب من بخارى.

٤- حاجي رستم، من هراة.

في التاسع من ديسمبر ١٨٤٣م وصلت إلى إليجي تيبيد، حيث هزم بومبي[١] ميثريداتس[٢]، وهو موضع يشتقُّ اسمه، مثل: Thermopyla، من ينابيعه الحارة: فإليجي: ينبوع، وتيبيد: دافئ، وهناك حمام يستخدم المياه المعدنية. وقد وجه إليَّ أحد الأتراك هناك سؤالاً عما إذا كان الباليوز (القنصل) الذي يمثل الشعب الإنجليزي، ويسكن أرضروم: «كرال إنجليز أوغلو»، أي ابن ملك إنجلترا؟ وسُررت بالسؤال جداً، لأنه يُظهر أن قنصلنا يحظى بالاحترام في أرضروم. وقد تأكدت من ذلك عند وصولي إليها، فسكان أرضروم، الذين كانوا قبل ثلاث عشرة سنة مضت ينظرون إلى الأوروبي باحتقار، حيَّوني بلطف، ومشى كثير منهم معي إلى منزل القنصل البريطاني، صديقي القديم الودود، ومضيفي المبجَّل جيمس برانت، الذي سكن في طرابزون مدة ثلاث عشرة سنة، وقد تلقَّاني بكرمه الودي المباشر المعتاد، وأعطاني رسائل من عزيزتي السيدة جورجيانا؛ وأخبرني أن عدداً من السكان الإنجليز في أرضروم يتمنَّوْن أن أقدِّم لهم السرَّ المقدَّس في اليوم التالي، العاشر من ديسمبر.

وفي تلك الفترة ثار خلاف بين الأتراك والفرس بخصوص الحدود والأكراد في منطقة أرضروم، ومن أجل تسوية الموضوع وصل مندوبون من بريطانيا وروسيا وتركيا وفارس إليها؛ لذا فإن المواطنين البريطانيين الآتية أسماؤهم كانوا في أرضروم لهذه المسألة:

---

(١) *Pompey* جنايس بومبيوس ماجنوس (١٠٦-٤٨ ق. م)، جنرال وسياسي روماني، سحق ثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس، وكان معارضاً ليوليوس قيصر. انحاز إلى «السناتو» في صراعه مع قيصر، فنشبت الحرب الأهلية. هُزم وفرّ إلى مصر، لكنه قُتل عقب وصوله.

(٢) *Mithridates* كان ملك بونتس شمال الأناضول (١٢٠-٦٣ قبل الميلاد)، وشهر عنه عداؤه للرومان، هزمه أحد أشهر الجنرالات الرومان: بومبي الكبير.

١- جيمس برانت، قنصل جلالة ملكة بريطانيا.

٢- إتش. إتش. كالفرت، المستشار في القنصلية.

٣- جورج جوارسينو، الملحق بالقنصلية.

٤- بي. زوهراب، المترجم، وزوجته وبناته.

٥- جوزيف ديكسون، دكتور في الطب، وهو ابن الدكتور ديكسون المقيم في طرابلس.

٦- الكولونيل ويليامز، الضابط في الجيش النظامي، والمندوب من الحكومة البريطانية.

٧ روبرت كرزون ابن الموقر روبرت كرزون، والسيدة لا زوتش. وهو مندوب أيضاً من الحكومة البريطانية.

٨- جي. ردهاوس، سكرتير ومترجم للمندوبين، وهو أعظم العارفين باللغة التركية في أوروبا. وكان موجوداً مع زوجته الودود.

ومن روسيا: الكولونيل داينيزي، مندوب من الحكومة.

ومن الجانب الفارسي: ميرزا تقي، مبعوث مطلق الصلاحية.

ومن الجانب التركي: أنوري أفندي، مبعوث مطلق الصلاحية؛ يرافقه الدكتور دي كامين، طبيبه الخاص.

وممن كانوا في أرضروم في ذلك الوقت: السيد جاريبالدي، القنصل الروسي، والقنصل الفرنسي جويب؛ والمترجم الفرنسي السيد بياتين، وسكرتير القنصل الروسي الدكتور بيرتوني، ومرافق أنوري أفندي، السيد بكر باشا، وهو من سلالة أبي بكر، وكان متقناً للغة الإنجليزية. وهناك أيضاً القس دبليو. سي. جاكسون، والقس جوشيا بيبودي، وهما منصِّران أمريكيَّان متميِّزان.

وفي يوم الأحد العاشر من ديسمبر ١٨٤٣م، أقمت صلاةً عامَّة ووعظت، وقدَّمت السرَّ المقدَّس للمواطنين البريطانيين الذين حضروا جميعاً، ما عدا الموقَّر

روبرت كرزون، الذي منعه من الحضور ضعفٌ ناتج عن إصابته بحمًّى خطيرة.

وقد قام معالي باشا أرضروم، كمال باشا، وهو رجل مهذب ودود، بزيارة السيد برانت، مضيفي الكريم، الذي تلطف بتقديمي لمعالي الباشا. وأعطيته خطاباً من الريس أفندي موجهاً إليه. ووعدني بتقديم كل ما في وسعه من مساعدة. كما زارني القنصل الروسي أيضاً.

في الحادي عشر من الشهر قمت بزيارة الكولونيل وليامز، الذي ابتدأني بالزيارة، وزرت كذلك السيد والسيدة ردهاوس، والسيد كرزون، الذي تعرَّف إلى الليدي جورجيانا في مالطا.

في هذا المساء أقمنا حفلة بهيجة في منزل السيد زوهراب، ترجمان السيد برانت. وتذكرت السيدة زوهراب وبناتها عندما كنَّ في مالطا. كان هناك الكثير من الثلج في أرضروم، والأراضي المجاورة لها. وكان لطف السيد برانت معي بالغاً، وكذلك جميع المسؤولين في القنصلية. ويقطن أرضروم زهاء أربعين ألفاً من السكان، معظمهم من المسلمين، عدا ستة آلاف من الأرمن، وبضع مئات من الكاثوليك الأرمن مع أسقفهم. ويمكنني هنا أن أبدي ملحوظة حول الأصل اللغوي لأرضروم: فهي ممزوجة من أرضٍ وَرُومٍ، التي تفيد إنها كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وحتى اليوم يطلق الأتراك على اليونانيين وصف: روم، ويُسَمِّي الناسُ في تركستان وفارس سلطانَ الإمبراطورية التركية، سلطان الروم(١).

وفي يوم الثلاثاء، الثاني عشر، قمت بتعميد طفل للسيدة ستاجنو، وجهزت

(١) يهدف المؤلف من هذا الشرح اللغوي، إلى التأكيد بأن هذه الأرض في أصلها هي أرض رومية نصرانية، استولى عليها المسلمون، ولا بد من استعادتها منهم. وانظر ما سلف عن أمنيته أن تكون الأراضي التركية في أيد أوروبية.

يهودياً للتعميد، اتخذ اسم خادم روبنسون كروزو «جمعة» اسماً له(١). وقد كان خادماً للكولونيل وليامز، الذي جعل منه شخصية ممتازة. وقام بزيارتي شاه جمال الدين، أحد الدراويش النقشبندية، ومن شيوخ بخارى، وأخبرني بأنني لا بد أن أجد أصدقائي أحياءً، وبأنه سوف يعطيني خطابات توصية.

وقد تناولت طعام الإفطار هذا اليوم مع الكولونيل وليامز؛ وكان السيد والسيدة ردهاوس والسيد برانت موجودين هناك أيضاً، بعدها قمت أنا وكلٌّ من القنصل السيد برانت، والمندوب الكولونيل وليامز، ومترجمُه السيد ردهاوس، بامتطاء الخيل وزيارة معالي باشا أرضروم. وكنت مرتدياً حُلَّتي الكهنوتية. وعند دخول قصر الباشا، كان أنوري أفندي - مندوب السلطان، الذي أحمل له خطاباً من الريس أفندي - موجوداً هناك أيضاً. فنهض كلٌّ من الباشا والمندوب عند دخولنا الغرفة وصافحانا على الطريقة الإنجليزية، ثم جلسنا، وبعدها أُحضرت الغلايين والقهوة والشاي والعصائر. وتحدَّثنا مطوّلاً حول الأدبين العربي والفارسي، وكذلك حول تاريخ محمد، النبي العربي، وحول رحلاتي عبر آسيا. بعدها أخبرتهم بنوادر عن فريدريك الثاني، وقد ملكت لُبَّ كلٍّ من الباشا والمندوب، وكأنني أحكي لهما حكاية السمكة والخاتم(٢).

وقد وعدني معالي الباشا بتحمُّل نفقات رحلتي من أرضروم إلى الحدود

(١) يشير هنا إلى رواية روبنسون كروزو، وهي قصة كتبها دانيال ديفو، ونشرت أول مرة سنة ١٧١٩م. تعد في رأي بعض النقاد الرواية الأولى في الإنجليزية. وهي سيرة ذاتية تخيلية، تحكي عن شاب انعزل في جزيرة وحيداً مدة طويلة، دون أن يقابل أحداً من البشر. ثم بعد سنوات يقابل أحد المتوحِّشين من سكان الجزيرة، ويسمِّيه جمعة (حيث صادفه في يوم جمعة) ويعلمه بعض ما توصل إليه الإنسان المتحضِّر من تقدم فكري، ويجعله خادماً له. وفي نهاية القصة يعود روبنسون ومعه جمعة إلى أوروبا، حيث العالم المتحضر. صورت السينما الأجنبية القصة عدة مرات بممثلين مختلفين.

(٢) السمكة والخاتم: من الحكايات الأسطورية الإنجليزية القديمة.

الفارسية، وبإرسال جنديين معي على نفقته، وكذلك زوَّدني أصدقائي الإنجليز هنا بكل الأشياء الضرورية. لقد اهتمَّ بي السادة برانت ووليامز وردهاوس وزوجته الودود، وكأنني أخ لهم.

في يوم الأربعاء، الثالث عشر، تناولت طعام العشاء مع الكولونيل وليامز، في حضور كلٍّ من السيد والسيدة ردهاوس، والسادة كالفيرت وجوارسينو. وبِتُّ تلك الليلة في منزل الكولونيل.

وفي يوم الخميس، الرابع عشر من ديسمبر أعطيت السرَّ المقدَّس للمحترمَيْن روبرت كرزون والسيدة ردهاوس. وبعد الظهر ألقيت محاضرة في منزل السيد برانت، حيث كان بكر باشا وأنوري أفندي بين المستمعين، ولأن أنوري أفندي لا يُحسن الإنجليزية، قام السيد ردهاوس بترجمة كل جملة له. وكان من بين الحضور كذلك السادة: بيبودي، وجاكسون، وزوجتاهما.

وفي السادس عشر من الشهر كتبت إلى الكابتن جروفر الخطاب الآتي:

أرضروم ١٦ ديسمبر ١٨٤٣م

عزيزي جروفر، أعتقد أن أيسر الطرق وأفضلها أن ينسخ السيد جوارسينو، الملحق في القنصلية البريطانية بأرضروم، رسالتي الموجَّهة إلى السيدة جورجيانا ويرسلها إليك، وسوف تجد بطيِّه كذلك مرفقاً شهادة أخرى من ثمانية حجاج بخاريين، تلطَّف قنصلنا الرائع السيد برانت بتزويدي بها اليوم، وهي تتعلق ببقاء الكولونيل ستودارت وكونولي على قيد الحياة، وأنهما يعاملان معاملة جيدة في بخارى. نسأل الله أن يجعل الأمر كذلك! وعلى أية حال، فإن ذلك قد شجعني كثيراً.

ولأن الطريق من أرضروم إلى تبريز مغطاة بالثلج، فقد تلطَّف الكولونيل وليامز بتزويدي ببدلة من الملابس الشتوية وحذاءٍ... إلخ من أجل الرحلة، ولن أتمكن من الخروج من أرضروم قاصداً تبريز قبل الأربعاء القادم، العشرين من ديسمبر، حيث سأغادر أرضروم في الصباح الباكر. كما زودني مندوب ملك فارس بخطابات تعريف لأصدقائه على الحدود الفارسية وفي تبريز، وقد تعرف إليَّ

ميرْزا تقي (هذا هو اسم المندوب) في تبريز، وكان يعرف أنني اصطحبت ميرْزا إبراهيم معي من فارس إلى إنجلترا على حسابي الخاص، وأنه الآن أستاذ اللغة الفارسية في جامعة إيست إنديا، بالقرب من هيرتفورد، هايليبري.

المحب لك: جوزيف وولف

وفي يوم الأحد، السابع عشر من ديسمبر، أدَّيت صلاة عامة مرة أخرى في القنصلية البريطانية، وبعد الدرس الثاني قمت بتعميد إسرائيل جاكوب، الخادم، المذكور آنفاً[1]، للكولونيل وليامز، أحد المندوبين لجلالة الملكة في أرضروم. كان إسرائيل جاكوب يهودياً من ألمانيا، وقد شهد كلٌّ من الكولونيل وليامز والسيد برانت، قنصل جلالة ملكة بريطانيا في أرضروم، والسيدة ردهاوس هذا التعميد. ووعظت كذلك بعد أن قُضيت الصلاة، موعظةً حول الحكم الشخصي للمسيح وإعادة اليهود[2]. وبعد الظهر زارني أحد المسلمين من بخارى، وهو أول من أخبرني بسماعه نبأ مقتل الكولونيل ستودارت.

ولم أتمكن من الكتابة إلى الكابتن جروفر هذا اليوم، لانشغالي بزيارة المندوب التركي أنوري أفندي. وقد صحبني إليه السيد برانت والسيد زوهراب. وقد تعجب أنوري أفندي كثيراً من قلة مبالاتي، بعدم إحضاري ملابس شتوية إلى أرضروم، وسلمني خطابات موجهة إلى بالول، باشا بايزيد، وإلى قنصل تركيا في تبريز.

وعقب الظهر ألقيت محاضرة أخرى حول رحلتي الأخيرة من بخارى إلى كالكوتا، لم يحضرها المندوبون الإنجليز فقط، ولكن حضرها أنوري أفندي وبكر باشا. ووزِّعت هنا كذلك، باللغة التركية، دعوتي للشعب المسلم، والتي نُشرت في الجالجناني والهيرالد. وتلطَّف الأستاذ ردهاوس بترجمتها، كما عُملت لها ترجمة

(١) هو الخادم الذي تسمى باسم «جمعة».

(٢) يريد بالطبع إعادة اليهود إلى فلسطين، وهذا دأبه وديدنه في جميع كتابه هذا.

أخرى إلى اللسان الفارسي. إن من الصعب جداً أن يتخيل المرء مقدار الاهتمام الذي أولاني إياه الأصدقاء الإنجليز هنا بشأن مهمتي، وأتمنى فقط أن أستطيع الإعراب عن مشاعر الامتنان نحوهم بطريقة أو بأخرى؛ فلا يمكن لأيٍّ أخٍ أن يبدي مشاعر أكثر لطفاً مما أبداه نحوي القنصل برانت، والكولونيل وليامز.

ويبين الجدول الآتي طريقي بمباركة من الله:

٢١ ديسمبر: حسن قلعة	٦ ساعات	١٨ ميلاً
٢٢: خراسان	٨ ساعات	٢٤ ميلاً
٢٤: مُلاَّ سليمان	١٥ ساعة	٤٥ ميلاً
٢٥: قره كيليسا	٧ ساعات	٢١ ميلاً
٢٧: ديادين	١٢ ساعة	٣٦ ميلاً
٢٨: بايزيد	٦ ساعات	١٨ ميلاً
٢٩: أواجيك	٨ ساعات	٢٤ ميلاً
٣٠: قره عينه	٨ ساعات	٢٤ ميلاً
٣١: زوراهويه	٨ ساعات	٢٤ ميلاً
٢ يناير ١٨٤٤م: خوي	١١ ساعة	٣٢ ميلاً
٣: تشويش	٨ فرسانج(١)	٣٢ ميلاً
٤: توسج	٦ فرسانج	٢٤ ميلاً
٥: تبريز	٨ فرسانج	٣٢ ميلاً
		٣٥٤ ميلاً

(١) وحدة قياس كانت مستخدمة في بلاد فارس، تدل على ما يمكن للرجل أن يمشيه من مسافة في اليوم الواحد.

بهذه الخطة توقعت أن أكون في السابع من يناير في تبريز، وفي العشرين من يناير في طهران.

وفي التاسع عشر من ديسمبر تلطَّفت السيدة ردهاوس بتجميع أوراقي، ووفَّرت لي بسكويتاً وملابس دافئة. وباختصار فقد اهتمت بي هذه السيدة وزوجها اهتمام الأخ والأخت بأخيهما. وفي الليل كانت هناك عاصفة ثلجية عاتية، وفي الصباح وقعت هِزَّةٌ أرضية خفيفة. ووجدت أنني لن أتمكن من بدء رحلتي قبل يوم الخميس القادم، فقد أُغلقت الطرقات بسبب تراكم الثلوج. وفي الليلة السابقة أُطلِقت نيرانٌ كثيفة من البنادق، كل خمس دقائق، مدة ساعة كاملة، لإرشاد المسافرين الضالين إلى موقع الحصن، وإنقاذهم من العواصف الثلجية، لوجود الكثير من المستنقعات الكبيرة، وما إلى ذلك.

وتلقيت هذا اليوم ملحوظة من القنصل السيد برانت، نصها:

أصرَّ دكتور فرنسي مسكين على المضي قدماً بالأمس إلى قارص، وأخشى أنه قد ضل طريقه في ديفه بويون، وهو جبل بالقرب من أرضروم؛ فقد خرج قبل رفاقه، الذين عادوا، ولكن لا توجد أية أخبار عنه، وقد أرسل الباشا أناساً للبحث عنه... إلخ.

جيمس برانت

وقد أُلْبِسْتُ، بفضل لطف الكولونيل ليامز، مجموعةً من الملابس: عباءة، وبنطالاً جُعل واسعاً بشكل ملحوظ، ومعطفاً صدرياً، ومعطفاً آخر من النوع نفسه كان على شكل معاطف الصيد تماماً. وفوق ذلك أُلبست معطفاً واسعاً مبطَّناً بكامله مع أكمامه بفرو ذئب (كنت ذئباً في ثياب ذئب)[1]، وحول خَصْري شالٌ من الصوف وفي قدميَّ، أولاً جواربُ صوفية سميكة، وخُفَّان خفيفان

(١) يشير إلى اسمه الأخير: وولف، الذي يعني: «ذئب» وهو بالإنجليزية والألمانية والهولندية.

مبطَّنان بالفرو، عليهما خُفَّان كبيران من الجلد، مثل تلك التي يلبسها حرَّاس الملكة، يَنْسَدِلان إلى فخذي. ويتَّصل بمعطفي المصنوع من الفرو قَلَنْسُوَةٌ تغطي قَلَنْسُوَتِي المصنوعةَ من الفرو، في أثناء السفر، وقد خيط قُفَّازان كبيران مع معطفي. وبهذا رأى أصدقائي أنني أبدو مقاوماً لضربات الثلوج. وقد علَّق السيد كرزون بأنني كنت أبدو كرجل نبيل في رحلة صيد، ولو حدث أن منعني حادث من السفر إلى ما بعد عيد الميلاد، فقد وعدتْني السيدة ردهاوس المضيافة بعشاء لذيذ؛ يتكون من لحم بقر مشويّ، وحَلْوَى برقوق، وفطائر محشوَّة.

وفي الحادي والعشرين (من الشهر) كتبت إلى صديقي الطيب الكابتن جروفر الخطاب الآتي:

أرضروم، ٢١ ديسمبر ١٨٤٣م

عزيز جروفر، لا يوجد من هو أكثر منك حيوية وخيراً، ولذلك أكتب إليك عن موضوع محدَّد: إن مضيفي هنا، المبجل جيمس برانت، قنصل جلالة ملكة بريطانيا في أرضروم، هو الأروع، والأكثر تعليماً، وأكثر الرجال إنسانية، وبفضل نشاطه وجهوده ازدادت التجارة بين تركيا وفارس وتيسَّرت بصورة ملحوظة جداً. ومن خلال مساعيه، تم إنشاء ست قنصليات جديدة داخل الإمبراطورية التركية، وفي أكثر الأماكن تعصُّباً. ويمكنني أن أشهد بحقيقة، أن روح السكان في أرضروم تغيرت إلى الأفضل؛ ففي السابق لم يكن الأوروبي يستطيع الخروج بملابسه المعتادة، والآن هو محترم. وقد تحسَّنت الشوارع، وازدادت التجارة بين تركيا وفارس بصورة ملحوظة.

ولأن القنصل العام في طرابلس، في شمال أفريقيا، الكولونيل ورنجتون، رجل متقدِّم في السن، وربما أُحيلَ إلى التقاعد قريباً، فسأكون ممتناً لك لو تلطفت

بالتوصية بالسيد برانت من خلال أصدقائك والآخرين، في وزارة الخارجية. فهو متلهِّف جداً للمشاركة في جهود إلغاء تجارة الرقِّ في أفريقيا، وكذلك إنشاء قنصليات في الداخل الأفريقي. الرجاء أن تفعل ذلك.

لقد صدر الأمر للخيل الخاصة بمغادرتي، وللضابطين التابعين للباشا (القَوَّاسَيْنِ) لاصطحابي إلى بايزيد، ولكن الثلج ما زال كثيفاً، إلى حد أن القوافل لا تستطيع التحرك ذهاباً أو عودة؛ لذا فمن المستحيل أن أبدأ رحلتي هذا الأسبوع، ما جعلني مستاءً إلى حد بعيد، ولكن لا يمكن عمل شيء ما. وقد كتب الكولونيل وليامز كذلك إلى السير ستراتفورد كاننج، بأنهم أُجبروا على منعي من الرحيل بالقوة تقريباً.

المخلص: جوزيف وولف

وفي الثاني والعشرين من الشهر تسلَّمت من صديقي الرائع، الكولونيل وليامز، الرسالة الملحقة:

أرضروم ٢٢ ديسمبر ١٨٤٣م

عزيزي الدكتور وولف، أرسل إليك خُرْجَيْن، وسأطلب من الباشا أن يسمح للقوَّاس التابع لي أن يلصق نسخة باللغة التركية وأخرى باللغة الفارسية من خطابك الموجه إلى المسلمين، على بوابة الخان الفارسي الرئيسي (أفضل من لصقها على جدار قصر أو مسجد).

وأبدي أسفي؛ لأنك لم تفكر في ذلك من قبل، وأوصيك أن تعمل على إلصاق هذا المستند فور وصولك إلى تبريز وطهران. وستجد جلد الكبش الخاص بك «كيس النوم» في عدل الخرج، وأرجو، يا عزيزي، ألاَّ تنسى وضع قدميك في داخله.

أما فيما يتعلق بسؤالك الأخير، فلم أطلب أو أسمح لأي شخص أن يمانعني، ولن أفعل ذلك؛ لأنني أرى من واجبي - بوصفي ضابطاً بريطانياً - أن أساند،

بأية طريقة ممكنة، محاولتك الشجاعة، التي تستحق المديح، لإطلاق سراح إخوتي الضباط، أو الكشف عن مصيرهم، وتذكر أننا جميعنا إخوة في السلاح.

المخلص جداً لك: دبليو. إن. وليامز

حاشية: لا أعتقد أن في إمكانك بدء الرحلة غداً، وعندما يحصل قوّاسي على إذن، فسوف يأتي إليك بالنسختين، وعندها سوف يقوم بلصقهما على جدار الخان.

إن الخطاب الذي ألمح إليه الكولونيل في رسالته، والذي أُضَمِّنه هنا، وُزِّع بين المسلمين في الإمبراطورية التركية وبلاد فارس وخراسان، ومن هناك أُرسل من المسلمين إلى أفغانستان وكابل وكشمير وبخارى، وهذا نصه:

أتباع الدين الإسلامي في كل الإمبراطورية التركية والبلاد العربية وأفغانستان: إنكم تتذكرونني جيداً. فقد كنت بينكم في دمشق ومصر وحلب وبغداد وأصفهان وبخارى وكابل وهندوستان، وقد تحدثت عن مجيء يسوع المسيح مع المسلمين واليهود والزرادشتيين والهندوس. وبالرغم من الاختلاف في الآراء الدينية، فقد استُقبلت استقبالاً حسناً من سلطان المغول في دلهي، والشاه في فارس، وكبار الملالي في بغداد والقسطنطينية وأصفهان وكشمير وبخارى. وقد وصلت إلى أقصى حدود العالم، حتى أمريكا، التي تقع في الجانب الآخر من المحيط، حاضّاً الناس على فعل الخير والتوبة من أجل المسيح. ولما وصل إلى علمي أن ضابطين بريطانيين ذَوَيْ مكانة رفيعة، هما الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، قد قُتِلا بأمر من أمير بخارى، وكذلك ضابط من نابولي، اسمه ناسللي، من فرقة الخيَّالة، فإنني سأذهب إلى بخارى العظيمة للتأكد من حقيقة ذلك التقرير؛ ذلك لأنني لا أستطيع تصديقه، فقد سبق أن استُقبلت استقبالاً حسناً في بخارى وتمتعت بضيافة بالغة. وإلى جانب ذلك، فإن مثل

هذا التصرف يعد منافياً لأصول الضيافة، التي يتقيد بها المسلمون بشكل مقدس، وأنا ذاهب إلى هناك لكي أطالب بهم إن كانوا أحياءً، أما إن كانوا قد قُتِلُوا فعلاً، فسأطلب تفسيراً لمقتلهم. وقد زودني سلطان القسطنطينية، وشيخ الإسلام، أبقاهما الله، بخطابات موجَّهة إلى أمير بخارى وإلى كبار الملالي في تلك المدينة.

وأدعو الآن كل الأمراء المسلمين والملالي في جميع أقطار العالم أن يرسلوا خطابات توصية نيابة عني إلى ملك بخارى؛ لكي يستقبلني استقبالاً حسناً.

جوزيف وولف

لقد منعتني حالة الطقس الصعبة من المغادرة التي كنت متلهِّفاً بشدة للقيام بها، فقد كنت أقدِّر أن مصير ستودارت وكونولي يمكن أن يكون معتمداً على سرعتي في السفر، ولكوني متلهفاً لدرجة لا تقاس، شعرت كأنني لم أنجز تماماً ما أرادته تلك الآمال النبيلة والخيِّرة لأولئك الذين أرسلوني؛ لذلك كتبت إلى الكابتن جروفر الخطاب الآتي:

أرضروم ٢٥ ديسمبر ١٨٤٣م

عزيزي جروفر

لقد أُحضر إلى أرضروم حوالي عشرة أشخاص ميتين من طريق تبريز وطرابزون؛ ولذلك لن تتعجَّب إن علمت أن أصدقائي الأعزاء هنا: الكولونيل وليامز والسيد والسيدة ردهاوس والسيد جيمس برانت، لم يسمحوا لي حتى الآن أن أبدأ رحلتي إلى تبريز؛ ولكني سأرحل في السابع والعشرين من الشهر الحالي، وقد زودني الكولونيل وليامز بملابس مدفئة. وكان ما لا يقل عن ثلاثة عشر شخصاً من بخارى قد أكدوا للسيد ستيفنز، نائب القنصل في طرابزون، أن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي لا يزالان على قيد الحياة، وابتهجت لعلمي أن اللورد أبردين أيضاً لديه آمال كبيرة في كونهما على قيد الحياة،

وذلك ما فهمته من مراسلاته الموجَّهة إلى الكولونيل شيل من خلال السفارة البريطانية في القسطنطينية، ومن هناك إلى الكولونيل وليامز، مع طلب السماح لي بقراءة المستندات.

أرجو أن تنقل حبي لكل أعضاء اللجنة، ولأسرتك.

المحب لك: جوزيف وولف

أظن أنني ذكرت لك سابقاً أن باشا أرضروم تعهَّد بدفع جميع نفقات سفري حتى الحدود الفارسية.

تواصلت حدة رداءة الجو حتى عيد الميلاد، وكانت جثث الموتى نتيجة سقوط الثلوج تُنقل من الطرقات يومياً، ولهذا السبب لم يأذن لي أصدقائي الودودون الرائعون في أرضروم بالمغادرة فبقيت، وأمضيت ليلة عيد الميلاد مع الكولونيل وليامز والسيد والسيدة ردهاوس وبكر باشا - وهو رئيس فرقة المدفعية -، وكتبنا جميعاً إلى السيدة جورجيانا.

لقد أكَّد لي ثلاثة عشر شخصاً من بخارى حتى الآن أن ستودارت وكونولي لم يزالا أحياءً، وأرسل إليَّ رجل نبيل من طرابزون خمس مئة قرش للصرف منها على مهمتي، وقد تسلمتُها في ليلة الميلاد. أنا واثق بأنني لن أغفل عن تسجيل أي تصرف معي يتسم بالود، ولكن إذا حدث غير ذلك، فإن حياة الرحَّالة المصطبغة بالعجلة تُوجبُ أن يُلتمس له العذر والسماح، وقد أصدر باشا أرضروم نداءً لكل المسلمين، حاضّاً إياهم على دعم مهمتي الحالية. وإذا كان لطف كل المتدينين على وجه الأرض يمكن أن ينقذ حياة إنسان، فإنني أشعر أن عملي هذا سيكون كذلك، وبأنني أعود إلى بخارى مدعوماً بقوة إيمانية، لا تقل عن أقصى مدى للقوة السياسية.

ومن هذا المكان كتبت إلى سيادة اللورد أسقف لندن، رسالة مطولة حول حماسة القس إتش. ليفز وشخصيته الرائعة، وفضائل الوكلاء الآخرين لجمعية

الإنجيل البريطانية والأجنبية، ملتمساً من سيادته أن يرسل قَسّاً إلى القنصلية البريطانية في أرضروم. كما أرسلت إلى صديقي الأثير لديَّ السير تي. بارنج، موصياً بمساندة اهتمامات السيد برانت وجعل القس الجديد تحت رعايته، وكذلك إلى هنري دروموند، حول أمور مختلفة ذات اهتمام ديني.

وفي صباح يوم عيد الميلاد قدَّمت السرَّ المقدَّس لسبعة من الإنجليز، واليهوديِّ الذي قمت بتعميده في منزل القنصل برانت، الذي مكثت تحت سقفه المضياف سبعة عشر يوماً، وقبل مغادرتي أرضروم كتبت للأرمن الخطاب الآتي:

أحفاد حايك، وأتباع جريجوري لوساوريتش، وميسروب، وموسى فوكازير، ونيرسيس شنور- هال:

لقد أعلن لكم كاتوخليكوس[1] أفرام المبجل، ونيرسيس الكاتوخليكوس الحالي في إتش ميازين، برسائل عامة منهما، أنني صديق الأرمن، وما إنشائي لمدارس لكم في بوصوره وبوشير إلا إثبات أنني كنت صديقكم ولا أزال؛ ولذلك فإنني سأعرض عليكم الالتماس الآتي: أنا الآن بصدد الذهاب إلى بخارى بُغية تحرير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وناسللي من فرقة الخيالة، ولأنني كنت يهودياً في السابق، فإن ذلك يمنحني متعة خاصة؛ لكي أثبت للعالم غير اليهودي من الأمم أنني أحب مخلِّصي الرب يسوع المسيح، بكوني مستعداً للتضحية بحياتي من أجل الإخوة من غير اليهود كاستعدادي للتضحية من أجل اليهود، ولعلمي بأن الأرمن في أستراخان وأورينبورج وموسكو على تواصل مع تجار بخارى، فإنني أتوسل إليكم، وعلى وجه الخصوص سكروب، رئيس الأساقفة لديكم في أستراخان، لكي تكتبوا إلى الأقلية الأرمنية القاطنة في

---

(١) كلمة كاتوخليكوس تعني بطريرك الكنيسة الأرمنية. (المترجم).

بخارى، وكذلك أن توصوا بي لدى الإمبراطور العظيم نيكولاس باولوفتش، بأن يقوم هو كذلك بالتوصية بي لدى أمير بخارى؛ لعل جلالة أمير بخارى يُستحثَ ليسلِّمني الضباط المذكورين أعلاه.

أخوكم المحب لكم في المسيح:

جوزيف وولف

لقد كان هناك، قبل الحرب الأخيرة لروسيا مع تركيا، بضعة آلاف من الأُسر الأرمنية في أرضروم، ولكن الجنرال باسكيوفتش، غداة عودته إلى روسيا، نصح الأسقف الأرمني، وبقية الأرمن من سكان أرضروم والبلاد المجاورة لها، أن يتبعوه إلى روسيا. وتبع نداء ذلك البطل قرابة ٩٠,٠٠٠ أسرة من الأرمن القاطنين في الإمبراطورية التركية، واستقروا في جورجيا وقره باغ، وأجزاء أخرى من الإمبراطورية الروسية.

الفصل الرابع

مغادرة أرضروم، السابع والعشرون من ديسمبر. كيروجاك، حسن قلعة، كوماسور، دهلي بابا، زواج أرمني في هذه القرية. دهار، قرية كردية. مُلاَّ سليمان، قرية أرمنية. قره كيليسا، كولاسور، أوچ كيليسا، ديادين، قزل ديسا . عاصفة ثلجية عاتية. أواجيك، كاراين، سُهْرآباد، خوي، تشويش، تَوْسَجْ، تبريز. زيارة لأحد المعارف القدماء في السجن، محمد خان كيراهي. مخطوط الخان يبين أصله. مولد جنكيز خان. تيمور: اشتقاق اسمه. زيف الخبر الذي قدمه صالح محمد - ليس هناك معلومات مؤكدة حول ستودارت وكونولي. خطابات تعريف إلى بخارى - خطاب موجه إلى لجنة ستودارت وكونولي. احتفال أرمني وخاتشوران، أو غسل الصليب. نيرزير قديس لامبرون - حياة هذا الأسقف الأرمني العالم وكتاباته. تحلل الدين الإسلامي وفساده(!!). مغادرة تبريز في العشرين من يناير. سيد آباد، تكمه تاش، عاصفة هوجاء: كولاك. محادثة مع أحد الدراويش. تاتا سلطان، كمالي هودبين. آراء المسلمين تتغير فيما يتعلق بإنجلترا وروسيا. تركمانگاه، ميانا، سانجون، خُرَّم تاره، الكلدانيون: لقاء مع مطرانهم، تحذُّرهم من إسرائيل. احتفالات الكنيسة الكلدانية وعقيدتها، القديس توماس الحواري (الرسول). سيادهين، قزوين، سفر خوجه(١).

عند مغادرتي أرضروم في السابع والعشرين (من الشهر)، تقدمت بصعوبة وجهد عبر الجبال المكسوة بالثلج من أرمينيا إلى حدود فارس. كانت الشدائد التي لاقيتها مماثلة لتلك التي كابدتها في الطريق إلى أرضروم، عندما حملني التركي الذي صحبني بجانب حصاني عند تسلق الأجراف المختلفة؛ وقد

---

(١) أسماء المدن والقرى لا يعوَّل عليها، فقد تنطق بغير ما ورد هنا عند المؤلف، وقد حاولنا جاهدين تصحيح ما استطعنا منها.

أُجبرتِ على الزحف على بطني حفاظاً على سلامتي.

وبمغادرتي هذا اليوم لذلك المأوى المضياف حقاً، منزل السيد برانت، كان هناك اثنان من القُوَّاس من ذوي الفخامة والأناقة التابعين للباشا (وقد أمر الباشا ألا أدفع لهما مالاً، حيث إنه سيتولى ذلك بنفسه) على أُهْبَةٍ خارج القنصلية البريطانية، على صَهْوَتَيْ حصانَيْهما، وهما يدخِّنان الغلايين. وقد حضر الكولونيل وليامز على صَهْوَةِ جواده إلى القنصلية مع أحد خدمه. بعدها امتطيت حصاني، وكذلك فعل خادمي الصِّرْبي مايكل، مؤشراً بعلامة الصليب على صدره، وداعياً العذراء والقدِّيس جورج من أجل حمايته، ولم يغفل ذكرَ القديسِ نيكولاس، القديسِ الراعي لصربيا. وكان الثلج لا يزال مرتفعاً جداً بحيث أردت أن أمشي على قدمي، ولكن الكولونيل وليامز قال بلهجة الآمر: «لا تنزل عن حصانك؛ فما دمت ترى حصانك الآخر قادراً على حمل أمتعتك، فهذا الحصان سيكون قادراً على حملك. وإلى جانب ذلك تخيَّلْ أن وراءك رجال محمد كيراهي صاحب توراباد يسوقونك بسياطهم». وجعلني هذا التلميح لمضطهدي القديم أبتسم وأطيع(١).

وصاحَبَني الكولونيل وليامز مسافة ستة أميال، وتحديداً إلى البقعة التي هلك عندها في الثلج طبيب فرنسي وعشرة من سائقي البغال؛ قبل ثمانية أيام من مغادرتي، عندها ترجَّل الكولونيل وليامز عن حصانه، وناولني كأساً من نبيذ تينيدوس لأشربه، وشرب هو لصحتي، وصافحني بودٍّ، وعاد إلى أرضروم. واصلت رحلتي وبصحبتي القَوَّاسان المذكوران سابقاً ميلاً آخرَ إلى قرية تُدعى كيروجاك، حيث نمنا في إسطبل رجل تركي طيب القلب. والإسطبلات في

(١) إشارة إلى حادثة سلفت في رحلة سابقة مع هذا الزعيم، حيث أمسك به وأراد أن يبيعه في سوق النِّخاسة، وسوف يتناول قصته بتفصيل أكثر في الصفحات القليلة اللاحقة. (المترجم).

تركيا مزودة بأماكن مرتفعة وُضعت لغرض راحة المسافرين، بحيث لا يكونون معرَّضين لخطر الرَّفس من الخيل، وهذه الأماكن المرتفعة نظيفة للغاية. وقد أُحضرت لي وسادة جيدة في المساء.

وفي صباح يوم الثامن والعشرين نهضنا مع شروق الشمس، وواصلنا رحلتنا، وكان الثلج لا يزال عالياً، لدرجة أنني كنت سأتبع رغبتي في المشي على قدميَّ، لولا أن الكولونيل جعلني أعده بعدم الترجُّل عن حصاني ما دام الحصان الآخر قادراً على حمل أمتعتي. وركَّزت عينيَّ بقوة على الحصان الآخر، ومع إدراكي أنه يتقدم بصعوبة عبر الثلج، ظللت صامتاً. وصلنا ذلك اليوم على مسافة ستة أميال، إلى مكان يسمى حسن قلعة، حيث سكنّا مرة أخرى مع أحد الأتراك. وقد بنى حسن قلعة: أوزون حسن، الأمير العظيم من السلالة الحاكمة وايت ويذرز (الخروف الأبيض).

وفي التاسع والعشرين من ديسمبر سافرنا حتى كوماسور، ونمنا في منزل أحد الأرمن، ولم ترْقَ نظافة غرفته إلى مستوى نظافة إسطبلات الأتراك. ويوجد في كوماسور ثلاثون بيتاً فقط للأرمن هناك.

وفي الثلاثين من ديسمبر وصلنا إلى دهلي بابا، ونمنا هذه المرة أيضاً في منزل أحد الأرمن. ويوجد هنا خمس وثلاثون أسرة وثلاثة قساوسة. وقد ذهب معظم الأرمن على صَهوات خيلهم إلى قرية مجاورة، لإحضار عروس، يصحبونها بالآلات الموسيقية والتصفيق باليدين إلى قريتهم. وفي اليوم التالي، الحادي والثلاثين من ديسمبر، كان الطريق مغطًى بكثافة بالثلج؛ مما اضطرني إلى اصطحاب اثنين من الأرمن لسحبي مع حصاني عبر الثلج، حتى وصلنا إلى مسافة ستة أميال، من قرية تسمى دهار، يقطنها أكراد. ونمنا في منزل أحد الأكراد، الذي أعطانا، بشق الأنفس، شيئاً نأكله، مقابل المال، وكان سيسلبني دون شك لو لم يكن معي رجال باشا أرضروم.

الأول من يناير ١٨٤٤م: وصلت في هذا اليوم إلى مُلاً سليمان، التي يقطنها الأرمن، الذين تحوَّلوا قبل مائتي عام إلى المذهب الكاثوليكي الروماني بواسطة المنصِّر الروماني (الكاثوليكي) سليمان، الذي اكتسب المكانُ تسميته منه. وقد رسَّم القسَّ المعيَّن هنا - وهو رجل حسن المعرفة - إبراهامُ أسقف ماردين، الذي تعرفت إليه قبل عشرين عاماً، عندما كنت في ماردين في بلاد ما بين النهرين. وقد عبّر هذا القس الطيب عن أسَفِه لعدم سكني في منزله الخاص.

وفي الثاني من يناير وصلت إلى قره كيليسا، حيث أُنشئت كنيسة حسب التقاليد، بواسطة الحواري ثاديوس. ويسمى هذا المكان في اللغة الأرمنية: باكره أنت.

وفي الثالث من يناير وصلت إلى كولاسور، وهو مكان استوطنه الفرس القادمون من إريفان، التي غادروها في عام ١٨٢٧م، حتى لا يصبحوا رعايا للحكومة الروسية. وقد زارني المُلاَّ، وكان يعرف قراءة القرآن دون أن يفهمه، وقد دهش عندما ترجمت له بعض أجزاء من القرآن من العربية إلى الفارسية. وبعدها تحدثت معه حول فضائل الإنجيل.

وفي الرابع من يناير وصلت إلى أُوچ كيليسا، «ثلاث كنائس»، وهو دير يُدْعَى يانك باللغة الأرمنية، حيث قام جريجوري، المنور، بتحويل آلاف كثيرة من الزرادشتيين والأرمن إلى الإيمان بالمسيح. هناك أيضاً تم تحويل الملك تيريداتز على يدي القديس جريجوري، وعُمِّدَ في الفرات الجاري هناك. ويجب عدم الخلط بين أُوچ كيليسا هذه وأُوچ كيليسا أو إتش ميازين القريبة من إريفان.

عرفني رئيس الأوچ - كيليسا من زيارتي السابقة في عام ١٨٣١م، عندما كنت مريضاً مدة ثلاثة أيام في ذلك الدَّيْرِ، وفي ذلك الوقت رافقني قَسٌّ يُدعى

سيمون، إلى تبريز. جددت نشاطي مرة أخرى بين نُزَلاءِ الدَّير الأتقياء والمثاليِّين ليوم كامل، وبعدها خرجت في الخامس من يناير متجهاً إلى ديادين، وهي قرية بائسة سكانها كلُّهم أكراد يقيمون فيها إقامة دائمة، حيث نزلت في منزلِ كُرْديٍّ متحضِّر جداً وطيب القلب ومضياف. وبعد ساعة من وصولنا، حضر جنديَّان من بايزيد، في طريقهم إلى أرضروم. وبما أن سكان القرية ملزمون على الدوام بتزويد الجنود بالمجَّان بخيل تنقلهم إلى المحطة التالية، أمر مضيفي الكرديُّ أحدَ رجاله بألاَّ يترك رجل البريد الذي أحضرني ورجالي يرحل في الصباح بخيله دون أخذ الجنديين معه، وحملهم حتى قره كيليسا، التي أتيت منها؛ وهو بذلك يُنَبِّه على خادمه أن يراقب المكان جيِّداً خلال الليل؛ لكيلا يتمكن رجل البريد من أخذ الخيل خِلْسَةً من الإسطبل، وهو أمر اعتادوا فعله. وعلى أية حال، غلب النوم الخادمَ في الليل، ولأنني لم أستطع النوم في تلك الليلة، فقد شاهدت رجل البريد عندما دخل الإسطبلَ وأخذ معه الخيل، ولأنني لم أكن أعلم وقتها بالتدبير الذي اتخذه صاحب المنزل، لم أتنبه لذلك، وبعد ساعة من مغادرة رجل البريد، استيقظ الخادم، وعندما رأى الخيل قد أُخِذَتْ صاح قائلاً: «بيزيفيك»؛ أي وحشيّ، وأطلق إنذاراً، إلا أن ذلك كان متأخِّراً جداً.

وفي الصباح ولبعض الوقت ألح الجنديان القادمان من بايزيد على أخذ الخيل المعدة لسفري، غير أنني أقنعتهما بأخذ غيرها، فأُعطى لهما حصانان حالتهما في غاية السوء. خرجت متَّجهاً إلى قزل ديسا، وهي أتعس قرية كردية، اضطر فيها القوَّاسان اللذان كانا معي إلى ضرب أحد الأكراد بالسوط من أجل تأمين مأوًى لنا في منزله، وحال دخولنا منزله قبل أن تتلبَّد السماء بالغيوم بسرعة، بدأ الثلج بالتساقط لدرجة جعلت المرءَ لا يستطيع رؤية الواقف بجواره؛ لذا، ولكوني مستقرّاً وملتماً في إسطبل دافئ هتفت قائلاً:

«الحمد لله رب العالمين! أن بتُّ داخل المنزل»؛ مما جعل مضيفي الكردي يبدي ملاحظة قائلاً: «لو عرفت من قبل أن هذا الأوروبي يقول الحمد لله رب العالمين لأدخلته دون تردد». وعلى أي حال، فبعد ساعة صَفَتِ السماء مرة أخرى، وتوقَّف تساقط الثلج، عندها سمعت صوتاً من الشارع يسأل ما إذا وصل رجل إنجليزي، وفي الحال دخل الغرفة ساعٍ (غلام) مُرْسَلٌ من الكولونيل شيل في طهران، برسائلَ رسمية إلى أرضروم، وأخبرني بأن مِهْمَندار[1] قد أُرسل إلى أواجيك من أمير تبريز، بناءً على طلب من السيد بونهام، مع الأمر بتزويدي بخيل تحملني إلى تبريز.

وفي السابع من يناير وصلت إلى أواجيك، واستقبلني حاكمها، خليفة قولي خان، بكرم بالغ. وفيها صرفت القوَّاسَيْن اللذيْن أرسلهما معي باشا أرضروم، ورغم أنني لم أكن ملزَماً بدفع فارذنج واحد لهما، إلا أنني أعطيتهما مئتي قرش هدية، وعادا إلى أرضروم، وواصلت رحلتي مع إسماعيل بك، مهمندار أمير تبريز، متَّجهَيْن إلى تلك المدينة.

وفي الثامن من يناير، نمنا في قرية فارسية بائسة تدعى كاراين. وفي اليوم التاسع وصلنا إلى سُهَّر آباد. وفي العاشر من الشهر وصلنا إلى خوي، وهي مدينة ذات كوارث، إذ تقع مرة في يدي السلطان وأخرى تحت سلطة الفرس، وتدمِّرها باستمرار يد الإنسان، كما تعاني، بصورة متكررة، من الزلازل. وفيها سكنت في منزل رائع مملوك لأحد معارفي القدماء، هو سليمان

---

(١) مهمندار: من مهمون، التي تعني ضيفاً، ودار التي تعني يستقبل، أو لديه: وهو الشخص المرسَل لإعداد مأوى لشخص آخر.

والصواب: تتكون اللفظة من مِهْمان الفارسية - بكسر الميم وسكون الهاء - ومعناها: الضيف، ودار تعني ممسك، فيكون المعنى الحرفي لها: ممسك الضيف.

خان، وهو حاكم خوي الآن، وهو ماسوني رغم كونه مسلماً. وقد أمتعني على العشاء بنبيذ ممتاز. وأخبرني بأنه، عند وصولي إلى طهران، يجدر بي أن أتعرف إلى درويش مشهور هناك اسمه ميرْزا نصر الله صدر الممالك، لكن بعد أن أزور الحاجي، رئيس وزراء محمد شاه؛ لأن هذا الأخير عدو للدرويش، وإذا ما قمت بزيارة الدرويش أولاً فقد يُغْضِبُ ذلك الحاجي. وخلال الليل شبَّ حريق في المنزل الذي نمت فيه، واحترق جزء منه؛ ولأنني نمت نوماً عميقاً؛ من جراء التعب من الرحلة والبرد، لم أعلم بشيء عن الحريق إلا في الصباح عندما بُلِّغْتُ بالحادثة بعد أن أُخمدت النيران.

وفي الحادي عشر من يناير وصلت إلى تشويش. وفي الثاني عشر وصلت إلى توسج. وفي الثالث عشر وصلت إلى تبريز، عاصمة أذربيجان التي دارت فيها عام ١٤٩٠م معركة بين أوزون حسن وابنه أوجور - لو الأول. وفي بداية القرن السادس عشر أسَّس شاه إسماعيل [الصفوي] إمبراطوريَّته هناك وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وقد وجدت هنا بين يدي السفير الروسي والقنصل الروسي جرائد التايمز، وهيرالد، وبوست، والكرونيكل، ولا شك أن هذه الجرائد سوف يسعد أصحابها إن علموا أنها جميعها توزع في تبريز، ويمكن أن أضيف إليها جريدة الجماينه تسايتونج، التي تعد الأولى في ألمانيا. وقد لاحظت أن الأخبار في تبريز عن ستودارت وكونولي لم تزد عَمّا كانت تردِّده جريدة الجالجناني وبقية الصحف الأوربية.

وفي الخامس عشر من يناير قُدِّمْتُ إلى أمير تبريز وكبير الملالي، الذي وعدني بتزويدي بخطابات إلى مشهد، وفي هذا المكان تسلَّمت للمرة الأولى رسالة الملازم أول فنسنت آير، وفيه أيضاً تسلَّمت كذلك خطاباً بالغ اللطف من الكولونيل الرائع وليامز، من أرضروم.

وهنا أيضاً شعرت بالرضا؛ فأرسلت إلى ابني خطاباً كتبه شيخ الإسلام بخطه موجّهاً إلى شيخ الإسلام في داغستان، وذلك بعد أن تخليت عن السفر عبر داغستان؛ فأصبح الخطاب غير ذي فائدة، وأرسلت إليه كذلك بوصلة مذهَّبة جميلة ومنظاراً مقرِّباً، أهداني إياهما العزيز السير ستراتفورد كاننج.

وعند تقديمي، كما ذكرت سابقاً، إلى صاحب السمو الملكي باهمان ميرْزا، أمير تبريز وحاكمها، سُرَّ لاستقبالي بلطفه البالغ، كما قام وزيره بزيارتي.

وفي السادس عشر من الشهر، وبإذن خاص من الأمير، زرت أحد معارفي القدماء، وهو محمد خان كيراهي، صاحب تورباد حيدريَّة. وهو الآن سجين في تبريز بأمر من الملك. ففي عام ١٨٣١م وقعتُ في قَيْد العبودية على أيدي أهل تورباد حيدرية، غير أن كيراهي، وكان الخان هناك، وبأمر من عباس ميرْزا، أطلق سراحي وحرَّرني. وعباس هذا قام بسمل عيون مئات الناس، وجدع أنوف آخرين... إلخ، وباع ما لا يقل عن ٦٠,٠٠٠ فارسي إلى أهل بخارى. ويمكن مقارنته بالخنزير البري صاحب أردنيس، في كوينتين دورورد[1].

ولأنني لا أحب أن يشمت الناس فيمن أصيب بمحنة، بل أود أن يقوموا بمواساته، فقد ذهبت لزيارته. وفي الوقت الحاضر، ولكونه قيد الاعتقال، فهو يستقبل أصحابه في منزله، وغير مسموح له بالتحرّك خارج المنزل الذي خصَّصه له الملك، إلا برفقة القليل من الخدم المحترمين، وهم حرس الأمير، وذلك على سبيل الحيطة. وعند رؤيته إياي تذكَّرني في الحال، وذكّرني

(١) رواية تاريخية لوالتر سكوت نشرت أول مرة سنة ١٨٢٣م. وهي تدور حول أسكتلندي فقير التحق بالفرقة الأسكتلندية في خدمة الملك الفرنسي لويس الحادي عشر، واشترك في المؤامرات التي كانت تدور في فرنسا وبلجيكا.

بالضرب الشديد الذي أوقعه على أولئك الذين استعبدوني وأخذوا نقودي؛ غير أنه أغفل بلباقة ذكر أنه احتجن تلك النقود لنفسه. وبما أن الشرقيين يتمتعون بذاكرة قوية، ويمكن أن يلقاهم المرء في مناطق بعيدة، وبصورة قد تكون غير متوقعة، فقد أغفلت - في حديثي معه - إحياء أية ذكريات غير سارة. وعن طريق تلك الصفات الغامضة الاستثنائية التي تحدث مصادفة، كان مظهره لطيفاً بصورة ملحوظة، ولكن عليَّ أن أتجنَّب تلك العين لو التقيتُها في الصحراء.

أما السبب الذي أودى به إلى السجن؛ فإنه عندما كان عباس ميرزا في خراسان في عامي ١٨٣١-١٨٣٢م أوقع الذُّعْرَ بين صفوف الزعماء المختلفين. وفي النهاية أرسل (عباس ميرزا) لهذا الخان لانات نامه؛ أي: خطاباً، ذكر فيه ميرزا أنه يدعو على نفسه أن تقع عليه كل اللعنات إذا لم يعامل محمد خان كيراهي معاملة حسنة، في حال قدومه عليه مباشرة لزيارته. ومن الغرابة القول إن والد محمد: إسحاق خان كيراهي، كان قد وقع في شَرَك الأسرة الملكية بصورة مشابهة؛ لأنه صدَّق تأكيد عباس ميرزا، وأتى إلى مشهد ممتطياً صَهْوَةَ جواد رائع. وفي الطريق، خرج يحيى خان، أحد حُجَّاب عباس ميرزا، للقائه، ونصح محمد خان أن يقدم جواده هدية لعباس ميرزا؛ فأجاب محمد خان على اقتراح يحيى خان قائلاً: «لن أتخلّى عن هذا الحصان، الذي دفعتُ مقابله اثني عشر شخصاً من مثلك». وعندما وصل محمد خان كيراهي إلى مكان عباس ميرزا، أمر الأخير بسجنه؛ وليس في هذا العمل أي إضافة إلى مجد ذلك الرجل العظيم الودود عباس ميرزا. وفيما يأتي ترجمة لمخطوط (أوتوغراف) الرئيس القَبَلي المشهور والمأسور، والتي كتبها في حضوري:

ترجمة مخطوط (بخط يد) محمد بن إسحاق خان كيراهي

محمد بن إسحاق خان كيراهي، التتاري، من أسرة جنكيز خان.

إن أسلاف جنكيز خان كانوا أولنجه خان، وأولامجو، وهما من المغول، قد أنجبا توأمين: اسم أحدهما مُغُل خان، والآخر تتار خان، ومنه ينحدر كل التتار، كما أن المغول ينحدرون من مُغُل خان. وأبناء جنكيز خان هم:

١- هوتشي خان.

٢- جغطاي خان.

٣- أقطاي خان.

٤- تولي خان[١].

وبعد وفاة جنكيز خان أصبح أبناء تولي خان ملوكاً. فاعتلى ميكوكاهان خان[٢] عرش جنكيز خان، وأرسل أخاه هولاكو خان إلى داخل فارس، وسكن لفترة في تبريز، ومنها انطلق إلى بغداد وقتل المعتصم[٣]، آخر خلفاء بني العباس. وقد صاحبت قبيلة كيراهي هولاكو خان إلى تبريز، وبعد انقراض سلالة جنكيز خان الحاكمة هاجر الكيراهيون إلى تركية؛ غير أنه بتغلُّب تيمور لنك على العالم، هَجَّر أربعين ألف أسرة من قبيلة كيراهي من تركية إلى سمرقند؛ ولكن انفصل منها، على أية حال، اثنا عشر ألفاً وعادوا إلى خراسان، وأنا من سلالتهم.

وكذلك أخبرني محمد قصة أسطورية عن أم جنكيز خان، التي حملت من شعاع الشمس، الذي دخل في فمها. وعن تيمور لنك قال: إن اسمه متنبِّئ. وتيمور تعني: الحديد، وقد كان تيمور رجلاً حديدياً. وهنا ظهر محمد خان

---

(١) أبناء جنكيز خان هم على الترتيب: جوجي خان (١١٨٥-١٢٢٦م)، وجغطاي خان (١١٨٧-١٢٤١م)، وأوقطاي خان (١١٨٩-١٢٤١م)، وتولوي خان (١١٩٠-١٢٣٢م).

(٢) الصحيح: منكوخان.

(٣) الصحيح أنه المستعصم. (المترجم)

كيراهي مُفْعَماً بالحيوية والنشاط، وقال: «طمحت بشرف أن أصبح تيمور لنك آخر وجنكيز خان، وكان اسمي يبث الرعب بين خانات خيوة وبخارى، حتى إن السفراء كانوا يُرسلون إليَّ من القرغيز والقازاق، ولديَّ اتصالات سرِّيَّة مع روسيا، (همس بالكلمات الأخيرة في أذني). ولكن في منتصف هذه السيرة، كان الله قد أوقفها من عليائه، والآن أنا ذليل، وقد سقطت مكانتي العالية. الله كبير، والإنسان لا يعي قدره، كان اسمي محمد كاله - كان، الذي يعني: محمداً قاطعَ الرؤوس.

ويؤسفني أن أقول إن حال هذا البلد، زمن زيارتي له، كان جديراً بالرِّثاء. فالملك، كما يُشاع، يسيطر عليه حاجي عجوز متعصِّب وطموح وغيور، بحيث إن كل الضباط الإنجليز طُردوا من الخدمة لديه، ولم يرسل، كما كان عباس ميرزا والده يفعل، أيّاً من الفرس إلى أوروبا للدراسة هناك، ولا يمكن رؤية أيِّ طبيب في جميع أنحاء فارس، والملك نفُسه كان ضحيةً للنقرس الذي وصف طبيبه الدجَّال البراندي دواءً له، فلم يكن ضحية المعالجة المائية التجريبية، ولكنه كان ضحية المعالجة التجريبية البراندية (نسبة إلى خمر البراندي). وعلى أية حال، يجب أن أعترف بأن الحاجي كان أكثر لطفاً معي عند وصولي إلى طهران، مما كنت متوقعاً من الوصف الذي وُصِفَتْ به شخصيته في تبريز، وبدا لي بشخصية الكاردينال وولسي[1] الفارسي. وعلمت كذلك أنه غيَّر أسلوبه، وقام بإرسال الشباب إلى فرنسا وإنجلترا لتلقي التعليم في فنون ومهن مختلفة.

زودني السيد بونهام، القنصل العام، بأقوى التوصيات من جميع السلطات هنا، مدنيَّة وعسكرية وكنسية، موجهة إلى طهران ومشهد. وتربط السيد

(١) الكاردينال توماس وولسي (١٤٧١-١٥٣٠م) كان الكاردينالَ الكاثوليكيَّ في زمن الملك هنري الثامن الإنجليزي، وقد أصبح رئيسَ أساقفة يورك، وهو منصب أعلى من أسقف كانتربري.

بونهام قرابة مصاهرة بالسير روبرت بيل، فهو متزوج من إحدى بنات أخي الليدي بيل. وقد استقبلني في منزله المضياف لحظة وصولي، ولا شيء يمكنه أن يجازي اللطف الذي خصَّني به هو وزوجه الودود. ولم يكن لديه أية معلومات عن ستودارت وكونولي.

وكان الكولونيل شيل هو الشخص الوحيد الذي بدا مقتنعاً بموتهما كما سمعت عنه حتى ذلك الحين، غير أنه لم يرسل أحداً ليتحقق من ذلك. وقد أُفهمت في هذا الموقع أن الكولونيل شيل رجل انطوائيٌّ وصامتٌ، ولا يأتي بفعل على مسؤوليته؛ وهذا الوصف قادني إلى الشك أكثر من ذي قبل في الأنباء التي يجب أن أعتمد عليها.

وفي يوم الأحد الرابع عشر وعظت الإنجليز، وقدمت لهم السرَّ المقدس. واستقبلت في ذلك اليوم الحاكم الفارسي للمنطقة، وقد ذكرت زيارتي لسموِّ باهمان ميرِّزا، ولكني أغفلت القول إن السيد بونهام كان في صحبتي، وإنه أرسل إليَّ مهمندار، بناءً على اقتراحه، بعثه الأمير باهمان ميرِّزا إلى أواجيك التي تبعد ستَّ محطات من تبريز. ووعدني سمو الأمير كذلك أن يرسل مرة أخرى، في يوم الخميس الثامن عشر (من الشهر) مهمندار معي حتى طهران. وعلاوة على ذلك، زوَّدني بخطابات تعريف موجهة إلى طهران ومشهد، كما زوَّدني الحاجي بخطاب موجَّه إلى رئيس وزراء الشاه.

وبصحبة السيد بونهام، زرت إمام الجماعة، المرجع الديني الأعلى في تبريز، وقد زوَّدني بخطاباتٍ إلى عبدالصمد خان، الذي سكن معه ستودارت في بخارى. وتأكَّدت من ذلك في أورمية، التي تبعد مسافة ستة أيام من تبريز، حيث يوجد منصِّرون مشيَخِيُّون أمريكيون كانوا يقومون بالكثير من العمل الجيد عن طريق توجيه الناس؛ وبما أنهم لا يتدخَّلون في شؤون النساطرة، فإنهم يستحقون كل مدح وتشجيع.

ومن دواعي سروري دائماً أن أسمع بأن الكنيسة الأسقفية البروتستانتية ترسل المنصِّرين إلى الخارج، ولكن في الوقت ذاته، إذا لم يتم ذلك، فإن حال الكنيسة الشرقية سيكون محزناً؛ فتلك المشيخة البروتستانتية المعتدلة والمتعقِّلة والمتحمِّسة يمكن أن تُجعل نافعة لهم؛ وهؤلاء المنصِّرون من المشيخة البروتستانتية سوف يفهمون، من حالة الشرق، أن الكنيسة الأسقفية البروتستانتية هي حالة بدائية للكنيسة، وأن الأبرشية هي خروج عن القياس. لذا؛ فبينما لا يمكن إنكار أنهم (المنصِّرون) ينيرون الشرق، فسيتبع ذلك أنهم يأخذون معهم، عند عودتهم إلى أوطانهم، جزءاً من نور الشرق لصالح الوطن الذي أُرسلوا منه. وقد أخبرني رئيس الأساقفة ماجي في إحدى المرات، أنه يودُّ لو يضمُّ أتباع الويسليانية[1] (الحركة الإصلاحية الميثودستية) إلى الكنيسة؛ وبذلك فإن كنيسة إنجلترا قد تجعل من المشيخيين البروتستانتيين مساعدين في نشر رسالة الإنجيل في الشرق. ويُعَدُّ الدكتور كرانت والسادة بيركنز وميريك وستودارت رجالاً بارزين جداً في هذه المهمة. ومن هذا المكان وجَّهت الملحوظة الآتية إلى لجنة وصندوق ستودارت وكونولي:

تبريز، ١٩ يناير ١٨٤٤م يوم مغادرتي متوجهاً إلى طهران:

أيها السادة، من خلال لطف السيد بونهام، القنصل العام لجلالة ملكة بريطانيا في فارس، وجهوده التي لا تكلُّ، أرتحل من هذا المكان اليوم متوجهاً إلى طهران، يصطحبني مهمندار مرسل من صاحب السمو الملكي الأمير باهمان ميرْزا، ومزوداً بخطابات التعريف الآتية:

---

(١) نسبة إلى الأخوين: جون ويسلي (١٧٠٣-١٧٩١م)، وتشارلس ويسلي (١٧٠٧-١٧٨٨م)؛ مؤسسي مذهب الميثودست. اشتهر أكبرهما بغزارة مواعظه، وكثرة أسفاره (قرابة ٤٠ ألف موعظة)، وأولع الأصغر بكتابة الترانيم (زهاء ٦,٥٠٠ ترنيمة) ما برح أكثرها يُستعمل في الكنائس البروتستانية إلى اليوم.

١- من صاحب السمو الملكي باهمان ميرْزا، إلى ميرْزا علي نقي خان، في طهران؛ وإلى آصف الدولة، حاكم مشهد، وعم الملك.

٢- من ميرْزا لطف علي، إمام الجماعة (كبير الملالي) في تبريز، إلى الحاجي، رئيس وزراء الملك في طهران، وإلى ميرْزا عسكري، كبير الملالي في مشهد، وإلى حاجي إبراهيم أخي عبدالصمد خان في مشهد، وإلى عبدالصمد خان، قائد سلاح المدفعية في بخارى.

٣- من المُلاَّ محمد، مجتهد في تبريز، إلى حاجي ميرْزا موسى خان، إمام المسجد في مشهد.

٤- من آغالار خان، أخي منوجهر خان، إلى معالي آصف الدولة، حاكم مشهد؛ وإلى حاجي ميرْزا موسى خان، في مشهد.

٥- من شيخ الإسلام إلى آصف الدولة في مشهد، وإلى كبير المشايخ في بخارى.

٦- من حاجي سيد حسين إلى حاجي إبراهيم في مشهد، وإلى عبدالصمد خان في بخارى.

ولذلك فإنكم تصنعون معروفاً بكتابة خطابات شكر إلى الشخصيات الآتية:

١- إلى أصحاب المعالي الحاكم والأدميرال في مالطا.

٢- إلى السير إدموند ليونز، البارون، سفير جلالة ملكة بريطانيا في اليونان، ويُطلب منه كذلك توصيل شكركم إلى جلالة ملك وجلالة ملكة اليونان؛ وإلى السير جيمس ستيرلنج، آر. إن. والكابتن أوماني، قبطان (السفينة) فيسوفيوس، وإلى القساوسة إتش. دي. ليفز، وهيل، ويوناس كنج في أثينا.

٣- إلى معالي السير ستراتفورد وكذلك السيدة كاننج.

٤- إلى اللورد نابيير، في القسطنطينية.

٥- إلى أصحاب المعالي؛ الكونت ستورمر، وسيط النمسا في القسطنطينية، والكونتسة دي ستورمر.

٦- إلى السيد تيتوف، السفير الروسي في القسطنطينية.

٧- إلى الموقر إف. ستيفنز، نائب قنصل جلالة ملكة بريطانيا في طرابزون.

٨- إلى السيد غريزي، القنصل الروسي في طرابزون، إذ إن كلاً من ستيفنز وغريزي وقلة آخرين أسهموا بـ ٤٠ جنيهاً إسترلينياً، كما تعلمون.

٩- إلى جيمس برانت، القنصل، والكولونيل ليامز، والسيد والسيدة ردهاوس، في أرضروم.

١٠- إلى الباشا في أرضروم، الذي دفع تكاليف رحلتي حتى أواجيك على حدود فارس.

١١- خطاب شكر للموقر إي. دبليو. بونهام، القنصل العام لجلالة ملكة بريطانيا وزوجه؛ لما قدَّموه لي من ضيافة طيبة، وما منحوه من تشجيع واهتمام بمهمتي الحالية.

المحب لكم: جوزيف وولف

لماذا لا يعين السيد بونهام سفيراً؟ فهو محترم جداً في بلاد فارس، وقد وصل هنا في عام ١٨٣٢م، ويعرف البلاد ولغتها جيداً.

ومن بين علامات الزمن الكثيرة التي تنبئ بوضوح عن ضعف قوى التعصُّب لدى المسلمين، فإن ما سأذكره ليس أقلها: ففي التاسع عشر من يناير أقام الأرمن احتفالاً بالخاتشوران، أي: غسل الصليب، استخدموا فيه جنوداً مسلمين ليقوموا بإطلاق نيران الترحيب. وهذا تبدل رائع للعثمليِّين (العثمانيين). وبالمناسبة فإنه في ذلك الظرف الذي توحَّد فيه الأرمن والجورجيون واليونانيون في الاحتفال، ثمل خادمي الصِّرْبي مايكل بصورة مفرطة، بحيث أصبح غير قادر على عمل شيء، وعندما وبَّخته على ذلك، بعد أن صحا من سكره، أجاب ببرود قائلاً: «ماذا يمكن للمرء أن يفعل في يوم عظيم كهذا!».

وقد عاد كثير من الأرمن الذين أسلموا علناً إلى النصرانية. ويجب أن أضيف هنا، فيما يتعلق بالكنيسة الأرمنية، أنه معروف جيداً أن الإمبراطور نيكولاس يحاول في الوقت الحاضر توحيد الكنيسة الأرمنية مع الكنيسة الروسية؛ وبسبب ذلك حدث انقسام كبير بين الأرمن. ويقول بعضهم: إن ذلك تصرُّف صحيح، حيث إنه في أزمان سابقة، في عام ١١٧٩م، قام بالمحاولة نفسها إمانويل كومنينوس. أما الآخرون من الأرمن، فيقولون إن الإمبراطور (القيصر) ليس له حق التدخُّل في شؤون كنيستهم، ويحيل أولئك المؤيدون على حديث القديس نيرزير صاحب لامبرون. ومن أجل فهم هذه التعليقات أقدم الوصف الآتي عن حياة هذا الرجل الفذ:

القديس نيرزير، صاحب لامبرون، ابن أوسينيو، أحد النبلاء الأرمن، حامي القلعة التابعة للامبرون، وقد ولد الأمير في عام ١١٥٣م، وتلقى تعليمه المبكر في أَدْيِرَةِ أرمينية الشهيرة، بعدها نقل إلى إشراف نيرسيس شنور – هال الكبير، أو غليازي، الذي نصَّبه قساً، ومنحه اسمه الحالي، وكان اسمه السابق: سمبيت. وبعد وفاة نيرسيس غليازي، قام جريجوري الرابع، بناءً على طلب الشعب، بترسيمه أسقفاً لطرسوس ولامبرون. حكم نيرزير اللامبروني الكنيسة، وأدار شؤونها بحماسة، وأوقد في أرجاء أرمينيا نار الحب الإلهي، وأصلح الكنيسة بمواعظه وكتاباته؛ حيث جمع في شخصه العلوم الدينية والدنيوية بدرجة عالية، ولذلك لُقِّب سيد البيان الأرمني، وكان يعرف اللغات الأجنبية؛ وقد أصدر الكتب الآتية:

١- شرح الطقوس الدينية الأرمنية.

٢- تعليق علمي على سفر مزامير داود.

٣- تعليق على سفر الأمثال وسفر التتصير وكتاب الحكمة، وكذلك حول الرسل الاثني عشر الثانويين، والمعنى الحرفي، والمعنى المجازي لهم.

٤- الكثير من المواعظ الدينية حول أعياد الرب، وعدة خطابات تذكيرية.
٥- عدة رسائل، كُتبت بحماسة بابوية، موجهة إلى أشخاص مشهورين مختلفين.
٦- حياة القديس نيرسيس غلينزسز، كتبت بقافية أنيقة.
٧- أجمل سبع ترانيم: الأولى حول عيد الفصح، والثانية حول عيد العنصرة، والثالثة حول صعود المسيح إلى السماء، والرابعة حول عيد أبناء القديس جريجوري المنور وأحفاده.

كما ترجم عدةَ أعمال من لغات مختلفة إلى اللغة الأرمنية؛ من بينها: شرح سفر الرؤيا للقديس يوحنا، الذي كتبه أندريه أسقف قيسارية؛ وأحكام جماعة القديس بنديكت الرهبانية؛ وحياة القديس جريجوري الكبير ومحاوراته، وهي أعمال تُقدَّر تقديراً عالياً.

إن الأسقف المشهور لم يحمل في قلبه أكثر من الرغبة في الحفاظ على الإحسان والوحدة في الكنيسة؛ ولذلك تدعوه شعوب أخرى باسم بول طرطوس الثاني. وقد عزم البطريرك جريجوري المذكور، مدفوعاً بتشجيع من الإمبراطور إمانويل كومنينوس، على توحيد الكنيستين الإغريقية والأرمنية، اللتين انشقَّتا لزمن طويل عن بعضهما بسبب الاختلافات في العقيدة وفي الأنظمة الكنسيَّة لهما، وقد بدأ الأمر بعقد مجلس تحت رعاية سلفه، إلا أنه توقف بعد وفاته. وكان هناك ضرورة لخطاب مبدئي للاتحاد المقترح، وقد اختير نيرسيس لكتابته، وتلاه في المجلس الذي انعقد في عام ١١٧٦م، في قلعة البطريرك في روم قلعة في سيسليا. ويمكننا أن نلحظ في هذه الورقة الجاذبة للنظر أن وحدة الكنيسة التي كان يؤمن بها الآباء الأرمن تتجلَّى في التصميم البنائي للمعبد:

«أيها الآباء المقدَّسون ومعلمو الحقيقة! ورؤساء وقساوسة شعب المسيح! ومستشرفو ومصرِّفو شؤون بيت الله! ماذا أشاهد الآن؟ جسداً متناسقاً واحداً،

يَحْسُن أن يتوحَّد مع ذلك الرأس العظيم الذي يحكمنا جميعاً! من الذي أتى بكم إلى هذا الملاذ الهادئ؟ أنتم رُسُل السلام إلى الكون، أليس الروح القُدُس الذي أُرسل إلينا من السماء من أجل سلامنا؟ ولكن إلى أية نهاية؟ إذا لم يُجدد وضع أساس ذلك البناء المهدَّم، الذي هدمه أولاً نبوخذ نصر، ملك بابل، وسوَّاه بالأرض؟ نبوخذ نصر الذي نهب، في الأزمان الغابرة، الأوعية المقدسة الطاهرة من الذهب والفضة الموقوفة، التي أُوقِفت على المعبد المقدس، وأعطاها لأطفاله وجواريه؛ لاستخدامها في حفلاتهم غير المقدسة. آه، يا أبناء صهيون! نحن كذلك أسرى، وعندنا قيثارات الرب معلَّقةٌ إلى أغصان الصفصاف المجدبة، وما لدينا غير ذرف وابل الدموع وإطلاق التنهُّدات، مغلوبين بثقل الحزن القاسي. ومن ثَمَّ توقفت ألسنتنا كذلك عن إبداء الشكر لله، وبعدها سألنا: كيف نغنِّي أغنية الرب في أرض غريبة؟.

«غير أن غضب السماء الآن بدأ يهدأ، وحجم الخطيئة التي أصبحنا بسببها تائهين في الأرض، صار تاماً. وقد مرَّت السبعون عاماً الآن، التي ذكرها الرب، على لسان النبي جيرمايا[(١)]، وقد تنبأ بها هاجاي[(٢)]، وزكريا من خلال الوحي الإلهي، ويشَّرنا بأنباء سارَّة حول عودتنا وتحرُّرنا. إن مجد المعبد الأخير، الذي ستكونون المعيدين لبنائه، والذي تنبأ هؤلاء الأنبياء بأنه سيكون أعظمَ من السابق. وهذا يُوشَع[(٣)] الجديد ابن جوزدِق، والذي وُضِعَ على رأسه تاجٌ فخم، وزوروبابل[(٤)] ابن سلاثيل، الذي أنهضته روح الرب - هؤلاء هم الذين يستعيدونكم من العبودية، ويصبحون قادتنا نحو القدس المقدَّسة».

---

(١) أحد أنبياء العبرانيين الرئيسيين. (المترجم).

(٢) أحد أنبياء العبرانيين الثانويين. (المترجم).

(٣) البطريرك جريجوري، الذي اجتمعوا بأوامره.

(٤) إمانويل كومنينوس.

إنني ألحظُ ملامحكم وهي أكثر رصانةً، حيث إن أقدامنا وصلت لتوِّها إلى بوابات صهيون؛ إلا أنه إذا كانت بهجتنا لم تتحقق بعدُ؛ فذلك لأن بيت الله لا يزال خراباً فوق الأرض. كيف يتسنَّى لنا أن تُفْعَمَ قلوبُنا بالسرور، بينما الزخارف الرائعة للمعبد نجدها قد التهمتها جمرات نبوذرادان[1] الملتهبة؟ رغم ذلك لا تَدَعوا أرواحكم تتخلى عنكم، أيها البُناة الحكماء! وتشجَّعوا وابدؤوا بإعادة بناء بيت الله ربكم. لقد أحضركم إلى هنا، ويأمركم على لسان أنبيائه المقدَّسين: كي تشمروا ثيابكم لتُحققوا مشروعاً غاية في النبل. ولاحظوا كيف أتى زكريا باسم الله وتحدث إليكم!

أخبرنا، أيها النبي المبارك! هل بإمكاننا إعادة بناء المعبد، وأن نعيده إلى بهائه القديم، فنحن قلة قليلة، وقد تحرَّرنا للتوِّ من رقِّ العبودية؟

فأجاب النبي بالقول: هذا ما يقوله الرب العظيم القدرة. ستكون أيديكم قويةً، أيديكم كلكم، يا من تسمعون هذه الكلمات من فمي؛ وكما كنتم لعنةً للشعوب، يا بيت يهوذا (ابن يعقوب) ويا بيت إسرائيل؛ لذا فإنني سأنقذكم وستكونون مباركين. كونوا شجعاناً، ولَسوف تتقوَّى أيديكم؛ ذلك ما يقوله رب الملائكة، وبمثل هذا الأسلوب، حيث فكرت أن أُعاقبكم عندما أغضبني آباؤكم، ولذلك فكرت مرة أخرى في تلك الأيام أن أعمل جميلاً للقدس، ولكل بيت يهوذا. تجمَّلوا بالعزاء. وهذه هي الأشياء التي عليكم أن تعملوها: ليقل كلُّ رجل منكم الحقيقة لجاره؛ امنحوا حكم الحقيقة والسلام في بوَّاباتكم؛ لا تَدَعوا أيّاً منكم يَكُنُّ الشرَّ في قلبه نحو جاره، ولا تحبُّوا القَسَمَ الكاذب؛ لأنني أكره هذه الأشياء. كذلك قال الرب العظيم القدرة. ولكن بدل ذلك شجِّعوا

---

(١) في التوراة، سفر الملوك الثاني ٢٥ : ٨ جاء: أن نبوذرادان كان قائد حرس نبوخذ نصر، وقد جاء إلى القدس، وأخذ من بقي من اليهود أسرى إلى بابل.

بعضكم بعضاً في العمل، واهبطوا من الجبل، واقطعوا الأشجار التي ستعيدون بها بناء بيتي، وسأبتهج لذلك، وبهذه الطريقة سيتمُّ تمجيدي. هذا ما قاله الرب.

انظروا، فكلكم قد سمع صوت الرب إلهنا، ذلك الصوت الذي أتى بكم من اتجاهات الأرض الأربعة: يا بنات صهيون، اللاتي نشأتن في فوضى مدينة بابل، ووسط اضطراب كلنة[1]، أنتُنَّ اللاتي نهضتُنَّ عند نداء البطريرك، وبقدر ما يكون هناك أناس، جهِّزن أنفسَكن وأسرِعْنَ لبناء بيت سيدنا يسوع المسيح.

وللقيام بذلك على أحسن وجه، استشيروا عزرا، ذلك العالم اللاهوتي بالقانون. دعونا نطرُد من المبنى كل أولئك الذين وُلدوا أبناءً للكلدانيين. دعونا نَلج في رغبة السعادة التي انغمس فيها أسلافنا بحماسة؛ لكيلا يكون الله غير راضٍ عنا، حين يرانا بأننا كذلك نُعرض عن قانونه المقدس. وبذلك، ففي اضطلاعنا ببناء معبد الله المقدَّس، فإن أبناء الغرباء لن يكونوا حَجَرَ عَثْرةٍ لنا؛ ولذلك فإننا سنُمكَّن من وضع أيدينا بجرأة على الصَّرْح. فحماية الله العظيم القدرة في تعمير بيته ستكون عاجلة ومؤثِّرة. ولكني أخشى أن يؤنِّبني البعض على تقديم هذا المثل من التوراة، وكأن الحدود الدقيقة المختارة لموضوع هذا الخطاب قد تم تجاوزها. لا تدعوا ذلك يحدث؛ لأننا نعرف أن القديس القديم بول قال: «كل هذه الأشياء التي حدثت لهم إنما هي عِبَرٌ لنا، وقد كُتِبت لتحذيرنا؛ وإذا نحن آمنا بأننا في مَأْمن بواسطة دم الحمل الحقيقي من فرعون غير المرئي، كما كان اليهود في مأمن من فرعون المرئي؛ وإذا نحن عبرنا بحر الخطيئة كما عبروا هم البحر الأحمر؛ وإذا كان لدينا دليلنا صخر

(١) كلنة: جاء ذكرها في التوراة في أكثر من موضع (سفر التكوين ١٠/١٠) بأنها إحدى المدن الأربع التي بناها النمرود في أرض بابل، أرض شنعار، وقيل: هي طيسفون، وقيل غيرها.

روحاني[1]؛ كما كان لديهم الدليل المادّي[2]؛ وإذا نحن عَبَرْنا، عبر يسوع المسيح، إلى الجنة، كما دخل أولئك الذين اتّبعوا يوشَع بن نون[3]؛ أرض الميعاد. كل هذه الأشياء تأتي إلينا من خلال عمق الحب والإيمان، كما حدثت في الواقع لليهود؛ كما تُبيِّن الكتب المقدسة ذلك بوضوح، أن القانون كان ظلاً للأشياء الجيدة التي ستأتي. وبيننا كذلك، فقد تمَّ نصب المعبد لربنا، كما أنه قد نُصب بينهم؛ وبينما كنا نقيم مؤقتاً في الصحراء، حملنا معنا خيمة هيكل الإنجيل».

لكنني لن أستمر في استخدام عبارات المجاز؛ بل سأشرح بوضوح أكثر: فبأمر من المسيح، وبينما كنا نتجوَّل في صحراء الاضطهاد بين الوثنيين، قام الحواريُّون المقدَّسون بنصب خيمة هيكل الإنجيل لنا من الإيمان الصافي. وكما يقول القديس بول: «لقد وضعتَ الأساس، يا يسوع المسيح، فدَعْ كل رجل يتنبَّه كيف يبني بعد ذلك من أجلك المعبد الحقيقي الخاص بالرب الحي، وروح الله الكامنة بك. فالمسيح يحكم في بيته، الذي هو نحن، والمسيح هو الكاهن الأكبر لهذا البيت».

هذا البيت من الإيمان، الذي شيَّده الحواريون على المسيح، وشيده المسيح عليهم، فيقول: (على هذه الصخرة سأبني كنيستي). ولهذا قادها آباؤنا معنا لفترة طويلة عبر صحراء الاضطهاد الوثني بكثير من الروعة والإجلال. وفي داخل محيط هذا البيت الروحي من الإيمان، وفيه قام الربُّ بِوَسْمِ المنْضَدَةِ بيده - وذلك أن جسد المسيح وعصاه اللذين ازدهرا - فقد قام مناصرون بارزون بالتضحية بحياتهم، فأنتجوا الحياة تحت أكثر العذابات فَظَاظَةً؛ بينما يقدم الكُهَّان المُقَدَّسُونَ للرب فضائلهم المشرقة مثل الرائحة الزكية التي ترضي الرب؛

---

(١) يشير إلى بيتر أو بطرس؛ لأن اسمه يعني الصخرة.

(٢) يشير إلى تابوت بني إسرائيل الذي حملوه معهم من مصر.

(٣) نبي من أنبياء بني إسرائيل، يعرفه المسلمون بوصف: فتى موسى، وهو الوارد ذكره في سورة الكهف. قاد بني إسرائيل بعد التيه ووفاة موسى عليه السلام إلى أرض فلسطين، ودخلها بهم.

حتى وهو يقودهم إلى أرض الميعاد الخاصة بهم، فهو يرشدنا كذلك إلى سلام الكنيسة تحت ظل أكثر الملوك ورعاً[١].

وكما غرس سليمان العظيم معبد العهد، وشيَّد لله بيتاً من الحجارة، فكذلك أنشأ قسطنطين بحزم، وبمعونة مجمع نيقية الكنسي العام، بيتَ الإيمان الخاص بالمسيح، وحيث إنه أُقلِق وأُزعِج بغارات متكرِّرة من كل جانب؛ وإذا جاز التعبير، فإنه قام بإصلاح ذلك في الصحراء والذي كان ردَّ فعلٍ خلال اضطهاد حجنا، وقد جعلها مزدهرة، وأعادها إلى بهائها الأول. وبذلك فإن معبدنا الحقيقي والروحاني قد ارتفع تحت حكم قسطنطين، بالتعاون مع ثلاث مئة وثمانية عشر من أكثر الآباء قداسةً، كما كان حال المعبد المادي لليهود الذي ارتفع تحت عناية سليمان وحكمه. وقد زالت الظلال، واستُبدلت بها الحقيقة، كاشفة عن نفسها بالشكل والجمال نفسيهما في هيكل العهد الخاص - بفضل بركة يسوع المسيح - الذي غرسه الحواريون ونشره خلفاؤهم، وكان له كذلك أساسه الصلب في أثناء حكمهم، حسب قرارات مجمع نيقية الكنسي المقدس وقوانينه. وفي المعبد القديم أُقِيمَ عرشُ الرب، وصُنِع مذبحُ الكفَّارة من الذهب الذي أمر به موسى، وشاده بيزاليل؛ ولكن الحلم والتواضع والحب التي أمر بها المسيح، ومارسها حواريُّوه، تُركت لنا وكأنها مستودعُنا. واستراح على هذا العرش، وهو الذي لم يكن لديه ما يريح رأسه عليه، وكان يسرُّه أن يسكن هناك بدلاً من السكنى في عربة الملائكة الكروبيين[٢].

---

(١) أبجار، قسطنطين، تيريداتس، ثيودوسيوس الكبير. (المترجم).

(٢) لا يخفي على القارئ ما يحويه هذا الحديث الطويل من افتراء وأكاذيب تدور كلها حول حق اليهود في فلسطين والهيكل المزعوم. وإيراد المؤلف لها والدعوة إليها والحض عليها هو - في ذاته - اعتراف منه وإقرار بما تتضمنه من افتئات على حق العرب في أرضهم، وإباحتها لدخيل، مع الحض على طرد أصحاب البلد الأصليين بزعم «الحق الإلهي» لغيرهم فيها.

لقد استُقبلتْ هذه الموعظةُ استقبالاً حسناً، وكان إنشاء الاتحاد سيتم لولا وفاة كومنينوس. وكان لخلفه أليكسيس الثاني أفكارٌ مختلفة، كانت عائقاً في سبيل إتمام الاتِّحاد. وقد عاش كبير أساقفة طرسوس تسعة عشر عاماً بعد انعقاد هذا المجلس، وتُوُفِّيَ في الرابع عشر من يوليو ١١٩٨م.

التقيت هنا، في السادس عشر من يناير، جعفر خان، الذي نشأ في إنجلترا، وبعدها وظَّفه عباس ميرّزا في مشهد، حيث تعرفت إليه. لقد تناول معي طعام العشاء في منزل السيد بونهام. وهو فارسي ذكي جداً، ولو كان فيهم الكثير من أمثاله لكان ذلك جيداً، ولكن، ويا للأسف! إنهم قلة. ويجب أن أعترف أن أولئك السكان الأصليِّين ينشأون في إنجلترا، أو يزورونها، لكنهم لا يكونون من النوعية الصحيحة بشكل مستمرٍّ، ويتكشفون عن صور سيئة. وكل واحد منهم عندما يأتي إلى إنجلترا يُعامَل، في الحال، بوصفه أميراً أو أميرة؛ وهذا شرف لا يبدو على الإطلاق أنهم غير راغبين في التظاهر به، مثل: «الأميرة البابلية» حينما لا يكون هناك وجود لأميرة بابلية؛ أو «أمير كشمير» أو «نبلاء لبنان؟» وَهَلُمَّ جرّا. وبعد زمن فإن هؤلاء الأشخاص يعودون إلى بلدانهم ساخطين وغير نافعين مطلقاً.

لقد ذكرت علامات معينة لانحسار تأثير الدِّين الإسلامي؛ وسوف أقدِّم أخرى: ففي الثامن عشر من يناير زرت - مع السيد بونهام - ميرّزا هاشم، أحد أفراد أسرة محمد، وهو رجل ذو ثروة هائلة، وقد قال لي: «يجب أن تتحاور في الدين مع كبير ملالي كربلاء، فإذا قمت بتحويله، فإن كل المسلمين سوف يَحْذُون حَذْوَه». فقلت: «لكنكم تحكمون على المسلم الذي يغامر باعتناق الدين النصراني بالموت». فأجاب قائلاً: «كانت تلك من عادات الماضي، ولكن الآن، فإن المسلم الذي يصبح نصرانياً يحتاج فقط إلى أخذ جواز سفر إنجليزي، ويعلن أنه أحد الرعايا البريطانيين، وبذلك يَسْلَم».

اليوم هو العشرون من يناير. وفي هذا اليوم ظهر المهمندار الذي سوف يصاحبني عند باب القنصلية العامة البريطانية في تبريز. وقد صحبني السيد بونهام والسيد بورجيس في رحلتي مسافة سبعة أميال. وعلى الطريق، وبعد مغادرتهم إياي، لاحظت أن مايكل، خادمي، في غاية السُّكْر، إذ لم يكن في مقدوره الثبات فوق حصانه، وقد سبَّب ذلك لي حزناً عظيماً، فأمرته بأن ينزل ويُرّجِعَ إليَّ نقودي، التي كنت أعطيته إياها ليحتفظ لي بها. فأعاد إليَّ النقود، ولكنه - لسُكره - ضربني، وتركني على قارعة الطريق. ولأن السيدين بونهام وبورجيس كانا قد عادا إلى تبريز عندما تركني ذلك الرجل، فقد خشيت عليه أن يموت في الثلج، حيث يستلقي وينام، أو أن يُخْطَفَ ويصبح رقيقاً، أو أن يُسلب منه كل شيء؛ ولذلك أرسلت حارس جياد البريد ليخبر السيد بونهام، الذي أرسل - بدوره - أحد رجاله، وأحضره بالقوة إلى تبريز. بعد ذلك كان عليَّ إرسال حقيبته إلى تبريز. ولا أعلم ماذا حلَّ به: هل عاد إلى القسطنطينية، حيث تم استئجاره منها، أم لا. وواصلت رحلتي، ووصلت في اليوم نفسه إلى سيد آباد.

وفي الحادي والعشرين من يناير، وصلنا إلى قرية كثيرة التِّلال تسمَّى تكمه تاش. كان الطقس بارداً بشكل مروِّع؛ ولم نكد نصل إلى دائرة البريد (منزلة) حتى غطَّت الغيومُ السماءَ، وأظلم الأفق، وارتفعت بشكل فظيع كتل كبيرة من الثلج والرمل من الأرض. ولم يجرؤ أحد على التحرك من الدائرة. ويسمي الفُرْسُ هذا النوع من العواصف: كولاك. ولم أرَ مثلها في رحلاتي الكثيرة مطلقاً. ومثل هذه الكولاك تقتل الجواد وراكبه في لحظة، خصوصاً إذا صاحَبَها عاصفةٌ كأنها الموت في قشعريرتها وبرودتها. فاضطُرِرْنا إلى المكوث مدة يومين في ذلك المكان التعيس، المعرَّض أكثر من غيره في أي جزء من بلاد فارس لما يُسَمَّى بالكولاك.

وفي اليوم الذي غادرتُ فيه تبريز في طريقي إلى طهران، التقيت درويشاً فارسيّاً متعلِّماً - بصحبة فارسي آخر - في المكان الذي أقمت فيه عندما تركني خادمي. وعند دخولي معه في حوار ديني، انفجر هاتفاً: «أنت تاتا سلطان آخر، وكمالي هودبين!» فسألته قائلاً: «من هذان الشخصان؟» فقال الدرويش: إن مريدي بدر الدين سيماون أوغلو، الذي قام في عام ٨٣٥ هجرية، باجتياز بلاد الروم (الإمبراطورية التركية)، أفتى في دروسه بأن الرجال جميعهم يجب أن يتشاركوا في ممتلكاتهم - البيوت والأسلحة والملابس - ما عدا النساء. وكان تاتا سلطان، الذي كان اسمه كذلك بير قليج مصطفى، صديقاً حميماً للنصارى، وقد أمضى مع أحدهم زمناً طويلاً في تأمُّل مقدس حول الله في جزيرة سكيز (أي: سكيو)[1]. وقام تاتا سلطان بتدمير جيش محمد سلطان الروم، وفي النهاية قام بايزيد باشا بسجن بير قليج مصطفى، وقَتْلِه، كما كان يُعتَقَد، دون رحمة، مع كل مريديه. لكن بير قليج مصطفى لا يزال حياً، وهو صديق للنصارى، وأنت، بالاتِّحاد معه، سوف تقلبان إمبراطورية الروم والفرس. لقد سمعت في دلهي أنك تحادثت مع أكبر شاه، ملك دلهي، ومع المولويين هناك، كما سمعت عنك في كشمير. لقد كُنْتَ يهودياً، وكل الحوادث العظيمة المتواصلة تأتي من أتباع موسى، وسوف تتواصل مرة أخرى حتى يعود عيسى (المسيح) للظهور. وعندما تقع هذه الحوادث، فسوف ترى نفسك محاطاً بأتباعك، عندها تَذَكَّرْ درويش جيلان، فعبدالوهاب لم ينجح في إصلاح العالم، ولكنك ستنجح في ذلك.

جلس الفارسي الآخر قبالتنا، منصتاً بانتباه لكلمات درويش جيلان، ثُمَّ

(١) إحدى جزر بحر إيجة اليوناني الآن Island of Scio (Chios), in the Aegean Sea.

بدأ محاورة حول شجاعة الوزير السابق مختار، يعني: السير جون ماك نيل؛ حول تحدِّيه لملك فارس، ومَنْعِهِ الشاه من أخذ هراة. ومنذ الوقت الذي غادر فيه السير جون ماك نيل فارس، فإن الفُرْسَ يتحدثون عنه أكثر مما يتحدثون عن السير جون مالكولم. ويتميز الفرس بحدَّة في الذهن، وهم يصوِّرون السفراء البريطانيين بالطريقة الآتية:

١- السير جون مالكولم: الجواد.

٢- السير جور أوسلي: العالم.

٣- السير هنري ويلُّوك: الطيب القلب، الصالح.

٤- السير جون كامبل: صاحب العزم، والوزير المختار الليبرالي.

٥- السير جون ماك نيل: الذكي الشجاع، الرجل الوسيم، وأفضل عالم باللغة الفارسية ظهر في فارس، والذي هو في الوقت نفسه ليبراليٌّ.

٦- الكولونيل شيل: الرجل المحب للاعتزال، ولكنهم أعطوه سُمْعَةً حسنة لحزمه.

لقد تغيرت كذلك نبرة الفرس والأتراك فيما يتعلَّق بتقديراتهم لقوة البريطانيين والروس؛ فقبل ما يقارب أربعة وعشرين عاماً، كان الأتراك يصفون إنجلترا بأن قوتها أدنى من قوة السلطان، ويتحدث الفرس عن الروس بأنهم رجال لن يستطيعوا أبداً الاستيلاء على إيريفان؛ ولكن هذه البلدان الإسلامية أُجبرت، في النهاية، على الاعتراف بتفوق كل من روسيا وإنجلترا؛ ووصل الأمر إلى حد أن كلاً من الأتراك والفرس، يعترفان أنهما لا يستطيعان التحارب مع بعضهما؛ لأن روسيا وإنجلترا لن تسمحا بذلك. وبدلاً من القول، كما في السابق: «لا تستطيع أي قوة الاستيلاء على إستانبول»، فإن الأتراك، وكذلك الفرس، يسألونني باستمرار قائلين: «متى يأتي الإنجليز ويستولون على البلاد؟».

في الثالث والعشرين من يناير، واصلنا رحلتنا تجاه *تركمانگاه*[1]. وساد الطقسَ هواءٌ باردٌ، اخترق حذائي الكبير، الذي أعطاني إياه الكولونيل وليامز، والذي ألبس تحته زوجين من الجوارب. وفجأة تبينت تطايراً مزعجاً للرمل، بحيث إنني أُجبرت على أن أفرُك عيني وأغلق فمي. وساء الوضع بصورة شديدة، مع هبوط الثلج من قمم الجبال؛ وعند هذه اللحظة الحاسمة صاح المهمندار التابع لي قائلاً: «كولاك!» ولكن، لحسن الحظ، توقَّف الكولاك بعد عشر دقائق، وازداد الهواء دفئاً، وتساقط الثلج بلطف في شكل رقائق ناعمة، ولو استمرّ الكولاك مدة أطول لكنت سقطت من جرف، إذ كنت على بعد حوالي اثنتي عشرة ياردة منه، ولم أكن قد لحظته. وركبنا متقدِّمين للأمام بعد ذلك عدْوَاً بسرعة الخيل، ووصلنا بسلام إلى *تركمانگاه*، حيث توقفنا تلك الليلة.

الرابع والعشرون من يناير: في هذا اليوم وصلنا إلى بلدة فيها سوق كبيرة، وتسمى ميانا، وقد حصلت على غرفة لائقة، وزرت مُلاَّ تلك البلدة، وتحادثت معه مطولاً حول مجيء المسيح بمجد وجلال. وكان مُلاَّ ميانا من المعجبين بشدة بالمثنوي للرومي[2] وهو كتاب متميز، يشبه كثيراً كتابات جاكوب بوهم. ويكنُّ له متصوِّفة فارس الإجلال نفسه الذي يكنُّه متصوِّفة ألمانيا لجاكوب. وقد كُتِبَ أصلاً باللغة الفارسية، وترجمه الشيخ إسماعيل مولوي إلى اللغة التركية، وأضاف إليه مجلداً سابعاً.

---

(١) هي كلمة مأخوذة من *تركمان وگاه*، التي تعني «مكان» حيث كان التركمان قد وصلوا في غارات السلب التي يقومون بها إلى ذلك المكان، وهناك تلقوا هزيمة نكراء.

(٢) مجموع شعري لجلال الدين الرومي، بث فيه آراءه في العقيدة والأخلاق والحب والتصوف. والناس حوله بين مادح وقادح؛ لكن الذي لا شك فيه أن جلال الدين كان من الداعين إلى وحدة الوجود، وقد امتلأ ديوانه هذا بكفريات وشركيات وطامّات لا يصح السكوت عنها، أو الدعوة إليها.

وفي السادس والعشرين من يناير، وصلنا إلى مدينة تسمى سانجون، وهناك قابلت ميرّزا بكر، قائد القوات، الذي سكن معي مدة شهرين عام ١٨٣١م في منزل ميرّزا بابا في مشهد، وقد استعدنا معاً ذكريات تلك الأيام السالفة.

وفي الثامن والعشرين من يناير وصلت إلى خُرَّم تاره، وسعدتُ بلقاء القس السيد ستوكنج، وهو منصِّر أبرشي[١] أمريكي، مع القس الموقر الأسقف جبرائيل، مطران الكلدان النصارى في ذلك المكان؛ وكان بجانبه أسقف آخر في أورمية: مار يوحنان، وهو نفسه الذي كان في أمريكا. ولأن ستوكنج والأسقف المذكور وصلا قبلي إلى خُرَّم تاره، فقد سكنا في منزل آخر؛ غير أنهما أصبحا ضيفيَّ بناءً على طلبي.

لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أصل الكلدان حول حقيقة التحدُّر[٢] وأنهم أحفاد بني إسرائيل؛ فهم يسمُّون أنفسهم بني إسرائيل (أبناء إسرائيل) ولغتهم هي العبرية، ولديهم أضحيات تسمى دوغران شلاما في عيد التجلِّي، تتكون من خَرُوفٍ أو حمل أو عَنْزَةٍ، ولديهم في كنائسهم قدس الأقداس، ولهم حِجاب مثل ما لدى اليهود، والأساقفة من قبيلة ليفي، أما اليسيديون فمن قبيلة يهوذا، غير أن الأخيرين ارتدُّوا، ولديهم نهر يسمى قوزان؛ ويدعوهم يهود كالديا بأبناء إخوانهم؛ ويشمئزُّون من الصور، ولهم سبعة أسرار مقدسة يسمُّونها (راس) وهذه هي أسماؤها، والتي سوف تلحظ أنها مختلفة تماماً، على الأقل في الجزء الأكبر منها، عن تلك الأسرار الخاصة بالكاثوليك الرومان. وهي كما يأتي:

---

(١) مناصر للتنظيم الكنسي الذي تتمتع فيه كل أبرشية باستقلال ذاتي. (المترجم).

(٢) يقصد المؤلف أنهم يعودون في أصولهم إلى بني إسرائيل، وهو أمر مختلفٌ عليه تاريخياً بشدة.

١- مباركة الكاهن، أو رِسامة الكاهن.

٢- رِسامة الكنيسة.

٣- التعميد.

٤- عشاء الرب.

٥- مباركة الخميرة المعتقة.

٦- الزواج.

٧- شعائر صلاة الميت.

جاء القديس توماس الحواري إلى بلاد ما بين النهرين، حيث كانوا يعيشون في عبودية، وقدّم لهم موعظة من الإنجيل عندما كانوا يعيشون بالقرب من الموصل، في مكان يسمى حلح وخابور، بالقرب من نهر قوزان؛ لذلك فإن يهود بخارى، على ما يبدو، أطلقوا بعد ذلك على بخارى وسمرقند أسماء أماكن استيطانهم الأصلية في ما بين النهرين. وقد سكن بطارقتهم بداية في إيلات خوكي؛ وبعد ذلك في مراغة، التي تبعد مقدار ثلاثة أيام من تبريز؛ ثُمَّ في ألقوش المذكورة في سفر ناحوم، الفقرة ١. وبعد غزو تيمور لنك انسحبوا إلى الجبال في كوتشانز. وقبل سنوات، عندما كنت راعيَ الأبرشية في هويلند العليا، أرسل إليَّ أسقف لندن خطاباً يُوهِم بأن بطريرك الكلدان كتبه، قدَّمه إليه بعض الأدعياء الكلدان. وقد كتبت لأسقف لندن في الحال كاشفاً أنهم دجَّالون، وأكد كلٌّ من الأسقف جبرائيل ومار يوحنان أنني لم أكن مخطئاً في شكوكي، وأن الخطاب الذي قدموه باسم البطريرك كان مزيَّفاً.

التاسع والعشرون من يناير: واصل ستوكنج ومار يوحنان رحلتهما تجاه أورمية، وتوجهتُ أنا إلى طهران، فوصلت في الثلاثين من الشهر إلى سيادهين، حيث حصلت على غرفة رائعة مؤثثة تأثيثاً جيداً في منزل الكتخدا، رئيس القرية، واسمه بابا عباس.

وفي الحادي والثلاثين من يناير، وصلت إلى قزوين، التي كانت في السابق عاصمةَ ملوك فارس؛ وقد حُكمت مرةً من قِبَلِ مجموعة من الدراويش المتمرِّدين الذين يسمَّون لوتي، أو «الحمقى». وفي قزوين حصلتُ على خيل رديئة، بحيث اضطررت عند وصولي إلى سفر خوجه، التي تبعد أربعة عشر فارسنج أو ستة وخمسين ميلاً من طهران، إلى الكتابة إلى الكولونيل شيل أستعطفه كي يساعدني في تزويدي بخمسة جياد. وعلى أية حال، لقد واصلت رحلتي ببطء شديد. وقد أرسل الكولونيل شيل الخيل بلطف بالغ (من ضمنها حصانه الخاص لي)، وقد وصلتْ مع خطاب لطيف منه، يدعوني فيه إلى أن أسكن غرفة في السفارة البريطانية.

الفصل الخامس

الوصول إلى طهران. مقابلة مع الكولونيل شيل. مقابلة مع مشهدي رجب، خادم الكولونيل ستودارت. إلجي بخاري. رواية لطيف. بارنستاين. عظات أمام السفارة. مقابلة مع مار يوحنان، أسقف الكلدانيين، رأيه في أفرام سيروس. مقابلة مع الشاه. خطاب الشاه إلى أمير بخاري. مقابلة مع وزير الشاه. سفير بخاري يخبر الدكتور وولف أن ستودارت وكونولي لا يزالان أحياءً. لا يوجد تأكيد في طهران حول وفاتهما. سفير خيوة. تصرُّف الكولونيل شيل المعوِّق. اليهودي بوروفسكي. أشهر الجنرالات المعروفين في الشرق من أصول يهودية. السلالة الصَّفَوية الحاكمة. الرحيل من طهران. الكولونيل شيل لم يستقر رأيه حول موت المبعوثين. دليل جاكوب. الدكتور وولف يزور بالاشت، جفاني كيف، داري خار، ده نماك، سرخاك. يدخل خراسان. يقابل الأمير سيف الله ميرْزا في سمنان. الطريق عبر أغوان، خوشا، دامغان (ينقل أنها أقدم مدينة في العالم)، ده مُلاً، شاروت، ميامي، ميان دشت، مهير، خسروجرد، سبزوار: برج من الجماجم الآدمية بناه تيمور لنك في هذا المكان. الطريق يتواصل: سفران، جيرم آب. الدكتور وولف يتلقى خطاباً من النائب الفارسي في خراسان: آصف الدولة. الطريق يتواصل: نيسابور. تقرير حول ستودارت وكونولي يفيد بأنهما حيَّان. الطريق يتواصل: لقاء مع تاماس بك، قدمگاه، شريف آباد، عسكرية. يلتقي هنا مع المُلاَّ مهدي، صالح محمد أخوند زاده. محمد علي صراف، وكيل الكولونيل ستودارت. تصرُّف هذا الوكيل يثير الشكوك.

الثالث من فبراير: وصلت إلى طهران هذا اليوم قرابة الساعة الثانية عشرة. وفي الحال أكد لي الكولونيل شيل أنه سيبذل كل ما في وسعه

لمساعدتي؛ لكي أصل إلى بخارى في أمان. وقد احتجز (الكولونيل شيل) مشهدي رجب في منزله، وهو شخص من هراة، خدم الكولونيل ستودارت ثلاث سنوات، وسافر إلى كابل مرسلاً منه، وعانى من السجن في بخارى. وكان ستودارت وكونولي مدينين له بمئة وثمانين توماناً، دفعها إليه الكولونيل شيل، وقد استخدمتُه ليصحبني إلى بخارى.

وقد أخبرني الكولونيل شيل أنه كان قد قابل إلجي، سفير بخارى، الذي قال له إنه لا يظن أن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قد قُتِلا، ولكنهما محتجزان في السجن؛ غير أن السفير الروسي أَسَرَّ لي بأن إلجي أخبره بأنهما قُتِلا. وسألت خادمي رجب عن رأيه في ذلك، فقال إنه من غير المؤكد أنهما قُتِلا؛ لأن هناك أناساً يُحْتَجَزون باستمرار في بخارى مُدداً تصل إلى خمس سنوات، ويظن السكان حينئذ أنهم قد قتلوا، وبعد ذلك يظهرون فجأة. ومن المؤكد أن لا أحد في بخارى، من الذين أستطيع أن أحصل منهم على معلومات، قد شهد إعدام أيٍّ من كونولي أو ستودارت؛ وفي الأقل في هذه النقطة، فإن تقرير أخوند - زاده، فيما يتعلق بإعدام الرجلين بحضور الكثير من الناس، وجدته غير دقيق، كما أن عزمي على الذهاب مباشرة إلى بخارى لم يهتزَّ ولم يضعف. «آين فيسته بورج إست أونسر جوت»[1]: «قلعتي قوية وهو ربنا».

يجب أن أعترف بأنني لم أعلِّق أهمية على تقرير لطيف، الذي ظهر في حيدر آباد بزعم تسلُّمه رسائل من ستودارت، وأنها سُلبت منه، وبأنه لا يزال حيّاً؛ ولم أعلق أهمية كذلك على التقرير المناقض تماماً لهذه القصة، الذي قدَّمه اليهودي بارنستاين في لاهور، مدَّعياً أنه شهد إعدامهما مع أربعة آخرين.

---

(١) هذا تعبير باللغة الألمانية: Eine feste Burg ist unser Gott.

لم أصدق تقرير لطيف؛ لأنه أولاً: يبدو من غير المحتمل أن يسلبوه الخطابات ثم يدَعوه يواصل رحلته إلى الهند. ثانياً: وجدت الناس دائماً يهربون بروايتهم حول موضوع في غاية الأهمية إلى أمر مبتذل، محاولين بذلك تجنب التقصي الكامل في مسألة أكثر أهمية. وعلى سبيل المثال، عندما عزمت على الذهاب إلى تمبكتو في عام ١٨٣٦م، أُرسل إليَّ أحد المالطيين، الذي تظاهر بأنه زار تبمكتو، وعند اختباري له، انحرف في إجاباته بأسرع ما يستطيع عن النقطة الرئيسة، وبدأ يتحدث عن روما، فشككت فيه في الحال. وبعد ذلك سمعت من طريق ديكسون، القنصل السويدي في طرابلس، أن ذلك الشخص لم يذهب إلى أبعد من طرابلس. ولذلك، استجوبَت السلطات في حيدر آباد لطيفاً من قبل، فتهرَّب وبدأ يتحدث عن يار محمد خان في هراة، وما أبداه أهالي قندهار من أسف؛ وإلى جانب ذلك، أخبرني رجب، الذي يعرف لطيفاً أنه كذاب أَشِرٌ مشهور.

ولم أصدق رواية بارنستاين كذلك؛ لأنها تتعارض تماماً مع تقرير صالح محمد، وكل شخص يعرف نزعة يهود بخارى التي تتسم بالجبن، سيعرف في الحال أنهم سيمنعون بارنستاين من حضور مثل ذلك العمل المرعب. وكما قلت، فإنه من المؤكَّد أنْ ليس هناك من أحد قد حضر إعدامهما، حتى إن سفير بخارى أبدى فقط لسفير روسيا ظنَّه بأنهما قُتِلا. وباختصار: لا أحد يعرف، ولذلك كان من الضروري القيام بالمزيد من الغربلة.

وقد استوقفتني حقيقة أخرى: فحسب رواية صالح محمد، اقتنع الأمير بقتلهما؛ لأن أناساً من أفغانستان طالبوا بموتهما؛ وقد أخبرني السفير الروسي أن إلجي بخارى أنبأه أن الأمير تصرف ضد ستودارت لازْدِرَائِهِ تحذيرَه إياه، ومواصلته مراسلاته مع مواطنيه في الهند. وضد كونولي لذهابه

إلى خوقند، ولم أرغب أنا في الذهاب إلى إلجي بخارى حتى أرى الشاه ورئيس وزرائه، وقد وعد الكولونيل شيل بأن يدبر لي لقاءً مع كليهما.

إلى بخارى.. إلى بخارى! كان قراري الجازم؛ وحتى لو أخبرني الأمير أنهما ميتان، فقد كنت عاقداً العزم على أن أطالب بجثتيهما، وأن أضعهما في الكافور، وأحملهما معي إلى القسطنطينية، ومن هناك إلى لندن. وفي كل الأحوال، عقدت العزم على رؤية جثتيهما.

كتب ملك فارس خطاباً إلى قريبه في مشهد، آمراً إياه أن يرسل معي مهمندار إلى مَرْوَ، التي تتبع الآن ملك بخارى، كما كتب رئيس الوزراء خطاباً إلى ميرْزا عسكري، كبير رجال الدين في مشهد، طالباً منه أن يزودني بخطابات قوية لأصدقائه ذوي النفوذ في بخارى.

ووعدني معالي كونت دو ميدم بتزويدي بخطاب توصية باللغة الروسية، فطلبت منه أن تُتَرْجَمَ شهادات الدكتوراه وأوراق رِسامة الكهانة الخاصة بي إلى اللغة الروسية، حيث إن لديهم مترجمين روساً في بخارى.

وتنفيذاً لوعده لي، زودني معاليه بالخطاب الآتي الموجه إلى أمير بخارى:

٣٠ يناير ١٨٤٤م

الدكتور جوزيف وولف، قس مسيحي، ذو شهرة عظيمة في أوروبا، ومعروف جيداً هناك بعمق تقواه. وقد عقد العزم الآن على الرحلة إلى بخارى، بقصد الحصول على إذن من جلالتكم لتحرير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، أصدقائه الشخصيين؛ لكي يرافقهما إلى أوروبا، عن طريق مشهد والقسطنطينية، أو بالأحرى عن طريق أورينبورج وسانت بطرسبرج، حسب ما تسمح به الظروف.

وقد عزم الدكتور وولف على رحلته بالاعتماد الكامل على العليّ، وأماني كل الشعوب الأوروبية: الذين يعدُّونه درويشاً منشغلاً تحديداً بالتأملات الدينية والعلمية، غير مبالٍ تماماً بالأمور الدنيوية؛ تصحبه (تلك التأملات) في مشروعه.

ولقناعتي بأن توصيةً من وزير جلالة إمبراطور روسيا في فارس سوف تسهم في منحه استقبالاً إيجابياً وكريماً من جلالتكم، فدعني أهتبل هذه الفرصة لتأييده بهذه المذكرة.

إن هدف الدكتور وولف كذلك هو تحرير الكثير من الأوروبيين الآخرين الواقعين في العبودية في آسيا، ومن بين هؤلاء: ناسللي، من فرقة الفرسان، الذي رحل قبل سنتين من طهران إلى بخارى، والذي أثق بأن جلالتكم لن يرفض الإذن له بالعودة إلى وطنه، إذا أبدى أي رغبة للقيام بذلك.

وعظْتُ، وقرأتُ الصلوات في غرفتي في السفارة البريطانية، حيث حضر الكونت دو ميدم وجميع المترجمين والملحقين الروس، وكذلك القنصل العام الروسي، إلى جانب البروتستانت الإنجليز. وقد وعظت حول سِفْرِ المزامير، المزمور الثاني، الفقرة ٨.

وكان هناك أيضاً رجلان ممتِعان ملحقان بالسفارة البريطانية، هما دبليو. تايلور تومسون من أسكتلندا، وكان قد صاحَبَ الكولونيل تشيسني في بعثته في الفرات، وزار خيوه كذلك. وأيضاً السيد جلِن، ابن جلِن المنصِّر المشهور، صاحب أستراخان. والسيد جلِن شابٌّ ذو مواهب جمَّة، وعلى معرفة جيدة باللغات الشرقية. ويُعَدُّ الكولونيل شيل نفسه عالماً كبيراً بالدراسات الفارسية والتركية. والتقيت مرة أخرى هنا بأصدقائي القدماء، السيد والسيدة ريد. وقد قام السيد ريد بنسخ دفتر يومياتي في عام ١٨٣١م، وأنا في طريقي إلى بخارى، وقد تفضَّل عليَّ مرة أخرى بفعل ذلك الآن.

ومنذ هذه اللحظة بدأت أسحب نقوداً على دروموندز بجدٍّ وحماسة؛ لأنني يجب عليَّ أن أظهر بصورة محترمة في بخارى مثل مُلاّ كبير من إنجلترا، كما وصفني السلطان وشيخ الإسلام، وآخرون غيرهم. غير أن الملالي بين المسلمين

يعيشون ببساطة متناهية، وقد عزمت على أن أحذو حذوهم، وعزمت كذلك على ألاَّ أهمل البحث عن الضباط الآخرين في بخارى وحولها، وعن أي سباهي[1]، يمكنني أخذه معي.

والتقيت هنا، في الخامس من فبراير، ميرْزا أبا الحسن خان، وزير الشؤون الخارجية. وقد تذكَّر الليدي كاثرين لونج. وبالتأكيد فإن طهران مكان موائم؛ إذ سطع عليَّ ضوء ضئيل من شمس الحضارة، بعدما مررت به من متاعب، كنت أعلم مسبقاً أنني سأواجهها. كان المكان ساحراً للغاية، وأعتقد أنني سوف أفتقد مجتمعها الرائق أكثر في صحاري تركمانستان. وأظن أن فكرة الكولونيل شيل عن احتجاز سفير بخارى رهينة إلى حين عودتي، كانت جيدة للغاية، ومهما كانت الأفكار التي قد تراودني حول تصرُّفه عند عودتي إلى بخارى، إلا أنه في هذه المناسبة استقبلني بلطف صادق وكرم ضيافة، وكذلك استقبلني كلٌّ من السيد تومسون، والسيد جلن، والملحقون، بوُدٍّ بالغ؛ وأود أن يُفهم هذا عن كل عملائنا الدبلوماسيين في طهران، بكل ما تحمله كلمات اللطف الصادق وكرم الضيافة من معنى.

كان مار يوحنان، أسقف الكلدان من أورمية، الذي ذكرته آنفاً، موجوداً عندما وصلت إلى هنا. ومن المحادثات التي جرت بيني وبينه، لا زلت متأكداً تماماً من فكرة أن الكلدان – وكما يقولون هم أنفسهم – من بني إسرائيل. وقد كان مار يوحنان من كبار المعجبين بأفرام سيروس، ولا عجب، فبلاغة ذلك البابا الكنسي مذهلة.

وأتذكر جيداً، في الكنيسة السريانية في الموصل، الإحساس الناجم من قيام رئيس الأساقفة السريانيين إلياس بترجمة ما كتبه الأب العظيم أفرام

(١) جندي هندي خيَّال في الجيش الإنجليزي (المترجم).

سيروس عن الفقرتين ٣١، ٣٢ من الإصحاح ٢٥ من إنجيل متَّى، على النحو الآتي: «عندما يأتي ابن الإنسان في مجده» إلى آخره: «انظر ملك الملوك فوق عرش مجده، والجنس البشري مجتمعون أمامه»، فإن مجرد الوصف لهذه الحقيقة، بالنسبة إليَّ كما لو كنت سأصاب بالإغماء، فعظامي تنتفض، والدموع تملأ عيني، ولساني يَتَلَعْثَمُ، ويختنق صوتي، وشفاهي ترتجف، وتختلط أفكاري! ونحن تخيفنا أية صاعقة؛ فكيف يمكننا تحمل صوت البوق الذي سيوقظ الموتى! «ستنهض كل عظام بني آدم، النائمين في حضن الأرض»، وعند سماع صوت هذا البوق سيجتمعون مع بعضهم، وتُنفخ فيهم الحياة: ومن ثم ستعيد الأرض المرتعشة والبحر الأمواتَ. انظروا الأرض في اللهيب! فالمحسنون على اليمين، والمسيؤون تضعهم الملائكة على الشمال! اسمعوا لترانيم تسبيح الملائكة وتهليلهم لله! «انظروا، السماوات مفتوحة، وانظروا رب المجد! وانظروا، فقد فتح الكتاب الرهيب». وقد قاطعت الأسقف دموعُ جُمُوع المصلين وشهقاتُهم.

السابع من فبراير ١٨٤٤م:

في هذا اليوم حظيت بلقاء الشاه. وقد تلطَّف الكولونيل شيل بتقديمي لجلالته. وكان جلالته قد أرسل، قبل ذهابنا إليه، ابن أخ معالي ميرْزا أبي الحسن خان، وزير الشؤون الخارجية، الذي زارنا، وقال إن جلالته يود رؤيتي. وقد رافقني كلٌّ من الكولونيل شيل والسيد تومسون. ولبست حُلَّتي الكهنوتية وفوقها لبست غطاء الرأس الخاص بدرجتي العلمية الدكتوراه (د. الكهنوت). وكان جلالته جالساً على ديوان يبعد قرابة ثمانية أقدام من المكان الذي جلسنا فيه.

ولأن السفراء فقط من يُسمح لهم بالجلوس بقيت أنا والكولونيل شيل والسيد تومسون وقوفاً. وفي اللحظة التي انحنينا فيها، قال جلالته في الحال

إنه مبتهج لرؤيتي مرة أخرى، ولدهشتي العظيمة، ذكّرني بتفاصيل محادثتنا في مشهد؛ وبالليدي جورجيانا، وبكونها أخت إيرل أورفورد، وذهابها إلى مالطا خلال رحلاتي، وسجني على يدي محمد خان كيراهي، وبأن لديَّ ولداً واحداً، إلى آخره. بعدها أخبرني جلالته أنه كتب عدة خطابات، أحدها موجه إلى ملك بخارى نفسه. وأبدى جلالته إعجابه بإحساني، وقال إنه إذا كان ستودارت وكونولي ميتين، فيمكنني أن أجعلهما حيين بصلواتي! وفي إحدى المرات نسيت نفسي، وقاطعت جلالته بينما كان يتحدث، وعندها لكزني الكولونيل شيل، ولكن جلالته تمنَّى عليَّ أن أقول ما كنت أريد قوله، ثم تابع تأكيدات حمايته وتأييده. وبعد أن أمضينا ساعة مع جلالته، انحنينا، ثم انسحبنا. وفي المجمل فقد استقبلنا استقبالاً كريماً.

وهنا أسجل ترجمة حرفية لخطاب الشاه الموجه إلى أمير بخارى.

(ترجمة)

منوّر فجر السيادة والسلطنة، الشخصية التي تستحق اعتلاء عروش القوة والحكومة، النجم المعلّى في سماء الفخامة والعظمة، الشمس اللامعة في سماء العظمة والهناء، أفضل الحاكمين من الطبقة الشهيرة، أكثر الملوك المشهورين بالامتياز في أعمالهم السخية، المختار من أعمدة حكومات الإسلام، المعاون في سبيل دين المصطفى، الأمير نصر الله: عسى ألا تضعُف عظمتُك وسناؤك! وأرجو أن يظلَّ جلال العظمة والسيادة والسلطان معك!

نرفع لعلمكم الودود، أن الصداقة والمودة بين أولئك الذين يؤمنون بوحدانية الله، ويتمتعون بعقول ونزعات نقية، والذين يتوافقون سراً وعلانية مع بعضهم بعضاً في الرأي، والذين يتجاورون في أوطانهم وأراضيهم الأصلية، لهو أمر مطلوب؛ ولذلك فإن من الملائم ألا تُقْطَعَ سلسلة التواصل أبداً في أي وقت، أو أن تُفْصَمَ عُرى الصداقة بين مجموعتين من المسلمين.

والآن حيث إن رفيع المقام، أستاذ العبقرية والفهم، الموهوب بالحصافة والتمييز، وعمدة المتعلمين بين أتباع المسيح، الرئيس بين حكماء العالم النصراني، الراهب الإنجليزي وولف، يعتزم المضيَّ قُدُماً في ذلك الاتجاه، فإن الصداقة القائمة بيننا تستحثنا، ومن أجل تشجيع إجماع المسلمين، فقد أقنعنا ذلك لإصدار هذا الخطاب الميمون الدال على الصداقة، ونسائم الحب المتزايد لعاطفة منعكسة تجاه عقلكم المحب للخير، وأن الفرصة مواتية لإعلان أواصر الصداقة التي تربطنا في السابق والحاضر.

في خطاب ودي سابق طلبنا سمو الأمير - بما أن الصداقة والتواصل بين الحكومتين الباقيتين للأبد: حكومة الفرس، وإنجلترا - إطلاق سراح عالي المقام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وهما ضابطان إنجليزيان، كانا في بخارى لبعض الوقت، واحتُجزا هناك، وأن يُرسلا مع شخص يوثق به إلى مشهد.

والآن، حيث إن المذكور اسمه أعلاه ذو مقام رفيع (د. وولف) متَّجه إلى بخارى بغية تحقيق إطلاق سراح هذين الضابطين والبحث في حالتيهما، ولأن الشخص المذكور أعلاه ذو مقام رفيع، وأحد المتعلمين والأشخاص المعروفين من تلك الحكومة - فإننا نأمل أن يأمر سموُّ الأمير السلطات أن تعامله بكل كرم ولطف ضروريين؛ حتى يتمكن بنفسه - بكل حرية واطمئنان - من القيام بالتحرِّيات حول وضعيهما، وأن يعود بعد ذلك راضياً تمام الرضا بعد إكمال عمله.

إن خصوصيات قواعد الصداقة والمودة هي: أن بوابات التفاهم والتواصل كونها مفتوحة بمفاتيح قلم الإجماع. يجب أن ترسل خطابات تتضمن أنباءً سارة عن أحوالك الميمونة، ويجب أن تطلع وزراء هذه الحكومة على كافة الأحداث ذات الأهمية، وثِقْ بأننا سوف نختمها طوعاً بأنقى ما يمكن من صداقة.

وعسى أن تدوم أيام السيادة والسلطنة للأبد!

عند مغادرتنا الغرفة، كان خسرو خان، أحد أصدقاء الليدي جورجيانا، في الانتظار، وأخبرني أنه سوف يزورني، ولقد أراد مني أن أوفر له منفاخاً كبيراً من تلك المخترعة حديثاً؛ لكي يشعل به النار، وقد وعدته بأن أجلبه إليه. وطرح عليَّ عدداً لا يحصى من الأسئلة عن ابني وزوجتي وعائلتي. وهو أحد المخصيين التابعين للملك، وكان في السابق من المقرّبين إلى فتح الله شاه، ولكنه لم يعد كذلك بالنسبة إلى الملك الحالي. ألا يبدو الأمر جديراً بالملاحظة أن يكون بعض هؤلاء المخصيين مرتبطاً بعدد من الزوجات؟ مثال ذلك: منوجهر خان، الحاكم الحالي لأصفهان.

في الثامن من فبراير ذهبت إلى زيارة سفير ملك خيوه، لكنّي خرجت من عنده سريعاً. ولكن يجب أن أواصل الآن الحديث عن زياراتي التي قمت بها في يوم الأربعاء، السابع من فبراير: فبعد أن غادرت حضرةَ جلالة الملك، قام السيد تومسون معي لزيارة حاجي ميرّزا أقاسي، وهو رئيس الوزراء المستخدم لدى الملك الذي يؤدي مختلف المهمات؛ وهو رجل غير عادي؛ فهو مستحوذ على الملك في سلطته استحواذاً تاماً. وتحت ثياب الملا، يعيش بخُيَلاءَ ملَكِيَّة، ومن النادر أن يقول إن الملك «سوف يفعل كذا»، ولكن الحاجي «قد أمر» «وأنا الحاجي، أعتزم إرسال قوات إلى بخارى» وهَلُمَّ جَرَا. ويتقدم إليه جميع الوزراء الآخرين؛ حين المراجعة، في أدب جَمٍّ.

وعندما كان محمد شاه لا يزال أميراً، كان الحاجي ميرّزا أقاسي مرشدَه، وقد تنبأ له بأن يصبح ملكاً. وبعد اغتيال القائم مقام السابق، نُصِّب وزيراً. وقد استقبلني بدماثة، وطلب مني أن أجلس بالقرب منه، وعندما أخبرته أنني أَعُدُّ نفسي سعيداً لرؤية الوزير الكبير للشاه العظيم، قال الحاجي: «أنا لست وزيراً، أنا مُلاًّ مثلك، درويش مسكين، لا يعير اهتماماً لهذا العالم، فأنا أفكر فقط في العالم الآخر».

بعد ذلك تحدثنا عن إنجلترا. وأبدى إعجابه بالشعب الإنجليزي، ثُمَّ أخبرني أن أحد الأشخاص من خراسان كتب إليه بأن ستودارت وكونولي قد قُتلا، ولكنه ليس متأكداً من ذلك. حين ذهبت بعد ذلك إلى زيارة سفير ملك بخارى، أنكر هذا الأمر بشكل قاطع، وقال: إنه يعتقد أنهما في السجن. ولقد عاملني سفير ملك بخارى وسكرتيره، عندما زرتهما، بأبلغ ما يكون من اللطف، وعبَّرا عن رغبتهما في مرافقتي إلى بخارى، وأكدا لي أن الملك سوف يستقبلني بتمييز كبير. وباختصار، فلم يكن هناك إلا القليل من المعلومات عن صديقيَّ في طهران، مثل ذلك المتوفر عنهما في لندن. ولن يحل اللغز إلا ذهابي إلى هناك.

ذهبت بالأمس، الثامن من الشهر، إلى زيارة سفير ملك خيوه، وهو عدو لدود لملك بخارى. وقد نصحني بأن أطلب من الكولونيل شيل أن يخبر الشاه بأنْ لا يدع سفير بخارى يتحرك من فارس حتى عودتي سالماً. لم أجب، بالطبع، على نصيحته، إذ إن الكولونيل شيل لا يرغب في أن يعلم أحد بأنه قد تحدَّث مع الشاه حول الموضوع.

ولم يظهر، حتى الآن، شاهدُ عِيَانٍ واحد على موت ستودارت وكونولي، حتى سفير ملك خيوه، لم يكن في مقدوره تزويدي بأية معلومات إضافية. وكان جواب جميع الأسئلة: «معلوم نِيسْت»[1]: «لا شيء أكيد حول الموضوع». ولا أعتقد أن الكولونيل شيل بريءٌ من اللَّوم؛ فقربه من موقع الحدث كان يتيح له التوصُّل إلى الحقيقة بسهولة، لكنني أعترف بأن الفُرْس لديهم رعب هائل من بخارى، مما يجعل من المستحيل تقريباً إقناعهم بالذهاب إلى هناك، حتى ولو كان ذلك مقابل ألف من التومانات. وقد قدم لي الكولونيل

---

(١) الترجمة الحرفية هي: «لا توجد معلومات، أو ليس هناك معلومات».

شيل أعظم مساعدة فعّالة، وقام السفير الروسي بتقديم مثل ذلك أيضاً. ومع كل هذه المساعدات، فقد قال الكولونيل شيل (وكذلك قال كل واحد قابلته): إذا كانا على قيد الحياة، فلا بد أن تصطحبهما معك.

ويجب عليَّ ألا أغفل أن الكولونيل شيل أخبرني أنه قد أرسل، قبل شهرين من وصولي إلى طهران، غلاماً يعمل في السفارة إلى آصف الدولة، في مشهد، طالباً أن يرسل معاليه رسولاً عاجلاً إلى بخارى، مع رسائل إلى الأمير، من أجل أن يسلمه الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، إذا كانا حَيَّيْن، وتسليمه رفاتهما إن كانا قد ماتا. والآن يجب عليَّ القول: إن ذلك لو حدث مباشرة وقت سجن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، ومع مشاعر الرعب التي تنتاب الأمير عند مجرد ذكر اسم آصف الدولة، فإن ذلك الإجراء سوف ينقذ بالتأكيد حياتهما. ولأنني الآن في إنجلترا، وأتفكر في هذه النقاط بروِيَّة أكثر، لا أستطيع سوى لوم الكولونيل شيل لتباطئه في اتخاذ إجراءٍ قويٍّ مثل هذا، مع معرفته بأنني توجهت إلى المنطقة، وأنني في الطريق إلى هناك.

وسيلحظ قرَّائي أنني أتحدث عن الكولونيل شيل، وأحمله اللوم، مع كل ما أنا مدين له به من جميل، ومع الإحساس المستحق للُطفه الشخصي تجاهي؛ إلا أن جزءاً من تصرفه، فيما يتعلق بهذين الرجلين، سيظل دائماً غامضاً إلى حد ما. ومع ذلك، فإنني أخشى، كما سأثبت فيما بعد، أن الكولونيل شيل أرسل إلى هناك وغداً يُدعى حسن بابا، وهو وَغْدٌ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فلم يكن في إرساله أدنى منفعة. لقد وصل هذا الرجل إلى بخارى قبل وصولي بمدة شهرين، ولم يدخل مرة واحدة إلى حضرة الأمير، حتى إنه كان خائفاً من التحرك من منزله. إنه بالتأكيد أكثر الوكلاء فعالية ونشاطاً!

وفي الحادي عشر من فبراير وعظتُ في السفارة البريطانية باللغتين الألمانية والإنجليزية، وقدَّمت السر المقدس لاثنين من الأساقفة الكلدان؛ مار

يوحنان، ومار جوزيف. وبعد الصلاة طلبت من مار يوحنان، أن يتلو شعائر التبريك، وقد فعل. وأرسلت، نيابة عنهما، خطابات موجهة منهما إلى كبير أساقفة لندن، يطلبان فيها طباعة اللوترجي[١] الخاص بهم في لندن.

حين تأملت في وضعي عندما أكون في بخارى، وجدت أنه من غير الملائم أن أحتفظ بدفتر يومياتي؛ لأن ذلك سيبدو مريباً، ومن ثَمَّ قررت ألاَّ أحمل أوراقاً أو حبراً، وسوف أستخدم الفارسية في مراسلاتي التي سيحملها وسيط الأمير. وقد أخبرني سفير ملك خيوه، وهي سلطة معادية لبخارى، أن ملك بلاده يُكِنُّ تقديراً رفيعاً للكابتن كونولي والسيد تومسون، وهو أحد الملحقين هنا، وأنه قد حذَّر كونولي من الذهاب إلى بخارى لهذا السبب خاصة.

وقد لاحظت أن مهمتي أثارت اهتماماً كبيراً في سانت بطرسبرج، وأكد لي ذلك الدكتور لابات، أستاذ الطب في باريس، عندما التقيت به. ورغبة مني في الحصول على أي مساعدة ممكنة أرسلت خطابات إلى حاكم أورينبورج، ملتمساً منه ذلك.

وقمت هنا، في الثاني عشر من فبراير، بتعميد طفل للجنرال سيمينو، الذي تعرَّفت إليه في مشهد في عامي ١٨٣١-١٨٣٢م. وقد تولى القنصل العام الروسي دور العراب[٢]، وتولت مدام لابات، زوجة الطبيب النبيل المذكور آنفاً، دور العرَّابة. وقرأت الصلوات باللغات الإنجليزية والإيطالية والألمانية. وبعد التعميد قدموا إفطاراً فاخراً.

مدام لابات هي امرأة ذات ذكاء حادٍّ. وقد صاحبتْ زوجها إلى مصر والسويس والجزائر وسانت بطرسبرج وأستراخان وباكو وتفليس وطهران، وعقدا النية في ذلك الوقت على الذهاب إلى هراة، إلا أن زوجها أصبح بعد ذلك طبيب الشاه.

(١) اللوترجي: ترتيب الطقوس الدينية للطائفة السريانية.
(٢) العراب والعرابة هما أب وأم في العماد، أو من يكفل ولداً في العماد. (المترجم).

وكان الطفل الذي قمت بتعميده أسودَ كأنه زنجي، وكذلك كانت مدام سيمينو، التي كانت في السابق زوجة بوروفسكي.

بعد عودتي في عام ١٨٢٩م مع السيدة جورجيانا من القدس إلى الأسكندرية، زارني يهودي يُدعى بوروفسكي، ذو مظهر شديد التأنُّق، ادَّعى لي أن أُمَّه، وهي يهودية، عشيقة الأمير رادزيفيل، وبدا لي ذا نزعة تفاخرية، الأمر الذي جعلني أُحجِم عن الدخول معه في أيِّ علاقة، وقد اعتمد على نفسه مالياً في الأسكندرية من خلال تقديم دروس في الرياضيات واللغة الإنجليزية، ثم غادرها في بداية عام ١٨٣٠م، متوجهاً إلى بومباي.

وعند وصولي في فبراير ١٨٣١م إلى تبريز، جلست إلى طاولة مع السير جون كامبل والدكتور (الآن: السير) جون ماك نيل. حينها وصل خطاب من المقيم البريطاني في بوشهر، يذكر فيه للسير جون كامبل أن نبيلاً بولندياً، اسمه بوروفسكي، قد وصل إلى بوشهر من بومبي؛ ولأنه لم يقدم خطابات تعريف، لم يُستقبل في السفارة البريطانية. وفي الحال قلت للسير جون كامبل: «إن بوروفسكي ليس نبيلاً بولندياً، ولكنه يهودي، تعرفت إليه في الأسكندرية».

بعد ذلك غادرت تبريز على وجه السرعة، وواصلت طريقي إلى بخارى. وعندما وصلت إلى خراسان في نهاية أكتوبر ١٨٣١م، استرقني رجال محمد خان كيراهي صاحب تورباد حيدرية، الذي اشتهر باسم «قاطع الرؤوس» بسبب وحشيته. وقد سبق أن ذكرت بعض التفاصيل عن هذه الشخصية قبل صفحات. وبعد أن تحررتُ من الأَسْر والعبودية، بتدخل من عباس ميرْزا، وصلت إلى مشهد وأنا في فقر تام. فكتبت بذلك إلى الكابتن شيل الذي كان مع جيش عباس ميرْزا في نيسابور، طالباً منه أن يرسل إليَّ نقوداً وثياباً.

بعد أيام قلائل من كتابتي إلى الكابتن شيل دخل غرفتي رجل نبيل بزيٍّ جنرال إنجليزي صائحاً: «كيف حالك يا سيد وولف؟» لقد كان بوروفسكي، وهو

الشخص نفسه الذي عرفته في الأسكندرية. وقد روى لي مغامراته الفريدة - الفريدة حتى في بلد شرقي - حيث يبدو الرجال مندهشين كما هي الحال حين امتلاك مصباح علاء الدين، أو ببعض الطرق المساوية لذلك في التعجب. وقد تعرَّف إلى الكولونيل تشيسني في بوشهر، وعقد معه صداقة حميمة، وعرَّفه الكولونيل تشيسني إلى السير جون كامبل، الذي أوصى به - فيما بعد - بوصفه رجلاً موهوباً لعباس ميرْزا. فأخذه هذا الأمير في خدمته. وقد ساعد بوروفسكي عباس ميرْزا بصورة جوهرية، عندما استولى على البلدة القوية كوشان، في خراسان؛ وكذلك كان بوروفسكي هو من استولى على قلعة سَرْخَس، وأسر قائد التركمان. وبعد وفاة القائد عباس ميرْزا، قدَّم أكبر مساعدة لابنه محمد ميرْزا، ومكَّنه من ارتقاء عرش جده، فتح الله شاه. واعترف لي بوروفسكي أنه ابن والدين يهوديين من جهة الأب وكذلك من جهة الأم.

وقد رغب بوروفسكي عن مصالح الحكومة البريطانية، وانضمَّ إلى الحزب الروسي في فارس، وأصيب في حصار هراة. وكانت زوجته من رقيق جورجيا؛ تلقاها منحة من محمد شاه مقابل الخدمات الجوهرية التي قدمها لعباس ميرْزا، وبعد وفاته تزوجت الجنرال سيمينو.

قد يُظَنُّ أنني على وشك الاقتباس من الأستاذ دزرائيلي في التأكيدات الآتية، وقد أكون عُرضةً مثله للاستهزاء من ذلك الرجل الكئيب بنتش[١]؛ ولكن برغم ذلك، فالقول إن الجنرالات المشهورين في الشرق هم من اليهود حقيقيٌّ. مثال ذلك: الجنرال فينتورا، الذي كان في خدمة رونجيت سينغ[٢]، ومن بعده في خدمة شير سينغ، في لاهور، والذي كان مرعباً للأفغان، وكذلك حاكم

---

(١) مجلة إنجليزية أسبوعية يغلب عليها النقد والفكاهة وصور الكارتون.

(٢) رونجيت سينغ السيخي، كان حاكم إقليم السند والبنجاب.

كشمير المحبوب، وهو يهودي المولد، اسمه روبن بن تورا. وأستطيع أن أسمي عدةً آخرين. ويأتي بعد اليهود الأرمن، الذين يُعَدُّون أكثر الناس إقداماً في الشرق. فسامسون خان ويعقوب خان، من تفليس، جنرالان شجاعان وباسلان، وهما في الوقت الحالي يعملان في خدمة ملك فارس؛ وقد قام كريميتزكي، رئيس أساقفة الأرمن في فارس وهندوستان - مؤخراً - بإنشاء كلية رائعة في نيو جولفا، حيث يدرس الصبيان الأرمن اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

وهنا يجب أن أذكر بعض التفاصيل المثيرة المتعلقة بهذين الرجلين: بوروفسكي وسيمينو، التي حدثت في عام ١٨٣١م في مشهد. كان بوروفسكي في غرفتي عندما دخل سيمينو بزيه الكامل، وطلب الاعتذار من بوروفسكي؛ لضربه خادمَه (خادم سيمينو). فأخبره بوروفسكي أن الخادم كان وقحاً معه؛ فنعته سيمينو بالكذاب، وعلى إثرها بصق بوروفسكي في وجهه. عندها سلَّ سيمينو سيفه. فقال بوروفسكي: «سوف أرضيك في الحال»، وحاول وضع يده على مسدسه، وهو يقول ذلك، وعلى إثرها أشار سيمينو لخدَمِهِ الثمانية الموجودين عند الباب، فدخلوا، وأمسكوا بوروفسكي، وقيدوه وحملوه بعيداً. وفي الحال ركضت، رغم أن الوقت كان العاشرة ليلاً، إلى عباس ميرزا، وتدبرت أمر إطلاق سراح بوروفسكي.

وفي اليوم التالي، عُقدت محكمة عسكرية فارسية، ومن الغرابة القول بأنني كنت رئيسَها، فقررتُ أن يبقى سيمينو في الحجز مدة أربع وعشرين ساعة، وبعدها يعتذر لبوروفسكي، ويعتذر لي كذلك. وهذا ما حدث بالفعل.

توفي بوروفسكي، كما أسلفت، وترك خلفه زوجته واثنين وعشرين ألفاً من الدوقات[1]. بعد ذلك تزوج سيمينو أرملة بوروفسكي، على أمل الحصول على

(١) عملة ذهبية أوروبية. (المترجم).

النقود؛ غير أن أوصياء بوروفسكي هربوا بها. وقد حصل على الأرملة دون النقود. ورغم أني عاقبت سيمينو، كما ذكرت، إلا أنه أصبح صديقي الحميم الآن.

رأيت في هذا اليوم، الثاني عشر من فبراير، مسلماً ذا أُبَّهَةٍ من ماسوليباتام، على ساحل كوروманديل، في الهند، المشهورة بالصعوط. وهو في الحقيقة من نسب مشهور؛ فهو ينحدر من الصفويين. وقد أتى لغرض المحاورات الدينية؛ ولكن عقلي كان مشغولاً بصديقَيَّ المسكينَيْنِ في بخارى، ولذلك لم أضطلع بتلك المحاورات. وبكل بساطة سألته عن سلالته الصفوية، فقال: إن هناك ثلاثة عشر ملكاً في فارس من تلك السلالة. وقد ملك أولهم في عام ١٥٠١م. وهذه هي أسماؤهم:

١- الشاه إسماعيل ميرزا بن حيدر بن جنيد (١٥٠١-١٥٢٤م).

٢- الشاه طهماسب الأول بن إسماعيل (١٥٢٤-١٥٧٦م).

٣- الشاه إسماعيل الثاني بن طهماسب (١٥٧٦-١٥٧٧م).

٤- شاه سلطان محمد خُدابنده بن طهماسب (١٥٧٧-١٥٧٨م).

سكنوا كلهم في قزوين.

والآتية أسماؤهم سكنوا في أصفهان:

٥- الشاه عباس الكبير (عباس الأول) (١٥٨٧-١٦٢٩م).

٦- الشاه صفي ميرزا بن صفي بن عباس (١٦٢٩-١٦٤٢م).

٧- الشاه عباس الثاني بن صفي (١٦٤٢-١٦٦٦م).

٨- الشاه صفي الثاني بن عباس (الشاه سليمان) (١٦٦٦-١٦٩٣م).

٩- شاه سلطان حسين بن سليمان (١٦٩٤-١٧٢٢م).

١٠- الشاه طهماسب الثاني بن حسين (١٧٢٢-١٧٣٢م).

١١- الشاه عباس الثالث بن طهماسب (١٧٣٢-١٧٣٦م).

وخلَّف أولئك: نادر شاه، بعده حكم ثلاثة ملوك أشهراً قليلة، هم:

١٢- الشاه سليمان الثاني (١٧٤٩-١٧٥٠م).

١٣- الشاه إسماعيل الثالث (١٧٥٠-١٧٧٣م).

وبعدهما أتى إلى العرش كريم خان الزند، الذي تزوج إحدى بنات الصفويين[1].

لقد عمل الصفويون خلال فترة حكمهم على تشجيع العلم والأدب، وبأوامرهم تمت ترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة الفارسية.

وفي هذا اليوم زار سفير خيوه الكولونيل شيل، وأحضر لي خطاب توصية، موجَّهاً إلى التركمان كافة من رعايا ملك خيوه في سرخس، مخبراً إياهم بأن في معيتي خطاباتٍ من السلطان موجهة إلى ملوك خيوه وخوقند وبخارى.

وعند مغادرتي طهران لم يستطع الكولونيل شيل - الذي لم يتمكن لمرضه من مرافقتي إلى خارج البلدة - أن يكتم حزنه على فراقي إلا بشقٍّ النفس، وأعطاني بعض الهدايا لملك بخارى، تحتوي على ساعة وأشياء أخرى، وقام بمرافقتي - لمسافة فرسخ واحد (أربعة أميال) إلى خارج البلدة - السيد أبوت، القنصل البريطاني في طهران، والسيد هولمز، رغم وصولهما إلى هذه العاصمة من طهران في اليوم السابق، والسادة تومسون، وردهاوس، وكارابيت، وجلن.

---

(١) حديث المؤلف عن شاهات الصفويين اتسم باضطراب شديد في العدد والتاريخ؛ فمرة يكتب: تاهماني، وأخرى: صابي، وثالثة: تامان، دون أن يذكر تاريخاً واحداً أمام أحد منهم، أو اسم أبيه حتى. وقد أصلحنا ذلك كله في المتن، ولم نجعله في الهامش لئلا نشتت انتباه القارئ. وقد كثر ذلك من المؤلف في تضاعيف كتابه حتى طمَّ. كما أن نادر شاه أفشار، ويعرف أيضاً بـ «طهماسب قُولي خان» نصب نفسه شاهاً (١٧٣٦-١٧٤٧م)، وليس صفوياً، وإنما هو مؤسس الدولة الأفشارية، كما أن كريم خان ومن جاء بعده هم من الدولة الزندية الكردية.

وكان رفقاء رحلتي في الرابع عشر من فبراير: صادق بك، (غلام) جلالته، وقربان علي بك (غلام) السفارة البريطانية، ورجب، الخادم السابق للكولونيل ستودارت والكابتن كونولي؛ وجارودار، سائس البغال، والسائس شاكرد جابرجي. وإلى جانب خطابات التعريف التي كنت أحملها، كنت مزوداً بفَرَمان من الملك يتضمن أمراً لكل عمدة مدينة (كتخدا)، ولكل حاكم بلدة ليُقَدِّمَ لي، في كل محطة، ودون مقابل: أربع دجاجات وصحناً كبيراً من الأرز واللحم، وخمسة عشر رطلاً من الزبد، وعشرة أحمال من الحطب، وخمسة أرطال من الشمع، وشعيراً وتبناً للخيل، وخمسة جياد. ووصلت في اليوم الأول إلى بالاشت، وهي قرية بائسة، تتكون من حوالي خمسة وعشرين منزلاً، وتبعد عشرين ميلاً من طهران.

وفي يوم الخميس، الخامس عشر (من الشهر)، غضبتُ على البَغّال، بسبب الخيل الرديئة التي اختارها، وقررت استئجار خمسة جياد بنقودي بدلاً من انتظار خيل البريد، التي يصعب الحصول عليها بشكل يسير، ولم تتجاوز الأجرة كاملة عن المسافة من طهران إلى مشهد سبعة عشر توماناً وخمسة صاحب قران (٨ جنيهات و١٠ شلنات).

وصلنا ذلك اليوم إلى جفاني كيف، التي تبعد ثمانية أميال من سابقتها، وهي قرية كبيرة، تحيط بها سلسلة من الحدائق. ورغم أنني أسافر على حساب جلالته، إلا أنني دائماً ما أعطي اثنين أو ثلاثة من صاحب قران هديةً (الصاحب قران الواحد يساوي ستة بنسات)، ولكن الشخص الذي سكنت معه كان مفرط التهذيب؛ ومن أجل ذلك توقع هدية كبيرةً، غير أني خيبت ظنه. ويجب أن أقول إنني لم أوفَّق توفيقاً تاماً مع الخدم مثلما وُفِّقْتُ في هذه الرحلة؛ فقد كانوا خدماً رائعين بشخصيات مختلفة؛ وأعني

بالخدم: كل المصاحبين لي المذكورين سابقاً.

وفي يوم الجمعة، السادس عشر من فبراير، دخلنا ممرَّ جبال تُدعى داري خار، وقعت فيه جرائم قتل كثيرة. والتقينا هنا أناساً من هراة، فأخبرونا أنهم عائدون إليها؛ بقصد قتل وزيرها يار محمد خان الذي قتل ملكَهم، شاه قمران، كما يمارس اليوم طغيانه على أهلها. ووصلنا ذلك اليوم إلى كيتشلاغ، التي تبعد عشرين ميلاً من داري خار.

وفي يوم السبت، السابع عشر (من الشهر) اتجهنا إلى دِه - نَمَاك، «قرية الملح»؛ لأن الأرض مالحة هناك والماء مالح. وفي الطريق التقينا حُجَّاجاً على ظهور الخيل، في طريقهم إلى مشهد، يهزجون قصائدَ مديح لمحمد:

العزاء لمحمد!

العزاء لعلي!

الصلاة على محمد!

وهناك أُخْبِرْتُ أنه يوجد في مازاندران طائفة لديها معتقدات خرافية حول تأثير أكل لحم الخنزير.

وفي يوم الأحد، الثامن عشر من فبراير، وصلت إلى لازجرد، التي تبعد من ده نماك أربعين ميلاً. وقد أمضيت الليلة في قلعة هناك، وهي أقدم بناية، ومن الواضح أنها أنشئت قبل ظهور النبي، والقول الشائع إن الجن قد بنوْها. وهذه البقعة كانت في السابق مكاناً مشهوراً للزرادشتيين. وقد أخبرني السكان أن الجن قد طُردوا منها، منذ زمن النبي، إلى تخت سليمان، بالقرب من تبريز، وإلى مازندران وسيستان؛ ولكنهم الآن مُكَبَّلُون بالسلاسل، بحيث لا يستطيعون خطف البنات الجميلات والأطفال، كما كانوا يفعلون في سالف الأزمان.

الاثنين، التاسع عشر (من الشهر): في أثناء مرورنا من قرية سرخاك، كان الأمير سيف الله ميرزا في رحلته للصيد، وقد شاهدنا كلابه، وهو حاكم سمنان، وأخو الملك. وبعد عشرين ميلاً من الركوب، وصلنا إلى سمنان، وهي بلدة كبيرة، يقطنها زهاء ستة آلاف من السكان. وسمنان أول بلدة تتبع خراسان للقادم من طهران، وتتضمن عدة مدارس. وأعطاني نائب الحاكم غرفة جيدة في خان استراحة القوافل، وكذلك المؤن التي أمر بها الملك.

توقفت في سمنان إلى اليوم التالي لاعتلال صحتي، وزُرْت الأمير، الذي تحدث باحترام عظيم عن الكولونيل ستودارت، الذي كان يعرفه شخصياً؛ كما أثنى كثيراً على السير جون ماك نيل، رغم أنه، والفُرس كافَّة، يتَّهمون السير جون بأنه السبب في عدم تمكُّن محمد شاه من الاستيلاء على هراة. وقد أرسل إليَّ سموُّه لحم غزال.

وفي الأربعاء، الحادي والعشرين من فبراير، وصلنا إلى أغوان، وهو خان استراحة للقوافل يبعد مسافة أربعة وعشرين ميلاً. ويُروى أن طفلاً فُقد فيه في الأزمان السالفة، وأعاده حيوان يسمى أغو إلى أمه بشفاعة الحامي الكبير وليّ خراسان، إمام رضا؛ ومن هنا سُمِّي الخان أغوان.

الخميس، الثاني والعشرون من فبراير: غادرنا هذا النزل، وعبرنا قلعة خربة بناها أنوشروان، وعبرنا الجبل البارد تتاور، ووصلنا إلى قلعة بناها الشاه الحالي، تدعى سلطان آباد[1]، بالقرب من نزل يسمى خوشا، بناه شاه عبَّاس. كان الطقس شديد البرودة، وقد أكَّد لي محمد شريف خان، من قزوين، أنه كان صديقاً كبيراً للشعب الإنجليزي، ومن أجل ذلك رجاني أن

(١) آباد وأبود: تشابه مسترعٍ للنظر في المصطلحات الأوروبية والآسيوية. أبود تعني إقامة، مقام، مسكن.

أعطيه نبيذاً؛ فأعطيته زجاجة واحدة، بسبب قلة ما تبقى معي، مما أعطاني إياه الكولونيل شيل.

الجمعة، الثالث والعشرون من فبراير: وصلنا بعد سفر دام أربعة وعشرين ميلاً إلى دامغان، التي تعدُّ، بعد بلخ ونيسابور، أقدم مدينة في العالم[1]؛ وتشهد الخرائبُ الكثيرة على صحة قِدَمِها. غير أن الكتخدا (عمدة المدينة) الذي أُخبر سلفاً بأن آلجي (سفيراً) كبيراً من إنجلترا قادمٌ، مع مئتي رجل، أصابه الهلع فهرب من البلدة، مما أجبر الكولونيل سيرهنك على توفير المؤن لي.

وفي يوم السبت، الرابع والعشرين من فبراير، وصلنا إلى دِه - مُلاً، وفيها شعرت بأنني لست على ما يرام؛ فطلبت حلاقاً لكي يقوم بحجامتي.

وفي يوم الأحد، الخامس والعشرين، دخلت شاروت؛ وهي مدينة يقطنها زهاء ألفَيْ نسمة. وسكنت في منزل أُقيم قصداً لاستقبال الغرباء المحترمين، أنشأه إسماعيل ميرّزا، الذي كان في السابق الأمير الحاكم لبوستان، وهو نفسه الذي أراد - قبل اثني عشر عاماً - أن ينتزع مني وعداً بأن يمنحه الملكُ وليام ستةَ آلاف تومان في كل سنة، في حال أرسلني بسلام إلى بخارى؛ منحة تقاعد ستكون سارَّةً له، حيث إنه يعيش في طهران في عِوَزٍ وفقر. ومن المدهش ملاحظة تغير مشاعر أهل خراسان تجاه الشعب الإنجليزي؛ فقبل اثني عشر عاماً أهان أهالي شاروت خدمي؛ لقيامهم بخدمة كافر، والآن دخلت شاروت بردائي وعباءتي الكهنوتيين، وعوملت باحترام كبير.

ويُعزى هذا التغير إلى دخول عباس ميرّزا خراسان، مما أدى - للمرة

---

(١) المؤلف في كثير من مواضع كتابه يلقي القول، وكأن الأمر مفروغ منه. فالمدن التي ذكرها قديمة، نعم! لكن المعول عليه عند أكثر علماء الآثار أن «أريحا» هي أقدم مدينة مأهولة في العالم.

الأولى - إلى جلب كثير من الإنجليز إلى هذا البلد، وكذلك إلى غزو الجيش الإنجليزي أفغانستان.

وفي يوم الاثنين بقيت هنا، وزرت الكلية الإسلامية في شاروت، وتحادثت مع ملاليها حول الإنجيل.

في السابع والعشرين من فبراير، وصلت إلى ميامي، وفي الثامن والعشرين وصلت إلى ميان دشت. والطريق من ميان دشت إلى مهير خطير؛ فإن التركمان يجعلونه في بعض الأحيان غير آمن، رغم أن ذلك لا يصل إلى درجات كانت سائدة في السابق؛ وبناءً على أمر من الملك إلى قربان خان، الذي كان نفسه من ميان دشت، رافقني خمسةٌ من الفرسان المسلَّحين، إلى عباس آباد. ويجب أن أذكر هنا أن قربان خان تصرَّف بأسلوب لائق جداً ونزيه؛ فالطريق إلى عباس آباد موحِش جداً، لا ترى فيه قرية واحدة مسافة أربعين ميلاً.

وفي التاسع والعشرين من فبراير، وصلت إلى عباس آباد، وهي على بعد عشرين ميلاً.

وفي الأول من مارس ١٨٤٤م، وصلت إلى مسينان، وكانت في السابق بلدة كبيرة، إلا أنها الآن مجرد أطلال وخرائب.

وفي الثاني من مارس وصلت إلى مهير، التي التقيت فيها شخصاً من تورباد، تذكرني لأول وهلة يوم كنت رقيقاً سابقاً في هذه المدينة. والتقيت كذلك شخصاً يُدعى سليمان، كان خادماً لستودارت أياماً قليلة.

في يوم الأحد، الثالث من مارس، وصلنا إلى قرية جميلة تُسمَّى خسرو جرد. وقد أرسلت غلام الملك ليدبر لي مكاناً مدة ساعة واحدة للراحة؛ ولكن الغلام كان متعَباً، وكذلك أنا، فاستأجر مأوًى، مكثنا فيه ليلة.

وفي يوم الاثنين، الرابع من مارس، وصلنا إلى سبز وار، وهي على مسافة

أربعة أميال؛ وتضم اثني عشر ألفاً من السكان. وبنى فيها تيمور لنك برجاً من جماجم الرجال الذين ذبحهم في المعركة، وإليها هجَّر شاه عباس اليهودَ من قَزْوين إلى خراسان. وتنتشر فيها النباتاتُ الخضر والشَّمَّام بغزارة؛ ومن هنا اشتُق اسمها «سبز»: خضرة، و«وار»: ذات. وقد زارني الملالي كلهم؛ ولأن الفرس لا يحبون عمر وعثمان وأبا بكر؛ لذلك سألوني: من تحب أكثر: عمر وعثمان وأبو بكر؛ أم عليّ والإمام الحسين والإمام الرضا وأبو القاسم؟ فقلت: أحبُّ الأخيرين. فسأل الملالي: لماذا؟ فقلت: إن عمر وعثمان وأبا بكر كانوا يقتلون الناس، ولَكِنَّ الأخيرين توفيقيون أكثر(١).

وفي يوم الثلاثاء، الخامس من مارس، وصلت إلى قرية بائسة تسمى سفران.

وفي يوم الأربعاء، السادس من مارس، وصلنا إلى جيرم آب، التي تعني «الماء الدافئ» وبها ينبوع مياه معدنية. وفيها علمت أن آصف الدولة (نائب الملك) في خراسان، وعمه، والمقيم في مشهد، وله في حوزتي خطابات من الملك، كان يتنزه على بعد عشرين ميلاً فقط من جيرم آب، في مكان يُدعى مادان؛ فأرسلت إليه غلام الملك، المهمندار المرافق لي؛ ليسأل معاليه إذا كان سيستقبلني هناك أو في مشهد. فرجع المهمندار متأخِّراً في الليل، ومعه رسالة من آصف الدولة موجهة إلى نائبه في مشهد ليهيِّئ لي بيتاً جيداً هناك، ويزوِّدني بكل شيءٍ ضروري، ومعه في الوقت نفسه رسالة إليَّ، تقول إنه سوف

---

(١) ليس المؤلف من يفاضل بين أعلام الصحابة رضوان الله عليهم، والخلفاء الراشدون لم يكونوا يقتلون الناس كما يدَّعي، ولكنها شعيرة «الجهاد» التي يجهلها المؤلف، أو ينكرها، وهي التي فرضت على الخلفاء الثلاثة خوض الحروب. كما أنه أراد مداهنة هؤلاء الشيعة الذين سألوه وإرضاءهم بما يحبون سماعه من تفضيل عليٍّ على أبي بكر وعمر وعثمان. رضي الله عن الجميع.

يستقبلني في مشهد في الخامس والعشرين من شهر صفر، أي الخامس عشر من مارس (بعد غدٍ) عندما يكون في مشهد. كما أرسل إليَّ كلمة تفيد بأن ستودارت وكونولي كانا حَيَّيْنِ قبل أحد عشر شهراً، وأنه بعث، قبل عشرة أيام فقط من وصولي إلى جيرم آب، المدعو حسن بابا من مرو، بهدايا لملك بخارى، وذلك بطلب من الكولونيل شيل، الذي كان قد أوفد - على نحو عاجل - غلاماً إلى مشهد قبل ثلاثة أشهر من وصولي إلى طهران، ليطلب من آصف الدولة إرسال رجل إلى بخارى، للمطالبة برُفات الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي.

والآن: أليس من المستغرب أمر تأخر الرسول أربعة أشهر في مشهد، ينتظر السماح له بمقابلة آصف الدولة لأخذ موافقته على طلب الكولونيل شيل! على الرغم من قدومه إليها قبل ثلاثة أشهر من وصولي إلى طهران. لقد سألت غلام الكولونيل شيل في جيرم آب وهو في طريق عودته إلى طهران: لماذا توقفت طويلاً في مشهد؟ فأجاب: إن محمد علي صرَّاف وكيل الكولونيل ستودارت، والذي كان يحمل خطاباً إلى آصف الدولة من الكولونيل شيل، أخَّر تسليمه إليه حتى قبل أحد عشر يوماً من لقائي به.

وفي يوم الخميس، السابع من مارس عام ١٨٤٤م، وصلت إلى نيسابور، التي يعدُّها الشرقيون أقدم مدن العالم بعد بلخ، وكانت محل عناية فائقة من نظام الملك، الوزير المشهور لألب أرسلان من السلالة السلجوقية، وقد دمرتها عشائرُ الغُزِّ في عام ١١٥٣م؛ حيث أحرقوا المساجد، وقتلوا الملالي، وعملوا على تحويل المسلمين إلى الوثنية، وعذبوهم من أجل ذلك.

وزارني هناك يوسف كاقولي، وهو تركماني من خيوه، وحسن خان كرد من مازندران، وهما زعيمان في بلديهما؛ وأطلعني كاقولي على خطاب من أخيه

في بخارى، أكد فيه أن الإنجليزي الطويل (ستودارت) لا يزال حياً هناك.

كذلك زارني تاماس بك، رئيس السعاة (الغلمان) في خراسان، الذي يراجعه كل السُّعاة (الجبارجية) ورؤساء القوافل الذين يأتون من خراسان، وهو نشيط متعاطف مع المصالح الإنجليزية، وقد أكد لي أن المُلاَّ قربان، رئيس القافلة من مَيْمنةَ، ذكر له أن ستودارت وكونولي لا يزالان أحياء في القلعة خارج بخارى.

وفي يوم الجمعة، الثامن من مارس، تعمَّدت الوقوف مع تاماس بك؛ لكي أرى ما إذا كان سيظل منسجماً في سرد روايته، وقد كان كذلك. لقد اشتكى لي تاماس بك - هذا الرجل ذو المكانة الكبيرة - بمرارةٍ التجاهلَ الذي يلقاه من الكولونيل شيل، فقد سعى دائماً إلى أن يُعامَلَ غلمان السفارة البريطانية معاملة جيدة؛ وقد كتب بذلك، في أوقات مختلفة، إلى الكولونيل شيل، غير أن خطاباته قوبلت بتجاهل شديد. كما اشتكى عدد من الأشخاص، من بينهم آصف الدولة أيضاً، من الكولونيل شيل؛ بينما أجمعوا على أنهم لم يُعامَلوا مثل هذه المعاملة من السفارة الروسية؛ ولذلك كتبتُ بصورة واضحة إلى الكولونيل شيل عن الموضوع من مشهد، وقد استفاد من نصيحتي، لكنني أعتقد أن صراحتي جلبت لي الأذى.

وفي يوم السبت وصلت إلى قرية تسمى قدمگاه «مكان القدم» يقطنها السادة، حيث جهز لي المهمندار المرافق مكاناً في المسجد؛ لكني رفضت قبوله، لأنني أرى أنه ليس من اللائق النوم في أماكن العبادة، فهتف كل السادة قائلين: «خوب آدمي»: «إنه إنسان طيب». وجاء إليَّ عدد من كبار السادة، وأبدوا رغبتهم في الحصول على فكرة عن الدين الذي أومن به، فنقلت إليهم تلك الفكرة بأمانة؛ فأبدى الكثير منهم رغبة في الذهاب إلى إنجلترا،

وتحصيل معرفة أفضل حول ديننا وعاداتنا(١).

إن التغيُّر للأفضل الذي لقيته في خراسان، منذ كنت فيها أول مرة عام ١٨٣١م، مدهشٌ، وهذا دليل على ما يمكن أن تنجزه حكومة منظَّمة تنظيماً جيداً؛ فمن الواضح الآن أن البلد يحكمه الملك ووليُّ عهده بشكل أفضل مما كان عليه تحت سلطة أولئك الخانات المستبدِّين، الذين تمَّت إبادتهم بنجاح وبأروع أسلوب؛ كما أسهم الغزو البريطاني لأفغانستان كثيراً في هذا الاتجاه.

يوم الأحد، العاشر (من الشهر)، وصلنا إلى شريف آباد، وهو المكان الذي كنت فيه عام ١٨٣١م على وشك الوقوع في الرق للمرة الثانية، وضُرِبْتُ لعدم قول الكلمة (يعني: الشهادة)، وقد سكنت ثانية في المنزل نفسه - الذي نزلت فيه حينذاك - مرهوب الجانب ومحتَرَماً؛ رغم أنني كنت أرتدي عباءتي الخاصة بالقساوسة، الأمر الذي جعلهم يُحَدِّقون فيَّ.

وفي يوم الاثنين، الحادي عشر من مارس، وصلت إلى عسكرية، التي تبعد ميلين من مشهد. وكان قد سبقني إليها المهمندار الذي أرسله معي الملك وغلام السفارة البريطانية. وكان أول شخص يأتي للقائي هو المُلاَّ مهدي (مشياخ) اليهودي الذي سكنت معه قبل اثنتي عشرة سنة، والذي عاملني بكرم بالغ عندما كنت في كرب وبؤس وعوَز، قبل وصول عباس ميرْزا إلى مشهد من نيسابور.

لقد أُجبر يهود مشهد أجمع، البالغ عددهم مئةً وخمسين أسرة، قبل سبع سنوات مضت، على التحوُّل إلى الإسلام. وسبب ذلك: أنه كانت هناك امرأة

---

(١) سبحان الله. هذا ديدن المؤلف على طول كتابه: الإعلاء من شأن النصرانية، وبيان ما تمتاز به من رحمة وعدل، والحط من شأن الإسلام، وتوهين أثره في نفوس أتباعه. ولكن لأنها آراؤه فقد أبقينا عليها كما هي، حتى لا يقال إننا حجرنا عليه أن يبدي من الرأي ما يشاء.

مسكينة مصابة بقروح في يدها؛ فنصحها طبيب مسلم[1] بأن تذبح كلباً وتضع يدها في دمه، وقد فعلت ذلك؛ عندها، فجأة، ثار كل السكان وقالوا: إنهم إنما فعلوا ذلك سخريةً من نبيِّهم. فقُتل خمسة وثلاثون من اليهود في بضع دقائق؛ فأصبح البقية، الذين أصابهم الرعب، مسلمين، فصاح المتعصِّبون وذَوُو الهوى من المسلمين: «إن نور محمد نزل عليهم!». وهم الآن في السِّرِّ يهود متعصِّبون ومخلصون أكثر من ذي قبل؛ إلا أنهم يسمُّون أنفسهم - مثلهم مثل اليهود في إسبانيا - أنوسيم «المجبرون». ولا يتمكَّن أطفالهم من كَبْح مشاعرهم عندما يناديهم آباؤهم بأسمائهم الإسلامية؛ غير أن المُلاَّ مهدي والمُلاَّ موشى يؤمنان بالمسيح، وقد طلب مني المُلاَّ مهدي أن أعَمِّده. ولقد كان عوناً كبيراً للإنجليز في هراة وقندهار، كما يبين ذلك كثرة الشهادات التقديرية المقدَّمة إليه من رولنسون وآخرين.

وسرعان ما أتى كذلك صالح محمد، أخوند زاده، وهو من السُّنَّة، راكباً حصانه للقائي، وكان قد قدَّم للكولونيل شيل التقرير المفصَّل حول موت ستودارت وكونولي. وهو ليس الشخص نفسه الذي افترضْتُ أنني أعرفه، وربما سمع القصة في بخارى، لكنني لم أصدقها، وكنت لم أزل عند الرأي القائل، مع كثير آخرين، بأنَّ صديقيَّ ما زالا أحياءً.

أما الشخص الثالث الذي خرج للقائي، فقد كان المُلاَّ محمد علي صرَّاف، وكيل الكولونيل ستودارت في مشهد. ولقد أخبرني المُلاَّ مهدي وآخرون أن هذا الشخص في حوزته مقدار كبير من ممتلكات الكولونيل ستودارت. أما هو فلم ينبس بكلمة حولها؛ بل على العكس، لقد أخبرني أن الكولونيل ستودارت مدينٌ.

---

(١) كذا الأصل، لكن سياق الحكاية يوحي أن الذي نصحها بذلك طبيب يهودي وليس مسلماً، ولذا ثار المسلمون على اليهود.

ويبدو (المُلاَّ محمد علي صرَّاف) رجلاً مدنياً، وشخصاً كثيرَ الوُعود، متبجِّحاً بالخدمات التي قدَّمها للإنجليز، ومحتالاً بجبن، لا يعمل إلا لصالحه الخاص، حيث أهمل بصورة مخزية جداً مصالح الكولونيل ستودارت، وقبض الثمن مقابلها. وبناءً على توصية من الكولونيل ستودارت نفسه، التي يبدو أن المُلاَّ المذكور فرضها عليه، قدَّم الكولونيل شيل من خلاله جميع الخطابات إلى ستودارت. ومما يثيرني الآن، أمر غريب فيه، هو أن الكلمات الأولى التي نطق بها كانت: «سأعطيك الآن الخطاب الذي أرسله الكولونيل شيل إليَّ من سلطان القسطنطينية». فقلت: لماذا لم ترسل منذ زمن بعيد رجلاً يحمل الخطاب إلى بخارى، وقد أعدَّته إلى الكولونيل شيل بعد التقرير حول موت ستودارت، ومن ثَمَّ أرسله الكولونيل شيل إليك مرة أخرى من أجل إيصاله؟ فقال المُلاَّ محمد: كل الناس كانوا خائفين من تسلُّمه. فقلت: فلماذا لم ترسل الخطاب مع الرجل الذي أتى من لدن آصف الدولة، الذي أُرسل إلى بخارى بناءً على طلب الكولونيل شيل قبل ثلاثة عشر يوماً؟ فقال المُلاَّ محمد: كنت خائفاً أن يسأل ملك بخارى رجل آصف الدولة: «وما دخلك أنت بسلطان القسطنطينية؟ ومن أعطاك هذا الخطاب؟».

هل يمكن أن يكون هناك شيءٌ أكثر إثارة للغضب من هذا؟

وإلى جانب هذا، بعث كلٌّ من السيدة ماكناغتن والآنسة ستودارت، قبل سنة، خطابات إلى الكولونيل شيل من السير موسى مونتيفيوري، بناءً على نصيحتي، موجهة إلى يهود سمرقند وبخارى وبلخ، فأخبرني المُلاَّ محمد علي صرَّاف أن كل هذه الخطابات قد أرسلها قبل شهر فقط إلى يهود بخارى، هذا إذا كان قد أرسلها حقاً؛ ولذلك غدوت أكثر تلهُّفاً من ذي قبل على الوصول إلى بخارى، وعزمت على ألاَّ يعوقني شيءٌ عن خطتي إلا الموت؛ حيث إن آصف

الدولة نفسه أرسل كلمة تقول إنه قد علم أن كِلا الرجلين كان حيّاً قبل أحد عشر شهراً. ولذلك كتبت خطاباً آخر إلى آصف الدولة، عند وصولي إلى مشهد، مسترحِماً إياه أن يرسلني بأسرع ما يمكن. وأثبتَ معاليه أنه مستعد لعمل ذلك، بإرساله إياي إلى مرو مع كل زعماء التركمان الموجودين في مشهد ذلك الوقت.

الفصل السادس

الوصول إلى مشهد. يزوره عقب الوصول رئيسا المسجد. المسافة التي اجتازها الدكتور وولف. نقل له بأنه (وولف) مُلاً له من العمر مئتا عام. احتمال عدم حدوث ما أفاد به صالح محمد يتبيَّن بشكل أوضح عند إجراء المزيد من الاختبار له. الوغد محمد علي صرَّاف. حاجي إبراهيم، أخو عبدالصمد خان. آغا أبو القاسم. خطابات موسى مونتيفيوري الموجهة إلى يهود بخارى يحتجزها محمد علي صرَّاف، ولم يتم إيصالها إلى بخارى. كبار شيوخ المسجد. وصول النائب، آصف الدولة، إلى مشهد. النائب يودع الدكتور وولف لعناية التركمان. النوروز، عيد السَّنة الجديدة عند الفرس، ٢ مارس. نصيحة يُسْديها آصف الدولة للدكتور وولف. النائب يرسل هدايا من طريق دِل عسا خان إلى أمير بخارى. التركمان. تأخيرات استغلها رئيس التركمان، دِل آسا خان. خطابات ترسل إلى ملك خيوه. استجواب الدكتور وولف لصالح محمد. الدكتور وولف يترك مشهد. ابتزاز دِل آسا خان. الوصول إلى جهار قنباز. تهديد آصف الدولة لدِل عسا خان. الطريق عبر رباط، ماحل، ماسترون، قره قوش، قونبازلي. الوصول إلى مرو. استقبال سخي من عبدالرحمن، خليفة التركمان. سمعة عالية للإنجليز في مرو. وصف لعبدالرحمن. حكاية عبدالرحمن وحمايته لأهل خيوه. الدراويش الراقصون. الخليفة يقدم للدكتور وولف أسباب النجاة، وينصحه بالعدول عن الذهاب إلى بخارى. حوار مع درويش من كاشغر. خطاب إلى الكابتن جروفر. حدوث ضجَّة في بخارى بسبب خطاب اللورد إلينبورو إلى الأمير. رسالة إلى الليدي جورجيانا. مدارس في الصحراء. جنكيز خان. تحرك الروس إلى الهند.

عند وصولي إلى مشهد تلقاني ميرّزا عسكري وميرّزا موسى خان بلطف بالغ، وهما زعيمان دينيان ورئيسا المسجد الكبير في مشهد، وهو ليس بالأمر القليل. وكان يُتوقَّع وصول آصف الدولة(١) في الخامس عشر من مارس بصورة مؤكَّدة.

غير أن المُلاَّ محمد علي صرَّاف، الذي ثبت أنه يضع يده على ما يفوق الألف تومان من ممتلكات ستودارت، قام بتخويف أحد خدمي، واسمه رجب، من مرافقتي إلى بخارى، فقرر رجب أن يتبعني إلى مرو فقط؛ فاستخدمت خادماً آخر لستودارت، اسمه عبدالله، ثم تبيَّن لي أنه وغد من الطراز الأول.

والآن: أحاط بي أفغان قادمون من هراة وكابل وأماكن أخرى من أفغانستان؛ معهم شهادات من رولنسون وكونولي وتود والدكتور رياتش، لها علاقة بالخدمات التي قدَّموها للجيش البريطاني. وقد قمت بنقل إحدى هذه الشهادات:

«هذه شهادة مني بأن مير علي، خان خورت، كان أحد زعماء القزل باش الذي اصطحبني لاسترداد المسجونين، وبأنه قد تصرَّف بأحسن ما يكون من تصرُّف، ووفَّر لي ما في إمكانه من مساعدة».

ريتشموند شكسبير

٢٠ سبتمبر ١٨٤٢م

وقد أعطيت صاحب هذه الشهادة توماناً واحداً، لإحساسي بأنه كان في

---

(١) أصَّاف أو آصف: ذُكر في سفر الملوك وسفر أخبار الأيام الأُوَل: مدون الإمبراطورية في زمن حزقيال. وهناك آخر ذُكر في فترة حكم داود وسليمان. ويقول المسلمون إنه كان الوزير الحكيم لسليمان، ولذلك فإن وزراء النواب في بلاد فارس لهم على الدوام منصب آصف الدولة، أي آصف الإمبراطورية. ويتمتع أللوير خان، عم الملك الحالي في فارس، بهذا اللقب. وهو رجل ذو دهاء وبراعة، ويطمح للوصول إلى العرش الفارسي. ويتمتع بفهم جيد مع ملالي مشهد، وهو في الحقيقة ملك خراسان. تغازله روسيا، ولكن إنجلترا تهمله (وولف).

حاجة ماسة. وعقبه جاء اثنان آخران قدَّما أوراقاً من الميجور تود تفيد أنه أرسلهما إلى بخارى لإطلاق سراح ستودارت. غير أنهما كانا وَغْدَيْن من الطراز الأول؛ أحدهما يُدعى سيف قولي خان، والآخر تاماس قولي خان. اشتكيا بمرارة قائلين: إنهما قد أُرْسِلا إلى بخارى، ولم يكافئهما أحد على ذلك؛ بينما علمت من آغا أبي القاسم؛ وهو وكيل بريطاني سابق في مشهد، ومن صديقي الملا مهدي، أنهما قد تسلّما مكافأة تقدر بحوالي ألف وخمس مئة تومان، أي سبع مئة جنيه إسترليني.

وعند ذِكْرِ آغا أبي القاسم، الوكيل البريطاني السابق هنا، قد يبرز سؤال: لماذا لم يستخدمه الكولونيل شيل في إيصال الخطابات إلى بخارى؟ فالجواب المقنع عن السؤال ينبثق من سببين: الأول: أن آغا أو الملا محمد علي صرَّاف وكيل ستودارت، رُشِّح لهذه المهمة. ثانياً: أخبرني آغا أبو القاسم بصفة خاصة أنه رفض الاضطلاع بالمهمة؛ لأن أخاه الذي كان يقيم في بخارى جبن عن مساعدته.

وأخبرني الوغدان المذكوران أنهما، عندما كانا في بخارى، لمحا فقط الكولونيل ستودارت، ولكنهما جَبُنَا عن التحدث معه؛ وكان كلُّ ما فعلاه، أن أوصلا إليه خلسة ملحوظة، وتسلَّما منه مثلها بالطريقة نفسها.

فكتبت إلى الكولونيل شيل، وطلبت منه أن يرسل في الحال السيد تومسون إلى مشهد، للنظر في أمر الملا محمد علي صرَّاف، وكيل ستودارت، من أجل أن يتسلَّم (تومسون) كل شيء بنفسه.

وقد مكث سيف قولي خان وتاماس قولي خان في مشهد عدة أشهر، بعد أن تسلَّما النقود من تود للتحرُّك إلى بخارى، لكنهما لم يتحرَّكا حتى أُرسل محمد علي صرَّاف معهما. وعند وصولهم إلى بخارى لم يعمل ثلاثتُهم أيَّ شيء سوى التآمر على ستودارت مع صديق الكولونيل شيل، عبدالصمد خان.

كان يهود توركاد كافة، الذين رأوني أسيراً عام ١٨٣١م، ومن تعرفوا عليَّ

في سَرْخَس، هنا جميعاً، وقد عرض أحدهم عليَّ أن يكون خادماً لي. واكتشفت أنني لن أتمكن من الخروج من مشهد قبل الخامس والعشرين من مارس إلى بخارى.

وقد كانت رحلتي إلى هذه النقطة كما يأتي بالميل:

١- من ساوثهامبتون إلى القسطنطينية	٣٣٠٠
٢- من القسطنطينية إلى طرابزون	٤٨٠
٣- من طرابزون إلى أرضروم	١٨٠
٤- من أرضروم إلى طهران	٣٨٨
٥- من طهران إلى مشهد	٥٥٦
٦- وما بقي إلى بخارى	٥٥٠
المجموع	***٥,٤٥٤***

ومن بين الشائعات الشرقية الفجة الأخرى في شاروت، انتشرت شائعة بأن أحد الملالي من إنجلترا قد وصل، وله من العمر مئتا عام، واسمه جوزيف وولف. وقد ضجَّت البلدة كلها بهذه الأخبار.

وأرسلت من هناك ثلاثة خطابات إلى ملك خيوه: الأول من سلطان القسطنطينية، والثاني من الكولونيل شيل، والثالث من سفير خيوه لدى البلاط الفارسي، الذي التقيته في طهران، مع خطاب إلى جلالة ملك خيوه، كتبته بنفسي. وكان تعبيري له في خطابي كما يأتي:

جوزيف وولف، درويش النصارى في إنجلترا، يرسل تمجيده إلى جلالة ملك أوركنج، ويتمنى له حكمة سليمان الحكيم (عليه صلوات الله والسلام)، وقوة تيمور جورجاني وثراءه، مخضع الأرض ومالكها.

تعلمون، يا أيها الملك، أنني درويش معروف جيداً في إنجلترا، وقد اجتزت، من أجل المسيح، مصر وجبل سيناء، واليمن، والقدس، ودمشق، وبخارى، وبلخ،

والهند، والعالم الجديد، الواقع في الجانب الآخر من المحيط. وقد اجتزت هذه البلدان من أجل الله والمسيح، ولصالح أمثالي من الخلق، مخبراً الأمراء وصغار الناس أن يتوبوا وأن يعودوا إلى الله، حيث إننا من الله ولا بد أن نعود إلى الله. وتحدثت كذلك مع الملالي المسلمين، ومع اليهود والزرادشتيين، أننا يجب أن نتوقَّع في البدء مجيء الدَّجَّال (عدو المسيح) الذي سيأتي إلى العالم بشرٍّ مستطير، ويجبر الكثيرين على عبادته كعبادتهم لله؛ ولكن بعده سوف يأتي المسيح، ويقتل الدجَّال بنَفَسٍ من فَمِهِ، ويقيم مملكة، وستقوم كل الشعوب على خدمته، وفي زمنه سوف ينام الأسد مع الحَمَل، وستمتلئ الأرض بمعرفة الرب، كما تغطي المياه البحر، وسوف يعمُّ السلام الكوني الأرض.

غير أنني أذهب الآن إلى بخارى لغرض آخر. لقد أُخبِرْتُ وأُخبِرَتْ إنجلترا كلُّها، بأن اثنين من كبار الضباط الإنجليز، هما الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، قد أُعدما في بخارى؛ وبما أن حياة الرجل الإنجليزي غالية عند شعبه، فإن هذه الرواية أحدثت سخطاً عارماً في جميع أنحاء إنجلترا، وروسيا وألمانيا وأمريكا؛ ولذلك أعلنت أنني ذاهب إلى بخارى، من أجل التأكد من صحة تلك الشائعة أو بطلانها، وإذا ما كانا لا يزالان أحياءً، فسوف أطالب بشخصيهما من ملك بخارى. ولذلك أتوسَّل إلى جلالتكم أن تهبني المنن الآتية: أولاً: أن تكتب إلى ملك بخارى أن يوافق على طلبي، ثانياً: أن يعمل جلالتكم على الإعلان عن مهمتي وتعريفها للجميع، ليس لدى أهل خيوه فقط، ولكن أن ترسلوا خطابات إلى التركمان والهزارة كافة، وإلى خان أنخوي وخان ميمنة وأمير كابل، وإلى ملك خوقند وشهر سَبز.

وأنا أمنح جلالتكم بركاتي بوصفي درويشاً كبيراً، معروفاً جيداً في أنحاء بلاد الفرنجة وبلاد الروس جميعها.

(الختم) جوزيف وولف

إلى الهزارة في داراقاس وأرند وأنخوي وخولوم:

جوزيف ولف، درويش إنجلترا، المؤمن بالمسيح، يبعث تحياته وبركاته إلى قبيلة هزارة القوية، المشهورة بين أبطال تركستان، والذين كان أجدادهم رفاقاً بواسلَ في المعركة لجنكيز خان العظيم، جقطاي.

تعلمون أنني سوف أذهب إلى بخارى لكي أطلب من الأمير نصر الله بهادر، باسم الله، والمسيح كلمة الله، إطلاق سراح الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي؛ وبعد ذلك أتمنى أن أزوركم، وأتحدث معكم حول البوق الكبير الذي سوف يُنفخ فيه، ونزول المسيح من السماء، وسط هتاف الملائكة.

ولأنني أعلم أنكم تحترمون الإنجليز، وعلى وجه الخصوص أمثال بوتينجر ودي آركي تود؛ لذا فأنا واثق أنكم سوف تستقبلونني بلطف. ومن أجل ذلك أتوسَّل إليكم أن تعلنوا عن ذهابي إلى بخارى بين القرغير والقازاق القاطنين في الصحراء؛ ذلك أنه من الأهمية بمكان أن يعرف السكان كافة في تركستان أن الإنجليز لا ينظرون بغير مبالاة لإخوانهم الواقعين في الأسر، وأن هناك درويشاً قد كرَّس حياته لخدمة الله.

جوزيف ولف *(الختم)*

عملت على تصحيح كلا الخطابين، ونقلهما بأناقة بواسطة ميرّزا محمد نوري، ثم أرسلتهما بوساطة أحد أقرباء شاه شجاع الملك، الملك السابق لكابل.

وخلال مدة مكوثي كلها في مشهد، أمر آصف الدولة، (النائب) في خراسان، نائبه أن يعاملني بكل احترام يُقَدَّم لسفير، ووُضِعت ثلاث غرف تحت تصرُّفي، وفي كل يوم كانت تُرسَل إليَّ المؤن من القلندار[1].

---

(١) قد يكون أمين المخزن. (المترجم).

وفي محادثة ثانية مع أخوند زاده، صالح محمد، زادت آمالي أكثر في وجود ستودارت وكونولي حيَّيْن؛ وقد اعترف لي أن شخصاً واحداً في بخارى كان المصدر الوحيد لمعلوماته. ولم أصدق قصته لعدة أسباب:

أولاً: لأن تاماس بك، رئيس الجبارجية لعدة مناطق في خراسان - وهو رجل رائع طيب القلب - يعيش في نيسابور، وقد أخبرني أن المُلاَّ قربان، رئيس القوافل، الذي يسكن في ميمنة، التي تبعد مسيرة اثني عشر يوماً من بخارى، ويذهب إلى هناك كل ثلاثة أشهر، أكد له أن كلاً من ستودارت وكونولي كانا على قيد الحياة ومسجونين في قلعة خارج بخارى. وأطلعني كاكوللي، وهو زعيم تركماني، كان كذلك في نيسابور، على خطاب من أخيه في بخارى، يذكر فيه أن ستودارت كان حيّاً بالتأكيد.

ثانياً: كان معالي آصف الدولة (النائب) على خراسان، والذي أرسلت إليه غلام الملك للاستعلام عن المكان الذي سوف ألقاه فيه: أفي مادان أم مشهد؟ قد أرسل إليَّ كلمة تفيد أن ستودارت وكونولي كانا حيَّيْن السنة الفائتة.

ثالثاً: أخبرني أهل مشهد أنفسهم بأن الشائعة حول موتهما كانت رائجة في مشهد قبل ثلاث سنوات، عندما كان الناس متأكدين أنهما حيَّان.

رابعاً: أُشيع مدة خمس سنوات في بخارى أن القوش بك قد أعدم، ثم ظهر مرة أخرى فجأة، ولم يمت إلا ميتة طبيعية بعد مدة قصيرة من ظهوره.

خامساً: يقول الناس كلهم في مشهد: «كَسْ ناديده» أي: «لم يَرَ أحد عمليةَ الإعدام».

وكلَّما أنعمت النظر في شخصية آغا محمد علي صرَّاف أكثر بدا لي أشد خُبثاً. والمسكين ستودارت أمر بأن تُوجَّه كل خطاباته الواردة من الكولونيل شيل إليه. وقد أرسل إليه خطاب السلطان، لأن الكولونيل شيل لم يكن لديه شخص آخر في مشهد يمكنه الاعتماد عليه.

وأدلّتي على ذلك هي:

عند لقائي الأول به سألته عمَّا إذا كان قد أرسل خطاب السلطان، الذي تسلَّمه قبل عام، والذي أعاده إلى الكولونيل شيل عند انتشار الشائعة الأولى عن وفاتهما، وقد أعاده الكولونيل شيل مرة أخرى مع الأمر العاجل بإيصاله إلى بخارى مهما تكن الظروف؟ وبَيَّنْتُ كيف راوغ في إجابة السؤال. وعند دخولي إلى مشهد تردَّد في إعطائي الخطاب، حتى أرسلت إليه رسالة تهديد، عندها قدَّمه إليَّ، ولكنه أحضر معه صديقاً له كان في بخارى، هو الحاجي إبراهيم، أخو عبدالصمد خان، الذي أخبرني عنه الكولونيل شيل، فيما بعد، بأن المكر واللؤم مرسومان في نظراته؛ وقد جلس في غرفتي، وتحدث بصوت عال قائلاً: «هل لديك خطاب موجَّهٌ من ملكة إنجلترا إلى ملك بخارى؟» فأجبته قائلاً: «لا، ولكن لدي خطابات من سلطان القسطنطينية، ومن ملك فارس، ومن السفير الروسي». فأجاب الحاجي إبراهيم: «كل هذه الخطابات بوش» يعني: لا تفيد شيئاً. ثم استطرد: «سوف أخبرك بما سيفعلون معك فور وصولك إلى جهار جو. سوف يضعونك في غرفة صغيرة، ويأخذون منك كل النقود التي بحَوْزتك، ويتركونك هناك حتى يأتي جواب من الأمير، الذي سيخبرونه بوصولك. وبعد جوابه، سوف يعصبون عينيك، بحيث لا تستطيع رؤية أي شيء حولك، ثم يضعونك في بئر مظلمة، وبعدها يقتلونك». فسألته: «كيف عرفت ذلك؟»

فقال: «أتى ستودارت إلى بخارى ومعه خطاب من الوزير المختار، المبعوث البريطاني في طهران، فَوُضِعَ في السجن. بعد ذلك أتى كونولي ومعه خطابات من السفير في كابل، أو حيث سماه اللارد نواب صاحب، فَوُضِعَ في السجن هو الآخر. بعد ذلك أتى خطاب السلطان، فرماه الملك بازدراء قائلاً: إن السلطان نصف كافر، أريد خطاباً من ملكة إنجلترا. ثم بعدها وصل خطاب

من سَـرْدار الهند (الحـاكم العـام)»، ثم استطـرد سـاخـراً: «إن هـذا الخطـاب يبين أن سـتـودارت وكـونـولي سـائحـان بريـئـان. عندهـا احـتـدَّ غـضـب الأمـيـر، وأعـدم الاثنين، وقد أطلعني على هذه التفاصيل أخي عبدالصمد خان».

وألتمِسُ من القـارئ أن يلحظ هذه النقطة فـيمـا يتعلَّق بهـذا الخطاب المهم، ذلك أنني عند عـودتي إلى طهران، أتى الحـاجي إبراهيم إلى هنا من أجل النقـود التي ادَّعاها لعبدالصمد خان، وقد تبـجَّح في حضـرة السيد جلن، أحـد الملحقين بالسـفـارة البـريطانيـة، بأنـه ذكـرها لي، وبعـد ذلك ردَّد كلَّ مـا دار في المحـادثة السابقة في مشهد حرفياً، وخصوصاً ما يخص خطاب اللورد إلينبورو.

وفي الحـال أخـذت خطاب السلطان، الذي كـان في حـوزة مـحـمـد علي صـرَّاف، ووضـعـتـه في صندوق مع الخطابين الآخـرين اللذين أحـضـرتهـمـا مـعي من السلطان وملك فـارس، وأخبـرت الرجـال قـائلاً: «إن مسـعـاكم لتخـويفي غيـر مُجْدٍ، وسـوف أنطلق من هنـا، ولا أحـتـاج إلى معاونة أيٍّ منكم».

زارني آغـا أبو القـاسـم، الـوكيل البـريطاني السـابق في مـشـهـد، وهـو تـاجـر مـحـتـرم من هـراة، إذ كـان لديَّ خـطـابٌ له من الكـولونيل شـيـل. فـسـألتـه: لماذا لم يأخـذ الخطاب من مـحـمـد علي صـرَّاف، ويرسله إلـى بخـارى؟ فـأخـبـرني، وهـو أكـثـر اسـتـقـامـة من ذلـك الأخـيـر، قـائلاً: «لدي أخٌ جـبـان في بخـارى، ولـن ينفـِّذ رغبـتي، ولم أرغب في أن أسـاومـه بنفسي؛ فـأنا تـاجـر، ولم يسـبق لي أن تلقيت مرتَّباً من الحكومة البريطانية».

في الثالث عشر من مارس علمت بالمصادفة، من الملا مهدي اليهودي، أن عدة خطابات قد أُرسلت من السير موسى مـونتيـفيوري إلى الملا مـحمد علي صـرَّاف، وكيل سـتـودارت. فـتـذكَّـرت في الحـال أنهـا لا بد أن تكون الخطـابات نفـسـهـا التي نصـحـتُ السـيـدة مـاكنـاغتن والآنسـة سـتـودارت بتـدبيـرهـا من السـيـر مـوسى

مونتيفيوري، وإرسالها من خلال الملا مهدي في مشهد، إلى يهود بخارى وسمرقند وبلخ وخوقند؛ غير أن الكولونيل شيل، حسب توصية ستودارت - بالطبع - قدَّمها من خلال وكيله، الملا محمد علي صرَّاف. وقد زارني مساء الأمس فسألته: «ماذا فعلت بالخطابات الموجَّهة إلى اليهود في بخارى وغيرها؟».

فأجابني قائلاً: فَضَضْتُ الخاتم، ونزعت المظروف، وجعلت إسماعيل اليهودي يكتب العنوان عليها باللغة العبرية فقط؛ حيث إن الكتابة بالإنجليزية قد تجعل اليهود موضع ريبة، وقد رأيت أن ذلك لن يكون آمناً.

وجدت شيئاً من الصحة في كلامه هذا، غير أنه من المحاكمة الأولية، فإن الخطاب في الشرق من دون خاتم لا يساوي شيئاً. وثانياً: عندما رغبت في أن يقدم إليَّ المظاريف، التي قال إنه يحتفظ بها، وجدته أوصل الخطابات الخاصة بسمرقند وبلخ وخوقند فقط، غير أنها مفضوضةُ الأختام، وقد احتفظ بأهمها على الإطلاق، وهو خطاب السير موسى مونتيفيوري إلى يهود بخارى. ولأنني متأكد من أن السير موسى - الذي لا يحبني - سينتابه الأسف إذا ما كنت أنا الموصلَ للخطاب، ولمعرفتي بأن لا أهمية له؛ فقد أعدته إليه في إنجلترا. وحتى الخطابات الأخرى، تأكدت أنها قد أُوصلت قبل ثلاثين يوماً فقط.

قدَّم لي آغا أبو القاسم هذا اليوم معلومةً دقيقة تتعلق بممتلكات الكولونيل ستودارت في يدي وكيله، محمد علي صرَّاف: لقد كان بحوزته شالات أودعها عنده الكولونيل ستودارت، وقد أعطاه إياها رهناً لتجَّار يحصل منهم في مقابلها على نقود لشراء أرض، إذ إن قيمة (الشالات) تصل إلى ما يقارب ألفي تومان (ألف جنيه إسترليني)؛ فسألته عن ذلك، فأجاب بأن الشالات لا تزال بحوزته، وأنه عاقد العزم على إيصالها إلى أخت الكولونيل ستودارت شخصيّاً؛ ثم جلس ليكتب خطاباً إلى أخته (أخت الكولونيل ستودارت).

إن هذا الرجل محتال؛ وقد أخبرني أن ستودارت أمره (وهي كذبة فاضحة) بأن يسلم الشالات لأخته، التي سوف تكافئه بسخاء.

زرت في الثاني عشر [من مارس] كبيري رجال الدين في مشهد: ميرْزا سعيد عسكري، إمام جماعة مشهد، والحاجي ميرْزا موسى خان، متولي المسجد، وكلاهما كان لطيفاً معي، وقدَّما لي كل مساعدة ممكنة. وتمنى كلاهما الحصول على مطبعة حجرية، كما طلب آصف الدولة منظاراً مقرِّباً جميلاً؛ فكتبت إلى إنجلترا لتوفير هذه الأشياء وإرسالها إليهم، ليس من طريق وكيل ستودارت، ولكن من طريق صديقي الملا مهدي.

الخامس عشر من مارس: وصل آصف الدولة إلى هنا، وفور وصوله أرسل حاجبه للترحيب بي. وكان هناك ثلاث مئة زعيم تركماني في صحراء مرو، يتوسَّلون إلى آصف الدولة أن يُسكن قبيلتَهم بالقرب من مشهد، وأنهم سوف يرافقونني إلى مرو. وتعهد آصف الدولة بأن يرسل أحد رجاله معي إلى بخارى. وكانت هناك شائعة تقول إن سفيراً روسيّاً قد وصل إلى تلك المدينة قبل شهر من وصولي إلى مشهد.

العشرون من مارس: جمع آصف الدولة التركمان في خيمته، وقرأ عليهم الخطابات التي بحوزتي من مختلف الملوك، ثم قال لهم: «أنا أعهد إليكم بأحد الملالي الإنجليز، الذي أوصى به عند ملك بخارى أربعةُ ملوك»، فمسحوا لحاهم، وأقسموا أن يوصلوني بسلام إلى بخارى.

هذا هو يوم النوروز (عيد السنة الفارسية)، وقد أرسل إليَّ معالي آصف الدولة حلوى وبنساً من الذهب والفضة، وهو بنس مبارك، تصل قيمته إلى خمسة تومانات فضِّية، حسب العادة الفارسية. ورأيت في حفل استقباله الجند الفُرس وهم يتدربون أمامه. وقد عيّن أحد زعماء التركمان كي يوصلني

بسلام إلى بخارى؛ ومن الثلاث مئة زعيم من التركمان، اتجه ثلاثون إلى ملك فارس، بينما رحل البقية للتعريف بي لدى التركمان في سَرْخَسَ ومَرْوَ.

لقد أرسلت الخطابات التي بحوزتي من السلطان وشيخ الإسلام في القسطنطينية الموجهة إلى ملك وملالي خيوه وخوقند، برفقة أحد الفرسان التركمان، وقد دفعت مقابل ذلك خمسين توماناً، كما أعطيت مئة تومان لرجال آصف الدولة. لقد أذهلني التغيُّر في أحوال خراسان بعد انقضاء اثني عشر عاماً؛ سواء بين صغار القوم أو عِلّيَتِهِمْ. وقد استُقبِلت هنا من جميع الملالي بالطريقة نفسها التي يعاملون بها بعضهم بعضاً.

إن آصف الدولة أكثر من التقيته دهاءً؛ وقد قال لي: «الآن سوف أخبرك بكلمات قليلة يجب أن تحفظها، وأن تُسْمِعها ملك بخارى، والكلمات هي: إنني مرسَلٌ من إنجلترا، ومن الحكومة الروسية، والحكومة التركية، والحكومة الفارسية، بسبب تلك الصداقة المستمرة بين هذه الحكومات وإنجلترا». فسألته إن كان يود الحصول على طبيب إنجليزي هنا؟ فأجاب: بالتأكيد، ثم أردف بلطف: «ليس هنا حاجة إلى ذلك؛ فكل ما نريده صداقة إنجلترا».

ثم قام بإرسال هدايا إلى ملك بخارى قيمتها خمس مئة تومان بصحبة دِل آسا خان رئيس المَرْوَزِيِّين، الذي سيأخذني إلى بخارى. هذا الرجل يجب أن تُقَدِّرَ حكومتنا لطفه الكبير، حتى مع فرد عادي جداً من كيانها المتَّحد، مثلي أنا. وقد سُلِّمت إليَّ خطاباتي الآتية من إنجلترا بيدي حاجبه الخاص. وكانت غرفتي هنا تطل على أكثر المناظر روعة.

وفي إحدى المناسبات، وبينما كنت أكتب إلى إنجلترا، جلس أربعة من زعماء التركمان أرضاً، يأكلون الخبز واللبن الرائب، ويملؤون جيوبهم بالحلوى المقدَّمة لهم؛ وقد جلس الملا مهدي في جزء آخر من الغرفة، (وقد قمت بتعميده *سرّاً*)، وكان دِل آسا خان جالساً قبالته، يكتب ما يلزمني للطريق من

أشياء؛ مثل: السكر، أربعة جياد، خيمة، تمر، وما إلى ذلك. وكان آغا أبو القاسم، يجلس على الأرض. وكان صادق بك، المهمندار المرسل معي من ملك فارس، يبدو قلقاً حول سلامتي. وكان خادماي الخاصان يتشاوران حول ما أحتاج إلى أن آخذه معي.

وفي الخامس والعشرين [من الشهر] أرسل آصف الدولة في طلبي، إذ كان يرغب في أن أذكر في خطاباتي إلى إنجلترا الحقائق الآتية:

بعد أن تمرَّد تركمان مرو على ملك خيوه، وقتلوا الحاكم الذي نصَّبه عليهم؛ طلبوا الحماية من ملك بخارى؛ ولكنه (آصف الدولة) ولعلمه بما كان يلقاه ستودارت وكونولي من سوء معاملة، حثَّ التركمان كلهم على التمرُّد على ملك بخارى، وقد أتى إلى مشهد ثلاث مئة من زعماء التركمان، الذين رأيتهم بنفسي في القصر؛ لكي يطلبوا الإذن منه للاستقرار بالقرب من مشهد. وبناءً على ذلك، ضَمِنَ آصف الدولة أن تكون أكثر القبائل قوة تحت إمرته، وهم السَّرْخَسُ والمحل والمَرْوَزِيُّونَ والطاجيك. ومن هؤلاء التركمان أرسل إلى طهران سبعين منهم - وليس ثلاثين كما فهمت أولاً - ليكونوا رهائن لدى الملك؛ من أجل أن يضمن لي استقبالاً حسناً في صحراء مرو، ولكي يحصل على نُصرتهم إذا ما قام ملك بخارى باللجوء إلى إجراءات عنيفة ضدي. وإلى جانب ذلك، أكد لي أنه إذا داخلت الشاه أدنى ريبة فيما يتعلق باحتجاز إلجي بخارى (سفير بخارى)؛ فإنه سيحتجزه في مشهد حتى أصل إليها سالماً معافى.

وعندما كتب الكولونيل شيل إلى آصف الدولة، قبل ستين يوماً، لكي يرسل رجلاً إلى بخارى فور تسلُّم الأمير للخطاب، وهو ما لم يحدث حتى بعد وقت طويل من وصول الرسول الذي كان يحمل الخطاب إلى مشهد، وأخَّره محمد علي صرَّاف بنذالته؛ حينها أرسل (آصف الدولة) أحدَهم بهدايا تصل قيمتها إلى خمس مئة تومان، وقال: إنه سيرسل المزيد من الهدايا التي تعادل القيمة

نفسها بصحبة دِل آسا خان. وقال كذلك: إنه كان مستعداً للزحف إلى بخارى إذا أذن الشاه، وعند أول إشارة من إنجلترا، وإن بلدنا سيكون المحرِّر النبيل لآلاف من الرقيق.

وحتى لو قُدِّمت إليَّ رُفات ستودارت وكونولي، فقد عقدتُ العزم الآن على المضيِّ قُدُماً إلى بخارى، والتحرِّي عن كيفية موتهما؛ فقد كانت هناك موجة من التأييد قويةٌ بدأت تتصاعد لصالحي. وقد نصح أصدقاء يار محمد خان في مشهد، وهو في هراة، أن يكتب إلى ملك بخارى لكي يطلق سراح السجناء ويعاملني معاملة حسنة. وأعلن الهزارة كذلك؛ بدءاً من صحارى ميمنة وحتى تُخُوم خولوم؛ عن مهمتي في بخارى. وأصبحت التأخيرات المتعمدة لمهمتي مثيرة للحنق، ما جعلني أكتب إلى آصف الدولة في الرابع والعشرين من مارس، شاكياً دِل آسا خان الذي أراد أن يمكث حتى السابع والعشرين من الشهر، بينما كنت أود الخروج في السادس والعشرين، (الثلاثاء) وليس الأربعاء. وبناءً على ذلك أمر معاليه دِل آسا خان أن يغادر معي في السادس والعشرين من هذا الشهر. وتسلم دِل آسا خان مني مئة تومان، وأعطاه آصف الدولة من ماله ثلاث مئة أخرى، وأرسل معه هدايا، كما ذكرت، إلى ملك بخارى تصل قيمتها إلى خمس مئة تومان. كما أعطاني الكولونيل شيل كذلك بعض الملابس (ثلاث قطع) وساعة فضية للأمير، لكي لا أظهَر خاليَ اليدين.

كانت خطابات سلطان القسطنطينية الموجَّهة إلى ملك خيوه، وكذلك خطابات شيخ الإسلام الموجَّهة إلى ملالي خيوه وخوقند قد أُرسلت إلى ملك خيوه بوساطة يوسف ميرّزا شاه زاده، وهو أمير أفغاني، زارني باكراً هذا الصباح، ثم أرسل رسولاً إلى خيوه مع أحد التركمان. وقد أعطيته خمسين توماناً، وسأمنحه ثلاثين أخرى بعد أن يحضر الجواب من ملك خيوه، والذي

سيُرسل إلى الكولونيل شيل في طهران؛ لأنني لن أعود من بخارى إلا بعد أن يأتي الجواب من خيوه.

وكتبت كذلك إلى ملك خيوه، راغباً في أن يأمر التركمان الذين تحت سلطانه بعدم التحرُّش بي على الطريق، وأن يعلن لجميع التركمان سبب مهمتي إلى بخارى. وسيكون لهذا تأثير مضاعف؛ بما أن ملك خيوه على عداء مع بخارى؛ وأول نتائج هذا التأثير أنه سوف يعمل على إحاطة جميع التركمان في شهر سبز وخوقند وسمرقند وخولوم؛ وحتى في بخارى؛ علماً بأن تصرف ملك بخارى لا يقرُّه السلطان، كما أنه يغيظ القوى الأوروبية الأخرى؛ وفي الوقت نفسه سوف يردع التتار الأوزبك عن تقديم المزيد من المعونة إلى ملك بخارى.

وكتب الملا مهدي، في هراة، باسمه - وليس باسمي - إلى صديقه محمد خان، بأن الوقت قد حان للحصول على دعم إنجلترا، وذلك بالكتابة إلى ملك بخارى بوجوب إطلاق سراح السجناء الإنجليز، وأن يعاملني بتميُّز عند وصولي إلى بخارى. وكتب يوسف ميرِّزا شاه زاده، الشيءَ نفسه إلى ملك بخارى وقبائل الهزارة في ميمنة وأنخوي، وقد كتبت إليهما كذلك لغرض إحاطة جميع الملالي والدراويش والأولياء علماً بذلك، من أجل أن يدعوا أمير بخارى إلى ترك الغرباء يعودون إلى أوطانهم.

وقد وجَّهت كذلك خطاباً محترماً لأمير بخارى، بقصد توصيله بنفسي، مذكراً جلالته بالاستقبال الكريم الذي أولانيه عندما كنت في بخارى قبل اثنتي عشرة سنة، ودفاعي الشجاع عنه بقوة في إنجلترا وجميع أنحاء أوروبا، عندما سمعت أنه قد وُصِم بـ«قاتل الضيوف»، وتوسَّلت إلى جلالته بكل ضَرَاعة أن يسمح لي بأن أعود بصديقَيَّ إلى بلدهما الأصلي؛ أمَّا إذا كانا قد ماتا بسبب خطأ ارتكباه، فأن يخبرني بطبيعة جرمهما، وأن يدعني أحمل معي رُفَاتَهُما إلى إنجلترا؛ لكي يدفنهما أقرباؤهما هناك. ووضعت هذا الخطاب

بين يدي إمام الجماعة في مشهد، الذي قرأه في مسجد جوهر شاه، حيث احتشد خمسة آلاف من الناس.

قبل أيام وصلتْ إلى هنا قافلة من بخارى، وكان جواب أفرادها على تساؤلاتي: قد يكونان أحياءً؛ ذلك أنه لم يَرَهما أحدٌ يُعدمان، بينما يُعدم الآخرون علناً. وكان القوش بك، أو الوزير، الذي ظن الناس خمس سنوات أنه أعدم، قد ظهر فجأة حياً وبصحة جيدة خارجاً من السجن. وأخبرني رئيس قافلة بخارى، المُلاَّ كريم - الذي يسافر إليها كل شهرين، ولديه زوجة هناك - قبل يومين، أنه إذا أكد لي أي شخص أنه رأى عملية إعدام الإلجيَّيْن الاثنين فاعلم أنه كاذب! وكما قلت، فحتى الآخوند زاده، صالح محمد، أخبرني أن الشخصين اللذين أُعدما وقَدَّم حولهما تقريراً مفصلاً للكولونيل شيل، ربما يكونان شخصين آخرين، وأن الذي نفذ عملية الإعدام وأخبره بالقصة قد يكون كذب عليه.

وبجانب هذا، يجب أن أعترف بأن في تقرير الآخوند زاده شيئين ظهرا لي موضع شك، وهما متناقضان: إذ أخبرني في وقت سابق أن الذي استقى منه القصة هو الذي أعدم ستودارت؛ وفي يوم لاحق، عندما سألته مرة أخرى: أيُّ الشخصين أعدم ستودارت؟ أجاب بأنه لا يعلم. وإلى جانب هذا، استخدمت في الاستجواب الطريقة التي طبَّقها السيد بِت على الأشخاص الذين شك في صدقهم في موضوع معين. فقد استجوب أولئك الأشخاص في نقاط أخرى؛ وكذلك فعلت مع الآخوند زاده؛ فسألته في أحد الأيام عن بعثة الروس المزمع إسالها إلى خيوه؛ فكان جوابه أنه علم بصورة قاطعة أنه لم يرجع روسي واحد إلى أورينبورج؛ فكلهم قتلوا مع إبلهم.

إلى ذلك ادَّعى الآخوند زاده بمئة وعشرين توماناً على الكولونيل شيل، وقد علمت من مصادر مختلفة أنه تسلمها من الميجور تود؛ كما علمت - فيما بعد -

أنه أحد الذين خوَّفوا خادمي (رجب) من مغبة مرافقتي إلى بخارى. ولم يكن بإمكان شيء أن يغري هذا الرجل للتحرُّك إلى أبعد من مرو. وكان سيتركني في مشهد، كما ذكرت، ولكنه - على تردد شديد من جانبه - تبعني إلى مرو. ولم يجاوز ذلك، ومن الواضح أنه كان ينظر إليَّ بوصفي رجلاً هالكاً لا محالة.

أما الخادم الآخر لستودارت - عندما كانا في هراة، والذي كان كذلك في خدمتي - فقد أخبرني، والجدُّ يقطر منه، أنه جُلد مرة ألفي جَلْدَة بأمر من ملك فارس؛ لخدمته الضباط الإنجليز الذين كانوا في هراة خلال حصارها[1].

إنه لمن الصعب الكشف عن الحقيقة في بلد يعجُّ بالكذب كهذا! ولقد كان آصف الدولة متلهِّفاً جداً للزحف إلى بخارى والاستيلاء عليها؛ وكان واثقاً بأنه يستطيع أخذها في أقل من نصف ساعة.

إن آصف الدولة رجل عظيم؛ وبإدارته الحصيفة جمع أكبر عدد من التركمان تحت نفوذه، ومن خلاله تم القضاء، إلى درجة كبيرة، على الجابو، أو حالات السلب التركمانية داخل خراسان. وقد أقام مباني نزُل القوافل والمباني الأخرى. أما الآن فهو يساند الشاه زاده، شاه أفغانستان، ويعينه من أجل أن يراقب بحذر متواصل، يار محمد خان، حاكم هراة، الذي قتل قمران خان قبل سنة. غير أنّي شعرت بغضب شديد حيال آصف الدولة، فقد كان بإمكانه إرسالي أسرع من ذلك لو لم يبقني بسبب الرجل الذي أوفده إلى بخارى قبل ثلاثين يوماً.

وقد أرسل شيل كذلك، قبل خمسة أشهر، غلاماً يستعجله كي يبعث

(١) لا نعلم كيف لامرئ أن يتحمل «ألفي جلدة» يتلقاها مرة واحدة، ولاسيما إذا كانت مفروضة لغرض انتقامي كما يوحي السياق؟! ولكنها عادة المؤلف - على طول كتابه - في المبالغة والتهويل الذي يصل إلى الكذب؛ بل إن الكذب ليتوارى خجلاً أمام هذا الهراء!

أحدهم إلى بخارى، غير أن ذلك التأخير لم يكن خطأه ولكنه خطأ وكيل ستودارت. وعلى أية حال، فإنه الآن يتوقع رجوع الرجل الذي سافر قبل ثلاثين يوماً؛ غير أنني عاقد العزم على الرحيل الثلاثاء القادم، أي: يوم غدٍ. وقد اشتريت أربعة جياد ومؤناً وما إلى ذلك. كما أنني، وعلى سبيل أخذ الحيطة والحذر، عزمت على الكتابة إلى الكولونيل شيل، كي يوفد رجلاً إلى مشهد مع أمر من الشاه بأن يرسلني في الحال.

إن المشكلة التي أحدثها دِل آسا خان لا يكاد يتخيَّلها العقل؛ رغم أنه تلقى الأمر من آصف الدولة بمرافقتي مع الرجال المسلحين إلى بخارى، كما تسلَّم خطابات موجَّهة إلى ملك بخارى وإلى زعيم التركمان في سَرَخْسَ، وخليفة مرو، الزعيم الروحي للتركمان، تُعْلِمُ الجميع كتابةً أن يولوني عنايةً طيبةً، وإذا حدث خلاف ذلك فإن فارس وإنجلترا وروسيا وتركيا سوف تحاسبهم. غير أن ذلك لم يكن له أثر يُذكر في هذا الرجل؛ فإن رعبه من بهادر خان لا يفوقه سوى جشعه. وقد أُجبرتُ في البداية على أن أدفع له مئة تومان مقدماً، وبعدها حمَّله آصف الدولة هدايا لملك بخارى، وأعطاه الأمر بمغادرة مشهد في اليوم السادس والعشرين.

كان دِل آسا خان يقدم الأعذار المستمرة، غير أنه في النهاية أرسلني مع واحد من رجاله إلى كاناكوشا، التي تبعد اثني عشر ميلاً من مشهد؛ وقد صحبني كذلك الملا مهدي، اليهودي. وفي الليل وصل إليَّ خطاب من دِل آسا خان، يخبرني فيه أن آصف الدولة يتمنى أن أجلس في كجاوه[1] خلال رحلتي، أو ما يُسمى في القاهرة: شِبْرِيَّة، لئلا أستقطب الكثير من اهتمام التركمان. وإلى جانب ذلك عليَّ أن أصطحب جملاً آخر لحمل الماء. رأيت في هذه الحيلة

(١) الكجاوه بالفارسية هو الهودج.

من جانبه ابتزازاً لمزيد من المال مني، ولذلك أرسلت خطاباً مع الملا مهدي إلى آصف الدولة، أخبره فيه أنني على استعداد لتأجير جمل مزوَّد بكجاوه، وكذلك جمل آخر، ولكني أتمنى من معاليه أن يأمر دِل آسا خان ألا يبطئ أكثر من ذلك، وإذا لم يحدث، فإنني سوف أعود وأواصل المسير إلى بخارى عبر روسيا. وصل إليَّ خطاب لطيف من آصف الدولة، واستأجرت الجملين كي أتجنَّب التأخير؛ ومع ذلك فإن دِل آسا خان لم يصل حتى الثلاثين (من الشهر) إلى نزارية التي تبعد أربعة أميال من كاناكوشا، بل إنه أراد أن يمكث بضعة أيام، إلى أن أمرت خدمي بصورة قاطعة بالاستعداد للعودة إلى مشهد.

الحادي والثلاثون من مارس: دخلنا الصحراء تماماً، وأقمنا مخيّماً في سهل مغطى بشجيرات يُسمى جهار قُنباز. وقد أزعجني دِل آسا خان كثيراً بطلبه المتواصل للمال، الأمر الذي دفعني لإرسال الملا مهدي، الذي رافقني حتى الآن سراً، بخطاب إلى آصف الدولة، مبدياً رغبتي في أن يرسل إليَّ مرافقاً آخر في سفري؛ وفي الوقت ذاته رفضت بإصرار طلبات دِل آسا خان.

الاثنين الأول من أبريل: وصلنا إلى رباط مَحَل، وهو مكان صحراوي، نصبت فيه خيمتي، وكان الماء فيه مالحاً للغاية. وفي الثاني من أبريل أتى خيَّال مسرعاً خلفنا، صائحاً: «توقَّفوا، توقَّفوا!» فتوقفنا، وكان الخيال مرسَلاً في إثرنا من آصف الدولة، ومعه خطاب موجَّه إليَّ وخطاب إلى دِل آسا خان. وقد كتب معاليه إليه: «سوف أدمِّرك وأدمِّر أسرتك إذا طلبت (درهماً)، فارذينج واحداً من صديقي جوزيف وولف، وإذا لم تنجز مهمتك بشكل جيد». وكتب إليَّ أنه يجب ألا أغادر القافلة حتى سَرْخَسَ، وفي سَرْخَسَ يجب أن أصطحب معي - إلى جانب دِل آسا خان - أربعة من التركمان وعشرة من مرو، حيث أعلن الزعماء التركمان المئتان عن وصولي من قبل؛ فارتد دِل آسا خان ذليلاً طائعاً.

وصلنا إلى ماسترون؛ وهي حصن أقيم فوق قمة الجبل؛ من أجل مراقبة تحركات تركمان سَرَّخَسَ، ومنعهم من نهب القوافل؛ ولهذا السبب وضع آصف الدولة خمسين من رجال المدفعية هنا، مع بعض الفرسان. وقد أتى رئيس هؤلاء الجنود إلى خيمتي، فأهديته رغيفاً من الخبز؛ وقد علَّق على ذلك قائلاً: إن الصاحب الآخرين (اسم يطلق على الرجل من الإنجليز) يقدمون له دائماً هديةً بضعةَ تومانات. فأجبته قائلاً: «إن خبز المُلاَّ مبارك»؛ فهدأ.

وفي الثالث من أبريل: وصلنا إلى قره قوش «العُقاب الأسود»، وقد سُمي بذلك لأن الماء فيه أسود، ويمر بين مضيقين، ومالحٌ جداً.

وفي الرابع من أبريل عبرنا البقعة الصحراوية آبي شروك، على الطريق إلى قونبازلي، التي تبعد عشرين ميلاً من سَرَّخَس. ووجدت أنه لم يتبقَّ شيء آكله سوى التمر والخبز، وماء المطر للشرب. وكان معي، حتى هذه النقطة، رجب وملا صفي اليهودي، الذي خدم كونولي وستودارت أول مرة عندما كانا في خيوه، والثانية عندما كانا في بخارى. وكان كذلك مع تود في هراة. ولا يمكنني هنا أن أصوِّر بشكل كافٍ في عقول الإنجليز ضرورة إرسال أحد الإنجليز الأصليين إلى مشهد؛ فرغم أن الملا مهدي مفيد للغاية، إلا أنه لا يزال يحتاج إلى إرشاد أحد الإنجليز.

وفي الخامس من أبريل (الجمعة): وصلنا إلى قونبازلي، التي تبعد ثلاثة فراسخ (اثني عشر ميلاً) من المحطة السابقة. ولم يكن هناك إلا بئر في الصحراء، ماؤها مالح جداً.

وفي السادس من أبريل (السبت) نمنا مرة ثانية في الصحراء، وعبرنا دريا سَرَّخَس (نهر سَرَّخَس)، الذي يأتي من هراة.

وفي السابع (من الشهر) وصلنا إلى مخيَّم نَفَس بك، الذي يسكن في خرائب تبعد أربعة وعشرين ميلاً من سَرَّخَس القديمة، وهي كذلك منذ أتى

عباس ميرّزا إلى هناك بصحبة بوروفسكي. وقد عاملني نَفَس بك بكرم، وتوقَّع أن أهديه خُلعةً، فأعطيته قميصاً تركمانياً.

وفي يوم الاثنين، الثامن من أبريل، غادرنا مخيم نَفَس بك، ولكننا ضللنا طريقنا في الصحراء. كانت السماء يكتنفها ضباب كثيف، ولم نهتدِ إلى طريقنا إلا في التاسع من أبريل (الثلاثاء).

وفي هذا اليوم (العاشر من أبريل، الأربعاء) قطعنا أربعة وعشرين ميلاً، لكننا مازلنا في الصحراء. وقد كان هناك حوضي خان - بيت للماء بناه أحد الخانات. وأنا الآن على بعد ستين ميلاً من مرو، وثلاث مئة ميل من بخارى. وتلقَّيت بالأمس خطاباً من الملا مهدي، أُرسل من مشهد بيد أحد التركمان قصداً، وقد أُرفق معه خطاب من يار محمد خان، حاكم هراة، الذي وعد أن يخدمني بعلاقته القوية مع ملك بخارى. وقد عزم ملك بخارى على أن يزحف إلى خيوه؛ ولذلك فمن المحتمل أن أصادفه غداً في مرو، أو بعد أيام قلائل في جهار جو.

لقد أزعجني مرافقي دِل آسا خان كل يوم حتى الموت، إذ كان يطلب هدايا باستمرار، إلا أنني رفضت تلبية طلباته بشدة. وقد وصلت في الثاني عشر من أبريل إلى مرو بسلام، واستقبلني عبدالرحمن، خليفة خيوه وبخارى بحفاوة بالغة. وزارني في الحال اليهودي ناثان، واليهود الآخرون الذين تعرَّفوا إليَّ قبل اثنتي عشرة سنة، عندما كنت في هذا المكان، وقد استعدنا ذكريات أيامنا السالفة.

ويمكنني القول - وأنا الآن آمن - إنني كنت، في عام ١٨٣١م، الإنجليزيَّ الوحيد المعروف في صحراء مرو، أما الآن، فإن أسماء ستودارت وكونولي وشكسبير (الذي يسمونه الشيخ سفير) وأبوت وتود ورياتش وتومسون، تُذكر باحترام وتقدير، وكل الشعب الإنجليزي موضع إعجاب؛ ما يجعل واجباً على

اللورد بالمرستون تقديم الشكر لبريطانيا؛ لغزوها أفغانستان؛ فحتى في أفغانستان يفكِّر الناس الآن بحب في إنجلترا والإنجليز[1].

كان مضيفي، عبدالرحمن شيخاً تركمانياً جليلاً، يستحقُّ مكانته؛ فهو رجل قليل الكلام، متجرِّد من الشهوات، متفرغ للصلاة، ومحبٌّ للكرم والضيافة. وقد توقف كونولي في منزله عندما كان مسافراً من كابل إلى خيوه. وقد عرف أحد أبنائه الميجور تود جيداً.

ولو أدركت الحكومة البريطانية في الهند كيف قام الرجل المحترم جداً تود برسم صورة مشرقة للاسم الإنجليزي في أرجاء تركستان كافَّة، لَمَا قامت بإعادته إلى فرقته العسكرية. فاسم تود وتحرُّره ولطفه يتردَّد عبر صحراء تركستان، وهكذا احتُرم رياتش، والرجال الذين سبق ذكرهم، وستودارت فقط هو الذي وُصف بالشجاعة، إلا أنه رجل خشن عالمياً، وكان وصف كونولي أنه رجل ديِّن.

أخبرني الخليفة عبدالرحمن بصورة قاطعة أن ستودارت كان حيّاً، إلا أنه في السجن؛ ولم يكن متأكِّداً تماماً من شأن كونولي. ويعتقد اليهودي ناثان أنهما ميتان. وقد كان المطر، وبطءُ سير الجمال، ورياح الصحراء، والحاجة الطارئة إلى الماء، والتيه في الطريق، أسباباً لتأخير غير متوقَّع. وإلى جانب هذا، كان البلد في شبه حرب؛ فقد تمرد التركمان - مؤخَّراً هنا في مرو - على خيوه، وقتلوا حاكمهم؛ ولذلك فإنهم كانوا يتوقعون كلَّ لحظة اجتياح جيش خيوه. وهناك فريقان: هنا، وفي سَرَخْس، فبعض القبائل يَصْطَفُّ مع بخارى، وبعضها الآخر مع خيوه. ووجدت الكابتن جروفر محقاً؛ فستودارت كان مرسَلاً من السير جون ماك نيل، ولكن كونولي كان أيضاً وكيلاً معتمَداً، حيث إنه مرسَل من السير دبليو. ماك ناجتن إلى بخارى؛ لتحرير ستودارت.

---

(١) لا أدري كيف يفكر أهل أفغانستان في حبِّ المستعمر الإنجليزي، وقد أهلك الحرث والنسل وخرَّب البلاد؟! ونحن نرى (حبَّ) أهل أفغانستان الآن للمستعمرين الجدد!

وصل إليَّ خطاب من بروخز في غضون خمسة وسبعين يوماً. وكان تقرير غريزي حول ستودارت خاطئاً؛ فعبدالصمد خان، وهو فارسي، يرأس سلاح المدفعية في بخارى، غير أن الكثيرين يعتقدون خطأً أنه إنجليزي، أو إفرنجي.

وفي هذا المكان المهم (مرو) يوجد رجل مماثل في الأهمية؛ وأنا ألمح هنا إلى خليفة التركمان. فإن العناية الربانية تتجلى بأعجب ما يكون؛ حيث يُظهر حُسن الإدارة في أجمل صوره، ويعمل بأروع الأسباب لكَبْح شرور الإنسان. فتركمان مرو وسَرْخَس هم قوم ذوو نزعة خؤون، وذوو جشع عظيم، بحيث لا يستطيع المرء الاعتماد للحظة واحدة على وعودهم، أو على أي اتفاقات يعقدها معهم؛ فالتركمان، مثلهم مثل بدو صحراء جزيرة العرب، لا يراعون العواقب، ولا يكبحهم سوى إنزال العقوبة المباشرة بهم؛ ولذلك لا تستطيع قافلة أن تحلم بالعبور من صحاري مرو وسَرْخَس ورافيتاك، إذا لم يوجد رجل في تلك الصحارى يعرف كيف يكبح جماح التركمان.

وهذا الرجل هو الدرويش الكبير الذي يحمل لقب خليفة، أو خليفة الرسول، ويُخاطَب بلقب الحضرة الملكية، أي جلالة، ويقدم إليه التركمان كل الاحترام المستحق للملكية. وهم ينشدون مباركته قبل الذهاب في أي مهمة، ويعطونه عُشْرَ غنائمهم. وهو يستقبل كل القوافل تحت حمايته، ويكرم كل العابرين. وتعد مباركته رغبة التركمان الأكثر إلحاحاً، ولعنته رعبهم الأعمق. وهو يغرس فيهم معاني الكرم، ويخبرهم بأن إبراهيم (عليه السلام) كُرِّم بزيارة الملائكة مكافأة له من الله على كرمه. وملوك بخارى وخيوه وخوتان وخوقند، وحتى حاكم يارقند في الصين التترية، يرسلون إليه الهدايا، ويمنحونه لقب ملك. سُمِّي عبدالرحمن، «رفيق الله الرحمن»؛ ففي يوم ولادته أرسل اللهُ المطرَ على الصحراء، بعد أن انقطع عنها مدة طويلة. هكذا كانت ولادته المباركة في

عقول هؤلاء القوم البسطاء. ولديه ولد اسمه كريم وردي، الذي يعني «عطاء الله الكريم»؛ وذلك لأنه بعد أن رزق اللهُ الخليفة إناثاً، رزقه مؤخراً ولداً ذكراً.

هذا هو الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية لضبط التركمان إلى درجة معينة. وأقول إلى درجة معينة، فإنه هو نفسه يشجِّعهم على محاربة الشيعة وسلبهم، ثم يخبرهم بأن ذلك أكثر قبولاً عند الله من أداء الحج إلى مكة أو إلى مسور *(Mosaur)*، بالقرب من بلخ، حيث صعد جمل علي إلى السماء[١].

وقبل عدة سنوات فرض ملك خيوه على التركمان في مرو حاكماً، سكن قلعة مرو، مع ست مئة من الرجال من أهل خيوه. فتآمر التركمان عليه، وذبحوه مع عدة مئات من رجاله؛ فالتجأ ثلاث مئة منهم إلى بيت الخليفة عبدالرحمن؛ فأسرع التركمان إلى منزله، وطلبوا منه بغضب أن يسلِّمهم بقية رجال خيوه للانتقام منهم، لكنه خرج عليهم برباطة جَأشٍ، وقال: «قبل ذلك يجب أن تقتلوا خليفتكم، ثم هؤلاء الرجال البائسين الذين لجؤوا إلى سقف بيتي»، فتراجع التركمان الحانقون. وخلال الليل رافق البقية من رجال خيوه إلى خارج صحراء مرو، حيث أصبحوا في مأمن من ملاحقة التركمان.

وخلال إقامتي في مرو وصلت مجموعة من الدراويش الراقصين من يارقند، ثم تجرَّدوا من ملابسهم، ورقصوا حتى وقعوا على الأرض. وبرؤيتهم يرقصون هكذا، تجرد ابن الخليفة من ملابسه كذلك ورقص معهم.

إن التوافق في طريقة تسمية الخليفة لأطفاله، وهذه الطقوس الجامحة، مع بعض الفقرات في الكتاب المقدَّس، لا يمكنها إلا أن تذهل القرَّاء. أورد واحداً منها لتأييد ما قلته: «فخلع هو أيضاً ثيابه، وتنبَّأ هو أيضاً أمام

---

(١) المؤلف على معارفه الواسعة، إلا أنه يخلط أحياناً - بمكرٍ - بعض الحقائق مع بعض الخرافات التي ليس لها سند.

صموئيل، وانطرح عرياناً ذلك النهار كلَّه وكلَّ الليل؛ لذلك يقولون: أشاؤل أيضاً بين الأنبياء؟» سفر صموئيل الأول، الإصحاح التاسع عشر، الفقرة ٢٤.

وتوافد عليَّ زعماء التركمان من كل المناطق، وقالوا بصوت مرتفع: «اكتب إلى ملككم في إنجلترا أنه لو أعطانا مبلغاً محترماً من المال، فسوف نساعده في إرسال جيش إلى بخارى، من أجل معاقبة ملكها على قتله ستودارت صاحب وكونولي صاحب؛ لأننا - نحن التركمانَ - لا يهمُّنا من يحكم تلك البلدان في بخارى وخيوه، سواء أكان بهادر خان أم الإنجليز، أم روسيا، ما دمنا نحصل على الخلعة (ثياب التشريف) والتيلاه، أي الدوقات[1]. نحن نتعرض لضغوط مميتة من خيوه؛ لأننا ذبحنا الحاكم، ولا يمكن الوثوق بالقاجار، أي الفُرس؛ لذلك فإننا سوف نتجه في النهاية إلى قرب الحدود الروسية، حيث ابتنوا هناك قلعة. إنه أمر يدعو إلى الأسف؛ أن يتسبَّب القازاق والقرغيز والثلج في منع الروس من الزحف إلى خيوه، لكنا ساعدناهم في سلب أهل خيوه وقتلهم».

وقد أخبرني الخليفة كذلك قائلاً: «إذا رغبت في الذهاب إلى بخارى، فسوف أرسل أحد التركمان إلى هناك، وأوصي بك عند ملكها قبل انطلاقك إليها، إلا أنني أنصحك بألاّ تذهب؛ لأنني اعتقدت في البداية أن كونولي كان حياً، ولكنني كنت مخطئاً، إنه ميت، والشخص الذي في معية عبدالصمد خان الآن شخص مختلف تماماً. يا يوسف وولف، أنت درويش مثلي، اسمح لي أن أنقذك، وأن أكون سبيلاً لهربك إلى التركمان في أخول، الذين سيأخذونك إلى أستراباذ، ومن هناك يمكنك المواصلة إلى خيوه. لا تذهب إلى بخارى». فأجبته بالقول: «لا بد أن أذهب إلى بخارى». فما كان منه إلا أن كتب خطابات إلى

---

(١) عملة ذهبية أوروبية.

حاكم جهار جو وملك بخارى، ذاكراً لهما أنني رجل دين، وقد أتيت بمرافقة دِل آسا خان، أحد رجال آصف الدولة، ولكن دِل آسا خان خطَّط لخيانتي. وحثَّ (الخليفةُ) جلالةَ ملك بخارى على إحسان معاملتي.

وإذا ما قامت الحكومة البريطانية بتكليف سفيرها في طهران الدخول في مراسلات حميمة مع خليفة مرو، وإرسال هدايا إليه من وقت لآخر؛ فسيكون ذلك أمراً حسناً، وستصبح له أيضاً نتائج مفيدة؛ فقد طلب مني خليفة مرو أن أكتب إلى الكولونيل شيل كي يتدخل لدى ملك فارس نيابة عن أربعة من التركمان، الذين حبستْهم أمُّ الملك واتخذتهم عبيداً لها، وذلك من أجل تحريرهم. وكتبت إلى الكولونيل شيل، ولكني لم أتلقَّ إجابة. ورغِب مني أيضاً أن أكتب إلى آصف الدولة، الذي يحتفظ لديه بعشرين من السجناء التركمان، كي يطلق سراحهم، فقمت بالكتابة إليه، وقد وعد أن يفعل ذلك.

إن اليهود الذين يقطُنون في مرو، سواء من هراة أو مشهد، هم من المقرَّبين جداً إلى الخليفة؛ وبعض هؤلاء ممن أُجبروا على اعتناق الإسلام في مشهد، عادوا إلى ممارسة شعائر الدين اليهودي في مرو.

وقد زارني ناثان، العجوز اليهودي الذي سبق ذكره، في أحد الأيام مع أحد الدراويش من كاشغر. وقد سألني ذلك الدرويش قائلاً: «يا يوسف وولف، من أوجد النار والماء؟».

وولف: الله.

الدرويش: لا، ليس كذلك! الشيطان هو الذي أوجدهما؛ فلأن النار والماء مادَّتان مدمِّرتان، فمن المستحيل أن يكون اللهُ هو الموجدَ لهما. ويجب أن تعرف بأن هناك إلهين: أحدهما إله العالم العلويّ؛ وهو إله طيب، وهو الذي خلق النور الذي لا يحرق، والذي خلق الوردة والعندليب، وإله سُفْلي شوَّه كلَّ مخلوقات الإله العلويّ، وهذه حرب لا تزال قائمة. فالرجال الذين يتصرَّفون

بشكل جيد هم رجال الإله العلوي ومخلوقاتُه. والرجال الذين يتصرَّفون بصورة سيئة هم خدم الإله السُّفْلي. وستكون هناك معركة أخرى، عندما يصعد الإله السُّفْلي إلى السماء السابعة مع عدد لا يُحصى من جنوده، وسوف تحلِّق الحيَّات الطائرة معه، ولكن الإله السُّفْلي سوف يُهزم، وفي النهاية سيصبح خادماً حقيراً للإله العلوي[1]!.

بعد ذلك قرأت على الدرويش وناثان اليهودي، سفر الرؤيا، الإصحاح الثاني عشر، وبيَّنت لهما إلى أي مدى يتوافق الإنجيل معهما وإلى أي مدى يفترق، ثم قلت: «كلُّ ذلك هو عمل الله؛ فهو من الله في عُلاه، وهو الخالق للسماء والأرض، وآدم وحوَّاء، وبعد أن تفحَّص كل الأشياء التي خلقها، أكَّد كل شيء ليكون خيراً. ولكن الشيطان، في زيٍّ حيَّة، الذي سمَّاه الحواريُّ ليكون إلهَ هذا العالم، أضلَّ حَوَّاء، وهي أضلَّت زوجَها، وبذلك أتى الشر إلى هذا العالم.

وحين يسود الطغيان يصبح البلد قَفْرَاً، وهكذا أصبح العالم والرجال فيه فاسدين؛ غير أن المسيح، كلمة الله، الذي نزل من السماء وولدته مريم، أتى إلى العالم السفلي لكي يوحِّد - مرة أخرى - الخالق مع المخلوق؛ ولكي ينجز هذا العمل العظيم، بيَّن حُبَّه للمخلوقات بتقديم حياته لهم، ولكنه استعادها بعد ثلاثة أيام. وكسب بذلك العمل الأول الأتباع الكثيرين جداً من جميع الشعوب؛ لذلك فإن تلك البلدان التي اتَّبعتْه هي أفضل، وسكانها أفضل من أولئك الذين لم يتَّبعوه؛ غير أن هناك معركة لا تزال قائمة بين الله والشيطان،

---

(١) ما يعتقده هذا (الدرويش) هو ترديد لما تقول به «الثنوية» من وجود إلهين: إله النور، وهو إله الخير، وإله الظُّلمة، وهو إله الشر. وذلك منافٍ لعقيدة التوحيد التي يدين بها المسلمون، وأن الله هو الواحد الأحد، المتصرف وحده سبحانه في الكون: أرضه وسماواته.

بين أتباع أحدهما والآخر؛ بذور الحية وبذور المرأة، وسوف تستمرُّ حتى يعود عيسى المسيح ومعه عشرة آلاف من قديسيه، وسط صوت البوق وصياح الملائكة، ونهوض أولئك الموتى الذين أصبحوا شهداءَ من أجل دين المسيح. وعندها سيُقتل الشيطان كذلك، الذي رغم تسميته بإله فهو ليس اللهَ الأبديَّ، ولكنه مخلوق ملائكي لم يُخلِص لخالقه؛ وبعد ذلك سيقيم المسيح عرشه في القدس، وسيكون هناك تواصل بين الساكنين فوق الأرض والساكنين في السماء، وستصعد الملائكة إلى الله وتتنزَّل على المسيح ابنه»[1].

وطلب مني ناثان أن أصف له المرأة الإنجليزية المسماة: إيستر، التي ادَّعت أنها ستتزوج المسيح في يوم مجيئه. لقد كانت هذه الشائعة لليدي هيستر ستانهوب منتشرة بشكل واسع.

وبناءً على طلب الخليفة، وجهت إلى الكابتن جروفر الخطاب الآتي:

صحراء مرو، الثاني عشر من أبريل ١٨٤٤م.

إلى عزيزي جروفر، وإلى جميع أعضاء اللجنة، أكتب إليك الآن بناءً على طلب من الخليفة أو المرشد الروحي للتركمان كافة في جميع أنحاء الصحراء، وهو كذلك المرشد الروحي لملوك بخارى وخيوه وخوقند وطاشقند وشهر سبز، الذي يتمتَّع بلقب جلالة (حضرة). وأنا ضيف عنده. لقد دخل للتوِّ غرفتي، وأطلعني على خطاب، كتب فيه إلى ملك بخارى أنه من الأهمية بمكان تسليم الغرباء الغربيين لي (ستودارت وكونولي)، وأن يقوم كذلك بتقديم تعويض عمّا سببه

---

(١) يلحظ القارئ الكريم أن المؤلف يعمل بدأب شديد مثير للدهشة على الترويج لمعتقده النصراني بأن المسيح (عليه السلام) هو ابن الله، وأن الخالق اتحد مع المخلوق، كما يروِّج المؤلف لمعتقده من خلال القول إن الشعوب التي اتبعت النصرانية هي أفضل حالاً من الشعوب التي لم تؤمن بها.

لإنجلترا من إهانة، وإلاّ يبقيني أكثر من ثلاثة أيام في بخارى. وقد أرسل هذا الخطاب بواسطة أحد التركمان فوق صَهْوَةِ جواد سريع، وسوف يصل في غضون ثلاثة أيام، وسيكون قد سبقني بثلاثة أيام. وقد أرسل جلالته معي كذلك أحد أقاربه ومريديه؛ لكي يقدِّمني بصورة مناسبة للملك بخارى، إضافة إلى عشرة من التركمان يصلون معي إلى جهار جو، وهي أول بلدة تتبع بخارى؛ ولذلك أبدى الخليفة رغبته الحارة في أن أعبِّر للملكة عن أمنيته العارمة في أن يصبح صديقاً حميماً للشعب البريطاني، وأنه يرفق بطلبه هذا الرجاء الآتي: فقبل سنة واحدة قام رحيم داد بك، زعيم الهزارة، بسجن عشرين من تركمان مَرْوَ، وباعهم رقيقاً لآصف الدولة، الذي أبى أن يسلمهم، رغم أن الخليفة أعاد لآصف الدولة ثمانية من رقيق الفرس كانوا في حوزته. ولذلك، يطلب (الخليفة) من الملكة أو وزير إنجلترا التوسُّط لدى آصف الدولة في مشهد، من أجل عتق هؤلاء التركمان العشرين وتحريرهم، حيث إنه لا يملك الألف تومان التي طُلبت منه من أجلهم. فوعدت جلالته أن أكتب إلى اللورد أبردين، وكذلك إلى جمعية إلغاء الرق عن طريقكم وطريق اللجنة؛ فالرجاء المساعدة في هذا الشأن، وسيصبح اسم بريطانيا أعظمَ مما كان في صحراء بخارى. وفي غضون ستة أيام سأعرف ما إذا كان ستودارت وكونولي أحياءً، أو إذا سُمح لي بمغادرة البلدة مرة أخرى أم لا. في غضون ستة أيام سأدخل بخارى، ادعُوا لصديقكم المحبّ.

جوزيف وولف

وبما أنني موجود هنا، فلن أستطيع التعبير عن مدى السرور الذي شعرت به من عناية الملا مهدي بي وبأحوالي. وقد وصلتْ إليَّ خطاباتي المؤرَّخةُ في الثالث من فبراير إلى هنا بفضل لطف الكولونيل شيل ووكيله النافع؛ ولو أن الملا محمد علي صرَّاف كان هو الوسيطَ، لاحتفظ بها هذا الوغد ربما سنة كاملة.

وقد أُخبرت بأن يار محمد، الحاكم الحالي لهراة، كتب خطاباً قوياً إلى ملك بخارى من أجلي. كما أن آصف الدولة تصرَّف بسخاء كبير خلال تواصلي معه؛ إلا أن دِل آسا خان خيَّب كل أهدافه الخيِّرة بكل الطرق الممكنة.

وقد علمت بأن الأثر الذي أحدثه خطاب اللورد إلينبورو في بخارى، كان غير عاديٍّ؛ فقد توقَّع الخان أن تراسله الملكة مباشرة، وقد أغضبه جداً عدم تسلمه ذلك الخطاب.

وأكرر القول: إن الصحراء هنا تصدح بأسماء تود ورياتش وشكسبير وتومسون. وقد عُرف الآن اسم الإنجليز من حرب أفغانستان، واحتُرِم وقُدِّر، حتى إنه أصبح محبوباً بين التركمان. ويتحدث أبناء الصحراء عن الإنجليز بوصفهم أنبل أبناء الأرض.

وبرغم هذا كله، إلا أن ما زاد في المشاعر المشجِّعة، إنما هو شعوري بأنني كنت على وشك أن أضع نفسي، ومن غير حماية، بين يدي ملك استبدادي، يتمتع بفظاظة أكثر من عاديَّة حتى بالنسبة إلى سلالة حاكمة شرقية؛ شخص قد يكون قتل الكثيرين من أبناء بلدي رغم كونهم محميِّين مثل حمايتي. ولذلك سلَّمت نفسي، مثلما يفعل الجميع في ظروف محفوفة بالمخاطر، إلى العناية الإلهية التي آزَرَتْني بصورة رائعة جداً من قبلُ، والتي أثق بأنها ستحفظني لأمور أفضل.

واستباقاً للأسوأ، أرسلت الخطاب الآتي إلى الليدي جورجيانا:

مرو، الرابع عشر من أبريل ١٨٤٤م:

يا أعز وأحب الناس، جورجيانا، سوف أتوجه بعد ساعتين من هنا إلى بخارى. وقد تصرَّف خليفة مرو بأروع ما يكون تجاهي؛ فأرسل أحد مريديه معي إلى بخارى. تمتَّعي بروح عالية، أيتها الغالية جورجيانا: لأن كل ما قد يحدث لي هنا هو من الرب. إنني أذهب إلى هناك دون الكثير من الخوف. أفكر في الغالب

بك وبالعزيز هنري، ورجائي أن تغفرا لي، إذا كنت تلفَّظت عليكما بكلمة غير لطيفة. أحبكما أكثر من حبي لنفسي. جميع التركمان هنا يتصرفون باحترام جَمٍّ معي.

زوجك المحب جداً: جوزيف وولف

قام نظام الملك، كبير وزراء ملكشاه من السلالة السلجوقية، بتأسيس مدرسة في مرو، وكما أكَّد لي التركمان، فإنهم منذ ذلك الحين، يحافظون على المدرسة القائمة: وحتى الآن، فإن أبناء الخليفة الكبير يحتفظون بمدرسة في مرو، يُعَلَّمُ فيها الأطفال اللغتين العربية والفارسية. ويجب أن أنبِّه هنا على أنه حيثما توجد مدارس مشهورة تمَّ إنشاؤها قديماً بين أهل الشرق، فإنهم يعدُّون إلغاءها أو إهمالها خطيئة. والأمر كذلك غير مختلف عليه بين المسلمين والزرادشتيين واليهود. وأضرب مثلاً؛ أولاً: في مرو التي ذكرتُها، فرغم أنها صحراء، إلا أنهم يحتفظون بمدرسة هناك بسبب قِدَمِها. وفي البصرة، رغم أنها مدمَّرة، إلا أنهم لم يتخلَّوا عن المدرسة: وفي بغداد كذلك: وحتى العرب حول الكوفة لديهم مدرسة، وفي تيماء أو اليمن، حيث لم تتوقف المعرفة في وقت النبي جرمايا. وحتى هذا اليوم لديهم مدراس مشهورة: في زبيد وصنعاء والحُديدة واللُّحَيَّة. وفيما يتعلق باليهود، سأذكر فقط أنه في مدينة صفد، حيث عاش سيمون بن يوحي الكبير، الذي صنَّف كتاب زُهار(١)، وغيره من الذين جمعوا التَّلمود، لا تزال هناك مدرسة مشهورة. وفي يزد في فارس، وهي المركز السابق لتعلُّم الزرادشتية، لا تزال اللغة الزرادشتية تُدَرَّس هناك.

---

(١) كتاب الزهار: هو في القَبَالة اليهودية، أو التصوُّف اليهودي، ويُنسب إلى الحاخام Shimon bar Yochai الذي كان حياً في القرن الثاني الميلادي.

وفي مَرْوَ، يُسمح لكل اليهود الذين أُجبروا على اعتناق الإسلام في أجزاء أخرى من فارس، بالعودة إلى ممارسة شعائرهم القديمة.

غير أن هناك حقيقةً جديرةً بالملاحظة؛ هي أن بعض اليهود في مرو، ممن آمن بالدين الإسلامي، وأصبحوا تركماناً، ويهوداً آخرين في خيوه، رغم بقائهم على يهوديتهم، قد تداخلوا بالزواج مع الأوزبك. ألا يدهشنا أن يتمتع اليهود بحماية هائلة من سكان الصحراء الأجلاف؟! ولهذا فإن اليهود، الذين مُورِس ضدَّهم الطغيان في بخارى وفارس، كانوا يهربون إلى سكان الصحراء، في مرو وسَرْخَس وأخول، وإلى الهزارة في أفغانستان. والأمر نفسه حدث في المغرب، حيث يهرب اليهود - في الغالب - من طغيان الإمبراطور إلى سكان الصحراء في تافيلالت. وفي بلاد الرافدين يهربون من بغداد والموصل إلى اليزيديين الأجلاف، في جبال سنجار[1].

وقبل أن أواصل حديثي هنا، لديَّ بضع كلمات أودُّ أن أقولها عن حملات جنكيز خان في تلك المناطق: هاجم جلالُ الدين بن علاء الدين محمد، ملك أوركنج أو خيوه، جنكيز خان؛ ولذلك زحف جنكيز خان العظيم من مدينة تركستان أو حضرة سلطانية، أولاً إلى خوقند وسمرقند وبخارى وبيكند وجسمان دو وآلات وجهار جو ورافيتاك؛ ومن هناك إلى حدود قزوين، في بلاد خراسان.

---

(١) بعد خمسين عاماً من نشر هذا الكتاب ساعدت دعاية وولف وغيره على إصدار كتيب بعنوان «دولة اليهود.. محاولة لحلٍّ عصريٍّ للمسألة اليهودية»، وقد طُبع ونُشر في خمس لغات وتضمن القواعد التي تقوم عليها الصهيونية في صورتها الجديدة، والتي تهدف إلى جمع اليهود في دولة خالصة لهم. استهلَّ هرتزل نشاطه بالدعوة إلى عقد مؤتمر يضم ممثلين لليهودية الأوروبية بمدينة بازل السويسرية. وفي العام ١٨٩٧م انتُخب رئيساً للمؤتمر، فرئيساً للمنظمة الصهيونية. وهذا المؤتمر هو الذي أصدر «برنامج بازل» المشؤوم الذي تَوَّجَهُ وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور بوعده المشؤوم.

وهذا يقودني الآن إلى الحديث عن السؤال الذي يثار كثيراً في إنجلترا: هل سيتمكَّن الروس من الزحف إلى الهند من ذلك الطريق؟ ولكون الكثير من الناس مثل ماكدونالد كينير وآخرين ضدي، والذين يعدُّون ذلك بعيد الاحتمال، ولكوني لا علم لي بالأمور العسكرية، وربما لا أُعد خبيراً مؤهَّلاً؛ إلا أنني برغم هذا، لا بد أن أقدِّم رأيي الواضح، بأنني أعتقد أن الروس يمكنهم الزحف بسهولة كبيرة عبر تلك البلدان.

وسوف يسأل سائل: لماذا لم يتمكنوا من فعل ذلك في عام ١٨٣٨م وعام ١٨٣٩م، عندما عزموا على الزحف إلى خيوه؟

وأجيب على ذلك بالقول: من أجل ألا يورِّطوا أنفسهم في حرب مع ملوك خوقند وبخارى وشهر سبز، لذا عزموا على أن يجعلوا طريقهم عبر الصحراء من أورينبورج إلى خيوه. ومن المحتمل كذلك أنهم فعلوا ذلك كي يُظهروا لإنجلترا أنهم ليس لديهم خطة تجاه بخارى وخوقند، ولكن فقط لكي يثأروا للإهانة التي لحقت بهم من خيوه. غير أنهم إذا ما عزموا على جعل أنفسهم أسياداً على هذه البلدان، فلا شيء أسهل عليهم من الزحف من حدود روسيا إلى مدينة حضرة سلطانية أو تركستان، ومن هناك إلى خوقند، وببضعة آلاف من الجنود يضمُّون سمرقند وبخارى إلى سلطتهم؛ ولكون الناس ساخطين على حكوماتهم الخاصة، فلن يطلقوا طلقة رصاص واحدة.

ولا شيء في هذه البلدان يمكنه مقاومة سلاح مدفعية وسلاح فرسان مدرَّب تدريباً جيِّداً؛ ويمكن للجيش أن يزحف إلى خوقند وإلى كاشغر، وكشمير، ومن هناك يمكنه النزول إلى لاهور والهند. ولن تُطلق طلقة واحدة؛ لأن أهل كشمير سوف يستقبلونهم بأذرُع مفتوحة، وفي لاهور سيلاقيهم الجيش البريطاني، ومن ثَمَّ فالأقوى سيفوز بها.

وهناك أيضاً، سيعتمد الكثيرون على ما إذا كان الناس في البنجاب موالين لإنجلترا أم غير موالين، أم إنهم قد ينطلقون من خوقند إلى قُندز وخولوم، ومن هناك إلى بوت باميان؛ وإذا احتفظوا بأصدقاء ووعدوا بتحرير القزل باش من عبودية دوست محمد خان وأكبر خان، سيحصلون على كثير من المساندين. ولأن القزل باش في أفغانستان تم التخلي عنهم بشكل يدعو إلى الخجل من قِبل الجيش البريطاني بعد تراجع اللورد إلينبورو، فإنهم بالتأكيد سوف ينضمُّون إلى الروس.

وهنا يجب أن أنبِّه على أنه في اللحظة التي سمعت فيها أن الإنجليز قاموا بغزو أفغانستان، كتبت من هويلند العليا - حيث كنت مساعداً للقس كرستوفر بيرد - إلى اللورد هيل، القائد العام للجيش، وأخبرته بأنه إذا لم يُبْدِ الإنجليز قرب كابل ما يكفي من الحذر، فقد يقطِّعهم الجبليون إرَباً. وهذا ما حدث. ولكني أقول، رغم أنني أعدُّ الحرب عملاً بذيئاً من الصَّفاقة بمكان، إنه كان على اللورد إلينبورو أن يأمر القوات بالتوقف هناك مدة خمس سنوات بعد أن أخضعوا كابل وغَزْنِي. وكانت صرخة الشعب الأفغاني عند رؤية عودة الإنجليز: «إن هؤلاء الإنجليز مثل الطيور الطائرة في الجو؛ لا يمكن عمل شيء معهم، فخطرهم بعد الهزيمة أكثر مما هو بعد النصر؛ يجب أن نستسلم». ولو تمَّ ذلك لجدَّدَ القزل باش كذلك شجاعتهم، ووقفوا معهم وقفة رجل واحد؛ ولتمكنَّا بذلك من ترسيخ النصرانية بينهم؛ ولكننا بالانسحاب المفاجئ تَرَكْنا القزل باش المساكين فريسةً لانتقام الأفغان. وكما أثبتت لي رسالة ميرزا علي نَقي الواردة من شكسبير. لقد ساعد ميرزا علي الإنجليز بأفضل ما يكون من شهامة في استرداد السجناء في بوت باميان، فكوفئ على ذلك مع الآلاف من القزل باش الآخرين، بالاستجداء.

هناك أيضاً شكوى عالية النبرة في جميع أنحاء أفغانستان؛ تقول: إن الإنجليز لم يُحسنوا التصرُّف تِجاه نُوَّاب جبار خان، أخي دوست محمد خان، الذي كان أكبر صديق للإنجليز قبل الحرب؛ إلى درجة أنه حتى هذه اللحظة يسأله دوست محمد خان بصورة مستمرة مازحاً: «والآن، يا أخي، كيف حال أصدقائك الإنجليز؟».

وعلى أية حال لا بد من الاعتراف بأن اسم الرجل الإنجليزي، بالرغم من ذلك، محترم في أنحاء أفغانستان وخراسان كافة، كما قيل، ولا يزال الكثير من سادوسيز *Saddoo-Szeyes* يتوقّعون استعادة عرشهم بتأثير من إنجلترا.

كذلك يجب أن نلحظ أن الروس لديهم سفن بخارية في قزوين، وقد بنوا حصناً على الشاطئ، غير بعيد من خيوه، حيث يمكنهم إنزال قواتهم بكل سهولة؛ عندها لا يمكن لأي قوة أن تمنعهم من الاستيلاء على خيوه، وعندما تسقط في أيديهم، فقد يزحفون إلى بلخ بكل سهولة. ولن يحلم الأوزبك ولا الهزارة بمقاومة الجيش الروسي. وهكذا يمكنهم المواصلة تجاه الهند، كما بينت سابقاً.

أما الطريقة الأخرى لتقدُّم الروس تجاه الهند؛ فهي عقد تحالف مع آصف الدولة بعد وفاة الملك محمد شاه، والزحف معه عبر بلاد الهزارة وميمنة وأنخوي تجاه كابل. ويجب ألاَّ يخفى أن آصف الدولة أكثر ميلاً إلى الروس منه إلى الحكومة الإنجليزية؛ لأن الروس يهتمُّون به أكثر من الإنجليز، وكان قد أثار استياءَه - على وجه الخصوص - عدمُ الرد على الخطاب الذي أرسله من طريقي إلى سُمُوِّ دوق ويلنجتون. ويمكن كذلك تأكيد أن أعضاء الأسرة المالكة في فارس يميلون إلى روسيا أكثر من ميلهم إلى إنجلترا؛ بل كل مَنْ هم في السلطة تقريباً، بينما يفضل عامة الفُرس إنجلترا. وليس لديَّ أدنى شك في

أن أحد الأسباب التي تجعل مَنْ هم في السلطة غاضبين من إنجلترا، إنما هي الهدايا التافهة التي يحصلون عليها من الحكومة البريطانية، باقتراح من الكولونيل شيل. وكأمثلة على ذلك، أذكر فقط هذه النماذج الثلاثة:

أولاً: أرسل آصف الدولة مرتين إلى ملك بخارى هدايا تصل قيمتها إلى خمس مئة تومان؛ منها مرة من طريق حسن بابا الذي أرسله آصف الدولة إلى بخارى، قبل وصولي إلى مشهد بأحد عشر يوماً؛ والثانية من طريق دِل آسا خان، الذي صحبني إلى بخارى. ومما أثار اشْمِئْزازي الشديد، بعد عودتي إلى طهران، ما أخبرني به الكولونيل شيل؛ من أنه اقترح على الحكومة البريطانية أن يقدموا ساعةً هدية لآصف الدولة.

ثانياً: عباس قولي خان، الذي عاملني بكرم بالغ، كما سأبيِّن، تمت مكافأته بساعة، حيث عُدَّ ذلك كافياً؛ غير أنه سرَّني أن أعلم أن الحكومة قدمت إليه خاتماً من الألماس هدية.

ثالثاً: أرسل الكولونيل شيل معي ساعة فضِّيَّة وقطعتين من الملابس، كلاهما لا يساويان أكثر من ستة جنيهات، الأمر الذي أثار غضب ملك بخارى.

الفصل السابع

مغادرة مرو. خطاب إلى الكابتن جروفر. أمير ساروق. تصرُّف دِل آسا خان الوضيع. التخوُّفات الجادة من موت ستودارت وكونولي. أسلوب العقوبة الكبرى يتغير في بخارى من الشَّنْق إلى قطع الرأس. الدكتور وولف يتعرَّض لإنذار جادّ حول سلامته، ويتبنَّى إجراءات طبقاً لذلك. خطابات السلطان والسير موسى مونتيفيوري لم تُقدَّم إلى الأمير من محمد علي صرَّاف، بأمر من الكولونيل شيل. سلوك اللامبالاة للكولونيل شيل لا يخدم المصلحة البريطانية في فارس. خسرو خان. الدكتور وولف يفكِّر في الموت. خطاب من كالجا في الصحراء إلى أصدقائه؛ يكتب عن هذا المكان إلى «أخيار أوروبا». سقوط الثلج. حديث في الصحراء مع التركمان؛ وصفهم لتيمور كوركان. أهرامات تيمور من الجماجم البشرية، حب الحقيقة، القوة البدنية، شخصية عنيدة، الموت، اعتقاد يهود زمانه من شخصيته الحربية بأنه المسيح. نادر شاه. الطريق: رافيتاك. الدكتور وولف ينجو من الموت في غزوة أهل خيوه. انتشار خبر موته. جهار جو. سلوك أمير ساروق السخيف؛ وأمنيته أن يضيف زوجة رابعة إلى حريمه التي تقاومها الثلاث الأخريات. دِل آسا خان وأتباعه يسرقون الدكتور وولف. شاه قمران. يار محمد خان يقتل ملكه شاه قمران. سلوكه الغادر تجاه الدكتور وولف: يرسل ثلاثة سفراء إلى أمير بخارى، مطالباً الأمير بقتل الدكتور وولف، ولكنه يتصنَّع الميل إليه. دِل آسا خان خادم يار محمد خان. دِل آسا خان كان قد هرب من يار محمد خان وأصبح خادماً لآصف الدولة. خطاب من الدكتور وولف من جهار جو إلى أمير بخارى. زيارة من يهود بخارى يخبرون فيها الدكتور وولف عن الخطر المحدق به، ويعرضون عليه الهرب إلى أوركنج، ويخبرونه عن موت ويبورد وستودارت وكونولي وخمسة إنجليز آخرين. أحد الدراويش ينصحه بالمتابعة.

في الرابع عشر من أبريل تركت بيت الخليفة الرائع الطيب بكثير من الأسف، وتوغَّلت في الصحراء مسافة اثني عشر ميلاً، حيث كتبت الرسالة الآتية خِلْسَةً قدر ما استطعت، إلى الكابتن جروفر:

الخامس عشر من أبريل ١٨٤٤م:

في صحراء مرو، اثنا عشر ميلاً من منزل الخليفة، في خيمة أمير ساروق.

عزيزي جروفر،

غادرت بالأمس منزل الخليفة، حيث كتبت إليك قبل يومين. علمت هنا، من خلال مضيفي، وهو تركمانيٌّ جدير بكل احترام، أن ملك بخارى استاء كثيراً؛ حيث أمرت الملكة حاكم الهند العام بالإجابة على خطابه. ومن المؤكَّد أنه لم يحدث إعدام عَلَنِيٌّ للضابطيْن؛ غير أنه من المؤكد كذلك أنهما إن كانا أحياءً، فهما في السجن خلف حريم الملك. وأنا أتقدم بثقة نحو بخارى، وسوف أكون في جهار جو، أو شار جو، بعد يومين. وإذا لم يوقفني الملك، ففي غضون ثلاثة أيام زيادة على اليومين، سأكون في العاصمة. وإذا وجدتهما حيَّيْن، فحسنٌ؛ وإذا لم أجدْهما كذلك، وإذا ما سقط رأسي، عندها ابذُلوا كلَّ ما في وسعكم لافتداء ٢٠٠,٠٠٠ من الأرقَّاء الفُرس في مملكة بخارى. لا أستطيع كتابة المزيد، لأن التركمان يجلسون بالقرب مني على الأرض. لقد أصبحت مرو خاضعة لبخارى، وفي غضون أيام قلائل سوف يصل حاكم من بخارى إلى هنا.

جي. وولف

الخامس عشر من أبريل: أمضيت يوماً جميلاً في خيمة التركماني أمير ساروق. وسقط ثلج أكثر من المعتاد سقوطه في هذا الوقت. وقد ازداد دِل آسا خان سوءاً. ورغم أن آصف الدولة أرسله ليحميني من ابتزاز التركمان، إلا أنني اضطُرِرْت إلى أن أستنجد بهم لحمايتي منه. وقد أرسل صديقي آصف الدولة

ثلاثةً من رجال حاشيته من أجل تهديده وتحذيره. ولو أن آصف الدولة تمكن منه في أيٍّ وقت، فلن أدفع بارة واحدة لإنقاذ حياته. وقد أرسل خليفة مرو معي كذلك قريبَه أمير ساروق، الذي سيواصل السير معي إلى ملك بخارى.

لقد بدأت الآن، للمرة الأولى، أتخوَّف بجد من مصير ستودارت وكونولي؛ حيث وجدت، من خلال السؤال المتكرر، أن أحداً لم يَرَهُما في بخارى، وأن تقرير غريزي، القُنْصُل في طرابزون، القائل إن عبدالصمد خان هو الكولونيل ستودارت، غير صحيح. فعبدالصمد خان فارسيٌّ، وُظِّف في سلاح المدفعية، وسمّاه أهل بخارى «فرنجي». ووجدت كذلك أن الشاب الأوروبي الآخر الذي معه، ليس كونولي، ولكنه جيوفاني، فنِّيُّ ساعات إيطالي، قبض عليه ملك بخارى في خوقند، وأحضره إلى بخارى. وقد تحوَّل هذا الإيطالي إلى الدين الإسلامي، الأمر الذي ربما حَدَا بالبعض إلى الاعتقاد بأنه يتشابه مع كونولي.

على أية حال، لم أجد أيَّ أوروبي أو آسيوي، شاهد عملية الإعدام. وكل الأوروبيين الآخرين، أمثال يوسف خان، أُعدِموا عَلَناً. ولم أستطع إلا أن أعتقد بأن هناك مسكيناً آخر اسمه يوسف، قد يشارك عاجلاً مصير سَلَفه المُبَجَّل. وعلمت كذلك أن الملك قد تخلَّى عن الإعدام بالشنق - وكان ذلك عزاءً لي؛ فلديَّ كراهيةٌ غَرِيزية تجاه الشنق - وقد استُبدل الذبح بسكِّين بالشنق. لم تكن هذه هي الحال عندما كنت في بخارى في المرة الأولى. وبهذا الخصوص فقط كان صالح محمد محقّاً في تفصيلاته.

وكتبت، في حال حدث لي خطبٌ ما، عالماً بأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي سيكون له أثر في زوجتي، لأقول إنه لا يوجد ما هو أقلُّ من توقيع جلالة الملكة بيدها على خطاب موجَّه إلى ملك بخارى يمكن أن ينقذني. فمن الواضح أن الرجل شعر بإهانة كبيرة من عدم الإجابة على خطابه الذي كتبه بواسطة

ستودارت إلى الملكة بخطاب مرفق معه توقيع بيد الملكة. وكتبت كذلك مطالباً أصدقائي الحصول على خطاب مماثل من إمبراطور روسيا. وأكَّدتُ لهم أيضاً ألاَّ يرسلوا أي خطاب من الملكة إلى ملك بخارى من طريق مشهد؛ فربما لا يكون المُلا مهدي هناك عندما يصل الخطاب، والوكلاء المسلمون الفرس إما جبناءُ، وإما أنذال، ولكن عليهم أن يرسلوه لعناية السفير البريطاني في سانت بطرسبرج، والذي قد يعهَد به إلى الكونت نيسلرود؛ كي ينقله عبر أورينبورج إلى بخارى بواسطة أحد القازاق.

أعلم أنه لو وقع الخطاب بين يدي محمد علي صرَّاف، فإن موتي سيكون محققّاً؛ ذلك أنني وجدت - كما ذكرت قبلاً - في معيَّة ذلك الوغد، الخطابَ الذي كتبه السلطان نفسه قبل سنتين إلى ملك بخارى، وآخرَ من السير موسى مونتيفيوري موجَّهاً إلى يهود مشهد. وعندما سألته: لماذا لم ترسِل الخطابات بواسطة رسول عاجل؟ قال: «هذه خطابات الكولونيل شيل، التي يخبرني فيها ألاَّ أرسلها بواسطة رسول عاجل، ولكن في فرصة مُواتِيَة». وتحيَّرت في تخمين دوافع الكولونيل شيل. ولعلَّ محمد علي صرَّاف قدَّم له تلميحات لم أفطن لها، أثَّرت فيه ليتَّخذ هذا المسلك الغريب.

ويجب التنبيه على أن الكولونيل شيل لم يكن سفيراً، ولكنه قائم بأعمال السفارة، الأمر الذي ربما جعله لا يتمكَّن من العمل حسبما يراه، ولكن انطلاقاً من التعليمات الصادرة من الحكومة البريطانية. وإنه ليؤلمني أن أنطق كلمة واحدة معنِّفاً الكولونيل شيل، الذي استقبلني ألطف استقبال في طهران، إلا أنه يجب عليَّ، من منطلق إحقاق الحقِّ، أن أبيِّن أن انعزاله ومزاجه البارد شكَّلا حاجزاً كابحاً لأهل فارس، وحتى للأوروبيين، دون التقرُّب إليه. إن الأمر مختلف جداً عما شهدته في طهران من السير هنري ويلُّوك عام ١٨٢٥م، ومن السير جون كامبل والسير جون ماك نيل عام ١٨٣١م. ففي ذلك الوقت كانت السفارة

البريطانية ملتقى الرجال الكبار في فارس، ولكنها أضحت الآن، كما عبَّر عنها الفرنسيون في فارس: «صَوْمَعَة الإنجليز». ولكي أبين ذلك أقصُّ الحكاية الآتية:

زارني خسرو خان، أحد كبار خِصْيان ملك فارس، وكنت قد رأيته مراراً بصحبة السير هنري ويلُّوك والسير جون ماك نيل في زيارتي الأخيرة لطهران، عندما كنت في طريقي إلى بخارى. وعندما همَّ بالمغادرة التفت إليَّ وقال: «أَوَّهْ! هنا كان يعيش في السابق أصدقائي: ويلُّوك صاحب، وأوسلي صاحب، وماك نيل صاحب، وكامبل صاحب، وقتها كنتُ أعُدُّ السفارة البريطانية منزلي، غير أنني الآن غريب هنا». ويمكن أن يُذكر أمران دفاعاً عن الكولونيل شيل:

أولاً: هو مصاب بداء الكبد، ويهاجمه داء المفاصل بصورة مستمرة، الأمر الذي قد يَحُول دون ابتِهاجه.

ثانياً: كون رئيس الوزراء الحالي، الحاجي ميرْزا أقاسي، غيوراً جداً من الإنجليز، ولا يحب أن يزور الفرسُ السفارةَ البريطانية؛ إلا أن هذه هي الحال مع السفارة الروسية، ومع ذلك رأيت الأخيرة مملوءة باستمرار بالفرس، بينما الأولى مهجورة.

وذكَّرت كل أصدقائي كذلك بأن يتقبَّلوا موتي، إذا ما حدث، على أنه إرادة الله، وأن ليس مِنْ شك أنه ستتبع منه نتائج جيدة؛ إذ إنني سأموت مؤمناً إيماناً كاملاً بابنه المسيح الكامل القدسية، وبأمل بهيج بانبعاث العدل.

كتبت هذه الملحوظات الموجزة لهم تحت سقف خيمة، ولأنني لم يكن لديَّ وَرَق كتابة، فقد كتبتها على قصاصات من دفتر مذكِّراتي، في مكان صحراوي يسمى كالجا، بين مرو وجهار جو على بعد مئة ميل في عمق مملكة بخارى، في السادس عشر من أبريل ١٨٤٤م. وكنت حينها على بعد ثمانين ميلاً فقط من العاصمة الخطيرة التابعة لملك بخارى.

وفي هذا المكان رافقتني قافلة مكوَّنة من أناس من بخارى وخوقند وطاشقند وهراة. وفي كالجا تلقَّيت من اليهودي مُلاًّ صفي «حَمَلاً» هديةً، وكنت سعيداً بإرسال المراسلات التي ألمحتُ إليها، مع التركماني الذي أحضر الهدية، مع المحبوب ما يخص المحبوب بلدي الثاني إنجلترا، وكذلك الخطاب الآتي:

إلى محسني أوروبا

(مرسل من مرو)

أصدقائي الأعزَّاء.

أنا الآن أتقدَّم نحو بخارى، المدينة التي بيني وبينها مسيرة سبعة أيام فقط. وقريباً أعرف ما إذا كان ستودارت، وكونولي، وكذلك الفارس ناسللي أمواتاً أم أحياءً. والشائعة الرائِجَة في صحراء مرو هي أنهم أُعدِموا، كما أكد لي التركمان أنني سوف أشاركهم مصيراً مشابهاً؛ ولذلك نصحوني أن أتَّجه إلى خيوه، ولكنني مصمِّم على المُضيِّ قُدُماً مادام هناك أدنى احتمال في وجودهم أحياءً، أو ربما وجود أوروبيين آخرين. وإذا ما قُطع رأسي، فإنه يُقطع لسبب وَجِيه. ويجب أن يكون النصارى مستعدِّين لفداء إخوانهم: كما فعل المسيح. أنا لا أدعوكم للثأر لموتي، في حال سمعتم أن رأسي قد قُطع، ولكن تذكروا شيئاً واحداً فقط: أن ٢٠٠,٠٠٠ عبد من فارس يئنون في مملكة بخارى. فيا محسني أوروبا، قوموا بمحاولة جادة لافتدائهم، وفي الوقت نفسه لحمل مِشْعَل الدين النقي والحضارة إلى بلاد تيمور وجنكيز خان، وسوف تصيح عظامي في القبر بأنني كنت الأداةَ المتواضعة في إثارتكم، يا محسني أوروبا، لتحملوا مساعيكم الخيِّرة من أوروبا إلى الأكسوس.

جوزيف وولف

سقط الثلج في كالجا بشكل غير معتاد منعنا من التحرُّك ذلك اليوم. وكان ذلك حدثاً جديراً بالملاحظة في شهر أبريل في هذه المناطق. ولقد أطلعني

أحد التركمان في الخيمة على كِيس من العملات الإغريقية والعربية. ومن المدهش أن تسمع هؤلاء التركمان يتحدثون عن بطولات الأسكندر وتيمور كما لو أنها أحداث حديثة؛ فقد قال أحد التركمان، ضارباً الأرض بيده: «هنا ولد تيمور كوركان (كما يسمى تيمور لنك هنا)، وقد عَبَرَ من هذا المكان لعقاب خان خوارزم في أوركنج. وكيف عاقبه بقسوة! لقد صنع هَرَماً في أوركنج من جماجم الرجال ثُبِّت بالطين؛ ولم يترك أحداً، سوى أولئك الدراويش المقدَّسين والعلماء والشعراء، الذين جَعَلَ حول بيوتهم حرَّاساً. وقد أتى إلى صحراء مرو تسع مرات؛ وعاد تسع مرات ببهجة النصر إلى سمرقند. كان شَعْره أبيضَ منذ طفولته، وكانت له قوة في بدنه، يستطيع معها أن يذبح رستم[1]؛ وكان متمتعاً بإرادة قوية تجعله يكبت أدق مشاعره. يحب الحقيقة كثيراً، فعندما يخبره شخص بكِذْبة بقصد الترويح عنه، فإنه يمزِّقه إرباً، وعندما يخبره شخص ما بحقيقة، ولو كانت غيرَ مُرضِيةٍ له، فإنه يكافئه بالذهب. عند موت ابنه، الذي أحبَّه بكل تفانٍ، رفع عينيه إلى السماء، وقال كلمة من القرآن: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

بعد ذلك استدار إليَّ تركماني آخر، وقال: «لقد ذهب كذلك إلى بلادكم، يا جوزيف وولف، (يعني بلاد الروم، تركيا)، حيث سجن بايزيد وأحضره في قفص إلى سَمَرْقَنْدَ. وقد جُرِح مرة واحدة فقط، وكان ذلك في بلاد سيستان، ما جعله أَعْرَجَ؛ ولهذا السبب استمدَّ اسم تيمور لنك، أي تيمور الأعرج. وكانت الحدائق التي شيَّدها في سمرقند لا تُعد، وكان بلاطه يعجُّ بالمتعلِّمين من بلاد الخطا، مع الفقراء[2] من هندوستان، مع العلماء من الروم. وأصبح

(١) رستم: البطل الشجاع الأيِّد بالفارسية.

(٢) يريد: الصوفية والدراويش.

اليهود والزرادشتيون والقازاق وسكان بلاد الروس، ضيوفَه. وقد ولد الرجل في شهر سبز، وفي طريقه إلى الخطا لإخضاع بلاد تشين - با - تشين(١) بكاملها، شاء القدرُ ألاَّ يتم ذلك؛ فمات في أنزو، ولكنه دفن في سمرقند في قبر رائع».

وكان الملا صفي اليهودي حاضراً، فقال: «كان أجدادنا، الذين أحبَّهم تيمور لنك كثيراً، الأمر الذي أثابه الله عليه بالكثير من القوة، قد اعتقدوا أنه المسيح؛ وعندما عاد إلى سمرقند خرجوا للقائه حاملين سِفْر التوراة بيد وسعف النخيل باليد الأخرى، وكانوا ينشدون: «نَتَضَرَّع إليك يا ربّ، أنقذنا! نتضرع إليك يا رب، نتضرع إليك يا رب أن توفِّقنا!».

بعد ذلك بدأ أحد الدراويش الحاضرين في الخيمة الحديث عن نادر شاه، ابن أحد صانعي معاطف الفراء، الذي كان جبَّاراً في المعركة ونمراً في الحرب. كان نادر شاه في مرو، وزحف إلى الهند، وأرسل ستة آلاف رجل إلى رافيتاك لحفر الآبار. وقد قام بإجراء تعداد للتركمان، كما قام بإحصاء السكان في كل بلد يجتازه. وكانت قبيلة سالور، في مخيم يولاتان (التي تبعد ستة أميال من مرو) هي الأقرب إليه. وقد أعطى التركمان مقاديرَ من الذهب، بسببها قاموا بمعاونته في زحفه. وقال أحد التركمان: «هكذا يجب أن يفعل الإنجليز، كما فعل نادر شاه؛ عندما يريدون أن يُخضِعوا خيوه وبخارى. يجب عليهم إطعامُنا - نحن التركمان - فنحن لا نهتمُّ بمن يحكم، نحن مع الفريق الأقوى».

ومن كالجا وصلنا إلى رافيتاك، وقد أمضينا ثلاثة أيام من دون ماء حتى وصلنا إلى هناك. ويوجد في هذا المكان أربعة آبار؛ بئران منها تحويان مياهاً مُرَّة، وبئران تحويان مياهاً عَذْبَةً، ولكنها عميقة جداً، وبلغ عمقها أربعين قَدَماً،

---

(١) يريد: بلاد الصين.

وقد طمرها التركمان بالرمل والحجارة. وعندما أقبلنا على رافيتاك، سمعنا من بعض الهاربين شائعةً مخيفةً بأن أهل خيوه هم بالقرب منا، وأنهم يزحفون بستة آلاف رجل تجاه مرو. وعندما سمع أمير ساروق وقاهر قولي، مصاحباي التركمانيَّان، هذه الشائعة صاحا: «الله، الله، الله! سيجعل خيام مرو ترتجف». الأمر الذي ذكَّرني بكلمات في حبقوق[1]: «خيام كوشان ترتجف»، لكن لحسن الحظ لم يأت أهل خيوه ذلك اليوم، ولكنهم أتوا إلى رافيتاك بعد يومين، وضربوا القافلة التي لحقت بقافلتنا ضربة قوية. وعلمتُ فيما بعد، في خطاب من آصف الدولة تلقَّيته في بخارى، أن شائعةً انتشرت في أرجاء خراسان بأنني قُتِلت على أيدي أهل خيوه، الأمر الذي جعل معاليه يرسل رسولاً عاجلاً إلى سَرْخَس، للتأكد من حقيقة ما أُشيع.

ومن هذا المكان وصلت إلى جهار جو، وأنا في غاية الضيق من المنغِّصات التي يضعها في طريقي ذلك اللئيم دِل آسا خان. وإلى جانب ذلك، كنت مُتسلِّياً، وفي الوقت نفسه منزعجاً، من ذلك الغبي الساذج أمير ساروق، الذي سُمِّي كذلك؛ لأنه ولد في اليوم نفسه الذي ولد فيه الأمير السابق لبخارى. فهذا الرفيق الساذج، رغم أنه تجاوز الستين عاماً من عمره، كان يبكي ويَنْدُب قلة حظه في الحب. وقد قال: «لديَّ ثلاث زوجات، وأتمنى أن أتخذ رابعة، وكان يمكن أن أنجح في زواجي بها لو لم تتآمرْ عليَّ زوجاتي الأخريات، ولو لم يطلب والدا تلك المرأة الجميلة ذلك القدر من المال. وسوف أضطر في النهاية إلى شنق نفسي».

لقد قام الكريه دِل آسا خان بقتل أحد التجَّار في منزله، وسَلَبَه جميع ما يملك. كما استولى، هو والأوغاد الذين يرافقونه، على الشاي والسكَّر والتموين

(١) أحد أسفار التوراة.

الذي أحضرته معي من مشهد، بالقوة، وباعوه لأصحاب القافلة، ثم أجبروني على أن أعطيَهم نقوداً لشراء الأغنام والمؤن الأخرى، ثم استولوا عليها لأنفسهم.

ومن سَرْخَس أرسلت تركمانياً آخر على عجل إلى آصف الدولة كي يستدعي دِل آسا خان؛ فوصل إلينا خيَّالٌ ثانٍ، بعد وصولنا إلى مَرْوَ، مهدِّداً دِل آسا خان بأن آصف الدولة سوف يدمِّر منزله ويسجن أسرته، إذا لم يُحسِّن من سلوكه معي. وكتب معاليه بأن الأوان قد فات على استدعائه، وأنه سيكون مفيداً جدّاً لي في بخارى، وقد أرسل إليَّ نسخةً من الخطاب الذي وجهه إليه.

وهذا الرجل: دِل آسا خان، لكونه مروزيّاً (من مرو) وسُنّياً، فقد اعتقد آصف الدولة أنه سيكون ذا نفع لي في بخارى. هؤلاء المروزيون أكثر القبائل خِسَّةً، ويشتهرون، حتى بين التركمان، بالجشع وعدم الأمانة والغدر؛ وأعدادهم كثيرة في بخارى. وهذا الرجل، دِل آسا خان، كان في خدمة يار محمد خان، الذي كان وزيراً لملك هراة، واشتهر بسُمْعة سيئة؛ لتجارته في النخاسة. والآن سوف أضيف القليل من التفاصيل عن سيِّده يار محمد خان:

كان الشاه قمران، من السادوسزي، السلالة الملكية الحاكمة في أفغانستان، ملكاً على هراة. وكان وزيره الذي يؤدِّي المهمات كلها يار محمد خان، وهو رجل أفغاني ذو موهبة غير عادية، إلا أن صفاته هي الأسوأ؛ فهو سِكِّير وكذَّاب وتاجر رقيق. وكان الشاه قمران يغلب عليه البَلَهُ. وعندما حاصر محمد شاه هراة تودَّد للحكومة الإنجليزية، وعَامَلَ كلاً من بوتينجر ودي آركي تود والكولونيل ستودارت، بلطف بالغ. لكنه حالما رُفع الحصار، ارتبط بمعاهدة مع آصف الدولة في مشهد، وهدَّد دي آركي تود بالموت إذا لم يعطه مبلغاً كبيراً من المال. وقبل سنتين فقط أَعْدَم بكل غلظة ملكه المحسن إليه وسيِّدَه الشاه قمران. ويُمضي الآن أيامه ولياليَه في العَرْبَدَةِ، ومن أجل أن يُوْجِدَ شعبيةً له بين الأفغان في هراة، سمح لهم بصنع النبيذ وشربه. وتقوم فرق من الراقصات

بالرقص أمامه لأيام كاملة، كما قام - مؤخراً - بعقد تحالف، بواسطة الزواج، مع دوست محمد خان، أمير كابل، وكوهانديل خان صاحب قندهار.

ولتقديم فكرة إضافية عن شخصيته الغادرة، فقد ذَكَرْت للتوِّ أنه كتب إليَّ خطاباً في غاية اللطف، واعداً إيَّاي أن يرسل لأجلي رسولاً مستعجلاً إلى أمير بخارى؛ كي يقوم جلالته بإرجاعي إلى بلدي آمناً مطمئناً، وبدلاً من ذلك أرسل ثلاثة رُسل إلى بخارى ناصحاً الأمير بإعدامي.

والآن، دِل آسا خان كان خادماً لدى يار محمد خان، وقد فرَّ منه، والتحق بآصف الدولة، فأدخله الأخير في خدمته، وملّكه قرية ناصرية، وجعله زعيماً على المروزيين هناك. ومع ذلك كله، فإن دناءة طبعه كانت غالبة عليه، بحيث كان يجترح الأعمال الخسيسة باستمرار؛ ففي إحدى المرات كان مستأجِراً جمالاً، فحمَّلَني أُجرتها، وفي مرة أخرى أجرة كجاوة أو محفة (هودج) تُربط فوق الجمل. وقد أراد ملا مهدي، من خلال تسجيلها عليه، أن يعهد بها لباشي القافلة أو قائد القافلة، ولكن دِل آسا خان قال: إن القافلة سوف تكون بطيئةً جداً علينا. وأحضر ثلاثة جمال ملِكاً لَه، فاضطررت أن أدفع ثمن أجرتها مضاعفاً.

ويظهر أن ثمانية من المروزيين، من بينهم رجل يُسمى إسماعيل، كانوا بصحبته، يتنافسون مع بعضهم بعضاً في النذالة؛ ففي ماسترون، التي تبعد ستين ميلاً من مشهد، أدركني خيَّال من آصف الدولة، وأجرى اختباراً خاطفاً عن جَشَعهم؛ ولكنهم فور مغادرته، قام دِل آسا خان وإسماعيل بإنزال حمولة أحد الجمال، حيث كانت حقائبي، ووضعاها على أحد جمال قائد القافلة، مع وعد له بأنني سأدفع له مقابل ذلك، وحمَّلوا على جملي، المستأجَر من دِل آسا خان نفسه، بضاعة ذلك الوغد.

لقد ذكرت أن أحد خدمي (رجب) عبَّر عن خوفه من مصاحبتي إلى أبعد من مرو، وبقي هناك؛ إلا أن حسيناً وعبدالله لحقا بي. وقد أرسل معي خليفةُ

مرو اثنين من التركمان، من قبيلة ساروغ. وكان تصرُّف الاثنين في الرحلة عَبْرَ الصحراء جيداً بمعنى الكلمة، وبات التركمان، الذين اصطحبت دِل آسا خان ليحميني منهم، حمايةً لي منه. وهكذا وصلنا إلى جهار جو، أول مكان يقع ضمن سيطرة أمير بخارى.

جهار جو تعني: «أربع سواقٍ». وكان مكاناً ذا أهمية بالغة، فقبل أربعة عشر عاماً كان يقطنه زهاء ٢٠,٠٠٠ نسمة؛ غير أن الغزو المتكرر والسلب من أهل خيوه جعل عدد السكان يتناقص إلى قرابة الألفين، يعيشون في ذُعْرٍ متواصل. ولديهم حصن، قلعة، إلا أن الأوزبك لا يستطيعون الاستفادة من المدفعيات الموجودة فيه، ويخشى الأمير أن يرسل الرقيق الفرس، الذين تعلَّموا فن المدفعية تحت إشراف ضابطه عبدالصمد خان إلى هناك؛ بل إنه لا يثق بعبدالصمد خان نفسه كَيْ يرسله إلى جهار جو؛ لخوفه من أن يقوم الفرس برشوته.

ومن ذلك المكان أرسلت خطاباً إلى ملك بخارى، كما أرسلت آخَرَ إلى حاكم جهار جو، مبيِّناً بالتفصيل الغرض من مهمتي:

إلى أمير المؤمنين ذي الشهرة والقوة العظيمة، ملك بخارى، الأمير نصر الله بهادر، حفظه الله!

ليعلم جلالتكم، أنني أنا جوزيف وولف درويش النصارى المعروف جيداً في إنجلترا، الذي جَابَ سورية وفارس ومصر وبلاد الرافدين واليمن وبلاد الهند، وحظيت بصداقة محمد علي، باشا مصر، وشيخ الإسلام في إستانبول، وأكبر شاه في دلهي، والخليفة في مرو، ومحمد شاه نقشبندي في كشمير، والمرشد الأكبر في تركستان، وعباس ميرْزا في فارس، والشاه الحالي لفارس. وقد زرت بخارى قبل اثني عشر عاماً، ثم خرجت منها، بعد أن نعمت بكرم جلالتكم لأكثر من شهر، ومعي جواز لطيف من جلالتكم فحواه:

«جرى المرسوم من المقام العالي بأن جوزيف وولف، الإنجليزي، يجب أن يعود

إلى بلده، وفي طريقه عبر هذه الأراضي الخاضعة لنا، يجب ألا يضع أحدٌ عائقاً في طريقه إن أراد دخول أي مكان أو الخروج منه. ومن يقرأ هذا عليه السمع والطاعة».

وقد أُطيعَ أمركم؛ حيث كان أمر جلالتكم قوياً، واستُقبِلْت استقبالاً جيداً في بلخ وفي مسور.

والآن، أنا على وشك الدخول إلى بخارى مرة أخرى، من أجل اصطحاب الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي معي، اللذَيْن أُشِيع في إنجلترا وروسيا وألمانيا وأمريكا أن جلالتكم أمر بقتلهما. ولكنني، لمعرفتي بكرم سكّان بخارى، لم أصدِّق الرواية؛ ولذلك أسترحم جلالتكم، عند وصولي إلى هنا، أن ترسلوا كِلا الرجلين معي إلى إنجلترا؛ من أجل أن تهدأ الثورة التي تحدث الآن في أرجاء أوروبا، وبذلك يمكن ترسيخ صداقة متينة بين جلالتكم وبين الحكومة البريطانية. أما إذا كانا قد قُتلا بسبب جُرم أتى من قِبلهما، فأستميح جلالتكم أن تبينوا لي السبب، وأن تسلِّم لي رفاتهما؛ من أجل أن تُدفن في بلديهما؛ كما يجب أن يعلم جلالتكم أنني كنت مرشداً لكونولي، وأنه كان من مريدي.

وأنا خادم جلالتكم المتواضع.

جوزيف وولف

وقد بيَّن خليفة مرو كذلك أن دِل آسا خان أرسله آصف الدولة إلى بخارى من أجلي فقط. غير أن ذلك النَّذْل كان لديه قدر من الوَقاحة، ومن دون أن يخبرني، جعله يرسل خطاباً إلى حاكم جهار جو، موهماً إياه أنه كان رسولَ آصف الدولة إلى ملك بخارى، بغرض عرض مساعدة الأمير في حربه مع ملك خيوه. بل إنه كانت لديه الصَّفَاقَةُ لأَنْ يقول إنه غير مرتبط بي بحال، ولكنه أتى لغرض مختلف للغاية.

التقطتُ هذه المعلومة السرية من قولي، خادمه الخاص، وأكَّدها عدد من

سكان جهار جو، وكذلك الحاكم نفسه؛ وقد علم بها من الرجل العظيم، خليفة مرو، الذي أخبره بحقائق الأمور، من أن دِل آسا خان كان خادمي، وأن آصف الدولة أرسله لغرض حمايتي فقط. وقد عوملت، بناءً على ذلك، بكل لطف من حاكم جهار جو.

وزارني هنا يهود من بخارى، ومن العجيب أنهم كانوا هم أنفسهم اليهود الذين التقيتهم في جهار جو قبل اثني عشر عاماً. وقد أبدوا سروراً عظيماً لرؤيتي مرة أخرى بصحة جيدة. وبعد أن غادر الأوزبك خيمتي، تحدث معي اليهود قائلين: «جوزيف وولف، جوزيف وولف، جوزيف وولف! أنت ابن للموت حالما تدخل بخارى. فمن أجل الله لا تدخل؛ لا يزال هناك وقت للتراجع. هذه الليلة سنفرُّ معك إلى أوركنج، أو نرسل رجلاً معك إلى هناك، إلى أحد أصدقائنا، فإن ملك أوركنج صديق للإنجليز وكونولي، ولكن من أجل الله لا تتابع السير إلى بخارى. لقد قُتِل ستودارت، وكذلك كونولي، وقبلهما بعدة سنوات أُخذ الملازم ويبورد، الذي كان في طريقه إلى خيوه، وأُحضر إلى بخارى، وأُدخل السجن هناك، وبعد بضع السنوات قُطِع حلقه. كما قُتل خمسة إنجليز عند بوابة جهار جو، قبل عشرة شهور فقط. مسكين كونولي، مسكين كونولي! سُحِب إلى مكان الإعدام، وكانت كلماته الأخيرة: وَيْل، وَيْل، وَيْل؛ كي أفتادام بيداسته ظاليم. «الويل لي، الويل لي، الويل لي! أن وقعت بين يدي ظالم».

وكان قد أخبرني بهذه الحقيقة وصياحه هكذا - من قبل - الملا ناثان اليهودي، عندما كنا في مرو.

وعلى أية حال أجبتهم قائلاً: «سأواصل؛ لا بد أن أتأكد أكثر من هذا الموضوع»، وقد دخل خيمتي في هذه اللحظة درويش، وهو رجل يتواصل مباشرة مع الله، ويحمل لقب بابا، فقال لي: «واصِل، وحقق النجاح!».

الفصل الثامن

الوصول إلى قره قول. خدم الدكتور وولف يتخلَّون عنه. الدوافع لتصرُّف دِل آسا خان. شهر إسلام. صيحات الجماهير على الطريق. وصف أوزبكستان. كافر سياه بوش: لغتهم، عباداتهم، لباسهم. استقبال الدكتور وولف عند دخوله إلى بخارى. أَسطُح المنازل محتشدة؛ الآلاف يشهدون دخوله إلى المدينة، الإنجيل مفتوح في يده؛ يحضر أمام الملك. مقابلة مع المخرم. سؤاله فيما إذا كان سيستجيب للمراسيم المرعيَّة الموافقة لهم عند تقديمه للأمير، يؤمر بإرسال خطابات. يرسل خطابات من السلطان، والشاه، والحاجي، والكونت ميدم، وشيخ الإسلام، وآصف الدولة. الدكتور وولف ودِل آسا خان يُقدَّمان إلى ملك بخارى. الملك يعتقد أن الدكتور وولف شخصية غير عادية، شخص الملك. تاريخ الأمير: اكتساب العرش بمؤازرة حكيم بك، يقتل إخوته جميعاً ما عدا عمر خان. الدكتور وولف يلتقي عمر خان هائماً في صحراء مرو، ويتعرَّف إليه أحد الدراويش. عمر خان يشارك إخوته مصيرهم، ويموت في معركة ضد بهادر خان. يُزعم كذلك أن الأمير قتل والده. تاريخ حكيم بك: يصبح قوش بك، يرفع من شخصية الشعب. عبدالصمد خان يحل محل حكيم بك تفضيلاً لدى الملك، مع أنه الذي رفع عبدالصمد من مقامه الوضيع. سجن الملازم ويبورد: القوش بك يتوسَّط من أجله، الملك يَعِدُ بالإصلاح. عقيدة الطاعة السلبية وعدم المقاومة يؤسِّسها الريس: الأمير يتصرف في ضوئها، الناس يعتقدون أن الملك لا يمكنه أن يقترِف خطأ. يستولي على زوجات رعاياه، القوش بك يقاوم، يُنْفَى، يُسْتَدْعَى، ثم يُعْدَمُ.

أعترف بأنني واصلت المسير بارتياب كبير، من جهار جو إلى قره قول، حيث خُصِّصَتْ لي غرفٌ بواسطة الحاكم وبأمر من أمير بخارى، وأُرسِلتْ إليَّ

مُؤَنٌّ مناسبة. وهنا قام ذلك الوغد المَقِيتُ، دِل آسا خان، دون علمي، بزيارة حسين خان، حاكم قره قول؛ وهو رجل مستقيم ورحيم، عرفته في رحلتي السابقة إلى بخارى عام ١٨٣٢م. كنت ساعتئذ نائماً منهكاً من الرحلة، عندما قام دِل آسا خان بزيارة حسين خان.

عندما استيقظت في الصباح ناديت خَدَمي، وبعد وقت طويل نوعاً ما ظهر عبدالله، وقال: «إن أمير ساروق وقاهر قولي قد تركاك، وأنا كذلك لا أستطيع أن أكون في خدمتك أكثر من ذلك؛ لقد أكلت الرَّوْثَ بسبب مجيئي معك. ولا أستطيع أن أكون خادماً لك بعد الآن». وأخذ متاعه وخرج. وفي النهاية ظهر حسين، الخادم الآخر، وقال: «سأقف معك». صحيح أن هذا الرجل كان وغداً، إلا أنه لا يخلو من تلك الروح العطوف التي لحظتُها في بعض الرجال المنحرفين، الأمر الذي دفعني إلى التخيُّل؛ أن لو تمت مراقبة تلك النَّزْعَة كثيراً ورُعِيَتْ لتنموَ متكاملة، فإن الشخصية نفسها قد تتغير بصورة أساسية.

لقد كان حسين خادمي، في عام ١٨٣٢م، من مشهد إلى بخارى وكابل، وقد شهد العناية التي خصَّني الله بها، عندما أرادوا حرقي في دو آب بالقرب من بوت باميان. وقد عمل بقاؤه معي على إعادة عبدالله، ولكني لحظت أن كلا التركمانِيَّيْن: أمير ساروق وقاهر قولي، ينتهزان الفرصة، ويذهبان دوماً مع دِل آسا خان وخدمه، وقد قام كلٌّ من عبدالله وحسين بتحذيري، رغم أنهما بقيا معي.

وسرعان ما أعطاني قولي، خادم دِل آسا خان، مفتاح هذا اللُّغز؛ فقد كان دِل آسا خان قد اختلى بحاكم قره قول بعض الوقت، وأخبره أن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قد قُتِلا، وكذلك عدد من الأوروبيين، وأنه ليس لديه شك في أنني سأشاركهما مصيريهما، فمن الواضح أن الأمير يعدُّ الآن كل

الأوروبيين جَوَاسِيسَ، وسوف يعدمهم تبعاً لذلك؛ ولاشك لديه في أنني فور وصولي إلى بخارى سوف تُقطع رأسي. وقد أَطْلَعَ دِل آسا خان التركمانَ على كل هذه التفاصيل، وأخبر بها خدمه كذلك، ونصح خدمي بالتخلِّي عني، وأن يتيقَّظوا لسلامتهم، وينضمُّوا إليه. والآن، ليس لديَّ شك في أن هذا النذل قد تأمَّل في ثلاث صور للظروف التي قد تحدث:

الأولى: وهي بالنسبة إليه الأكثر احتمالاً؛ إذ إن أعماله تبرهن على اعتقاده أنه سوف يتمَّ إعدامي فور وصولي. وبذلك اعتزم تجريد نفسه من كل ما يشير إلى أنه واحد من حاشيتي.

الثانية: هي أنني قد أفضح تصرُّفاته في بخارى، مفترضاً أنني نجحت في إنقاذ نفسي، وهذا ما سيدخله في محنة عَويصَة.

الثالثة والأخيرة: وكان مستعداً لتجنُّب ذلك الوضع بطريقة مختصرة، كما سأبين ذلك لاحقاً؛ إذ إنني في عودتي قد أحُثُّ آصف الدولة على معاقبته، فهو يعرف جيداً أنه يستحق ذلك بسرقته إيَّاي، وكذبه عليَّ، وخيانته لي. وقد أعد دِل آسا خان نفسه لكل الأحوال، وتوقع كذلك أن يَبْتَزَّ مبلغاً كبيراً من المال مني.

ولكوني مدركاً لهذا الحال عند مغادرتنا قره قول، وفي الطريق إلى شهر إسلام (شهر إسلام هو المكان الذي سكنه سابقاً أفراسياب، الملك المشهور في التاريخ الفارسي، في سالف الأزمان، وهو كذلك المكان الذي انطلق منه الإسلام في بدايته، ويبعد ثمانية أميال من بخارى) قلت لدِل آسا خان: «لقد أدركت تماماً أنك مثَّلت دور الخائن وتمثله الآن، وسوف تستمرُّ في تمثيله، فاحذر، وأنذرك بأن العواقب ستقع على رأسك».

فَردَّ هازئاً: كلا مُوَاطِنَيْكَ (قومك) قُتلا؛ ستودارت، وكونولي.

وولف: إذن، فسوف تلعب أنت دور الخائن؟

دِل آسا خان: كم من النقود ستمنحني كي أقوم بعملك؟

وولف: ولا بُولاً واحداً، أي: بنساً واحداً.

وعلى أية حال، فعندما وصلت إلى شهر إسلام، أُرسِل حاجب الملك (مَخْرَم) ليرحب بي، وليس دِل آسا خان. وقد أُرسِلت الحلوى من أجلي، وأطلعني المَخْرَم، باسم الملك، على تأكيد إرادة جلالته الطيبة تجاهي. وفجأة تغير المشهد، وقام كل من التركمان وأمير ساروق وقاهر قولي بتقليص المسافة بيننا. كنت مرتدياً الحُلَّةَ الكَهَنُوتِيَّةَ بكاملها على طول المسافة من مرو إلى بخارى، عاقداً العزم على ألا أتخلى أبداً عن مظهر مكانتي كأيٍّ مُلاًّ، الأمر الذي أدركت سريعاً أنه وحده الذي اعْتَمَدَتْ عليه سلامتي. واحتفظت كذلك بالإنجيل مفتوحاً في يدي، وشعرت بأنَّ قوتي كانت في الكتاب، وأن قدرته سوف تؤازرني. وقد اجْتَذَبَت هذه الصورة غير المألوفة - لكنها مفضَّلة لديَّ - الحشودَ من شهر إسلام إلى بخارى، فلو حُكِمَ عليَّ بالموت، فسيكون الأمر معروفاً على نطاق واسع، وقد تكون العواقب خطيرة حتى بالنسبة إلى الأمير نفسه في الإضرار بشخصية مقدسة، مسلَّحة بكتابِ موسى وداودَ وعيسى، وتحميه كلمة خليفة مرو، ويسنده السلطان وشاه فارس وسفير روسيا وآصف الدولة بالكلمة والخطابات معاً. والمبدأ الشائع بين المسلمين كما شهدته في طريقي: الهتافاتُ: «سلامٌ عليكم!».

كان أَدِلاَّئي التركمان غير ممكن محاسبتهم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى؛ لأن التعبير: آغا شكال «الأسياد ذوو اللحى» يعني أنَّ ليس لهم الحق إلا في تقديم النصح والإرشاد حول حملات السلب التي يقومون بها، ولكن ليست لديهم أدنى سلطة لمعاقبتهم.

هذا البلد من أوزبكستان مملوء بالوديان المحروثة والمرويَّة بشكل جميل.

وهنا نجد بخارى الكبرى، تتميز بالتضادِّ مع بخارى الصغرى: من ٣٤ درجة إلى ٤٢ درجة عرضاً من الشمال، ومن ٨٠ درجة إلى ٩٢ درجة طولاً من الشرق، وهي تمتد باتجاهات مختلفة تتجاور تجاه الجنوب الغربي من صحراء خاوار من جهة إيران؛ ومن نهر آمو إلى إقليم بلخ من جهة جنوب أفغانستان، عبر الدَّهاليز العالية في الجبال إلى الهندوكوش، التي تتجاور مع المناطق الجنوبية من الصين.

ومنذ أن تم طرد الأتراك أو التتار، والأوزبك هم المسيطرون، فقد أحضرهم شيبان خان إلى بلاد نهر آمو عام ١٤٩٨م، عندما أصبح مركز إمبراطوريتهم في أوركنج، في خيوه. وقد نشروا الموت والدمار في أرجاء تركستان كافة، حتى حدود إيران.

وقام مراد أوزبكي جان المشهور بإعلاء شأن الشعب الأوزبكي؛ وعملت الحروب المتتالية مع الفرس وكابل في بعض الأحيان على توسيع الإمبراطورية حتى مرو، وهراة وبلخ، وفي أحيان أخرى تقلَّصت حدودها. والأوزبك مسلمون، وقُساة وغير مُهَذَّبين، ولَكِنَّ الطاجيك، السكان الأصليين، أكثر تحضُّراً. ويعيش الأوزبك - في معظمهم - على تربية القُطْعان، بينما الطاجيك يمارسون التجارة. والطاجيك هم أرمن تركستان؛ فَهُمُ التجار والسماسرة، ولغتهم هي الفارسية، وهم مخادعون إلى أبعد الحدود.

ويتميز أهالي خوقند بالكبرياء، غير أنهم أصدقاء للأوروبيين؛ ونساؤهم عَفِيفات، ولكن الرجال مستسلمون للرَّذيلة، مغرَمون بالموسيقى والصيد، وذوو نَزْعة مَرِحَةٍ. ويتسم سكان مرغلان بالهدوء؛ وهم أناس مسالمون ومطواعون. أما كافر سياه بوش فهم وَثَنِيُّون. ويعتقد البعض - كما قلت - أنهم أحفاد جيش الأسكندر الكبير؛ ونساؤهم جميلات ومشهورات في آسيا. وتبدو لهجتهم

مشتقة من السنسكريتية، كما يمكن أن تثبت بعض الكلمات الآتية:

إمرا = الله.

داقون = الله.

تيريكام = الله.

تاتا = أب.

يِه = أم.

ماناش = رجل.

أماتيسان = قرية.

أما = بيت.

جيدا = حصان.

وهم يعبدون أسلافهم، وأصنامهم من الخشب والحجر، حيث تُقدَّم لها القرابين من الكُهّان الذين يتوارثون القيادة؛ ولديهم كذلك سَحَرة، ويعدون السمك شيئاً نجساً، ويمارسون تعدُّد الزوجات. وهم أعداء أَلِدَّاءُ للمسلمين. ويتَّسمون بأنهم اجتماعيون ومرِحون وعاطفيون. ويشكل الرقص مع الآلات الموسيقية والطبول جزءاً من تسليتهم. ومن ضمن مبادئهم الدينية: الكرم والثأر للدَّم. يلبس الرجال قميصاً، فوقه جلد مَعْز أسودُ، والذي بسببه سُمُّوا: سياه بوش «لابسو السَّواد». وتلبس النساء قميصاً واحداً فقط، ويغطِّين رؤوسهن بحلية فضية. وتُميِّز العَذَارى عصابةٌ حمراء. ويعيشون على لحوم الماشية والفواكه (الجوز والتفاح والعنب والمشمش) والنبيذ الطيب. وبيوتهم من الخشب، مزوَّدة بغرف تحت الأرض. وأثاثهم مطابق للطريقة الأوروبية، مثل الكراسي والطاولات والسُّرُر. وفي بيوتهم خناجرُ وأسلحة نارية. ويمتلك الثَّرِيُّ من السياه بوش ثماني مئة رأس من المعز، وثلاث مئة من الثِّيران، وثمانيةً من

العبيد. ويصل عدد السكان إلى تسعين ألف نسمة. وفوق مرتفعات بدخشان هناك أربع قبائل يهودية حرة من نافتالي ودان وزيبولون وأشير.

وهنا أتى إليَّ مُرافقي الوغد دِل آسا خان، وقال: «يجب أن تدخل إلى بخارى لابساً كما يلبس الرجل الفقير». فأجبته بالقول: «أيها الوغد الكذاب النَّخّاس! (لأن العبارات الحادة فقط هي الفعَّالة في الشرق)، اتركني. سيقتلك آصف الدولة بالتأكيد عندما تصل إلى مشهد». فتغير لون دِل آسا خان وشحب وجهه.

وصدحتْ صيحات: «سلامٌ عليكم» من الآلاف في أذني. إنه أكثر المناظر إدهاشاً؛ فالناس من فوق سطوح المنازل، والتتار النوقاي من روسيا، والقازاق والقرغيز من الصحاري، والتتار من يارقند أو الصين التترية، والتجار من كشمير، والسركردها أو نبلاء الملك، فوق صهوات الجياد، والأفغان، والعديد من ناقلي الماء (السقَّاؤون) توقَّفوا وأداروا أبصارهم نحوي؛ واليهود بقبَّعاتهم الصغيرة، الشارة المميزة ليهود بخارى، وسكان خوقند، يبتسمون لي بلطف؛ والملالي من جيكاربور، والسند ينظرون تجاهي، ويقولون: «إنجليزي صاحب» والنساء المحجَّبات يصحن لبعضهن: «إنجليزي إلجي» (رسول إنجليزي) والأخريات يأتين إليهن ويقلن: «هو ليس إلجي، ولكنه كبير الدراويش، درويش كيلون إنجلستان».

لقد تم تعميم جميع خُطَبي في أنحاء فارس وتركستان وبخارى بأكملها. وأصبح هدفي مفهوماً على نطاق واسع، وليس لديَّ شك في أنني جنيت ثمار جعْل موضوع مهمتي واضحاً وجلياً لمسلمي العالم كافة. وبين الصيحات المتواصلة لـ «سلام عليكم» أنعمت النظر في الحشود على أمل أن أتبين ستودارت أو كونولي؛ ولكن ذلك كان دون جدوى.

قبل أن نؤخذ إلى أماكننا المخصصة لنا أُحْضرنا إلى ما يسمونه بتأكيد «بالا»؛ أي: قصر الملك. وهذا (البالا) مشيَّد فوق رَبْوَة عالية. وعندما وصلنا إليه كان السركردها، أي: نبلاء الإمبراطورية، يغادرونه لتَوِّهم، ممتطين صهوات الجياد. وتجمهر الناس زُمَراً عليَّ متسائلين: «ما الكتاب الذي تحمله بيدك؟»، فأجبت بالقول: «إنه توراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى ونبوءات دانيال وإشعيا وحزقيال وجرمايا، وما إلى ذلك». وقد قامت تلك الأرواح المسكينة غير المنوَّرة بلمس الكتاب بإخلاص.

وعند مدخل بوابة القصر أُمرنا أن نترجل عن خيلنا؛ لأنه لم يكن يُسمح إلا لنبلاء الإمبراطورية وسفراء سلطان القسطنطينية أو شاه فارس إذا أتوا إلى بخارى، بالدخول من بوابات القصر وهم على صهوات الجياد. ولا يُمنح هذا الامتياز لمسيحي، أو وثني، أو أي سفير آخر. وعلى أية حال، فمن الغريب القول: إنني مُنحت هذا الامتياز عند لقاء الوداع، ورحيلي، قبل مغادرتي بخارى.

وقبل دخولنا، مَثُلَ أمامنا أحد مَخْرَمِيي الملك، وقال: «إن جلالته يتلطَّف ويسأل ما إذا كنت على استعداد لأن تخضع لطريقة السلام؟» (لأن ستودارت صاحب رفض، وسلَّ سيفه)، فسألته: «مِمَّ يتكوَّن السلام؟» فأجاب: «تقف أمام جلالته، الذي سيجلس فوق البالا هناك (ومنها اشتقت كلمة بلكان)، وسوف يمسك الشيخوال (وزير الشؤون الخارجية) بكتفيك، ويجب أن تمسح لحيتك ثلاث مرات، وتنحني ثلاث مرات، قائلاً في كل مرة: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر! سلامات بادشاه، (السلام للملك)». وسألني سائل: إذا كنت سأفعل ذلك ثلاث مرات، فأجبت: «ثلاثين مرة إذا كان ذلك ضرورياً». وعند دخولنا البوابة طُلب منا أن نجلس على مقعد حَجَرِيٍّ، وبعد دقائق قليلة من التأخير أُمرنا بإرسال خطاباتنا. فأرسلت الآتي:

١- خطابان من السلطان: واحد أعطاني إياه السلطان نفسه، والآخر الذي وجدته في مشهد، والذي لم يُنقل بواسطة ذلك الوغد محمد علي صرَّاف.

٢- خطاب من جلالة محمد شاه فارس.

٣- خطاب من الحاجي ميرْزا أقاسي، رئيس وزراء ملك فارس، موجَّه إلى المسمى وزير ملك بخارى؛ وهو - في الحقيقة - ليس سوى رئيس دائرة الجمارك، لكنه لا يُسمح له بتلقي أي خطاب أو فتحه من دون إذن الأمير.

٤- خطاب من معالي الكونت ميدم، سفير روسيا في طهران، إلى الأمير نفسه.

٥- خطاب من شيخ الإسلام في القسطنطينية، إلى قاضي كيلون (كبير القضاة) في بخارى؛ لأنني علمت بأن لا أحد من أصحاب المقامات الرفيعة في بخارى، ولا حتى التجار، يُسمح لهم بتلقي خطابات من دون أن يقرأها الأمير قبل الجميع.

٦- خطابات من آصف الدولة كُتبت إليَّ، يبين لي فيها أن كل الهدايا التي أرسلها إلى ملك بخارى إنما أُرسلت من أجلي، وكتب إليَّ أيضاً أنه إذا خانني دِل آسا خان في بخارى، فإنه سوف يحرق والده.

٧- نسخة من خطاب مرسَل من آصف الدولة إلى دِل آسا خان، يحذِّره فيه من أن يخونني.

ومعظم الخطابات أعلاه كُتبت في سياقات الرواية السابقة، غير أن خطاب القاضي كيلون، أو شيخ الإسلام في بخارى، الموجَّه إليه من شيخ الإسلام في القسطنطينية يعد وثيقةً مميزة جداً، بحيث إنني لا أستطيع أن أُحْجِمَ عن إيراده كاملاً:

يا مَلْجَأَ المعالي، ويا مَوْئِلَ العلِمِ، وسيد فن تقدير استحقاقات رجال العلم، وصاحب الأناة، المتسمة عاداته بالإخلاص؛ عسى أن يدوم في مجده وشرفه!

مع تقديم المختار من الدعوات العطرة، والينابيع الجارية من التبريكات الزكية ذات الرائحة الفواحة، فإن العرض الودي هو أن ضابطين من مملكة إنجلترا - أحدهما برتبة كولونيل اسمه ستودارت، والضابط الآخر - ورجلين أو ثلاثة كان لديهم إذنٌ يضمن لهم سلامة المرور، وقد ذهبوا إلى بخارى منذ زمن في عمل، ثم أُلقي القبض عليهم وأودعتْهم حكومة بخارى المجيدة السجن. وبناءً على طلب قُدِّم سابقاً من مملكة إنجلترا، صدر رسمياً خطاب مهيب، يتضمن (طلباً) لبذل الجهد من أجل تحرير الأشخاص المذكورين، وقد أصدره وأرسله من يوحِّد المجد والفخار، وملجأ الخلافة، جلالة سيدي المعظم الملكي، المهيب، القوي، والإمبراطور العظيم ذو الذرية من آل عثمان (أدامه الله وعزَّزه بعونه إلى أبد الأبدين) سيدي، إلى جلالة صاحب الحظ الوفير، الشجاع والخان المجيد (منحه الله طول الحياة مع المجد والشهرة!).

ففي هذا الوقت الحاضر تم الاتفاق في إنجلترا على أن ترسل الدرويش المحترم المدعو الدكتور وولف؛ للحصول على معلومات تخص أحوال الأشخاص المذكورين المسجونين؛ واصطحابهم معه إن كانوا أحياءً، وإعادتهم إلى بلادهم. وقد قُدِّم طلبٌ من مملكة إنجلترا، بأن يصدر كذلك خطاب إمبراطوري مهيب لجلالة الخان المذكور هذه المرة، وكذلك أن يُكتب خطاب عاجل منّا، ويرسل إلى مقامكم الرفيع، فحواه أن يُبذل الجهدُ ليُسَلَّم الأشخاصُ المذكورون والمسجونون للدرويش المذكور، لإعادتهم إلى مكانهم.

وحسبما هو معلوم لمقامكم العالي، فإن ثبات واستقرار أركان الود والصداقة وأعمدة المحبة والتفاهم القائمة منذ القدم؛ ولا تزال صامدة بين الإمبراطورية المهيبة ذات الدوام السرمدي والمملكة المذكورة هو أمر مرغوب فيه من كلا الجانبين. ولهذا السبب، فإن مثل هذا الطلب مُودَعٌ في صميم القبول والتحقُّق، وكذلك، لا يمكن - في الحقيقة - أن يكون سجن مثل هؤلاء الضيوف

واحتجازهم مطابقاً ومنسجماً مع قوانين الشعوب وأعراف السيادة. ومرة أخرى، بسبب ذلك، وطبقاً لمتطلبات الدين الواحد والإيمان الحقيقي الحاصل بين شخص فخامة الخليفة وجلالة الخان المذكور، فالأمر لا يشوبه شك في أن طلبات أحدهما من الآخر، والتي تنعكس في مرآة الحادثة وما سيأتي، سوف تحوز القبول؛ لذلك، ورغم أنه من الواضح أن هناك مسعًى قد بُذل لتسهيل المعوقات الموضوعة في طريق الأشخاص المسجونين المذكورين، إلا أنه، في حال كونهم لم يغادروا بخارى بعد، فقد صدر خطاب جليل، وأُرسل إلى جلالة الخان المذكور؛ لكي تُبْذَلَ المساعي لتسليمهم إلى الدرويش المذكور؛ لإعادتهم وإرسالهم بسلام وبهجة إلى ديارهم بأقصى ما يكون من سرعة، عن طريق القسطنطينية. لذلك، وطبقاً للصفات الكريمة للعدالة وحياة الضمير، التي معها تؤهِّل نفسك النبيلة وتقفها في هذا الأمر؛ باذلاً ما في وسعك من أجل إعادة الأشخاص المسجونين المذكورين وإرسالهم إلى ديارهم بأسرع ما يكون. وبيِّنا هنا أنَّ أملنا المخلص والعاجل أَنْ تُبْذَلَ أنشط المساعي لبلوغ الوسائل اللازمة، وإتمام المساعدة والحماية الضروريَّتين بخصوصهم. وفي هذا الخطاب الحالي الحكيم، كُتبت روابط الإخلاص، وأُرسلت لحضرتكم عنصر المعالي. وعندما تصل إليكم، بفضل الله العلي، فَبْذلُ الجهدِ، بالأسلوب المذكور آنفاً لأنشَطِ مساعيكم، يعتمد على صفاتكم المعطَّرة بعظائم الأمور.

من صديقك المخلص: مصطفى عاصم، ابن مكة؛ عسى أن تُغفر ذنوبهما!

وبعد أن أُرسلت الخطابات، أُحضرت أنا ودِل آسا خان. وقد جلس جلالته في الشرفة الملحقة بقصره، وكان ينظر إلينا من علٍ، وكان آلاف من الناس يظهرون من مدى بعيد، وكانت كل العيون مصوَّبة نحوي؛ لكي ترى ما إذا كنت سأخضع لقواعد التشريفات. عندها أمسك الشِّيخوال بكتفي، ولم أخضع لفعله

معي ثلاث مرات فحسب؛ بل انحنيت بصورة متكررة، وصحت دون توقف قائلاً: «السلام للملك»، ما جعل جلالته ينفجر ضحكاً، وبالطبع كل الباقين الواقفين حولنا. وصاح: «كفى، كفى، كفى». بعدها أُمِرْنَا بالتراجع. وأكد لي الشِّيخوال، وهو ضابط يشبه وزير الخارجية لدينا، أن جلالته ابتسم لي، وهتف قائلاً: «يا له من إنجليزي رائع! في عينيه، وفي لباسه، والكتاب الذي في يده».

يبلغ طول جلالته حوالي خمسة أقدام وستة إنشات، وهو يميل إلى المتانة، وله عينان سوداوان صغيرتان، بملامحَ سمراء، مع ارتعاش متشنِّج لعضلات وجهه. صوته ليس بتلك القوة، ولكنه سريع وذو تنغيم. وتظهر ابتسامته وكأنها مغصوبة. له مظهر كلي للمترفين. ملابسه هي ملابس الملا العادي نفسها، من دون أي خُيَلاء أو زخارفَ. وقد سلب الملالي كل سُلُطَاتهم، وتفرَّد بالسلطة التنفيذية. عند اعتلائه العرش قتل خمسةً من إخوته. وأُشيع أن اثنين منهم قُتلا في بلاد أجنبية؛ أي إن أحدهما قُتل في خوقند والآخر في أورينبورج في روسيا. وبعد وفاة والده، كان توراه زاده هو الأكبرَ، وقد استولى على بخارى، غير أن نصر الله، الملك الحالي، تراجع إلى حصن كارشي، وظل صديقه، حكيم بك، في بخارى. عمل حكيم بك على كسب وُدِّ الناس في بخارى بعلمه وموهبته واستقامته وثرائه، لصالح نصر الله. وبعد أن تم له ذلك أرسل إلى نصر الله لكي يأتي مع القوات إلى بوابات بخارى. وحالما ظهر فُتِحَت البوابات، وتم اغتيال توراه زاده، واعتلى نصر الله العرش. أما الأخ الثاني فقد قُتل بين ذراعي والدته، وأما عمر خان، الأخ الثالث، فكان محظوظاً؛ إذ هرب وهام على وجهه في كل أنحاء تركستان، وأمضى بعض الوقت بين دراويش مولانا جلال الدين، في الإمبراطورية التركية، وبثياب درويش أدَّى الحجَّ في مكة، وزار قبر محمد في المدينة، ثم رجع مرة أخرى إلى خنكار (السلطان) إستانبول. وعندما كنتُ في صحراء مرو عام ١٨٣٢م، جالساً في خيمة أحد

اليهود، دخل أحد الدراويش خيمة مضيفي اليهودي. وسرعان ما دخل أحد الأوزبك، وجعل يُحدِّق في الدرويش، ثم هتف فجأة، مُقَبِّلاً قدميه: «الله يحفظ عمر خان، بادشاه بخارى، ابن الأمير حيدر بهادر». فقال عمر خان: «لا تَخُنِّي». وهكذا هام عمر خان في صحراء مرو، وتحالف مع ملك خيوه، وقد سمعت بعد ذلك أنه قُتل في معركة ضد أخيه الملك الحالي. ويقال أيضاً: إن الملك الحالي قد دَسَّ السُّمَّ لوالده.

وأصبح حكيم بك، الذي ساعده على اعتلاء العرش، القوش بك أو وزير الملك، وكان نصر الله الملك المحبوب لبخارى مادام اتَّبع نصيحة ذلك الوزير الحكيم. وهابتْه الملوك حول بخارى، وأرسل إليه ملوك خوقند وكاشغر والخطا الرسلَ ومعهم الهدايا، كما استمرَّ الروس على علاقات وِدِّية معه. وكان هدف ذلك الوزير العظيم، القوش بك، هو أن يجذب إلى بخارى رجال العلم، ورجال الفن من بلدان المعمورة كافة. وقد منحتْه صداقته مع موركروفت مَيْلاً إلى إنجلترا. ورغب إليَّ عام ١٨٣٢م أن أُقنع الحكومة البريطانية أن ترسل الأطباء والضبَّاط مع سفير لها إلى بخارى. وقد نَعِمَ السير إيه. بيرنز، من بعدي، بعطف ذلك الرجل العظيم، وكذلك الدكتور هاينجبيرجر، من هنغاريا، الذي قدِم من لاهور، حيث كان في خدمة رونجيت سنغ العظيم، أسد البنجاب.

بدأ دراويش بخارى إنشاد المدائح لنصر الله ووزيره العظيم القوش بك، وازَّيَّنَتْ البلدة بالمساجد الجميلة، أمَّا خارج بخارى فقد عُمِّرت البساتين، وشُيِّدت البيوت الريفية.

غير أن نصر الله بهادر داخلته الغيرة من القوش بك. وفي ذلك الوقت، في عام ١٨٣٥، وصل عبدالصمد خان من كابل، هارباً من دوست محمد خان، وتبجَّح بأنه على معرفة بكل العلوم الأوروبية والتدريب العسكري، فأوصى به

القـوش بك الـرائع لـدى الملك، فـعـيَّنه الملك رئيس السِّـرياس؛ أي: القـوات النظامية والمدفعية، وأسبغ القوش بك أفضاله على القادم الجديد، بينما شرع الأخيـر في الكيـد له طوال الوقت، مـا جعل الملك يعـتـقـد أن القـوش بك على تراسُل مع إنجلترا. ومنذ ذلك الحين بدأ تأثير القوش بك يتراجع بوضوح.

في ذلك الوقت وصل تقـرير إلى الملك يفيـد بأن أحد الإنجليـز في طريقه إلى خيوه؛ فأرسل جنوداً (أوزبك) في إثره، وسُجِنَ ذلك الإنجليـزي. كان اسمه الملازم ويـبورد. وقد زُجَّ به في السـجـن المسمى: سـيـز هـجـا، وبعـد ذلك نُقل إلى بـرج محصَّن تابـع للنائـب، الذي عـامله بطريقـة بشـعة للغاية، وكان يقـول له باستـمـرار: «أعـرف كيـف أعـاملكم، أيهـا الأوروبيون، وكيف أُذِلَّكم». وبعد سنة أو نحوهـا، وقبل وصـول الكولونيل سـتودارت، أرسل إليـه الأميـر، وقـال له: «إنْ أنت أسلمت ودخلت في خدمتي، فسـوف أعفـو عنك، وأعاملك بالحسنى»؛ غيـر أن ويبورد أجـابه قائلاً: «افهَمْ بأنني إنجليزي، ولذلك فلن أغيِّر ديني، ولن أدخل في خدمـة طاغية». بعدهـا اقتِيدَ للإعـدام، وقال وهو على وشك الموت: «الآن سـتـرى كيف يمكن لإنجليـزي ومسيحـي أن يموت!» ثم أحنى رأسَه، الذي قُطِعَ، ورُمي جسمه في بئر.

مَثُلَ القوش بك أمام نصـر الله بهادر، ولم يتلقَّ الاحترام الذي كان يلقاه في السـابق. انحنى القوش بك إلـى الأرض ثلاث مرات، ومسح لحيته ثلاث مـرات، وتلا السورة الأولى من القرآن، التي تسمَّى الفاتحة، والتي هي كالآتي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، ومسح لحيتـه مـرة أخـرى. فطلب منه الملك أن يجلس، ففـعل وانحنى مـرة أخـرى إلى الأرض. بعدهـا سـأله الملكُ: «مـا طلبك؟» فـقـال: «يا حضـرة! لقـد أفنيت أيامي

السابقة وشاب شعري في خدمة مليكي وسيدي؛ لقد خدمت والدكم رحمه الله سنوات كثيرة. ولم أكْنِز الكنوز، بل فعلتُ ذلك من أجل أن تصير ملكاً قوياً، تُجلِّكَ كل الشعوب؛ عسى أن تصبح يوماً مثل تيمور، ويشتهر اسمك مثل اسم أسكندر ذي القرنين. ولكن ما الخطيئة التي ارتكبتُها الآن حتى لم تعد نصيحتي تُسمع؟» فسأله الملك: «وما هي رغبتك؟» فأجاب: «لماذا قام جلالتكم بهدم تلك القصور الجميلة التي ابتنيتها بأموال طائلة، وكانت بهجةَ للسكان؟ إلى جانب ذلك، لماذا تقوم جلالتكم بإلقاء القبض على الرجال الإنجليز في الطرق البعيدة وتدخلهم السجون في بخارى؟ إن إنجلترا شعب قوي، وهي تسيطر على الهند قاطبة. وقد وجد الشاه شجاع المُلْك، والشاه زمان، ملكا أفغانستان، مَلاذاً في سيادة إنجلترا. ويهدِّد رُونجيت سنغ الوثني، بمهاجمة أفغانستان. وإذا ما بات في أفغانستان، فيمكنه أن يأتي إلى بخارى. وعلى الجانب الآخر نحن مهدَّدون من روسيا وخيوه، وسوف يتَّحد القزل باش لتدمير ملك بخارى، لا سمح الله! فما الذي يمكن أن ينقذنا من هذه الشرور جميعها، سوى التحالف الوثيق مع إنجلترا؟»، فطلب منه الملك أن يرجع، ووعَده أن يستفيد من نصيحته.

وسرعان ما قام الريس، أي: كبير الملالي، الذي يقوم بتنفيذ أمور تتدرج من الضرب بالعصا (الفلقة)[1] إلى الأمر بالقتل من أجل التقيُّد بشعائر الدين الإسلامي، في أحد الأيام بوعظ المسلمين بالأسلوب الآتي: «إن الملك هو الراعي، والرعية هم الأغنام. وبإمكان الراعي أن يفعل بالأغنام ما يظن أنه ملائم لها. يمكنه أخذ الزوجة من زوجها؛ لأن الزوجة وكذلك الزوج من

(١) ضرب الفلقة، بشدِّ الرِّجْلَيْن إلى خشبة موصولة بحبل من طرفيها، وبرم الحبل حتى تلتصق القدمان بالخشبة، ثم ضربهما بالعصا.

الأغنام، وبإمكانه استخدام زوجة أي رجل آخر كما يحلو له»[1].

ومنذ تلك اللحظة أصبح نصر الله أكبر المتهتّكين في بخارى. واستخدم كل مَخْرَميه، والكثير من الفُسَّاق في خدمته. كان يحكم على الأشخاص الذين لم يكونوا على استعداد للتخلّي عن زوجاتهم بالموت فوراً، وقد روَّضهم على الخنوع، بحيث إن الزوج، في حال يُحْرَمُ من زوجته، يتنفَّس بحسرة، مروِّضاً نفسه لإرادة الملك مع هتافه: إين كاري بادشاه هاست «إنه لعمل ملكي». وقد نهض القوش بك الأمين وحده بالمقاومة، وأنَّب الملك على فعلاته، ما جعل الأخير ينفيه إلى كرشي.

وعندما طلب أصدقاء القوش بك منه أن يهرب إلى خوقند، قال: «إنني كبير السن، لا يمكنني أن أكون خائناً. فأنا أبلغ من العمر ستين عاماً؛ وسأموت في بلدي الأصلي، فلا بد أن أموت؛ سواء في بيتي أو في السجن». ومكث في السجن بهدوء في كرشي، ممضياً أيامه في تلاوة القرآن، ملتقياً من وقت إلى آخر بالدراويش من الطائفة النقشبندية. وأُحضِر في النهاية إلى بخارى، وهناك أُودِعَ السجن، ثم أُعدِم بأمر من الأمير خلف القصر، في البقعة نفسها التي أُعدم فيها الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي فيما بعد.

---

(١) هذه موعظة أفَّاك أفَّاق منافق للسلطان عليم النفاق. فديننا لا يبيح للراعي التصرف دون وجه شرعي في أدنى شيء مما يخص الرعية؛ فكيف باغتصاب الزوجة من زوجها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

الفصل التاسع

الطاعة السلبية ديدن أهل بخارى. أخلاق المروزيين السيئة. لمسة الملك يُعْتَقَدُ بأنها تداوي الأمراض؛ زوجاته، أصله المختلط من أم فارسية وأمير أوزبكي، تحضنه امرأة قوقازية. مقابلة الدكتور وولف مع شيخوال، مراوغة دِل آسا خان. الدكتور وولف يشرح مهمته. المَخْرَم يُرْسَلُ في المساء حاملاً أسئلة ليجيب عنها الدكتور وولف. المثول أمام الأمير في اليوم التالي. المَخْرَم يُرْسَلُ إلى الدكتور وولف بسؤال آخر. زيارة لعبدالصمد خان - تاريخه. النائب يستقبل الدكتور وولف بمودَّة ظاهرة. محادثة مطوَّلة لها علاقة بموت ستودارت وكونولي. محادثة خاصة مع النائب فيما بعد. يحاول أن يؤكد أنه أقام صداقة مع ستودارت وكونولي. يقدم شواهدَ منهما ومن السير ألكسندر بيرنز. الدكتور وولف يسمع نشيد «الله يحفظ الملكة» تعزفه فرقة الأمير. يكتب إلى اللورد أبردين حول الرقيق الروس في بخارى. النائب يعطي وولف ثلاثة آلاف تيلاه. الدكتور وولف يرفض تسلُّمها. الدكتور وولف يشرح للنائب غرض لجنة ستودارت وكونولي. النائب يسأل كم من النقود سيدفعها الدكتور وولف لافتدائهما؟ الملك يتأثر بعمق بتقرير المَخْرَم عن لقاء الدكتور وولف مع عبدالصمد خان. خطاب إلى الكابتن جروفر.

إن أي تصرف قاسٍ كان يرتكبه ملك بخارى، فإن الناس بكل بساطة كانوا يَعْزُونه إلى أن: «هذه إرادة الملك»، و«من الذي يمكنه سبر أغوار قلب ملك؟». غير أن الطاجيك لديهم إحساس بالحرية أكثر من غيرهم، ويشتكون سراً من قسوة الملك، وأن المروزيين سوف ينضمُّون في الحال إلى الفرس، إذا قام هؤلاء بإرسال جيش إلى هناك. ولكن شخصية المروزي هي غاية في السوء، إلى درجة أن هناك مثلاً شائعاً في بخارى ومشهد يقول: «إذا أنت التقيت مع أفعى

(بالفارسية: مار) ومروزي، فاقتل المروزي ثُمَّ الأفعى». وعلى كُلٍّ، فإن المروزيين، ومثلهم الطاجيك، مفتونون بقراءة الشعر. فهم يجتمعون يومياً في المكان الذي عشتُ فيه، في غرفة دِل آسا خان، المروزي الغادر، الذي خدم معي بصفة مهمندار من مشهد إلى بخارى، ويقرؤون بصوت مرتفع قصيدة من أسكندر نامه، أو تاريخ الأسكندر الكبير. ومن العجب أن الناس في بخارى، رغم كونهم أعداءً ألدَّاءَ للشيعة، إلا أنهم مُعجبون بشدة بكتابات حافظ وسعدي.

ويعتقد أهل بخارى، والشعب التركماني كافة، أن لمس ثياب الملك أو يديه يُحدث أثراً خاصاً؛ فهم يعتقدون أنهم قد يُشْفَون من المرض بلمسة بسيطة من الملك. ولدى الملك أربع زوجات، وليس لديه منهنَّ سوى ولد واحد، له من العمر قرابة العشرين عاماً، ويقال إنه ذو بنية ضعيفة. كما يُقال إن زوجات الملك يكرهنه، وإنهن إماءٌ فارسيات. وهن صديقات لعبدالصمد خان، ينقلن إليه كلَّ حركة وكل كلمة تصدر عن الملك. ولن يكون مستغرَباً أن يكرهن ذلك المتهتِّك. ويجب التنبيه على أن الملك نفسه ابن شاه حيدر، مِنْ أَمَةٍ فارسية؛ وكما قال أحد التركمان في نيسابور، وأحسَنَ القولَ: «مثلما تُنتج مزاوجة الحصان مع أَتَانٍ بغلاً، كذلك لا بد أن ينتج من مزاوجة الأوزبكي بفارسية ماردٌ جبّارٌ». وإلى جانب ذلك، فإن لدى الملك امرأةً قازاقيةً من الصحراء هي مُرْضِعَتُهُ. وهكذا، وكما لحظ التركماني نفسه في نيسابور: «لقد رضع ثدي آكلة الرجال؛ لأن القازاق في الصحراء متَّهمون بأكل أجساد الموتى من الرجال؛ ولهذا السبب، فهو كالحيوان المتعطِّش للدماء».

بعد أن قُدِّمنا إلى الملك، أُحْضِرْنا إلى غرفة صغيرة في القصر، معدَّة لاستخدامها مكتباً. وهنا أتى الشيخوال الذي سبق ذكره مصحوباً بسكرتيره الملا حاجي، وهو أحد الرقيق الفرس الموجود منهم مائتا ألف في جميع أنحاء

بخارى. وتذكَّرني الحاجي مذ عرفني عندما كنت في بخارى عام ١٨٣٢م. وبدأ الشيخوال بعدها العمل، بداية بمخاطبة دِل آسا خان المروزي:

الشيخوال: ما اسمك واسم بلدك؟

دِل آسا خان: دِل آسا خان.

الشيخوال: ما طلبُكم من الحضرة؟ (جلالته).

دِل آسا خان: ينحصر مطلبي في نقطة واحدة فقط: إن معالي آصف الدولة، ولكونه صديقاً حميماً لجلالته، ولقناعته بعدل الملك، يطلب منه الاستيلاء على خيوه وخوقند، ويعرض مساعدة جلالته ضد خيوه وخوقند، مع كل المدافع والذخيرة والقوات التي يطلبها، وسيكون آصف الدولة مستعداً لإرسالها إلى جلالته؛ فإن خراسان قريبة من بخارى، وروسيا تبعد مسافة شهرين من بخارى، وتبعد إنجلترا ستة أشهر؛ لذلك فإن الصداقة بين آصف الدولة وبخارى في غاية الأهمية. وهذا هو المطلب الوحيد الذي أقدِّمه.

وولف: أليس لديك مطلب آخر تقدمه؟

دِل آسا خان: لا، أبداً.

وولف: أنت تابع لي، وقد أرسلك آصف الدولة إلى هنا فقط لمعاونتي في مطلبي من الملك، وقد دفعتُ لك مالاً مقابل ذلك.

دِل آسا خان: لقد أرسلك آصف الدولة معي إلى هنا فقط.

الشيخوال: ما اسمك ومطلبك؟

وولف: جوزيف وولف، هذا هو اسمي، مُلاً معروف جيداً ودرويش من إنجلترا. لقد كنت في بخارى قبل اثني عشر عاماً (والملا حاجي هنا يتذكَّرني، وقد قال ذلك)؛ وقتها عاملني جلالته معاملة حسنة، وأُعطيتُ جوازَ سفرٍ قبل مغادرتي، ينص على أن أمراً سامياً قد صدر بأن جوزيف وولف إنجليزي، ويجب أن يُسمح له بالعودة إلى وطنه، ويجب ألاَّ يضع أحدٌ أية عوائقَ في

طريقه. وبعدي وصل ألكسندر بيرنز، ولقي بدوره معاملة حسنة، وسُمح له بمواصلة طريقه إلى إنجلترا؛ وكان لمعاملة جلالته المضيافة تجاهي وتجاه السير ألكسندر بيرنز، أثرٌ في آخرين أتوا لزيارة بخارى الشريفة. وكان أن أتى إلى هنا ضابطان تقدِّرهما الحكومة البريطانية وتحبهما بدرجة عالية، وهما صديقاي: الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وكان الكابتن كونولي مريدي، أي: تلميذي الروحي؛ ثم فجأة وصل خبر من أرض روسيا، ومن أرض خيوه، وحتى من أرض خوقند، وكذلك من أرض هندوستان، بأن كلا الضابطين - وهما رجلان شجاعان في الحرب ومتديِّنان - قد قُتلا بأمر من ملك بخارى. وهذه الأخبار لم تُحدث هيجاناً في إنجلترا وهندوستان فقط، ولكن كذلك في العالم الجديد (أمريكا)، وقد سمع محمد علي حاكم مصر بالخبر، وهتف الآلاف في إنجلترا: «الحرب على بخارى!»[1].

وهنا قاطعني الشيخوال بسؤالي: «كم تبعد إنجلترا من بخارى؟»، فأجاب دِل آسا خان: «مسيرة ستة أشهر».

فقلت: «هذا ليس صحيحاً. إن إنجلترا نفسها على بعد مسيرة ثلاثة أشهر من بخارى؛ إلا أن لنا قوات في شيكاربور، بالقرب من قندهار، التي تبعد مسيرة ثلاثين يوماً من بخارى».

وبعدها واصلت القول: أنا، جوزيف وولف، بمشاهدتي هذا الهياج في جميع أنحاء العالم بسبب موت الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي منشوراً في الصحف، قلت: آه، يا أصدقائي الإنجليز، لا أستطيع تصديق شائعة قتل الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي؛ لأنهم يُجِلُّون الضيوف كثيراً في بخارى؛

---

(١) هذا كذب منه؛ فلم يحدث هذا، وحتى الحكومة البريطانية لم تسنده رسمياً كما ذكر هو في أول كتابه.

لذلك سأذهب إلى هناك وأتأكد من الحقيقة، فقال كل أصدقائي: لا تذهب إلى هناك؛ فإنهم سوف يقتلونك أيضاً. فقلت: سأذهب؛ لأن كونولي أعز أصدقائي. وعندما رأى أصدقائي عزمي، استحثوا حكومة إنجلترا لكي تأمر سفراءها في القسطنطينية وطهران بتدبير خطابات إلى جلالة ملك بخارى من السلطان ومن محمد شاه.

وعند وصولي إلى القسطنطينية، منحني السلطان الخطابات المطلوبة، وكذلك فعل شيخ الإسلام في إستانبول؛ ولم يمنحني محمد شاه في فارس خطابات إلى ملك بخارى فحسب، بل أعطاني خطابات إلى آصف الدولة، آمراً إياه أن يزوِّدنَي بكل مساعدة وعون؛ لعلِّي أُستَقْبَلُ استقبالاً حسناً في بخارى. وعند وصولي إلى مشهد، سألني آصف الدولة ما إذا كنت راغباً منه في أن يرسل رجلاً محترماً معي، يتحدَّث نيابة عني إلى الأمير؟ وفي هذه الحال سوف يدفع مئة تومان لذلك الرجل، وسوف أدفع أنا مئة أخرى للرجل نفسه.

وقال معالي آصف الدولة: إنه سوف يرسل هدايا إلى الأمير، من أجل أن يضمن لي استقبالاً حسناً. فقبلت الاقتراح، ومنحتُ دِل آسا خان مئة تومان، وخرجنا متَّجهين إلى بخارى. ولأنه سلك في الطريق سلوك الأوغاد، أرسلت عدة رسل من التركمان إلى مشهد، ناقلين سلوكه السيِّئ؛ فأرسل بسببه آصف الدولة عدة خطابات إليَّ، وكذلك إلى دِل آسا خان نفسه، مع نسخ منها لي، أرسلتها إلى الأمير مع بقية الخطابات، ومنها سوف يعرف الأمير أن دِل آسا خان مجرد تابع لي، وقد مثَّل دور الخائن، وأن بيانه عن هدف مجيئه إلى بخارى ورجوعه، لَهُوَ زيفٌ من البداية حتى النهاية.

دِل آسا خان: لم أقل قط إنني لم آتِ من أجلك، لأنني أعلم أن إنجلترا وفارسَ بلدان صديقان.

وولف: لا أريد مساعدتك.

الشيخوال: وما غرضك الآن؟

فأجاب دِل آسا خان: إن غرضه (أي غرض جوزيف وولف) هو أن ينشئ علاقة صداقة بين إنجلترا وملك بخارى.

وولف: لستُ مخوَّلاً بذلك؛ وإنما غرضي أولاً هو السؤال: أين صديقاي الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي؟ هل هما حيّان، أم ميتان؟ وإذا كانا حَيَّيْن، فأتوسَّل من جلالته أن يرسلهما معي إلى إنجلترا؛ وإذا كانا ميتين، فيبيِّن جلالتُه أسبابه التي دفعته إلى إعدامهما، وكذلك أن يرسل معي رسولاً إلى إنجلترا.

(لقد فهمت أنه إن لم أُبْقِ على بعض الآمال في تسوية ما، فإنه (الملك) سوف ينتابه القنوط وقد يعدمني، وفي الوقت نفسه، فإن الرسول سيخدمني في رحلتي عبر الصحراء. والآن أذكر تواصل محادثتي مع الشيخوال).

الشيخوال: هل الحكومة البريطانية هي التي خوَّلتك المجيء إلى هنا؟

دِل آسا خان مقاطعاً إياي: «نعم».

وولف: لا؛ لقد أرسلني السلطان، ومحمد شاه، بناءً على صداقتهما مع إنجلترا.

الشيخوال: هل أنت مخوَّل بأخذهما إن كانا حَيَّيْن؟

وولف: نعم، من كل السلطات في أوروبا، وصوت الشعب البريطاني.

الشيخوال: وهل هناك هياج كثير حول الموضوع في أوروبا؟

وولف: كثير جداً؛ فالناس لا يتحدثون إلا عن ستودارت وكونولي، وتخوُّفهم من أن أشاركهما مصيرَهما.

ملا حاجي: هل تحب كونولي كثيراً؟

وولف: كثيراً جداً.

بعدها أُذِن لنا في الانصراف، وخُصِّص لنا المنزل الذي كان يقيم فيه في

السابق توراه زاده، أخي الملك الحالي، والذي قُتل بأمر من الأخير، سكناً لنا؛ ومنذ تلك اللحظة قُيِّدت حرّيتي في الخروج كما يحلو لي. وكنت مراقَباً ليلاً ونهاراً من مَخْرَم الملك. وفي المساء الذي وصلت فيه أرسل إليَّ الملك شخصين؛ أحدهما مَخْرَم، والآخر ميرْزا؛ الذي يكتب كل شيء يسأل عنه المخْرَم (كاتم أسرار الملك) الغريب.

ميرْزا (مقدماً نفسه): هذا مَخْرَم مقرب للحضرة (لجلالته).

مَخْرَم: يسرُّ جلالته أن يأمرك بالإجابة عن سؤالين يسألك إياهما من خلال عبده: السؤال الأول: «هل لديك القدرة على أن تحيي الموتى؟»، والسؤال الثاني: «متى سيكون يوم النشور؟».

وولف: بقوة الله يستطيع الشخص أن يفعل كل شيء، ذلك لأن الله قوي فوق الجميع. وإذا أعطاني الله (تقدَّس اسمه) تلك القوة، فإنني قادر على أن أفعل ذلك، ولكنه حتى الآن لم يمنحني تلك القوة من أعلى. وفيما يتعلق بالسؤال الثاني: فعندما كنت في بخارى، قبل اثني عشر عاماً، تجادلت مع اليهود حول رجوع عيسى المسيح، ووقتها أخبرتهم، وكذلك القوش بك، وزير جلالته، بأن عيسى سوف يعود بعد خمس عشرة سنة. ولكن منذ ذلك الوقت نَمَتْ عندي بعض الشكوك حول صحة حساباتي، لأن المعنى من الأرقام المذكورة في سفر النبي دانيال يعترف بوجهين من التفسير. ورغم ذلك، فإنني مقتنع، بواسطة علامات الأزمان، بأن زمن مجيء عيسى قريب. بعدها أشرت له على علامات الأزمان، كما هي مذكورة في سفر مَتَّى، الإصحاح ٢٤ و ٢٥، وسفر لُوقَا، الإصحاح ٢١، وسفر إشعيا، الإصحاح ٣٤، وغيرها.

ثم افترقنا، وكانت كل كلمة تفوَّهت بها قد كتبها ميرْزا.

وقد أُمرنا أن نلتقي مرة أخرى في اليوم التالي؛ لنمثُل أمام الأمير لتقديم سلامنا، ثُمَّ الرجوع. وعند عودتي إلى مأواي، أُرسل مَخْرَم مرة أخرى من لدن

الملك ليسألني: لماذا كنتُ لابساً ألواناً سوداء وحمراء؟ حيث إنني كنت قد لبست عباءة القس وغطاء الرأس الخاص بدرجة الدكتوراه، متى اضطررت إلى زيارة جلالته؛ ولذلك أجبت بأن ذلك كان عادةَ مُلاًّ كيلون، كبير ملالي إنجلترا.

مَخْرَم: أَلِذلك معنى؟

وولف: بالنسبة إليَّ: نعم.

مَخْرَم: فما معنى هذه الألوان بالنسبة إليك؟

وولف: اللون الأسود يشير إلى أنني حزين على وفاة أصدقائي، واللون الأحمر يشير إلى أنني على أتمِّ استعداد لأن أبذل دمي من أجل معتَقَدي.

وصلت، على ما أعتقد، في السابع والعشرين من أبريل، وقد كان ذلك يومَ جمعة، وفي التاسع والعشرين أتى مَخْرَم قاسم، وقال إنني يجب أن أتبعه إلى مكان ما.

وولف: إلى أين نذهب؟

قاسم: هذا ما ستراه.

فارتعش كل الحاضرين حولي. وبكى يوزباشي عجوز (آمر مئة من الجنود)، كان أحد الرقيق الفرس، وقال لي هامساً، بعد أن خرج قاسم من غرفة دِل آسا خان: «لماذا أتيت إلى هنا؟ لقد أُخِذَ ستودارت صاحب وكونولي صاحب هكذا من المنزل الذي يأخذونك إليه الآن»؛ فسألت خادمي حسيناً: «هل ستصاحبني؟»، فأومأ بالإيجاب.

امتطى دِل آسا خان حصانه، وركب، مصحوباً بخدمه، بكبرياء أمامي، وكان مَخْرَم قاسم إلى جانبه، وكان يتحادث مع دِل آسا خان طوال الطريق، ولم يوجِّه إليَّ كلمة واحدة، وقام خدم دِل آسا خان بإبعاد حصاني بعنف إلى الخلف، عندما اقترب قليلاً من جانب دِل آسا خان. وبدأ خادمي حسين، كذلك، يتخوَّف من الظهور بوصفه خادماً لي، ومشى بالقرب من حصان دِل

آسا خان. ركبنا مسافة ميل واحد خارج البلدة إلى بُستان النائب عبدالصمد خان، رئيس سلاح المدفعية، حيث يقوم بالتدريب على الطريقة الأوروبية.

وقبل أن أتابع ذكر ما يتعلَّق بمقابلتي الأولى مع النائب، فإن استطراداً يسيراً سيبين الحقيقة لقُرَّائي، التي أعتقد بأنني ذكرتها في رحلتي إلى بخارى عام ١٨٣١-١٨٣٢م: فعندما وصلت إلى كابل عام ١٨٣٢م، التقيت السير ألكسندر بيرنز، وفي محادثة معه أخبرني قائلاً: «عندما تصل إلى بيشاور احترس من شخص هناك يُدعى عبدالصمد خان. هو أحد الأنذال الكبار، وهو يسمي نفسه وزير سلطان محمد خان. ولو كان باستطاعته أن يلحق الأذى بأي إنجليزي لفعل؛ فهو يعلم أننا ننظر إليه باحتقار». ولذلك، فعند وصولي إلى بيشاور، لم أقترب منه، ولكني رأيته لدقيقة واحدة فقط، عندما زارني بصحبة سلطان محمد خان.

ولد عبدالصمد خان في تبريز عام ١٧٨٤م، ولأنه اكتسب بعض المعارف السطحية من العلوم العسكرية في كرمنشاه من السير الجنرال كورت، فقد استخدمه هناك - لفترة وجيزة - محمد علي ميرزا، الابن المشهور لفتح الله شاه. وبسبب بعض الأعمال الإجرامية التي ارتكبها عبدالصمد خان، أمر محمد علي ميرزا بأن تُقطَع أذناه. بعدها هرب الخان، إلى خصم محمد علي ميرزا: عباس ميرزا، في تبريز؛ غير أنه سرعان ما اضطرَّ إلى الهرب من تبريز، ثم إلى الهند؛ ومنها إلى بيشاور؛ ومنها هرب، ودخل في الخدمة مع دوست محمد خان. ثم هرب منه وأتى إلى بخارى عندما كنت هناك عام ١٨٣٢م، حيث وَفَّرَ له حكيم بك - الحكيم الطيب - القوش بك في بخارى عملاً مع الأمير، من أجل أن يدرِّسَ الجنود المهارات العسكرية. ومنحه الأمير لقب خان، وعيَّنه نائباً عنه. وهو يعيش منذئذ في رفاهة وخيلاء خارج البلدة، واكتسب خلال تسع السنوات التي أمضاها هناك ثروة تبلغ ستين ألف تيلاه،

أي: دوقات. ويقوم بزيارة الملك كل يوم أحد، ويحب أن يُعامَل على أنه أوروبي بالولادة، وأحد المتدرِّبين على أيدي الضباط الإنجليز. وقد وقع مرةً في فضيحة بسبب امتناعه من دفع رواتب الجنود، وأوشك أن يُقتل مباشرة بعد موت ستودارت؛ إلا أن الحرب مع خيوه وخوقند منعت الأمير من القيام بذلك؛ حيث كان في حاجة إلى نُصحه. وإلى هذا الرجل، عبدالصمد خان، أُحضرتُ، وإلى الغرفة نفسها في الطابق العلوي للمنزل الذي أَجرى فيه بصُوَرٍ مستمرَّة أحاديثه مع ستودارت وكونولي.

قام، بداية، بمعانقة دِل آسا خان بلطف، لكنه عندما أقبل عليَّ ضمني بقوة إلى قلبه، وقبَّلني نحو عشر دقائق، ضاغطاً على يدي وأصابعي، كما يفعل - على ما أعتقد - الماسوني (مع أنني لست ماسونياً)، ثُمَّ طلب مني الجلوس ومشاركته إفطاراً رائعاً من الكباب (لحمُ حَمَلٍ مقليٌّ على الصاج) والأرز والقهوة والشاي. وبينما كنت أنا والنائب ودِل آسا خان، جالسين حول طاولة، كان مَخْرَم قاسم مع ميرزا جالسَيْن على الأرض على الطريقة الشرقية، والميرزا (الكاتب) معه قلم في يده، والورق والحبر أمامه.

وقال النائب (وهو يأكل في الوقت نفسه): الآن، يا مُلاً يوسف خان، لقد تعرَّفت إليك قبل اثني عشر عاماً؛ إيهٍ، لقد رأيتك في بيشاور، وأعرف كل شيء عنك. في الوقت الحاضر إنجلترا وبخارى في حالة حرب، وهما عدوَّتان، ولكن بعد أن سمعت كيف عامل الضابطان؛ الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، الحضرة (جلالته) وكيف عاملاني، فيجب أن تصبح إنجلترا وبخارى صديقتين، الأمر الذي أتمناه من قلبي. وأنا متَّهم من الأوزبك بكوني إنجليزياً، ومُتَّهم من الإنجليز بكوني أوزبكياً، ولكنني لست هذا ولا ذاك. وكل ما أتمناه، أن تعرف الحقيقة، والآن سأخبرك عنهما:

عندما وصل الكولونيل ستودارت، أرسل جلالتُه فرقةً كاملة من الجنود

لاستقباله. فأتى إلى بخارى، وإلى أرك، مباشرة عندما عاد الحضرة (جلالته) من زيارته لبابا الدين نقشبندي (أحد الأولياء المدفونين خارج البلدة). وكان الكولونيل ستودارت فوق صَهْوَةِ جواده. فاتجه إليه الشيخوال، وعدد من السركردها[1] (النبلاء) وقالوا: «هذا هو جلالته؛ يجب عليك أن تترجَّل». إلا أنه أجاب بالقول: «ليس لديَّ أوامر أن أفعل ذلك». فابتسم الأمير، وقال: إنه مهمون[2] (ضيف). وعندما قمت أنتَ يا جوزيف وولف بالسلام أمام الأمير، أمسك الشيخوال كتفيك بلطف كي يجعلك تنحني. فامتثلت وكتابُك في يدك، ولكن عندما لمس الشيخوال الكولونيل ستودارت فقط، وضع يده على سيفه وسلَّه. ولم يعلِّق أحد بشيء حول هذا. وقد خُصِّص له منزل توراه، وهو المنزل نفسه الذي تعيش فيه. وبعد أيام قلائل، عندما أرسل الريس (أحد الملالي الذي يراقب الناس، ولديه سلطة لجَلْد أي شخص لا يتقيَّد بصرامة بالدين الإسلامي) واحداً من أعوانه إلى ستودارت، وسأله ما إذا كان إلجي (سفيراً) أو سوداگَر (تاجراً)؟ أجابه ستودارت بالقول: «كُلّ رَوَثاً!».

وأمَّا عن سجن ستودارت، فقد أغفل النائب هذه الحادثة، وواصل حديثه دون ذكرها قائلاً: «في النهاية، وبدافع من الخوف قال ستودارت إنه سوف يُسْلِمُ؛ وحسب الدين الإسلامي، فإن الشخص الذي يقول إنه سيتحوَّل إلى الإسلام، فإنه لا بد أن يفعل ذلك أو يموت. فأصبح مسلماً، ثم بعد وقت قصير جَاهَرَ مرة أخرى بالدين النصراني. وفي النهاية اتُّفِقَ على أنه يجب أن يَكْتُب

(١) سركار بالفارسية: رئيس العمال، وهو لقب احترام للرجل أو المرأة، وهو أيضاً لقب رسمي للضباط، وسركرده: تعني القائد.

(٢) بالفارسية: «مِهمان»: الضيف، وليس مهمون، ومهمانسرا: دار الضيافة، ومهماندوست: محب للضيافة والضيف.

إلى إنجلترا لكي يُعترف به وكيلاً معتمداً لبريطانيا العظمى في بلاط بخارى، وأن يُعترف بسيادة ملك بخارى على تركستان، وما إلى ذلك؛ فوعد الكولونيل ستودارت بأنه في غضون أربعة أشهر لا بد أن يصل جواب من حكومة إنجلترا. ورغم أنه أُنشئت چاپار - خانات (بيوت بريد) من بخارى إلى سرخس، بناءً على طلب ستودارت، الأمر الذي لم يحدث لا في بخارى ولا في بلاد تركستان منذ زمن أفراسياب، إلاَّ أنه مضت أربعة عشر شهراً ولم يصل جواب.

وخلال المدة التي كان ستودارت موجوداً فيها في بخارى، ذهب الكابتن كونولي من أوركنج (خيوه) إلى خوقند، حيث مكث هناك زمناً طويلاً، محرِّضاً كلا البلدين على شَنِّ حرب على أمير بخارى. وفي النهاية وصل إلى بخارى، معلناً نفسه وكيلاً بريطانيّاً، دون أن يكون معه خطابات من الحكومة البريطانية، وقَلَبَ كل ما وافق عليه ستودارت رأساً على عقب، معلناً لملك بخارى أن الحكومة البريطانية لن تتدخَّل في شؤون تركستان، وذهب كل ما اتُّفق عليه مع ستودارت أدراجَ الرياح. وهكذا اتَّضح أن الكولونيل ستودارت كان كاذباً.

وخلال وجود كونولي وستودارت في بخارى استغلاّ كل فرصة لإرسال الخطابات، خِلْسَةً، إلى كابل؛ ولهذا السبب غضب جلالته، فأحضرهما مقيدةً أيديهما خلف الأرك (قصر الملك) بحضور المَحْرَم سعادت، عندها قبَّل الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي بعضهما بعضاً، وقال ستودارت لسعادت: أخبر الأمير بأنني أموت غير مؤمن بمحمد، ولكن مؤمن بعيسى، وأنني نصراني، وأموت نصرانيّاً. وقال كونولي: يا ستودارت، سنرى بعضنا بعضاً في الجنة (بهشْت) بالقرب من عيسى. بعدها أعطى سعادت الأمر بقطع رأس ستودارت أولاً، ثُمَّ، وبالطريقة نفسها، قُطِعَ رأس كونولي».

وولف: اعتقدت أن الشنق كان الطريقةَ المعتمدة للقتل في بخارى؟

النائب: كان الشنق مطبَّقاً في السابق؛ غير أن ملك بخارى قال إن «الشنق يسبِّب ألماً أكثر، وخان خيوه النذل يشنق شعبه؛ ولذلك فإننا، بدافع الرحمة، نأمر بأن تُقْطَعَ رؤوس مقترفي السيئات بسكِّين عادية».

بعد ذلك قال لي النائب: «ألديك طلب تقدمه؟».

وولف: بداية، لقد أذهلني أن يعتقد جلالته أن تُجري حكومة إنجلترا مراسلات معه، بينما كان ستودارت سجيناً عنده، وهكذا يُجبر على كتابة ما يريده جلالته. وثانياً، أدهشني أن يتوقع الكولونيل ستودارت أن تقوم الحكومة في ظل هذه الظروف بالإصغاء لمقترحاته.

النائب (قارعاً الطاولة الممدود عليها الإفطار): ولكن أُنشئت چاپار - خانات بسبب ستودارت، الأمر الذي لم يحدث منذ زمن أفراسياب.

وولف: ومع هذا، فإنه كان سجيناً.

النائب (مرة أخرى وبالطريقة نفسها): ولكن أنشئت چاپار - خانات بسبب ستودارت، الأمر الذي لم يحدث منذ زمن أفراسياب.

وولف: إذاً يجب أن أقدم ملحوظاتي بأن المراسلات بين إنجلترا وفارس كانت تتم لزمن طويل بوساطة الحاكم العام في الهند. والآن أُخبرت بأن اللورد إلينبورو، الحاكم العام الحالي للهند، كتب إلى جلالة ملك بخارى.

كان من الواضح أن النائب قد أُحرج، فقال: «لم أرَ مثل هذا الخطاب من الحاكم العام»، ثم سألني مباشرة قائلاً: «ما العمل؟».

وقد رأيت بوضوح أن ليس هناك شيء يمكن القيام به سوى إيجاد وسيلة للهرب من بخارى بأسرع ما يمكن، وبأفضل وأسلم طريقة يمكنني القيام بها. ولذلك شعرت بأنني إن لم أقدم بعض الآمال للتسوية، فإنه لن يُسمح لي بالعودة وإخبار الناس بما حدث؛ ولذلك فكَّرت في أن أفضل سبيل لتدبير هربي هو أن أقترح على الأمير أن يرسل معي رسولاً؛ فلو تركني أرحل

بمفردي، فإنني أخشى أن يقوم دِل آسا خان - كونه خائفاً من أن أجعل آصف الدولة يعاقبه على خيانته لي - باغتيالي في الطريق إلى مشهد، وبذلك يخدمني هذا الرسول بوصفه حامياً لي. ولذلك أخبرت النائب ببساطة قائلاً: «دع الملك يرسل معي رسولاً لكي يعتذر في إنجلترا عما ارتكبه».

كُتب هذا الحوار كلُّه، حتى اقتراحي؛ وركب في الحال مَخْرَم قاسم مع الميرزا إلى القصر، حيث كان الملك قد نفد صبره لمعرفة نتيجة الحوار، إلى حد أن أرسل ثلاثة من المَخْرَمين على صهوات الجياد، واحداً بعد الآخر، من القصر إلى بستان النائب.

وبعد أن غادر المَخْرَم قاسم والميرزا، أبدى النائب رغبةً في أن يخرج دِل آسا خان وخدمه وخدمي للتريُّض في الحديقة؛ وبعد أن فعلوا ما رغب فيه، أخذ الحوار مَنْحًى مختلفاً تماماً.

بدأ النائب عبدالصمد خان بالتباكي، وقال: «لقد قُتِل كُلٌّ من الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي دون ذنب أو جريمة اقترفاها. ولم أتمكَّن من إجابة اعتراضك، أنه لا يمكن أن يتوقع الملك جواباً من دولت (هذا هو اللقب المميَّز لحكومتنا في بخارى، الذي يعني السلطة) ما دام ستودارت سجيناً. وفي الحقيقة، لقد رأيته منهكاً للغاية، فعندما جيء به إليَّ لم يكن يلبس قميصاً على جسده، وكان شاحباً مثل الحائط. فعرضتُ على الملك مئة ألف تيلاه لإطلاق سراحهما، ولكنه لم يكن ليصغي لمقترحاتي، وكانت إجابته أنهما جاسوسان، لذا لا بدَّ أن يموتا. بعدهما مباشرة أتى إنجليزي آخر، لا أعرف اسمه، وقد قُتل أيضاً. وأحد الفرنجة، اسمه ناسللي، كان معه خطابات موجَّهة إلى آفيتابيل في لاهور. واعتزم الطاغية - واصل عبدالصمد الحديث - أن يقتلني، وكان لم يعطني أيَّ مرتَّب منذ سنتين، حتى رأى أنه لا يستطيع أن

يمضي قُدُماً من دوني، وهكذا كان تصرُّفه حتى بعد أن استوليت على خوقند، ولو تمكَّن من الاستيلاء على خيوه، فإنه بالتأكيد سيقطع رأسي. فَدَع الحكومة البريطانية ترسل أحد الضباط إلى خوقند وآخر إلى خولوم، وثالثاً إلى خيوه، وَدَعْ هؤلاء الخانات يُسْتَنْهَضُونَ للزحف إلى بخارى، وَدَع الحكومة البريطانية تمنحني عشرين ألف تيلاه أو ثلاثين ألفاً، وأنا مستعد لدعمهم. فأنا أقوم بـ «قف، أمام!»؛ قال ذلك بالإنجليزية، وهما الكلمتان الوحيدتان اللتان يعرفهما بالإضافة إلى عبارة: «لا قوة».

ثم استطرد: «بعد ثلاثة أيام من مقتلهما، أرسل إليَّ الطاغية مَخْرَم سعادت، الذي أعطاني تقريراً كاملاً حول الموضوع، فذهبت لرؤية المكان. وهناك عادةٌ، عند خِتَان أحد الأبناء، تتمثَّل في دعوة أحد الرجال الكبار، الذي يقوم بإجلاس الطفل على ركبتيه. وأعتَزِم، إذا منحتْني الحكومة البريطانية عشرين ألف تيلاه، أن أدعو الملك، وأُجلسه على مقعد ملغوم، وفي اللحظة التي يجلس فيها سوف أنسفه. أعرف أنه يعتزم قتلي، ولكن (وهنا رفع المنافق عينيه إلى السماء، وقال:) إن شاء الله! سأقتله».

وولف: هذا ما لا تباركه؛ لا الحكومة البريطانية ولا أي نصراني؛ لأن الملوك يُعَدُّون ظلَّ الله. والآن سوف أسألك سؤالاً: ماذا قال عندما سمع بوصولي؟

النائب: «عندما تسلَّم الخطاب من خليفة مرو، معلناً عن وصولك، أخبرني بالأمر. فسألته: «ماذا تعتزم جلالتكم أن تفعل معه؟» فأجاب: «إذا لم يُحْضِرْ معه خطابات من دولت، فسوف يرحل مثل السابقين؛ سأقتله». ولَكِنَّ فكره كان قلقاً للغاية ما جعله يجمع نحو عشرين من السركردها (النبلاء) فنصحه معظمهم بقتلك. وكان أحدهم، عدوي، وقد أُعفي بسببي من منصبه حاكماً لسمرقند، فقال له: «طلب مني جلالتكم نصيحتي: وسوف أوصي جلالتَكم أولاً بقتل النائب، ثم تثنِّي بالإنجليزي». تلقيت هذه الأخبار بالأمس فقط، عندما أخبرني

بها الملا حاجي من طريق زوجته. ولكن لا تخف، سأشد أزرك؛ ولكي أثبت لك أنني كنت صديقاً لستودارت وكونولي والسير ألكسندر بيرنز، سأريك شيئاً».

وهنا أظهر لي الوثائق الآتية:

١- من الكولونيل ستودارت

السادس من نوفمبر ١٨٤١م

أكتب هذه الوثيقة شهادةً عن شعوري تجاه الجهود الحميدة المقدَّمة لي في بخارى من النائب عبدالصمد خان، الذي كان لطيفاً معي بدرجة كبيرة عندما كنت أتعافى، تحت رحمة الله الرحيم، من حُمَّى حادَّة وملاريا؛ وقد أُمرت أن ألزم هذا المنزل في بداية هذه السَّنَة، من داستار - خانجي. ومنذ أن كنت معه، كانت له جهود حميدة في حمل مراسلاتي إلى الأمير ومنه، ومع الحكومة، وفي المساعدة في الحصول على إذن لمغادرتي بخارى. لقد أعلنت، وسوف أعلن، كل تفاصيل جهوده الحميدة للحكومة، وأعطيه هذه شهادةً عن رضاي وشعوري بلطفه ليقدِّمها لأي إنجليزي، كما طلب، معتقداً أنها قد تخدُمه يوماً ما، مقرونةً بصلواتي أن يحفظه الله القدير وأسرتَه. وأوقِّع على ذلك:

تشارلس ستودارت *أُعطيت له في الحديقة*

٢- من الكابتن كونولي

تسلَّمت من النائب عبدالصمد خان ثلاثة آلاف تيلاه، ووعدته أن أستثمرها له في صندوق شركة الهند الشرقية الموقَّرة. وهذه النقود أخذتها على حساب عام، وسوف أكتب اقتراحاً لمنح النائب عشرين بالمئة فائدةً عليها، (معدل الصرف السوقي في كابل) عندما أخاطب المبعوث والوزير في كابل في المرة القادمة. وأعطيه هذه (الخطاب) تذكرةً في اليد؛ لتأمينه ضد حوادث قد تحدث لي في غضون ذلك.

آرثر كونولي *في مهمة خاصة إلى تركستان*

بعد ذلك، قدم النائب خطاباً حميماً بالفارسية، ولكنه موقَّع بالإنجليزية من السير أ. بيرنز، وهو ما خدعني تماماً فيما يتعلَّق بشخصية النائب؛ لأن السير أ. بيرنز كان قد حذَّرني بنفسه منه عندما التقيتُه في كابل. لذلك اعتقدت أن السير أ. بيرنز قد يكون غيَّر رأيَه في النائب، وقد كان مخدوعاً فيما يتعلق بشخصه عندما رآه عام ١٨٣٢م، وكنت قد خُدِعْتُ زيادةً بذلك الخطاب، الذي يوصي فيه الكولونيل شيل النائب بي، وكذلك ببريد أُرسل من اللورد أبردين إلى الكولونيل شيل، يوصي فيه بعبدالصمد على أنه رجل يستحق الثقة.

اقترب وقت المساء، وعزفت فرقة الجنود: «حفظ الله الملكة» الأمر الذي أدهشني للغاية.

بعد ذلك سألت عبدالصمد عمّا إذا كان هناك أوروبيون آخرون؟ فأخبرني أن هناك أحد الإيطاليين يُدعى جيوفاني أورلاندو، قدِمَ من القسطنطينية إلى خوقند مع مبعوث خوقندي؛ وعند الاستيلاء على خوقند، عزم الملك على إعدامه، ولكنه - عبدالصمد خان - أنقذ حياته، وأحضره مع زوجته إلى بخارى، حيث يكسب عيشه من تصليح الساعات. وقد رأيت الرجل فيما بعد. وهو ذو طبيعة سويَّة، وذو مدارك جيدة كذلك، وهو كما عبَّر عن نفسه: «أون بوفيرو ميزرابيل، نل سو باسي»: فقير يعيش في حالة مُزْرِيَة في بخارى. وسوف يدرك قُرَّائي، في جزء قادم من هذا العمل، أن هذا الرجل المسكين لم يلق أدنى اهتمام من الحكومة الإيطالية. ومهما كانت ضآلة الفرد في عين حكومته، فإن أحقر رعاياها يستحق بجدارة أكثر الجهود حماسةً لإنقاذه. وأتمنى أن تكون كل الحكومات متساويةً في إخلاصها الجهود لإنقاذ الوضيع والرفيع، والغني والفقير، من الاستبداد الأجنبي.

بعد ذلك سألت عبدالصمد خان عمّا إذا كان هناك رقيق روس في بخارى، فأجاب بأن هناك في البلدة والقرى قرابة العشرين. فقلت إنني أود فداءَهم. ومع أنني لم أكن مفوَّضاً بعمل ذلك، إلا أنني أعلم أن أصدقائي في إنجلترا سوف يساعدونني. فقال إنه سوف يدبِّر لي أمر العشرين رقيقاً مقابل ألف تيلاه (دوقات) فوافقت على ذلك، إذا استطعت أن آخذهم معي. فقال إنه سوف يرتِّب الأمر. لذلك كتبت خطاباً إلى اللورد أبردين عن الموضوع. بعد ذلك قال عبدالصمد إنه سوف يُودِع عندي ثلاثة آلاف تيلاه؛ لكي أستثمرها له في بنك إنجلترا. وقد رفضتُ هذا بحزم لسببين:

أولاً: لأنني لست على دراية كافية بالأمور المالية.

وثانياً: لأن من الخطورة بمكان أن أحمل مقداراً كهذا من المال عبر الصحراء.

فأجاب إنه سوف يرسل أحدَ خَدَمه معي حتى مشهد، وهو سوف يحملها، وتابع: «بالتأكيد لن ترفض، عندما أبعدك عن مثل هذا الطاغية».

بعد ذلك حضر مَحْرَم من الملك للتحدث مع النائب في عمل خاص بالملك، وقَصَدَنا كذلك دِل آسا خان. وبعد أن تحادث النائب مع المَحْرَم دقائق قليلة، جلست أنا والمَحْرَم ودِل آسا خان، في الحديقة المفتوحة مع النائب لمشاركته العشاء. عندها بدأ النائب بالقول: «لكن يا مُلاًّ يوسف ولف، لقد حيَّرني أمرٌ واحد؛ هو أنك أتيت إلى هنا بهدية ليست ذات قيمة لملك عظيم مثل نصر الله بهادر، الذي هو بادشاه، وبادشاه بخارى شريف وسمرقند، ومن قبيلة مانكِد. أتجلب لملك مثل هذا هدية تساوي في السوق عشرة تيلاه فقط! كان يجب أن تشتري للبادشاه تسعة شالات مضروبة في تسعة، حسب استخدام البلد، وكل شال يساوي ثلاثين تيلاه؛ كان يجدُر بك أن تتحمَّل تكاليف ثلاثين مضروبة في واحد وثمانين؛ أي: ما يصل إلى ألفين وأربع مئة وثلاثين تيلاه، أضف إلى أنه مبلغ قليل أمام سلطة إنجلترا العظيمة».

عندها قلت للنائب، بحضور المَحْرَم ودِل آسا خان: «إذن يجب عليَّ أن أُطلِعك على ظروفي، وكل ما يتَّصل بمهمتي إلى بخارى بأكمله؛ فحكومة إنجلترا كانت مقتنعةً تماماً بأن التقرير عن موت ستودارت وكونولي كان حقيقياً، كما أن أحد الوزراء الكبار، واسمه السير روبرت بيل، قام بتجلية الصورة كاملة في المجلس الذي اجتمع فيه كل نبلاء الإمبراطورية؛ غير أنني وبعض أصدقائي شككنا في الأمر، ولاسيما أنني كنت قد لقِيت معاملة جيدة في بخارى قبل اثني عشر عاماً. وقد منحني هؤلاء الأصدقاء القلائل ألف تيلاه؛ من أجل رحلتي إلى بخارى وعودتي منها. ولو كان ستودارت وكونولي على قيد الحياة، لكنت أنفقت ألفين وأربع مئة وثلاثين تيلاه، وحتى أكثر من ذلك، من أجل إطلاق سراحهما، ولكن بما أنهما ميتان، فلا أظنني أملك سلطة مخوّلة لي من أصدقائي الذين أرسلوني، ولا من الحكومة لإنفاق هذا المبلغ».

النائب: كان مرتَّب ستودارت وكونولي مئتي روبية فقط في الشهر، ورغم ذلك كانا سيدفعان مئة ألف تيلاه. كم ستدفع أنت لو كنتَ في السجن؟

هنا أدركت مدى ملاحظتي غير الحذِرة، وبدأت أرتجف، وكنت – في الأساس – متوجساً نوعاً ما من أن النائب لم يكن صادقاً تماماً. غادر المَحْرَم، وكان الوقت منتصف الليل، عندما أتى المَحْرَم قاسم فجأة من المدينة إلى البستان لاهثاً. كانت البوابة قد أُغلقت، ولكن جلالته أمر بفتحها. وأخبرنا المَحْرَم أنه عندما أحضر المحادثة المكتوبة التي انعقدت بيني وبين النائب، كان الحضرة (جلالته) يجلس ورأسه بين يديه، عندها صاح هاتفاً: «ماذا قال يوسف وولف؟»؛ فناولوه الورقة لقراءتها. فأرسل أمراً بأن يُجَهَّزَ رسول في غضون أيام قلائل لينطلق معي إلى إنجلترا محملاً بهدايا للملكة.

فقال النائب: «الآن، يُؤذَن لك بالانصراف، وبعد غد نرسل إلى مرتضى، باشي القافلة، الذي يسافر إلى مشهد، وقبل أن تغادر ستكون أغراض كونولي

جاهزة أيضاً». في هذه الأثناء، وبأمر من الأمير، وجَّهت الخطاب الآتي إلى الكابتن جروفر، مبيناً التفاصيل الرسمية لعملية إعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي:

(رسمي)

بخارى: ٥ مايو ١٨٤٤م

سيدي، أكتب هذا الخطاب في منزل النائب عبدالصمد خان، رئيس سلاح المدفعية وترسانة جلالة ملك بخارى، وهو صديق مخلص ورائع للشعب البريطاني، وبحضور مَحْرَم جلالة الأمير كذلك (الحاجب الخاص). وأكتب هذا الخطاب رسمياً، بأمر من ملك بخارى، الذي أعطيتُه ترجمةً للخطاب؛ لذلك فأنا أقتصر على المواضيع المهمة جداً فقط، ودون شرح، ودون أية ملحوظات من قبلي.

أولاً: في التاسع والعشرين من أبريل، بيَّن لي الملك، من طريق النائب المذكور، وبحضور الملا قاسم، مَحْرَم الملك (الحاجب الخاص)، بأنه قام في شهر سرطان، ١٢٥٩هـ[1]، بإعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي.

أولاً: أُعدم الكولونيل ستودارت بسبب تعامله مع الملكية بعدم احترام كبير في مناسبات مختلفة؛ وثانياً: لأنه تحوَّل إلى الإسلام، ثم بعد ذلك ارتدَّ إلى الدين النصراني؛ وثالثاً: أنه وعد أن يجلب خطابات من إنجلترا، وقد مضت أربعة عشر شهراً دون أن تصل أية إجابة، مع أن الملك أقام چاپار - خانات (بيوت بريدية) استجابةً لطلبه.

وفيما يخصُّ كونولي، فإنه تم إعدامه؛ لأنه حثَّ خانات خيوه وخوقند على شَنِّ

---

(١) شهر سرطان من عام ١٢٥٩هـ يتوافق مع أيام شهري يونيو ويوليو ١٨٤٣م، وبالتقويم الهجري يقع ذلك في شهري جمادى الأولى وجمادى الآخرة ١٢٥٩هـ. علماً بأن المؤلف خلط بين تقويمين: الشمسي (الشهر) والهجري (السنة).

حرب على ملك بخارى، وما إلى ذلك. وقد أعطاني جلالته إذناً بمغادرة بخارى في التاسع من مايو، أي: الجمعة القادمة.

ومن مشهد سوف أكتب لكم عن كل شيء بتفصيل كامل.

وأنا، سيدي، خادمكم المتواضع والمطيع:

جوزيف وولف مُلاً إنجلترا

قامت فرقة موسيقية بعزف نشيد: «يحفظ الله الملكة»، وأعضاؤها من الهنود من لاهور، كانوا في خدمة رونجيت في السابق.

وزارني اليهوديان: إلياس، وحاييم، وقالا: «لقد رأينا المسكينين ستودارت وكونولي وقد أُحضرا مقيدي الأيدي للذبح. وقال أحد مَخْرَمي الملك، واسمه حبيب: لو كان في سلطتي قتل سعادت لفعلت! فعندما عَبَرْنا مكان الإعدام، أرانا هذا الرجل، بابتهاج شيطان، رَأْسَيْ ستودارت وكونولي، وعلَّق بقوله: «هذان رأسا الكافرين!»».

وقدَّم لي عبدالصمد خان كذلك الوصف المفصل الآتي عن موت تودرفايز؛ وهو ألماني تعرَّف إلى عبدالصمد خان في الهند، وقد قُتل، في زعمه، في بخارى. ورغم أن تودرفايز المذكور يعيش كلَّ الوقت في طهران، فإن ذلك يُعَدُّ إثباتاً إضافياً إلى أن ستودارت وكونولي وويبورد قد قُتلوا، وأن عبدالصمد خان هو قاتلُهم.

وقد روى عبدالصمد خان ظروف إعدام تودرفايز بقوله: «الآن فَكِّر، يا مُلاَّ يوسف وولف، أي طاغية هو الأمير! كتب إليَّ تودرفايز - وهو ألماني - من هراة، أنه يود العمل في خدمة الأمير. وكتبت إليه أنه يجب ألاَّ يأتي. ولكن، رغم تحذيري، خرج قاصداً بخارى. وحالما وصل إلى الحدود عُصِبَتْ عيناه، وأُحضر إلى بخارى، ومن دون أن تُتاح لي رؤيته، أُعدم. فلو كان باستطاعتي أن

أراه، أو أتحدث معه، لتمكَّنت من إنقاذه؛ غير أن الأوروبيين شكَّاكون، فلم يستخدم تودرفايز حتى اسمي.

ومن عجب، أنني عند وصولي إلى طهران، وجدت تودرفايز حياً، وقد أخبرني أن عبدالصمد خان استعجله بصورة خاصة أن يأتي إلى بخارى؛ غير أنه (تودرفايز) عندما سمع بموت ستودارت وكونولي، بدَّل رأيه ولم يذهب، رغم أنه كتب إلى عبدالصمد خان أنه كان يُجَهِّز نفسه للخروج. وعلى أية حال، لقد ذهب أوروبي آخر بدلاً منه. وكما أخبرني يار محمد خان: «لقد خُطف مباشرة، وعُصبت عيناه وأُعدِم».

هذه هي حكاية تودرفايز. وهي تتفق مع ما سمعته من عدد من الأوزبك في بخارى، أن عبدالصمد خان قال بابتهاج، عندما أُعدم الأوروبي الآتي من هراة: «لقد خدعته وجعلت الكافر يأتي إلى هنا». وقد فعل ذلك، ثُمَّ اتهمه بأنه جاسوس؛ ولذلك عُصبت عيناه وأُعدم؛ وبما أن الضحية المزعومة لعبدالصمد خان كان تودرفايز، فقد افترض أنه أوقع بصديقه السابق، وليس ذلك مستغرباً؛ فإن شخصية النائب السيئة السمعة تظهر بشكل أوضح فقط في ظل هذه الظروف المتغيرة.

الفصل العاشر

مدارس بخارى، طريقة إلقاء المحاضرات. الدراويش يدعمهم الأمير. الكنيس اليهودي في بخارى، ملك بخارى على تواصل مع الديانة اليهودية. بخارى وسمرقند. شائعة غريبة عن د. وولف، بأنه يَفْهَمُ اثنتين وسبعين لغة، ويعرف اثنين وسبعين ديناً، وأنه أجرى أحاديث مع اثنتين وسبعين أمَّة، وأنه قد أتى من سُلمِستان لكي يحوِّل أهل بخارى عن دينهم. مَخْرَم مرسل من الأمير ومعه سؤال: كيف تتبين مصداقية الدين النصراني؟ الجواب. الأمير يرسل المَخْرَم مرة أخرى طالباً أن يكتب الدكتور وولف سيرة محمد، كما رواها الرجال المتعلِّمون في أوروبا، وأن يرسل ذلك إلى الملك. د. وولف يوافق، شريطة ألا يُجبَر على اعتناق الإسلام. الدكتور وولف يكتب سيرة محمد.

في اليوم الذي أعقب محادثتي مع النائب، الموصوفة في الفصل السابق، (كان ذلك يوم الاثنين) امتطى كل من المَخْرَم ودِل آسا خان وأنا جيادهم. وبدأ دِل عسا خان السير بالقرب مني، وتحدث معي مَخْرَم قاسم بأسلوب وُدِّي، وأشار إلى مدارس بخارى، التي كانت بناياتها الرائعة والجميلة تلوح للناظرين.

في هذه الكليات تُقرأ وتُناقش كتابات العلماء السُّنَّة وكذلك الشيعة. وتُدرَّس الخطابة والبلاغة والشعر والمَنْطِق، إلى جانب القرآن؛ وتُدار الخلافات بطريقة مدرسية (منطقية)؛ ويُقرأ جلال والبيضاوي[1]. وقد اتخذوا المدارس المُنشأة في اليمن أنموذجاً لهم. وكما شهدتُ ذلك عندما كنت في اليمن عام ١٨٣٧م، فالملاحظ أن الطريقة التي يفتتحون بها محاضراتهم مأخوذة من

---

(١) يريد هنا تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي، وتفسير البيضاوي.

الطريقة المتبعة في اليمن؛ فالمعلم - وكذلك المريد - يرفع عينيه أولاً إلى السماء، ويوجِّه راحة كفَّيه إلى وجهه، في أثناء تلاوة الفاتحة، وبعدها يمسحون لحاهم بأكُفِّهم؛ ولا بد أن أنبِّه هنا على أن الإجراءات القضائية كافة تُفتتح بهذا الأسلوب. وبعد تقديم هدية من إنسان كبير المقام إلى إنسان أقل منه شأناً تُتلى (الفاتحة) كذلك. وتوجد العادة نفسها في اليمن، واليمن فقط، وما يبدو لي أن بخارى قد أخذت عاداتها وأساليبها من علماء اليمن. ويوجد لديهم تكيَّة في بخارى، مخصَّصة للدرويش المشهور مولانا جلال الدين، الذي رحل قبل قرون من بخارى إلى قونية. ويعيش الدراويش في بخارى على حساب الأمير، لكنه لا يسمح لهم بالانغماس في أمور سفيهة، ويضربهم بالعصا (الفلقة) باستمرار؛ بل يعدمهم أحياناً.

أما الكنيس اليهودي في بخارى فهو بناية أثرية، ولكنها محتاجة إلى الترميمات. وقد أعطى الأمير موافقته، خلال إقامتي هناك، لليهود على أن يقوموا بترميم جزئي للمعبد، ولكن دون زيادة في مساحته. ورأيت لديهم مَخْطوطاً قديماً من سفر دانيال، وفي الإصحاح الثامن منه ورد الرقم ألفان وأربع مئة، بدلاً من ألفين وثلاث مئة[1].

ورغم أن ملك بخارى ليس صديقاً لأحد، إلا أنه يُبدي بعض الوَلَع باحتفالات الدين اليهودي؛ فهو يذهب باستمرار إلى بيت الحاخام سمحا في يوم احتفال ذكرى إقامة هيكل العهد، ويشاهدهم وهم يحتفلون بتلك الذكرى،

---

(١) ما ذكره المؤلف - على غموضه - يشير إلى ما ورد في سفر دانيال/ الإصحاح ٨ عن ملك روماني يُدعى أنطيوخس إبيفانوس، ويسميه اليهود، سخريةً: إبيمانس (أي المجنون)، وأنه سوف يضطهد اليهود قبل مبعث المسيح، وسيقتل منهم مئة ألف، وستكون مدة اضطهاده لهم ٢٣٠٠ صباح ومساء؛ أي: ٦ سنوات، وثلاثة أشهر، وثمانية عشر يوماً... إلخ ما ورد في أسفارهم هذه من ترهات!

ويشاركهم عشاءهم. ولم يستحلّ امرأة يهودية قط، كما يفعل بزوجات كبار وزرائه، حتى إنه استحلَّ لنفسه زوجة كبير القضاة. وكان لديه كذلك حب استطلاع لمعرفة وجهة نظرهم حول المسيح المنتظر.

وسوف أنتهز هذه الفرصة لقول كلمات قليلة عن مدينتَي بخارى وسمرقند:

تقع بخارى في ٣٩ / ٣٧ درجة عرض شمالاً، و٨٠ / ١٩ درجة طول شرقاً. تحيطها الصحاري، ويسقيها نهر وفكان الصغير، الذي يجري بين غابات من أشجار الفواكه والحدائق. ولبخارى سبع بوَّابات، ومحيطها يبلغ خمسة عشر ميلاً إنجليزياً. وبها ثلاث مئة وستون مسجداً، واثنان وعشرون نُزُلاً للقوافل، والكثير من الحمامات والأسواق، ويُسمَّى القصر القديم: أرك، وقد بناه أرسلان خان قبل ألف عام. وبها حوالي مئة مدرسة رائعة. وليس للبيوت أسطح ولا نوافذُ. ويصل عدد سكانها إلى مئة وثمانية آلاف نسمة، وهم من الطاجيك والنوجاي والأفغان والمروزيين والأوزبك، وفيها عشرة آلاف من اليهود، يعملون صبَّاغين وتُجَّارَ حرير، ويجب أن يلبسوا قبعةً صغيرة وحزاماً حول الخصر، وذلك لتمييزهم من المسلمين. وهناك عدة آلاف من الرقيق. كما يوجد زهاء ثلاث مئة تاجر من السِّنْد، والكثير من الدراويش. ولا تحوي الشوارع سوى الدكاكين ومستودعات لتجار من أنحاء تركستان وكاشغر وهندوستان وروسيا. وهناك أعداد كبيرة من البيوت الريفية في الضواحي، ملحق بها بساتين تسمى جهار باغ[1]. وأبهج القرى توجد على بعد ثمانية أميال حول بخارى. وينتشر هنا مرض، خصوصاً في المدينة، يسمى ريشته؛ تسببه دودة ضخمة تخرج من الرُّكبة وتخلف فيها عرجاً مستمراً مدى الحياة. ويُعزى

(١) جهار بالجيم الفارسية وفتحها: أربعة، وباغ: البستان أو الحديقة أو الروضة، وباغجة: البستان أيضاً أو الجنينة.

هـذا المـرض إلى المـاء. وينتـشـر الرَّمَـد أيضـاً هناك. ولا يوجـد سـوى طبـيب يهودي واحد لديه بعض المهارة، يفخر بنفسه لمعرفته الكلمة: «أنتيمونيال» (إثْمِد) ويستخدمها على الدوام، كفخر عبدالصمد خان بمعرفته كيف يقول: «قف! إلى الأمام سر!».

بالقـرب من آمـو، توجـد كـركي؛ وهي بلدة حصينة تحوي مئة وخمسين منزلاً، وتبعد مئة ميل إنجليزي عن بخارى.

وفي مـدن أوراتبـه وقـره قـول وجيسـاغ يمتلك زعمـاء الأوزبك، ويُسمَّوْن سـركردها (النبلاء)، بيوتَهم الريفية؛ غير أنهم الآن مضطهدون من نصر الله بهادر، الملك الحالي لبخارى، الذي يستحلُّ - في الغالب - زوجاتهم وأبناءهم.

يحمل كبير الملالي في بخارى لقب مُلاًّ كيلون (الملا الكبير)، وهو رجل ذو شخصية رائعة، استهجن قتل ستودارت وكونولي المسكينَيْن.

أمّا سمرقند، المدينة المنافسة، التي كانت في السابق سَكَنَ تيمور لنك، في وسط وادي صُغْد الجميل، فيجدر بي أن أقول إنها منذ زمن ليس بالبعيد كانت مقرَّ ملك بخارى في وقت الشتاء؛ ولأن هذه البلدة في حالة تمرُّد دائم، فهو نادراً ما يذهب إلى هناك. وقد عُرفت في زمن الأسكندر الكبير باسم مارا كندا ريجيا صغديانوروم، وهي تحوي ضَرِيح تيمور. ولا تزال عاصمةَ الأدب الشرقي، وتسمَّى «حلية وجه الأرض»، ويحيطها سُور من الطين، ويسكنها أربعون ألف نسمة؛ وبها قصر جميل، والكثير من البيوت المَرْمَريَّة؛ والكثير من المساجد والمدارس. وسكنها في السابق الصينيون، الذين قاموا بتصنيع الورق من الحرير، وتَسَمَّتْ في بعض الأزمان باسم بخارى - تشين، ولكنها أخذت اسمها الحالي من مُخضعها سمر، بعد ظهور المسيح بـ ٦٤٣ عاماً(١). وقد أقام

---

(١) اسم بخارى إمّا أنه محرَّف عن اللفظة السنسكريتية *Vihara*، وتعني: الدير أو الصومعة، وإما أنه مشتق من الكلمة التركية المغولية «بخار»، ومعناها: العِلم الجمّ.

أولوغ بك مرصداً هناك. ويوجد فيها ألفان من اليهود. وبالقرب منها توجد بلدة صغيرة تسمى شيراز، ومن المحتمل أن يكون الشاعر حافظ يشير إلى شيراز القريبة من سمرقند في هذا البيت:

لو أن تلك الفتاة التركية من شيراز تهبني قلبها

لوهبت، مقابل الخال في خدها، سمرقند وبخارى

حيث لا يوجد فتيات تركيات في شيراز الفارسية.

علمت أن شائعة راجت في أرجاء بخارى كلها، فحواها أن المُلاَّ جوزيف وولف، كبير الدراويش من إنجلترا، يعرف اثنتين وسبعين لغة واثنتين وسبعين ديانة، وقد أجرى محادثات مع اثنتين وسبعين أُمَّة من أُمَم الأرض. وزيادة على ذلك، فإنني قد زرت سُلمِستان، أي: «أرض الظلام» طرطروس، وأنني زرت الأمير لكي أجبر السكان جميعهم في بخارى على اعتناق دين عيسى المسيح.

وأرسل الأمير إليَّ في أحد الأيام مَخْرَماً، ومعه السؤال الآتي، الذي أُجبرت أن أجيب عنه كتابة: «كيف يثبت الملالي النصارى حقيقة دينهم؟».

فأجبت بالقول:

أولاً: أن مُوجدها (النصرانية) الإلهي، عيسى، ودينه، كانا قد تُنُبِّئَ بهما قبل قرون من مجيئه إلى الأرض، من الرسل الأقدمين.

ثانياً: بواسطة المعجزات التي قام بها عيسى، وهي المعجزات التي اعترف أعداؤه بأنه قام بها.

ثالثاً: من خلال حياة عيسى وحديثه.

رابعاً: من طريق النبوءات التي تنبَّأ بها، والتي تحقَّقت؛ ومثال ذلك: تدمير القدس الذي تنبَّأ به.

خامساً: بالتأثير الذي أحدثته النصرانية؛ فالنصرانية تعلِّم الإنسان أن يضع قيمةً مناسبة للدم الإنساني؛ ولهذا فإن النصارى يشعرون برعب أكثر من

أي شعوب أخرى عند سفك الدم الإنساني[1].

سادساً: النصرانية تملأ القلب بالعاطفة والحب، حتى تجاه الآخرين الذين ليسوا منا. والنصارى هم الوحيدون[2] الذين أنشؤوا منازلَ للمرضى، حيث يتلقَّوْن العناية والعلاج من دون مقابل، ومأوى للمسنِّين والأرامل والأيتام.

وفي يوم آخر، وبينما كنت محاطاً بالكثير من القالموق والمروزيين والأوزبك واليهود وكافرسياه بوش والهندوس من شيكاريبور، ومعي دِل آسا خان، أرسل جلالته إليَّ مَخْرَماً يعلمني بأنه يتحتَّم عليَّ أن أقدِّم له تاريخ نبيهم محمد، كما رواه الرجال المتعلِّمون من الإنجليز والشعوب الأوروبية الأخرى. وكانت هذه بالأحرى نقطة حسَّاسة؛ لذلك سألت جلالته، ما إذا كان ذلك سيقود إلى أي محاولة لإجباري على اعتناق الدين الإسلامي؟ فأرسل إليَّ كلمة تقول: «لا، مطلقاً».

فكتبت الآتي:

حفظ الله نصرَ الله بهادر، أمير المسلمين وشاهين بخارى، أكثر العارفين من علماء بخارى الشريف!

أُقَدِّرُ حكمة جلالتكم، المتطلِّعة إلى معرفة العادات والأساليب والعواطف الدينية للشعوب الأخرى، مقتدين في هذا بجَدِّكم العظيم تيمور كوركان. لقد أمرني جلالتكم بلطف أن أكتب تاريخ محمد كما يراه المؤرِّخون النصارى؛ وهو أكثر المهمات صعوبةً بالنسبة إليَّ للقيام بها:

---

(١) ولكننا لم نلمس فيهم هذا الرعب في الحروب الصليبية، عندما قتلوا آلافاً مؤلفة من البشر، ولم نلمسه بعد ذلك في احتلالهم أمريكا وإبادتهم السكان الأصليين، ولم نلمسه في حملاتهم الاستعمارية التي قاموا بها في شتى أصقاع الأرض، وما زالوا...

(٢) ليسوا الوحيدين في ذلك، بل ليسوا السبَّاقين في ذلك أيضاً. فتُخبرنا كتب التاريخ أن الوليد بن عبدالملك أول من بنى البيمارستان ودار المرضى، وأمر بتخصيص خادم لكل واحد من الزمنى (المقعدين) والمجذومين والعميان والمساكين والأيتام، بل جعل للزمْنى ديواناً خاصاً، وقال: لأدعنَّ الزَّمِنَ أحب إلى أهله من الصحيح.

أولاً: لأنني لست على درجة كبيرة من العلم باللغة الفارسية بحيث أكتب بأسلوب بلاغي، كما يستحقُّ مثل ذلك الموضوع.

ثانياً: أتمنى أن أقوم بهذه المهمة بطريقة تجعل التاريخ يتناغم مع الحقيقة، وفي الوقت نفسه لا يجرح مشاعر أحد. ولكن؛ وحسب دين المسيح، يجب أن نطيع أوامر الملوك ما دامت أوامرُهم لا تَحْقِرُ أوامر المسيح؛ ولأن جلالتكم وعد بأنَّ قيامي بذلك لن يقودني إلى التخلِّي عن ديني، فقد أذعنت لأمر جلالتكم بكتابة تاريخ محمد بن عبدالله، نبيِّ المسلمين.

لقد كانت الإمبراطورية الرومانية في انحدار، وكان أتباع المسيح متناسين تعاليم الإنجيل، منغمسين في الرَّذيلة، وبلاد فارس في حالة من الخمول والوَهَن، والحكومة اليونانية، القاطنة في المكان المسمَّى في ذلك الوقت بيزنطة، ويُسمَّى الآن إستانبول، منحدرةً في أخلاقها؛ وكانت عربستان مقسَّمة بالخلافات الداخلية في الشؤون الدنيوية والدينية أيضاً؛ فلا عجب أن يرسل الله عقابه على كل هذه الشعوب. ولذلك كانت هناك حاجة إلى رجل يحقق خضوع آسيا وجزء من أفريقيا. وقد ظهر هذا الرجل في شخص محمد، من أسرة هاشم، من قبيلة قريش(١).

كان الإشراف على الكعبة في مكة في بدايته وراثيّاً في أسرة إسماعيل؛ بعد ذلك بقرون، أُنيط بقبيلة خزاعة، وفي عام ٤٦٤ بعد المسيح، جرَّدت قبيلة قريش الخزاعيين من هذا الشرف بالمكر(٢)، وبعد ذلك بالقوة المسلَّحة. إن

---

(١) بل هي إرادة الله، وليست إرادةَ أحد غيره. والمسألة لا تتعلق بإخضاع أجزاء من العالم، ولم يأت محمد ﷺ عقاباً للناس، ولكنه جاء لتبليغ رسالة الله الخاتمة إلى الناس أجمعين وهدايتهم إلى دين رب العالمين. والله سبحانه يقول في ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. (المترجم).

(٢) قبل خزاعة تسيَّدت جرهم على مكة، والمعروف أن حرباً قامت بين قريش والخزاعيين=

منصب الإشراف على الكعبة يتمتَّع بمزايا معينة: فالشخص الذي يحتلُّ مكانةً بهذه الرفعة يتمتع، ليس بالتأثير في مدينة مكة، ولكن في شبه جزيرة العرب كافة، حيث إن البيت الحرام كان موضعَ تبجيل بين القبائل كلِّها. وهذا الشرف الرفيع، المندمج مع حكومة مكة، تدرَّج عبر أربعة أجيال إلى عبدالمطلب بن هاشم، جد محمد، الذي كان أميراً ورئيساً على قبيلته. وقد قدَّم عبدالمطلب معظم الخدمات الأساسية لبلده. ومن أجل الحَيْلُولة دون حدوث مجاعة، وَفَّرَ والد عبدالمطلب، في زمن سابق، تنظيماتٍ دائمةً، في شكل توريد منتظِم للحبوب، وذلك بواسطة قافلتَيْن كبيرتي العدد، تغادران وتعودان بصورة دورية؛ وقد قام عبدالمطلب نفسه بتحرير بلده، بحَصَافة وبَسَالة، من نِير الأحباش. ولم يشمل تحريرُه الرجالَ فقط، ولَكِنَّ الطيور في الجو والحيوانات في الحقول شعرت بتأثير كرمه. وفي يوم معين من كل شهر كان يطعم جميع فقراء المدينة فوق سطح منزله؛ ويوجِّه كذلك خَدَمَه كي يحملوا طعاماً مناسباً للحيوانات فوق التِّلال. وقد تُوِّجَ عبدالمطلب كذلك بكمال البركات الداخلية؛ حيث أنجب ثلاثة عشر ولداً واعداً[1]، وست بنات جميلات. وكان عبدالله أحدَ أبنائه اليافِعين، وكان طفلَه المفضّلَ. ولقد كان جوهرة الشباب العربي. ولم تكن آمنةُ بنت وهب أقلَّ جمالاً، وكانت ذا حياء، يهودية من أسرة نبيلة من زُهْرة[2].

= تغلَّب فيها قُصَيٌّ على أمر مكة والبيت. انظر: الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، الطبعة الشرعية، دار ابن الجوزي ص٣٧-٣٨. (المترجم).

(١) الصحيح عشرة من البنين. المرجع السابق. (المترجم).

(٢) هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، و تعدُّ يومئذ أفضلَ امرأة في قريش نسباً وموضعاً. انظر: الرحيق المختوم، المرجع السابق. ولا أدري كيف ينسبها المؤلف إلى اليهود؛ إذ لم يقل بذلك أحد من المؤرخين القدماء والمحَدِّثِين. (المترجم).

زوّج عبدالمطلب ابنه المفضَّلَ هذه الفتاة الجميلة. ولكن في السنة الرابعة من زواجها، وعندما كانت على وشك الولادة، تُوُفِّيَ زوجُها، الذي كان في رحلة للتجارة، في يثرب، والآن تُسمى المدينة. ولم يكن لدى عبدالله الوقت الكافي ليصبح ثريّاً؛ وكان كل ما تركه لأرملته المحزونة يتكوَّن من خمسة جمال وأَمَةٍ حَبَشِيَّةٍ اسمها بركة. وبعد شهرين من وفاة زوجها، في مساء الثاني عشر من ربيع (العاشر من أبريل ٥٦٩ بعد الميلاد)[1]، ولدت آمنة صبياً، سماه جدُّه محمداً.

ولكي يحتفل بالولادة السعيدة بابنه، أقام عبدالمطلب مَأْدُبَة رائعةً، دعا إليها أكثر مَنْ في الأسرة تميُّزاً، وفي حضورهم أطلق على حفيده اسم محمد. ويضيف المؤرِّخون العرب أن قريشاً ذُهِلَتْ من هذا، وقالت لعبدالمطلب: «لماذا تسمي الصبيَّ بهذا الاسم؟ فليس أحد من قبيلتك يحمل هذا الاسم»، فأجاب عبدالمطلب: «إن الله سوف يُعظِّم في السماء مَنْ خلَقَه على الأرض».

وعلى أية حال، فإننا - نحن النصارى - نقول إن الأحداث الخارقة التي قيل إنها حدثت عند ولادته، حسبما ذكر أبو الفداء والمكين[2] والمسعوديُّ، هي بوضوح ترديد لرواية الإنجيل حول ولادة المسيح؛ مثال ذلك: أن أشعة ضوئية ظهرت في السماء، فأضاءت كلَّ البلدات والقرى والأسواق في كافة أرجاء جزيرة العرب وسورية؛ حتى إن كثيراً من الكُتَّاب المسلمين يشكُّون في هذه الحقائق، وحتى علماء السنة[3].

---

(١) بل هو العشرون أو الثاني والعشرون من أبريل عام ٥٧١ بعد الميلاد. انظر: الرحيق المختوم، ص٤١.

(٢) هو جرجس بن العميد إلياس المتوفى سنة ٦٧٢هـ، وله كتاب: تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم إلى الدولة الأتابكية، وقد نشره المستشرق الهولندي أربينيوس في لايدن سنة ١٦٢٥م، انظر عنه: بروكلمان، باللغة الألمانية ١/٣٤٨.

(٣) هذا الرأي يتبناه معظم المستشرقين والمنصِّرين. فهم لا يُقرُّون بنبوة محمد ﷺ ويذهبون إلى أن محمداً تعلَّم على رجل اخترعوا له اسمَ سرجيس أو جورجيس، وقد=

أُودِع محمدٌ في عناية مُرضِعة اسمها حليمة، وعندما شبَّ بما فيه الكفاية، صار يرعى أغنام إخوته وأخواته من الرَّضاعة. وشبَّ الصبي مزدهراً، مفعَماً بالروح وقوة الجسد؛ غير أنه كانت تهاجمه نوبات صرع جعلت تزداد إلى حدٍّ أخاف حليمة واضطرها أن تعيده إلى رعاية أمه[1]. غير أن أمَّه توفيت وهو في عامه السادس، وهي في رحلة زيارة إلى عمها، وقد دُفنت في الأبواء[2] بين المدينة ومكة. فكفل عبدالمطلب محمداً؛ غير أنه توفي والصبي في عامه الثامن، وكان عبدالمطلب يناهِز المئة وعشر سنوات، وقد أوصى في ساعة موته باليتيم لعناية أبي طالب، الذي خَلَفَه في شرافة مكة.

كان أبو طالب رجلاً حكيماً، محترَماً في مكة وفي البلاد المحيطة كلِّها، وقد كان تاجراً ومحارباً وصيَّاداً. فأخذ على عاتقه تعليمَ محمد، ودرَّبه على المشقَّة العسكرية، وحاول أن يغرس فيه الشجاعة، فأخذه في رحلات صيد الأُسُد. إلى جانب ذلك، جعله يتعرَّف إلى الأعمال التجارية؛ ولهذا الغرض أخذه في رحلة إلى سورية. وكان من بين أصحابه في السفر أبو بكر وبلال، وهما اللذان أصبحا فيما بعد أكثرَ أنصاره حماسةً في نشر دينه الجديد[3]. وفي تلك الرحلة مرُّوا بالقرب من بُصْرى، في سورية، بجوار دمشق، حيث كان أبو

= زوَّدهم بيدرو أو بطرس الفونسي المتنصِّر برأي آخر؛ فقال: «إن معلم محمد كان يهودياً مرتداً». وهذان الرأيان هما أساس الاستشراق اليوم وأساس التنصير، والسبب أن كثيراً من المستشرقين اليوم ما يزالون يردِّدون أن الإسلام بقرآنه وحديثه، بل وحضارته، مستمدٌّ من اليهودية والنصرانية... ولا يختلفون في أن القرآن من صنع محمد. انظر كتاب **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**، لقاسم السامرائي، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى ص٥٦. (المترجم).

(١) لم يرد في كتب السيرة أن صرعاً كان يصيبه، ﷺ، فقد يكون الأمر التبس على المؤلف في حادثة شق الصدر، التي بعدها خافت عليه حليمة وردَّته إلى أمه. (المترجم).

(٢) في الأصل: الأبا (Al-Aba) ويريد الأبواء.

(٣) لا يوجد مسلم ينسب الدين الإسلامي إلى محمد، فالدين دين الله ومحمد رسول=

طالب على معرفة ببعض الرهبان المندائيين، الذين يسكنون هناك. وكان بَحِيرا راهبُ ذلك الدَّير، قد أبدى ملحوظة تقول: «سيصبح محمد رجلاً عظيماً»، واعتقد محمد في نفسه أنه سيكون الرجل الذي اختارته يد العناية الإلهية(١). وقد سمع بشكل متكرِّر الحكماء، في منزل عمه، يحثُّون على ضرورة اندماج أديان العرب المتضادة بعضها في بعض، في التسليم لدين واحد واعتقاد واحد، وتوحيد القبائل المكونة للشعب تحت طاعة عقيدة واحدة عامة.

إلى جانب ذلك، فإن العادات التاريخية للعرب تحوي الكثير من التشابه مع ما كان عند العبرانيين، وتتوافق معها في الكثير من النقاط؛ وبما أنهم من العنصر السامي، فقد تتبعوا أصولهم بدءاً من إبراهيم والآباء المقدَّسين الآخرين منذ بدء العالم البدائي. ولهذا السبب، فإن تعاليم الإيمان النقي، والعبادة البسيطة التي كان عليها الآباء الأوَّلون للإله، يبدو أنها لم تَخْبُ تماماً بين العرب(٢). وبهذه الطريقة انقدحت شرارة في مخيلة محمد المتوقِّدة(٣)، نتج منها ذلك الحريق العربي الجبَّار الذي انتشرت أَلْسِنَةُ لهيبه إلى تركستان

= الله ﷺ. ويبدو أن الكاتب يتعمَّد نسبة الدين إلى محمد؛ لينتهي إلى أنه ليس ديناً سماوياً. وهو كذلك ينقل أخباراً ضعيفةً؛ فلم يكن أبو بكر معه في هذه الرحلة، ولا بلال. راجع السيرة النبوية، لأبي الحسن علي الحسني الندوي ص١١٥، ١١٦ (المترجم).

(١) هذا ادِّعاء غير صحيح، فمحمد ﷺ لم يكن يُعِدُّ نفسه ليكون نبياً، ولم يعتقد أنه سيكون كذلك؛ فالنبوة ليست صناعة بشرية تُكتسب بمجهود ذاتي، وإنما هي اصطفاء ومنحة من الله سبحانه يمنُّ بها على بعض عباده الأخيار، وكان منهم محمد ﷺ.

(٢) معظم المستشرقين والمنصِّرين يرون هذه الرؤية، ويذهب بعضهم إلى ما كتبه منتجومري واط حيث يقول: «إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله: ذلك التأثير التاريخي للتراث اليهودي النصراني». انظر كتاب **المستشرقون الناطقون بالإنجليزية**، دراسة نقدية. تأليف الدكتور عبداللطيف الطيباوي، ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي، إصدار جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣٤ (المترجم).

(٣) انظر التعليق رقم (٢) في الصفحة السابقة.

وهندوستان وأفغانستان، بوساطة أبناء الصحراء.

بعد عودتهم إلى مكة استأنفوا مهنهم المعتادة، وأمضى محمد، كما في السابق، وقته بين مهن تجارية وأعمال عسكرية؛ ولطول قامته وسلوكه اللَّبِق، عُدَّ أكثرَ الرجال وَسَامَةً وروعة في جزيرة العرب. وعندما كان في العشرين من عمره، انفجرت عداوة بين قبيلة قريش وقبيلتي كنانة (*the Rechabites*)[1] وهوازن. وبأمر من أبي طالب، تولى محمد إِمْرَةَ كتيبة صغيرة من الفرسان[2]؛ وقد تميز كثيراً بشجاعته وجَسَارته، وكذلك بترتيباته المتَّسمة بحُسن التمييز، إلى حدٍّ أنه كان هناك إجماع من الموالين والمعارضين له، على أن النصر يُعزى إلى بسالة محمد. وقد امتنَّ أبو طالب وبيت آل هاشم كثيراً بالمجد العسكري الذي حققه.

وكانت هناك ظروف أخرى اشتركت في رفع سمعة محمد؛ فقد شكَّلت الكعبة في مكة - قبل زمن محمد بوقت طويل - حرماً عظيماً للعبادة عند العرب؛ فقد حوت الحَجَر الأسود، الذي يُعَدُّ موضعَ الإخلاص الديني للعرب منذ القِدَم. ويقابلنا شكل مشابهٌ من العبادة لهذا لدى السيخ في لاهور، فيما يتعلق بحجر يسمى سالكرام. وعندما بدأت قبيلة قريش في بناء المعبد، اختلفوا في الكيفية التي يجب أن يُوضَعَ بها الحجرُ الأسود في الجدار، وما

---

(١) الريشابيت: أحفاد ريشاب من طريق جوناداب أو جيهوناداب. وهم قوم من الكنعانيين صاحَبوا بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة وعاشوا بينهم. وعاش الكنعانيون في المدن، ولكن جيهوناداب حرّم على أحفاده شرب الخمر والعيش في المدن، وهم مأمورون أن يعيشوا حياة البدو. ويذكر المؤلف أنه التقى بقوم منهم في اليمن. غير أن المباركفوري في كتابه «الرحيق المختوم» يقول: إن الحرب كانت بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان (مرجع سابق ص٧٦)، ويقول الندوي: إنها جرت بين قريش وبين قيس، (مرجع سابق ص١٧٠) (المترجم).

(٢) لم يرد في كتب السيرة أنه ﷺ قاد كتيبةً، وإنما ورد أنه حضر هذه الحرب، وكان ينبل على عمومته؛ أي: يجهز لهم النبل للرمي، كما أنه كان في الخامسة عشرة، وليس في العشرين.

الأيدي التي يجب أن تلمسه، ودون توقُّع وقعت القرعة على الشاب محمد؛ ومنذ هذه اللحظة أصبح يسمَّى الأمين(١).

وكانت خديجةُ، الأرملةُ الثريةُ، قد وكلته في تجارتها. وقد عاد نيابةً عن مُوكلِته إلى سورية، واستأنف معرفته مع بحيرا في بصرى؛ الذي أطلعه على محتويات الكتب العتيقة(٢)، كما حدثه سليمان اليهودي(٣) عن توقُّعات الشعب اليهودي؛ وأمل اليهود الذي ما زالوا يحملونه حول المجيء المستقبلي لنبيٍّ ومنقذ، وهو ما عمل بقوة في عقل محمد ومخيلته.

وفي إطار خدمته لخديجة قام محمد برحلات أخرى إلى أقصى جزيرة العرب والخليج (الفارسي)؛ وقد عَبَرَ الفراتَ ووقف على الأطلال البابلية وزار بلاد الرافدين وفارس(٤). ولم يعد يسافر بوصفه وكيلاً تجارياً فقط، ولكنه حاول أن يثري عقله وفكره بعلوم مختلفة. وحيثما حلَّ حاول أن يتعرف إلى حال البلاد، وقوانينها وطبائع سكانها الأصليين، وعلى وجه الخصوص الأديان المختلفة؛ وقد كان الموضوعُ الرئيس لاهتمامه: الانقسامات ِغيرَ المنتهية، التي يلاقيها أينما حل. وكانت لديه رغبة جارفة نحو المعرفة، جعلته يلتحم مع أي شخص يعتقد أن بإمكانه تعلُّم شيءٍ ما منه. وتردَّد في بعض الأحيان إلى مجموعات من أتباع يوحنا المعمدان والزرادشتيين والمانويين والطوائف الأخرى(٥).

---

(١) إنما سُمِّي بالأمين لأمانته وصدقه؛ وهما الصفتان اللتان اشتهر بهما منذ صباه الباكر وقبل حادثة وضع الحجر الأسود. (المترجم).

(٢) ورد عند مؤرخي المسلمين حدوث اللقاء الأول وحوله الكثير من الكلام؛ حيث إن رواياته كلها مرسلة، ولم تثبت عنه، ﷺ. أمَّا لقاءٌ ثانٍ مع هذا الحبر فغير وارد. انظر السيرة النبوية للندوي ص١٦٦-١٦٩ (المترجم).

(٣) لا ندري من سليمان اليهودي هذا الذي اخترعه المؤلف!

(٤) من أين جاء هذا الرجل بهذه الأخبار؟! إذ لم يرد عند أحد من المتقدمين أو المتأخرين ممَّن كتب في السيرة النبوية أن محمداً ﷺ قد زار هذه البلاد التي يذكرها جوزيف وولف.

(٥) هذا الكلام غير صحيح، كانت رحلته الثانية إلى الشام بتجارة لخديجة بنت خويلد=

وفي أحد الأيام كانت خديجة تمشي مع صاحباتِها في طريق منزلها، ورأت محمداً راجعاً من رحلته، فأرسلت خديجةُ إحدى إمائها خلفه، طالبةً منه أن يتزوجها؛ ومنحته يدها حين كان كلُّ ما يملك لا يعدو خمس نياق وأَمَةً أثيوبية. وقد أقيم حفل رائع للزواج، دُعي إليه كلُّ سكان مكة. وعاش محمد وخديجة مع بعضهما أربعة وعشرين عاماً سعيدين راضيَيْن، وقد رُزقا بأربعة أبناء وأربع بنات[1]. ولم يعش أيٌّ من الأبناء، أمَّا البنات فقد كبُرن؛ وكانت أسماؤهن: فاطمة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم. وعاش خمسة عشر عاماً متابعاً وظائفه المجتمعية على أتمِّ وجه، معاملاً كلَّ البسطاء بتواضع جَمٍّ، وكان أكثرَ الأزواج رقةً، وكانت شخصيته الأخلاقية دون شائبة، وأداء تصرفه دون انتقاد أو لوم.

وقد تابع لبعض الوقت رحلاته التجارية، وفجأة فقد في الحال كل رغبة في السفر، وأحب الاعتزال أكثر فأكثر، وانسحب في النهاية، خلال جزء من كل سنة، إلى غارٍ يبعُد مسافة ثلاث ساعات من مكة، مستغرقاً في التأمل؛ وفجأة أعلن نفسه - بداية لخديجة وأطفاله - أنه رسول الله الذي طال انتظاره. وكان ذلك في ليلة الثالث والعشرين والرابع والعشرين من رمضان، في ليلة الحكم الإلهي، التي أعلن محمد أنه سمع صوتاً فوق جبل أبي قبيس. وعندما نزل من الجبل، كما يروي المؤرخون العرب بعد عدة قرون من وفاته[2]، أضاء نور سماويٌّ فجأة حول البلاد، ونزل القرآن من السماء. وكان

= تعاقدت معه عليها، ولم يرد في السير أنه سافر إلى بلاد ما بين النهرين أو كان له اهتمامات بغير التجارة التي ذهب لإنجازها بأجر من السيدة خديجة (رضي الله عنها). انظر الرحيق المختوم ص٧٨. (المترجم).

(١) هنا بعض الخطأ، حيث إنه، ﷺ، رُزق من خديجة بأبنائه كلهم سوى إبراهيم، وقد رُزق منها بالقاسم وبه يُكنى، وعبدالله الذي كان يلقب بالطيب والطاهر. يراجع الرحيق المختوم، وكذلك السيرة النبوية للندوي. (المترجم).

(٢) هذا غمزٌ خفيٌّ خبيث من المؤلف بأن السيرة النبوية لم تدوّن إلا بعد زمن طويل من=

حامله، حسب رواية نبيكم، الملاك جبريل، الذي علَّم محمداً كذلك القراءة؛ وقال إن الملاك جبريل قد نادى بأنه أرفع نبي لله، الأمر الذي لا نصدقه نحن النصارى. وعاد الملاك جبريل بالقرآن معه إلى السماء، ولكنه أكد لمحمد بأنه سوف يعطيه، من وقت لآخر، وحيث تبرز المناسبة، أجزاءً منه، مقسَّماً على سور. وأعلنت خديجة الإيمان به؛ وأصبح وَرَقَةُ، وهو يهوديٌّ ومترجم للإنجيل[1]، كذلك من المؤمنين به؛ بعده عليٌّ وعبدالله الذي سُمِّي أبا بكر، والد العذراء، حيث تزوج محمد ابنته.

وقد قام أبو بكر، البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، وهو رجل ذو ثقل كبير، باستمالة رجال آخرين من ذوي السلطان لاعتناق معتقدات نبيكم[2]. وعلى أية حال، فقد اقتصر محمد في البداية على الأقربين من معارفه وأقاربه، وكان يعلِّمهم في بعض الأحيان بنثر أنيق، وفي أحيان أخرى بآيات، مبادئَ دينيةً، وفي غضون ثلاث سنوات استطاع أن يجمع قرابة أربعين من المؤمنين به. وفي النهاية أعلن أن جبريل قد أمره أن يدعو الناس علناً، ومن فوق سطح المنزل، كُلَّ الأمة[3].

= وفاة الرسول ﷺ. ولكن سيرة النبي ﷺ وأحاديثه الشريفة نُقلت بالسند المتصل بين رواتها، وقد وضع علماء الحديث ضوابط وقواعد في غاية الدقة لبيان الروايات الصحيحة من غيرها.

(١) الصحيح أنه حُبِّب إليه ﷺ الخلاء عندما قارب الأربعين، وكان يأخذ السَّويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور للعبادة والتفكر، ثم كانت بوادر النبوة الَتي منها الرؤيا الصادقة، إلى أن أرسل الله، سبحانه وتعالى، جبريل عليه السلام بالنبوة وآيات من القرآن. ولم يعلمه القراءة كما زعم المؤلف ولم يُنزل القرآن، كما زعم المؤلف أيضاً، دفعة واحدة وإنما تنزَّل سوراً وآيات، وورقة بن نوفل لم يكن يهودياً، ولكنه كان من العرب الجاهليين الذين تنصَّروا. انظر الرحيق المختوم ص٨٧، ٨٨ (المترجم).

(٢) إذا كان أبو بكر يبلغ من العمر ٣٤ عاماً زمن البعثة، فكيف يقول بأنه رافق محمداً ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام، أليس في هذا تناقض. (المترجم)

(٣) بل هي آيات من عند الله سبحانه وتعالى، وأحاديث لا ينطق صاحبها عن الهوى وليس=

ودعا قبيلة هاشم إلى عشاء متواضع، وبعد أن انتهوْا من تناول الطعام، بشَّرهم بسعادة في هذه الحياة الدنيا، وكذلك في الآخرة، إن هم اتبعوا دينه. فنظر الضيوف إليه باندهاش كبير، معتقدين أنه مجنون. فهدَّدهم محمد بالخلود في النار، فاستشاط أبو لهب، أحد أعمامه، غضباً، إلى حد أن رماه بحجر؛ وعندها تدخَّل عليٌّ، وأعلن أنه سوف يحطم أسنان أي شخص يجرؤ على مقاومة النبي، وأن يفقأ عينيه، ويمزق أحشاءه ويكسر عظامه. وقد ابتهج محمد كثيراً بموقف علي الرائع، بحيث ضمه أخاً له؛ ولكنه عندما تمادى إلى حدٍّ أن يرشِّح عليّاً، الذي كان في ذلك الوقت في الرابعة عشرة من عمره، خليفةً له، يطيعه كلُّ شخص، أخذت الضيوفَ نوبةٌ من الضحك. وكان عُدم التوفيق في هذه المحاولة الأولى أقل من أن يُثَبِّطَ هِمَّة محمد؛ وتحت حماية أبي طالب، الذي رغم أنه لم يعتنق الدين الجديد، لا يزال يؤيد مسعى ابن أخيه، ظهر محمد أمام الناس بدعوى نبي، وأعلن عقيدته باسم الإسلام. وكلَّما قاومه الناس أكثر ازداد في المضيِّ قُدُماً[1].

وقد حاولت قريش القضاء عليه، ولكن ذلك كان دون جدوى. كان محمد ضعيفاً جداً كي يقاوم بشكل علنيٍّ؛ لذا فقد نصح أتباعه أن يهربوا من مكة. فلجأ ثلاثة وثمانون منهم مع زوجاتهم وأطفالهم إلى ملك الحبشة، وظل محمد في مكة تحت حماية عمه. وقد ذهب كبار قريش إلى أبي طالب، وقالوا له: «إن ابن أخيك يَسُبُّ ديننا وأجدادنا الحكماء، ويتّهمهم بالجهل والكفر، محدِثاً

= فيها ما هو نثر أنيق. وجبريل لا يملك أمر النبي ﷺ وإنما الله سبحانه وتعالى. والصحيح أنه عندما أمره الله بالجهر بالدعوة صعد ﷺ الصفا وليس سطح المنزل. (المترجم).

(١) فيما قاله المؤلف كثير من المغالطات والأخطاء، ولو ردَدْنا على كل نقطة مما قاله لطال بنا الأمر، ولا نملك إلا أن نحيل القارئ الكريم إلى كتب السيرة النبوية؛ وما أكثرها؛ أما ما ورد في هذه الفقرة ففيه خلط كثير وافتراء أكثر.

شِقاقاً وعِصْياناً»، فأجاب محمد: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ما أنا عليه».

وعلى أية حال، فعندما حاولت قريش قتلَه التجأ إلى منزل محصَّن فوق الصفا، بالقُرب من مكة، ودافع عنه تسعة وثلاثون من أتباعه[1]. ولم يَكَدْ يُمْضِي شهراً هناك حتى كسب إلى صفِّه رجلين قويين؛ هما: عمُّه حمزةُ، وعُمَرُ. وتحت حمايتهما ترك محمد الصفا، وتقدم نحو الكعبة مع كَوْكَبَةٍ مسلَّحة من الرجال، وخطب بِرَبَاطَةِ جَأْشٍ في أسواق مكة. فقامت قريش بتحدِّيه أن يأتي بمعجزة. فكان جوابه في إحدى المناسبات: «أنه أُرسِل ليكون واعظاً فقط، وليس ليأتي بمعجزات»، وفي مرة أخرى أجاب: «إن الله، وبرحمته، لن يأتي بالمعجزات؛ حيث إنها ستزيد فقط في إدانة الكفار الذين في النهاية لن يصدقوها»[2].

فاجتمعت قريش في وادي مكة، في وادي المحصَّب، من أجل التشاوُر. وكانت نتيجة مشاوراتِهم ألاَّ يضعوا أسلحتهم حتى يُبيدوا عدوَّ دولتهم المعلَن، مع أسرته بكاملها، سواء أكان ذلك بالسيف أم الخنجر أم السُّمِّ.

وقد علم أبو طالب بهذه المؤامرة؛ فأرسل في طلب محمد وأسرته آلِ هاشم؛ وفي الحال تحصَّنوا في منزل ريفيٍّ لأبي طالب، يبعد مِيلَيْن من مكة. وعندما علمت قريش بأن تآمرها قد اكتُشِف، قاموا بنفي محمد ومقاطعته علناً مع كل أسرته وأتباعه. وأغرَوْا عليهم، ولكنهم لم ينجحوا؛ حيث غدا قوياً جداً. فحاولوا

---

(١) لعله يشير إلى اجتماع النبي ﷺ بأصحابه في دار الأرقم، والتي هي أصل الصفا. وأن لجوءه إلى هذه الدار لم يكن تحصُّناً، ولم يكن هناك هجوم ودفاع، ولكنه كان يعلِّم أصحابه الدين. (المترجم).

(٢) لقد أُوتي ﷺ بمشيئة الله سبحانه أعظم المعجزات الباقية إلى يوم القيامة؛ وهو القرآن الكريم، الذي لا ينكر إعجازَه إلا جاحدٌ أو مكابر. (المترجم).

تجويعهم بالحَيْلولة بينهم وبين الآبار والتموين؛ غير أنه كان لديه أصدقاء كُثُرٌ. في حصنه أعلن لَعْنَتَه[1] على أبي لهب. فتحاربوا ثلاث سنوات بنصر وهزيمة متعادلتين؛ وفي غضون الأشهر الحُرُم الأربعة، عندما يكون العرب ملتزمين باحترام هُدْنَة مُشَدَّدة، لا يُسمح خلالها باستخدام السلاح أيّاً كان نوعه، كان محمد يخرج من حصنه عارضاً نفسه على أهل مكة وعلى الحجاج الوافدين إليها، مبيناً لهم أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، إذ إن الاضطهاد الذي تعرض له ملأه حماسة، وهذا هو التأثير الطبيعي الذي يحدثه الاضطهاد[2].

كان يتحدث بفصاحة مذهلة، أوقعت كلَّ جملةٍ تلفَّظ بها على رؤوس أعدائه وقع الصاعقة؛ ودخلت أعدادٌ كبيرة في حزبه، من بينهم أكثر مواطني المدينة شهرةً.

وفي هذه الأوقات المضطربة، عندما كان هناك خشية من سقوط مكة ودمارها تماماً، اختار العرب حبيباً، وهو أحد أمرائهم الأقوياء، الذي كان تحت إمرته عشرون ألفاً من الفرسان، حكماً بينهم وبين بني هاشم. كان حبيب في المئة من عمره، يهودياً في شبابه، ثم صابئياً، وبعدها نصرانياً، ولكنه مشهور في اليمن لحبه العدلَ والحكمة. وقد قبل أن يكون حَكماً، ونصب مخيَّمه مع ثلاثة آلاف خيَّال في وادي المحصَّب. ومَثُلَ محمد أمام مجلس الحُكم لحبيب؛ إلا أن محمداً عرف كيف يقدم قضيته بحضور ذهني، جعل حبيباً يبرؤه باحترام، إلى حدٍّ أن أدخله في حمايته. وقد أبدى حبيب الأمر لمن حوله بالقول: «لا شيء يمكنه أن يَكْبَحَ هذا السيل القوي. سوف ينجح، وسوف تتحطَّم الوثنية!». وهكذا عاد الهدوء إلى مكة، ولكن لمدة قصيرة[3].

---

(١) بل هي لعنة الله سبحانه، في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

(٢) يشير إلى حصار قريش لبني هاشم وبني عبدالمطلب في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنوات. (المترجم).

(٣) تم نقض صحيفة الميثاق في مقاطعة بني هاشم وبني عبدالمطلب سنة عشر من النبوة، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، تعاقد مع زهير بن أبي أمية المخزومي=

استفاد محمد من الهدنة القصيرة لكي يلغي حكم المقاطعة الذي أصدرته قريش ضد الهاشميين، تلك المقاطعة التي أُودعت في الكعبة. فأرسل إلى قريش يخبرهم أن الله أوحى إليه بأن الأَرَضَة قد أرسلها الله داخل الكعبة من أجل أن تقرض مُستَنَد المقاطعة المودَع في التابوت (الأرك)، ما عدا تلك المساحة المكتوب فيها اسم الله. فقامت قريش بفحص المستند؛ وعندما وجدوا الأمر كذلك قاموا بإلغائها.

وفي السنة العاشرة من دعوته، مات عمُّه أبو طالب وزوجته خديجة؛ وخلف أبا طالب في حكومة مكة عدوٌّ أسرته اللدود أبو سفيان، من قبيلة أُمَيَّةَ. وبسبب الخوف، ترك محمداً الكثيرُ من أتباعه؛ ولذلك ذهب في رحلة إلى الطائف، التي تبعُد ثلاثين ميلاً باتجاه الشرق من مكة، بصحبة مريده المخلص زيد، حيث تلقَّى استقبالاً بارداً، وطُردَ من المدينة؛ بعد أن نعتوه بالجنون.

زادت المقاومة والعَقَبات من جرأة محمد وشجاعته؛ فعاد إلى مكة، ودون أدنى التفات إلى تهديدات أبي سفيان، وعظ حُشودَ الحجاج من على سطوح المنازل، وكوَّن مجموعات من المهتدين حديثاً، وكسب لمعتقده ستةً من أكثر مواطني المدينة احتراماً، من قبيلتي الأوس والخزرج النبيلتين، المتحالفتيْن مع قبيلتي بني قُرَيْظَةَ وبني النَّضِير اليهوديتيْن، اللتين كان لهما أكبر الأثر في المدينة وفي أرجاء دولة العرب كافة. وقد تعاهد هؤلاء المواطنون الستة على التحالف مع محمد، وربطوا أنفسهم بيمين ألاَّ يتخلَّوا عنه، وأن يحملوا شهادة رسالته الإلهية لقبيلة الأَوْس وبقية القبائل. وقد وضعت حماسةُ هؤلاء الستة الأساسَ الأول لعَظَمَة محمد الدنيوية؛ وقدمت سيادته هذه اتجاهاً جديداً لتاريخ العالم.

وحتى هذه المرحلة، كان جبريل هو الوحيد الذي أعلنه نبياً؛ غير أنه في السنة

= وآخرين ليس بينهم حبيب كما ذكر المؤلف. انظر الرحيق المختوم ص١٣٤. (المترجم).

الثانية عشرة من دعوته حصل على دعم أعلى من ذلك. ففي الليلة العشرين من شهر رَجَب، وبينما هو نائم في الوادي بين الصفا والمروة، أيقظه فجأة صوتٌ يقول: «أيها النائم، استيقظ!» وعندما فتح عينيه، رأى جبريلَ واقفاً أمامه على هيئته الحقيقية، ملتفاً بأشعة من نور، وحول جبينه تاج ملكي، كُتب عليه، بضربات من نار الكلمات: «الله موجود، ولا شيء سوى الله، ومحمد رسول الله»[1].

أخبره الملاك أن العليَّ الأعلى دعا نبيَّه ليتحدَّث معه. وقد وقف حصانه، وعليه السرج واللِّجام، الْبُرَاق، أي الحصان المُضِيء، بالقرب من الملاك، وكان له رأسُ حصان، ولكنه بوجه إنسان، وجناحان مثل النَّسْر، وكان لونه أَشْهَبَ، يختلط بالبياض، ولكنه متألِّق مثل النجوم عندما ينيرها ضوء الشمس. وكان الحصان جامحاً، وعندما ذكَّره جبريل بأنه يقف أمام محمد النبي، لم ينفع ذلك شيئاً حتى وعده محمد أن يوفِّر له إسطبلاً جيداً في الجنة لراحته. عندها هدأ واستسلم. فأمسك جبريلُ باللجام، وبلمحةٍ وصلوا إلى القدس، حيث كان يقف عند بوابة المعبد حشدٌ من الآباء والأنبياء، راغبين في شفاعته وبركاته، متمنِّين له رحلةً سعيدة. وقد رُبط البراقُ إلى صخرةٍ، وصعد محمد مع جبريل على سُلَّمٍ إلى الأعلى تجاه السماء. وفي مدى دقائقَ معدودةٍ وقفا أمام أبواب مملكة السماء. وعندما أُخبر الحارس بأن جبريلَ ومحمداً واقفان بالخارج، فُتح الباب في الحال، وعندها تقدَّم شيخٌ للقاء محمد، وانحنى بتواضع بالغ، وتشفَّع بصلوات محمد. ولم يكن ذلك الشيخ سوى آدمَ، أبي البشر.

وتواصلت الرحلة إلى السماء الثانية فالثالثة فالرابعة فالخامسة فالسادسة فالسابعة. وكانت الأولى من الفضة مفروشةً بالجواهر؛ والثانية من الذهب، والثالثة من الألماس الشفاف؛ والأخرى معطرة بالكامل بروائح الزهور

---

(١) لعله يريد أن يقول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» (المترجم).

والورود؛ ولكن الخامسة لم يكن فيها سوى السَّناء والنور الإلهي. وتحادث مع إبراهيم في السماء السادسة، وهناك رأى ملاكَيْنِ مشغولَيْنِ باستمرار في كتابة أسماء بعض الرجال ومَحْوِ آخرين.

وفي السماء السابعة تركه جبريل، فواصل بنفسه التقدم إلى عرش الله. وعندما قارب مَسْنَدَ القدمين، قرأ النقش: «الله ولا شيء سوى الله». ووضع الله العظيم يديه على صدر محمد وعلى كتفيه(1). وأوحى الله إلى نبيه أسراراً عميقة، ومنحه الكثير من الامتيازات؛ معرفة اللغات، وامتياز أن يُبقي لنفسه الانتفاع الشخصي بالغنائم المأخوذة في الحرب. كما (تلقَّى) أمراً من الله بأن يؤدي أتباعُه الصلوات خمسين مرة في اليوم؛ والتي، على أية حال، خُفِّضَتْ، عند مراجعتِه ربَّه، إلى خمس صلوات في اليوم.

ورجع مصحوباً بجبريل إلى القدس، حيث ركب حصانه البراق، وفي غضون ارتداد طَرْفِ العين كان مرةً أخرى في السَّهْل بين الصفا والمروة، والتي تبعد ميلاً واحداً من مكة. وقد استغرقت الرحلة بكاملها أقلَّ من ساعة واحدة، والتي بحسابات العرب، كانت تتطلب أحد عشر ألف سنة، ومن ثَمَّ استأذنه جبريل في الرحيل، وذكَّر البراقُ الحصانُ، محمداً، بتواضع جَمٍّ، بوعده له أن يوفر له إسْطَبْلاً مريحاً في الجنة(2).

ولكن أصدقاءه طلبوا منه ألاَّ يحدِّثَ عن رحلته إلى السماء علناً؛ حيث إنها

---

(1) ما يقوله المؤلف أن الله سبحانه وضع يديه على صدر محمد ﷺ وعلى كتفيه يتوافق مع عقيدة التجسيم والتشبيه التي يعتقدها النصارى. ونحن نقول: إن ذلك لم يحدث، وما ورد في السيرة النبوية أنه ﷺ اقترب من عرش الرحمن.

(2) في هذا الوصف للإسراء والمعراج القليل من الحق، ولكنه يخلطه بالكثير من الهراء والافتراء، وأحيل القارئ الكريم لتفصيل كامل للإسراء والمعراج في كتاب «الرحيق المختوم» للمباركفوري، ص ص١٦٠، ١٦١، ١٦٢ (المترجم).

ستعرِّضه للسخرية. وعلى أية حال فقد ذكرها محمد على الملأ وصدَّقها أبو بكر؛ ولكنَّ قُريشاً أعلنت أنه لا بد أن يكون إما مجنوناً وإما دجَّالاً. غير أنه كان أكثر نجاحاً في المدينة، حيث لم تُصدَّق القصة فقط، ولكنها زُخْرِفَتْ من أتباعه. وبمساعدة مريده مُصْعَب، تحوَّل معظم أهل المدينة إلى صَفِّه. وأرسلوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأةً[1] من المدينة إلى مكة ليبايعوه؛ ووعدوه، بعد محادثة سِرِّيَّة معه، أن يساعدوه في الحرب، سواءً كانت دفاعية أم هجومية. وعيَّن في الحال اثني عشر زعيماً، منحهم سلطةً دينيةً ودنيويةً. وقبل أن يعودوا، سألوا الرسول محمداً: «بعد أن يعترف موطنك الأصلي بفضائلك واستحقاقك، هل ستتركنا؟» فأجاب بابتسامة قائلاً: «كل شيء مشترك بيننا: دَمُكم دمي؛ وسعادتكم هي سعادتي؛ وما يؤلمكم يؤلمني. إنَّ أواصر الدين وحَّدتنا مع بعضنا للأبد؛ نعم، أواصر الشرف والمصلحة العامة. فأنا صديقكم، وإلى الأبد عدو أعدائكم»، فأجابوا: «إذا خدمناك، ما سيكون جزاؤنا؟» فأجاب قائلاً: «الجنة». بعدها قالوا: «يا محمد، أعطنا يدك». فمدَّ يده، معاهداً، وتم الاتحاد إلى الأبد؛ ومنذ ذلك الوقت أصبح الإسلام الدينَ الحاكم والكوني لسكان المدينة[2].

وقد تسبب هذا الاتحاد في إحداث هلعٍ بين قبيلة قريش. وعقدوا العزم على أن يقتلوا محمداً، الذي انتشر أتباعه في الخارج؛ ولكن ابن عمه علياً أنقذه، والتجأ محمد إلى أبي بكر. وهرب الاثنان. وكان أبو بكر محزوناً بأفكار متشائمة. فسأله محمد: «لماذا أنت محزون؟ ألا تعلم بأننا لسنا وحدنا؟» فسأل أبو بكر: «من معنا؟» فأجاب محمد قائلاً: «الله».

---

(١) الصحيح ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان. الرحيق المختوم ص١٦٩ (المترجم).

(٢) ينظر بيعة العقبة الثانية، الرحيق المختوم ص١٦٩-١٧٥ (المترجم).

واختبأ الاثنان في غار في جبل ثَوْر. وأتت قبيلة قريش بالقرب من الغار، ولكنهم لم يلحظوهما. وبعد ثلاثة أيامٍ غادرا الغار. وتدبر أبو بكر جملين، ودليلاً وثنِيّاً اسمه عبدالله، وبدؤوا رحلتهم إلى المدينة. وفجأة لحق بهم سُرَاقَةُ، أحد فرسان قريش، الذي ركض نحوهم ومعه رمحه؛ ولكن حصانه جفل، ما أعطى محمداً وأبا بكر وقتاً للهرب، ووصلا سالمَيْن إلى المدينة.

هذه الرحلة سمِّيت الهجرة، في عام ٦٢٢م، وكانت بدايةَ حِقْبَةٍ جديدة. وبعد رحلة مُضْنِيَة مدة اثني عشر يوماً على طول ساحل البحر، وصلا في النهاية إلى المدينة في يوم الجمعة، عندما حقَّق محمد دخوله المَهيب والبَهيَّ، وقد لاقاه خمس مئة من المواطنين، وكل اللاجئين الذين سبقوه. وجلس فوق ناقة، تُظَلِّله مظلة من سعف النخيل عن الشمس. وكان أبو بكر راكباً إلى جانبه، وأمامه بُرَيْدَة ومعه راية في يده. حَيَّا الآلافُ النبيَّ في الطريق، ومن نوافذ المنازل. واستُقبل بصيحات البهجة والسرور. ورغب الآلاف أن يكون ضيفَهم، غير أن أبا طيب[١] كان له الفَخَارُ في استقبال النبي في منزله[٢].

وبعد أيام قلائل وُضِعَ حجر الأساس للمسجد ولمنزل له ولأسرته. وقد اكتملت البنايتان في أقلَّ من أحدَ عشر شهراً، حيث إن الجنة كانت هي المكافأة التي وُعد بها البُنَاة. بعد ذلك بدأ يمارس وظائف القائد الديني والملك. وأمَّ صلوات الجماعة؛ ووعظ بشكل يومي تحت نخلة؛ وعيَّن أوقات الصيام والوضوء. وأتى بصورة يومية المَجُوسُ والوثنيون والفُرْسُ واليهود إلى المدينة لمبايعة النبي، وقام بما رآه مناسباً من إصلاحات في الدولة. وفي النهاية عقد استقبالاً عاماً، وعيَّن القادة المدنيين والعسكريين، وأمر كل مسلم أن يحمل

(١) إنما هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) انظر الدخول إلى المدينة، الرحيق المختوم، ص١٩٣ (المترجم).

السيف، أو أن يدفع مشاركةً لتكاليف الحرب، في الاستدعاء الأول من الرسول؛ وقد وُسِمَتْ كلُّ حرب أُعلنت من محمد بالحرب المقدسة. وكان لديه خَتْمٌ كبير، نُقِشَتْ عليه الكلمات: «محمد رسول الله»[(١)].

ولَمَّا حدثت معركة بدر في عام ٦٢٣م، خرج أبو سفيان ومعه خمسة وسبعون ألفاً من الرجال لقتال محمد؛ وكان مع النبي خمسة عشر ألفاً[(٢)] (مقابل جيش أبي سفيان). ولأن محمداً هُزم مسبقاً، وسُمعت صيحات النصر في مخيم العدو، عندها تقدم بنفسه مع كَتِيبَة من الجنود من أحد الكمائن، وصاح بصوت مثل الرعد: «يا أيها الملاك جبريل! انزلْ مع أحد عشر ألفاً من الملائكة!»؛ فكان أن تطايرت الرماح، وانطلقت السِّهام في اللحظة نفسها؛ فتشجَّع جيشُه المهزوم، متخيلين أنهم محميُّون بجيوش غير مرئية من المحاربين السماويين، فدبَّ الخوف في جيش أبي سفيان وهربوا، وكسب محمد المعركة[(٣)].

---

(١) لا يخفى على القارئ ما في هذه الفقرة من تحريف وتخريف. (المترجم).

(٢) لا أدري من أين أتى المؤلف بهذه الأعداد لجيش المسلمين وجيش الكفار، ولماذا هذا التضخيم في العدد؟ فالثابت أن عدد جيش قريش كان قرابة الألف مقاتل مقابل زهاء ثلاثمائة من المسلمين.

(٣) يعتقد المسلمون بأن الرسول الكريم ﷺ لا يطلب النجدة من جبريل، فهو مؤيَّدٌ من الله، سبحانه وتعالى، ويطلب العون منه كما أمره بذلك ربه. وهنا يلحظ القارئ الغمز من المؤلف؛ حيث إنه لا يصدِّق بأن محمداً كان رسولاً، ولا يصدق بكرامات الله على رسوله وعلى المؤمنين، ولو كان ما ذهب إليه حقاً، فكيف تنطلي (الخدعة) على أتباعه ﷺ، وهم شهود الحادثة؛ ويكتشفها جوزيف وولف وأمثاله بعد مئات السنين؟ ثم إن هذا التأييد هو تأييد رباني من الله سبحانه، نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٥] (المترجم).

وبعد معركة بدر مباشرة، قامت معركة أُحُد، وحارب خالد بن الوليد جيش محمد. وكان تِمْثَالا اللاتِ وأوثال، حاميا جيش خالد، موضوعين على بعد مسافة قليلة، يحميهما قليل من الرجال. وكان محمد في تراجُع، عندما ركب متَّجهاً إلى عليٍّ، وأمره أن يسرع مع كتيبة من الفرسان نحو التمثالين، ويحطِّمهما إلى قِطَع. فامتثل عليٌّ لأمره بسرعة البَرْق. وعندما أدرك جيش خالد أن تمثاليهما دُمِّرا، هربوا، وكان محمد هو المنتصر[1].

أخيراً: في عام ٦٢٩م، قامت ابنة أحد الريشابيت (*Rechabite*) وهي مثل ياعيل (Jael) الأخرى[2]، التي ذُكِرَت في تاريخ اليهود، بالاضطلاع بتحرير جزيرة العرب من محمد. فقد دسَّت له السُّمَّ، وقد سبب له ذلك التهاباً في المخ. وقد قال لعمر: «لا أحد عانى مثل ما عانيت من الآلام، اذهب وأدِّ الصلاة في المسجد عني». وعندما صعِد عمر المنبر، أنهض محمد نفسه من فوق مضجعه، وقال للحاضرين: «اسكبوا ماءً بارداً فوقي». فامتثلوا؛ ومن ثَمَّ نهض

---

(١) في هذه الفقرة تخليط عجيب من المؤلف. صحيح أن خالد بن الوليد حارب المسلمين في أحد، لكن لم يرد أن صنمي اللات وأوثال كانا مع المشركين في تلك المعركة، ثم إنه لم يرد أصلاً أنه كان للمشركين صنم يُدعى أوثال، كما أن الغلبة في هذه المعركة لم تكن لجيش خالد، ولا للمسلمين. أما تحطيم الأصنام فكان في فتح مكة، وقد أسهم خالد بن الوليد رضي الله عنه في ذلك؛ إذ كان مسلماً حينئذ.

(٢) إشارة إلى ياعيل اليهودية التي قتلت سيسرا، رئيس جيش يابين ملك كنعان، وهو نائم في خيمتها، بوَتِد الخيمة، وهذا يدل على ما يتميز به اليهود من غدر وخيانة. وهو هنا يشبِّه اليهودية التي حاولت قتل النبي ﷺ بدس السم له بياعيل. انظر سفر القضاة، الإصحاح الرابع، الفقرات ١٩-٢٢. والريشابيت: هم قوم من الكنعانيين صاحَبُوا بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، وتزوج منهم موسى، وتزوجت ياعيلُ هيبرَ الكنعاني (المترجم).

من فراشه، وقال: «طالما بقي نَفَسٌ لديَّ سأقيم صلاة الجماعة بنفسي»، وذهب إلى المسجد وصاح على عمر بأن توقَّف. وأدَّى الصلاة بصوت عالٍ، وذهب إلى المنزل، واضطجع في فراشه، وأطلق ثلاث صرخات مخيفات. وكانت آخر كلماته: «رسول الله» وقضى نَحْبَه(١).

(١) هذه الصورة التي أوردها المؤلف تتوافق تماماً مع ما نشره المستشرقون والقُسس في القرون التي سبقته. والحق إن المرء يحار مع مثل هذا المؤلف، ماذا يأخذ من حديثه، وماذا يدع. حقائق قليلة مذكورة وسط ضباب كثيف من الترهات والأكاذيب والخيالات المريضة، والافتراءات على الإسلام ورسوله وأتباعه، والدس الكريه الذي يلوث - عن عمد - سيرة سيد الأنبياء ﷺ.

ونحن بين نارين، إما أن نترك حديث المؤلف على غثاثته، فيقال: عاجزون عن الرد، وإما أن نرد عليه، فيقال: مصادرون لحرية الرأي. لقد آثرنا أن يكون تعليقنا على تجاوزات المؤلف في حدود ما تقتضيه الضرورة، فلو نحن تتبعنا كل ما ذكره من خيالات سقيمة وأقوال لا تنفثها سوى قلوب مريضة لاقتضى الكتاب كتاباً آخر إلى جانبه، ولكن لنا في حصافة القارئ وذكائه وثاقب نظره ما يغنينا عن ذلك. ويكفي أن يعرف أننا نقدم له «وجهة نظر» لواحد ممن يُقال فيهم بين أقوامهم إنهم: أهل علم، والله يعلم أن العلم منهم براء، بله الإنصاف!!

الفصل الحادي عشر

المشاعر التي نتجت من حياة محمد. تعميم نُسَخ في أرجاء بلخ ومزار وكابل - تعليق شيخ الإسلام عليها. يار محمد خان ينصح الملك بقطع رأس الدكتور وولف. تعيين آق محمد بك رسولاً من بخارى إلى إنجلترا. خدم الكولونيل ستودارت يتسبَّبون بالأذى. الكولونيل ستودارت ينهي علاقاته الدبلوماسية مع يار محمد خان بركْله من فوق الدرج. مَخْرَمِية يطرحون أسئلة. تعليق الملك على مظهر الدكتور وولف. الناس يَدْعُونَ الدكتور وولف: خوب آدمي «الرجل الطيب». الملك يطلق عليه ثلاثة أسماء. سمعة عالية للسير موسى مونتيفيوري بين يهود بخارى. أسئلة إضافية يطرحها المَخْرَمية بأمر من الأمير على الدكتور وولف، إجابة الدكتور وولف على كل واحد منها. الداستر خانجي عارٌ على الرُّجولة. صفة غريبة للبريد في بخارى، الأمير يقرأ خطابات رعاياه كلها. مقابلة الدكتور وولف مع الأمير. الدكتور وولف يطلب من الأمير رفات ستودارت وكونولي، الملك يهدِّد بإرسال رفات الدكتور وولف إلى إنجلترا. الدكتور وولف يسمع بنذالة عبد الصمد خان من أشخاص مختلفين. رفض السماح له بالمغادرة، بسبب احتجاز السفير البخاري في فارس. يكتب إلى الكولونيل شيل. الرقيق الروس يرفضون التحرير. محادثة مع ضباط النائب. حسن شيرازي.

لقد كانت المشاعر التي أثارتها الورقة التي كتبتها عن محمد هائلة حال توصيلها إلى جلالة الملك؛ فقد أرسل إلى شيخ الإسلام وقاضي كيلون، وبقية الملالي. وقد أبدى شيخ الإسلام الملحوظة الآتية: «يجب أن تُحفظ هذه الحياة (السيرة) ضمن المكتبة في المسجد الجامع؛ وإن تلك الحَصَافَةَ لجوزيف وولف، التي استنبطها لكي يبدي مشاعره دون جرح لمشاعر غيره، وفي الوقت نفسه

أن يُوصِل بإخلاص مشاعرَ علماء النصارى فيما يتعلق بنبينا لجديرةٌ بالملاحظة». وأمر جلالته أن تُنسَخ وترسل إلى بلخ ومزار؛ كما أرسل المُلاَّ بدر الدين، التاجر الكبير من أفغانستان، نُسَخاً إلى كابل؛ وأرسل خودشا صاحب، وهو تاجر من كَشْمِير، نسخاً إلى أصدقائه في كشمير؛ وكذلك فعل حاكم سَمَرْقَنْدَ الذي أرسل نسخاً إلى ملالي سمرقند وأوراتبه(١).

وأبدى شيخ الإسلام لجلالته الملحوظة الآتية: «سوف تحُلُّ كارثة عظيمة في المدينة إذا قُتل جوزيف وولف في بخارى، ولم يعد إلى بلده معزَّزاً». فأجاب جلالة الملك بالقول: «لقد جلبت إلى نفسي حرجاً بليغاً بقتل ستودارت وكونولي».

وفي الخامس من مايو، تلقَّيت إذناً بالمغادرة في التاسع من الشهر. في هذه المدة عملت في ظل أكثر الأوهام إرضاءً فيما يتعلق بشخصية النائب الحقيقية، وكتبت ببراءة قلبية إلى إنجلترا بهذا الشأن. وواصلت العمل في ظل هذا الوهم بعض الوقت. وَحَلَّ اليوم التاسع، إلا أنه لم يصل إليَّ الإذن بالمغادرة. وعلى أية حال، استمرَّ الملك والنائب في معاملتي بلطف. ومع ذلك، فقد اكتشفت سريعاً أنني كنت محاطاً بقدر هائل من الخيانة لا نظير له تقريباً. وكانت بداية الوَمَضات الأولى من اكتشافي ما هو متعلق بيار محمد خان (حاكم) هراة. فقد وعد هذا الخَسيس أن يوصي بي أميرَ بخارى، وقد وفَّى

(١) في الحقيقة الموضوع برُمَّته يدعو إلى الشك، فأن يترك ملك أو أمير بخارى علماء بلده ويطلب من منصِّر إنجليزي كتابة سيرة الرسول ﷺ، ثُمَّ يحتفل بها، على ما فيها من مغالطات وغمز ولمز وتخريف، هو وعلماء بلده وكبراؤها، مع أن بلده أحد مواطن العلم الشرعي ومركز التأليف الإسلامي لكثير من القرون، ويَعُدُّون ما اجترحه من أكاذيب وثيقةً رائعةً تستحق النسخ والتعميم، فهذا أمر يخرج عن نطاق المعقول. ولعله أراد أن يستعرض للقارئ الغربي معارفَه ويمرر وجهة نظره؛ التي هي وجهة نظر الاستشراق في العموم (المترجم).

بوعده وفعل ذلك؛ ولكن من أجل أن يقطع رأسي. ولحسن حظي، لم يصغِ إليه الأمير؛ ربما لأنه يكرهه، ولو لم يكن كذلك، ما كنت سأحيا حتى الآن كي أحكي حكايتي.

وتعين يوم الأربعاء، الرابع عشر لمغادرتي مع آق محمد بك، أحد الزعماء التركمان الكبار، الذي كان سيرافقني مع هدايا وخطاب من الأمير للملكتا. ومن الواضح أنني قد مُنحتُ لطفاً ظاهرياً كبيراً، فعندما أردت أن أحتجِمَ، أرسل إليَّ الملك كلمة تفيد بأنه يجب ألا أفعل ذلك قُبَيْلَ الرحلة. وحين زرت الملك بثيابي البخارية، ضحك من قلبه على مظهري. صحيح أنه غير متعلم، ولكنه لا يخلو من موهبة.

مكثت في منزل عبدالصمد خان. وبدأ الناس في استعادة الشجاعة لزيارتي. وقد عبَّروا كلُّهم عن دهشتهم من أن أحظى بمعاملة أفضل مما يحظى به السفير الروسي، وبدؤوا الانحناء لي في الطريق. وفي أحد الأيام سقطتُ من فوق حصاني في الشارع، ولكني لم أُصَبْ بأذى، وقد عَزَوْا ذلك إلى حملي الإنجيل معي دائماً. ورغم أنني لم أشعر بألم وقتها، إلا أن هذه السقطة نتج عنها فَتْقٌ، سبَّب لي إزعاجاً عظيماً؛ فقد كان يجب عليَّ السفر ألفاً ومائتي ميل فوق صهوة الجواد من دون ضِمَادَةٍ.

عند كثرة التَّسآل اكتشفت أن خدم الكولونيل ستودارت سبَّبوا له أذًى بليغاً من جميع النواحي. وقد كانت جميع التهم الموجهة إلى صديقي المسكين كونولي تافهةً جداً؛ ولا ريب أن الكولونيل ستودارت هو - بالتأكيد - أكثر الرجال تهوُّراً وطَيْشاً، فحكاية سلِّه سيفه في وجه المَحْرَم الذي كان سيقدمه إلى الملك، ودورانها على الألسنة تثبت أنه ارتكب خرقاً جسيماً لتشريفات البلاط.

تحادثت في أحد الأيام مع عدة أشخاص من هراة، وقد اصطبغ حديثهم عن الضباط الإنجليز بالإكبار، وقد رَوَوْا لي القصة الآتية عن الكولونيل

ستودارت: «زاره في إحدى المناسبات يار محمد خان، الذي هو، كما وصفه أهلُ هراةَ أنفسهم، أكبر حرام زاده في الوجود. فحدَّثه الكولونيل ستودارت عن شؤون قَمران شاه، وبعد قليل من التعليقات من قِبَلِه على نذالة يار محمد خان، ازدادت المناقشة سخونة؛ ما جعل الكولونيل ستودارت ينهض ويقول: سأنتهي منك حالاً؛ ثم ركله من أعلى الدرج. وكانت هذه دبلوماسية يشوبها الانتقام».

وكان كل يوم يمر عليَّ في سكني هنا يجلب معه بعض الأسئلة التي لا بد من حَلِّها إرضاءً للملك. حتى إنه في اليوم التالي لوصولي، أرسل أحد مَخْرَميه لطرح سؤالين؛ الأول: ما إذا كانت لديَّ القدرة على إحياء الموتى؟ والثاني: هل أعلم متى سيكون يومُ النشور؟ وقد كتبت إجابتي عنهما.

وفي أحد الأيام أبدى الملك ملحوظة للنائب تعني أنني أكثر مَنْ رآهم تميُّزاً في الوجود، وأنني لست مثلَ أي أوروبي آخر، ولا أشبه الإنجليزي، ولا اليهودي أو الروسي، لا في مظهري الخارجي، ولا في سلوكي.

مضيت هنا بين الناس باسمي: خوب آدمي «الرجل الطيب». وفي كلِّ سوق كانوا يقولون: «لقد أتى الإنجليزي، وقد سأل الحضرةَ (جلالته): لماذا قتلت رجال بلدي؟ وسيأتي من بعده المزيد من أهله بقوات وسلطة؛ ونائبنا مشغول مع الإنجليزي لغرض عظيم وخطة كبيرة».

قرابة هذا الوقت، الرابع عشر من مايو ١٨٤٤م، علم الملك باحتجاز سفيره في مشهد بسببي؛ ولذلك عزم على احتجازي. وواصلت، على أية حال، ركوب الخيل والتريُّض في المحيط من دون رقابة مشددة حتى الثاني والعشرين (من الشهر). وكتب الملك خطابات إلى السلطان والشاه. كانت الرقابة على السفراء أكثرَ حدَّةً من الرقابة عليَّ؛ لأنه لا يُسمح لهم بالتحرُّر من المراقبة المشدَّدة جداً. وكانت نظرة جلالته إلى دِل آسا خان نظرتَه للكلب الوضيع، كما أخبرني؛

لأنه لم يَفِ بواجباته تجاه آصف الدولة. وقد نعتني الملك بثلاثة ألقاب؛ الأول: جوزيف وولف: الأصيل، والثاني: جوزيف وولف: النجمة ذات الذيل، والثالث: جوزيف وولف: الجبان.

وقد تشجَّع يهود بخارى فزاروني. وقد وصل إلى مسامعهم اسم السير موسى مونتيفيوري، وشائعة عن جهوده لصالح الشعب اليهودي، وجهوده لصالح إخوانهم في سمرقند وبَلْخ وخوقند وهراة. وسوف يدهش السير موسى عندما يعلم أن جهوده في سبيل اليهود جلبت انتباههم في تلك المناطق النائية نحو عقائد النصرانية؛ فالكثير من اليهود، عندما كنت في بخارى، أبدوا لي ملحوظة بأن دين غير اليهود في إنجلترا لا بد أن يكون أفضلَ بالقطع من دين المسلمين، لأن الأعمال التي قام بها السير موسى نيابة عن اليهود لم يُتسامح معها فقط، ولكنها أُيِّدت ودُعِمت وأُوصِيَ بها ومُدحت. ويقولون عن روتشيلد: إنه في بلد يمكن للمرء أن يكشف فيه عن ممتلكاته بصورة علنية، فإن دين ذلك البلد لا بد أن يكون أفضلَ(١).

واكتشفت أن السبب الذي جعل جلالته يدعوني جوزيف وولف الجبان، هو أن الأمير أصلان أخبره أنني مرضت بسبب الخوف من أن يُقطع رأسي. وقد افترض أن ذلك هو السبب في المرض المفاجئ الذي أَلَمَّ بي في السوق. وواصل مَحْرَم (الملك) المجيء يومياً وهو يحمل أسئلة عن أمور كالآتي:

أسلوب السفر في فارس، وتركيا، وإنجلترا؟ وقد أجبت عن ذلك، مقدِّما

---

(١) لا يزال المؤلف على عدائه السافر للإسلام، لكنه يلصقه هنا باليهود، وكأنه يقول: لست أنا من يذم؛ وإنما اليهود من يفعل ذلك. مع أن القدح للإسلام، والمدح ليس لليهودية، وإنما لنصرانيته هو. يريد أن يبث شناعاته، لكنه يتخذ من غيره وسيلة إلى ذلك.

توضيحاً عادياً؛ إلا أن جلالته لم يستطع أن يفهم لماذا لا توجد جِمال في إنجلترا، وقد وجب عليَّ أن أكتب، لوقت طويل قبل أن يستوعب، أن سفرنا يتم بالسكك الحديد.

هل الملكة لها زوج؟ وأجبت عن ذلك بالإيجاب، ولكني أخبرته أن الحكومة بيدَي الملكة. فصاح مستنكراً: «ما نوع هذا الزوج الذي يخضع لحكم زوجته؟!».

لماذا الملكة امرأة وليس الزوج هو الملك؟ فأشرت إلى أن التوريث يكون للفرع الأكبر، ذكراً كان أم أنثى، وضربت له مثلاً بجيمس في أسكتلندا.

رغب الأمير في يوم آخر في أن يحصل على أسماء وزراء إنجلترا الأربعة الكبار، والاثني عشر الصغار، والشيوخ الاثنين والأربعين. فقدَّمت لجلالته قائمةً بأسماء أعضاء الوزارة الحالية، عندها عاد إليَّ المَحْرَم وهو يتميَّزُ غيظاً، وقال إن جلالته اكتشف أنني كذاب؛ فالوزراء الأربعة الكبار، حسب تقرير الكولونيل ستودارت كانوا: اللورد مليبورن، واللورد جان روسال، واللورد ماليكريف، والسير جان هابيهاز. وأُحْضِرْتُ أمام الملك، وكان يجب عليَّ أن أقدِّمَ فكرةً كاملة عن دستور إنجلترا. ورغم أن جلالته لم يستطع فهم حديثي تماماً، إلا أنني أقنعته أن القائمة التي قدَّمتها قد تكون صحيحة كذلك، خصوصاً أنه كان بإمكاني أن أخبره بأسماء إدارة حزب الوج(١).

وفي الوقت نفسه سألني جلالته عمّا إذا كانت توجد ساحرات في إنجلترا؟ فأجبت عن ذلك بأن السحر محرَّم على النصارى. وحسب قانون إنجلترا القديم، فإن من يتعامل به يعاقَب بالموت؛ وذلك نابع من حقيقة أن السحر يتطلَّب لإكمال طقوسه، سفكَ دم وأعمالاً أخرى غيرَ قانونية؛ وتبعاً لذلك، وبعيداً من أي سؤال آخر عن آثاره، فالشخص يعاقَب بالموت، تحت

---

(١) هو حزب بريطاني سبق حزب العمال، واندمج فيه فيما بعد.

طائلة القضاء اليهودي والنصراني. والسحر لا وجود له الآن، ومن النادر أن يؤمن أيٌّ شخص في إنجلترا بوجوده. كنت أكثر تلهفاً لقول هذا خشيةَ أن أُعاني من تلك النتائج الخطيرة جداً التي مر بها من سبقوني في الشَّعْوَذَةِ من وقت لآخر، في حال ظنِّهم أنني ساحر. وسوف يرى القارئ أكثر، فيما يأتي من هذه الرواية، أنه أُشيع أنني وعبدالصمد خان كنا نمارس السحر في لقاءاتنا؛ بينما في الحقيقة أن ذلك الكيميائي الجبَّار[1] كان مُصَمِّماً على تحويلي إلى ذهب خالص قدر الإمكان، عن طريق حَجَره الفلسفي: التعسُّف والحصر والتهديد بالموت.

وفي مناسبة أخرى سُئِلْتُ: كم من السفراء يمثِّلون جلالتها، وكيف يُعامَلون؟ فقدمت قائمة بالسفراء، وبيَّنت أنهم ليس عليهم حراسة أو رقابة، كما هي الحال في بخارى، ولكنهم يتمتَّعون بحرية كاملة ومقام رفيع وامتيازات.

وبعدها سألني الملك: ما إذا كانوا سيقتلون رسوله في لندن؟ فأجبت بأنه إذا فعل ذلك أيٌّ إنجليزي، فسوف يُحكَم عليه بالإعدام تطبيقاً لقوانين البلاد؛ ولكي أوضِّح ذلك أخبرته عن الاستقبال الرائع لدوست محمد خان في الهند.

وطلب مني الإجابة عن السؤال الآتي: لماذا يحب الإنجليز العملات القديمة؟ فأوضحت له أن قيمتها في عيون الإنجليز تنبُع من حال أن العملات يُنظر إليها على أنها العمودُ الفِقَري الذي يعتمد عليه الهَيْكَل التاريخي، وأنه من دونها لا يمكننا تأكيد الحِقَب الزمنية للعالم، والسلالات الحاكمة للملوك والأحداث الوطنية. وأنها الأدلة التي ترشد المؤرِّخ في تحديد حِقَبه الزمنية، وتشكيل التاريخ المعدني الملموس للأرض؛ وأن التماثيل القديمة والآثار تستخدم عناصر مساعدة مثل النقود.

(١) يشير إلى عبدالصمد خان، الذي يريد سلبه ما معه من النقود.

من هو جنكيز خان؟ وبعد تقديم التفاصيل المعتادة عن حياة هذه الشخصية المعروفة جيداً، أضفت أن اليهود يعتقدون أنه كان واحداً من شعبهم.

ومن هو داريوس؟ فقدَّمت تفاصيل تاريخ هذا الملك الذي يسمُّونه تاكيانوس.

كيف يحكم الإنجليز الهند؟ وبعد تفاصيل عامة، أشرت إلى تسامح الحكومة الإنجليزية في الهند، والسماح لكل الأشخاص باتِّباع دينهم الخاص بهم، وعدم التفريق في تطبيق القانون بين الإنجليزي والمسلم والهندوسي؛ وإنه لو قام أحد الإنجليز بإهانة أحد المسلمين أو الهندوس، في أمور تتعلق بالدين أو أي أمر آخر، فسوف يعاقب بشدة(١).

ما أسماء أكثر اليهود ثراءً في إنجلترا؟ روتشيلد، وجولدسميث، والسير موسى مونتيفيوري، وكوهين.

هل تتمتَّع الملكة بسلطة كي تقتل أي شخص تريد قتله؟ لا، ولكن يمكنها أن تعفُوَ عمَّن ترغب في العفو عنه؛ فالأشخاص الذين حاولوا قتل الملكة لم يُعَذَّبوا، ولكن تمَّ العفوُ عنهم. وشرحتُ له أن الملكة أُلزمت بتقديم حقوقها لمحاكمة من محلَّفين، وكذلك اللوردات وأعضاء مجلس العموم؛ الأمر الذي علَّق

---

(١) ما فعلته بريطانيا بالهند وأهلها إبان استعمارها يجعل حديث المؤلف يدخل في نطاق الكوميديا، فالفظائع التي ارتكبها الجيش البريطاني، وحكام الهند من البريطانيين، وشركة الهند الشرقية الإنجليزية، يعجز العقل عن تصورها، بله استيعابها. الجيش البريطاني كان يرتكب جرائمه من باب «التلذذ»، وليس من باب قمع مقاومة مشروعة لأهل البلاد. وعلى مدار التاريخ كانت المؤلفات تترى لفضح البشاعات التي ارتكبها هؤلاء المستعمرون ضد شعب أعزل. ومن أحدث هذه المؤلفات كتاب: «فضيحة إمبراطورية: الهند وإنشاء بريطانيا الاستعمارية» لمؤلفه نيكولاس ديركس، نائب مدير جامعة كولومبيا للآداب والعلوم، وأستاذ علم الإنسان والتاريخ.

Nicholas B. Dirks, The Scandal of Empire: India and the Creation of Imperial Britain. Harvard University. 2006.

عليه أحد المَخْرَمية بالقول: «ما هذه الملكة التي لا يمكنها إِزْهَاقُ أي روح ترغب في إزهاقها!».

كم فرسخاً تقطعها السفينة البخارية في الساعة؟ فقلت: ثلاثة أو أربعة فراسخ (حوالي ستة عشر ميلاً) في الساعة.

كان الرسول البخاري، المُلَمَح إليه في أحد الأسئلة السابقة، رجلاً ذا مظهر مدهش. كان أحد الطاجيك، وأخوه أحد أوائل التجار في البلاد.

وكانت أمثلة النذالة التي أكتشفها يومياً في دِل آسا خان مخيفةً تماماً. وقد اكتشفت أنه وضع خطة لبيعي للهزارة. وأعدُّه، بعد داستر خانجي، في هذا الوقت، أخبثَ رجل رأيته على الإطلاق. فهذا الرجل هو المشرف على مطبخ الملك، وفي الوقت نفسه تحت إدارته بيت الجَمَارك، ويحتلُّ في الحقيقة منصب وزير الملك، مع أنه يبلغ من العمر عشرين عاماً فقط، وقد رُقِّي إلى هذا المنصب لنقائص لا يمكن ذكرها في أي مُذكرات يومية أو رواية. فهو أحد أكثر الأوغاد شهوانيةً وتخنُّثاً يمكن تخيله. وعندما يكبر، يتمنى المواطنون عموماً، ويتوقَّعون بثقة، أن يقوم الملك بقطع رأسه، والاستحواذ على ثروته الطائلة. وقد عَاملَ الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي بقسوة فريدة. وكلَّما كان الحديث عن هذا الخزي للرجولة أقل كان أفضل.

أمَّا عن طغيان أمير بخارى فسأضرب له مثلاً بأفضل طريقة ممكنة، وأحتاج فقط إلى ذكر الحقائق الآتية:

كل خطاب يُرسَل من بخارى، وكل خطاب يصل إلى تُجَّارهم وكُبَرائهم، وكل ملحوظة خاصة تكتبها زوجة لزوجها أو زوج لزوجته، يجب الاطلاع عليها وقراءتها من ملك بخارى؛ لذا فمن الصعوبة بمكان إيصال الخطابات إلى بخارى. ولعل هذه الحال تُوجِدُ عذراً للكولونيل شيل في أمره محمد علي صرَّاف ألاَّ يُرسلَ الخطابات الموجَّهة من موسى مونتيفيوري بواسطة غلام

مستعجل؛ لأنه حتى لو وصلت الخطابات، فإن الناس يخافون من تسلُّمها. فخليفةُ مرو وحده هو الذي يستطيع أن يرسل الخطابات إلى بخارى بسلام؛ غير أن الكولونيل شيل لم يكن على دراية بهذا الأمر، ولم يكن لمحمد علي صرَّاف رغبة في الاستفادة من الخليفة.

وهناك عمل آخر يدل على طغيان الأمير؛ يتمثل في توظيف الصبيان كُتَّاب للأخبار؛ مهمتهم نقلُ كل كلمة يتفوَّه بها الصبيان الآخرون في الشارع، وحتى الأخ لأخيه في المنزل. والخدم في البيوت هم كذلك ملزَمون بكتابة أي محادثة يسمعونها بين زوج وزوجته، حتى في الفراش؛ ورفعها إلى الملك. وهناك أناس وُضِعوا عندي من أجل أن يوصلوا إليه ما يمكن أن أتحدَّث به في المنام. هذه التقارير المكتوبة تُسمى عريضةً، أي: التماساً للملك. ولكن، في الوقت الذي قام فيه الملك بإنشاء هذا النظام للتجسُّس، فإن نظاماً مشابهاً أُنشِئَ للتجسس عليه سرّاً، من عدد من الضباط الكبار في الدولة.

وقد تفاخر عبدالصمد خان أمامي، وسمعت ما يؤكد مقولته من آخرين، بأنه يعرف كلَّ جملة وكل نصف جملة يتلفَّظ بها الأمير، وكل ما يُحَدِّث به. وقد أُطلِعَ عبدُالصمد خان بالتمام على كل كلمة تفوَّهتُ بها في يوم جمعة، حين ذهبت لسلام الملك (استقبال عام)؛ أعني يوم طلبت من جلالته أن يعطيني رُفات ستودارت وكونولي، وكان جواب جلالته: «سأرسل عظامك».

ومن الواضح أن الأمير خائف من عبدالصمد خان، ففي أغلب الأحيان التي يُجرِي فيها عبدالصمد خان تدريباً على مدفعيته، ويأمر أن تطلق المدافع نيرانها، فإن الأمير يرسل أحد مَحْرَميه إلى النائب، الذي يعيش خارج البلدة، لمعرفة الغرض من إطلاق نيران المدافع؛ وقد شهدتُ ذلك في يوم واحد؛ حيث أتى المَحْرَم ثلاث مرات أو أربعاً إلى عبدالصمد خان بالسؤال نفسه.

ويمكن طرح السؤال الآتي: «هل يخاف الأمير من إنجلترا؟» وأجيب: إلى حدٍّ بعيد؛ إلى حدٍّ أنه عندما وصلت إلى هنا، جلس مدة ثلاثة أيام ورأسه مسند إلى يديه، مستغرقاً في التفكير (!!)؛ وقد أبدى ملحوظة لكبير القضاة، قال فيها: «إنه لأمر غريب! لديَّ هنا مئتا ألف عبد من الفُرس، ولم يهتمَّ بهم أحد؛ وبسبب رجلين إنجليزيين جاء شخص من إنجلترا، بمفرده، يطالب بإطلاق سراحهم».

يوجد في بخارى اثنان من الأرمن من أستراخان؛ أحدهما يُدعى بارهور دار، والآخر هوانس، وكانا ممنوعَيْن بأمر من الأمير من الاقتراب مني. ويشك السكان في أنهما أخبار - نيوز (كتَّاب تقارير)، والبعض يقول: إنهما يعملان لحساب الحكومة الإنجليزية، والبعض الآخر يقول: لحساب الروس. وعلى أية حال، وجدت صديقاً صدوقاً للحكومة البريطانية في خوجه صاحب، وهو تاجر من كشمير، فتح عيني جيداً بشأن سيِّئ الصيت، النائب عبدالصمد خان، وقد قال لي: «ذلك الوغد لم يخبرك كيف أساء معاملة كونولي، المسكين كونولي، ولم يقدم له أيَّ شيء يأكله بعد أن وقف معه بعض الوقت، فإن كونولي كان من الفطنة إلى حد لم يجعله ينخدع به».

بخصوص هذا الشخص (عبدالصمد خان) نسيت أن أذكر أنه - بعد المحادثة المطوَّلة معه في موضوع ستودارت وكونولي، التي سبق ذكرها - أهداني ثوباً بخارياً، كما أهدى ثوباً آخر لدِل آسا خان. وعند رجوعنا إلى مسكننا في توراه خانه من تلك المقابلة؛ وعندما رآني الشيخ الطيِّب يوز - باشي بكى من الفرح كما يبكي الشخص عندما يرى شخصاً آخر يعود من رحلة خطيرة. كما تشجع التركمانيان: أمير ساروق، وقاهر قولي - اللذان كانا في السابق نائيَيْن عني جانباً - على تحيَّتي.

بعد ثلاثة أيام قمت مرة أخرى بزيارة النائب، وأخبرني أنه دفع ثلاثين تيلاه لمرتضى، لإعداد خمسة جِمَال من أجل مغادرتي، إضافة إلى عشرين

تيلاه أدفعها له عند وصولي إلى مشهد. فقلت: «لماذا؟ لا أريد سوى جملين، تصل قيمتهما إلى ستة تيلاه (حوالي ثلاثة جنيهات)»، فأجابني بأنه سيعطيني الكثير من الممتلكات الخاصة بالكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وقد أنفق مالاً لاستعادتها من أشخاص آخرين، وأنني لن أعرف ما سأفعل بها. وأطلعني على ثلاث عباءات (خلعات) من كونولي. عندها حدث شيء يسترعي النظر؛ فقد مرّ أحد الجنود (سيرباس)، فرأى العباءات؛ فصاح: «أعرف هذه. أخذناها من قصر محمد علي، ملك خوقند»؛ فصاح النائب قائلاً: «بيدرت سوخت! (الله يحرق أباك)، ولكن هل تعلم أنها لكونولي صاحب؟». ولَحِظْتُه يَرْمُقُ الرجل بنظرة لها مدلول خاص. فانصرف الجندي بهدوء، ولكنه حين رآني مرة أخرى، قال: «إن النائب يكذب. لقد أخذها من قصر ملك خوقند. وأنت لن تخرج من هذا المكان مرة أخرى؛ سيعمل معك النائب، مثلما عمل مع ستودارت وكونولي. لقد قتلهما، وسوف يقتلك».

وبينما نحن نتحدث سمعت صراخ الناس ووَلْوَلَتَهم. فسألتُه: «ما هذا؟» فقال: «هذا هو السجن الذي يحشر فيه النائب أولئك الذين يشك فيهم، وهو يعذبهم بالتجويع». ثم أتى النائب وانقطعت محادثتنا.

سألت النائب: «هل ستصدر الرخصة (الإذن بالمغادرة) اليوم؟»، فقال: «نعم؛ ولهذا السبب أطلب منك الآن أن تعطيني صكّاً بخمسة آلاف تيلاه؛ منها ثلاثة آلاف تيلاه سوف أعطيك إياها الآن، وألف للرقيق الروس، الذين سنوصلهم إليك غداً، وألف تيلاه ستدفعها قيمة الممتلكات الخاصة بكونولي وستودارت، مقابل الرشاوي التي دفعتها لاستردادها واستئجار باشي القافلة». فصحت هاتفاً: «يا إلهي! هل يمكنك أن تطلعني على كشف الحساب؟»؛ فأراني الكشف، فقلت: «أعطني هذا الكشف». فقال النائب: «ليس الآن، ولكن أعطني الصك؛ أنت تتعامل مع النائب، الذي لن يخدعَك». فأعطيته صكّاً بخمسة آلاف تيلاه.

وفي المساء، وبدلاً من إحضار الإذن بالمغادرة، أتى مَخْـرَم قاسم بالرسالة الآتية من الملك: «لقد أمر جلالته بكتابة الخطابات إلى ملكة إنجلترا، وقد أُعِدَّت الهدايا المزمع إرسالها إلى جلالتها؛ غير أن جلالته قد أُخْبِرَ للتوِّ، بأن سفير إنجلترا في طهران، عرض ألف تيلاه تعويضاً يومياً، ما دام سفير بخارى محتجزاً داخل الحدود الفارسية. ولذلك فإن جلالة الأمير يعتزم إبقاء جوزيف وولف في بخارى ما دام سفيره محتجزاً في فارس».

وقعت هذه الأخبار عليَّ وقوع الصاعقة. وعند تسلُّم هذه الإخبارية كتبت الخطاب الآتي إلى الكولونيل شيل:

إلى الكولونيل شيل في طهران، ومن هناك تُرسَل إلى معالي السير إس. كاننج، بالقسطنطينية، ومن هناك إلى إيرل[1] أبردين، الذي سيتلطَّف بإيصال محتواها إلى الكابتن جروفر.

بخارى ١٥ مايو ١٨٤٤م

عزيزي الكولونيل شيل:

لقد عُيِّن آق محمد بك، وهو أحد الزعماء الأقوياء من التركمان، رسولاً إلى ملكة إنجلترا من ملك بخارى، وقد أرسلت عن هذا الموضوع نسخةً لكل واحد منكم، وكنت سأخرج في الثاني عشر مباشرة إلى مشهد، بعد أن قدمت دعائي [dua] إلى جلالته، حينها تسلَّم رسالة من مشهد، تفيد أن آصف الدولة احتجز سفيره هناك بسببي؛ فعقد العزم على احتجازي حتى يرجع سفيره. لذلك أرجو أن تستصدروا أمراً من محمد شاه إلى آصف الدولة بأن يأذن في الحال لإلجي بخارى بالمغادرة من مشهد إلى بخارى. الرجاء أن تفعلوا هذا؛ لأنه (الملك) رجل ذو شكيمَة، وسوف يحتجزني عشر سنوات إذا لم يُرسل سفيره. أكتب هذا الخطاب في بيت صديقنا النائب عبدالصمد خان، الذي بذل الكثير من الجهد من أجلي.

---

(١) لقب إنجليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت.

لقد اكتشفتُ دفتر يوميات [لم يعطني النائب هذا الدفتر، كما وعدني، وهو يحوي - من بين أمور أخرى - وصفاً للقِلاع من خوقند إلى بخارى. وتحتوي المذكرات كذلك على الختم الرسمي لستودارت]، وقد حصلت كذلك على الختم الرسمي لستودارت. ولم يحاول الملك تعليل قتْلِه تودرفايز وناسللي [وجدت تودرفايز حيّاً في طهران، إثر عودتي من بخارى. وسألتُه: كيف انتشرت شائعة قتله في بخارى على يدي النائب، فقال: إن النائب دعاه إلى زيارته؛ إذ سبق أن تعرَّف إليه في الهند؛ ثم أُخبر تودرفايز بحقيقة أخلاق النائب فأحْجَم عن الذهاب؛ إذ خاف على نفسه من الاستعباد؛ ولَكِنَّ شخصاً آخرَ، وهو ألماني أيضاً، ذهب، وأعدمه الملك دون أن يراه النائب، الذي افترض أنه كان تودرفايز]. المسكين كولوني لم يفعل شيئاً سوى ما يفعله الرحَّالة: وكان يحتفظ بدفتر يوميات، جعله موضعَ شك أنه جاسوس.

ويجب أن تعذروني لأسلوبي المرتبك؛ لأني في حالة قلق شديد، غير عالِم إلى متى سوف أُحتجز هنا. الآن يُسمح لي بالركوب للتريض في البلدة من دون مَخْرَم الملك (الحاجب الخاص)، المَيْزَة التي لا تُمنح حتى للسفير الروسي عندما يكون هنا. وليس هناك احتمال أن يُحكَم عليَّ بالإعدام؛ فالملك نفسه قال للنائب: «لا تخبر جوزيف وولف أن يار محمد خان كتب إليَّ بأنني يجب أن أعدمه؛ لأن ذلك سوف يخيفه». الرجاء أن ترسلوا نسخة من هذا الخطاب إلى الهند، وأن تخبروهم أنْ يساعدوني من هناك ومن إنجلترا بالنقود، إذ يجب عليَّ أن أقدم هدايا إلى المَخْرَمِيَّة الذين عاملوني بلطف بالغ؛ بعد أن كاد دِل آسا خان، إلجي (رسول) آصف، أن يسلُبني في الطريق، وبعد أن غادرت مرو، اكتشفت أن خادمي رجب سرق عدة أشياء. وقد دفع له نور خير الله نيابة عن الكولونيل ستودارت، لذلك فلا حاجة إلى أن يُدفع له مرة أخرى. يا لهم من أنذال مخيفين هؤلاء السكان الأصليون هنا! من الأمير، نزولاً إلى أقلِّ الرعايا شأناً. لقد تصرف النائب بنُبل تجاهي. وقد انتشرت شائعة في بخارى وحولها، أنني

أجلس أنا والنائب طوال اليوم في غرفة مغلقة، نمارس السحر.

الرجاء! اعملوا على أن يُرْسَلَ السفير سريعاً، وتلطَّفُوا بإرسال نسخة من هذا الخطاب إلى الليدي جورجيانا.

المخلص: جوزيف وولف

أنبأني النائب أن الملك أخبره يوم الأحد الماضي هذه الكلمات: «سوف نشيع خبراً أننا سنقوم بغزو خوقند؛ ولكن الهدف الحقيقي للحملة هو مفاجأة شهر سبز والاستيلاء عليها». ومما يدعو للأسف الشديد نجاحه في ذلك. ويجب ألاَّ أكتب إليكم أيَّ شيء الآن عن سلوكيات هذا البلاط؛ لأسباب واضحة. وإلى جانب هذا، يجب أن تعلموا أنني الآن في حُمَّى متواصلة، وسأبقى كذلك حتى أصل إلى مشهد. وقد أخذت ست مئة تيلاه من النائب لاستخدامها مصاريف في هدايا أجلبها للمَخْرَمية (والتي اكتشفت فيما بعد أنه لم يعطهم إياها)، ولاسترداد ممتلكات كونولي الشخصية، ولهدايا رسمية للمَخْرَمية والشيخوال إلخ. وقد أصبحت مديناً بهذا المبلغ للنائب. الرجاء أن تنفذوا قوائمَ دَيْني، وسوف أرتب معكم الأمور. وقد فوَّضني أبوت أن أسحب، عند الحاجة، مئة تومان عليه. وبرفقته نسخة من خطاب ملك بخارى، الذي سأحمله معي إلى إنجلترا.

انفردتُ بالنائب، ورَجَوْتُه أن يعيدَ إليَّ الصك المذكور سالفاً، ولكنه حلف بعبدالله خان، ابنه، البالغ أربع سنوات من العمر، بأنه سوف يتحدث يوم الأحد القادم مع الأمير، لتدبير أمر مغادرتي.

وفيما يتعلق بأمر السجناء الروس، فقد استدعى النائب - بدايةً - امرأة عجوزاً، تبلغ من العمر مئة وأحد عشر عاماً، وكانت تتحدث اللغات التركية والفارسية البخارية، وتذكر الإمبراطورة كاثرين، وعندما سألتها ما إذا كانت تود العودة إلى روسيا، ابتسمت وقالت، وهي تضرب في الوقت نفسه الأرض بعصاها: «هنا في بخارى سوف أُدفن. ماذا سأفعل في روسيا؟». أعطيتُها

تيلاه واحداً، وتعبيراً عن امتنانها لي انحنتْ برأسها إلى الأرض ست مرات أو سبعاً وغادرت، محرِّكة رأسها وهي تردد: «أنا أعود إلى روسيا؟ أنا أعود إلى روسيا؟». بعدها أَرْسَلَ النائب في طلب بعض الروس الآخرين. وقال لي بعضهم: «لا نستطيع العودة؛ لأننا هاربون من الجندية». وقال آخرون: «نحن متزوِّجون هنا، ولنا زوجات وأطفال».

انفرد بي بهادر حسين علي، وضباط آخرون تابعون للنائب، وقالوا: «سوف تجد في نهاية المطاف أن النائب حرام زاده[1]؛ فقد عامل ستودارت وكونولي كما يعاملك، وكذلك بوتنيف، السفير الروسي، الذي احتجزه أطول مدة ممكنة، متظاهراً دائماً أنه صديقهم».

بعد ذلك انفرد بي بهادر، ثم خلع قبعته ورفع عينَيْهِ إلى السماء، وقال بصوت يشوبه اليأس: «أَوَّه! كونولي صاحب! أَوَّه! كونولي صاحب! لقد خدعك ذلك النائب الحرام زاده. وقد خدعني أيضاً، وأغراني بالوعود من لاهور إلى كابل، ومن كابل إلى بخارى؛ والآن أجبرني على الزواج، وباستعبادي، سوف يقتلني، ويأخذ التومانات القليلة التي لديَّ؛ ولكن الأسوأ من ذلك هو أنه جعلني شريكاً له في كل عمل شرِّير ارتكبه. فأنا حارس هؤلاء السجناء الذين لن يروا ضوء النهار مرة أخرى؛ لقد قتل الكثير منهم، وأنا سوف أُقتل كذلك. ولكن يجب أن أخبركَ كل شيء، فأنا هنديٌّ مسلِم، وقد أكلت ملح الإنجليز. وأنا أعرف السيد فين في كابل؛ لقد رسم صورتي، وأعطاني الكثير من الروبيات. أنا لست إيرانياً (فارسي)، أنا هندي، وقد أكلت ملح الإنجليز. النائب سيقتلك في النهاية، بعد أن يحصل على النقود منك. لقد أعطى كونولي نقوداً، وبعد أن مات كونولي استردَّها. أرجو ألا تخبره ما أخبرتك به؛ سوف يقتلني؛ سوف يقتلني. أنا لست إيرانياً، أنا هندي، وقد أكلت ملح الإنجليز».

---

(١) ابن حرام، أو لقيط، أو كثير الاحتيال.

هذا التوضيح من بهادر، مع كل مشاعر الإخلاص العميق، أكده بإسهاب ميرْزا محمد نوري والياور، أي رائد السيرباس، الذي أضاف في الوقت نفسه قائلاً: «يتسلَّم ذلك النائب الملعون كلَّ سنة ثلاثين ألف تيلاه من الملك؛ لكِسْوَة الجنود وسبك المدافع؛ إلا أنه يضع النقود في جيبه، ويترك الجنود المساكين حُفاةً يتضَوَّرون جوعاً. إنه عدو لبلده، فارس. ورغم أنه قزل باش، فالويل لكل قزل باش يُباع له كرقيق! فلم يكن ليمنحهم حريتَهم، إلا أنْ يدفعوا له ثلاثة أضعاف ما يطلبه من الأوزبكي. وها هو أسد الله بك، الذي طالب به حاجي فارس ثلاث مرات، لم يكن ليكلف النائب سوى كلمات قليلة يقولها للملك ليَهَبَ له حريته ويعود إلى فارس، إلا أنه لم يتفوَّه بكلمة واحدة للملك».

وأنا أعلم أن أسد الله بك لم يرجعه النائب إلى فارس إلا بعد أن دفع له تسعين تيلاه، هي كلُّ ما اكتسبه الرجل المسكين خلال عدة سنوات؛ إلى جانب شالٍ يساوي مئة تيلاه، بينما لن يطالب أحدٌ الأوزبك بأكثر من عشرين تيلاه مقابل افتداء أسد الله بك.

كنت على وشك العودة إلى مسكني في البلدة، عندما حدثت حادثة، بالأحرى غريبة مهدِّدة:

فقد دخل حسن شيرازي - وكان في السابق خادماً لكونولي وستودارت - الحديقةَ، وعندما رأى النائب قال: «إن قلبي يرتجف في أغلب الأحيان التي آتي فيها إلى هنا». فقال النائب: «إلى الجحيم، يا أبا اللعنة! من طلب منك أن تأتي إلى هنا؟»؛ فأجابه قائلاً: «لقد ترك كثيرون من الذين يدخلون بيتك رؤوسَهم وعظامَهم هنا»، فأجاب النائب، بأسلوب بَشع: «اذهب إلى الجحيم!».

ثم استطرد قائلاً: «سأريك أي نوع من البشرٍ هو، فعندما حُكم على الكولونيل ستودارت بالموت، جعل هذا الرجل، خادم ستودارت؛ يشيع أنني أدبر بعض المخطَّطات ضد الحكومة. وهناك سأله أحد المَحْرَمية، بأمر من الأمير: ما هي المحادثات التي كانت تدور بين النائب وستودارت؟ عندها أجاب ذلك

الرجل، حسن شيرازي؛ لكي يورِّطني: أنني قد اتفقت مع ستودارت إذا أتت قوات إنجليزية أو أفغانية إلى بلخ، أن ننضمَّ إليها؛ كما قال: إن ستودارت وأنا قد قرأنا سوياً خطابات وردت من كابل، ثُمَّ أحرقناها».

والآن، إذا كان حسن شيرازي بمثل هذا السوء، كما حاول النائب تصويره، وخائناً لستودارت وكذلك لي، فلماذا أوصى به النائب خادماً لي، يصاحبني في العودة إلى فارس. الحقيقة هي أن النائب أبقى على علاقة سرية مع حسن شيرازي، ومع خَدَم آخرين للكولونيل ستودارت والكابتن كونولي؛ لكي يغرِّرَ بهم في البداية، ثُمَّ يستولى على ممتلكاتهم. ولأنه ليست هناك صداقة بين اللصوص، فمن الطبيعي أن يشك بعضهم في بعض.

وعندما أفكِّر الآن في نوع الصحبة التي كانت لديَّ، بحكم الاضطرار، وأنا محتجزٌ في تلك المناطق، أبيتُ على قناعة تامة، كما أن الكل في بخارى أيضاً مقتنعون، بأن النائب كان قد عقد عزمه على أن يُسلكني في عِداد ضحاياه. ولا أملك سوى الالتفات إلى الخلف برعب وفزع حين أتذكر تلك الأيام. إن هدوء الوغد عبدالصمد خان ورَزَانته، يفتضح يومياً أكثر فأكثر، مبيِّناً خصائصَ جديدة تَنُمُّ تماماً عن الخِسَّة والنَّذالة؛ وبدأت علامةُ قابيلَ تزداد عتمةً على عتمةٍ في مظهره الكريه، إلى درجة وصلت إلى تخيُّل الشر، الذي أُلصق بي مع أنه لا وجود له. إن حجم الشر الذي تسبب فيه هذا الرجل وارتكبه أيضاً، يتعدَّى حدود الخيال العادي. وسوف يدرك قُرَّائي أنني وثقت بهذا النذل أكثر من اللازم.

يجب أن أتابع (القصة): امتطيت حصاني، واتجهت إلى توراه خانه، ولكني رجعت في اليوم التالي إلى النائب؛ لكي أستعجلَه في إصدار إذن المغادرة. عندها أبلغني أنه أوقف حسن شيرازي في القيود وسجنه من أجلي؛ إذ اكتشف لتوِّه أنه متزوج، وقد استودع زوجته الأربعةَ تيلاه التي أعطاها له (النائب) على حسابي كأجور مقدمة، وقد أخبر زوجته أن تذهب إلى قرية معيَّنة، وأنه عندما يسرق نقودي، فإنه سينضم إليها. لكني أظن أن السبب الحقيقي لسجنه يكمن في كون النائب بدأ يخاف منه.

الفصل الثاني عشر

الكوارث التي حلّت بجيش السّيخ في لاسا. كسومو دو كوروس، أبحاثه، يصدر قاموساً للغة التِّبت. الرقابة على الدكتور وولف تصبح أشدّ. بارهور دار، أحد الأرمن الذين يمنعهم الأمير من زيارتي. ناصر خير الله، أحد الكفار سياه - بوش، يُخلط بينه وبين الكولونيل ستودارت بسبب جمال ملامحه. محادثة بين الدكتور وولف والنائب. خطاب السير ريتشموند شكسبير. النائب يحتجز خطاب اللورد إلينبورو الموجَّه إلى الأمير. النائب يتنبه للخطر، وينصح الدكتور وولف أن يوصل إلى الأمير حقيقة وصول الخطاب. الدكتور وولف يقوم بذلك. حسن كابلي لم يُرسل الخطاب. الدكتور وولف يكتشف أنه لم يذهب في الحقيقة رغم أنه يقول إنه أرسل أحد الأفغان. مدرِّب للدَّبَابَة يُسجن على أنه جاسوس، ويخبر الدكتور وولف بأن الأمير أرسل أسداً إلى روسيا هدية للقَيْصَر، تم على إثر ذلك مكافأة سفيره بسخاء؛ ولكن القيصر يرفض، بعد إعدام الضابطين البريطانيين، أن يبقى على تواصل مع الأمير. الأمير يشنُّ حرباً على خوقند وأوراتبه، ويأمر في غيابه أن يُضاعَفَ الحرس على الدكتور وولف، ويخبره بأن مغادرته ستكون مرهونةً بنجاح مهمته. الدكتور وولف يكتب إلى الليدي جورجيانا وابنه. محادثات مع دِل آسا خان وعبدالله، وآخرين. الدكتور وولف يرشي الحرس. الحرب السابقة مع خوقند، الملك يُسجن ويُحكم عليه بالإعدام من أمير بخارى. قتل زوجته وطفله بوحشية. عبدالصمد خان هو العامل الرئيس في المَذْبَحَة. عند سماع موت ستودارت وكونولي يجدِّد سكان خوقند الحرب. الأمير يتراجع أمامهم وأمام أهل خيوه. الدكتور وولف يحتال لكي يحيط المبعوث البريطاني في طهران علماً بتحرُّكات الأمير، ويحذِّر بلدة شهر سبز من عزم الملك على مهاجمتهم. الأمير يقول إن لا شيء ينجح معه منذ وفاة الضابطين

البريطانيين. ملك خوقند يعرض على الدكتور وولف لجوءاً في مناطق سيادته.

قبل زيارتي للنائب المذكورة في الفصل السابق، زارني مسلمون من كشمير، وزوَّدوني ببعض الأخبار بخصوص الكوارث الجَمَّة التي تكبَّدها السِّيخ في زحفهم إلى لاسا، واستيلائهم على التِّبت، ومكان إقامة اللاما الكبير. فقد تجمَّد عدة آلاف من جيش السيخ حتى الموت، ووُجِدَ كثير من الجنود متجمِّدين في وضعية دفاعية؛ فلم يعرف الصينيون، عندما تقدَّموا نحوهم، أأحياءٌ هم أم أموات، ولم يجرؤوا على الاقتراب منهم. وأخبروني كذلك أن أهل التِّبت لديهم نبوءة بأن البلاد ستقع تحت السيطرة الإنجليزية.

وكان بعض هؤلاء الكشميريين على معرفة بالرحَّالة الهنغاري كسومو دو كوروس، الذي أمضى وقتاً طويلاً في أحد أَدْيِرَة اللاما بالقرب من لادك، حيث قام بكتابة بحوث حول أصول اللغة الهنغارية وحول الهون[1]. هذا الرجل غير العادي خرج لهذا الهدف عام ١٨٢٦م، إذا لم أخطئ، من باريس، وذهب عبر القسطنطينية إلى فارس، في صورة درويش. وعند وصوله إلى طهران، استضافه السير هنري ويلوك، وأكرم وفادته. ومن هناك ذهب إلى بخارى، ولاهور، ولاداك، وكالكوتا. وكتب المعجم الوحيد الموجود للغة التِّبت، كما أعتقد، ثم مات بعد ذلك.

وحدثني الكشميريون كذلك عن الأستاذ فين والبَارُون هوجل.

ازداد تشديد الرقابة عليَّ. وقد أرسل إليَّ أحد الأرمن وهو من أستراخان، واسمه بارهور دار؛ كلمة عَبْر قولي، أحد خدم دِل آسا خان، وهو واحد من

(١) شعب بدوي تحدر من شمالي آسيا الوسطى، ويُقال إنهم أجداد الأتراك. قاموا بحملات عسكرية واسعة النطاق، واحتلوا بقيادة أتيلا الهوني (٣٩٥-٤٥٣م) أجزاءً واسعة من روسيا وأوروبا، وفرضوا الجزية على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة).

الخدم الذين كانوا لطيفِين معي، يقول فيها إنني يجب أن أعذره لغيابه عني، إذ إن الأمير أصدر أوامرَ مشددةً بألاّ يقترب أحدٌ مني.

وفي اليوم التالي لزيارتي الأخيرة للنائب، دخل ناصر خير الله الحديقةَ. كان ناصر خير الله كافر سياه بوش بالمولد، وهم قوم يُطلِق عليهم الكثير من المسلمين: فرانكي؛ لجمال ملامحهم، ولعل هذا هو السبب الذي جعل البعض يخلِط بينه وبين ستودارت، الذي يزعُم أنه صديق له، أو لعله كان كذلك. وقال ناصر خير الله إنه عازم على الذهاب إلى طهران؛ للحصول على بعض المِلْكية هناك. وهذا يفسِّر المعلومات التي حصل عليها ليارد في القسطنطينية، حول كون ستودارت حيّاً. ويحمل ناصر خير الله اسم ناصر خان. وقد كان في السابق رقيقاً، ولكنه حصل على ملكية كبيرة في بخارى. وقد أطلَعني على خطابات مُزَوَّرة من أناس معيَّنِين زعموا أنهم حملوا جسَدَيْ ستودارت وكونولي إلى الهند، وهي الخدمة التي يقول إنه دفع لهم مقابلها مئة وخمسين تيلاه.

وقد جرت المحادثة الآتية في ذلك اليوم بيني وبين النائب:

وولف: أيها النائب، اليوم زارني أحد اليهود، وأطلَعني على رسالة مختصرة، من الواضح أن شكسبير قد كتبها حينما كان في جلال آباد؛ ومحتوى هذه الرسالة، حسبما أستطيع تذكُّره، هو كما يأتي:

حسن كابلي، حامل هذا الخطاب الذي كتبه الموقَّر الحاكم العام للهند إلى سموِّ أمير بخارى. وقد تلقَّى حاملُه مقابل ذلك مئة روبية؛ وبعد أن يحضر بالجواب من سموِّه، وإيصاله إلى أيٍّ من السلطات البريطانية فسوف يتلقَّى خمس مئة روبية زيادة.

مخيم جلال آباد - شكسبير: السكرتير العسكري

وأعلم أن هذا الخطاب قد وصل إلى بخارى، فإن أخاك، حاجي إبراهيم، أخبرني بذلك.

النائب (شاحباً، ومن الواضح أنه مغتاظ): أنا مندهش لأنني لم أسمع بهذا الخطاب من قبل. لقد أخبرني ناصر خان للتو أن رجلاً من كابل كان معه مثل هذا الخطاب، ولكنه يقول إنه ترك الخطاب في بلخ. كما أن ناصر خان أخبرني قبل أن يغادر أنه يجب أن يرسل إلى الرجل ليسمع المزيد عن الموضوع؛ لأنني عندما أخبرتُ الملكَ أن جوزيف وولف أكَّد أن الحاكم العام قد كتب إلى جلالته، أجاب جلالته بالقول: «أين هذا الخطاب؟».

وفي المساء، ولدهشتي البالغة، قدَّم النائب الرسالة نفسها من شكسبير التي رأيتها في يد اليهودي.

وسمعت من خلال بعض الناس، وهم: ميرّزا محمد نوري، ورئيس خدم القاضي كيلون، والطاجيكي الملا مخزوم، ومعلم بك، أن النائب كان بحَوْزَته، طوال الوقت، خطابُ اللورد إلينبورو، والخطاب الآخر من الكابتن شكسبير، وأن قيام اليهودي الملا مشياخ بإطلاعي على رسالة شكسبير كان بتدبير من النائب بالاتفاق مع حسن كابلي. وقد كان خطاب السير ريتشموند شكسبير، مع خطاب اللورد إلينبورو - كما سيُرى - في يد الكولونيل شيل؛ وحسب شهادة الأشخاص المحترمين الذين سبق ذكرهم؛ فالخطاب مع رسالة الكابتن شكسبير وصلا قبل إعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، ومن الواضح أن التاريخ الرسمي ١٢٥٩ هجرية، الموافق ليوليو ١٨٤٣م[1]، - الذي قُدِّم لي بأمر من الملك وعبدالصمد خان في البداية، - هو التاريخ الصحيح، ولم يكن خاطئاً، كما افترضت عندما وصلت إلى طهران من بخارى. ولا بد أن عبدالصمد خان علم أن ذلك خطأٌ؛ لأنه، رغم أنني لم أعد أذكر تاريخ رسالة شكسبير، إلا أنني أتذكر جيداً أنه عند حساب تاريخ رسالة شكسبير ووصولها

(١) يوافق شهر جمادى الآخرة ١٢٥٩هـ.

إلى بخارى يكون (الزمن) سَنَةً واحدة فقط قبل وصولي إلى هناك. وقد يكون التاريخ في ١٢٥٩هـ، كما أخبرني الأمير والنائب.

وفي يوم الأحد، الذي تَبِعَ تلك الأحداث، ذهب النائب إلى الملك؛ وبعد ساعتين رجع إلى البستان، وقال: «الآن لديك إذن بالمغادرة بأقصى سرعة. فقد سألني الملك عن شخص السفير، فأخبرتُه أنه يتعيَّن أن يكون شخصاً أوزبكياً، مَتِين الجسد، برأس كبير، وذقن صغيرة».

وولف: متى سيكون كل شيء جاهزاً؟

النائب: بعد أربعة أيام أو خمسة.

وولف: هذا وقت طويل جداً.

النائب: أَوَّه، لا بد من الصبر، فهذا أمر من الملك. وكل شيء جاهز.

وبينما نحن جالسون في المساء، والنائب معنا، وبرفقته ميرْزا محمد نوري، سكرتيره، وآخرون من ضباطه، قال النائب: «الآن يمكنك أن تُبَرْهِنَ للملك أن الشعب الإنجليزي يقول الحقيقة. اكتُبْ إليه أن مثل هذا الخطاب موجود هنا، وهو مرسَل من الحاكم العام، وأن جلالته يجب أن يأمر بالبحث عنه».

وولف: لن أفعل ذلك؛ فإنه سيكون سبباً في زيادة التأخير فقط؛ ولا أهتم بما يراه فيَّ من رأي، إذا تركني أرحل.

وافقَني الرأيَ الضباطُ الجالسون بالقرب منا، وكذلك ميرْزا محمد نوري، وأن ذلك سيتسبَّب في تأخيري.

غير أن النائب قال: «ورأس عبدالله خان، ابني، إن ذلك لن يحدث! اكتبْ، أقول: اكتُبْ!».

فكتبت إلى الملك ما أراد؛ فأرسل الملك في الحال من يبحث عن الرجل – حسن كابلي –، الذي أتى إلى البُستان، يصاحبه المَخْرَم، وكذلك ناصر خان.

حسن كابلي (بخوف ظاهر): «أيها النائب، لقد أخافني ناصر خان؛ ولذلك لم أوصل الخطاب: الآن سيقتلونني، الحضرة (جلالته) الآن سيقتلني».

فقال له النائب: «لا تخف؛ قل لي أين الخطاب؟» وأشار إليه إشارة ذات مغزى. فقال: «في بلخ». فأرسله النائب في الحال إلى بلخ على نفقتي. وبعد ستة أيام رأيته - حسن كابلي - في بخارى، وأخبرت النائب بذلك؛ فقال لي إن شخصاً آخر ذهب إلى هناك على نفقته.

وفي هذه الفترة أحضرني ثلاثة من الحرس إلى حديقة داستر خانجي، حيث التقيت أحد الأفغان، الذي سبق أن أتى إلى هنا ومعه مجموعة من الحيوانات الوحشية قبل سنتين؛ وقد شكَّ الملك في أن يكون جاسوساً لملك لاهور، فاحتجزه سجيناً في بخارى. وقد أظهر، على كل حال، عدم مبالاة إسلامية تجاه مصيره. وتحدَّث إليَّ باحترام شديد عن الشعب الإنجليزي. وقد درَّب دُبَّه على الرقص، وأثبت ذلك لي عمليّاً.

ومن هذا الشخص علمت أن الأمير أرسل - قبل قطع رأسَيّ الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي - أسداً هديةً إلى إمبراطور روسيا، تلقى رسوله في مقابلها تكريماً سخيّاً من الإمبراطور. وبعد إعدام الضابطين أرسل الأمير مرة أخرى رسولاً إلى روسيا مع هدايا، إلا أنه عند وصوله إلى أورينبورج، أُخبر من حاكمها أن الإمبراطور لن يتواصل بعد الآن مع ملك بخارى، ولن ينزع جلالة الإمبراطور إلى قبول أيِّ خطابات من الأمير. فغادر الرجل المسكين الذي أُرسِل إلى بخارى، وهو يعيش ذليلاً منذ ذلك الوقت.

وفي شهر يونيو - عندما غادر الأمير مع جيشه إلى سمرقند وخوقند، بُغية إعادة إخضاع أوراتبه، التي تمرَّدت عليه، وكذلك خوقند - كانت توقعاتي أن أتحرَّر ضعيفةً؛ لأن الأمير قبل مغادرته، أصدر أوامره المشدَّدة لمراقبتي، وفي الوقت نفسه ضاعف الحُرَّاسَ، وجعلني أظن أن الإذن بالمغادرة مرهونٌ

بنجاحه في مهمته؛ ولذلك كتبت الخطاب الآتي في نسخة من الإنجيل إلى الليدي جورجيانا وابني هنري، وأرسلته إلى الكولونيل شيل، غير أن الكولونيل لم يفتح الإنجيل؛ ولذلك لم يعلم ماذا يفعل بالخطاب، فاحتفظ به حتى عودتي إلى طهران. وهذا هو نص الخطاب:

إلى المحترمة الليدي جورجيانا إم. وولف، وإلى هنري دروموند تشارلس وولف.

بخارى، يونيو ١٨٤٤م:

زوجتي العزيزة، ولدي العزيز:

ما زلت مُحتجَزاً في بخاري، وقد زحف الملك الآن إلى خوقند. ومهما يحدث لي، يا زوجتي العزيزة ويا ولدي، فتذكَرا أنه ليس لديكما ما تلومان نفسَيكما عليه، حيث إن الأمر كان اختياري أنا، أن أقوم بالرحلة؛ من أجل تحرير السجناء، وتذكَّرا أن سيدنا عيسى المسيح معي الآن. الحق أني لم أُعامَل بصورة غير ودية، ولا أخلو من الأمل في أن يُسمَح لي في النهاية بالعودة مع الرسول الفارسي، رغم أن المرء لا يمكنه الاعتماد على وعد طاغية مجرَّد من المبادئ. وقد نصح يار محمد خان (حاكم) هراة الأميرَ، بوساطة ثلاثة من الرسل، أن يقتلني. وقد منحني الله القوة لانتظار مشيئته بصبر وتسليم. الرجاء أن تمتَّعا نفسيكما، وأن تذهبا إلى فيسبادن[1] في الصيف. أنا أُعامَل معاملة جيدة، غير أنه ليس مسموحاً لي بالتحرُّك إلى الخارج من دون ثلاثة من الحرس، وأنا مُراقَب بشدَّة. أخبري عزيزي هنري أن يَصفَحَ عني إذا حدث أن جرحت مشاعره، وكذلك أطلب منْكِ الصفحَ عني. لم أتوقَّف قط عن حبِّكما، وأشكر الله أننا مؤمنون بعيسى المسيح.

محبكما زوجُكِ ووالدُكَ: جوزيف وولف

(١) فيسبادن: عاصمة ولاية «هسن» الاتحادية، وتقع قرب فرانكفورت بألمانيا. تشتهر بحماماتها ذات المياه المعدنية الحارة، وكثرة قصورها التاريخية.

دخل دِل آسا خان إلى غرفتي ومعه ثمانية من المروزيين، وبدأ الحديث قائلاً: «يا لك من إنجليزي! كم أنت بخيل! إن تُود صاحب، في هراة، أعطى الهزارة، بالقرب من هراة، ألفين وخمس مئة تيلاه (دوقات) مقابل حصان واحد. وبوتنجر صاحب يمنح يار محمد خان كلَّ سنة ثلاثين ألف تيلاه؛ فهل تظن أنني سوف يرضيني مئتا تيلاه؟ إن مئتي تيلاه لا تساوي شيئاً؛ ولهذا السبب قمت بالخيانة، التي ما كنتُ لأقوم بها لو أنك أعطيتني ثلاثة آلاف تيلاه».

ثم بدأ أصحابه يقولون: «وماذا فعلت من أجلنا؟ كان يجب أن تعطي كل واحد منا مئتي تيلاه، وبذلك ستُعلِي من مكانة ملكة إنجلترا، وتخلِّد اسمها. لكنك بدلاً من ذلك، أعطيتَنا القليل فقط من التانقاس (البنسات) ندفعها لاستحمامنا. فهل تعتقد أن الأمير سيتركك ترحل من هنا من دون توسُّطنا من أجلك؟ هذا بعيد. وعبدالصمد خان نفسه يقول لنا إنك يجب أن تُسعدنا».

بعد ذلك دخل خادمي عبدالله إلى غرفتي، وقال: «الكلُّ في بلدة بخارى يتحدث بأن الأمير قاتلك لا محالة؛ فتلك أمنية عبدالصمد خان وكل السركردها (النبلاء). وملك فارس، كونه من الشيعة، ليس له تأثير في بخارى؛ ولكن لو أنك لبَّيت طلباتِنا، فسوف ننقذ حياتك». فطردتهم كلَّهم من الغرفة.

بعدئذ دخل أحد خياطي عبدالصمد خان، قائلاً: «منح عبدالصمد خان اليوم مئة تيلاه للشيخوال؛ لقد عمل كلَّ شيء من أجلك، ولكن يجب أن تصرف نقودك؛ إذا لم تفعل، فسوف تُخفق في قضيتك». فطردتُه من الغرفة.

وبعدها قال أمير ساروق، وقاهر قولي، اللَّذان سلكا معي مسلكاً طيباً مدة من الوقت، ما جعلني أمنحهما شهادةً لسلوكهما الطيب: «يا مُلاَّ يوسف خان، إن التيلاه (دوقات) حلوة؛ فنحن نحلُم بالتيلاه ليلَ نهارَ، وقد حلُمنا البارحة أنك، عقب عودتك إلى إنجلترا، جلست بالقرب من ملكتكم، وكل نبلاء بلادكم

قبّلوا حاشية عباءتك؛ واحتشدتْ أكثر النساء جَمالاً حولك، ورغبْن أن يَكُنَّ زوجاتٍ لك، فاخترت أنت ابنة الملكة زوجةً لك، وستحيا في أجمل قصر، دون قصر الملكة، وسوف تروّح الهواءَ عليك بناتٌ يرقصن؛ وإذا قلت لها: «أوَّه، مليكتي، اقطعي رأس هذا الشخص أو ذاك، فسوف تتبع نصيحتك على الفور. كلانا - قاهر قولي وأنا أمير ساروق - حلمنا بذلك في الوقت نفسه؛ ولذلك سيصبح الحلم حقيقة».

بعد ذلك دخل الحرس، وأخبروني أنهم سيتركون أيَّ شخص يدخل عندي، إن أعطيتهم مالاً. وقد أُجْبِرْتُ على أن أفعل. وقال أمير ساروق والتركمان بهذه المناسبة: إن الأثرياء هم من يملك الرؤوس والفهم. هذه هي المقولة التركمانية، وهي تجيب على رأسماليتنا؛ وللسبب نفسه في اللغتين. فرأسمال: مشتقَّة من كبوت، أي: رأس، وهو يعني: الفهم، ومن طريق الفهم نمتلك المال، ومن طريق المال نحصل على الفهم؛ وهكذا؛ فالمال مصدَرُ ربْحٍ وقوة؛ وهذا يُغرينا بكلمات الحيَّة: «من يأكل من تلك الثمرة سيُعدُّ في السعداء، ورجلاً ذا ذكاءٍ، وستُفتح عيناه؛ وبذلك سيحصل على رؤية جديدة للأشياء؛ حول الدين، والحقيقة، والتواضع، والتقشُّف. وسيصبح مثلَ الآلهة، (حيلة مَنْ يؤمنون بتعدُّد الآلهة القدماء!) ويعرف الخيرَ والشرَّ»؛ لأنه سيكون في عِداد ذوي القوة والجَبَروت؛ وسيُحرق له البخور، وفيه تؤمَّل الآمال، ويُعبد. وهو نفسه لا يعود في حاجة إلى الكثير من العون من الله، ويعتقد كما يعتقد الرجال الآخرون: أنه يعرف الخير والشر. معه شيء واحد، على أية حال، وهو الرأس، وهذا هو ما يمتلكه: فهو رأسمالي. أو - كما في المقولة التركمانية - مالِكُ رأس. فإنه إذا تحدَّث أحدهم عن الطبيب، فإن فنَّه ممدوح، وكذلك موهبته، وجهده؛ ولكن، في قمة الأشياء، يقول الرجال:

«سوف يُكوّن ثروته، ويصبح رأسمالياً!». وإذا حُرِّفَ الخطاب نحو محام، فإنه سيطبق القياس نفسه، ويموت أحدهم باسم: وليام فوليت، رأسمالياً[1]. «فكل شيء مطيع للمال»؛ كما يقول الكثير من الكُتَّاب القدماء، وهو له سيطرته؛ وهذا، على أية حال، لن يكون المقياسَ للجَبَروت دائماً.

يقول ميلتون: «ترقب أن تُهلِك الحاجاتُ سريعاً رأسمالَ المكّار (الثعبان) مع آلام مميتة»[2].

لقد بدأت الحرب مع خوقند قريباً من هذا الوقت، وتوجَّه الأمير إلى هناك، تاركاً عبدالصمد لكي يلحق به. كانت هذه هي الحرب الثانية التي خاضها الأمير مع شعب ذلك البلد التعيسِ الحظ. وسوف أسرد هنا بعض التفاصيل عن الحرب الأولى:

حكَم محمد علي خان خوقند في ذلك الوقت. وهو ملك معتدل، وعاشق للأوروبيين، وقد عامل كونولي بتميُّز كبير، ونصحه دائماً ألاَّ يذهب إلى بخارى. غير أن محمد علي خان كان مُدمِناً للخمر ومعاشرة النساء، الأمر الذي أعطى نصر الله بهادر، أمير بخارى، فسحة من الوقت ليهيِّئَ جيشاً ضده؛ وزحف مع

---

(١) وليام ويب فوليت (١٧٩٦-١٨٤٥م): محام وسياسي إنجليزي. عُيِّن محامياً عاماً لإنجلترا (١٨٣٤م)، واستقال بعد بضعة أشهر. ثم عُيِّن مرة أخرى عام ١٨٤١ حتى ١٨٤٤م. مُنح لقب سير، وكان عضواً بمجلس النواب (١٨٣٥-١٨٤٥م). مات مصاباً بمرض السل.

(٢) لعل من المفيد التعليق بأن في بيت الشعر صورة تؤخذ من وجوه؛ فهو يستخدم ثعبان بمعنى الثعبان العادي، أو المكّار من الناس، فالحاجة تدفع الثعبان إلى المغامرة مما يوقعه في فخ يَرُضُّ له رأسه. والمكّار (الذكي) الذي يجمع رأس ماله، قد تُذهب الحاجاتُ رأسَ مالهِ. والشعر لجون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤م). وهو، مع جيفري تشوسر ووليام شكسبير، أشهر الشعراء الإنجليز. اشتهر بقصيدته: الفردوس المفقود.

عدة آلاف من قواته تجاه خوقند في عام ١٨٤٢م، بعد أن غادر كونولي البلدة. وقد فاجأ خوقند؛ فعزم محمد علي خان على الهرب، ولكن قُبض عليه وسُجن مع زوجته. وبناءً على نصيحة من عبدالصمد خان، لم يكتف نصر الله بهادر الفظّ بقتل محمد علي خان فقط، ولكنه قتل كذلك زوجته، الحاملَ بطفل؛ حيث بقر بطنها وقتله. واستمرت المذبحة يوماً كاملاً. وقد تباهى عبدالصمد مبتسماً: «أنا لا أرحم أيَّ سجين، فأنا دائماً أقتل كلَّ أحد».

وحالما تلقَّى سكان خوقند الأنباء بأن كلاً من الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قد أُعدِما، أعلنوا استقلالهم، واختاروا ابن أخ محمد علي خان، واسمه شير علي خان، ملكاً عليهم[1]؛ وعقدوا تحالفاً مع ملك خيوه ضد ملك بخارى. فزحف ملك بخارى إلى خيوه، ولكنه هُزِمَ. وفي عودته إلى بخارى قال: «إن عواطفي لا تسمح لي بسفك المزيد من الدماء!».

خلال إقامتي في بخارى، أَعَدَّ ملكها، حملة أخرى على خوقند، ووصل إلى قريب من أوراتبه. وحالما علم بأن شير علي خان قد خرج للقائه في أحد عشر ألفاً من القرغيز، عاد أدراجه. وكنت، قبل زحفه، قد أرسلت يهودياً من بخارى؛ لإشعار شير علي خان بخطة الأمير. لقد أدرك قُرَّائي أنني نبَّهت الكولونيل شيل وزودته بمعلومات حول تحرُّكات الأمير؛ ومع أنه أعلن أنه في حال انكساره سوف يحكم عليَّ بالموت، إلا أنني اعتقدت أن من واجب النصيحة، من أجل الإنسانية، أن أخاطر بحياتي. وقد انكسر الأمير! وقد أُخْبِرْتُ كذلك، كما يدرك قرائي، أنه عقد العزم على أن يفاجئ شهر سبز؛ وهي بلدة لم تخضع

(١) المؤلف يريد أن يوهم القراء أن شعب خوقند لم يثر لمصرع مليكه طوال ما يزيد على عام؛ وإنما ثار لمصرع الضابطين الإنجليزيين. فالحرب ومصرع الملك كانت في ١٨٤٢م، ومصرع الضابطين كان في يوليو ١٨٤٣م. فأي عاقل يصدق هذا وأشباهه؟!

لملوك بخارى قط؛ فالبلاد المحيطة بها مغمورة بالماء، لذا فهو لا يستطيع أن يُحضِرَ مدفعية إلى هناك. وبجانب هذا، فإن أهل شهر سبز فرسان أَكْفَاءٌ؛ ولذلك أرسلت يهودياً إلى هناك، منبِّهاً الخانَ على خطة الأمير في مفاجأة شهر سبز وهو في طريقه إلى خوقند. وعندما وصل الأمير بالقرب من شهر سبز، وجد البلاد كلَّها محاطة بالمياه؛ ولذلك اتجه بجيشه صَوْبَ سمرقند عبر طريق آخر. وقد سُمع الأمير يقول: «منذ أن قتلت الإنجليزيَّيْن، لم أنجح في شيء قط».

كان لديَّ لقرابة عشرة أيام في ذلك الوقت مَحْرَمٌ، حارس طيب القلب، سمح للمسلمين أن يأتوا إليَّ، ومن بينهم كشميري، جاء إليَّ وقال: «إن شير علي خان، ملك خوقند، يَتُوقُ إلى أن تأتي إلى خوقند؛ من أجل أن يرسل بصحبتك هدايا إلى ملكة إنجلترا».

الفصل الثالث عشر

المروزيون يَوَدُّون معرفة قصة نابليون، الدكتور وولف يسرد قصته بأسلوب شرقي. يتسلّى ساعاتِ الاحتجاز المملّة برواية نوادرَ وحكاياتٍ مختلفة. حكايته عن درويش عربي تصل إلى أذني داستر خانجي، الذي ينقلها إلى الأمير. القاضي كيلون يؤكد للدكتور وولف أن الضابطين البريطانيين قد حُكم عليهما بالإعدام، وأن الملك نادم على فعلته. القاضي كيلون يحذّر الأمير من العواقب. اليهود جميعهم علموا بالإعدام في اليوم نفسه، وسكان بخارى، في البلدة والريف، يتحدَّثون عنه بوصفه أمراً معروفاً جيداً. الدكتور وولف يروي نادرة عن فريدريك الكبير حاكم بروسيا. الدكتور وولف يضحك من غرور أمير ساروق ويخبره حكايةً عن درويش له لحية بيضاءُ.

تمنى بعض المروزيِّين عليَّ، الذين زاروني في هذا الوقت، أن أطلعَهم على حياة نابليون. وسوف أقدِّم لقرائي فكرةً عن الأسلوب الذي من خلاله يجب أن تُنْقَلَ الحقائق الأوروبية لأهل الشرق. فقد بدأت هكذا، واضعاً في حسباني أن الكثير مما قلته مما يمكن تَصَوُّر أن ينطبق على ظروفي الخاصة:

«هناك بلد في بلاد الفرنجستان، يُسمى بلاد الفرنسيس، وكان عليه ملك عظيم. كان تحت هيمنته، بجانب بلاد الفَرَنْسِيس، جزيرة صغيرة تسمَّى كورسيكا؛ ويوجد في هذه الجزيرة بلدة صغيرة اسمها أجاسيا[١]. وكان أحد نبلائها، اسمه بونابرت، له عدة أبناء؛ كان اسم أكبرهم لوسيان[٢]، والأصغر نابليون، وكان نابليون ذا رغبة شديدة في أن يصبح يوزباشي، أو أحد الزعماء

(١) أجاكسيو، وليس أجاسيا.

(٢) بل جوزيف هو الابن الأكبر، أما لوسيان فيليه في الترتيب.

بين الجنود؛ ولكن، لأن أحداً في أوروبا لا يستطيع أن يصبح زعيماً للجنود من دون أن يدرس فنَّ الجندية في مدرسة مؤسَّسة خصيصاً لهذا الغرض، فقد أُرسِل نابليون إلى مدرسة في بلاد الفرنسيس في بلدة صغيرة تُسمَّى بريين، حيث اتخذ لنفسه مجموعة صغيرة من الأصدقاء، وتقدَّم بصورة جعلته يُرسَل إلى عاصمة الفرنسيس، باريس.

في هذا الوقت ثار أهل بلاد الفرنسيس على ملكهم؛ فقد كانوا من جانبهم قد فقدوا الخوفَ من الله، أمَّا من جانب الملك، فلم يكن محاطاً بمستشارين حكماءَ. ووصل الأمر إلى درجة أنهم في النهاية أعدَموا ملكهم وملكتهم. ولأن الملك والملكة أقرباء لملوك آخرين من أوروبا، وخصوصاً ملك النِّمْسَا، أي ألمانيا، فقد اشتركوا في الحرب؛ ولاسيما أن العدد الأكبر من أهل بلاد الفرنسيس بدؤوا يجحدون كل دين، بل حتى وجود الله، وقد شرعوا يُطاردون أولئك الذين يقولون إنه من الأجدر أن نموت بدلاً من التخلِّي عن معتقداتنا في الله وفي عيسى.

في ذلك الوقت، كما قلت، جيء بالشابِّ نابليون من المدرسة إلى باريس، وقد ميَّز نفسه بالاستيلاء على البلدات التي لم ترغب في التسليم للمتمرِّدين؛ لذلك فإن نابليون، الذي كان في البداية يوزباشي، قد جُعل سرهنك؛ كولونيل، وفي الحرب مع إمبراطور النمسا ميَّز نفسه بجَسَارته؛ فأصبح سرتيباً، أي جنرالاً، وفي هذا الوقت تعرَّف إلى سيدة، تنبَّأت لها أحد الكاولي برياند (غجرية) بأنها ستكون ملكةً عظيمة، ولكنها ستسقط مرة أخرى.

بعد ذلك ذهب نابليون إلى مصر مع الجيش، واحتلَّها كلَّها، ولكن الإنجليز أخرجوه منها؛ ثُمَّ التحم في معركة مع جيشين مندمجَيْنِ لملك النمسا وإمبراطور روسيا، غلب فيها الاثنين. وقد جُعل بادشاه بلاد الفرنسيس، وبذلك

تحقَّقت نبوءة الكاولي برياند. غير أن نابليون لم يقتنع؛ فقد تمنى أن يصبح مثل تيمور كوركان، وليس گهان گير فقط، ولكن مثل گهان دار أيضاً، وأصبح مغروراً، وقال، كما تنبَّأ النبي إشعيا (صلاة الله وسلامه عليه!): سوف أجلس على جانبَي الأرض؛ ولذلك اتَّجه إلى روسيا، حيث غلبه الثلج والجيش الروسي، وهُزم.

وفي النهاية تحالفت ضده جيوش من مختلف بلاد الفرنجستان، وشارك معهم إمبراطور النمسا، وهو الذي أجبره على تزويج ابنته له، وعندها كسره السرتيب الإنجليزي العظيم، آرثر ولينجتون، مع السرتيب البروسي، بلوخر، وسجنه الإنجليز، ومات في جزيرة تقع بين بلاد الغرب وهندوستان؛ وهكذا تحققت نبوءة إشعيا: أولئك الذين سيشاهدونك سيدقِّقون النظر فيك، ويتأمَّلونك. أهذا هو الرجل الذي جعل الأرض ترتعش، وهزَّ الممالك؟ الذي جعل العالَم قَفْراً، ودمَّر المدن بذلك؟ الذي لم يفتح سجن مساجينه؟ وتحقَّقت نبوءة الكاولي برياند؛ بأن زوجته لا بد أن تسقط مرة أخرى».

ورغم أنني سجين، وغير مسموح لي بالتحرُّك خارج المنزل دون مراقبة، فسوف يندهش قُرَّائي إذا علموا أنه بإمكاني تسلية نفسي بإمتاع أولئك الناس، الذين خانوني وسجنوني، وذلك بإخبارهم طُرَفاً مختلفةً؛ وقد فعلت ذلك. وهم بالتأكيد اعتقدوا أنني أغرب مُحْتَجَز. وفي إحدى الأمسيات كانوا جميعهم جالسين حولي: دِل آسا خان، وإسماعيل خان، وقولي، وقاهر قولي، وأمير ساروق، وآخرون من المروزيين. كل واحد من هؤلاء الرجال يعد بحق قائداً فَذّاً في مضمار النذالة.

لقد قصصت عليهم القصة الآتية، وكانوا جميعاً صامتين: «كان هناك درويش في جزيرة العرب، مشهورٌ في بلاد العرب كلِّها بأنه رجل حَصِيف. وعندما مر ذلك الدرويش من أمام بيت المفتي الكبير، كتب باللغة العربية فوق

الجدار كلمة «حمار» ثلاث مرات؛ وكتب لكل واحدة من هذه الكلمات معنًى؛ وقال: الحمار الأول هو ذلك الشخص الذي يمتلك ساعة ويسأل عن الوقت؛ والحمار الثاني هو ذلك الشخص الذي يمتلك حصاناً ويمشي على قدميه». وهنا توقفتُ ولم أُكمل، عندها هتفت المجموعة من المستمعين: «ومن الثالث؟» فقلت: «كل واحد منكم».

وصلت هذه الطُّرْفَةُ إلى مسامع داستر خانجي، وقد كتب إلى الملك - الذي كان وقتها في زحفه إلى خوقند - الكلمات الآتية: «إن يوسف وولف، الإنجليزي، عبد جلالتكم، يعيش الآن في حُبُور، ويزداد سِمْنَةً من إحسان جلالتكم؛ وقد خدع كلَّ الذين زاروه بالطرفة الآتية...».

زارني كذلك في هذا الوقت القاضي كيلون، وكانت الزيارة لها علاقة بستودارت وكونولي.

وقد سُئِلتُ فيما بعد في إنجلترا: ما الشواهد التي لديك على موت ستودارت وكونولي؟ فقلت: إنه لا يوجد شك في أن الملك سيقدِّم أيَّ شيء لكي يعيدهم إليَّ. حتى إن القاضي كيلون، في زيارته السرية، أخبرني أن الملك لم يأسف إلى هذا الحد على عمل قام به مثل أسفه على ما ارتكب. وقد قال القاضي كيلون نفسه كذلك في ظهيرة أحد الأيام عندما كان كلُّ من حولي نياماً: «لقد حذَّرت جلالتَه، ولكنه لم يكن ليسمع نصيحتي؛ بل حذَّرته قبل ساعة واحدة من تنفيذ الإعدام». وعلم اليهود كلُّهم بالأمر في يومِ الإعدام نفسِه، وقد أخبروني جميعهم بذلك. وهكذا، فكل ساكن في بخارى، وفي الريف المحيط كلِّه، تحدَّثوا عن الموضوع على أنه أمر معروف جيداً.

وفي مناسبة أخرى رَوَيْتُ النادرة الآتية لجمع كبير، وقد أُجْبِرْتُ على أن أُخرجها بشكل غريب؛ لأجعلها واضحة:

«حكم بادشاه (ملك) في النمسا، كان اسمه فريدريك، وقد حمل لقب «العظيم». وقد شَنَّ حرباً دامت سبع سنوات مع الكثير من الملوك (بادشاه)، ورغم أن رجاله كانوا قليلين، إلا أنه استطاع أن يَجْتَثَّ شأفة أعدائه. وبما أن لغة النمسا مختلفة عن لغة الفرنسيس، فقد أصدر في أحد الأيام الأمر الآتي: أنا فريدريك، قد تلطَّفت في أن آمر، بأنه إذا أتى في أيٍّ وقت أحدُ رجال بلاد الفرنسيس، وقال: أرغب في أن أصبح جندياً في جيش الملك فريدريك، فإن السرهنكية وضُبَّاطي مأمورون بألاَّ يسجِّلوه؛ لأن الفرنسيس غير قادرين على تعلُّم لغة النمسا، ويشكلون في النهاية مُعْضِلَةً عَويصة. على أية حال، أتى في أحد الأيام رجل من بلاد الفرنسيس. كان طويلاً جداً، ولأن السرهنكية يعلمون أن فردريك العظيم يحب الجنود الطوال، فقد قالوا: دعونا نقبَله، ونحاول أن نعلِّمه لغة النمسا؛ من أجل ألا يكتشف الملك أنه من الفرنسيس. غير أن كلَّ محاولاتهم لتدريسه لغة النمسا أخفقت؛ فاكتفوا بأن علَّموه الإجابة شفهيّاً عن ثلاثة أسئلة، يطرحها الملك كلَّ سنة على كل جندي، ولا يغير في ترتيبها.

وكان السؤال الأول الذي يطرحه الملك على كل جندي: كم عمرك؟ فيجيب الجندي عنه بمقدار عمره.

وكان السؤال الثاني: كم سنة لك في الخدمة؟ فيجيب الجندي بما تقتضيه الظروف.

أمَّا السؤال الثالث: هل أنت قانع بما يُدفع لك من مرتَّب ومن طعام؟ فيجيب الجندي عنه بكلمة: كلاهما.

وعلَّم السرهنكُ الجنديَّ (الفرنسيس) الكلمات الآتية، كإجابات عن الأسئلة الثلاثة: «عشرون سنة، ثلاث سنوات، وكلاهما». فتعلَّمها حفظاً. وأفهموه أن

يقول عند السؤال الأول: «عشرون سنة»، وعند السؤال الثاني: «ثلاث سنوات»، وعند الثالث: «كلاهما».

وجاء الملك بعد سنة، واستعرض جنوده، وطرح الأسئلة على كلٍّ واحد منهم حسب الترتيب المعتاد. لكنه عندما وقف أمام الرجل الطويل من الفرنسيس، غيَّر الترتيب مُقدِّماً السؤال: «كم سنة لك في الخدمة؟» فأجاب: «عشرون سنة». وكان سؤال الملك الثاني: «وكم عمرك؟» فأجاب: «ثلاث سنوات». فتساءل الحضرة بعد ذلك قائلاً: «هل أنا حمار، أم أنت حمار؟» فأجاب بالقول «كلاهما».

وفي مرة أخرى كان أمير ساروق والتركماني المتشرِّد، يجلسان في صحبة آخرين معي، فتفاخر أمير ساروق بأن لديه ألطف ذقن في المجموعة، وبأنها بيضاء بالكامل. فأجبت: «يا أمير ساروق، هل تعلم حُلم الدرويش؟ لقد حلم أحد الدراويش يوماً أنه رأى شيخاً يقف أمامه، له ذقن بَهِيَّةٌ لطيفة، فقال الدرويش: أَوَّه، إنني أعرف من تكون؛ فأنت لن تخدعني بذقنك البيضاء اللطيفة. أعرفك، أنت الشيطان، وبدأ ينتِف ذقَنَه. وعندما استيقظ الدرويش، وجد أنه نتف لحيته هو». ثم قلت لأمير ساروق: «احترس؛ لئلا تحلُم بحُلُم مماثل، لأنك ستفقد ذقنك بالتأكيد». فانفجر الجمع ضحكاً، وقالوا: «لا تتفاخر بذقنك البَهِيَّة في حضرة جوزيف وولف؛ لأنه سوف يضحك على ذقنك».

الفصل الرابع عشر

عبدالصمد خان يخبر الدكتور وولف أنه كان المحرِّضَ الرئيسَ على المذبحة في خوقند في الحرب الأولى، وكانت دوافعه إيجاد عداء بين الدولتين، يثق في أنه سينتهي بموت الأمير. عبدالصمد خان يقول إن المهمة الأولى ضد خوقند كانت بنصيحة من روسيا، ومن وقتها عقد أهل خوقند تحالفاً مع روسيا، وكانت سياسة روسيا هي تهيئة ذلك بحثُ الأمير على شَنّ حرب عليهم، عندما يكونون في حاجة إلى معونة. الرُّوس يَعتزمون إقامة حصن في حضرة سلطانية. أناس من كابل وكشمير والسِّنْد يزورون الدكتور وولف، ويمتدحون، بشكل مفرط، السير تشارلس نابيير. خطاب السير تشارلس نابيير. أفغان من كابل يَعْزُون الكوارث التي تلحق بالجيش البريطاني إلى سلوك الضباط غير الأخلاقي. التصرُّف الحازم للرائد رولنسون: يحكم بإعدام أحد الأفغان لارتكابه جريمة قتل. سلوك الملالي المسلمين وعاداتهم. اجتهاد المسلمين في نَسْخ القرآن. مجمع التنصير وجمعية الإنجيل البريطانية والأجنبية يتنصَّلان من الواجب نفسه نحو النصارى. سينقرض الإنجيل في الشرق تقريباً ما عدا الذي في تلك الجمعيات. وصول عباس قولي خان، سفير فارس. يخبر الدكتور وولف بأن الشاه، والحاجي، وآصف الدولة أَوْصَوْهُ بقوة أن يأتي بالدكتور وولف معه، أو أن يرسله قبل عودته. النائب ينبئ الدكتور وولف بأن يار محمد خان أرسل ثلاثة رسل إلى بخارى، زاعمين أن الكولونيل شيل نَعَتَ الأمير باللص بحضور السفير الروسي وسفير يار محمد خان، وأمام الدكتور وولف وسفير بخارى؛ ولذلك ينصح يار محمد خان الأمير أن يضرب عُنُقَ الدكتور وولف. النائب يعرض على الدكتور وولف حمايته. محمد خوقاني، أحد الضباط الأتراك، يُقتل في بُسْتان النائب. محادثة أخرى مع النائب. النائب ينقل مهمة عباس قولي خان

بطريقة غير أمينة. الدكتور وولف يحاول الهرب. النائب يُخلِف وعده بحماية الدكتور وولف، الملك يرسل في طلبه. الدكتور وولف يحمِّل النائب مسؤولية قتل ستودارت وكونولي؛ النائب يُقرُّ بذلك. الدكتور وولف يحاول الهرب مرة أخرى عبر فتحة للماء من بستان النائب إلى منزل ياور، وبينما كان هناك، تتقدَّم نحوه امرأة فائقة الحسن. وولف يكشف الحيلةَ لإجباره على اعتناق الإسلام، ويطرد المرأة. يؤمر من الملك أن يَمْثُل أمامه. يغادر بستان عبدالصمد خان. يَمْثُل أمام الأمير، الذي يستقبله بصَرَامَةٍ. يؤمر بالعودة إلى توراه خانه والمحيط القريب منه. يزور عباس قولي خان، الذي يَنْذِرُ أنه سينقذه. الملك يرسل إليه كلمة أنَّ في إمكانه أن يرحل عن بخارى بإحدى طريقتين. يترك لجلالته اختيار أيهما. الملك يخرج إلى سمرقند.

فيما يتعلَّق بالحرب الأولى على خوقند، ذكرت سابقاً أن عبدالصمد خان كان المحرِّضَ الرئيسَ على تلك المذبحة المخيفة التي وقعت آنذاك. أما الأسباب التي دفعت عبدالصمد إلى أن ينصح ملك بخارى بإعدام ملك خوقند، وارتكاب مجْزَرَة في حق أكبر عدد ممكن من السكان، فتكمن في أن ذلك قد يتسبَّب في نشوب عداء دَمَويٍّ بين الدولتين. إلا أن هذا العداء، كما يثق هو، سوف ينتهي بموت الأمير. لقد أخبرني هو نفسُه بهذه الأمور.

وفي الوقت الذي تظاهر فيه هذا الزَّنيم بأنه صديقي، أخبرني كذلك عن حادثة أخرى بالِغَة الأهمية؛ وهي أن بوتنيف، السفير الروسي، نصح بشدة ملكَ بخارى أن يَشُنَّ حرباً على خوقند قبل أن يشن حربه الأولى. ومن الملحوظ أنه منذ أن قام بالحرب أول مرة، فإن أهل خوقند - كما أخبرني عبدالصمد خان - دخلوا في حِلْفٍ مع روسيا؛ وهو موضوع نُوقش كثيراً، وأن الروس يَعتزِمون إقامة حِصن في مدينةٍ تسمَّى حضرة سلطانية، أو بالأحرى تسمى: تركستان، أو قريبة منها.

وفي يوم آخر، خلال حملة الملك على خوقند، زارني أُناس من كابل وكشمير والسِّند. وقد عبَّر أولئك القادمون من السند عن إعجابهم البالغ، ليس فقط ببسالة السير تشارلس نابيير وبطولته، ولكن كذلك بعدله ومُسَاواته. وقالوا: إن اسمه يخيف البُلوش أكثر مما يخيفهم ذِكْرُ تقدُّم أحد الجيوش. وهنا أكرر القول: إنني متأكد من أن السير تشارلس سيكون أنسبَ رجل يُرسَل إلى بخارى.

وقد كتب هذا الرجل الصادق العظيم، السير تشارلس، حاكم السند، إليَّ الخطاب الآتي عندما كنت في بخارى، غير أنه لم يصل إليَّ حتى عودتي من هناك إلى طهران:

السند، الخامس من سبتمبر ١٨٤٤م:

عزيزي وولف:

تلقيت خطابك الموجَّه إليَّ وخطابك الموجَّه إلى زوجتك، وقد أرسلتُه إليها. وأنا متأكِّد من أن ملك بخارى سيبعثك إلى ملكة إنجلترا؛ لإقناعها بأن جلالته كان لديه سبب عادل لذبح كونولي وستودارت. ويسرُّني أن أسمع أن جلالته يعاملك بصورة جيدة. ولكن يجب أن يبعثك إلى إنجلترا؛ فهذا سوف يزيد في شهرته في جميع أنحاء الأرض. لديَّ جيش كبير هنا، وإذا أمرَتْني الملكة، فسوف أتوجَّه إلى كابل وأستولي عليها لصالح إنجلترا. بلِّغ تحياتي لملك بخارى، الذي عمَّت شهرتُه جميع أنحاء العالم.

صديقك: سي. جي. نابيير، حاكم السند

أجد صعوبة في تحديد أيِّ الأمرين كان أكثر إثارة لاحترامي لهذا البطل المشهور: لطف خطابه، أم حكمته البالغة. لقد أرفق مع الخطاب الترجمة الفارسية له، وقد تمنيت كثيراً لو أنه وصل إليَّ في بخارى. فأنا متأكد من أنه

كان في الإمكان إرساله بسلام تام؛ وحتى في سجني، فإن قلبي كان سيقفز فرحاً، أن يخطر في ذهني لُطف الزعيم المحارب في السند بي، وقلقه عليَّ، واهتمامه بسعادتي. ولن تغيب هذه الأمور عن فطنة الأمير؛ فهناك صديق قريب جداً، بطلٌ، سُمْعَتُه كأنها قَصَفُ الرعد الهادر، يتطوَّع للزحف إلى كابل مع فيَالقه، ويتحدث عن هذا الإنجاز وكأنه أمر هين، وسيكون الأمر هكذا معه، وسيفهمه جيداً الملك الأوزبكي. إن نغمة الخطاب جميعها محسوبة جيداً لتصل إلى غايتها، والإشارة إلى كابل، يمكن أن يطبِّقَها البطل دون صعوبة على بخارى.

ولكن عَليَّ الآن أن آتي على نقطة من نقاط الضعف؛ فالأفغان من كابل الموجودون في بخارى، وكذلك من التقيتهم بعد مغادرتي بخارى عبر الصحراء إلى مشهد، يَعْزُون الكارثة التي حَاقَتْ بالجيش البريطاني، وسخط الشعب الأفغاني على الجيش، إلى سلوك عدد من الضباط البريطانيين، الذين أمتنع عن ذكر أسمائهم، والذين أثاروا مشاعر السكان الأصليين بسبب إدخال «رذائل الأوروبيين وفجورهم» إلى البلاد، ومن خلال تخطِّي الحدود التي أباحوها لأنفسهم مع نساء أفغانيات.

ونرى من ذلك أن جهود المنصِّرين المتَّصفين بالرَّزانة، الذين يناقشون مع المسلمين اسم المسيح، ربما لا يثيرون الشرقيين، لكنَّ سوء الأخلاقيات الأوروبية يثيرهم بالتأكيد. والفكرة العامة في كابل هي أن معظم الضباط البريطانيين لا يؤمنون بأيِّ إلهٍ. أما في قندهار فالأمر يختلف تماماً؛ فأسماء مثل: الرائد رولنسون ونوت ولوجين وتود، تُذكَر باحترام. وقد سرَّني كثيراً الوصف الآتي الذي سمعته في بخارى خاصّاً بالرائد رولنسون؛ إذ تحدث الأشخاص الذين رأوه عن رَبَاطَةِ جَأْشِهِ في الحادثة الآتية:

أقدَم أحد الأفغان، في وضح النهار، على قتل أحد الإنجليز في قندهار،

فأُحْضِرَ مغلول اليدين أمام الرائد رولنسون. فخاطبه الرائد قائلاً: «لماذا قتلتَ ذلك الصاحب؟» فأجاب الأفغاني: «سوف أقتلك أنت أيضاً لو كانت يداي غير مقيَّدتين». فسأله الرائد: «لماذا؟»، فأجاب الأفغاني بصَرَامة: «ما شأنكم، أيها الكفار، الذي يجعلكم تدخلون بلدنا؟ أنتم أيها الكفار ليس لكم عمل في بلدنا؛ فأفغانستان لنا، وهي ملك لأجدادنا. فما هو الشغل الذي لكم في بلادنا؟». وكان أحد الأفغان حاضراً، فالتفت إلى الرائد رولنسون، وقال له، من أجل أن ينقذ حياة الجاني: «أيها الرائد، إنه مجنون»؛ فسمعه القاتل، وقال: «أنا لست مجنوناً؛ أنا أفهم جيداً: هؤلاء الكفار ليس لهم عمل في بلدنا». بعدها، جُوزي الأفغاني على جريمته بالموت.

يجب عليَّ الآن أن أُلامس نقطة أخـرى، حـول سلوك الملالي المسلمين وعاداتهم في بخارى، وفي جميع أنحاء العالم؛ فمنزلة شيخ الإسلام والقاضي والمفتي وإمام الجُمُعة هي الأعلى في معتقد المسلمين[1]، وهذه (الألقاب) يوازيها رئيس الأساقفة، والأساقفة في الكنيسة النصرانية. ويتعدَّى الإجلال الذي يُضْفِيه عليهم الملكُ ذلك الذي يضفيه أيٌّ من الملوك على رجال الكنيسة؛ فمثلاً: يُقَبِّلُ السلطان يدَ شيخ الإسلام في القسطنطينية، ويُقَبِّلُ أمير بخارى يدَ شيخ الإسلام هناك، ومع ذلك فهؤلاء الشيوخ (شيوخ الإسلام) يحيط بهم فقراءُ أمَّتهم، ويمتلك أفقرُهم حرية الوصول إلى شيخ الإسلام. ونحن نسمع باستمرار الملالي الفقراءَ (رجال الدين) وآخرين من عامة الناس، يقولون: «يجب أن أذهب إلى شيخ الإسلام في بخارى». وسمعت آخرين يقولون: «يجب أن أذهب إلى إمام الجمعة في مشهد». وهذه الثقة من الفقراء في رجل الدين

(١) بل الأعلى في معتقد المسلمين هو ما يحدده قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

منتشرة بين الأرمن والإغريق والكلدان والنصارى اليعقوبيين: «يجب أن أذهب إلى كاتوخليكوس في إتش ميازين، من أجل تلقِّي الفرج». والمرء يسمع الشيءَ نفسه يقال في منازل الأرمن في وجار شابات، وفي تلك (المنازل) حول جبل أرارات. هذه الثقة من الفقراء في أساقفتهم تنتشر في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، كما يوجد اعتماد قويٌّ من الفقراء على السلطات الكَنَسية بين اللوثريين في ألمانيا.

وقد رأيت الفقراء في عام ١٨١١م، يحيطون بالناظر العام فويخت، في ساكس وايمار، والدكتور فلات في توبنجن، وسمعت أولئك النُّظَّار أنفسهم يُصْغُون باستمرار، ليس للتوسُّلات فقط، ولكن حتى لتعليقات الفقراء المُهينة، الذين يكونون في الغالب وَقِحين للغاية. أقول إنني سمعتُهم باستمرار يُصغون إليهم باهتمام بالغ. ومما يُرْغَبُ فيه أعظم الرغبة أن يشيع هذا إلى أقصى حدٍّ في البلدان النصرانية، بين كبرائهم في مؤسساتهم المختلفة.

ورأيت المسلمين يجتهدون كثيراً في نَسْخِ المصحف، وبسبب ذلك تتوافر لهم آلاف النسخ منه. وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بنَسْخِ الإنجيل؛ فلا اليهود ولا النصارى لديهم الوسائل المعينة على الاحتفاظ بالكثير من النسخ المكتوبة لكتبهم المقدَّسة. فإذا كان مجمع التنصير في سالف الزمان، وجمعية الإنجيل البريطانية والأجنبية في وقتنا الحاضر، لم يقوموا بإرسال نسخ مطبوعة إلى الشرق، فإن هذا يعني أن النصارى سيبقون من دون أي وثائق مقدَّسة، ماعدا القليل منها المحفوظ في الأدْيِرَة.

أخيراً، وصل عباس قولي خان، السفير الفارسي، الذي أعرف أن حياتي بين يديه. زرته في أول يوم، وحينها أخبرني أن محمد شاه والحاجي وآصف الدولة طلبوا منه بشدة: إما أن يعودَ بي، وإما أن يرسلَني قبله؛ ولكني لم أُمْضِ

معه إلا دقائق معدودات، إذ أرسل النائب في طلبي ليبلغني أخباراً مهمة. فذهبت في الحال إليه، فقال لي: لقد وصل الآن ثلاثة من الرسل من لدن يار محمد خان، يقولون: إنني والكولونيل شيل تشاجرنا مع سفير بخارى عندما كنت في طهران، وإن الكولونيل شيل نَعَتَ الأمير باللص الذي سرق ممتلكات ستودارت وكونولي الشخصية؛ وإن الكولونيل شيل فعل ذلك بحضور السفير الروسي وسفير يار محمد خان؛ وإن (يار محمد خان) من أجل ذلك ينصح الملك أن يقطع رأسي. ثم استطرد: ابْقَ الآن معي هنا في البستان؛ وإذا لم يرسل الملك في طلبك في غضون أيام قلائلَ، فسوف أدَعُك تهرب؛ إما إلى شهر سبز، أو أوركنج. وأحلف لك برأس عبدالله خان وبالقرآن أنني سأفعل ذلك؛ وإذا أراد الملك أخذَك بالقوة، فسوف أَدُقُّ الطبول: طرم! طرم! طرم! وأقول: قف، وإلى الأمام سر! فأنا متأكد من أن الملك سيرسلك إلى بلدك؛ فقد قال إنه يعرف أن يار محمد خان كاذب، وتلفَّظ بكلمات قليلة أقنعتني بأنه لن يقتلَك؛ وهي: يجب أن أرسل جوزيف وولف سريعاً؛ فما لديَّ من جراح منذ أن قتلتُ ستودارت وكونولي يكفيني.

أتى إلى بخارى في هذا الوقت، وهو في طريقه إلى خوقند، حاجي محمد خوقاني؛ وهو ضابط برتبة يوزباشي في خدمة سلطان القسطنطينية، ولم يكن قد رأى والدته أحد عشر عاماً. وأُلقِي القبضُ عليه بأمر من الأمير، وأُرسِل إلى عبدالصمد خان. وقد خاف النائب أن يصرَّ الملك على توظيفه، فأمر بشنقه خلال الوقت الذي كنت أحادثه فيه، ثمَّ أرسل كلمة إلى الأمير فحواها أن حاجي محمد قد انتحر. وعلى أية حال، لقد أكد لي ضباط النائب، أن الضابط الشاب قُتل بأمر من عبدالصمد خان؛ الذي رفض أن يريني جُثَّته، حين طلبتُ رؤيتها لكي أقتنع.

في اليوم التالي، أتى المَحْرَم قاسم، ثم وقف يحادث النائب على انفراد: فتنحَّيت جانباً دقائق معدودة. بعدها صاح النائب: «يوسف وولف، تعال إلى هنا». فجئته، فأخبرني قائلاً: «لقد جلب لي المَحْرَم قاسم للتوِّ أخباراً؛ ولكن لا تخف؛ فالملك يعرف أن القصد من ذلك أن يتورَّط في حرب مع إنجلترا».

وولف: «أية أخبار؟».

النائب: «لقد وصل عباس قولي خان إلى هنا ومعه خمسة طلبات من محمد شاه. والطلب الأول لملك فارس هو أنَّ (الأمير) يجب أن يقتلك. وقد كتب حاجي ميرّزا أقاسي الشيء نفسه. هؤلاء القاجار هم أُس اللعنة؛ ولكن لا تخف، فسوف أرى الملك الأحد القادم».

أغلقتُ على نفسي غُرفتي وصلَّيت؛ وسرعان ما ذهب النائب إلى حَريمه، وأتى بهادر، الذي سبق ذكره، إليَّ، وقال: «أنا لست فارسيّاً؛ أنا هندي. لقد أكلتُ ملحَ الإنجليز. فإذا أحببت سأدعك تهرب، وآخذك إلى خولوم، ومن هناك أذهب معك إلى الهند؛ ولكن لا تُخبر النائبَ عن الموضوع». واتفقنا على أن نغادر ذلك المساء؛ ولكن عندما حلَّ المساء وجدت قراول (حارس) بجوار سَريري. ولحظت كذلك أن النائب أرسل رسالة خاصة إلى الملك.

وفي الصباح التالي أتى مَحْرَمٌ لم أره من قبل، وهو في حالة هياج، وقال: «يجب أن تذهب إلى البلدة، أنت متعب هنا؛ الملك يأمرك بذلك». ولمّا كان النائب في الطابق العلوي، ناديته قائلاً: «أيها النائب!» فنزل النذل؛ وقد اصطبغت ملامحه بالسواد؛ وكدت أجفل من منظره؛ فسألته عمّا إذا كان يعلم بأمر الملك؟ فقال: «نعم، ويجب أن تطيع».

هذا التناقض الحاد مع وعده الأكيد بحمايتي، حتى من الأمير نفسه، أثار سخطي الشديد إلى أبعد الحدود، فقلت: «أرى الآن أنَّ من يقولون إنك السبب

في مقتل الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، على حق؛ فأنت كذَّاب وخائن ونذل! وتعتزم قتلي أيضاً». فأجابني: «نعم، لقد قتلتهما. وقد تشاجر ستودارت معي ومع أخي، الذي هو حاجي، في البستان، حول التيلاه». فقلت له: «أنت كاذب! لماذا كنت تخبرني أن ستودارت وكونولي كانا دائماً صديقيْن لك؟» فأجاب: «أعرف كيف أعاملكم، أيها الفِرِنْجُ، كما ينبغي». فقال المَحْرَم: إنني يجب أن أذهب معه. فقلت: «لا». وما أن قلت ذلك، حتى ركضت خارجاً من البستان قافزاً فوق جزء واطئ من الحائط، وعندها لحق بي بهادر، وقال: «الآن سوف أدعك تهرب».

قادني في البداية إلى بستان يتبع ابن النائب، عبدالله، وهو بستان لم ينتهِ العمل فيه، وكان النائب قد أخبرني، في مناسبة سابقة أنه يعتزم إنشاء حصن؛ لكي يدافع عن نفسه، في حال دَعَتِ الحاجة، ضد الأمير.

وبخلاف كلِّ التوقعات، أُحْضِرَ إليَّ الأمير أبو قاسم بأمر من النائب؛ فأخبرني أنه كان قد عقد العزم على أن يكون سفيراً إلى إنجلترا. [ملحوظة: لقد نسيت أن أذكر من قبل أن النائب نصحني، عند اقتراح رسول لأول مرة، وقبول الاقتراح، بأنه يجب أن أَدُسَّ السُّمَّ له في الطريق، الأمر الذي رفضتُه، بالطبع، بعد أن داخلني الرعب].

قلت للأمير أبي القاسم: «أعرف أن الأمير عقد العزم على قتلي». وكانت معي ورقة صغيرة وحبر، فكتبت كلمة إلى النائب، قائلاً: «الآن أعرف أنك خائن وكاذب! وأنك سوف تقتلني، كما قتلتَ ستودارت وكونولي». وأعطيت الورقة للأمير أبي القاسم، الذي أعطاها بدوره للنائب.

وقادني بهادر بعدها، عبر فتحة للماء، إلى منزل الياور (الرائد) الذي يقع على مسافة زهاء ثلاث مئة قدم من منزل النائب، وهناك وعدني بهادر والياور

بأن يتركاني أهرب في مساء ذلك اليوم. حَلَّ المساء، وعندها أتى الياور، وقال: إن الأمير افترض أنك هربت، فأرسل جنده في الطرق كلها لملاحقتك؛ ولذلك سيكون من الأفضل لك أن تمكث هنا حتى يعود جنود الأمير. وبعد أن يَكُفُّوا عن ملاحقتي؛ فإنهما - الياور والبهادر - سوف يصحباني إلى شهر سبز، وخولوم، وحتى إلى الهند. وأخبرتهما: أنني كنت مقتنعاً بأن النائب خائنٌ وكاذبٌ، ولن أعتمد في المستقبل على كلامه، وإنني أنتظر قَدَري بصبر وتسليم.

خرج كلٌّ من بهادر والياور من الغرفة، عندها دخلت امرأة، في أجمل ما تكون من أناقة، ومن دون خِمَار. فتنبهتُ في الحال إلى الخدعة، وهتفتُ بصوت عالٍ، مع غضب عارم: «اذهبي إلى الجحيم!». وفي الحال دخل الياور وبهادر، متسائلين: ما الأمر؟ فجلَّيْتُ لهما الأمر كلَّه؛ لقد كانت نفس الخدعة التي حاول النائب أن يمارسها بنذالة مع ستودارت وكونولي؛ حيث سمعت من أناس مختلفين أن الحيلة نفسها قد مُورِسَتْ عليهما، متصوِّرين إجبارهما على أن يعتنقا الإسلام، ولكن دون جدوى. إذن، فبهذا يُجبَر كل رقيق يأخذه النائب، من أجل أن يبيع الذُّرِّية الناتجة منهم رقيقاً.

نِمتُ تلك الليلة في منزل الياور، وكان بهادر وحسين علي، وهما خادمان للنائب، ينامان بالقرب مني، وعندما أخبرتُهما أنهما يجب أن يناما على مسافة أبعدَ مني، اعترضا بأن النائب قد أمرهما بذلك، ولكني دفعتهما عني بالقوة.

في صباح اليوم التالي جاء أحد كبار ضباط الملك وأمَّنني، باسم الملك، على أن أذهب إلى البلدة، وأنني سوف أتسلَّم فوراً إذن مغادرتي. فأطعت؛ ولكن قبل ذلك أُدخلت على النائب، حيث أخبرني النذل أنه دفع عشرين تيلاه لكبير الضباط؛ لكي يعاملني باحترام، وأنني يجب أن أحصل على إذن لأغادر بعد عشرين يوماً.

تركت البستان المخيف المملوك لذلك الكلب المتعطِّش للدماء، وركبت تجاه البلدة. وكان ذلك يومَ جُمُعَة. وقد أُمرت أولاً أن أقدِّم السلام للملك، ولكني لم أُؤْخَذْ، كما هي العادة في السابق، إلى غرفة لطيفة من غرف القصر، وإنما أُجْبِرْتُ على أن أنتظر خارج البوابة حتى ظهور الأمير. وقد ظهر سريعاً، ونظر نحوي بقسوة، ومن الواضح أنه غيرُ راضٍ عني. بعد ذلك أمرني جلالته أن أرافق المَخْرَم، واثنين من الحرس، إلى رَبْعِيَ القديم في توراه خانه، حيث يسكن هناك عباس قولي خان، وأنه يجب ألاَّ أتحرَّك خارج المنزل من دون إذن خاصٍّ من جلالته. فأتيت إلى توراه خانه، واحتللت الغرفة نفسها، التي احتلها الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قبل إعدامهما.

قمت بزيارة عباس قولي خان، الذي كان - لحسن الحظ - يسكن في المنزل نفسه، ما جعله خارج دائرة التحريم الذي فُرض عليَّ، أو في الأقل كنت عازماً على ألاَّ أفهم الأمر بذلك المعنى. وقال لي من فوره: «أقسم لك بالله وبالقرآن، أنني لن أبرح بخارى من دونك». فأخبرته أن النائب عبدالصمد خان أبلغني أن محمد خان أمره أن يجعل احتجازي ثم موتي في بخارى. وقد أنكر قولي التهمة بوقار بالغ، وأطلعني على تعليمات من الحاجي ميرزا أقاسي، رئيس وزراء ملك فارس، يأمره فيها بوضوح بإنجاز إطلاق سراحي من بخارى.

وعند المساء، أرسل الأمير إليَّ الرسالة الآتية:

«هناك اناس في بخارى من خوقند وأوركنج، كانت أيدي مواطنيهم ملطَّخةً بالدماء، وإلى جانبهم أناس من كابل وكشمير وهندوستان. لا احد منهم ضايقه الملك، وجميعهم تمتَّع بحمايته. لذلك فإن جلالته يشعر بأنه قد أُثِير بشدة؛ حيث أعلنتَ على الملأ في بخارى أن في نية جلالته إعدامي؛ وقد احمرَّ وجه جلالته من الغضب. وهو لذلك يسألني الآن ما إذا كنت سأرحل عن بخارى

مصحوباً بالخزي وعدم الاحترام، أم سأرحل باحترام ممتعاً بالعطف والتبجيل. ففي الحالة الأولى سيزوِّدني بجواز سفر بسيط، أما في الحالة الثانية، فسيخلع عليَّ، بعد عودته من سمرقند، رداءَ الاحترام، ويرسل معي رسولاً إلى إنجلترا».

فأرسلت إلى جلالته جواباً يفيد بتوبتي من تسببي في جعله يغضب مني. أما فيما يتعلق بطريقة خروجي من بخارى، فقد تركت ذلك لخِيار جلالته المطلق.

وفي اليوم التالي خرج الملك إلى سمرقند، وفي نيته إخضاعُ خوقند وطاشقند لسلطانه.

الفصل الخامس عشر

يهـود يحـصلون على إذن مـن الأمـيـر لزيارة الدكـتـور وولـف، ويغنّون مـعـه، ويطلبـون منه تزويدهم بأسـمـاء اليـهـود المشـهـورين الذين اعـتنقـوا النـصـرانيـة. يخـبـرهم بعـدد منهم، مـثل: إمـانويل فـايث؛ دكـتـور في الطـب، والدكـتـور مـايرز، والدكتور أوغست نيـاندر، والدكتور راتسبـون، وإسحاق دا كوستـا، والدكتور كابادوس، والسيدة دوروثيا شليجل. محادثة مـع أحد اليـهـود البولنـديين. حكايات مـختلفـة. محـمـد باقـر نقـاش، خـادم كونولي يـرتدُّ عن الإسلام، ويقـول إن النصـارى أفضل من المسلمين. يمثل أمـام شيخ الإسـلام، ويصـرُّ على مُـجـاهَرَتـه؛ ويُرسَل إلى السـجن، ويُجلَد. خطاب من الشاه. حاجي إبراهيم، أخـو عبدالصمد خان، يخبـر النائب عن الخطاب، ويستحثه لمنع عباس قولي خان من تسلُّمه. الدكتور وولف ينقذ محمد باقـر. شناعـات عبدالصمـد خـان: يتسبَّب في قطـع رأس أحـد التـركمـان، الذي قدِم لإنقـاذ سـتودارت؛ وكـذلك أفـرايم، أحـد اليـهـود من مـشـهـد. سجناء في بسـتـانه؛ نُوَاحُهُمْ وانْتِحابُهُمْ. انطباع يشيـع في البلدان الإسلامـيـة كافة بأن إنجلترا وروسيا ستُحكمان سيطرتهما على تلك المناطق. تعليق أحد البخاريين للدكتور وولف. الأفغان يمتدحون الإنجليز. حبيب يبكي، ويخبر الدكتور وولف أنه سيُقتل. خدم عبدالصمد خـان يعلنون مـوت الدكتـور وولف، ويكشفـون خطاباً مـن عـبدالصمد خان بهذا الشأن. الدكتور وولف يستسلم للموت.

قبل مغادرة الأمير إلى خوقند طلب بعض اليهود بلطف بالغ إذنه لزيارتي، وقـد منحـهم ذلك. فـزاروني، ورغبـوا إليَّ أن أغنِّي لحْناً عِبْـرِيّاً؛ حيث قـالوا: «صوتك جَهوري وحُلو»؛ فغنيت بلحن حزين:

«عند مياه بابل جلسنا وبكينا، حيث تذكَّرنا جبل صُهْيُون في القدس». إلخ.

بعد ذلك غنَّينا تَرْتِيلَة اليهود في تركستان:

الملك مسيحنا سوف يأتي.

فهو الجبار من الجبار.

الملك، الملك، الملك مسيحنا سوف يأتي.

هو المبارك من المبارك.

الملك، الملك، مسيحنا.

هو العظيم من العظيم.

وسألني أولئك اليهود عمّا إذا كان هناك أحد من المتميِّزين اليهود في أيامنا ممن اعتنق النصرانية. فأجبت: «كثيرون منهم»؛ فرغبوا في الحصول على أسمائهم، فأعطيتهم الأسماء الآتية:

أولاً: إمانويل فايث؛ دكتور في الطب، كاهن كاتدرائية القدِّيس ستيفن، في فيينا.

ثانياً: الدكتور مايرز؛ أستاذ التشريع والفقه في توبنجن.

ثالثاً: الدكتور أوغست نياندر، في برلين.

رابعاً: الدكتور القس راتسبون، في فرنسا.

خامساً: إسحاق دا كوستا، في أمستردام.

سادساً: الدكتور كابادوس، في أمستردام.

سابعاً. مدام دوروثيا شليجل.

ثم سردت عليهم نبذة من تاريخ أولئك القوم:

«ولد إمانويل فايث في عام ١٧٨٨م، في كلاتاو في بوهيميا، ودرس بشكل منتظم في جامعة براغ، وبعد ذلك في فيينا. وتميَّز كثيراً في دراسة الطب، وخصوصاً في قسم الطب البيطري والتاريخ الطبيعي، بحيث تولَّى منصب أستاذ الطب والتاريخ الطبيعي، ومدير المستشفى البيطري في فيينا، وهو في

عامه الرابع والعشرين فقط. وكان أشهر طبيب في فيينا، ليس فقط بسبب نجاحه، ولكن كذلك بسبب حبِّه للخير والإحسان. ثم شرع يقرأ الإنجيل، وكتابات القدِّيس أوغستين وجيروم؛ فدرس اللاهوت، وهو الآن أعظم عالم باللاهوت وأعظم واعظ في فيينا. وتعدُّ خطبُه حول مبعث لازروس، وشرحه لصلاة الرب ورحلاته للجبال المقدسة، وحكاياته الدينية وعمله المُعَنْوَنُ «حُجَجَ يسوع المسيح»، من روائع الأدب الألماني. وأضمِّن هنا واحدةً من قصائده لأولئك الذين يفهمون الألمانية:

يا ربنا، هب لنا رحمتك.
وتذكَّر رحمة أبيك.
وبقوة يدك قُدْنا.
بحيث لا يُغرقنا الضلال.
اغفر لنا ما كان منَّا في سالف الزمان.
دعنا لا نكرِّس الحضور إلا لك.
بأنْ لا نبني أبداً على رمال.
ولا أن نَثِق بالباطل.
ولا أن نتوقَّف عن عبادتك.
وإلى الأبد ننظر إليك.

كان إيمانويل فايث لفترة وجيزة عُضْواً في رَهْبَنَةِ المُخَلِّصين؛ غير أنه كان أميناً أكثر من اللازم بالنسبة إليهم؛ ولذلك طردوه. وهو أحد كُهَّان كاتدرائية القدِّيس ستيفن في فيينا. ولا شك في أن التعليقات الآتية لهذا الكاتب القدير ستُثبِت له القبول لدى قُرَّائي.

«إن يسوع المسيح ملك في الوقت الحاضر، غير أنه ليس الملك الذي يظهر الآن مُحاطاً بنُبَلائه، متقلِّداً الصَّوْلجَان ولابساً التاج، ويجلس على العرش،

ولكنه (ملك) يتجوَّل في الحقول متنكِّراً في عباءة راع؛ ومع ذلك فكل المجد والقوة له، وسوف يتجلَّى يوماً ما مثل الشمس لكل المتشكِّكين».

أما الدكتور مايرز فقد وُلد عام ١٧٩٨م في فرودينثال بالقرب من شتوتجارت، في فورتمبرج في ألمانيا، وتميَّز بمعرفة التلمود مبكِّراً وهو في السابعة من عمره، ودخل المدرسة الثانوية في شتوتجارت، وقبل دخوله جامعة توبنجن ألقى كلمة باللغة اليونانية أدهشت المتعلِّمين. وهو الآن مسيحي وَرِعٌ، وأستاذ مشهور.

وأما الدكتور أوغست نياندر فهو من أبوين يهوديَّيْن. ورغم أنه تجديديٌّ في التعبير عن آرائه، إلا أنه مخلص وباحث وَرِعٌ عن الحقيقة، وهو أستاذ اللاهوت في برلين. ويُعدُّ تاريخُه البابويُّ والكَنَسي نِتَاجَ عقل متشرِّب بعمق بالدين الروحي.

وأما راتسبون، فهو قَسٌّ كاثوليكي روماني، وقد أثار عملُه (حياة القديس برنارد) أعظمَ المشاعر في فرنسا.

ثم إن إسحاق دا كوستا هو من أولئك اليهود الذين يُطلق عليهم «المُكرَهون» «أنوسيم»، في إسبانيا، وهو حفيد أخي يورئيل دا كوستا الشهير، كاهن برشلونة، الذي عاد إلى اليهودية التي اعتنقها هو وجميع أفراد أسرته، عندما غادر إسبانيا ووصل إلى أمستردام، وبعد هذا انتحر. وقد تعلَّم إسحاق كيهودي في أمستردام، ولكنه درس القانون في لايدن، وتحوَّل إلى الدين النصراني بواسطة بلدردايك؛ وقد أسهَمَ في تحويل أُمِّه وأسرته إلى ذلك المعتقد، وكذلك الدكتور كابادوس، بالطريقة نفسها التي حوَّل بها يورئيل دا كوستا أسرته إلى المعتقد اليهودي. ويُعَدُّ إسحاق دا كوستا كاتباً مشهوراً، وأحد المعجبين المخلصين لروح القرون الوسطى، ولكنه من أنصار مذهب كالفين في رؤاه؛ وهو رجل ذو فصاحة قوية وشاعرٌ.

وأما الدكتور كابادوس، المتحوِّل على يدي دا كوستا، فإنه يمضي أيامه في الأعمال الخيرية. ويجب أن أسجِّل هنا ملحوظة أنه يجب الاعتراف بأن أولئك الذين حصلوا على تعليم كامل هم فقط الذين أثبتوا أنهم مسيحيون مخلصون؛ ولذلك يبدو من المرغوب فيه جداً أن تُفتح الكلِّيات في إنجلترا لليهود.

وأما السيدة دوروثيا شليجل؛ فهي ابنة أكثر الفلاسفة شهرةً في الشعب اليهودي، وهو موسى مندلسون(١). تزوَّجت فايث؛ وهو مَصْرفيٌّ يهودي في برلين. وعندما كتب فريدريخ فون شليجل كتابَه الشهير «لوسينده»، رَدَّتْ السيدة فايث عليه بكتاب عنوانه «فلورنتاينه». وقد أنجبت ولدين من فايث، ولكنها انفصلت عنه فيما بعد، وتزوَّجت شليجل. وأصبحا، كلاهما، كاثوليك رومان في كولون، وعندها أصبح شليجل مدافعاً قوياً عن العصور الوسطى، وزوجته إحدى المعجَبات جداً بالأدب الإسباني. فترجمت عدة أعمال من الإسبانية إلى الألمانية. ومن دون أن تزعم بأنها واعظة، حوَّلت، من خلال محادثاتها، الكثيرَ من المجدِّدين إلى الدين النصراني. وقد عمَّد الكاردنيال سيفيرولي، سفير البابا في فيينا، ابنيها: يوهانز فايث، وفيليب فايث. وكانا رسَّامَيْن مشهورَيْن في ألمانيا؛ تعرفتُ إليهما في روما، وهما يتمتَّعان بمكانة عالية بين الكاثوليك الرومان والبروتستانت؛ لموهبتهما وأصالتهما وجدِّهما وتَقْواهما.

ويجب ألا أغفل كذلك ما سجله فيليب فايث، بأنه قد اشترك - هو وثيودور كورنير(٢) - في حرب ألمانيا ضد نابليون. وكورنير شاعر معروف

(١) ولد في ألمانيا (١٧٢٩م)، ومات فيها كذلك (١٧٨٦م). أسس الحركة الإصلاحية اليهودية، وأشاع علوم عصره بين اليهود. جمع علوم الدين وفلسفته ومعارف القرن الثامن عشر. أعلى من قيمة العقل فوق الدين، مخالفاً بذلك موسى بن ميمون وأتباعه في أن العقل رديف للدين وتابع له.

(٢) كارل ثيودور كورنير (٣/٩/١٧٩١-٢٦/٨/١٨١٣م). شاعر ألماني وجندي مشهور.=

جيداً. تطوع فايث مع البروسيين، وحارب إلى جانب الفارس لاموت فوك في معركة لايبسك. وعندما همَّ أحدُ الفيالق البروسية بالتراجع، صاح فيليب فايث: تقدَّموا يا رفاق، وهتف فيهم بأن يتحرَّكوا، وتصرَّف هو نفسه ببسالة وبطولة جعلت بلوخر يرقِّيه ضابطاً في ساحة المعركة.

وفي هذا الوقت زارني أحد اليهود البولنديين الروس، وهو مقيم في شاماي. وفي أثناء حوارنا حول اليهود المميَّزين في ألمانيا، ذكَّرني بالحكاية الآتية، وكنت قد سمعتها من والدي عندما كنت صبياً: عندما كان الحاخام إسرائيل، من برونزويك، صبياً، كان فقيراً للغاية؛ وفي أحد الأيام، وصل إلى أحدَ أَدْيِرَةِ الرُّهبان، وكان جائعاً ومُنْهَكاً، فاستجدى رئيس الدَّير أن يعطيه شيئاً ليأكله. فأمر رئيس الدير أن يُحضَر له لحمُ خنزير. فقال المسكين إسرائيل: «فليعذرني، غبطتُكم، فإنه لا يجوز لي أن آكلَ لحم الخنزير». فقال رئيس الدير: «إذا كنت بهذا الغباء، فيجب ألا تُعطى أيَّ شيء لتأكله». فانطلق اليهودي المسكين بعيداً متحسِّراً؛ فأرسل رئيس الدير في إثره، وطلب منه أن يعود. وعند عودته قال له رئيس الدير: «الآن، بما أنك ذو ضمير حيٍّ، وتُفضِّل أن تتضوَّر جوعاً على أن تخالف معتقداتك، فسوف أجعلك وكيلاً لديري».

ومضى إسرائيل يتقلب في دنياه من نعمة إلى نعمة، وأصبح أغنى رجل في برونزويك؛ وقد قلَّد نابليونُ ابنَه جاكوبسون، وسَامَ جوقة الشرف من رتبة فارس، وجعله جيروم نابليون، رئيس اليهود في وستفاليا. وأسَّس جاكوبسون مدرسةً لليهود وغيرهم في سيزِن، بالقرب من برونزويك.

= انضم إلى الانتفاضة الألمانية ضد نابليون، وعُرف بأشعاره الحماسية في صفوف الجند. نال شهرة واسعة رغم صغر سنه، وقد كتب عدداً من المجموعات الشعرية، نُشر بعضها في حياته، وبعضها عقب وفاته. قامت والدته بنشر أعماله كاملة في أربعة مجلدات بحلول عام ١٨٣٨م.

وقد علمت، عندما كنت في مَجْمَع التنصير، أن رجلاً رحَّالة وخيَّاطاً يُدعى «رِيس»، أصبح فيما بعد مدبِّر منزل جاكوبسون هذا. ترك رِيس منزل جاكوبسون، وجاء إلى روما، حيث تعرَّف إلى الخادم الخاص بالأميرة العجوز جابلونوسكي، ومن خلاله تعرَّف إلى الأميرة نفسها التي رأت فيه مواهب كثيرة، فأوصتْ به الكاردينال ليتا، الذي استقبله كتلميذ في مجمع التنصير؛ والآن يحتل رِيس منصب أسقف ميشغان، في أمريكا.

ويقيم اليهودي البولندي الروسي الآن في شاماي، في الصين التترية، وقد روى لي الرواية الآتية حول أم الحاخام يهوذا هاشد الشهير، المولود في وورمز، في ألمانيا:

عندما كانت أمُّه حاملاً به، كانت تمشي مرة في شارع وورمز، فحاول أحد النصارى، الذي كان عدواً لدوداً لليهود، أن يدهسها بعربته، ولكن فجأة مال برج شارع وورمز على أحد جوانبه، من أجل أن يظلِّلَها؛ ومن وقت هذه الحادثة وبرج وورمز مائل.

بعد ذلك أخبرني الحكاية الآتية (أو بالأحرى ذكَّرني بها؛ إذ كنت قد سمعتُها قبلاً في منزل والدي) حول تحوُّل البارون أدلرفيلد، ابن الحاخام الشهير جوناثان يوبيتشز: «أصبح أدلرفيلد ثرياً جداً، ماحدا بإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة إلى جعله بارونا. وأقام أدلرفيلد في دِرِيسدن. وفي غمرة عِيشة الرفاه نسي دين آبائه، وأصبح مُلحِداً. والده الذي كان حاخاماً في هامبورج كان قد مات قبل سنوات كثيرة من ردِّته، فظهر له شبح والده فجأة أمامه، وقال: «يا بني، تذكَّر أنك ابن إسرائيل. إذا تبت فَحَسَنٌ؛ وإن لم تفعل، فإن الرب سيأخذك بعيداً ويبترك من جماعته». ومات البارون أدلرفيلد مؤمناً حقيقياً بموسى والتلمود».

بعد ذلك تحدَّثنا عن يهود متعلِّمين آخرين؛ منهم: الشهير حزقيال جامبيلز، ويُدعى كذلك الحاخام لانداو، في براغ. بعدها قدَّمت له وصفاً للأثرياء والمهمِّين من اليهود الذين أعرفهم في ألمانيا. وسوف يُسَرُّ أصدقائي

اليهود في إنجلترا وألمانيا حين يعلمون أنني أطْلَعْتُ يهود بخارى على بعض الأعضاء المهمين من طائفتهم في ألمانيا، وهم:

أولاً: الراحل الدكتور أوبنهايم، في فرانكفورت على نهر الماين، الذي توفي في عام ١٨١٦م. كان مقدَّراً جداً بسبب حبه للخير من النصارى واليهود.

ثانياً. سالومون سيشل، في فرانكفورت على نهر الماين كذلك، وله ولد مقيم في مانشستر؛ اسمه ناثان سيشل.

ثالثاً. أسرة كاولا، من شتوتجارت، أكثر اليهود ثراءً وإحساناً في ألمانيا.

رابعاً. الدكتور فريدلاندر، في برلين، صديق موسى مندلسون.

خامساً. ماير أوبرنيك، مترجِم سِفْرِ أعمال الرُّسل.

سادساً. الأستاذ زيرندورفر، في ميونخ، مشهور بمعرفته بالأدب الألماني.

سابعاً. الأستاذ يولسون، في فرانكفورت، أحد المصلحين الكبار في الشعب اليهودي.

ثامناً. الأستاذ هيس؛ أستاذ في كلية اليهود الخيرية في فرانكفورت على نهر الماين.

وسوف يدرك إخوتي اليهود عندها أنني أتذكَّرهم وأنا في بلاد بعيدة.

ولا يمكنني الإحجام عن ذكر حادثة تسترعي النظر حدثت لي في عام ١٨٠٨م، عندما كنت صبياً، في الثالثة عشرة من عمري؛ فقد ذهبت إلى المدرسة الثانوية في فرانكفورت، وتعلَّمت اللاتينية. وقد عاملني كلٌّ من الدكتور أوبنهايم وسالومون سيشل بلطف بالغ، غير أنني كنت كَسُولاً جداً؛ ولمرضي، تركت فرانكفورت في عام ١٨٠٩م. وعندما كنت راعيَ أبرشية في هويلند العليا، بالقرب من ويكفيلد، في يوركشير، في عام ١٨٤٢م، قمت في أحد الأيام بزيارة أصدقائي الصنَّاعين، السادة جوزيف وجورج نورتون، في كلايتون وست، وهناك قابلت يهودياً، خاطبني قائلاً:

الشاب: أنت تعرف والدي.

وولف: ومن والدك؟

الشاب: الأستاذ سيشل من فرانكفورت.

وولف: سالومون سيشل؟

الشاب: إنه جَدِّي؛ أما والدي فهو ناثان سيشل.

وفي نهاية المطاف، فإن اليهود هم أكثرُ الناس ذكاءً؛ ويتغلَّبون على الصِّعاب بأسلوب فريد جداً. وكمثال، أذكر الحقيقة الآتية، التي سمعتُها من صديقي الدكتور ماك كاول: لقد تمنى ماك كاول في أحد الأيام أن يُجري لقاءً مع القس السابق سولومون هيرشل، كبير الحاخامات في لندن؛ ولذلك زار الحاخام هيرشل في أحد المساءات، وأرسل إليه بطاقته، فسمح له الحاخام بالدخول، وسأل ماك كاول من يكون؛ فأخبره أنه أحد المنصِّرين لليهود.

الحاخام هيرشل: وكيف أحوال الذين يتحوَّلون؟

ماك كاول: كبقية اليهود؛ بعضُهم جيد، وبعضهم الآخر رديء.

الحاخام هيرشل: كل الذين تحوِّلهم أنت رديئون.

ماك كاول: هل تستطيع أن تخبرني شيئاً عن مجيء المسيح؟

الحاخام هيرشل: لا نعلم شيئاً حول ذلك؛ وعندما يظهر المسيح، عندها سنعلم.

ماك كاول: عندها سيعلم ذلك الأغبياء أيضاً.

الحاخام هيرشل: ربما قد أكون غبياً.

وبذلك انتهت المقابلة.

وبينما كان الأمير غائباً في سمرقند، قام محمد باقر نقَّاش - أي: الصبَّاغ، الذي كان، سابقاً، في خدمة كونولي - بالهتاف بصوت مرتفع في أحد الحمَّامات قائلاً: «الفرنج أفضل بكثير من المسلمين، ومحمد ليس نبياً. لقد كان أحد الطغاة الشرسين، وكذلك هم كل أتباعه. الله واحد، ولكن لا يُوجَد نبي». أُحضِر نقَّاش أمام شيخ الإسلام، ونوقش علانية حول تصريحه.

شيخ الإسلام: (مخاطباً محمد باقر) هل صحيح أنك قمت بهذا التصريح؟

محمد باقر: نعم. لقد صرَّحت بصوت مرتفع بأنه لا يوجد نبي.

شيخ الإسلام: أنت تعتقد، ربما، أن المسيح نبي؟

محمد باقر: لا.

شيخ الإسلام: إن المُلاَّ يوسف وولف لا يوافقك الرأي؛ لأنه يؤمن بأن المسيح ليس فقط نبيّاً، ولكنه يدعوه كذلك ابن الله.

محمد باقر: لا أصدق أيَّ نبي؛ ولكن المسيح أفضل من محمد، وأتباع المسيح أفضل من أتباع محمد.

بعدها أُرسِل محمد باقر إلى السجن وجُلِدَ، في محاولة لإثنائه، ولكن دون جَدْوَى؛ ما جعل الملالي يرسلون على عجل غلاماً إلى الأمير، الذي كان في ذلك الوقت في سمرقند؛ وقد أمرهم ألاَّ يقتلوه حتى يعود. وعند عودة الأمير، أرسل - كما سيرى قُرَّائي في الفصل القادم - أحد الملالي وأحد الجلادين؛ لكي يعرف ما إذا كنت سأصبح مسلماً؛ وإلاَّ هددني بالموت.

غير أن خطاباً من ملك فارس كان قد وصل، وقد كُتب وأُرسِل، بناءً على طلب الكولونيل شيل، إلى عناية آصف الدولة في مشهد، الذي أوصله إلى صديقي الملا مهدي، الذي أوصله - بدوره، وبسرية تامة، على يدي أحد التركمان - إلى عباس قولي خان في بخارى. وبفضل العناية الإلهية كان الحاجي إبراهيم، أخو عبدالصمد خان، غيرَ موجود في مشهد في هذا الوقت؛ إلا أنه حين عودته إلى مشهد، علم أن المُلاَّ مهدي قد أرسل خطاباً من الشاه إلى الأمير، فركض بجنون نحو المُلاَّ مهدي، وقال له: «لماذا أرسلت خطاب ملك فارس إلى الأمير في بخارى؟ ولماذا لم تعطِني إياه، لكي أوصلَه إلى أخي، عبدالصمد خان، الذي كان سيوصله بنفسه إلى الملك؟».

والآن، وقد اتضح أن هذه حقيقة مؤكَّدة؛ حيث إن بهادر، خادم عبدالصمد خان، أخبرني أنه رأى خطاباً من الحاجي إبراهيم، كتب فيه إلى عبدالصمد خان، من طريق رسول عاجل، الكلمات الآتية: «إن ذلك اليهودي الملعون، المُلاَّ مهدي، أرسل خطاباً من الشاه إلى الأمير، يوصله عباس قولي خان. ولم أكن وقتها في مشهد؛ ولذلك لم أتمكَّن من اعتراض الخطاب. اعمل ما في وُسْعك، أخي العزيز، لمنع الخطاب من الوصول إلى يديّ عباس قولي خان،

لأنه إذا ما وصل إليه، فإنك لن تنجح في الإبقاء على الإفرنجي، الذي عند رحيله إلى إنجلترا، سوف يفضحنا جميعاً».

ويؤكِّد حقيقة هذا الإيضاح من بهادر الحديثُ الآتي: عند وصولي إلى مشهد، أخبرني المُلاَّ مهدي بنفسه، لحظة رآني، أن الحاجي إبراهيم كان غائباً عن مشهد في ذلك الوقت، وأنه قد أثار سخَطه الشديد إرسالُه الخطاب. وهذا الخطاب منع الملك من أن يؤذي محمد باقر؛ حيث إنه كان خادماً لكونولي، وحرَّرني كذلك من الاحتجاز. وقد أبدى الملك ملحوظة في الوقت نفسه، فقال: «لا أحد يؤذي محمد باقر؛ لأن جوزيف وولف ليس مجرَّد درويش».

بالإضافة إلى ما تقدَّم، يجب أن أقدِّم أمثلةً إضافية على الشَّناعات التي ارتكبها ذلك الوغد عبدالصمد خان، والتي أثبتَها لي ذلك الشخص المحترم خوجه صاحب من كشمير، وآخرون. فقد أتى أحدُ التركمان بُغية إنقاذ ستودارت، ووصل الخبر إلى عبدالصمد خان، ومن فوره أخبر الأمير بالمحاولة، فأمر الملك بضرب عنق التركماني فوراً.

كما وصل أفرايم، وهو يهودي من مشهد، لمساعدة ستودارت كذلك، عندها أخبر ذلك النذلُ الملكَ بالأمر، وقُطِعَ رأسُ اليهودي المسكين. وفي أي وقت أكون موجوداً في بستان ذلك النذل، يأخذني متقصِّداً بالقرب من المكان الذي يُبقي فيه سجناءه، وقد سمعت عَويل أولئك المتحسِّرين وصراخهم في السجن. وساعتها يكون منسجماً جداً مع نفسه، ويقول: «يوسف وولف، هل تلحظ ما أنا فيه من قوة؟ فالأمير يُنزل عقوبته على المجرمين بخمس وسبعين جلدة فقط، بينما أعاقبهم أنا بألفَي جلدة».

إن هناك انطباعاً، من الدردنيل حتى أكسوس، ومن هناك حتى أقصى حدود التِّبت، بأن إنجلترا وروسيا سوف تُخضِعان العالَم؛ والناس في شوق عارم إلى ذلك؛ بل يتمنَّوْن أن يحدث سريعاً.

وقد زار رجلٌ من بخارى دِل آسا خان؛ وعند مغادرته رآني أتجوَّل بالقرب من غرفتي. فنظر إليَّ، وقال: «هذا الإنجليزي بلباس المُلاَّ ليس سوى النذير لوقائعَ عظام؛ ولم يظهر هنا دونما سبب ومعه كتب النصارى مفتوحة، وموضوعة على قلبه. إنها علامة بأنه عاجلاً ما تقوم القُوى النصرانية بالاستعداد لتحدِّي الإسلام، وسيكون المسيح ملِكاً على العالم كله مدة أربعين عاماً، وسيظهر الدَّجَّال».

وجلس أحد الأفغان في المساء بالقرب من غرفتي، وقال: «إنني مطَّلع تماماً على أسلوب الحكومة في الهند؛ فإن كل إنجليزي في الهند هو ملك؛ ولذلك لن تقنعهم بلاد الهند فقط، ولكن حكمهم سيمتدُّ إلى الصين كلِّها؛ كما أن روسيا سوف تمتلك سريعاً مدن تركستان وخوقند وأوركنج». وبتلميحة وجَّهها إليَّ أشار كذلك إلى مملكة بخارى.

وقال آخر: «كنت دائماً أقول للناس في أفغانستان: لا تقوموا ضد الإنجليز؛ لأن الإنجليز لهم أجنحة، وإذا ما طردتموهم الآن، فسوف يعودون سريعاً».

وأبدى آخر الملحوظة الآتية: «إن روسيا وإنجلترا قوتان عظيمتان متنافستان. وقد أُرسل فيكوفيتش من روسيا إلى دوست محمد خان؛ ولكنه سرعان ما استُدعي، ومات منتحراً».

وفي أحد الأيام أتى حبيبٌ إلى غرفتي باكياً، وهو أحد الحرَّاس الذين كانوا يراقبونني، وقال: «اللعنات، ألف لعنة على عبدالصمد خان! لقد نجح أخيراً في حَثِّ الملك على أن يرسل أمراً إلى هنا لقتلك في الحال عند عودته».

ولم يكد ينهي ما قال، حتى دخل خَدَمُ عبدالصمد خان إلى غرفتي، وأطلعوني على خطاب من عبدالصمد خان إلى أحد ضباطه، كاتباً له: «إن (الحضرة) جلالته قد قرَّر في النهاية أن يقتل الإنجليزي، ولا شيء سينقذ الرجل. دعوه يذهب إلى الشيطان! ما الذي دفع به إلى أن يأتي إلى بخارى؟» فنظرت في الختم، فوجدته ختم عبدالصمد خان؛ فأسلمت نفسي لليأس.

الفصل السادس عشر

الكولونيل شيل. تصرف سيِّئ من خدم الدكتور وولف. تعليق الأوزبك على معاملة الدكتور وولف. المَخْرَمِيَّة يطرحون الأسئلة بأمر من الملك على الدكتور وولف. لطف عباس قولي خان تجاه الدكتور وولف. أنبل عقلية فارسية رآها الدكتور وولف. يرسل الطعام من سُفْرَتِه إلى الدكتور وولف. يضع خادماً مع الدكتور وولف من أجل سلامته الشخصية. يرسل طبيبه إلى الدكتور وولف لعلاجه من مرض الريشتا. عباس قولي خان والدكتور وولف يقرآن سوياً. تقارير متنوِّعة حول تحرُّكات الأمير. آراء عباس قولي خان الدينية. محادثة مع أُناس من سمرقند يخبرون الدكتور وولف عن مناجمَ ذَهَبٍ وفيروز بالقرب من سمرقند، وحديثهم عن جنكيز خان وتيمور لنك. خطاب من عباس قولي خان للسيدة جورجيانا. النائب يرسل ألفي تيلاه للدكتور وولف. خبر يفيد بأن خطاب اللورد إلينبورو موجود في بلخ وسوف يصل في غضون أربعين يوماً. الختم مفضوض. عبدالصمد خان يغادر بخارى إلى سمرقند. رسالته إلى الدكتور وولف. تصرُّف وضيع من الخادم عبدالله إذ يحاول سلب الدكتور وولف. الدكتور وولف يأمل من اليهود أن يتولَّوا أمر مال عبدالصمد خان: فيتجنَّبون ذلك، على أساس أن عبدالصمد خان سيسترده منهم، ثم يُرغِمهم على الدفع له. خطابات تصل إلى بخارى من أخي كونولي، والدكتور وولف يفضها. اللطف المتواصل من عباس قولي خان تجاه الدكتور وولف. اليهود يزورون الدكتور وولف. طريقتهم الغريبة في المحادثة. الدكتور وولف يكتب إلى «ملوك أوروبا». خطاب آخر من الشاه بتوجيهات مشدَّدة لضمان سلامة الدكتور وولف. خطاب للكابتن جروفر. عودة الأمير وعبدالصمد خان إلى بخارى. الملك يقرأ خطاب اللورد إلينبورو، ويقول عبدالصمد خان: إن الملك يقرِّر في عقله قتل الدكتور وولف، وآخرون

يقولون إن عبدالصمد خان هو من نصحه بذلك. عباس قولي خان ودِل آسا خان والدكتور وولف يزورون الأمير، والأمير لا ينظر إلى الدكتور وولف. خطاب للسيدة جورجيانا وابن وولف. كل الخطابات المرسلة يفضها الدكتور وولف. إرسال مُلاَّ إلى الدكتور وولف لمعرفة ما إذا كان سيعتنق الإسلام، ويرد بقوله: أبداً. يزوره الجلاد. الدكتور وولف يستعدُّ للموت. عباس قولي خان يعلن للأمير أن لديه خطاباً من الشاه يريد توصيله إليه. الأمير يتلقّاه، وَيَهَبُ الدكتور وولف له.

يبدو لي أن كُلاً من الكولونيل شيل ومكتب الشؤون الخارجية في البلاد، قد خُدعا في شخصية ذلك الكلب المتعطِّش للدماء عبدالصمد خان. ورغم أنني آسَفُ إذ أقول أيَّ شيء يحطُّ من قدر الكولونيل شيل، بسبب ما أبداه نحوي من كرم ضيافة، وما قدَّمه لي من مساعدة عاجلة بنقله خطاب ملك فارس إلى بخارى؛ إلا أنني يجب أن أقول إنه تبيَّن لي أن الكولونيل شيل بدا كأنه غير راغب في ألاَّ يُخدع فيما يتعلَّق بالشخصية الحقيقية لعبدالصمد خان، رغم أن وصفي لشخصية ذلك النذل سيِّئ السُّمعة أكَّده عباس قولي خان؛ كما أكده كلُّ فارسي زار بخارى، وأعلم أن سمعة ذلك الوغد السيئة معروفة جيداً لدى السيد دو بود والسير كلاود مارتن ويد.

وفي يوم آخر، دخل خادمي عبدالله إلى غرفتي وهو مهتاج، وقال: «الآن سوف يقتلونك، وماذا سأفعل هنا؟ ليس لديَّ مال للعودة. أعطني خطاباً إلى سفير بلادكم في طهران كي يمنحني هديةً ألفي تيلاه؛ وإذا لم تفعل فسأقتلك الآن. وإذا فعلت قبل أن يرسل الأمير هذا الأمر، فسوف أتدبَّر بعض الخوجا (قدِّيس) لكي يتحدث نيابةً عنك». فتناولت عصاً وضربته كما لم أضرب أحداً من قبل، وطردته من الغرفة، ومن خدمتي؛ ولكن عباس قولي خان رجاني أن أعيدَه إلى خدمتي من جديد؛ فإنني لن أكون بمأمن في بخارى إذا تركته يجري هنا وهناك مثيراً العامة ضدي. وهكذا أعدته إلى خدمتي، ما جعله أكثر

وَقَاحَةً؛ وقد شجَّعه النذل عبدالصمد خان على ذلك، وأرسل إليَّ كلمة تفيد أنني يجب أن أعطيَه مبلغاً من المال لكيلا يقوم بعمل الحرام زاده؛ أي الخائن. وعلى أية حال، يجب ألاَّ أتوسَّع في ذكر تفاصيل ما عانيته في بخارى من ذلك الخسيس عبدالصمد خان وخادمي عبدالله. ويمكن أن أقول فقط: إنني تمنيت باستمرار ألاَّ يؤخِّر ملك بخارى إعدامي؛ من أجل أن يتحقَّق لي السلام الأبَدِيُّ؛ كما يجب أن أقول إنه لم يكن من اللائق أن يرسل الكولونيل شيل مطالبةً مالية إليَّ من ذلك النذل من بخارى إلى إنجلترا؛ فقد كان واجباً عليه إدراك أن الوعد بالمال قد انتُزع من سَجين مسكين كان يرى الموت أمام عينيه.

في صباح أحد الأيام كنت مريضاً جداً، وعندما استيقظت من النوم، زعق عبدالله: «لقد ارتكبتُ خطأً كبيراً بمجيئي إلى بخارى مع كافر». فقلت: «ألا ترى أنني لست على ما يرام؟»؛ فرد بأكثر الأساليب حقداً: «إذن كُنْ على ما يرام. الأمران سواءٌ عندي».

وقال الأوزبك الحاضرون وحَرَسُ الملك: «إنهم يحاولون قتل هذا الإنجليزي المسكين بمضايقته». وعلَّق آخر قائلاً: «إن ذلك كلَّه يحدث بمشورة ذلك النذل عبدالصمد خان، الذي يتمنَّى أن يورِّط الأمير في مشكلات مع الإنجليز؛ والنذل يحب أن يرى بخارى مدمَّرةً، ثُمَّ يكسب هو من وراء ذلك».

وفي يوم آخر تلقَّيت رسالة من الملك، تمنى فيها جلالته أن يعرف ما إذا كان الشعب الإنجليزي في إمكانه أن يَنصِب جسراً فوق أكسوس. فأجبت بـ: «نعم، بسهولة بالغة». فأرسل مَحْرَماً آخرَ ومعه السؤال: «كم لدى الإنجليز من مدفع؟» فأجبت بأنني لم أَعُدَّها؛ ولكني متأكِّد من أن لديهم عدة آلاف من قطع المدفعية. فأرسل مَحْرَماً ثالثاً في اليوم نفسه ومعه السؤال: «كم يوماً تستغرقه قافلة جمال للوصول إلى إنجلترا؟»، فأجبت بالقول: «لا يمكن لقافلة من الجمال الذهاب إلى إنجلترا؛ إن مثل ذلك لم يُرَ في إنجلترا».

يجب عليَّ هنا أن أتذكَّر بأعمق ما يكون من الاعتراف بالجميل، اللطفَ الذي منحني إياه عباس قولي خان في تلك الفترة المرهقة؛ عندما اكتنف طريقي الكثيرُ جداً من المصاعب، وكانت حياتي على شَفير الدَّمار، رغم أنه لم يكن هو نفسه - بأيِّ حال من الأحوال - آمناً على مصيره، ولكنه كافح، كما يجب أن يفعل الجميع في بخارى، في ظل شكوك فظيعة حول سلامته. كان عباس قولي خان في السابق حاكمَ بوشهر، وهناك تعرَّف إلى الإنجليز. ووجدته رجلاً ذا حِسٍّ عالٍ بالشرف أكثر من أي شخص لقيتُه بين الشعب الفارسي؛ فعندما لحظ أنني لم أستطع أكلَ لحم الحصان، أو شرب الشاي بالملح والحليب، وإلى جانب ذلك، أكل الأرز المطبوخ نصف استواءٍ، قام بإرسال شيء من طعامه إليَّ يتكوَّن من لحم وأُرز وتَوابلَ، مطبوخ على الطريقة الفارسية؛ وعندما أدرك أنني في خطر من أن يقتلَني الحرس الذين وضعهم الملك عندي، أو خادمي عبدالله، أو دِل آسا خان، أرسل أحدَ خدمه لينام معي في غرفتي؛ ثم اكتشف سريعاً أن مرض الريشتا قد هاجمني، فأرسل أحد أطبائه لكي يفصِدَني.

وقد تمكَّنت من الذهاب إليه كلَّ يوم، وقد قرأنا سويّاً الأعمال الفارسية؛ مثل: أسكندر نامه، الذي يفصّل مغامرات الأسكندر، وكتاب الطَّبَرِيّ(1)؛ وهو كتاب تلقَّيتُه فيما بعد هديةً من الملك. وسمعت كذلك، في صحبته، عدداً من التقارير المتعارضة من مُخَيَّمِ الملك. مثال ذلك: في أحد الأيام، وصلت الأخبار التي تفيد بأن الأمير قد وصل إلى بوَّابات خوقند، وأن القاضي والمفتي وآخرين تقدَّموا لتسليمه مفاتيحها. وفي يوم آخر سمعنا أن الأمير قد تراجع بجيشه؛ رأفةً منه بسكان خوقند، غير أن الحقيقة هي أنه انكسر، وقد خسر اثني عشر رجلاً من كبار ضباطه.

---

(1) يريد تاريخ الطبري المترجم إلى الفارسية.

وقد كان لي كذلك كثير من المناقشات مع عباس قولي خان حول الدين. وكان يعتقد أن العالمَ كلَّه سيصبح نصرانياً، وأن يسوعَ المسيح سوف يحكم الأرض أربعين يوماً. بعد ذلك، سيظهر المسيح الدَّجَّال، ومن ثَمَّ سيغدو كلُّ العالم مسلمين.

وبينما كنت مع عباس قولي خان، أتى أُناسٌ من سمرقند، وحدَّثوني عن مناجمَ فيروز وذهبٍ يمتلكها أمير بخارى بالقرب من سمرقند. وتحدَّثوا عن تيمور لنك، وكأنه مات بالأمس فقط. وسمعت منهم أن جنكيز خان كان لديه يهودي من ألمانيا اتخذه أميناً لِسِرِّه(!). وقد فضَّلوا تيمور لنك على جنكيز خان؛ لأنهم يقولون عن جنكيز خان: إنه عرف كيف يخضع العالم، وإنه گهان گير: آخذ العالم؛ بينما تيمور لنك ليس فقط گهان گير، وإنما جهار ديوار كذلك: ممسك العالم.

ولكي أضرب مثلاً على لطف عباس قولي خان، أحتاج إلى إثبات صغير. وفي الخطاب الآتي دليلٌ على طيبة قلبه[1]، وهو موجَّه إلى الليدي جورجيانا:

باسمه تعالى! أُطلع السيدة صاحبة المجد والفضل، أختي اللطيفة المميزة، السيدة المحترمة، صاحبة المكانة الرفيعة، البارزة بين المتعلِّمين في المجتمع النصراني، أنه عند وصولي إلى بخارى، كان صديقي المميَّز، القس جوزيف وولف، محزوناً للغاية، وكانت شؤونه مرتبكة. فأحضرته إلى مكان إقامتي، وانتظرتُ سموَّ الأمير مرتين من أجله؛ وحصلتُ له على إذن بالمغادرة بناءً على أوامر من جلالة مليكي، الذي جمع الفضائل كلَّها، جُعل العالمُ فداه! وموافقة لأوامر معاليه، ...إلخ. إلخ.، سيدي الحاجي (رئيس وزراء فارس) مدَّ الله ظلَّه! بأنه يجب عليَّ أن أحضره معي. وبما أن سمو الأمير في بخارى كان يَضطلعُ برحلة لمدة شهرين ضد خوقند، كان من المستحيل عليَّ إرسالُه في رحلته حتى يعود الأمير. ومرة أخرى، وصل فَرَمان من جلالته (الشاه) إلى أمير بخارى،

(١) ترجم هذا الخطاب ممتناً إلى اللغة الإنجليزية الأستاذ تومسون في طهران. (المؤلف).

جهدتُ في إيصاله بأسلوب مناسب، وقد عملت كلّ ما هو مُسنَد إليَّ فيما يتعلق بالصداقة القائمة بين الحكومتين القويتين لفارس وإنجلترا. وحصلت على إذن بالمغادرة من أمير بخارى بوسيلة أو بأخرى. وفي غضون ثمانية أيام سآخذ معي وولف بسلام وصحة جيدة. والبقية مؤكَّدة.

وليس لديَّ أية نهاية في نظرتي أو توقُّعاتي. وقد عملتُ ذلك في خدمة حكومتي، ومن أجل الصداقة القائمة بين الحكومتين. وأنا أخٌ لصديقي المميز جوزيف وولف؛ وكذلك أخوكِ، يا سيدتي الفاضلة! وأنت أختي. لقد كتبت هذه الكلمات القليلة بناءً على طلب أخي، وأقدِّم تحياتي.

بخارى، السادس من رجب ١٢٦٠هـ

(الثالث والعشرون من يوليو ١٨٤٤م)

على إثر مغادرة الملك إلى خوقند، أرسل النائب إليَّ ألفي تيلاه، وطلب مني أن أَعِدَه بحملها معي إلى طهران لإيصالها إلى الكولونيل شيل، بغرض استلام عشرين بالمئة مقابل الخدمات المهمة التي قدَّمها لإنجلترا؛ وأفهمني أن هذا المال كان ضمانةً لي بجدِّه في تدبير أمر إطلاق سراحي على وجه السرعة.

في اليوم التالي، أرسل يستعيد المال من دون أمر مكتوب، وقال إن مانجو، التاجر الهندوسي، أو أي تاجر يهودي في بخارى، يمكنه أن يعطيني إيصالاً في مقابله. فأرسلت إليه كلمة تفيد بأنه يجب أن يعيد إليَّ رسالتي القصيرة أولاً، وفي الوقت نفسه يُصْدِرَ أمراً كتابياً للشخص الذي يجب عليَّ توصيلُ المال إليه؛ ولم يُجب النائب عن ذلك. بعد ذلك أرسل إليَّ مرتضى، باشي القافلة من هراة، لإفهامي أنه - عبدالصمد خان - قد أبقى على مرتضى، من أجل أنه قد يُعيننى على الهرب، بإخفائي في صندوق كبير، إذا لم يمنحني الأمير إذناً بالمغادرة.

وفي النهاية، وبعد مرور أربعين يوماً من الوقت الذي زعم فيه النائب أنه أرسل رسولاً إلى بلخ ليُحْضِرَ خطاب إلينبورو، وصل - كما قالوا - ذلك

الخطاب من بلخ، وكان يمكن أن يُؤتَى به بكل سهولة في غضون ستة أيام من وقت أن ادَّعوا أنهم أرسلوا رسولاً إلى بلخ لهذا الغرض. وأرسل عبدالصمد خان الخطاب إليَّ كي أتفحَّصه. وكان الشَّمع مكسوراً نصفين، وقد قال النائب: إن ذلك حدث في الطريق عندما وقع الرسول من فوق جواده.

بعد وصول الخطاب، خرج عبدالصمد خان قاصداً سمرقند للانضمام إلى الملك، مصحوباً بمئتي جندي مدرَّبين وأربع قطع من المدافع. وفي يوم مغادرته أرسل إليَّ بهادر، خادمَه، مخبراً إياي أنه يجب عليَّ أن أعطي عبدالله مئة تيلاه هديةً، من أجل ألاَّ يرتكب حرام زاده، أي نذالة وخيانة. فأعطيته عشرين فقط. لكنَّ عبدالله صار يزداد سوءاً في كل يوم يمرُّ، وفي ليلة، لحظت أنه يحاول سَرِقة المال، من أجل إعادته إلى النائب – كما أكَّد لي فيما بعد أُناسٌ ثقةٌ – ومن ثَمَّ قتلي، سواء في بخارى بالسُّمِّ، أو في الطريق بأية وسيلة يستطيعها. ولأن عبدالصمد خان لديه رسالتي المؤكِّدة أخذي للمال منه، فيمكنه – حينئذ – أن يتقدَّم إلى الحكومة البريطانية مطالباً بالمال؛ وبذلك يكون المال قد دُفع له مرتين؛ تماماً كما فعل مع الكابتن كونولي. ولهذا السبب أيضاً حجز مرتضى، باشي القافلة، في بخارى. ومن أجل تخليص نفسي من ذلك العبء، طلبت من اليهود المحترمين في بخارى أن يأخذوا المال، ويعطوني حَوَالَةً على مشهد؛ غير أن مشياخ، ومُلاَّ سمحا، وبنحاس (هذه أسماء اليهود الذين عرضتُ عليهم الأمر) أخبروني أنهم يعرفون ما فعله عبدالصمد خان مع الكولونيل ستودارت. وقالوا: لو أن ذلك النذل اكتشف أنني أوصلت المال إلى أيدي اليهود، فسوف يجبرهم، بعد مغادرتي، على رَدِّه إليه؛ ولذلك رفضوا قبول المال.

وقد وصل خطابان، بصحبة شخصين مختلفَين، من أخي كونولي، موجَّهَيْن إلى كونولي، تمنى فيهما أن يعرف ما إذا كان هو وستودارت حَيَّيْن أم مَيِّتَيْن. فتحتُ الخطابين، ومنحت عدَّة دوقات لحاملَيْهما، ومن أجل أن أستَحِثَّهما على

المغادرة بسرعة، قلت لهما: إنني أخبرت الملك بأن خطاباتٍ قد وصلت إليَّ من الهند، الأمر الذي شجَّعهما على سرعة التوجُّه مباشرة إلى بلخ وكابل.

وكنت مستعداً تماماً لهذه، من الخطاب اللطيف الوارد أدناه، المتسلَّم من السيدة ماكناغتن، أخت كونولي، قبل أن أترك إنجلترا، عندما عَرَضْتُ أول مرة أن أذهب إلى بخارى، وكان ذلك في عام ١٨٤٣م. ولو كان ذلك العرض قد قُبل حينها، فإنني مؤمن إيماناً راسخاً بأنني كنت سأنقذ حياة ستودارت وكونولي، حيث إنهما لم يتم إعدامهما حتى يوليو ١٨٤٣م.

سيدي العزيز:

أرسل إليك نسخة من الجواب الذي تسلَّمه الأستاذ ماكناغتن مساء أمس من اللورد أبردين، ومنه ستدرك أن الحكومة لا ترى أهمية في إقرار ذهابك إلى بخارى. ويظهر أن الكولونيل شيل قد طلبت منه حكومتُنا واللورد إلينبورو أن يبذل قُصارى جهوده للتحقُّق من مصير المحتجزين، ما يعني أننا من المفترض أن نتلقَّى، بناءً على ذلك، في غضون شهر، معلوماتٍ أكيدةً بخصوصهم. وقد عَهِدَ أخي الأكبر، الذي يقيم في شمالي الهند، برسالة إلى اليهودي موجَّهة إلى شيل؛ ليرى ما إذا كان أيٌّ من الضابطَيْن حياً، وقد وعد أن يحصل على جواب. ولذلك يجب أن ننتظر بصبر، محاولين أن نضع آمالنا على الذي أسبابه مملوءة بالحكمة والمحبة، رغم أنها تبدو لنا في بعض الأوقات غامضة.

إن إرادتك النبيلة للاضطلاع بقضية خطيرة جداً، من أجل شخص عزيز علينا، ستُذكر على الدوام بأعمق ما يكون من التقدير والامتنان. مكافأتك عند الله، الذي سَيَصُبُّ بالتأكيد بركاته عليك، مع أطيب تحياتنا للسيدة جورجيانا، وشكرنا المخلص، وصدِّقني، سيدي العزيز، إننا أكثر الناس لكم إخلاصاً على الدوام.

إلين ماكناغتن ١٣ يونيو ١٨٤٣م

إن ما عانيته في وقت غياب الملك لا يمكن وصفه. وقد أرسل إليَّ عباس قولي خان أطيبَ الطعام من مائدته باستمرار؛ لكيلا أتعرض للسَّمِّ من عبدالله. وفي الليل كان يأخذ مفاتيح غرفتي؛ لكيلا أتعرض للقتل. وطلب من خادمه أن يظل معي لحمايتي، كما ذكرت. وقد عانيت من تسلط جواسيس الملك الذين يأتون في كل حين ليعرفوا ماذا فعلت، واتصف اليهود بالشجاعة في المجيء، وقد نصحتُهم أن يأتوا عندما يكون مَخْرَمو الملك معي؛ وعندها ينظر كل واحد منا في إنجيل عِبْرِيٍّ، وكأننا نقرأ، وبهذه الطريقة ندير محادثتنا بالعبرية بحضور الأوزبك، الذين يظنون طوال الوقت أننا نقرأ في الكتاب بالتناوب. وقد عرفت - من خلال هذه الطريقة - كلَّ التفاصيل عمّا فعله الملك والنائب مع ستودارت وكونولي، وتفاصيل موت الأخير، وأسراراً عن سلوك الملك الفاسق الاستبدادي. أما عندما تكون المحادثات غير سياسية فقد كنا نديرها باللغة الفارسية.

وفي هذا الوقت كتبتُ الخطاب الآتي، وأرسلْتُه من بخارى:

إلى ملوك أوروبا أجمعين

بخارى ١٨٤٤م

سادتي! لقد خرجت إلى بخارى لكي أفتدي حياة ضابطَين؛ هما الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي؛ غير أنهما قُتلا قبل مغادرتي بشهور كثيرة، ولست أدري إذا كان دمي لن يُسفَحَ بدوره.

أنا لا أطلب ضمان سلامتي؛ ولكن، أيها الملوك، هناك مئتا ألف عبد فارسي، الكثير منهم ذَوُو مواهبَ عالية، يتأوّهون - ظلماً - في مملكة بخارى. ابذُلوا الجهد في سبيل حرِّيَّتهم، وسوف أبتهج في قبري من أن دمي كان سبباً لافتداء كثير من البشر. أنا مُستَشَار إلى أقصى حد، ومراقَبٌ بشدة عن كثب، ما يجعلني لا أستطيع قول المزيد.

جوزيف وولف

وخلال غياب الملك وصل خطابٌ ثانٍ من جلالة ملك فارس كان موجَّهاً إلى ملك بخارى، بناءً على توسُّل من الكولونيل شيل، وهو الخطاب الذي وصل إلى يدي عباس قولي خان. وفي الحال أطلَعني عليه. وقد كتب جلالة ملك فارس: «تقوم صداقة وطيدة بين إنجلترا وفارس؛ لذلك، إذا أنت لم تُعِدْ جوزيف وولف مع عباس قولي خان، فسأكون حانقاً عليك».

في هذه الفترة كذلك كتبت الخطاب الآتي إلى الكابتن جروفر:

بخارى، يونيو ١٨٤٤م

صديقي العزيز، أمضيت الآن شهرين في هذا المكان، ورغم أن الملك وعدني خمس مرات أو ستاً أن يرسلني فوراً إلى إنجلترا، مع أحد رُسُله، إلا أنني في خطر مُحْدِقٍ. فلا أستطيع التحَرُّك خارج المنزل من دون رقابة من ثلاثة رجال. وقد قام دِل آسا خان، الرجل الذي أرسله معي آصف الدولة، بسرقتي بصورة مُخجِلة، وخدعني وأغاظني. أما السفير الفارسي، عباس قولي خان، فهو لطيف معي، ولكني أعتقد أنه لن يكون بوسعه إنقاذي. وقد انتزع النائب، عبدالصمد خان، منّي وثيقةً يُدفع له بموجبها خمسةُ آلاف تومان ليعمل على تحريري. ولا أَشُكُّ في أنه كان سببَ موت ستودارت، رغم تأكيداته باستمرار صداقته.

الرجاء أن تُواسُوا زوجتي العزيزة وولدي بقدر ما تستطيعون؛ فإني أحبهم حباً جَمّاً. الأمير موجود الآن في سمرقند، وأنا هنا أنتظر يومياً أن تصل إليَّ أكثرُ الأوامر حَسْماً. إن ستودارت المسكين أعلن على الملأ إيمانه بالنصرانية بعد أن أُجبر على إعلان إيمانه بالإسلام. اعملوا من أجلي ما تستطيعون، ما دام شرف إنجلترا لا يُساوَم عليه. كل السكان هنا يتمنّون أن تستولي روسيا أو إنجلترا على البلد.

محبكم: جوزيف وولف

ملحوظة: لا تصدقوا أية تقارير حول مغادرتي السريعة؛ حيث إنني في خطر مُحْدِقٍ.

عاد الملك وعبدالصمد خان إلى بخارى بعد أربعين يوماً أو خمسين (حيث إنني أضَعْتُ كل تأكيد للتاريخ) من مغادرة الملك. وأسرع خادمي عبدالله، في الحال، ودون إذن مني، إلى النائب، الذي أرسل إليَّ كلمة معه، وكذلك من طريق ميرْزا عبدالوهاب، أن الملك قال، بعد أن قرأ خطاب اللورد إلينبورو: «الآن أصبح الوقت مناسباً لكي أقتل جوزيف وولف». ولَكِنَّ آخرين، كانوا حاضرين، أخبروني أنه عندما قرأ الملك الخطاب، قال له النائب: «الآن أصبح الوقت مناسباً لأن يقوم جلالتكم بقتل جوزيف وولف، حيث إن الحاكم العام يحاول إخافة جلالتكم».

قبل أسبوعين من وصوله، كتب إليَّ عبدالصمد خان من المُخَيَّم، أن جلالته كان راضياً جداً عن الخطاب، وأنه قال: إنه سوف يرسلني عاجلاً إلى موطني. وذهبت أنا وعباس قولي خان ودِل آسا خان للقاء الملك بالقرب من القصر، فَأَشَاحَ بوجهه عني. وعلق الناس المجتمعون بالقول: «لن تمرَّ الأمور على خير مع هذا الإنجليزي».

في هذه الساعة من الكَرْبِ العميق والقُنُوطِ، أرسلت من خلال السير تشارلس نابيير، عبر الهند، الخطاب الآتي:

زوجتي العزيزة وولدي، لا تفقدوا، أبداً، أبداً، أبداً، للحظة واحدة، حبَّكم وطاعتكم وإيمانكم بيسوع المسيح؛ وصلُّوا من أجلي، بأن أظلَّ مخلصاً له في ساعة المحنة. استعطفوا الكنائس في إنجلترا لكي يُصَلُّوا من أجلي لأعظم مخلِّص لنا مبارك، يسوع المسيح. بلِّغوا تحياتي لأصدقائي جميعاً.

محبُّكما جداً زوجكِ ووالدكَ: جوزيف وولف

أَرسلتُ كلَّ الخطابات من بخارى مفتوحةً، حتى تلك التي وجَّهتُها إلى ملوك أوروبا؛ وهذا الخطاب الأخير أرسله الملك نفسه. ولو كان في مقدورهم قراءتها، فلا شك أنني كنت – ساعتئذ – في عداد الأموات.

في اليوم التالي أتى أحد الملالي، وسألني، باسم جلالته، عمّا إذا كنت سأتحوَّل إلى الإسلام. فأجبت قائلاً: «أخبر الملك بـ: أبداً، أبداً، أبداً!»، فسألني قائلاً: «أليس لديك جواب أكثر أدباً للملك؟»، فقلت: «أتوسَّل إليك أن تخبر جلالته أنك سألتني إذا كان لديَّ جواب ألطف لجلالته، فقلت: لا، بصورة تأكيدية».

بعد ساعات قليلة أتى الجلاد، وهو الشخص نفسُه الذي أعدَمَ ستودارت وكونولي، وقال: «جوزيف وولف، سيحدث لك مثلما حدث لستودارت وكونولي»، وأشار بيده إلى حَلْقي. فأعْدَدْت نفسي للموت، وحملت معي أفيوناً؛ لكيلا أشعر بالألم إذا قُطِعَ حلقي. إلا أنني في النهاية رَمَيت الأفيون وصلَّيت، وكتبت في إنجيلي هذه الكلمات:

يا أعز جورجيانا وأعز هنري، لقد أحببتكما حتى الموت.

زوجكِ المحب ووالدكَ: جي. وولف بخارى ١٨٤٤م

وفي اليوم نفسه، أرسل عباس قولي خان كلمة للأمير فحواها: أنه قد تلقَّى خطاباً موجَّهاً إلى جلالته من محمد شاه. فأرسل الأمير كلمة تفيد: أن يرسل عباس قولي خان الخطاب مع الشيخوال؛ غير أن عباس قولي خان أجاب بأنه قد تسلم أوامر من بلاطه بأن يوصل الخطاب بشخصه. فأرسل الأمير إليه كلمة مرة أخرى كي يرسل الخطاب، ولكن عباس قولي خان احتجَّ مرة أخرى على ذلك. عندها، وافق جلالته على مجيئه إلى القصر. فأوصل عباس قولي خان الخطاب إلى الأمير؛ وبعد أن قرأه قال: «حسناً، أهدي إليك جوزيف وولف. يمكنه أن يذهب معك».

الفصل السابع عشر

الأمير يرسل في طلب خَدَمِ عباس قولي خان ودِل آسا خان لكي يخلع عليهم ثياب التشريف، ولكنه يُغفِل - سهواً - خادم الدكتور وولف. مقابلة مع النائب. هدايا من الملك. الأمير يخبر الدكتور وولف أن يطلب منه ما يريد. الدكتور وولف يُحْجِمُ عن فعل ذلك. الأمير يقرِّر إرسال رسول إلى إنجلترا. تصرُّفٌ خسيس من عبدالصمد خان. صدور إذن بالمغادرة. الأمير يمتدح تصرُّف الدكتور وولف، ويعيب تصرُّف ستودارت وكونولي. استقبال الناس إياه في بخارى. جرائم القتل التي ارتكبها عبدالصمد خان. الخطة الأولى التي يمكن من خلالها التخلُّص من شرور الأمير تماماً. الخطة الثانية لفعل ذلك. الشرف الإنجليزي يتطلَّب بعض الانتباه فيما يتعلَّق بسلوك الأمير. شخصية الأمير: قاسٍ وشبقي واستبدادي، ولكنه ليس كذلك فيما يخص الفقراء. عاشق للمعرفة؛ ومتأثِّر جداً من إعدام ستودارت وكونولي. الدكتور وولف يفضِّل الأمير على عبدالصمد خان. وصف بخارى للأستاذ ماك جريجور. سكان خيوه: تجارة هذه البلدان، تجارة روسيا. نبلاء الدولة. الشخصيات المهمة عند المسلمين.

في اليوم التالي لعرض خطاب الشَّاه، أرسل الأمير في طلب خدم عباس قولي خان ودِل آسا خان؛ ليسألَهم الأسئلة المُعْتادة قبل توزيع ثياب التشريف عليهم، غير أنه لم يرسل في طلب خادمي؛ فخاف عباس قولي خان، وقال: «لا تتحرَّك إلى خارج غرفتي؛ وإذا أرادوا احتجازك، فسوف أدافع عنك بسيفي». وعلى أية حال، لقد أُغفل طلب خادمي سهواً، فسرعان ما وصلتْ رسالة مع استدعاء له للمُثول أمام الأمير.

بعد ذلك أُمِرْتُ بالذهاب إلى النائب بأمر من الملك؛ فقال لي النَّذْلُ بصورة مُوجَزة: «ليس هناك رفيق من الروس لك. وسأعطيك ألف تيلاه زيادةً، كي توصلها مع الألفين الآخرين؛ ويجب عليك إعطائي ثلاثة آلاف مقابل أتْعابي، تتضمن هديةً بمقدار ثماني مئة تيلاه لابني عبدالله خان؛ وألفي ومئتي تيلاه صرفتُها من أجلك لضباط جلالته. لذلك يجب أن تعطيني الآن ضماناً خَطِّياً بستة آلاف تيلاه.

وولف: أَعِدْ إليَّ الرسالة الأخرى.

فأعادها ومزَّقتُها فوراً إلى قطع صغيرة.

عبدالصمد خان: لماذا تمزِّقُها قبل أن تكتب الأخرى؟

وولف: سأكتب لك الآن واحدة أخرى. وكتبت:

في بستان النائب، سيِّئ الصِّيتِ عبدالصمد خان، محاطاً بلصوصه، ومجبَراً منه، اكتبُ أنه أخذ مني ضماناً مالياً بالإكراه بستة آلاف تيلاه.

جوزيف وولف، السَّجين

ورغبت إليه كذلك أن يعيدَ إليَّ الخطاب الذي يُثبت الخدمات الجيدة المقدَّمة منه؛ لكي أكتب إليه خطاباً آخر، فلم يفعل. وقد أرسل عباس قولي خان خادمه على إثري؛ خشية أن يكون قد حدث لي شيء ما؛ ولذلك عدت في الحال إلى توراه خانه. وأخيراً دُعيت للنزول إلى غرفة عباس قولي خان، وأُعطيت في هذه الأثناء تسعين تيلاه من الملك هديةً، وحصاناً ومعه سرج فِضِّيٌّ، وشالاً. وتلقى دِل آسا خان خمسة وأربعين تيلاه فقط، ولكنه لم يُعْطَ شالاً ولا حصاناً؛ وعندها التفت الشيخوال إلى عباس قولي خان، وقال: «لقد عزم جلالته في البداية على أن يرسل رسولاً مع جوزيف خان إلى إنجلترا، وبما أنه لم يُحضر خطابات من الحكومة البريطانية، فقد تخلَّى جلالته عن

هذه الفكرة، وخصوصاً أن وولف سيذهب معك، وتستطيعان شرح سبب موت الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي لمحمد شاه وفي إنجلترا».

بعد أيام قلائل من إحضار هدايا الملك، دخل مَخْرَم فجأة إلى غرفتي ومعه مخطوطة باللغة الفارسية، تسمى «تاريخ الطبري»، هديةً من الملك لي؛ وطلب جلالته مني أن أطلب منه ما أريد. فأجبت بأن إحسان جلالته، خصوصاً في إرسالي بهذه الطريقة المشرِّفة، كان منّةً عظيمةً منه، وليس لديَّ طلب منّةٍ أخرى. وتوسَّلتُ إلى جلالته أن يضيف فقط ختمه إلى الكتاب، الأمر الذي لبَّاه لي، ومن ثَمَّ أرسل إليَّ كلمة بأنه قد عقد العزم على أن يرسل الأمير أبا قاسم، رئيس مَخْرَمِيِّه، رسولاً معي إلى إنجلترا. فأجبت بأن جلالته يمكنه أن يفعل ما يرضيه، ولكن بما أن جلالته أرسل واحداً إلى محمد شاه، فلا ضرورةَ لذلك. فأرسل الأمير مَخْرَماً إلى عباس قولي خان؛ ليسأل عن التكاليف الضرورية لإرسال رسول إلى إنجلترا. فأجاب عباس قولي خان، وهو يتمنى أن ينثنِي الأمير عن ذلك: «مئتا ألف تيلاه».

وعلى أية حال، كان الأمير عازماً على إرسال رسول، فقد أخبره السفَّاك عبدالصمد خان أنه إذا لم يرسل رسولاً معي، فسيعود الفضل في إطلاق سراحي إلى عباس قولي. وبجانب ذلك، فقد تسلَّف (عبدالصمد خان) من أجلي من التجَّار ثلاثة آلاف تيلاه، يمكنني بها أن أتحمَّل نفقات الرسول إلى إنجلترا، بينما أخذ - في الوقت نفسه - وعداً من خادمي عبدالله ومرتضى وعباس وآخرين بدَسِّ السُّمِّ للرسول في الطريق، إذ إنه يعلم جيداً أنه عند عودة الرسول سيكشف خِسَّته من المعلومات التي سوف يستقيها مني، وربما من السلطة في حكومتي، إذا ما قُبِلت أوراقُ اعتماده.

وقد قمت أنا وعباس قولي خان، بعد ذلك، بزيارة الأمير. وسمح لي أن

أَمْتَطِيَ صَهْوَةَ جَوادي بصحبة عباس قولي خان عَبْرَ البوَّابات، بينما أُمر دِل آسا خان أن يبقى في الخلف. ومَثُلْنا أمام الملك، فقال لي: «أُرسِلُ معك الأميرَ أبا قاسم، ليصحبَك إلى إنجلترا. لقد أثار ستودارت وكونولي خوقندَ وأوركنج إلى الحرب عليَّ؛ ولذلك أُعدِما. أمّا أنت، يا جوزيف وولف، فقد أثبتَّ أنك رجل ذو فهم ومعرفة؛ ولذلك عاملتُك باحترام».

وولف: دائماً ما يأتي الأوروبيون إلى بلادٍ ما، دون أن يعرفوا عاداتها، ويرتكبون أخطاءً لا يتقصَّدونها.

غادرنا بخارى في اليوم التالي، وسط الآلاف من السكان المُبارِكين، الذين أطلقوا على تحريري: «ميلاداً جديداً!» ونجحت في اصطحاب أربعة من العبيد معي؛ كما أن عباس قولي خان اشترى بماله الخاص عشرين من العبيد، الذين افتداهم، واصطحب معه ألفاً من أولئك الذين اشتروا حرِّيَّتهم من قبل.

وفيما يأتي أسماء الأشخاص الذين قُتلوا في بخارى بتحريض من عبدالصمد خان:

١- يوسف خان، من سيو.

٢- الكولونيل ستودارت.

٣- الكابتن كونولي.

٤- تركماني من مرو، أُرسل إلى بخارى لمساعدة الكولونيل ستودارت على الهرب.

٥- أفرايم، وهو يهودي من مشهد، أحضر خطابات موجَّهة إلى كونولي.

٦- أحد الإنجليز، انْتَحَل اسم هتَّا.

٧- الكابتن ويبورد.

٨- خمسة من الإنجليز، أُعدِموا خارج بلدة جهار جو.

٩- ناسللي.

١٠- حاجي محمد خوقاني، يوزباشي السلطان في القسطنطينية.

وأود أن أذكر أن كبير القضاة، وخادمه مولام بك، ومحسوم، وخوجه صاحب من كشمير، وعُشُر بك، وسعادت، وعدداً من التجار من فارس، وخدم عبدالصمد خان؛ كل هؤلاء يتَّهمونه بأنه القاتل؛ ولا ينفي هو نفسُه ارتكابَه هذه الشرور.

وغادر بخارى معي الحاجي إسماعيل، وهو أحد التجار، وكان قد مكث طويلاً في يارقند وكاشغر. وقد أخبرني أن عدداً من الإنجليز من الذين هربوا من الكارثة في كابل قد وصلوا إلى يارقند. وقد تلقَّوْا معاملةً جيدة، ولكن لم يُسمح لهم بمغادرة المكان. ولو أذن لي الأمير في أن أتابع طريقي عبر يارقند وروسيا، فبالتأكيد سأسلك ذلك الطريق. وأخبرني الحاجي إسماعيل كذلك أن لديهم في كاشغر ويارقند وفي جميع أنحاء الصين التترية، منارات إرشاديةً من نار، يعلمون من خلالها قدوم القوافل ومغادرتها من مسافات بعيدة.

ويمكن هنا طرح سؤال بعد إيراد هذه الشرور التي ارتُكبتْ: أليس ثَمَّ طريقة لمعاقبة ملك بخارى، وهل من المُفتَرَض أن يُعاقَب؟ وما المنافع التي قد تُجْنَى من معاقبته، وما المفاسد التي يمكن أن تَنْجُمَ من عدم معاقبته؟

والآن، بداية: أليست هناك طريقة لعقابه؟ بلى، هناك كثير من الطرق لعقابه، وهذا أمر مؤكَّد. وأول الطرق وأكثرها مباشرة تكون بإرسال جيش من السِّنْد عبر قندهار، ومن قندهار، عبر ميمنة، إلى بخارى. فعلى ذلك الطريق ستكون هناك قرى بعد قرى، وسيكون التموين والماء كافيين؛ ولكي يُسْتَحَثَّ كوهانديل خان، أمير قندهار، على ألا يضع أية عَراقِيل في الطريق، يجب أن يُسْمَحَ له بالاستيلاء على أنخوي؛ وهو موقع يحكُمه أحد الخانات، ولكنه تابعٌ لملك بخارى؛ وهو لص يعمل على استرقاق البشر؛ ويجب أن يتعهَّد كوهانديل للجيش البريطاني بمنح الرقيق الفرس الذين يقيمون في أنخوي حُرِّيَّتَهم بعد أن يستولي على أنخوي. ويجب أن يُسْمَحَ لدوست محمد خان بأن يرسل جيشاً

إلى خولوم وبلخ، وفي هذه الأثناء يزحف الجيشُ البريطاني من أنخوي إلى كاركي، ثم يعبرُ أكسوس، وعليهم أن يأخذوا معهم خشباً كثيراً لكي يتمكَّنوا من إقامة جِسْرٍ عائم. ثم إنَّ طلقاتٍ قليلةً من المدفعية من جانب الجيش الإنجليزي ستدفع بكل الجيش الأوزبكي إلى الفِرار. وحالما يعبُرون أكسوس، يجب أن يُصدِروا إعلاناً لكل السكان في بخارى، بأنْ لا شيء سيحدث لهم في حال سلَّموا - حَيّاً أو مَيِّتاً - الأمير ونائبه عبدالصمد خان. وأنا متأكِّد من أنهم سيقومون بذلك في الحال. بعد ذلك يعلن الجيش البريطاني أن ابن الأمير هو الوارثُ الشرعي للعرش، وهذا سيُهدِّئ الشعب؛ غير أن الرقيق الفرس، وعددهم مئتا ألف، يجب أن يُحَرَّرُوا، ما سيؤدِّي إلى ازدياد شعبية الإنجليز في أرجاء فارس جميعها، وخوقند، وطاشقند، ويارقند؛ لأن اسم السير تشارلس نابيير - حاكم السند، الذي أثار الرعب في أنحاء أفغانستان وبلوشستان، وبخارى، وخيوه، وخوقند - سيمدُّنا بعشرين ألف رجل، حيث إنه يُسمى الآن في بخارى: رستم دولت، التي تعني «عِمْلاق إنجلترا».

أما الخطة الثانية؛ فهي الزحف إلى بخارى، وسوف تكون بالسماح لفارس بأن تستولي، بصورة دائمة، على سَرَخْسَ ومرو، وبهذا تضع - إلى الأبد - حداً لأعمال النَّهب والسَّلب التي يقوم بها التركمان، وكذلك الاستيلاء على جهار جو؛ وهي مدينة بهذا الجانب من أكسوس، ومن ثَمَّ الزحف إلى بخارى، من أجل تحرير الرقيق الفرس هناك، ولكن على شرط أن يغادر الجيش الفارسيُّ بخارى بعد أَسْرِ الأمير ونائبه عبدالصمد خان، وتنصيب ابن الأمير على العرش. ثم بعد ذلك العودة من طريق ميمنة وأنخوي؛ من أجل تحرير الرقيق هناك، وبذلك يعودون مُبتهجين بالنصر إلى فارس، مصطحبين آلافاً من المواطنين الفرس المحررين، بالإضافة إلى امتلاك مرو وجهار جو.

ومن أجل تَتْويج حملة الجيش الفارسي بالنجاح، ومن أجل أن يقتنع سكان بخارى وكل البُلدان حولها، في الوقت نفسه، بأن تلك الحملة قامت بناءً على تحريضٍ من الحكومة البريطانية؛ يجب إرسال بعض الأفواج من الجنود البريطانيين مع تلك الحملة.

أما المنفعة المَجْنِيَّةُ من معاقبة ملك بخارى، سواء من جانب السند أو بمساعدة فارس، فستكون في منع تكرار تلك الحادثة؛ وهي قتل ضباط بريطانيين؛ سواء في بخارى أو في أي بلدان أخرى مجاورة؛ وسيتمكَّن الرحَّالة الأوروبيون من الذهاب إلى تلك البلدان المُمتِعة ومتابعة أبحاثهم هناك بسهولة أكثر؛ وسينتشر نور الإنجيل (البِشارة) في جميع أنحاء بخارى، وخوقند... إلخ؛ وسوف يتمُّ تحرير الرقيق الفرس من بخارى، بالإضافة إلى أولئك الموجودين في أنخوي وميمنة، الذين يصل تِعْدَادُهُم الإجمالي إلى مئتين وخمسين ألفاً؛ وسيصبح اسم الرجال الإنجليز مبارَكاً حتى من الأوزبك أنفسهم، لتخليصهم من أيدي استبداديَّيْن مُتعطِّشَيْن للدماء؛ هما الأمير ونائبه عبدالصمد خان.

وإذا لم تتخذ إنجلترا أيَّ تصرُّفٍ جِديٍّ تجاه الجريمة الوحشية التي ارتكبها الأمير بتحريض من نائبه، فإن بلدنا سيخسر كلَّ تأثير يمتلكه الآن في تلك البلدان؛ وربما حذت خيوه وخوقند - حيث لم تُرتكب مثلُ هذه الجريمة فيهما بعد - حَذْوَ عدوِّهما أمير بخارى؛ من أجل أن تُثبِتا أن بإمكانهما أن تفعلا ذلك وبنفس الحصانة؛ وبذلك ستُزْدَرَى إنجلترا حتى في فارس.

ويجب أن أذكر هنا أنه فور وصولي إلى بخارى، سألت عَمَّا حلَّ بحسن بابا؛ الرجل الذي أرسله آصف الدولة بطلب من الكولونيل شيل، والذي كان في مرو. ولدهشتي الشديدة علمت أنه - رغم وصوله قبل حضوري إلى بخارى بشهرين - لم ير الأمير؛ ومع أنه أوصل خطابَ آصف الدولة وهديته، إلا أن

جلالته لم يتلطَّف بأن يَرُدَّ له جواباً من أيٍّ نوع. وهذا يبيِّن بصورة إضافية ضرورةَ عزله. وسأنتهز هذه المناسبة لقول كلمات قليلة عن شخصية الأمير:

قد يسأل قُرَّائي عَمَّا أعتقده بشأن شخصية الأمير.

فمما لا شك فيه أنه استبدادي وقاس: شهد موت إخوته الخمسة، والكثير من القتلى من المَخْرَمية الذين رفضوا الانْصِيَاعَ لنزواته؛ فلم يكتف بقتل محمد علي خان، ملك خوقند مع زوجته الحامل، بل قتل كذلك الجنين الحيَّ، حيث انتزعه من رحم أمه وقطَّعه! كما أن تهتُّكَه حديث العامة؛ وإنَّ انحرافه ليس شبهة فقط، ولكنه متنوِّع، ورغم ذلك، يجب ألاَّ ننسى بعض السمات الجيدة فيه: فهو لا يمارس الاستبداد على الفقراء من رعيِّته، ولكنه يحميهم بقوة ضد استبداد النبلاء؛ ولذلك، فهو محبوب من الأمة، ومَمْقُوتٌ من النبلاء. وهو غير محب للمال كثيراً، ويكره الرِّشْوَةَ إلى أقصى الحدود؛ ويفضِّل أن يتَّخذ تيمور لنك مثالاً له؛ لذا؛ فإن له شعاراً مشابهاً لختمه، وهو: (حقاً عدالت: الحق والعدل).

ورغبته في المعرفة ليس لها حدود؛ ولذلك يقدِّم السؤال تِلْوَ السؤال للغرباء؛ ولو لم يكن واقعاً تحت سيطرة عبدالصمد خان، لأمكن أن يصبح محمد علي آخرَ، ومع هذه المَيْزَةِ التي تُميِّزه من باشا مصر، فإنه يُوجِد كلَّ وسيلة لإسعاد الفقراء؛ الأمر الذي ليس لدى محمد علي منه نصيب.

ويجب أن أكرِّر أن الحكومة البريطانية ارتكبت خطأً فاحشاً؛ بعدم السماح لرسوله بالمجيء إلى إنجلترا. وحتى إن السفير الروسي أخبرني أن حكومته لن تحرِّك ساكناً تجاه ملك بخارى حتى يرسل رسولاً إلى إنجلترا، معتذراً من تصرُّفه. وهو سريع الاسْتِثَارَةِ، وعندما يكون غاضباً يتدفق الدَّمُ في وجهه ويَحْمَرُّ، ويَحدُث ارتعاشٌ مُتشنِّجٌ لعضلات وجهه؛ وفي مثل هذه النوبات

يصدر أكثر الأوامر عُنفاً، دون تقدير للعواقب. وقد قام بقمع أكثر التقاليد قِدَماً بالكلمة البسيطة: حَكَمَ، أي «أَمَرَ»، ونسف سلطة الملالي تماماً. وهو يبتهج عندما يعرف أن الناس ترتعش عند ذكر اسمه، ويضحك بقوة عند سماعه خشيتهم إياه. ويغار من محمد علي، في مصر، ويقول: إن بلده لن تتساوى مع بخارى. ولا يُبدِي احتقاراً لإنجلترا، وكان مهتمّاً بصورة تتعدَّى الحدود باستمالتها وتسوية الخلاف معها؛ غير أن الشكوك المُعَشِّشَةَ في عقله جعلته يتردَّد في السماح لي بالمغادرة. فهذه الشكوك محفورة هناك بواسطة أولئك الذين يعرفون جيداً نقطة الضعف هذه في طبيعته. وكما أكَّد لي القاضي كيلون، فقد هتف أكثر من مرة قائلاً: «إن جروح قلبي جَرَّاءَ ذبح أولئك الإنجليز لن تَنْدَمِلَ».

يجب عليَّ الآن الجهر بأنني أفضِّله، رغم أخطائه، على الحقير عبدالصمد خان؛ وكان يَجْدُرُ بالكولونيل شيل، لمعرفته بأن عبدالصمد خان كان في الهند، أن يسأل السير كلاود مارتن ويد؛ بحكم معرفته الجيدة بشخصية عبدالصمد خان: أَيُّ نوع من الرجال هو. وأنا الآن في إنجلترا، وأمتلك القدرة على التعبير عن الأمور بطريقة أكثر اطمئناناً ممّا كنت أفعله في وقت كنت فيه مُحاطاً بالأخطار، وأعاني المرض. ويجب عليَّ الاعتراف بأنني لم أفهم: لماذا رفض الكولونيل شيل أن يعطيني خطاباً إلى ملك بخارى، بينما أعطاني خطابَيّ تقديم؛ أحدهما إلى الحاجي إبراهيم، أخي عبدالصمد خان، وهو - أيضاً - نذل من الطراز الأول، والآخر إلى عبدالصمد خان نفسه.

والآن دَعوني ألقي نظرة عَجْلَى على نقطة أخرى؛ هي التجارة بين هذه البلدان وروسيا. ويُعَدُّ الوصفُ الآتي للأستاذ ماك جريجور، سكرتير هيئة التجارة، قيِّماً للغاية، إلا أنه يمكن أن يخضع لبعض التصحيحات المهمة.

«يبدو أن تجارة روسيا مع خيوه وبخارى تنمو باضطراد لتصبح تجارة مهمة، وبصورة رئيسة من نيجني - نوفوجورود، وعبر بلدة أورينبورج، على نهر أورال (*URAL*). وهذه البلدة تصلح بشكل مثير للإعجاب للتجارة مع القرغيز، ومع خيوه وبخارى، رغم أن جزءاً من تجارة روسيا مع البلدان الواقعة شرقي بحر قزوين يتِمُّ من أستراخان عبر البحر، وإلى درجة ما عبر فارس. وتقع أورينبورج، التي يُقَدَّرُ عدد سكَّانها بتسعة عشر ألف نسمة، على الضفَّة الشمالية للأورال. وهذا النهر المتعرِّج الطويل، مع سلسلة الجبال التي تحمل الاسم نفسه، يشكِّلان حدّاً بين روسيا الأوروبية وآسيا. وهو نهر ضَحْلٌ، ومنافعه للأغراض المِلاحية قليلة، ولكنه يَزْخَرُ بالأسماك. ويتم تعمير بلدة أورينبورج وتحصينُها بانتظام. وتُباع بضاعة البلدة بشكل رئيس في البازارات (الأسواق)، على الجانب الجنوبي من النهر أو الجانب الآسيوي.

وفي عام ١٨٣٣م وصلت إلى البلدة، حسبما ذكر شنيتزلر، أربع عشرة قافلة مكوَّنة من ألفين وخمس مئة وسبعة وأربعين جَمَلاً، عدا الخيول؛ وغادرتها ثلاث عشرة قافلة مكوَّنة من أربعة آلاف وسبع مئة وتسعة وستين جملاً، ومئتين وأربعة وستين حصاناً، محمَّلة بالبضائع لأجزاء مختلفة من آسيا، وبصورة رئيسة لبلاد القرغيز، وخيوه وبخارى.

وتضم خيوه الآن منطقة واسعة على طول بحر قزوين من فارس، شمالي بلاد القرغيز التتارية، وشرقي أكسوس وبحيرة أورال. وحسبما أورده بيرنز، فإن سكانها لا يتعدَّون مائتي ألف نسمة. ووصفهم بأنهم عصابات منظَّمة. وحسبما أورده مؤلِّفون آخرون، فهم ليسوا في العموم أفضلَ من هَمَج نَهَّابين.

والمنطقة زراعية؛ فأراضيها خِصْبَه بما فيه الكفاية للفلاحة. وهناك القليل من القُطْعان ذوات القرون؛ الأغنام والمَعْز، وتوجد الخيل بأعداد هائلة، وكل

هذه الحيوانات طعامٌ رئيسيٌّ للسكان. ويوجد القليل من الصناعات، ما عدا بعض القُطْنِيَّات والحراير خَشِنَةِ النَّسيج تصنعها النساء. وتُستخدم الجِمال أساساً للحمل، وتتابع قوافل منها سنوياً الترحال بالبضائع الروسية إلى أورينبورج، وأستراخان، وكراخان على الساحل الشرقي لبحر قزوين، وتتَّجه أخرى منها جنوباً إلى كابل وفارس. ويقوم بهذه التجارة التُّركمان، وأهل خيوه، وأهل فارس. ويَفرِض الخان - وهو زعيم الأوزبك، أو الأعراق المسيطرة - رسوماً على البضائع التي تدخل أو تعبُر الخانية؛ وخصوصاً في مينائيْ مانكاسلوك، وكراخان، حيث تصل القَواربُ بالبضائع من أستراخان.

وعاصمة خيوه بلدة مبنية من أكواخ الطين، بها ثلاثة مساجدَ من الحجر، وقصر طيني. وتجارتها الرئيسة هي الرقيق، الذين يوجد منهم قرابة أربعين ألفاً في الخانية؛ ويقال إن هناك الكثير من الروس المقبوض عليهم، والذين هم رقيق في خيوه.

أمّا خانية خوقان فتُحاذي روسيا وتُجاورها. وتنتج هذه المنطقة الجبلية الحرير والقطن والحبوب المختلفة والفحم، ويكثُر فيها الحديد والزراعة والرعى وتربية دُودَة الحرير والقطن الجبلي والحرير المطرَّز. وتجد البضائعُ الروسية طريقَها بكميات كبيرة إلى خوقان العاصمة. ويقال إن سكان هذه البلدة يصلون إلى مئة وخمسين ألف نسمة. وهي مثل خيوه؛ مبنيةٌ من الطين، ما عدا ثلاثة بازارات (أسواق) حجرية. ويقال إن القوافل الروسية من البلدات السيبيرية من سيميبو لاتينسك على ضِفاف نهر الإرتش (*Irtysh*)، ومن بترو بارستوك على ضفاف نهر الإيشيم (*Ishim*)، تعبُر من خوقان إلى حدود الصين بالبضائع الروسية. ويدفع المسلمون ضَريبةً مقدارها اثنان ونصف بالمئة على البضائع المستوردة، ويدفع المستوردون الآخرون خمسة بالمئة.

وأمّا خانية بخارى، أو بلاد الأوزبك التتار، فتحتل قرابة مئتين وثلاثين ألف ميل مُرَبَّع من وسط آسيا، ويُقَدِّرُ بيرنز عدد سكانها بمليون نسمة، ويُقَدِّرُ العلماء الآخرون عدد الأوزبك وحدهم بمليون وخمس مئة ألف نسمة، والأعراق الأخرى بنحو المليون تقريباً. والكثير من أجزاء هذه المنطقة خصب بصورة رائعة، وتعدُّ الزراعة المصدرَ الرئيس للعمل والمعيشة. ويُزرع هناك الحنطة والشَّعير والأرز والذرة والفاصوليا والشَّمَّام، مع كثير من الحبوب الأخرى والخضار والفواكه. وتُرَبَّى الأغنام والمعز، ويُؤخذ من المعز الشَّعَرُ أو الصوف الناعم الذي يندُر أن يكون أقلَّ جودة من الصوف الكشميري، أمّا الأغنام فيؤخذ منها الجلودُ الصوفية بلونها الأسود الحالك الذي يُستخدم في صناعة طواقي الرأس الفارسية. ويُصدَّر منها زهاء مئتي ألف جلد سنوياً. ويعدُّ لحمُ الضَّأن الطعام الرئيس. وتُربَّى الخيلُ والثيران؛ ويأكل لحمَ الثيران الفقراءُ فقط.

أما النشاط الصناعي، فلا يشكِّل أهمية؛ وهناك شيء من المطرَّزات، والمنسوجات الحريرية، والجلود الخشنة، والسيوف المعقوفة، والأسلحة النارية، وأصناف من معادن وجلودٍ مختلفة، تحتوي على كميات محدودة من المواد المصنَّعة.

وقد وصف بيرنز بخارى بأنها بلدة تحتوي على مئة وخمسين ألف نسمة، وبها حَشْدٌ كبير من البنايات؛ منها ثلاث مئة وستون مسجداً، وثلاث مئة مدرسة، وقصرٌ للخان، أو بالأحرى حصن؛ والبيوت مبنية بطابوق مجفَّف في الشمس؛ وفي البلدة شوارعُ ضيقة وقَذِرَة؛ وبازارات (أسواق) سامقة مقوَّسة الأسقف، حيث يتوفَّر لكل تجارة مختلفة قسمها المحدَّد لها؛ ويوجد بها بِرَكٌ ونوافيرُ للتزوُّد بالمياه. ويُفتح كلٌّ من سوق النِّخاسة والمجوهرات مرتين فقط في الأسبوع؛ أما البقية فتُفتح يومياً. وتكثر الفواكه والحلوى من كل الأصناف في

السوق، ولا بد من تناول الكثير من الثلج خلال الأجواء الحارة جداً. ويُعدُّ الشايُ المشروبَ المفضل. ويوجد هناك أعداد كبيرة من الحمَّامات. وهذا السوق، الذي يمثل بالنسبة إلى وسط آسيا مركزاً تجارياً كبيراً، يُوصف بأنه مصدر نشاط وضجيج لا ينقطع. وتسلك القوافل المسافرة من روسيا وإليها الطرق الآتية: عبر طريق خيوه، إلى سواحل بحر قزوين وعبرها، من أستراخان وإليها. عبر الطريق من أورينبورج وإليها، من طريق البر، في ستين يوماً. وعَبْرَ أورغنجي في خيوه؛ من ترودیسكا وإليها، في توبولسك. عبر الطريق شرقي بحيرة أورال، في تسعة وأربعين يوماً؛ ومن بترو بارستوك وإليها في تسعين يوماً. ومن العدد الإجمالي؛ البالغ ألفين من الجمال، الذي يغادر الهند سنوياً؛ يصل زهاء ألف جمل محمَّل بالبضائع الشرقية؛ ويتوقَّف الألف الباقي في كابل في أفغانستان، أو ينحرف غرباً إلى فارس»[1].

ويبلغ عدد سكان خيوه ست مئة ألف نسمة في أقل تقدير. منهم أربعون ألف فارسي، بما في ذلك كافر سياه بوش. وقد أُرسل الرقيق الروس - الذين تسببوا بالحرب مع روسيا وخيوه، والذين يصل عددهم إلى مئتين - إلى روسيا بناءً على نصيحة السير آر. شكسبير.. وكان سلفه الأستاذ أبوت، في غاية الغباء؛ حين نصح ملك خيوه بألاَّ يسلِّم الرقيق الروس حتى يتمَّ التفاوض مع الإمبراطور الروسي؛ غير أن شكسبير كان حكيماً بما فيه الكفاية لكي يوصي بالتخلي عنهم في الحال. وأعتقد أنني قد ذكرت أن خان خيوه متلهِّف جداً لأن يعقد حلفاً وطيداً مع إنجلترا، ويبدو أن إنجلترا تشجِّعه على ذلك. والحق أن هذا ليست له منفعة تُذكر. فبالرغم من أن خان خيوه ربما لا يكون قتلَ بعدُ أيَّ إنجليزي، إلا أنني متأكِّد من أنه مطبوع بالمثل، أو بالأحرى أكثر من ملك

(١) الإحصاءات التجارية، المجلد ٢ / ص٦٣٧. (المؤلف).

بخارى، على القتل. ومما سمعته عن خان خيوه، علمتُ أنه قاس مرعبٌ؛ وأن الشرور التي ارتكبها تفوق تلك التي ارتكبها ملك بخارى، وأنهما - جميعاً - من الدناءة على درجة لا يمكن وصفها. وأقول بحرص: ربما لا يكون الخان قد قتلَ أيَّ إنجليزي، حيث إنني لست متأكداً من ذلك، ولكني أعرف أنه قتل كثيرين؛ فقد علمت، اعتماداً على مصدر جيد موثوق به، أنه شنق عدداً من الأوروبيين. ولكن الكولونيل شيل، الذي ذكرت له ذلك، أخبرني أن أولئك الأوروبيين، رغم أنهم ألمان بالمولد، إلا أنهم كانوا جواسيس لروسيا.

إلى جانب ذلك، ما الذي يمكن أن تتوقَّعه إنجلترا من ملك خيوه؟ إن بخارى وخيوه، مثلهما مثل الدول البربرية، هما دولتان تعيشان على استرقاق البشر، ويجب أن تسقطا. ولو أرادت إنجلترا عقدَ تحالف مع خيوه، فستكون فارس وروسيا عدوَّين لها.

ويصل عدد سكان مدينة خوقند إلى ثلاث مئة ألف نسمة. ومن أفضل مصادر المعلومات؛ وهم القاضي كيلون، والتجار الطاجيك والملالي الآخرون، نعلم أن عدد سكان مملكة بخارى يصل إلى المليون ومئتي ألف نسمة؛ منهم مئتا ألف نسمة من الرقيق الفرس. وتضم العاصمة مئةً وثمانين ألف نسمة. ويُعَدُّ لحم الخيل طعامَ المترفين، وكنت أتسلَّمه بصورة متكرِّرة من سُفْرَةِ الملك، والملك نفسه يأكله. أما طريقة شرب الشاي فعلى الطريقة المغولية مع الحليب والملح والشَّحم والقرفة.

وفي هذه الطبعة، وهي الرابعة، أُلحق الملحوظة المختصرة الآتية حول بلخ:

تقع هذه المدينة على مسافة ستة أيام إلى الشرق من بخارى. وكانت تُسَمَّى «باكتريانا» في الزمن القديم، ويحكمها الآن ابن إيشان خوجه، الذي يخضع اسميّاً لملك بخارى؛ ولكنه سيكون أولَ من يفتح البوابة للسير تشارلس نابيير، أو دوست محمد خان، إذا زحف أحدُهما إلى بخارى. ويُعتقد بأن

الحَـوَاريُّ ثاديوس وعظ بـالإنجـيل هنـا. وهـي الآن مـهـدَّمـة بأبشع طـريقـة، وتستوطن فيها حُمَّى تسمى «جيزيل»، تسببت في نزوح السكان أكثر فأكثر. وقد كـان نظام الملك المشـهـور أكبـرَ المحسنين إلى تلك المدينة، ويذكرُ سكانُها اسمَه بتبجيل[1]. ولا يزال هناك عدد كبير من الدراويش من أسرة النقشبندي المقدَّسـة: وهم من المعجَبين بالشاعـر العظيم جامي المتحمسين له[2]. ويؤكد النصارى الشرقيون أن ربَّنا المبارك أمر الحَوَاريِّين أن يحصروا موعظتهم خلال الاثنتي عشـرة سنة الأولى بين اليهود في فلسطين، ومن بعد ذلك انطلقوا: بطرس إلى أنطاكيـة وروما، وبولس في الأناضول وإليريا وجزيرة العرب وإسبانيا وإنجلترا وروما. ووعظ أندرو في بخارى وسمرقند؛ وجون في آسيا الصغرى، وفيليب في كنتايا وبروسا؛ وبارثولوميو في أرمينيا واليمن؛ ومن بعده بانتيانوس ثاديوس في بلاد الرافدين، وماثيو في الحبشة.

وتقع مدينة بخارى على مسير يوم إلى الشمال من نهر جيحون أو آمو؛ وقد حاصرها جنكيز خان في عام ١٢١٩م، واستولى عليها في عام ١٢٢٠م.

---

(١) نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، قوام الدين (٤٠٨-٤٨٥هـ = ١٠١٨-١٠٩٢م). وزير حازم عالي الهمة. أصله من نواحي طوس. تأدب بآداب العرب، وسمع الحديث وأملاه. وزر للسلطان ألب أرسلان ولولده ملكشاه. أحسن التدبير، وكان من حسنات الدهر. كانت أيامه دولة أهل العلم. قال عنه الذهبي: «... عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم. عامر المجلس بالقراء والفقهاء. أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد، وأخرى بنيسابور، وثالثة بطوس. رغب في العلم، وأدرَّ على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته». وقال عنه ابن كثير: «من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة». سير أعلام النبلاء ٩٤/١٩ (شعيب)، والبداية والنهاية ١٧٢/١٢ (شيري).

(٢) هو عبدالرحمن بن أحمد الشيرازي، نور الدين الجامي المتوفى سنة ٨٩٨هـ. انظر عنه: بروكلمان بالألمانية ٢٠٢/٢ وملحقه ٢٨٥/٢، ومعجم المؤلفين ١٢٢/٥ مع مصادر ترجمته في كليهما.

وهاجر في ذلك الوقت آلاف من اليهود منها إلى الصين. ومعظم بيوتها مبني بالطين. وتتوافر الأماكن الرئيسة للتجارة في المملكة في بخارى، وقارشي، وقره قول، وسمرقند، وكاركي. وهناك عدد كبير من الحوانيت؛ حيث تُباع فيها - بصورة رئيسة - البضائع الروسية؛ وهناك ثلاث مئة تاجر، من شيكاربور، في السِّند، ومن أجزاء أخرى من هندوستان؛ إلا أن التجارة الرئيسة تُدَارُ مع روسيا. وتصل القوافل العظيمة من أورينبورج وسيبريا وتعود إليهما، ويقوم القرغيز بعملية النقل.

من الجدير ذكره أن النبي حزقيال (الإصحاح السابع والعشرون، الفقرة ١٤) يقدِّم وصفاً دقيقاً للتجارة التي يديرها التركمان مع سكان بخارى، وخيوه، وخوقند؛ فالنبي يقول: «ومن بيت توجرمه (أي التركمان) بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». والتُّركمان حتى هذا اليوم، مثلهم مثل الحرَّاس السويسريين[1]، مُرْتَزِقَة يُؤَجِّرون أنفسهم مقابل القليل من التنقاس في اليوم. ومما يسترعي النظر كذلك أنني سمعت التركمان باستمرار يُسمون أنفسهم توجرامه، وكذلك يسميهم اليهود توجرمه.

وباستعراض حشد الجمال الآتية من كشمير، وكابل، والخطا، وأورينبورج، تُستحضر بقوة إلى الذاكرة قطعة إشعيا (الإصحاح الستون الفقرة ٦)، حيث يقول النبي: «تغطِّيك كثرة الجمال، جمال مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهباً ولباناً، وتبشِّر بتسابيح الرب». وعلى ذكر الذهب، يجب ألاَّ أنسى أنه بالقرب من سمرقند يوجد هناك مَنْجَمُ ذهب وفيروز. وقد أراد ملك بخارى معرفةَ ما إذا كان هناك فيروز يمكن العثور عليه في إنجلترا.

---

(١) هم الحراس الذين يستخدمهم البابا في الفاتيكان.

إن البضائع التي يُؤتَى بها من بخارى إلى روسيا هي الفواكه المجفَّفة، والحرير، والنِّيلة (الصبغة الزرقاء) والطَّواقي. أما البضائع التي يُؤتى بها من روسيا؛ فهي الكاليكوس (قماش قطني)، والموسلين (نسيج قطني رقيق)، وما إلى ذلك. ويقوم تجار بخارى بنقل البضائع إلى روسيا كذلك من خوقند وطاشقند وتركستان.

ومن بين الشخصيات الكبيرة في الدولة يمكن ذكر كلٍّ من:

القوش بك، أو حافظ الختم. وهذا المنصب شاغر الآن؛ لأن القوش بك السابق، وهو رجل رائع، قُتِلَ بأمر من الأمير الحالي، رغم أنه كان مديناً له بصورة أساسية، كما بيَّنَّا، في اعتلائه العرش. ولم يَكُن يتولى مهمات الوزير فقط، ولكنه كان كذلك رئيسَ دار الجمارك؛ غير أن هذا المنصب تقلده الآن داستر خانجي، الذي يحمل فأساً ذهبية، ويجلب التموينات للملك. إن الشخص الذي يتولَّى هذا المنصب في الوقت الحاضر هو رجل ذو شخصية فاسدة جداً.

شيخوال: وزير الخاجية.

مونشي باشي: أمين السر الرئيس للدولة.

مَخْرَمية: المهجعيون؛ وهم ليسوا جواسيس فقط، ولكنهم كذلك عَتَارِسَة(١) الملك. فقد كانوا يأتون تقريباً كل يوم يختالون داخل غرفتي، يصحبهم ميرْزا (سكرتير)، ويخبرونني بأسلوب آمرٍ وسُوقِيٍّ مُستَبِدّ بأن: «الحضرة (جلالته) يريدك أن تُجيب عن عدد من الأسئلة».

أما كبار الشخصيات الدينية عند المسلمين؛ فهم:

١- شيخ الإسلام: كبير العلماء ورئيسهم.

---

(١) العترسة: الغضب والغلبة والأخذ بشدة وعنف وجفاء وغلظة. ورجل عتريس: أي شديد ضابط للأمور، وقيل: هو الجبار الغضبان. والعتريس: الداهية (اللسان: عترس).

٢- نقيب: الشخص الذي يحكم في المنازعات بين الجنود.

٣- قاضي كيلون: الشخص الذي يفضُّ المنازعات بين الرعية.

٤- الريس: وزير العبادة العامة، ومراقب الأخلاق في المكان؛ لا يسمح بالتدخين، ويضرب الناس بالعصا، أو يأمر بضربهم إذا تخلَّفوا عن الذهاب إلى المسجد.

٥- مير شاب: مسؤول الليل، الذي يعلن، بصوت يشبه الطبل العالي الصوت، أنه غير مسموح للناس بالخروج ليلاً.

هذه هي الشخصيات الرئيسة؛ بجانب شخصيات أُخَر، كما هي الحال في البلدان الإسلامية المختلفة.

الفصل الثامن عشر

مغادرة بخارى. الدكتور وولف يكتشف مؤامرة لقتله ونهبه في الطريق. الآلاف تحضر لتشهد مغادرتهم. الدكتور وولف يرفض الانفصال عن عباس قولي خان. الوصول إلى جسمان دو. محمد تقي يتصرَّف بنَذَالة، وعباس قولي خان يبدي استياءه. درويش يارقند، نقاش معه. أحد السادة الأفغان، نقاش معه. القالموقيون، وسلوكهم الغريب. دقة حاسة الشم والسمع عند التركمان. ظهور الأوزبك. نقاش مع عباس قولي خان، وهو يعتقد أن عبدالصمد خان هو من قتل الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي. زيارة من أحد الملالي، وصفه لتيمور. سيرة تيمور. شهر سبز. الطريق: جسمان دو، شهر إسلام. تاريخ أفراسياب. تقارير من قزل باش عن الإنجليز. مرتضى وعبدالله ينصحان الدكتور وولف بترك عباس قولي خان، وهو يرفض. بيكند، قره قول: حاكم قره قول يحذِّر الدكتور وولف من أن مؤامرة تُحَاكُ ضده لقتله. حسين. الطريق: آلأت. القافلة تضلُّ الطريق. محاولة يقوم بها إسماعيل ومرتضى للقبض على الدكتور وولف. الدكتور وولف يستغيث بتجار القافلة من أجل حمايته. ساين. الدكتور وولف يتمنى أن يرمي بالمال في الصحراء. عباس قولي خان يأخذ المال لحفظه.

خرجنا من بخارى في الثالث من أغسطس، ووصلنا بعد مسافة فَرْسَخٍ واحد من بخارى إلى قرية تسمَّى جسمان دو، حيث توقَّفنا بعض الوقت في بستان على حافَّة أحد صَهَاريج الماء. وكانت المجموعة تتكوَّن من عباس قولي خان؛ ودِل آسا خان؛ وأمير ساروق؛ وقاهر قولي؛ وسبحان الله بك؛ سفير ملك بخارى إلى ملك فارس؛ والأمير أبو قاسم، السفير المبعوث إلى الملكة فكتوريا؛ وحاجي إسماعيل، من يارقند؛ وأربعة من الرقيق الفرس؛ الذين تسبَّبتُ في

هربهم؛ وألف من الرقيق الذين اشتروا حريَّتهم؛ والقتلة المؤجَّرين من عبدالصمد خان؛ وتجار من كابل؛ ودراويشَ وفقراءَ من هندوستان؛ والميرزا عبدالوهاب، الذي قام بعمل رسومات لي عندما كنَّا في بخارى، وكتب وصفاً روائياً لمعاناتي. وفي المجمل كانت القافلة تتكون من ألفي جمل.

وقبل مغادرة بخارى، اكتشفت أن النائب اتَّفق مع عبدالله ودِل آسا خان وإسماعيل خان ومرتضى وأمير ساروق وقاهر قولي على قتلي وسلب ثلاثة الآلاف تيلاه مني؛ حيث اعتقد أن في إمكانه أن يَحْصُل بسهولة على ستة الآلاف تيلاه بتقديم رسالتي الخطية إلى الكولونيل شيل؛ إضافة إلى ثلاثة الآلاف تيلاه بفائدة عشرين في المئة التي أعطاها لكونولي، واستردَّها بعد وفاته. وقد أخبرني بهذه المؤامرة اليهود: مُلاًّ مشياخ وبنحاس وسمحا، وخدم كبير القضاة، بل حتى خدم النائب نفسه. واعترف بذلك عبدالله في مشهد، وقد تلقَّى عباس قولي خان معلومات مشابهة.

وعند مغادرتنا بخارى، تقدَّم لوداعنا آلاف من الناس، من يهود، وأوزبك، وتُركمان، وفرس. ودَوَّتِ الشوارع بالهُتاف: «الله يحفظ الأمير، الذي أخلى سبيلك!»، ووقفت امرأة محجَّبة في الشارع؛ وبَكَتْ وهي تهتف: «أيَّةُ بهجة تلك التي ستحلُّ بزوجتك! وكيف ستُغنِّي بأنك ولدت من جديد! مثل هذا المَكْرُمَةِ لم تحدث منذ زمن طويل من البادشاه».

لقد حاول المتآمران، مرتضى، وعبدالله، إقناعي بالانفصال عن عباس قولي خان، ولكني رفضت، وقلت لهما: «أعرف خِسّتَكُما، وسأركب دائماً في قافلة عباس قولي خان».

تابعنا المسير، بأمر من الملك، إلى جسمان دو. وكان محمد تقي، المنجِّم، من هراة، الذي أتى مع عباس قولي خان من فارس لغرض استعادة زوجته

التي كانت قد استرقَّها التركمان، قد استعادها فعلاً، من خلال سلطان الشاه على الأمير، وإلى جانب هذا، تلقَّى منه مئة دوقات. وعندما أتى إلى البستان في جسمان دو، استغربنا كونه من دون زوجته، فسأله عباس قولي خان: «أين زوجتك؟» فأجاب: «لقد نظرت في النجوم لليلتين أو ثلاث ليالٍ على التوالي، ورأيت واحدةً من النجوم لها ذيل أسود، ومن ذلك أدركت أن التعاسة تلازمها؛ ولذلك بعتها مقابلَ أربعين دوقات وأَمَةٍ جميلة شابة، لها من العمر سبعة عشر عاماً فقط». ولم أر في حياتي قط رجلاً غضب مثل غضب عباس قولي خان؛ فقد قام من فوق الأرض، ورمى غليونه بعنف، ما جعله يتكسَّر إلى قطع صغيرة، وقال: «الله يحرقك ويحرق نجومَك! أنت أيها النذل! لم تنظر في النجوم، ولكنك نظرت إلى النقود والفتاة الشابة الجميلة. إنني أَبْصُقُ على لحيتك». فخرج المنجِّم مَخْزِيّاً.

بعد ذلك مباشرة، دخل أحد الدراويش من يارقند إلى البستان. وهو من فرقة الدراويش المسمَّاة: بكتاشية[1]، الذين يزعُمون أنهم بلغوا تلك الدرجة من المعرفة، بحيث إن لا وحي ولا كتاب يجديهم نفعاً. وسألني: «كيف تثبت ضرورة الدين؟» فأجبت: «إن كل الشعوب مُجبَرة على الاعتراف بأن الدين هو الداعم الوحيد لطبيعتنا الضعيفة؛ وأن المعرفة التي ليس هدفها سوى الأشياء الدنيوية، لا تستحقُّ أن تُسمَّى معرفة. ولكن من أجل الوصول إلى معرفة الأشياء السماوية، يتطلَّب الأمر عقلاً سماوياً. وهناك حِسٌّ روحي في القلب،

---

(١) فرقة صوفية تركية، تُنسب إلى السيد محمد بن إبراهيم آتا، الشهير بالحاج بكتاش (ت ١٣٣٦م). وهي خليط من الطرق الصوفية التي تقدمتها: القلندرية، واليسوية، والحيدرية. تغلغلت في نسيج الشعب التركي تغلغلاً عظيماً، إلى أن قضى عليها السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦م. من أكبر شعرائها: يونس إمرة، أمير شعراء الترك.

أُسمِّيه إلهاماً من الله للقلب؛ ولذلك فإن أولئك الذين يبحثون عن الله بعقولهم فقط لن يهتدوا إليه. وهذه هي الحال معك يا بكتاشي، ومع الكثير من الفلاسفة الأوروبيين. فوحيُ الله، كما هو موضوع في كتبنا المقدسة، يمكن أن يُوصَفَ بأن له أجنحةً، بها يتمكَّن البشر من التَّحليق إلى السماء. ومن طريق المداومة على النظر في الوحي الإلهي فقط يمكن للطبيعة الآدمية أن تتقدَّم باتجاه السماء. وليس أسوأ للإنسان ولا أشنع عندما لا يصل إلى الله بمداركه؛ أقصد عندما نبحث عن الحقيقة منفصلةً عن مُوجِدها».

ثم دخل أحد السادة الأفغان البستان، وقال: «إيه، أنت أيها الكافر! هل نجحت في خداع الأمير بحيث تركك ترحل؟ لو أنه فقط وضعك بين يديَّ، لكنتُ تخلَّصتُ منك بسرعة بِحَرْبَتِي». فقال له عباس قولي خان: «اذهب واترك الفرنجي في حاله؛ إنه درويش». فأجاب باستهزاء: «درويش! أعرف هؤلاء الدراويش الفرنجيين. أعرف هؤلاء الدراويش الإنجليز!! إنهم يدخلون إلى البلد، يستطلعون الجبال والأودية والبحار والأنهار؛ ويستكشفون مدخلاً مناسباً، ثم بعد ذلك يعودون إلى وطنهم ويخبرون رجلاً مهماً هناك؛ مثل رئيس، يحمل اسم شركة، ويقوم هذا الرئيس بإرسال الجنود، وبعدها يَسْتَوْلون على البلد. أخبِرْه بما أقول». وبعد ذلك ترك البستان.

وزارني بالمثل بعض القالموقيين متقصِّداً. وهم يسمَّوْن كذلك: الإلياد، وهم ذوو لون أصفر. وقالوا: «أتينا لرؤية الدرويش الإفرنجي المشهور». جلسوا، ونظروا إليَّ، وعلَّقوا على كل حركة من حركات جسمي، الأمر الذي كان تسلية عظيمة لعباس قولي خان الذي ظلَّ يضحك على نحو متواصل. وبعد أن تفحَّصوني من الرأس حتى القدم، نصحني بالسماح لهم أن يواصلوا تفحُّصهم لي عن كَثَبٍ، الأمر الذي رفضته. ومثلهم مثل الهزارة، ليس لهم لحًى. وفي

النهاية، استدار بعضهم إلى أحد اليهود، وسأله بصوت خفيض أن يعطيه براندي ونبيذاً. وقد خاطبوني باللغة الروسية؛ فأجبتهم باللغة الفارسية بأنني لا أفهم اللغة الروسية، وسألتهم أين تعلَّموها؛ فأجابو: «من النوجاي التتار». وبدؤوا حديثهم قائلين: «هل سمعت بنيكولاس باولوفتش؟[1] إنه أعظم كراول مرّ على روسيا». وسألوني عمّا إذا كان لدينا الكثير من الرقيق في إنجلترا؟ فأجبتهم بأن الرقَّ ممنوع هناك.

أبدى خادمي النذل، عبدالله، رغبةً في العودة من جسمان دو؛ لرؤية عبدالصمد خان، ولكن عباس قولي خان منعه من ذلك.

وقد أُريت أحد التركمان، ساعت خان، من سَرَخَسَ، كان يتمتَّع بحاسة شمٍّ خارقة. وقد قال، رافعاً خَياشِيمَهُ لأعلى: «أشمُّ قافلة من قوافل الأوزبك»، وفي غُضُون ساعات قليلة وصلتْ قافلة من أوركنج مملوءة بالأوزبك.

ومن المدهش كيف يعرف التركمان الشخص الذي كان في الصحراء من أثر خطاه؛ ليس هذا فحسب؛ بل إنهم يعرفون القبيلة من التركمان التي مرَّت بعينها. وقد رأيت مراراً عندما يشاهدون أُناساً يتحاورون من مسافة بعيدة، كيف يقول هؤلاء التركمان أو القالموقيون: «دعونا نصيخ السمع»؛ ثم يَنْطَرِحُونَ أرضاً، ويسمعون من تلك المسافة ما يهمسه اثنان لبعضهما، ويقومون برواية المحادثة بدقة فائقة.

ثم أتت مجموعة أخرى من الدراويش إليَّ، وقالوا: «سوف يأتي الوقت الذي تنتفي فيه الفَوارِقُ بين الغني والفقير، وبين الكُبَراء والحُقَراء، عندما تكون الملكية مُشَاعَةً، حتى الزوجات والأطفال».

وفجأة حضر الأوزبك وهم في فزع عظيم. وقد كان ذلك نذيراً لنا؛ فقد

(١) هو إمبراطور روسيا آنذاك، وسبق أن مرَّ اسمه في رسالة وولف إلى الأرمن.

كنت خائفاً من أنْ يكون أمرٌ قد صدر بإحضاري مرة أخرى للأمير، ولكنهم قالوا: إن الأخبار قد وصلت من تشيساخ - وهي مدينة وراء سمرقند - بأن شير علي خان، الملك الحالي لخوقند، قد تحالف مع القرغيز والقازاق، بل إنه دعا الروس إلى المجيء عبر خوقند؛ وأنه يعتزم الزحف إلى بخارى للثّأر لموت محمد علي خان.

وتحدَّث معي صديقي عباس قولي خان عن خِسَّةِ عبدالصمد خان، وقال: ليس هناك أدنى ظلالٍ من الشك في أن عبدالصمد هو من قتل الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وأوروبيين آخرين. وأوضح أنه سيَأسَفُ إذا ما قَتَلَ الأميرُ عبدَ الصمد خان؛ إذ إنه ربما يكون ذا نفع يوماً ما لفارس إذا ما فكَّرت في مهاجمة بخارى، أو كما عبَّر بنفسه: «إن شخصاً مثل عبدالصمد خان (أحرق الله والده!) قادر على الانقلاب على الأمير إن رأى ذلك في صالحه، وقتله بالسهولة نفسها التي قتل بها ستودارت وكونولي».

بعد ذلك زارنا أحد الملالي من بخارى، وقد سألني عمّا إذا كان تيمور يُذْكَرُ كثيراً في إنجلترا. فأجبت أن نعم. وبعدها سألني ما إذا كانوا يعرفون عن ابنته أقا بك، وزوجته توركان خاتون، وابنه الوحيد گهان گير[1]. وقال: إن موت هؤلاء الناس جعل تيمور يبكي، وهو صاحب القلب الحديد، الذي لم يبك من قبل. وقد دفنوا في شهر سبز.

اسم تيمور: حديد، وقد كان الاسم المختار لابن تاراغاي، الذين ينحدر أجداده من قبيلة البِرلاس، وكان جده كبير وزراء جغطاي، ابن جنكيز خان.

(١) گهان گير ليس الابن الوحيد لتيمور لنك؛ فقد أنجب غيره من الأبناء: عز الدين عمر الشيخ، وجمال الدين ميرانشاه، وميرزاشاه رخ.

ولد تيمور في اليوم نفسه الذي انتهت فيه السلالة الحاكمة لجنكيز خان، بوفاة أبي سعيد بهادر خان، في عام ١٣٣٥م[1]. ويقول المؤرخون الفرس عنه: إنه لم يكن فقط مُخضعَ العالم، ولكنه كذلك مُمسِك العالم. ورغم أن الأسكندر الأكبر كان أكثر شفقةً، فمن الواضح أنه أدنى من تيمور في انتصاراته؛ لأن فتوحات تيمور لم تتضمَّن فقط بلداناً من بلدان الأسكندر، وإنما أبقى مساحة أكبر من البلد خاضعة لسيطرته. وعلاوة على ذلك، فإن تيمور لم يحارب، مثل الأسكندر، شعوباً ضعيفةً، ولكنه حارب أناساً شُجْعَاناً محبِّين للحرب؛ كما أنه لم يكن مُستسلِماً للرَّذيلة، ولم يكن ابنَ ملك، ولكنه كان المُوجِدَ لسلطته؛ فعند حصار عاصمة سيستان جُرِحَ في إحدى ساقيه، مما سبَّب له عرجاً، ومن هنا سُمِّي تيمور لنك؛ أي: الأعرجَ. وكان ذا قامة عظيمة، وله رأس كبير بصورة غير عادية، وجبين واضح، وملامح جميلة حمراء يخالطها بياض، وشعر طويل أبيض منذ ولادته، مثل زال[2]؛ البطل المشهور في التاريخ الفارسي. وكان يعلق في أذنيه ألماستين قيمتُهما عظيمة. وكان ذا تعابير حادة، عابس الوجه؛ عدوّاً لكل مِزاح أو دُعابة، خصوصاً للكذب، الذي يكرهه إلى درجة تجعله يفضِّل حقيقةً مُرَّة على كِذْبة عَذْبة. وهو في هذا مختلف جداً عن الأسكندر؛ الذي قتل كليتوس، صديقَه وصاحبَه في الحرب، وكذلك الفيلسوف كاليسثينز، عندما ذكرا عنده حقائق غير مرضية له. ولم يتخلَّ تيمور قط عن قصده ولم

---

(١) توفي أبو سعيد بهادر خان في ربيع الأول ٧٣٦هـ الموافق نوفمبر ١٣٣٥م، وولد تيمور لنك في ٢٧ شعبان ٧٣٦هـ الموافق ٨ أبريل ١٣٣٦م. انظر: الجاف، حسن كريم. موسوعة تاريخ إيران السياسي، مج٢، ص٣١٢، ٢٨٧.

(٢) هو رستم پسرزال: بطل أسطوري خيالي فارسي. ذكره الفردوسي في «الشاهنامة»، كما ذُكر كثيراً في القصص الفارسية.

يقم بإلغاء أمره؛ ولم يأسف كذلك على ماضٍ انقضى، ولا ابتهج في استباق المستقبل؛ لم يحبِّ الشعراء ولا المهرِّجين، وإنما أحب الأطباء، والفلكيِّين، والمحامين، الذين كان يرغب باستمرار في أن يواصلوا محاوراتهم في حضوره؛ كما أنه أحبَّ على وجه الخصوص أولئك الدراويش الذين مهَّدت شهرتُهم بالورع طريقه للنصر بمباركتهم. وقد كان من المغرَمين بالشطرنج، الذي يجيده إلى حد الامتياز؛ وله الحركة المشهورة: «جعل الملك في القلعة»، ومنه تلقى ابنه المحبوب اسم «شاه رُخ»، التي تعني «ملك قلعة». وكانت الكتب المحبَّبة إليه هي تواريخَ الحروب، وسِيرَ المحاربين ومشاهير الرجال. وكان تعليمه مقتصراً على معرفة القراءة والكتابة، ولكنه كان يمتلك ذاكرةً قوية جداً، بحيث إنَّ أيَّ شيء يقرؤه أو يسمعه مرة واحدة لا ينساه أبداً. ولم يكن يعرف سوى ثلاث لغات: التركية والفارسية والمغولية. أمّا العربية، فهي لغةٌ أجنبية بالنسبة إليه. وكان يفضِّل تورا جنكيز خان على القرآن[1]؛ ولذلك وجد العلماء أنه من الضروري إصدار فتوى، يعلنون فيها أن أولئك الذين يفضِّلون القوانين الإنسانية على القوانين الإلهية يعدُّون ملحدين. وقد أكمل تورا جنكيز خان بقوانينه الخاصة به، المسماة توفيقات، والتي تحتوي على مراتبَ ودرجاتٍ ضابطة. ومن دون فلسفة أنطونيوس، أو حَذْلَقَةِ قسطنطين، تكشف قوانينهُ عن معرفةٍ عميقةٍ بالفن العسكري والعلم السياسي. ومثل هذه المبادئ قلَّدها بنجاح خلفاؤه من بعده؛ مثل: شاه بابير والشاه العظيم أكبر، في هندوستان.

وكانت سلطة حكومته المدنية وكذلك العسكرية تتوقَّف على معرفة واسعة بالبلدان الأخرى، الأمر الذي اكتسبه من مقابلاته مع الرحَّالة والدراويش،

---

(١) المعروف أن «اليساق أو الياسه» هو كتاب جنكيز خان الذي وضعه قانوناً لشعبه. ولا أعتقد أن أي مسلم يفضِّل كتاباً آخر على القرآن مهما بلغ إعجابُه به. (المترجم).

بحيث كان على اطّلاع تام على كل الخطط، والمناورات والتحرُّكات السياسية للساسة الأجانب والجيوش. وهو نفسه أرسل الرحّالة إلى أجزاء مختلفة من العالم، وأمرهم أن يبسطوا أمامه الخرائط وَوَصْفَ البلدان الأجنبية.

وكان حُبُّ الجيش لتيمور والتصاقه به شديداً، بحيث إن أفراده يمتنعون عن السَّلْب والغنيمة إذا ما أمرهم بذلك، مع ما هم فيه من حاجة. وكان خضوعُهم له غيرَ مشروط، وما كان الأمر ليكلفه سوى إصدار مرسوم من أجل أن يُطلق عليه لقب نبي التتار، وليس إمبراطوراً فقط. وكان يبذل جهداً من أجل كبح جماح جنده إلى القسوة، وهو الجيش المكوَّن من شعوب كثيرة جداً، وذلك باستخدام الشعراء والعلماء والموسيقيين والصوفيين، الذين يأتون في حشود إلى الجيش، ويتجوَّلون معه عبر آسيا.

وقد أفنى تيمور أيام شبابه في تعلُّم فنون الحرب، وفي الصيد والغزو. وكان في السابعة والعشرين من عمره عندما قدَّم أول وأهم خدماته للأمير حسين، أمير بيت جغطاي - الذين كانوا يقيمون في ذلك الوقت في بلخ وهراة - في حربه على تيمور تغلق خان، ملك تركستان، الذي قام على رأس التشيتس والغيتس بتدمير البلاد الواقعة على ضفَّتَي أكسوس. وكانت المكافأة التي حصل عليها لبطولته وشجاعته زواجه بالأميرة توركان خاتون، أخت حسين؛ غير أنها توفِّيت بعد أربع سنوات من زواجهما؛ عندها أعلن تيمور تمرُّده على حسين، الذي قتله أهل بلخ؛ فاعتلى تيمور عرش خراسان، وقام بسجن أَرامِلِ حسين الثَّماني، وتزوَّج اثنتين منهن، وزوَّج الستَّ الأخريات أصدقاءه، ودمَّر مدينة بلخ، وقطَع رؤوس السكان، واسترقَّ النساء والأطفال، وكان ذلك مقدِّمة للمآسي الفظيعة لفتوحات المستقبل. واختار تيمور بعد ذلك سمرقندَ مكاناً لإقامته، وحصَّنها بسور، وزخرفها بالبساتين والقصور. وقام مَجْمَعُ

التتار (قوريلتاي) بالمناداة بالمنتصر إمبراطوراً على العرش الشاغر. وقام الدرويش بركات - صمويل التتار، الذي تنبأ له بالعرش - بتقليده بشارة الإمبراطورية، وسلَّمه اللواء والطبل، وأضاف إلى اسمه «تيمور» ألقاباً أخرى؛ مثل: كوركان؛ أي «الحاكم العظيم»[1]، وشائيل كيران: «سيد الزمان»، وگهان گير «مخضع العالم». ألا يبدو ذلك تقليداً لسفر إشعيا الإصحاح التاسع، الفقرة ٩٦. وقد أثبت بقوة حقيقةَ تلك الألقاب في السنوات الست والثلاثين من حكومته. وكان شعار ختمه، والذي هو الآن في يدي ملك بخارى، هو حقان - عدالت.

إن ملحوظة اليهود، التي سبق ذكرها في هذا الكتاب، بشأن تيمور وجنكيز خان، ممكنة بشكل كبير. وخلال سنوات حكمه، عاد تيمور تسع مرات إلى سمرقند، من أجل تجديد قوَّاته وإعدادها لمغامرات جديدة. وقد وحَّد فوق رأسه تِيجَانَ تسعة بلدان مضروبة في ثلاثة، كانت لتسع سُلالات حاكمة، كان قَدَرهم في يدي الفاتح؛ وهم:

أولاً: السلالة الحاكمة لجغطاي؛ الذين تربَّع على عرشهم بعد وفاة حسين.

ثانياً: السلالة الحاكمة للتشيتس والغيتس في تركستان ومغولستان.

ثالثاً: السلالة الحاكمة لخراسان.

رابعاً: أصحاب خوارزم.

خامساً: أصحاب التتار في تتارستان ودشت القبجاق.

سادساً: السلالة الحاكمة لأبناء مسافر، في العراق الفارسي.

سابعاً: السلالة الحاكمة لإيلخان في العراق العربي.

---

(١) ليست «كوركان» تعني: الحاكم العظيم، وإنما تعني: «الصهر». وقد لُقِّب تيمور بهذا اللقب عقب زواجه بأخت الأمير حسين.

ثامناً: أصحاب السلاجقة.

تاسعاً: أصحاب عثمان، تجاه الشرق إلى جدار الصين، وتجاه الشمال من قلب روسيا، وإلى الغرب تجاه شواطئ البحر المتوسِّط، وتجاه الجنوب امتدَّت فتوحاته إلى حدود مصر، حيث حكم بالحديد عصره وعالمه.

وقد أخضع عدةً من هذه الإمبراطوريات بمعركة واحدة، ولكن معظمها كان بعد صراعات متكرِّرة ودَؤُوبٍ عدة سنوات؛ وقد قاد جيشَه سبع مرات ضد الغيتس وخمسَ مرات ضد خيوه؛ وأخضع هندوستان بحملة واحدة؛ وفي بعثته الأخيرة في آسيا الصغرى تقرَّر مصير بايزيد، وهي الحرب التي دامت سبع سنوات.

وبعد الحملة الأولى ضد ملك خيوه، وبوساطة سفارة من تيمور، طلب يد ابنة الملك: خان سعده، زوجةً لابنه الأكبر گهان - گير؛ فقام حسين صوفي بترتيبات تَفُوقُ في عظمتِها احتفالات الزواج المشهورة للخليفتين العظيمين المأمون والمعتضد[1]، ابني هارون الرشيد.

وقد تكوَّن جهاز العروس من تيجان فخمةٍ، ومن عروش ذهبية، ومن أساورَ وأقراطٍ نفيسة، ومن أحزمة من الألماس واللؤلؤ، وسُرُرٍ، وخِيَم، ومحفَّات. وعلامةً على الترحيب، قام نبلاء الإمبراطورية برمي قطع ذهبية صغيرة وحبَّاتِ اللؤلؤ فوق رأس العروس، وعَبِقَ الجوُّ برائحة العَنْبَرِ، وغُطِّيت الأرضُ بالسجَّاد؛ وفي جميع أنحاء البلدات التي مرُّوا بها، خرج المشايخ والقضاة، والأئمة والملالي لملاقاتهم، وتضاعفت كلُّ هذه الاحتفالات عند وصولهم إلى

---

(١) يشير إلى زواج المأمون من بوران ابنة الحسن بن سهل، وزواج المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه. والمعتضد لم يكن ابنَ هارون الرشيد، بل ابن الموفَّق بن المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد.

سمرقند. ومثلت في داخل الخيمة التي تمَّ فيها الزفاف قبةُ السماء، تغطِّيها النجوم ويَنتثِر فيها الألماس. وَوُزِّعَتِ الشالاتُ والملابسُ والصَّوْلجَاناتُ على الضيوف، وفي غرفة العُرس وضع الفلكيُّون خريطةَ البروج الخاصة بلحظة العرس السعيدة والمحظوظة.

وقد أعرس تيمور بالأميرة ديل - شاه - آغا، ابنة سلطان التشيتس، واحتفل بها، ولكن بدرجة أقل في البذخ والإسراف، بعد أن أسرها في حملته الثانية مع والدها. وبجانب الزوجات السابق ذكرُهنَّ، تزوَّج تيمور، بعد وفاة توركان، بالأميرة تومان - آغا، ابنة الأمير موسى، التي من أجلها قام بدَمْجِ اثني عشر بستاناً مَلَكياً في سمرقند في بستان واحد، أسْمَاهُ باغي - بهِشت؛ أي: بستان الجنة. غير أن التحالف بواسطة الزواج لم ينقذ سلطان التشيتس، أو ملك خوارزم أو خيوه. وقد تم حصار الأخير، بعد أن تعدَّى على حقوق الشعب بسجن سفراء تيمور، في الحملة الأخيرة، مدة ثلاثة أشهر ونصف في عاصمته. وعند الأسوار تحدَّى تيمور حَمَا ابنه للمبارزة، فلم يقبل؛ فاستولى تيمور على المدينة بالاقتحام والنهب، وقد نفى كلَّ المشايخ، والمتعلمين، والفنانين، والميكانيكيين إلى شهر سبز، موطنه الأصلي.

ومع قسوته، كان تيمور أباً مثالياً، وزوجاً رقيقاً. فبعد وفاة ابنه المفضَّل گهان گير، وزوجته المفضلة توركان - خاتون، سُمع مرات متكرِّرة يردِّد، وعيناه مرفوعتان لأعلى، كلماتٍ من القرآن: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وكان الدراويش الوَرِعون يجلسون في غرفته يقرؤون سوراً من القرآن أو تفسيراتٍ من السُّنَّة.

وبعد فتح خورازم، أمَاطَ تيمورُ اللثامَ، وأعلن عن نيَّته أن يتسنَّم السيادة الكونية. وقد كان يتلو بتكرار كلمات الشاعر: «حيث إن هناك إلهاً واحداً في

السمـاء، فلا بد أن يكون هناك حـاكم واحـد على الأرض»، وأن الأرض، بما تحويه من كل الإمبراطوريات، ليست كافيةً لإشباع طموح الأمير العظيم. سيد توران؛ أي البلدان الواقعة على ذلك الجانب من أكسوس، ورَغِبَ كذلك في امتلاك إيران؛ يعني فارسَ.

وكانت خراسان في ذلك الوقت مقسَّمة بين أميرين؛ فغياثُ الدين بير عليّ يحكم هراة؛ وفي سبز وار، خوجه علي مجيد، من سلالة جنكيز خان.

وقد سلَّم سَيِّدُ سبز وار لتيمور، وأصبح تابعاً له، ورافقه في غزواته، ولَكِنَّ سَيِّدَ هراة أبدى مقاومة. وعندما جاء تيمور إلى أنكود، قام أحد الدراويش الأتقياء السُّذَّج بطرح رأس ماعز على رأس تيمور، الأمر الذي عدَّه الفاتح فَألَ خير. وقد أخضع هراة واستولى على كنوزها؛ لكن المدينة نجت من التدمير، غير أن بوَّاباتها الحديدية أُخِذَتْ إلى شهر سبز، كما حدث في الأزمان الغابرة؛ حين كان سامسون وعلي يأخذان بوَّابات المدن[١]. واستسلمت المدن: نيسابورُ، وسبز وار، وطوس؛ أي مشهد، دون حرب.

وتشتهر مشهد بكونها المكانَ الذي دُفن فيه الرضا، ثامن الأئمة[٢] وهارون الرشيد، وفيها أيضاً قبر أكثر الفاتحين المتعطِّشين للدماء، أبي مسلم[٣]، الذي أزال بقوته بني أمية من عرش الخلافة، وحوَّلها إلى بني العباس. وهي كذلك المكان الذي وقف فيه الوزير الكبير، والرياضي الأعظم، وأكبر شعراء فارس،

---

(١) يشير إلى سامسون (شمشون) بن منوح الدني، أحد شخصيات العهد القديم، وإلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في اقتلاعه باب الحصن بيديه في غزوة خيبر.

(٢) يريد ثامن الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية.

(٣) أبو مسلم الخراساني لم يُدفن في مشهد؛ لأن المعروف تاريخيّاً أن المنصور قتله في المدائن قرب بغداد ورُميت جثته في دجلة.

نظام الملك، ونصير الدين[1]، والفردوسي[2]. وقد تخطَّى تيمور بلا مُبَالاة واضحة ضَريحَ الإمام، مع ضريحي الفلكيِّ والشاعر، وابتهل بدعائه عند قبر أبي مسلم[3]، الذي فَقَدَ مليون رجل حياتَهم بسيفه، والذي رَمَّل عدداً لا يُحصى من النساء وأيتَم كذلك عدداً كبيراً من الأطفال.

تَرَجَّلَ تيمور من فوق حصانه، ودعا الله عند قبر البطل أن يبارك مشروعه العظيم. ونظر أحد الدراويش إلى تيمور، وقال له: «إن شَبَحَ أبي مسلم الدَّمَوي يَحُومُ حول رأسك، أَوَّه، يا رجلَ الدماء!». وسرعان ما انفجرت ثورة في سبز وار، أخمدها بمَذْبَحَةٍ محقت السكَّان كافة، وبنى بُرْجاً من جماجم المَذبُوحين.

وبعد أن افتتح خُرَاسَانَ، زحف تجاه سيستان وزابُلستان. وقد ظهر له شبح رُسْتُمَ، وقال له كلماتٍ لها دلالتُها: «يا تيمور، كُفَّ!»، ولكن دون جدوى. وقد جُرِحَ، وأصاب جيشَه الخوف، عندها خاطبهم قائلاً: «أيها الجنود، هل تريدون أن يقول أعقابنا: إن أسلافنا أخافهم شبح؟». وأصبح فاتح سيستان، وزابُلستان والسِّند. ويقول البلوش والتركمان في زماننا: «إن إفرنجياً إنجليزياً، قد سار على خُطى تيمور»، واسم ذلك العملاق الإنجليزي - كما يسمِّيه التركمان - هو السير تشارلس نابيير، فاتح السند وحاكمها. وكما يُقارَن السير تشارلس نابيير في تركستان وبخارى برستم الزمن القديم، فإنني قد سمعت كذلك عن أحد

---

(١) يريد: نصير الدين الطوسي صاحب المرصد بمراغة، وقد رافق هولاكو إلى بغداد وكان عوناً له على استباحتها، وتوفي فيها سنة ٦٧٢هـ، انظر عنه: بروكلمان بالألمانية ٥٠٨/٢ وملحقه ٩٢٤/٢ ومعجم المؤلفين ٢٠٧/١١ مع مصادر ترجمته في كليهما.

(٢) مؤلف ملحمتي «يوسف وزليخة»، و«الشاهنامة».

(٣) لعله أيضاً من القبور الموهومة، التي تعج بها إيران والعراق، كقبر أبي لؤلؤة المجوسي.

وزراء جلالتها المتأخِّرين، في تركيا وفارس، يقارن بملكشاه[1]، أعظم الوزراء، المُناهِض للحشَّاشين، وهذا الوزير هو اللورد بالمرستون.

بعد ذلك حصلت على المعلومات الآتية عن شهر سبز؛ وهي مدينة مركزية في بخارى، غير أنها منفصلة عن الملك، مستقلَّة، يحكمها خان خاصٌّ بها.

والسبب في ذلك هو:

أولاً: أن أهل شهر سبز أفضل بكثير من أهل بخارى، وفرسانها أكثر شجاعةً من فرسان بخارى.

ثانياً: أن في إمكانهم أن يَغمُروا البلدة كاملة بالمياه، بحيث لا تتمكَّن أي قوات من الوصول إليهم.

ثالثاً: أنها تشكِّل ملجأً لأهل بخارى من تعسُّف أميرها؛ ولذلك فإن أهل بخارى لا يتمنَّون الاستيلاء عليها.

وعلى كل حال، فإن خان شهر سبز أرسل، التزاماً بالعُرف والتقاليد، ألف فارس، للأمير مساندةً له في حربه على خيوه وخوقند؛ غير أنهم لديهم أمر من خان شهر سبز ألاَّ يقدِّموا أدنى مساعدة حقيقية.

واصلنا السَّير من جسمان دو إلى شهر إسلام، مدينة أفراسياب.

ولأن اسم أفراسياب غير مألوف لدى القُرَّاء الإنجليز، كما أنه ليس مُدرَجاً في الأعمال الشاملة الخاصة بالسِّيَرِ، فإنني أُضمِّن هنا التفاصيل الآتية عن ذلك الملك.

---

(١) السلطان ملكشاه السلجوقي بن ألب أرسلان لم يكن وزيراً، والظاهر أنه يريد نظام الملك الحسن بن علي الطوسي، المقتول قرب نهاوند سنة ٤٨٥هـ، وهو في طريقه إلى الحج، انظر عنه: التعليق السابق، مع مصادر ترجمته. بل لعل اسم نظام الملك سقط من النص الذي ربما كان: «يقارن بنظام الملك وزير ملكشاه».

كـان أفـراسـيـاب المِلِكَ التـاسع من سـلالة ملوك بِشـداديان الفـرس. وهو تركمـانيٌّ المولد، وينحدر من فـريدون؛ الذي كان له ابن مـتمرِّد يُدعـى تور. ومِثْله مـثل أبسـالوم في الزمن القـديم، الذي يعتـقـد البـعض أنه مـعاصـر له، حـاول الاسـتـيـلاء على مملكة والده. ولإخـفـاقه فـي مؤامـراته ضـد والـده، هـرب إلى تتارى، حيث أصبح ملكاً. أنجب تور ولداً أسـماه بيشانج، وهو الذي انحدر منه أفـراسـيـاب (رغم أن هذه النقطة ليـست واضـحـة). ويـنسـبـه المؤلِّـفـون الفـرس القدماء، بطـريقة ما، إلى تور، الذي مات في مـعركة ضد ملك الفـرس منوجهر، وينحدر تور من فرع فريدون الذكور.

وقد أجبرتْ عمليات الاجْتياح التي قام بهـا أفراسيـاب والتـتـار، خلال حكم بيشـانج، ملكَ الفرس منوجهـر، على طلب السـلام، الذي مُنح له، وجُعِلَ أكسوس حداً فـاصـلاً بين الإمبراطوريتين. وخلف منوجهـر نوذار في الملك، الذي لم يكن محبوباً من رعيَّتـه، فَشَنَّ أفـراسياب عليـه حرباً ناجحة، وانتقم منه عن أخطاء سلفه، أو مـا افترضه كذلك. وقَتَلَ أفراسياب بيده الملكَ الفارسـي نوذار، وأصبح ملكَ فـارس، وحَكَمهـا – مثل تيـمور – بقبضة من حديد. ثم ثار البطل زال[1] – وهو مفـخـرة فـارس – ضـد الطـاغـيـة أفـراسـيـاب، وهـزمـه، ورفض تـولي الحكم بنفسه، وأعـاد الورثة الشرعيين إلى عرشهم المسلوب.

وقد جـاهد أفراسياب غير هَيَّـابٍ لاستعادة ملك فـارس خلال فـتـرات حكم مـختلفـة؛ وفي النهـاية ظهـر أحد ملوك فارس، وكـان قـوياً بمـا فيـه الكفـاية لشَنِّ الحـرب فـي عُقْـرِ دار التـركمـاني نفسـه. وبعـد مـعـركة شـديدة قـام كـيـخـسـرو بالاستيلاء على قصر أفراسياب، وتمكن من قتله.

---

(١) هو رستم زال، بطل فارس الأسطوري، المشار إليه سابقاً، وهو عند الفرس مثل هرقل عند اليونانيين القدماء.

ولكونه أشهر السُّلالات الحاكمة القديمة، ولكونه مخلَّداً في الحوليات الفارسية؛ فإن أفراسياب كان يُنظر إليه على أنه بطل أسطوري من العصور القديمة جداً، وكأنه ملك الديفيس والأفرتس، سليمان نفسه.

ويجدر بنا أن نستثني من النقد السابق «قاموس السِّيَر»[1] الصادر عن السادة لونجمان؛ ويمكننا أن نحيل قُرَّاءنا إلى تفاصيل إضافية عن الفردوسي، وكتاب السير جون مالكولم حول فارس.

احتشد حولي في شهر إسلام أناس من كابل؛ وكان معظمُهم من القزل باش. وقالوا: إن الإنجليز جلبوا عداء الناس لهم بعدة أشياء؛ أولاً: أنهم لم يحموا القزل باش. ثانياً: أنهم أغضبوا صديقهم نواب جبار خان، أخا دوست محمد خان. ثالثاً: وكما ذكرت من قبل، بما جاؤوا به من عادات شائنة وفُجور.

وأتى إليَّ مرتضى وعبدالله، المتآمران على حياتي، وقالا: إن الاستعجال في مغادرة بخارى كان مُلِحّاً؛ لكي أقوم بعمل أفضل هو التخلِّي عن عباس قولي خان، وأن أنْصِبَ خيمتي على مسافة بعيدة منه؛ وإلى جانب ذلك، فإنني كإلجي إنجليزي (هكذا يدّعون الإنجليز جميعاً) فإنني أعظَمُ من عباس قولي خان أو أي شخص آخر في القافلة؛ ولذلك يجب أن أبقى بمَعزِل عنهم. فأجبتهم قائلاً: «أعرف نذالتكم؛ ولن تُعَلِّموني أين أنصب خيمتي، وسوف أسير في ركاب عباس قولي خان».

وفي شهر إسلام لحظت أن الصَّناديق التي تحوي ثلاثة الآلاف تيلاه مكسورة بصورة أو بأخرى. وبعد عبور بيكند، والوصول إلى قره قول، اشتريت

---

(١) نتأسَّف عندما نعلم أن هذا العمل لم يكتمل. ومع عناية أكثر بقليل وتصرُّف أخلاقي في بعض مقالاته، فإنه سيكون قد تحقق ما هو أمنية في الأدب الإنجليزي، فهو قاموس سِيَرٍ جيد. (المؤلف).

قماشاً قوياً، وساعدني ميرْزا عبدالوهاب، وهو فنَّان فارسي، وكذلك حاجي إسماعيل من يارقند، على تغليفها بعناية. ولكيلا أضطر إلى إيداع الصناديق عند مرتضى، رئيس القافلة، اشتريت بَغْلاً من قره قول، من أجل أن تكون الأموال دائماً تحت بصري.

وقد توقفنا في قره قول مدة يومين، في منزل شاكر بك، وهو منزل تابع للملك حسين خان. وأرسل حسين خان حاكم قره قول خادماً موثوقاً به إليَّ، يحمل اعتذاره من أنه لم يكن في انتظاري، رغم أنه، كما عبَّر عن نفسه: «قلبه وروحه متَّحدان بقلبي وروحي من قبل ثلاثة عشر عاماً في قره قول». وأخبرني أنني في خطر مماثل للخطر الذي في بخارى وأنا في طريقي إلى مشهد؛ لأن عبدالصمد خان - المتعطِّش دائماً للدماء، والذي هو أخطر بلاءٍ شهدتْه بخارى - قد استأجر سفَّاحين لقتلي في الصحراء؛ وهؤلاء السفَّاحون هم خادمي عبدالله، ومرتضى، (باشي القافلة)، وإبراهيم عباس، ودِل آسا خان، وإسماعيل، ورحيم بك، وآخرون. ولذلك نصحني أن أوظِّف الرقيق الفُرْسَ الأربعة - الذين نجحوا في مغادرة بخارى معي، (والذين كانوا مطَّلعين على الحقيقة، كما اعترفوا بذلك له) - خُفَرَاءَ ضد السفَّاحين؛ كما يجب عليَّ ألاَّ أترك جانب عباس قولي خان. ويجب أن أذكر هنا، أنني ارتكبت غلطة شنيعة بصرف حسين من خدمتي؛ لأنه، رغم أنه متشرِّد حزين، فلا يزال يتمتع بنوع من العاطفة نَحْوي؛ فقد رافقني من مشهد إلى كابل في عام ١٨٣٢م، وكان كابحاً لعبدالله، الذي هو مثالٌ جامعٌ لكل النذالة في الشرق، وكان دائماً مخدراً بالأفيون، ومشغولاً بتدبير المكائد والدسائس السرية؛ والشائبة الأخيرة لا يخلو منها حسين تماماً، وهذه النقطة أقدِّم لها الوصف الآتي:

هناك الكثير من العقارب في بخارى، وقد لدغت إحداها شخصاً يعيش

بالقـرب مني في بخـارى. وتظاهر حسين بأنه يعـالج الأمـراض بالدعـاء، «التعاويذ»، وقد دُعي لهذه الحالة، ولا أدري إن كان نجح في فعل ذلك؛ غير أنه ما أن دعـا دعـاءه[1]، إلاَّ وذهب إلى المسجـد وأبرم مَكيدةً وتآمر مع إحـدى النساء، الأمر الذي جُلد بسببه جلداً مُبَرِحاً.

عند وصولي إلى ألآت لحظت أن أميـر ساروق وعبدالله والبقية من السفَّاحين المأجورين، كانوا يحومون حول بغلي عندما نَصَبْنَا خيمتنا. وفي اليوم التالي، عندما أردت أن أحمل عليه صناديقي، وجدته يعرج؛ فأخبرت عباس قولي خان بما حدث؛ فأمر بأن يُربَطَ بغلي مع بغَاله، وأن يقوم أحدُ خدمه بمراقبـة صناديقي خـلال الليل، ويكون تحت تصـرُّفي. وقـد نام الحـاجي إسماعيل من يارقند، مدركاً خطة الأنذال، في خيمتي. وقام الرقيق الفُرس الأربعة الذين أنقذتهم بمراقبتهم؛ ولذلك بدأ عبدالله ومرتضى بافتعال المُشاجرات مع خدم عباس قولي خان والحاجي إسماعيل.

سرنا بعد ذلك تجاه جهار جو. وكان الوقت ليلاً؛ ما جعل القافلة تضلُّ الطريقَ. وقام عباس قولي خان - الذي أمسك بلُطف بالغ رسن حصاني لكيلا أضلَّ - بضمِّي إلى عناية أخيه، نوجوف قولي خان؛ من أجل أن يبحث عن الطريق بنفسه. بعد ذلك حاول إسماعيل ومرتضى دفعه بعيداً، وعندها صحت عالياً باللغة الفارسية: «هل سترتكِبون خيانة؟». هذا الصياح جعل الأشخاص الكبار في القافلة يلتفُّون حولي؛ فأشرتُ نحو إسماعيل ومرتضى، اللذَيْن تراجعا. وقُرب انبلاج ضوء النهار أتى عبدالله إليَّ، وقال لنوجوف قولي خان ولي: إن عباس قولي خان أمر بأن أبقى في الخلف، وأن أنتظر عودته. فأدركنا أنها كذِبَةٌ. وتبعنا خُطَى حصان عباس قولي خان، وسرعان ما وجدناه. وكان ينتظرني قلقاً.

---

(١) لعله يقصد الرقية الشرعية. (المترجم).

وصلنا إلى ساين، وتوقَّفنا عند منزل أحد الزعماء آق - ساكال «الرئيس أبو اللحية». وأرسل إليَّ عباس قولي خان جزءاً من تموينه؛ بعد أن سمع أن السفاحين يَعتزمون تَسْميمي، وأن عبدالله قد استولى على تمويني، وباع جزءاً كبيراً منه للأرقاء في القافلة.

لا بد من الإشارة هنا إلى أنه في ساين قام الفاتح العظيم هولاكو خان، والذي لا يزال اسمه على شفاه كل طفل أوزبكي، بنصب مخيَّمه مع جيشه.

ولإدراكي أنني كنت أُضايَق باستمرار بسبب المال، قلت لعباس قولي خان: «سأفتح صناديقي، وأنثر المال في الصحراء المفتوحة؛ لعل ذلك يريح الأنذال». فأجابني بقوله: «أعطني المال». فلما أعطيته إياه وضعه في يدي عليّ أكبر، خازنه، وجعل الناس يعتقدون أنه أرسل المال إلى مشهد مختوماً بوساطة أحد التركمان. ثمة حقيقة تستحقُّ الانتباه، وهي أن التركمان بالرغم من أنهم لصوص كبار، إلا أن التجار يأتمنونهم على الأموال، التي يقومون بإيصالها بسلام لأصحابها، شرط أن تكون مختومة. وسرعان ما شعر القَتَلَة بأن الصناديق لم تعد ثقيلة؛ الأمر الذي جعل بعضهم يكفُّ عن إغضابي؛ غير أن عبدالله، الذي يستطيع المرء أن يدرك من ملامحه المخيفة أنه قاتل، والذي لا يخجل من القول إنه قتل شخصين، وأنه كان مكلَّفاً من عبدالصمد خان - خصيصاً - لكي ينهي حياتي، كما اعترف في مشهد؛ لم يتوقَّف عن إغضابي باستمرار. وأخبرني الأَرِقَّاءُ الأربعة الَّذين ساندتُهم، والحاجي إسماعيل أنه كان يردد القول: «سوف أقتل هذا الكافر باسْتِفْزازِه». وفي أحد الأيام، وكنت أشعر بحرٍّ شديد، فنزعت عباءتي وأعطيتها لعبدالله؛ فهرب بها بعيداً، وباعها لقاهر قولي، وقال إنه أضاعها.

الفصل التاسع عشر

الوصول إلى جهار جو. عباس قولي خان ينادي في القافلة بحماية الدكتور وولف. رسول بخارى يطلب المال من الدكتور وولف. رافيتاك. فرسان بخاريُون من لدن الأمير يطلبون جزِيَةً، الدكتور وولف مغموم. الوصول إلى يوجاجي. مرو، والقافلة تُؤْسَرُ. أمير بخارى يأمر التركمان بإطلاق سراح القافلة؛ ويرفضون الطاعة. الأمير يهدِّد بتركهم إذا تسبَّبوا في أذى القافلة؛ ويطيعونه. محادثة أحد الدراويش عن التركمان. أحد الدراويش يروي قصة أسكندر بك. الفقراء. السلطان سنجر. الخليفة يتحدَّث عن جنكيز خان. ابن الخليفة يتحدث بسوء عن آصف الدولة. قبيلة سالور أفضل قبائل التركمان. أمير ساروق وقاهر قولي يَحيكانِ مؤامرة لقتل الدكتور وولف؛ والخليفة يحبطها. اليهود يعاونون أهل خيوه ضد بخارى. جوزيف من تلختون. حكايات التركمان حول السلطان سنجر. التركمان، رغم المعاهدة، يقتلون رسول آصف الدولة. حوار الخليفة، ليلة مغادرته، مع الدكتور وولف.

عند وصولنا إلى جهار جو علمت أن إسماعيل - رجل دِل آسا خان - وقاهر قولي، ورحيم بك، وأمير ساروق، مع آخرين؛ سوف يأتون في جماعة، ويطلبون مني مالاً، وإذا لم أُعطِهم إياه فسوف يقتلونني. فأطلعت عباس قولي خان على هذه المؤامرة؛ فجمع المتآمرين أمامه، وكبارَ القوم في القافلة، وخاطبهم قائلاً: «إن الرجل الإنجليزي، الذي هو بصحبتي وتحت رعايتي، يريد الفرار إلى خيوه؛ لأن هؤلاء القوم يعتزمون قتله؛ فمن كان منكم مسلماً حقّاً فليعملْ معي على حمايته من يد كل نذل». فأجاب كبار القوم: «سوف نحرق والد أول نذل يَمَسُّه». فأشرت إلى السفّاحين؛ فنفوا أن يكون في نيتهم فعل هذا.

لقد كان أمراً مروِّعاً أن نسمع في الليل من برج جهار جو صوتاً ينادي: «انتباه، انتباه! إن أهل أوركنج قد يأتون، ويقتلون الحيوانات، ويغتالون الجنين في رَحِمِ أمه».

وأرسل حاكم جهار جو، بأمر من أمير بخارى، خمسين رجلاً على صَهَوات الجياد لحفر آبار المياه في رافيتاك؛ لكيلا نعطش؛ لأن أهل مرو طمروا الآبار؛ لمنع أهل خيوه من الوصول إلى الماء.

وخلال إقامتنا في جهار جو، أغاظني الأمير أبو قاسم، السفير إلى الملكة فكتوريا بدلاً من آق محمد - الذي كان قد سُمِّيَ بدايةً لهذه المهمة - على نحو متواصل بطلبه المال؛ إذ قال: إن عبدالصمد خان أخبر الملك أنه أعطاني ثلاثة آلاف تيلاه مصاريفَ سفيره إلى إنجلترا؛ لذلك أعطيتُه بعضَ النقود. وبعد أن عاد الفرسان من تنظيف الآبار في رافيتاك غادرنا جهار جو.

ركبنا ليلتين ويومين من دون توقُّف؛ خوفاً من أهل خيوه. ولا أستطيع وصف الآلام التي تحمَّلتها وأنا على صَهْوَة الجواد؛ فقد شعرت بأن السَّقْطة من على الحصان في بخارى نتج منها تَمَزُّقات داخلية. وكلما اقتربنا من رافيتاك، زاد هَلَعُ كلٍّ مَنْ في القافلة؛ بسبب التقارير التي وصلت إلينا، وتفيد بأن ملك خيوة قادم، وأن رافيتاك ما هي إلا نقطة تجمُّع لأهل خيوه. وأعترفُ بأنه كان يجب عليَّ أن أكون مسروراً لو أنهم وصلوا؛ لأنهم يُعَظِّمون صداقة الإنجليز، ولو أن الأحداث الآتية لم تُخْمِدْ رغبتي. وقد أفهمَني أمير ساروق وقاهر قولي، بصرامة، أنه في اللحظة التي يتقدَّم فيها أهل خيوه إلى مُخَيَّمِ رافيتاك، فإنهما سوف يقتلانني، ويهربان بكل شيء تركتُه في صندوقي.

عند وصولنا إلى رافيتاك أُجْبِرْنا، رغم الخطر، على البقاء هناك مدة يومين؛ لأن الخيل والبغال والجمال والرجال كانوا في غاية التعب، ولا يستطيعون مواصلة السفر. وفي اليوم نفسه الذي استأنفنا مسيرتنا، رأينا

فرساناً على مسافة يتقدَّمون نحونا، وسمعت صيحةً من كل جانب: «أوركنجي.. أوركنجي!» هكذا يسمي أهلُ بخارى أهلَ خيوه. ولم يفكر أمير ساروق ولا قاهر قولي في قتلي؛ بل إني وقفت رابط الجأش إلى جانب عباس قولي خان، الذي أصدر أوامره للاستعداد للقتال، بينما هرب أمير ساروق وقاهر قولي مثل الكلاب المضروبة بالسِياط؛ لكن خادمي عبدالله، امتطى حصانه، واتجه نحو الخيَّالة؛ لإخبارهم أن أحد القازاق الروس كان بين أهل القافلة، كما وشي بعباس قولي خان، الذي يُعَدُّ عدوّاً لملك خيوه، وهو الأمر الذي اعترف به فيما بعد في مشهد. غير أنه بتقدُّم الخيالة أدركنا أنهم بخاريون أرسلهم الأمير، مطالبين باثنين من الدوقات عن كل رفيق تمَّ تحريره وعَبَرَ أكسوس؛ وقالوا: إنها عادة قديمة؛ فكتب عباس قولي خان اعتراضه على هذا إلى ملك بخارى.

واصلنا رحلتنا؛ وكان ذهني مُجهداً، كما أن الألم الناتج من التمزق الداخلي في جسمي كان فظيعاً جداً، ما جعلني أشرع في البكاء، وأقول: «أوه، يا إلهي، أعلم أنني لن أعود إلى إنجلترا لرؤية زوجتي وولدي». ولدهشتي العظيمة رأيت ذلك الرفيق المرعب عبدالله يبكي كذلك. وأتى أحد الدراويش إليَّ، وأنشد الكلمات الآتية من الكتاب المشهور المسمى مَثْنَوِي:

هم خود خواه، هم دنيا دون،
إين خيال است، إين محال است، إين جنون.
خَيَالُه جَامِحٌ، وعقلُه ذَاهِلٌ،
الذي يَطْرَحُ فِكْرَهُ عَلَى اللهِ والأَرْضِ.

وصلنا إلى يوجاجي بالقرب من أحد الأنهار، عندها تآمر التركمان لإيقافنا، لَكِنْ تصدى لهم أفراد من قبيلة تِكَّا. وفي هذا المكان أدار هولاكو معركة ضد أحد الملوك من خَوارِزمَ، أو أوركنج، وهزمه.

ومن هناك وصلنا إلى مرو، واستقبلني الخليفة النبيل بكرم لا يُوصف؛ غير أن أبناءه قاموا بتقليد والدهم النبيل بصورة سيئة. وأعلن التركمان أننا (القافلة جميعها، بما في ذلك عباس قولي خان) محتجزون، حتى يقوم الأَرِقَّاءُ الذين اشتروْا حرِّيتهم بدفع تسعة عشر ألف دوقات لهم. وفي الحال أُرسل رسولٌ إلى بخارى في الليل، ووصل الأمر سريعاً من الأمير - الذي أدخل تركمانُ مرو أنفسهم تحت حمايته - بأن يُسْمَحَ لنا بالمغادرة حالاً ومن دون مضايقة. فأعلن التركمان عند ذاك أنهم لن يطيعوا الأمير؛ الأمر الذي ردَّ عليه بالقول: «إذا لم تطيعوا، فسأرحل عن مرو، وأستقرُّ في هراة، وألعَنُكُمْ». وقد أحدث ذلك التأثير المطلوب؛ غير أنهم ما بَرِحوا أن تآمروا لضرب القافلة بالسيوف على الطريق، وأجبروني على الدفع عن سلعٍ تَحْمِلُها ثمانية جمال مرسلة من النائب لأخيه حاجي إبراهيم، في مشهد، حيث قالوا: «عبدالصمد خان هو اليد اليمنى للملك».

وبينما نحن في مرو، روى أحد الدراويش - الذي قدم من سمرقند في إحدى الأمسيات لأهل القافلة، وكلُّهم كانوا جلوساً - أعمال تيمور، الذي يُسَمَّى كذلك تيمور لنك: كيف بنى في سبز وار برجاً من جماجم الرجال؛ وهزيمته لبايزيد؛ ودخوله إلى سمرقند؛ والاحتفالاتِ بالنصر التي أقامها في سمرقند؛ وموته في أطرار، عندما كان على وَشْك الزَّحف إلى الصين. وعلمتُ أن تيمور كان ينصب عند كل حصار ثلاثَ خيمات متتابعة، لها ألوان مختلفة؛ الخيمة الأولى بيضاءُ؛ لإعلان أنه أتى لمنح السلام للعدو إذا استسلم. والثانية كانت حمراءَ، للتدليل على أنه سيَسْفِكُ الدماء إذا هم أَبْدَوْا مقاومة. والثالثة سوداء تدل على حِدادهم إذا لم يستسلموا.

وبينما كان الدرويش يروي أعمال تيمور، توقَّف فجأة، واستدار نحوي وقال: «إن الشعب الإنجليزي هم الآن تيمور؛ لأنهم مُتحدِّرون من جنكيز خان.

وسوف يصبحون فاتحي العالم، ففي أعقاب حَجِّي إلى مكة عَرَّجْتُ على عدن، حيث يمتلك الإنجليز جيشاً قوياً هناك، ومنها قد يزحفون إلى مكة متى شاؤوا ذلك؛ والزحف تجاه مكة سوف يقومون به».

وقال أحد التركمان الحاضرين: «إن الروس سيكونون هم فاتحي العالم، وقد أقاموا الآن قلعةً قويةً في وسط البحر تقريباً، ليست بعيدةً من خيوه. وقد قام أهل خيوه بحرقها مرةً، لكنَّ الروس سرعان ما أعادوا بناءها. وقد انتهى الأمر مع الإسلام».

وقد أبدى أحد الدراويش الجالسين بيننا التعليق الآتي: «يؤكِّد كبار الملالي في سمرقند أن روسيا هي يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ؛ وقد تنبَّأ بذلك أمير سلطان، كبير دراويش روم»(1).

ولدهشتي العظيمة روى الدرويش للتركمان ردَّةَ أسكندر بك عن الإسلام، في العام ٨٤٧ من الهجرة، والذي كان اسمه في البداية جرجس كاستريوتا، ولَكِنَّ السلطان مراداً منحه اسم أسكندر بك؛ لبسالته. وقد هجر مراداً وعاد إلى الأوروبيين، وأصبح جلاداً للمسلمين، ووضع حداً لفتوحاتهم. ومن هذه الحادثة يمكن للمرء أن يلحظ أنه لا يزال هناك أناس أذكياء بين الدراويش، وأنهم ليسوا كلُّهم، كما وصفهم الأستاذ بيركنز، مجموعةً من الشَّحَّاذين عديمي الفائدة.

يحفظ الدراويش واليهود بعض المعرفة الدينية في الصحراء بين أولئك

---

(١) ينتمي أمير سلطان من جهة أمه إلى جلال الدين الرومي، وكانت له علاقات أُسَرِيَّةٌ بالسلطان العثماني بايزيد الأول الذي أسره تيمور لنك. وقد وقف على الحياد في أثناء الحرب. وهو أمير سلطان محمد شمس الدين بن علي بن برهان الدين بن أمير كلال، زوَّجه السلطان العثماني بايزيد الثاني بابنته، وكان أمير سلطان حفيد الأمير كلال؛ أحد الصوفية المشهورين. وكانت قبيلة كلال، التي تسكن قريباً من بخارى، تنسب كلها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

التركمان المتوحِّشين، كما حفظ النُّسَّاك النصارى الإنجيلَ في العصور الوسطى، في الأديرة، من تدمير الفانداليين، وكما حفظ النُّسَّاك في الحبشة حتى اليوم نُسَخاً من الإنجيل في أديرتهم، في الزمن الذي قام به الكالا[1] بإغراق بلاد أثيوبيا بجموعهم.

إن أمير سلطان، وشمس تبريزي، ومُلاًّ رومي، وحافظاً، وسعديّاً، والفردوسي، وأبا القاسم، هم دراويشُ لن تُنْسَى أسماؤهم إلا إذا تم تدمير العالم الشرقي وآدابه تماماً. والقضية نفسها بالنسبة إلى النُّسَّاك النصارى. وأحتاج إلى أن أذكر فقط أسماء توماس آ. كيمبس، وتوليروس، ولوثر، وجيرسون، وسيكستوس سينينس؛ فهؤلاء سيكون لهم ذكرى تدوم إلى الأبد.

كان هناك في القافلة فقير من باتنه، كان في حَجَّةٍ إلى روسيا، حيث يوجد مكان للحَجِّ خاصٌّ بالهندوس، وقد نسيت الاسم (المكان). وقد أخبر التركمان عن الأعمال التي يقوم بها الشعب البريطاني في هندوستان، وعن الجنرال ليك واللورد كلايف.

وأتى شخص آخر، من السِّنْد، وقال: «هناك الآن حاكم في السند اسمه اللورد نابيير، إنه مثل اللَّهب المُشتعِل؛ وقد دَحَرَ مئةَ ألف من البلوش بأربع مئة رجل». فصاح رجال القافلة هاتفين: «الله، الله، الله! سيأتون إلى هنا بالتأكيد؛ وإذا ما أتوا، فسوف نسلّم لهم في الحال، فنحن التركمان، لن نحاربَ الفئة الغالبة. نحن نخدم الأكثرَ قوة. ليكونوا هندوساً، أو مسيحيين، أو مسلمين؛ فأولئك الذين يمنحوننا الخلعات (ثياب التشريف) والتيلاه (الدوقات)، لذا نحن نخدمهم».

---

(١) الكاليون أو القاليون: هم قبائل من رعاة البقر والماشية في شرق أفريقيا، ويتميَّزون من الأفارقة بلونهم الأسمر الداكن وطول القامة واستواء الأنف وصغره وصغر الشِّفاه، وهم أقرب إلى الجنس الصومالي من الأحباش.

وقد أبدى خليفة مرو الملحوظة الآتية: «إن الله يكافئ على الاستقامة. والإنجليز أهل استقامة؛ لذلك فإن الله يكافئ استقامتهم. أما نحن التركمان فلُصوص؛ لذلك فإن الله غير راضٍ عنَّا».

لقد أمدَّ تركمان هذا المكان، وتركمانُ سَرْخَسَ، في السابق، ملكَ خيوه - كما يمدُّون الآن أمير بخارى - بالفرسان، ويطلقون عليهم اسم سوَّار، أو الأمان، وبالخيول والبِغال. وقد أَلْمَحْتُ إلى سِفر حزقيال، الإصحاح السابع والعشرين[1].

وقد صادفْنا كذلك بالقرب من هذا المكان خَرائِبَ مدينةٍ عظيمةٍ، تُسمَّى سلطان سَنْجَر؛ وحسب وصف السير جون مالكولم: هو ملك عاش في عام ١١٤٠ بعد الميلاد. وقد كان أعظمَ مَنْ في السلالة السلجوقية، ولكن التركمان تمكَّنوا في النهاية من دَحْرِه[2].

وتحدث خليفة مرو بإعجاب عن هولاكو خان، حفيد جنكيز خان، وابن تولوي خان؛ الذي زحف عبر مرو، وأخضع أوركنج، ثم بغداد في نهاية زحفه. وعندما عزم تركمان مرو على سَلْبنا، ذكّرهم، بصوت عالٍ، أن عملاً غادراً مثل هذا لم يرتكبْه حتى جنكيز خان. ومن الجدير بالمُلاحظة أن ابن الحاخام في مشهد من أولئك اليهود الذين أصبحوا مسلمين، وقد غَدَا تركمانياً.

وأبدى خليفة مرو ثقة كبيرة بي بأَنْ عَهِدَ إليَّ بالعناية بحاجٍّ من خوقند،

---

(١) يشير إلى ما ورد في سفر حزقيال، ٢٧ : ١٤ : «ومن بيت توجرمة بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». وتوجرمة لقب يُطلق على التركمان.

(٢) السلطان سنجر بن ملكشاه مشهور في التواريخ، حارب الغُزَّ، فأسروه، ولكنه نجا منهم فملكوا نيسابور، ثم ارتدعوا، ونصَّبوه سلطاناً عليهم، ثم استولى خوارزم شاه على ممالكه، وتوفي في سنة ٥٥٢هـ. انظر عنه: سير أعلام النبلاء ٣٦٢/٢٠ مع مصادر ترجمته.

كان في طريقه إلى مكة. وزارني ابنُ الخليفة، وقال: «إن دِل آسا خان قد تصرَّف بغَدْرٍ حيالك، ولكن اعلم أنه أطاع فقط أوامرَ سيده، آصف الدولة، الذي هو أكثر الرجال خداعاً في الوجود. لقد مرَّت ثلاث سنوات منذ أن وَعَدَنا بإعادة العشرين سجيناً من التركمان، ولم يفعل ذلك قط. ليس هناك ثقة بالقاجار (ويعني بهم أعضاء الأسرة المالكة لفارس)».

وعلى أية حال، ليس لديَّ سبب وجيه يجعلني أوافق ابن الخليفة رأيه فيما يتعلَّق بشخصية آصف الدولة؛ فقد تصرَّف معي على الدوام بلطف؛ فما من شك في أنه خائف من الإنجليز، وأنه يطمع أكثر في مساعدة من روسيا. وليس هناك شك كذلك في أنه سوف يعلن نفسه ملكاً على خُرَاسانَ بعد وفاة محمد شاه. وهو يكره الحاجي بمجامع روحه.

إن أفضل طبقة في التركمان هم أولئك الذين يتحدرون من قبيلة سالور، والذين زاروني، وقالوا: «عندما كان تود في هراة، وكان أبوت وشكسبير في طريقهما إلى خيوه، استعانا بنا بصورة متكرِّرة كي نزوِّدَهما بالمعلومات التي أعطيناها لهما طوعاً، لأن التركمان «بَروا نيدارند»[1]؛ ولا يهمهم من يخدمون، سواء أكانَ ملك بخارى، أم خان خيوه، أم بادشاه روسيا، أو دوَلت»، أي: السلطة، والتي يعنون بها إنجلترا. وواصلوا القول: «نحن نخدمكم إذا دفعتم لنا جيداً».

ودُهشت لملحوظة أن التركمان وأهل هراة يَعُونَ أن الحكومة البريطانية لم تقرَّ تود على مغادرة هراة؛ ولكنهم أكَّدوا لي جميعاً أن يار محمد خان كان سيعدمه لو أنه توقَّف هناك.

وأحضر لي أحد التركمان من قبيلة سالور في بيت كبير دراويش مرو -

---

(١) بروا نيدارند: دون خوف وتحايل.

ويسمونه: الخليفة - حِمْلَ جمل من البطيخ، لكنني رفضت قبوله؛ لأنهم في المقابل يطلبون هدية تعادل عشرة أضعاف القيمة.

وتشاور أمير ساروق وقاهر قولي سوياً، واعتزما أن يأخذاني ليلاً إلى منزلهما، ومن ثَمَّ اقتيادي على الطريق إلى خيوه، وقتلي هناك. فأخبرت الخليفة بذلك، فعيَّن حارساً طوال الليل بالقرب من غرفتي.

ولدهشتي العظيمة وجدت اثنين من اليهود في مرو قد اعتنقا الإسلام، وأصبحا تركمانيين اعتقاداً وممارسةً.

ومما يجدر التنبيه عليه أن يهود مرو يسمُّون سكان خيوه: فلسطينيين؛ ويعتقدون أنهم أحفاد الهيفيتيين القدماء. ويتداخل يهود خيوه بالتزاوج مع مسلمي خيوه، بينما يحتفظ كلٌّ بدينه، وهو ما يُعَدُّ دليلاً على أن التركمان والأوزبك - فيما يتعلَّق بدينهم، وفي وجوه كثيرة - أقل تعصُّباً من المسلمين في تركيا والبلاد العربية، الذين سيحكمون على الفور بإعدام كلٍّ من الزوج والزوجة. ويؤكد لي يهود مرو، وكذلك يهود بخارى، أن اليهود المقيمين في خيوه تربطهم علاقات حميمة جداً مع التركمان، ويشاركونهم كراهية ملك بخارى، ما يدفعهم دوماً إلى مساعدتهم في المعركة. ويمكن للمرء أن يسمع على الدوام من أهل خيوه، عندما يهاجمون العدوَّ، صيحةَ الحرب، باللغة العبرية: رابون شيل أولام! (يا إله العالم)، مختلطةً بالصيحة الخاصة بالتركمان: سَرْهنگ! (بطل أو شجاع)، أو: بسم الله الرحمن الرحيم! ويؤكِّد يهود مرو، وكذلك يهود بخارى، أن بني إسرائيل؛ من قبيلة نفتالي وزبولون؛ يتواجدون في الهندوكوش بين البلخيين، ويعيشون على السرقة؛ ويعرفون الهتاف: شاما يزرائيل! (اسمع، إسرائيل). وكان لدى جنكيز خان فيالقُ كاملةً من اليهود بين قواته.

كان جوزيف من تولختون - وهو يهودي من مشهد، ولكنه عاش بين التركمان في تولختون، مُتَمَتِّعاً بسُمْعة مقدسة - قد عاد إلى مشهد حالما وقعت

حـادثـة الله داد[1]، واعـتـنق الإسـلام، بعـدهـا أخـذ زوجـتـه وطفله، وذهـب إلى قندهار، وهناك رجع مرة أخرى إلى اليهودية.

ويزور اليـهـود خـيـوه، وخـوقندَ، وطـاشـقـندَ، وفي بعـض الأحـيـان الأسـواق والمعارض التابعة لمكارايف، وأورينبورج، وأستراخان في روسيا؛ كما يذهبون إلى لايبسك، حيث يُعرفون بأنهم بقايا قبائل بني إسرائيل العشر.

وقد أرسل إليَّ يهود خيوه، وخوقند، وطاشقند، وكذلك يهود هراة، كلمةً تفيد بأن لديهم رغبةً عظيمة في رؤيتي في تلك الأماكن؛ من أجل الحديث معي حول مجيء المسيح. وتحدَّث عدد من يهود هراة باحترام كبير عن الميجور رولنسون، والميجور تود، والأستاذ لوجين، الذي لم أسعد بمعرفته. ومن الغريب أن السير ألكسندر بيرنز أخبر يهود كابل بأنني مِتُّ، وأنه (أي السير ألكسندر) قد وقف على قبري.

ويوجد هنا عملات معدنية بنقوش عربية، من زمن السلطان سنجر، الذي يذكر التركمان العجائب عن ثرواته؛ ومن ذلك: عروشه الفضيَّة وتيجانه الذهبية التي تعد بالمئات. وقد هزمه سكان الخطا مرة؛ وكان يقيم في مرو، وحَكَمَ خيوه. وفي النهاية سجنه سكان الخطا، ولكنه هرب. وحتى الآن يروي الدراويش، بمَواوِيلَ شَجِيَّةٍ، أعمالَ سنجر.

ورغم المعاهدة المعقودة بين التركمان وآصف الدولة، فقد قتلوا، قبل أربعة عشر يوماً من وصولنا، أحد رُسُلِه، واسترقُّوا سبعة عشر فارسيّاً. وكان المساءُ الذي سبق مغادرتنا هذا المكان، هو المساءَ الوحيدَ الرضيَّ الذي أمضيته فيه. وقد تناول الخليفة العشاء مَعَنا، وتحادثت معه حتى منتصف الليل حول المجيء الثاني للمسيح، ويوم البعث. ولأنه كان قد أُخبر عن عزم التركمان على سلب قافلتنا، صاحَبَنا هو وابنُه الأكبر مدة يومين عبر الصحراء تجاه سَرَخْسَ، ثم تركنا في صحبة قبيلة تِكَّا الصديقة.

---

(١) انظر تفاصيل الحادثة فيما سيأتي صفحة ٤٢٣، ٤٢٤.

الفصل العشرون

قبيلة تكًا. الطريق: أولوغ بابا - سرخس. التركمان يسيؤون معاملة عباس قولي خان. التركمان يطلبون ثياب تشريف. الدكتور وولف يُجبَر على ادعاء الجنون ليحمي نفسه وعباس قولي خان. التركمان يطلبون الجزْية مرة أخرى. احتلال سرخس من عباس ميرْزا في عام ١٨٣٢م. خوجام شوكور يهدِّد بإعدام القافلة. الوصول إلى موسترون - ناصرية. آصف الدولة يهين دِل آسا خان. كاسكون، مشهد. المرض يستولي على الدكتور وولف. وصف لمشهد، حُكَّامها. خطاب من الكولونيل شيل، يعلن فيه عن منحة بمبلغ ثلاثة آلاف روبية للمهمة من الملازم آير. خطاب ثانٍ من الكولونيل شيل، يعلن فيه عن منحة للغرض نفسه من لجنة كابل للإغاثة بمبلغ عشرة آلاف روبية. خطاب من الكابتن دي آركي. الدكتور وولف لم يتسلَّم هذه المبالغ. خطاب من بنك أكرا، يعلن عن هبات إضافية من المناطق الشمالية والغربية للهند. خطاب من سكرتير جمعية كابل للإغاثة. خطاب ثالث من الكولونيل شيل. آصف الدولة يستولي على بيرجند. زلزال في كاين. العملاء الفرس لا يُؤْتَمَنون. استقبال لطيف في مشهد للدكتور وولف من حسين خان، ابن آصف الدولة. حسين خان يتمنَّى أن يعاقب دِل آسا خان. الدكتور يتدخَّل لصالحه بسبب أسرته. الدكتور وولف يتسبَّب في جلد عبدالله ووضعه في السجن. خطاب رابع من الكولونيل شيل. لطف المُلاَّ مهدي للإنجليز. نذالة أحد الألمان ويُدعى ديسكاو. ميرزا عسكري، إمام الجمعة، يزور الدكتور وولف ليلاً. مذبحة الله داد. اليهودي رحميم. خطاب الدكتور وولف ليهود مشهد.

ترتبط قبيلة تِكَّا، التي تحدَّثْنا عنها في الفصل السابق، بملك أوركنج أكثر من ارتباطها بأمير بخارى؛ لذلك فإن أهل مرو لا يَجْرُؤُون على ملاحقتنا هنا.

ويجدر كذلك التنبيه على أن قبيلة تِكَّا مع قبيلة كورا تيمور، ظلَّتا مرتبطتين بسلطان سنجر سيِّئ الحظ حتى النهاية. وكان من سوء الطالع بالنسبة إليَّ أمرٌ واحد؛ هو أن عدداً من أفراد قبيلة تِكَّا تفاهموا سِرّاً مع النائب عبدالصمد خان؛ بحيث لو حان وقت إجبار هذا النذل على الهرب من بخارى، فإنه لن يجد ملاذاً فقط بين تركمان تِكَّا، ولكنه سيجد كذلك أشخاصاً - وخصوصاً أحد الخانات، واسمه ساعت - سيساعدونه في هربه. ويعرف هؤلاء التركمان من تِكَّا أن عبدالصمد خان هو عدو لي.

ذهبنا من تِكَّا إلى مخيَّم آخر في القبيلة نفسها، يسمُّوْنه: أولوغ بابا، ومن بعدها وصلنا إلى سَرْخَسَ. وقد عاملوا عباس قولي خان بسوء بالغ، ما جعل الرجل المسكين ينفجر باكياً، ويقول: «إذا ما رجعتُ إلى فارس، فسوف أقوم بزيارة (حَجٍّ) إلى قبر الإمام الحسين في كَرْبلاء؛ ومنها سأذهب إلى مكة والمدينة، وسأمكث هناك مع زوجتي وطفلي».

وعند وصولنا إلى سَرْخَسَ، طلب التركمان مني ومن عباس قولي خان خلعات (أثواب التشريف)؛ ولم يكن معي منها شيء، ما عدا تلك الخاصة بكونولي، التي اشتراها هدايا للزُّعماء، وقد منحتُها لهم. فوجئت بقيام دِل آسا خان، بالاشتراك مع عبدالله، بتحريض الصِّبْيَةَ التركمان على الصياح استهزاءً بي وبعبَّاس قولي خان. وكما لو أنه هجم عليَّ الإلهام؛ خطرتْ لي فجأة فكرة ذكية بادِّعاء الجنون، من أجل أن أَحُولَ دون هجوم الغَوْغَاءِ علينا، فبدأت أرقص وأغنِّي الأغنية الفارسية:

خياله جامح، وعقله ذاهل،

من يرمي فكره على الله والأرض.

ولظنِّهم أنني مَمْسُوسٌ، صاحوا: «هذا دهلي»: «درويش ممسوس»، وتركوني وقد انتابهم الخوف.

إن الإقامة بين هذه القبائل، التي لا يحكمها قانون، أقنعتني، أكثر من ذي قبل، بأنه لن يكون هناك استبداد أسوأ من استبداد الغَوْغَاءِ. وليس هناك – في نظري – شأن يحمل الكثير من العواقب المميتة أكثر من سيطرةِ الحُشود والغَوْغَاءِ الجاهلة وغير المتحضِّرة؛ التي لا تحكمها دوافعُ سوى نَزَواتها المجنونة، إذ يقومون بعقاب الفضيلة بصورة متكرِّرة، ولا يفعلون ذلك للشر أبداً. أمّا أنا؛ فإن الحياة الهَمَجية، في نظري، ليس فيها سحر وافتتان؛ ودائماً ما وجدت الهَمَجية أكثر حقداً وخداعاً وقسوة مما وجدت في الحياة المتحضِّرة، مهما قيل من الأوصاف الجميلة عن فضائل الصحراء.

وما هي الهمجية نظرياً؟ إنها الانحطاط المخيف من مثال أكثر نقاءً، وليست، كما يُفترض بصورة خاطئة، الأصل المبكر للإنسان.

بل حتى في سَرَخْسَ، رغم أنها اسميّاً تحت حماية فارس، إلا أن التركمان احتجزونا مرة أخرى عدَّة أيام، مطالبين بدفع جِزْيَةٍ، فاضْطُرِرْنَا إلى أن نعطيَها لهم. وهنا حدث أمر مزعج؛ فقد قام رسول ملك بخارى إلى بلاط فارس: «سبحان الله بك»، وهذا هو اسمه، بالاتفاق مع مثيله الرسول المرسَل إلى إنجلترا؛ بالسماح لبعض زعماء التركمان بالقبض على الرقيق الذين اشتروا حرِّيَّتهم، واستِرْقاقِهم مرة أخرى. وبعد مناقشات مطوَّلة، تغلَّب عليهم بعض الزعماء التركمان بالتصويت. ولم أجد تركمانياً واحداً في سَرَخْسَ من أولئك الذين سكنوا ذلك المكان في عام ١٨٣٢م. ولكن كان هناك بعضُ معارفي القدماء في عام ١٨٣٢م لقيتهم في طريق ذهابي إلى بخارى، غير أنهم في عودتي كانوا قد رحلوا جميعُهم إلى يولاتان، بالقرب من مرو. وهكذا فإن تحرُّكات هذه القبائل غير ثابتة.

وكان عباس ميرْزا قد استولى على سَرَخْسَ بالطريقة الآتية:

في عام ١٨٣٢م؛ زحف بجيشه تجاهها، ثم أرسل كلمة إلى التركمان تفيد بأنه يودُّ أن يعقدَ معاهدة معهم؛ ولذلك يجب أن يرسلوا إليه زعماءهم. وعندما حضر الزعماء، تظاهر بأنه يتفاوض معهم، ثم أمر الجزءَ الرئيسَ من جيشه بالتقدُّم، وسرعان ما لحق بهم، وعندما اقترب من القلعة، اعترض طريقه جدول صغير؛ فنصحه الجنرال بوروفسكي اليهودي، بتحويل مجرى الجدول، وقد فعل ذلك، ومن ثَمَّ استولى على القلعة، بمساعدة ألف من الروس، بتوجيه بوروفسكي. وقد قُتل الجزء الأكبر من التركمان في المعركة أو اسْتُرِقُّوا. وهكذا، ولأول مرة، عانى التركمان النَّكْبَةَ نفسها التي أَنْزَلُوهَا بالفُرس؛ فمثلما قاموا في السابق باسترقاق الفرس في خراسان، قام عباس ميرْزا، باسترقاقهم بالمقابل، وكان ذلك عقاباً عادلاً لهم.

قبل وصول عباس ميرْزا، كان الخانات، بدافع من الحسد والسياسة، يمنحون أيَّ تركماني يقع في الأسر حُرِّيَّتَهُ، مقابل أن يدفع مبلغاً صغيراً من فِدْيَتِهِ. وهكذا كان عباس ميرْزا أول من عاقب اللصوص من التركمان عقاباً عادلاً. وأنا لا أطيق التركمان؛ فهم طمَّاعون فيما عند غيرهم، خَوَنَةٌ وغدَّارون، وفي الوقت نفسه جِنْسٌ غَبِيٌّ من الناس، إذ ليس لديهم مَقْدِرَةُ العرب أو الكُرْدِ. ويجب أن أضيف أن المُلاَّ مهدي، اليهودي من مشهد، ويهود سَرْخَسَ، كانوا عوناً لعباس ميرْزا في خداع التركمان حربيّاً. كما يجب أن أعترف بأنني متأسِّف لقيام حكومتنا بسَحْبِ القوة البريطانية، المكوَّنة من الكابتن شي، وخمسة من الرُّقَبَاء، حالما زحف عباس ميرْزا إلى سَرْخَسَ؛ فما الفائدة التي يمكن أن تَجْنِيَها الحكومة البريطانية من مناصرة التركمان على حساب الصداقة مع الفرس؟ إنها السياسة نفسها التي كانت تتَّبعها في السابق القُوَى الأوروبية فيما يتعلَّق بالدول البَرْبَرِيَّة. وأعتقد أن الوقت قد حان كي تتَّبع

القوى النصرانية خَطّاً من السياسة يتوافق مع المبادئ الأخلاقية، الموجودة في الإنجيل، ولا تتبع إجراءاتٍ مبنيةً على غَيرة مُتبادَلة. فهل ستقوم الحكومة البريطانية من أجل الله بتعيين رجالٍ مثل: السير ستراتفورد كانتج واللورد وليام بينتتك في كل مكان؟!

إن أقوى آقا سكال[1]، هو خوجام شوكور من قبيلة تِكَّا في سَرْخَس، المُتحالِف مع ملك خيوه. وقد هدَّد بضرب القافلة جميعها بِحدِّ السيف إذا لم تدفع له جِزْيَةً، بعد أن أخذها تركمان آخرون. وكان المكان مُنقسِماً بين هؤلاء المتحالفين مع بخارى، والآخرين المتحالفين مع خيوه.

غادرنا ذلك المكان المرعب، ووصلنا إلى موسترون. وهتفنا: «الحمد لله! فنحن على أرض فارسية». وتقع موسترون فوق رَبْوَةٍ، وبها قلعة أقامها هناك آصف الدولة صاحب خراسان؛ بغية مراقبة تحرُّكات التركمان؛ ومَنْعِهم من غزو خراسان، وقد وضع هناك خمسين جندياً من المروزيين، مع بعض قطع المدفعية. وعلى بعد حوالي عشر دقائق مشياً على الأقدام من موسترون توجد بئر ماؤها حارٌّ، ومن أغنى المياه بالمعادن. ولو أن هذا المكان بين أيدي إحدى القوى الأوروبية، لأمكن جعلُه أكثرَ المُنْتَجَعات جمالاً.

ومن هناك واصَلْنا السير إلى ناصرية؛ وهي مكان يحوي قرابة العشرين منزلاً، وتقع على بعد زهاء ستة فراسخ من موسترون. ويقطنها مَرْوَزِيُّونَ، كانوا في السابق على علاقة جيدة مع التركمان، وقد ساعدوهم على الاسترقاق في خراسان؛ غير أن آصف الدولة قطع رؤوس عدد منهم، ومن بعدها ثابوا إلى رشدهم، وتركوا تلك التجارة. وقد كان النذل دِل آسا خان زعيمَ مَرْوَزِيِّي

(١) آقا سكال: سيد القوم أو رئيسهم.

ناصرية، ولِغَدْره بي طَرَدَه آصف الدولة. ومن ناصرية تابعنا مسيرتنا إلى جاسكون؛ وهي قرية بها مئتا منزل، وقلعة قوية؛ ونمنا هناك ليلةً واحدة. وقد أتى المُلاّ مهدي، اليهودي، من مشهد ليرحِّب بي.

في اليوم التالي واصلنا المسير تجاه مشهد، عاصمة خراسان. وخرج كثير من السكان للقائي، وهتفوا قائلين: «الحمد لله أن عدتَ برأسك من تلك المدينة الملعونة! لقد سمعنا كيف عاملك أولئك الأنذال بصورة مُخجلة، النائب عبدالصمد خان ودِل آسا خان. لقد حلف آصف الدولة بالله وبالنبيِّ وبعليٍّ أن يحرق أبا دِل آسا خان وزوجتَه». وحال دخولنا مشهدَ المقدَّسَة، انتابتني نَوْبَة عنيفة من القيء. وقبل أن أذكر تفاصيل استقبالي في مشهدَ المقدَّسة، كما تُسمَّى، يجب عليَّ أن أقدِّم وصفاً موجزاً لذلك المكان.

كانت مشهدُ تُسمَّى في السابق طوس. وعندما قام ابن هارون الرشيد بتَسْميم الإمام الرضا[١]، سُمِّي المكانُ مشهداً؛ أي: مكان الاستشهاد[٢]؛ وهو أشهر مكان للحج عند الشيعة. ويأتي المسلمون من هذه الطائفة من جميع الأنحاء من أجل أداء عبادتهم عند قبر الإمام الرضا، الذي بُنِيَ عليه أفخمُ مسجد، وأُقيمتْ قُبَّته بأكملها من الذهب. ويزوره كلَّ سنة من عشرين إلى ثلاثين ألف حاجٍّ. ومشهد بلدة تجارية عظيمة، تروح وتغدو منها القوافل إلى هراة، وقندهار، وبخارى، وأصفهان، وطهران، وتبريز. وهذه البلدة تحت سيطرة ملك فارس، ولكنه لا يملك إلا القليل من التأثير فيها. وهي ليست

(١) صادف أن توفي علي الرضا والمأمون بطُوس، واتُّهم المأمونُ بأنه دَسَّ له السُّمَّ، ولكن لا يوجد ما يؤكِّد ذلك. (المترجم).

(٢) هذه فِرْيَة لم تثبت، وإن ردَّدها بعض المؤرِّخين، وبخاصة المؤرخون الشيعة.

فقط مكانَ دفن الإمام الرضا، ولكنها كذلك مكان دفن هارونَ الرشيد وابنه[1]، والشاعر الكبير الفردوسي، مؤلف شاهنامه؛ والفاتح العظيم مسلم بك[2] الذي وقف عند قبره تيمور وأدَّى صلواته. وكان تيمور لنك قد أخضعها لسيطرته.

ويُعدُّ الأشخاص الآتيون حكامَ المدينة الحقيقيين:

١- أللوير خان، آصف الدولة، أو نائب الإمبراطورية. وهو عمُّ جلالة ملك فارس.

٢- ميرزا عسكري إمام الجُمُعة، رئيس مسجد الإمام الرضا، وكبير ملالي البلدة.

٣- ميرزا موسى خان، المتولِّي، أي رئيس المسجد.

٤- ميرزا حاجي هاشم، أحد الموجِّهين للصلاة في المسجد.

٥- وزير الشرطة.

ويدير هؤلاء جميع الشؤون الداخلية في مشهد وما حولها حتى مدينة سمنان.

ومن أجل تقديم فكرة حول التأثير القليل الذي يتمتَّع به ملك فارس في مشهد، عليَّ أن أذكر بكل بساطة أنه بعد أن وقعت مذبحةٌ لليهود في مشهد، أرسل الملك مندوباً ومعه أمر يقضي بتسليم مُرتكِبي الجريمة، وإحضارهم إلى طهران؛ فعُصِيَ هذا الأمر!

ولدى وصولي التقيت علي محمد بك، غلام السفارة البريطانية في طهران، الذي كان موجوداً هناك، ومعه خطابات من الكولونيل شيل موجَّهة إليَّ؛ وكذلك خطابات من الهند تفيد أنه قد تمَّ جمع ثلاثة آلاف روبية من أجل مهمتي، لكنِّي لم أتسلَّمها قط.

وحول هذا الموضوع أضمِّن الرسالة الآتية من الكولونيل شيل:

---

(١) نعم؛ توفي هارون الرشيد في طوس (مشهد)، غير أن المأمون توفي في طرسوس.

(٢) يعني أبا مسلم الخراساني. (المترجم).

طهران ١١ أغسطس ١٨٤٤م

عزيزي الدكتور وولف، كان هناك أحد المبعوثين على وشك الانطلاق إلى مشهد، وقد سُمح لي بوقت يكفي فقط لأن أخبرك بأنني تلقّيت خطاباً من الكابتن آير، يخبرني فيه أن هناك ثلاثة آلاف روبية تحت تصرُّفك. وبإمكانك السَّحْب على حسابي بهذه القيمة؛ ولكن أرجوك، بصورة خاصة، أن تفرق في حوالاتك المختلفة على أي حساب تسحب منه؛ وهذا أمر ضروري بالنسبة إليَّ لاسترداد المبلغ.

لقد أخبرت آغا أبا القاسم أن يسلِّمك هذا الخطاب عند وصولك إلى مشهد؛ حيث إنني لم أستطع المغامرة بتعريضك للخطر بإرسال الخطاب إلى بخارى.

مع أطيب تمنياتي، وصدِّقني بأنني المخلص لك جداً.

جوستين شيل

لا أستطيع التعبير عن شكري لما لقيته من المُلازم آير من لطف بالغ، حيث إنني أُحِيلُ إليه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، الخطاب الآتي من الكولونيل شيل:

طهران الأول من يونيو ١٨٤٤م

سيدي، لي شرف تقديم خطاب خاص بك، تسلَّمته على عنوانك من الكابتن دي آركي، سكرتير لجنة صندوق بومباي كابل للإغاثة، والذي يضع تحت تصرُّفك، لأغراض معيَّنة، مبلغ عشرة آلاف روبية (١٠٠٠٠ روبية). وسوف تلقى حوالاتك عليّ بالمبلغ أعلاه، الذي لا يتعدَّى ألفي تومان، (٢٠٠٠ تومان) العناية المطلوبة. علاوة على ذلك، فقد طلبت من آغا أبي القاسم، وهو أحد التجار في مشهد، وأنت على معرفة به، أن يساعدك في إيجاد مشترين لحَوَالاتك، وأن يدفع حساباتك المسحوبة عليه. وعلى أية حال، يجب أن تتجنَّب سحب مبالغ كبيرة

على هذا الشخص من دون اتصالات مُسبَقة، فربما تكون موارده المالية غيرَ كافية لدفع مبالغ كبيرة.

وإذا ما قمت بالسحب على حسابي للأغراض التي ذكرها دي آركي، فأرجو أن تتذكّر بوضوح ضرورة البيان، في حوالات الحساب، أنها مسحوبة على حساب لجنة صندوق بومباي كابل للإغاثة؛ فإنَّ إغفال هذه النقطة سوف يعرِّضني لوضع غير ملائم.

وأنقل إليك كذلك خطاباً من سكرتير اللجنة العامة لصندوق كابل للإغاثة، الذي يفوِّضك بالسحب على حساب اللجنة الفرعية مبلغ عشرة آلاف روبية (١٠٠٠٠ روبية). وأميل إلى التَّخمين بأن حساباتك المسحوبة على تلك الجمعية غير قابلة للبيع في تركستان، أو حتى في مشهد، ولا أعلم إذا ما كانت اللجنة قد اتَّخذت أيَّ ترتيب مناسب لمدفوعاتهم؛ ولذلك أعتقد أنه من الضروري، في حال الحاجة، أن تسحب على حسابي بالمبلغ المذكور أعلاه، بحيث لا يتعدَّى ألفي تومان (٢٠٠٠ تومان). وقد طلبت كذلك من آغا أبي القاسم أن يمدَّ لك ما في وُسعه من عون في تسوية حَوالاتك. وسوف أكتب إلى سكرتير الصندوق العام للقيام بترتيبات لدفع فواتيري المقابلة.

وإذا ما قمتَ بالسحب عليَّ على هذا الحساب، سأكون مُمْتَنّاً لك أن توضِّح بدقَّة في القائمة أنها على حساب اللجنة العامة لصندوق كابل للإغاثة.

لقد أرسلت هذه الخطابات إلى المُلاَّ مهدي، وكيلك في مشهد، موجِّهاً إياه أن ينقلها إلى مرو لخادمك رجب. غير أني أخبرت مُلاَّ مهدي بألاَّ يرسل هذه الخطابات إلى بخاري؛ لأنها مهما كانت نافعة إن تسلمت إياها في تلك المدينة، فإنني أخشى من تعرُّضك لما أعتقد أنه سيكون خطراً كبيراً، وذلك بجعلك عُرْضةً لشكوك الأمير. ولي الشرف في أن أكون، يا سيدي، خادمك المتواضع والمطيع.

جوستين شيل

وأُضمِّنُ كذلك الخطاب اللطيف للكابتن دي آركي الموجَّه إليَّ:

بومبي التاسع عشر من مارس ١٨٤٤م

عزيزي الأستاذ وولف، يسرني أن أرفق خطاباً إلى عنوانك من سكرتير اللجنة العامة لصندوق كابل للإغاثة في أومبالي. وفي الوقت نفسه، فقد وجَّهَتْني لجنة صندوق بومبي كابل للإغاثة لأضع تحت تصرُّفك مبلغاً إضافياً بـ (١٠٠٠٠ روبية) عشرة آلاف روبية؛ لكي يُمكِّنك من تدبير إطلاق سراح أيِّ أسير رقيق من مواطني بريطانيا قد يكون ما يزال في أفغانستان أو الدول المجاورة، أو قد يكون أعجزَتْه الجروح أو الأمراض التي أصابتهم خلال التراجع الكارثي لجيشنا في عام ١٨٤٢، عن العودة إلى بلدهم الأصلي.

وقد طلبتْ حكومة بومبي من المبعوث في البلاط الفارسي، الكولونيل شيل، أن يصرف حَوالاتِك بالقيمة المذكورة أعلاه؛ كما طلبت منه، عند إرسال هذا الخطاب، أن يوجِّهك حول الموضوع، ويشير إلى الأسلوب الذي من خلاله يمكنك أن تسحب على حسابه المبلغ بأكثر السبل راحة لك.

عسى أن يحفظك الله العظيم في جهودك الإنسانية، وهي دعوة المخلص لك جداً، يا سيدي العزيز.

جورج دي آركي

سكرتير صندوق بومباي كابل للإغاثة

وأضيف كذلك المراسلة الآتية من سكرتير لجنة صندوق كابل للإغاثة، الملمح لها في الخطاب السابق:

مخيَّم أومبالي، الثالث من مارس ١٨٤٤م

سيدي العزيز، إن اللجنة العامة لصندوق كابل للإغاثة آخذة في الحسبان الجادِّ قضيةَ الرعايا البريطانيين الكثيرين، الذين لا بد أنهم ظلوا في أفغانستان والدول المجاورة، سواء بسبب كونهم أرقَّاء، أو لعدم قدرتهم على

المغادرة؛ واعتبارهم ممَّن يُقاسُون من جراء التراجع الكارثي للقوة البريطانية في عام ١٨٤٢م، قد قررت تخصيصَ جزءٍ من أموالهم الباقية للعمل على إطلاق سراحهم وعودتهم إلى بلدهم. إن أهدافهم مضمَّنة في القرار المرفق، المؤرَّخ في الحادي والعشرين من الشهر المُنصرم.

وقد قامت اللجنة على مَضَض بتحديد مقدرتكم على السحب عليهم إلى عشرة آلاف روبية. وكان غرضهم من هذا التحديد هو الإبقاء على جزء من أموالهم لتوفير حاجات أولئك الذين ربما لا يتمكَّنون من عون أنفسهم بسبب إعاقتهم البدنية، والذين ربما لا يكون لهم حق المطالبة بالتقاعد من الحكومة؛ ولكن بينما هم هكذا يقيدون من مصروفاتكم، فإنهم يأملون بشوق أن يكون في وُسعك أن تقوم بمثل هذه الترتيبات التي قد تمكِّنهم، إذا سمحت أموالُهم، أن يكملوا أعمالهم، بضمانٍ مُرْضٍ، بحيث لا يأسى شخص واحد ممَّن له حق في المواساة البريطانية في الأسر، أو أن يتعرَّض للتسكُّع في شوارع بلد أجنبي بصفة شحاذ أو منبوذ.

ونتوسَّل جدِّياً تعاونَك الحميم، والذي من المشاعر التي استحثَّت مهمتك الحالية، نحن نتطلَّع إلى أن نحظى به، ونودِّعك بحفظ الله الكريم، وصدقني بأنني، يا سيدي العزيز، المخلص لك.

جي. ريتشاردسون

سكرتير عام لجنة صندوق كابل للإغاثة

الحادي والعشرون من فبراير ١٨٤٤م

تقرير: يجب أن يُكْتَبَ خطاب من طريق المندوب في بلاط فارس إلى الموقَّر الدكتور وولف، ويُطْلَبَ منه أن يجهد نفسه في إطلاق سراح أي هندوستاني وآخرين، كانوا مؤخَّراً في خدمة بريطانيا، وإعادتهم إلى الهند، إضافة إلى الذين لم يتمكَّنوا من المغادرة بسبب جروح بدنية، أو بسبب الاسترقاق، وأن

يُفَوَّضَ بالسحب على حساب اللجنة الفرعية لهذا الغرض إلى حدٍّ عشرة آلاف روبية. علاوة على ذلك يُطلب منه أن يرتِّب جميع الدفوعات لهذا الغرض اعتماداً على وصول عاثري الحظ الذين يقاسون إلى بيشاور؛ وإذا كانت الوسائل الموضوعة تحت تصرُّفه ليست كافيةَ في تحقيق إطلاق سراح وعودة كل من يمكن أن يلتقي بهم، يُلتمس منه أن يقوم بترتيبات قد تُعِينُ اللجنة، إذا ما سمحت بذلك وسائلهم، لمَدِّ يد العون للآخرين.

جي. ريتشاردسون

سكرتير عام اللجنة

أعتقد أنه من الحق أن أضيف أنني لم أتَلَقَّ شيئاً من صناديق هاتين اللجنتين، اللتين ربما حوَّلتا المبالغ منهما إلى إنجلترا أو فارس. وبشكل مستقلٍّ عنهما، تسلَّمت من بنك (أكرا) ١٢٩جنيهاً إسترلينيّاً و١٥ شلناً و٤ بنسات، حُوِّلتْ على أصحاب البنك الذي أتعامل معه؛ السادة دروموند. وعنها أُضمِّن المستند الآتي:

بنك خدمة أكرا المتحد:

العاشر من مايو ١٨٤٤م

سيدي، يسعدني أن أخطركم عن إرسالي هذا اليوم إلى السادة دروموند وشركائهم، تقاطع تشارينج، حَوَالة بـ ١٢٩ جنيهاً إسترلينيّاً و١٥ شلناً و٤ بنسات، وهذا المبلغ من اشتراكات ضباط وآخرين في المناطق الشمالية الغربية من الهند لمساعدة الهدف الخيِّر الذي قمتم به. ونزولاً على اقتراح الملازم في. آير، جعلنا هذا المبلغ مُمكِنَ الدفعِ للكولونيل شيل نيابةً عنكم. ولا شك أنه سوف يتمكَّن من التشاور معكم حول أفضل السُّبل لتحويله. وأظلُّ المخلص لكم.

إتش. دبليو. آي. وود

مساعد سكرتير الجمعية

أشعر بأنني مدين جداً للكولونيل شيل لتوصيله بسلام كل هذه الإشعارات، والرسالة الاحترازية الآتية الحسنة التوقيت:

سيدي العزيز، كأمر احترازي، وخشيةً من أن يطول احتجازك في بخارى استناداً إلى ذرائعَ أخرى، فقد أرسلتُ خطاباً من الشاه للأمير بخصوصك، يُسلَّم عند الضرورة، من آصف الدولة إلى بخارى. وعلى أية حال، أثق بأن ذلك لن يكون مطلوباً، وبأنك الآن داخل حدود فارس. سيرضيني جداً سماع هذا الخبر؛ لأنني حتى ذلك الوقت لم أتحرَّر من القلق عليك.

وصدِّقني، سيدي العزيز، أنني المخلص لك جداً.

جوستين شيل

لقد ذهب آصف الدولة للتوِّ إلى مُقَاطَعَةِ كاين، في مدينة برْجَند، ويسمِّيها بعضُ الرحَّالة كذلك: بُورْجَند. وقد كان أمير أسد الله خان، صاحب كاين أو بورجند، الخانَ الوحيد الذي رفض التسليم لعباس ميرْزا، ومن بعده لآصف الدولة؛ فزحف آصف الدولة إليه عندما كنتُ في بخارى، ونجح في الاستيلاء على المقاطعة، وبورجند العاصمة. وقد تسبب زلزالٌ وقع هناك في مقتل آلاف من أهل كاين.

والآن، لتقديم فكرة حول قلَّة الوثوق بالفرس في العمل بوظيفة عملاء، يجب عليَّ أن أبيِّن الحقيقة الآتية: فور وصولي إلى مشهد، أتى إليَّ آغا أبو القاسم؛ الذي كان وقتها عميلاً للكولونيل شيل، وكنت وقتها مع مُلاَّ مهدي، ويحيط بي عدد كبير من اليهود، أو ما يسميهم المسلمون الآن: إسلام جديدة، (مسلمون جُدُدٌ). مثلهم كمثل اليهود في إسبانيا الذين أُجبِروا على التنصُّر، وسُمُّوا نيوفي كرستياني (مسيحيون جدد). والآن أحضر آغا أبو القاسم معه أحد السادة، وقدَّمه إليَّ على أنه عميل سرِّي أرسله الكولونيل شيل لمراقبة تحرُّكات آصف الدولة. وأخبرني كذلك أن أخاه (أخا السيد) كان قد أرسله

الكولونيل شيل إلى كاينٍ لمراقبة آصف الدولة هناك، على أن يرفع إليه تقريراً عندما يَعتزِم آصفُ الدولة مهاجمة هراة. وقد أخبرني أنه عميل سري للكولونيل شيل، بحضور عشرين من اليهود والكثير من المسلمين، وقال: إنني أعلم أنه مُستخدَم من الكولونيل شيل.

ويجب ألاَّ ننسى كذلك الحادثة الآتية: فقد أرسل أحدُ الزعماء التابعين ليار محمد خان في هراة - وقد أُنسيتُ اسمه - رجلاً إلى الكولونيل شيل، ومعه خطاب، وبعض الهدايا. وقد أعطى الكولونيل شيل الرجلَ خطاباً موجَّهاً إلى الزعيم التابع ليار محمد خان، وهديةً، هي منظار مقرِّب. فأتى الرسول إليَّ، ورغب حقيقةً في أن يبيعني المنظارَ المقرِّب المسلَّم له من الكولونيل شيل؛ لكي يوصلَه إلى رجل يار محمد خان، المدعو ميرِّزا نوجوف خان؛ ورغم أن الرجل عاد من طهران إلى مشهد عندما وصلت إلى مشهد في طريقي إلى بخارى، إلا أنه لم يتابع مسيرته قط إلى هراة، وإنما مكث في مشهد عند عودتي، ولم يوصل خطاب الكولونيل شيل أوالمنظارَ المقرِّبَ.

ولأن آصف الدولة لم يكن هناك، فقد استقبلني ابنُه حسين خان بلطف بالغ، وسلَّمني خطاباً من والده، الذي قدَّم ألف اعتذار لإرساله رجلاً مثل دِل آسا خان معي، ورغب إليَّ أن آمر بأي عقوبة أحب أن تُتَزَّلَ عليه، كما أمر بتقييده مباشرة بالحديد؛ غير أني رأيتُ دِل آسا خان له زوجة وأطفال، فتدخَّلت للعفو عنه؛ ولكنني جعلتهم - في المقابل - يُكَبِّلون خادمي عبدالله بالحديد في الحال، ويَجْلدونه ويُدخلونه السجن مدة أربعين يوماً؛ إذ كان قد هدَّد بملاحقتي، وأنه لن يستريح حتى يحقق التعهُّد الذي قطعه لعبدالصمد خان بقتلي، مضيفاً: «الله يحرق والد عباس قولي خان! لعنايته واهتمامه المُفرط بالكافر، الأمر الذي حال دون قتله في الطريق».

وقد وصل إليَّ هنا الخطاب الآتي من الكولونيل شيل:

عزيزي الدكتور وولف، إنني مُغتبِط من قلبي لعلمي بوصولك إلى مشهد، وقد ارسلت غلاماً مخصوصاً لمرافقتك إلى طهران، واوصيك بأن تفترق عن رفاقك وان تأتي معه بأسرع ما يمكنك. واستنتج، من حالتك الصحية، انك لا تعتزم السفر تجاه الشرق. صدِّقني بأنني المخلص لك جداً.

جوستين شيل

إن حامِلَه معه خطاب موجَّه إلى حسين خان، فيه توجيه له بأن يرسلك إلى طهران. وقد اتخذت هذا الإجراء الاحترازي لكيلا يقوم الحاجي إبراهيم بمحاولة اعتراض سبيلك بسبب الحوالة الخاصة بالستة آلاف تيلاه. حَصَلْ الألفي تيلاه من عباس قولي خان دون إبطاء.

جاي. إس

ورغم أن هناك منزلاً مخصَّصاً لي من ابن الحاكم حسين خان، إلا أنني سكنت مع مُلاًّ مهدي؛ الذي أثبت دائماً أنه صديق لي وللشعب الإنجليزي أيضاً؛ وقد استعان بهذا اليهودي الحميم، الميجور رولنسون في قندهار، والميجور تود في هراة، خلال غزو الإنجليز أفغانستان، وقد عانى بصورة متكرِّرة بسبب حبه لشعبنا. ولكي أثبت ذلك أسجل الحقيقة الآتية: فقد أتى أحد الألمان، وأصله من هامبورج، واسمه دياسكو، من الهند إلى مشهد، متظاهراً بأنه سفير إنجليزي، فأقرَضَه مُلاًّ مهدي ألفاً ومائتي دوقات، فهرب بها النذل. وهذه الحقيقة يعرفها السير جون ماك نيل، والكولونيل فارانت، والكولونيل شيل، والحاكم العام للهند.

وعندما كنت في هذا المكان سألني اليهود: «لماذا لم يعرف أهلُ بلادهم القدماء عقيدة التَّثليث؟» فأجبت بأنه كان لديهم تَلْميحات ضبابية حَوْلَها؛ مثال ذلك: سِفْرُ إشعيا، الإصحاح السادس، عندما رأى النبيُّ مجدَ الربِّ في صورة شخص جالس على العرش العالي، يحيط به السيرافيم، الذين كانوا يغطُّون

وجوههم، وهتفوا: «قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ!». وبيَّنت لهم أن النبي قال إن المعبد الذي رأى فيه هذه الصورة امتلأ بالدُّخَان. وذكرتُ لهم كذلك أن صورةً مشابهة أُتِيحَتْ ليوحنا في باتموس؛ ولكن عندها كان السيرافيم المحيطون بعرش الواحد المقدس تغطِّيهم العيون، وهتفوا كذلك: «قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ!». وأخبرتهم أن كلا هذين الوصفين ينطبق على سِرٍّ واحد، والسر نفسه، أي الألوهية السَّرْمَدِيَّة، والتي مع ترديد القدسية المضاعفة ثلاثاً، تُعبَد في أشخاص ثلاثة سَرْمَدِيِّينَ. وأخبرتهم أن يلحظوا أن السيرافيم المحيطين بإشعيا قد غطَّوْا وجوههم، وأن الدخان وقتها حجب المعبد.

كان ذلك هو وصف الشعوب التي تتوقَّع الخَلاص؛ ولكن في الإنجيل كان كلُّ شيء نوراً؛ ولذلك فقد ظهروا مِلء العيون، (سِفْرُ الرؤيا، الإصحاح الرابع). وهناك قطعة مهمة جداً، لا يُنتبه إليها في العموم، حول التثليث، في سِفْرِ رومية، الإصحاح الحادي عشر، الفقرة ٣٦: «لأن منه وبه وله كل الأشياء؛ فله المجد إلى الأبد». فإن «منه» تُشير إلى القوة الخالقة للأب؛ «وبه»: توسط الابن؛ و«له»: كمال حياة الروح القُدُس. وهذه الروح المباركة توحِّد الابن مع الأب، كما توحِّد الأشياء المخلوقة مع الخالق. ولكن، بما أنها ليست منفصلة عن بعضها، فقد ختم بالقول: «فله المجد إلى الأبد».

زارني ميرْزا عسكري، إمام الجُمُعة، أو رئيس المسجد، في الليل، فقد كنت عَليلاً ولست على ما يُرَامُ. وقدم لي هديةً هي خاتم من الفَيْرُوز، وقال: «إن محمد شاه، ملك فارس، كان يشكُّ فيَّ بأني متحيِّز كثيراً لإنجلترا؛ ولذلك دعاني للمُثُول في طهران. فلبَّيت الاستدعاء، مع أنني أستطيع طرد القاجار - يعني: الأسرة المالكة الحالية لفارس - من مشهد متى ما رَغِبْتُ في ذلك». فرَجَوْتُه أن يحمي اليهود، ولا يدع المسلمين يضطهدونهم كل حين.

إن ميرْزا عسكري رجلٌ مُغرَم بالمال، فبعد أن تلقَّى قليلاً من التومانات من

إحدى الأسر اليهودية، ترك عدداً كبيراً منهم يهاجرون إلى هراة ويزدَ وطهرانَ، حيث عاشوا مرة أخرى كيهود. إنه أمر مثير للعواطف أن تنظر إلى يهود مشهد! فقد رأيت النساء العَجَائِزَ المسكينات يَتَجَوَّلْنَ باستمرار، ويَهْتِفْنَ: «الله داد! الله داد!»: (الله قد أعطى! الله قد أعطى!) وهو الهتاف الذي استخدمه أحد السادة المسلمين لإثارة العامة لقتل يهود مشهد.

عند وصولي الثاني، سمعت تاريخ مذبحة اليهود بتفاصيلَ أكثر اكتمالاً؛ لقد استقرَّ اليهود هنا لقرون قادمين من مدن قزوين ورشتَ ويزدَ. وكانوا يتميَّزون بنظافتهم، وجدِّهم وتذوُّقهم للشعر الفارسي. والكثير منهم تشرَّب - في الحقيقة - نظام المتصوِّفين الفُرس. وقد سمعناهم، بدلاً من التغنِّي بالترانيم اليهودية، يَتْلُون بتَلْحين حزين شعرَ حافظ والفردوسي وكتابات المَثْنَويِّ. وجمعوا ثرواتٍ عظيمةً، ولم يشغلوا أنفسهم باسترضاء سلطات مشهد بهدايا المناسبات. إلا أن ثراءهم أثار طمع أهل مشهد، الذين تَحَيَّنوا فرصة الاستيلاء على ممتلكاتهم. وقد فرضت الحادثةُ الآتية نفسَها؛ وهي التي مَكَّنَتْ أهل مشهد من الوصول إلى هذا الغرض:

ففي عام ١٨٣٨م قام المسلمون باحتفال بيرم (العيد). وفي اليوم نفسه قامت يهودية بذبح كلب، بناءً على نصيحة من طبيب مسلم؛ من أجل أن تغسل يديها بدم الكلب. وقد دعا أحد السادة المسلمين - الذي سمع بالخبر، والذي رفض اليهود من قبل تقديم هدية له - إلى اجتماع المسلمين كافة في مسجد الإمام الرضا، وخاطبهم قائلاً: (يا أهلَ محمَّدٍ وعليٍّ، لقد قام اليهود بالسخرية من احتفالنا بعيدنا بيرم، وذلك بالتَّضْحِيَةِ في يوم عيدنا نفسه بكلب. وسوف أخبركم الآن ما يجب فعله بكلمتين: «الله داد»، التي تعني «الله قد أعطى»). ففهموا هذا الإيحاء، وبينما كان آصف الدولة وميرزا عسكري، إمام الجُمُعة، وبقية رجال السلطة نائمين، صاح العامة: الله داد! ومع هذه الصيحة هجموا

على بيوت اليهود، وذبحوا خمسةً وثلاثين منهم، وسلبوا أملاكهم ونهبوها، وأنقذ البقية منهم حياتهم - ولكن ليس أملاكَهم - بنطق كلمة العقيدة الإسلامية[1]. والقليل منهم فضَّل الموت على الرِّدَّة. وقد ضرب المُلاَّ داود كوهين، الحاخام الرئيس والكاهن الأعلى للشعب اليهودي في مشهد، المثلَ الأول للرِّدَّة. ولا يزال العام الذي حدثت فيه هذه المجزرة يُسمَّى: الله داد، بين كلٍّ من اليهود والمسلمين. واليهود في السر يتقيَّدون بدينهم، ويُعلِّمون أطفالهم ألاَّ ينسَوْا حادثة (الله داد).

ويوجد هنا يهودي اسمه رحميم، عرفتُه في زمن سابق. ولم يكن متعلِّماً العلومَ اليهوديةَ فقط، وإنما كان عالماً بالأدب الفارسي كذلك، ومتبنِّياً تقريباً نظام الصوفيين. وعندما رأى اليهودَ يُذبحون بشكل جماعي، وسمع صرخة (الله داد) تُدوِّي، تحوَّل إلى الإسلام مع البقية، ولكنه بعد ذلك سرعان ما أصابه الجنون. لقد أصابته كلمة: الله داد! بالرعب؛ فهو يُمزِّق ملابسه، ويَجري في الشوارع، والكلمة الوحيدة التي يتلفَّظ بها هي: «الله داد!». وقد سألته قائلاً: «يا رحميم، لو أعطيتك طقم ملابس هل ترتديه؟ فقال: نعم». وأعطيته طقم ملابس. وفي اليوم التالي مزَّقها، صارخاً: «الله داد! عندما يُبنى مسجدي، فسوف ألبس الملابس، والآن: الله داد! الله داد!».

وعندما كنت مع اليهود في مشهد، حان الوقت الذي يحتفل فيه اليهود بيومهم الخاص بالكَفَّارة. وقد صَامَتِ العجائزُ المسكينات والشيوخ اليهود خِلْسَةً. وقام أولئك اليهود الذين كانوا من المُرْتَدِّين الحقيقيين إلى الدين الإسلامي، والذين اعتنقوا طوعاً ذلك المُعتقَد عن قناعة، قبل حادثة (الله داد)، بإخبار المسلمين أن اليهود المتحوِّلين في عام (الله داد) هم يهود في السِّرِّ. وعندما كنت معهم دخل خادم ميرْزا عسكري، إمامِ الجمعة، منزل أحد اليهود مساءً؛

(١) يقصد إعلان شهادة ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. (المترجم).

من أجل أن يستكشف ما إذا احتفلوا بمناسبة الكَفَّارة. وقد أُبْلِغْتُ بما حدث، فأرسلت إليه طالباً منه أن يغادر في الحال منزل اليهودي، فامتثل للأمر.

وفي صباح اليوم التالي كتبتُ إلى إمام الجمعة خطاباً حاداً، وأفهمتُه أن معظم القوى الأوروبية يهتم بحال اليهود، وأخبرته بأنه سوف يُخَلَّدُ اسمه إذا ما قام بحماية اليهود؛ وقد وعد بالقيام بذلك. ثم كتبت المُناشَدة الآتية إلى يهود مشهد، الذين قاموا بنسخها، وإرسالها إلى يهود هراة، ومازندران، ويزدَ، وهمدان، وأماكنَ أخرى. وكانت المناشدة على النحوالآتي:

إخواني الأعزاء، لقد عرفتكم قبل أربعة عشر عاماً - قبل أن تقع حادثة الله داد بزمن طويل -. وقد كنتم لطفاءَ معي، وقدَّمتم لي واجبات الضيافة؛ ولذلك فإن ما سوف أخبركم به لا ينبع من أي شعور بالعداء أو النية السيئة، ولكنه من شعور المحبة والاحترام، والتعاطف معكم. وما سوف أخبركم به هو أن لديكم شعوراً ضَئيلاً جداً تجاه الدين الحقيقي، ذلك الدين الذي يُعَلِّم الشاه، والحكيم والفيلسوف أن ينظروا عالياً إلى الخالق، سيد العالم، بثقة، مثلما ينظر الطفل الرضيع إلى الأم وهي تَبْرك على ركبتيها، والذي يُعلِّم الفيلسوف أن يهتف ببساطة الطفل: أبا، أيها الأب. إنَّ لديكم شعوراً ضئيلاً تجاه ذلك الدين الذي يعلِّمنا أن كلَّ ما هو حولنا صحراء إذا لم تتَّجه أرواحنا إلى السماء. أنتم مثل متصوِّفة الفرس، الذين يعبدهم الكثير منكم، دَرَسْتُمُ التاريخ والطبيعة من دون مَرْجِعيَّةٍ دينية، غافلين عن أن الطبيعة والتاريخ ليست سوى ألغاز لا يمكن حلُّها إلا بالمعرفة الدينية الحقة. أنتم تنغمسون في القصائد الحسِّيَّة لحافظ، ويوسف وزُلَيْخَةَ، وتنسَوْن موسى والأنبياء. أنتم خالون بالكامل من الإيمان؛ الذي هو العنصر الرئيسي للنشاط والمعرفة الإنسانية. أنتم احتقرتم موسى والنبيين، ومشيتم في طرق الوثنيين؛ ولذلك سلَّمكم الله لهم في نِقْمَتِهِ العادلة. وهؤلاء الناس هم أنفسهم الذين وضعتم فيهم ثقتكم كاملة، وكما

أخبرتموني أنتم، لم يكونوا فقط أولَ من تخلّى عنكم، ولكنهم نَهَبوكم أيضاً. لذلك عودوا إلى السيد ربكم بقلوب باكية، متألمة ونادمة. ابحثوا في الأناجيل، التي سوف تقودكم إليه، والذي رغم أن اليهود رفضوه - كما رفض إخوةُ يوسفَ أخاهم، وكما رفض بنو إسرائيل موسى في البداية، مع أنه كان ابنَ داود بحسب الجسد، وابن يهوه مبرِّرنا الأخلاقي من حيث الروح - فإنه هو الذي قاسى الآلام من أجل خطايانا، وَاحْتُقِرَ ورُفِض من الناس، وبُتَّ من أرض الأحياء؛ ولكن، بعد أن يحدث سقوط وسقوط وسقوط للإمبراطوريات، وسوف يُحْضِرُكُم في البَرَاري، وهناك سوف يناشدكم وجهاً لوجه، مثلما فعل مع آبائكم في بَراري مصر. تلك الأيام في مصر - أصدقائي الأعزاء، والأحداث التي وقعت في تلك الأيام - هي نموذج لتلك الأيام والأحداث التي ستقع عندما يعود يسوع الناصري، والذي هو الابن الحقيقي لداوود، للمرة الثانية ليخلِّص، ليس إسرائيل فقط، ولكن ليحقق كذلك كلَّ الوعود لغير اليهود أيضاً. وستقع حينئذ أحداث جسام في الحال؛ وقد عانيتم مقدِّمةً من الآلام التي ستحلُّ بكم في حادثة الله داد، حتى تَلتفتوا إلى من طُعنتم فيه وحزنتم عليه. وعندها سوف تدخلون أرضَ الميعاد[1]؛ ولكن يجب أن تتوبوا أولاً من خطاياكم، وتتحوَّلوا؛ لعل خطاياكم تُمحَى عندما تأتي أيامُ الانتعاش من حضور الرب.

أنصحكم، على أية حال، في البداية أن تكتبوا إلى السير موسى مونتيفيوري، الذي سيبذل كلَّ ما في وُسعه من مساعدة، من أجل أن يخرجَكم من حالتكم المُوجِعة الحالية.

جوزيف وولف

---

(١) وقد ألمح هذا اليهودي المتنصِّر أكثر من مرة في كتابه هذا بأن فلسطين هي أرض الميعاد والوطن المنتظر لليهود. فهو وأمثاله قد روَّجوا لهذه الفكرة ومهَّدو لها منذ سنوات عدَّة.

الفصل الحادي والعشرون

انشقاق بين المسلمين. سيد يؤكّد عدم أهمية الحج. الإمام الرضا يقتله ابن هارون الرشيد(١). محمد علي صرّاف يقوم بزيارة الدكتور وولف. الدكتور وولف يحمّله مسؤولية الإهمال في عدم توصيل خطابات السير موسى مونتيفيوري والسلطان. محمد علي صرّاف يُبرز خطاباً من الكولونيل شيل ليبرّر تصرّفه. تاريخ إعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي. نقاش حول عام ١٢٥٨ هجرية؛ ١٢٥٩ هو التاريخ الصحيح. الدكتور وولف يأسف لطول معاناة الضابطَين، ولكنه لم يستطع بعد أيّ تدبُّر الوصول إلى نتيجة غير عام ١٢٥٩ هجرية، ١٨٤٣م. سلوك الكولونيل شيل الغريب. خطاب من آصف الدولة. البعثات التنصيرية النصرانية. محطات لتلك البعثات يوصي بها الدكتور وولف في سمنان ودامغان ونيسابور ومشهد وحضرة سلطانية وطاشقند وشاماي ويارقند وكاشغر وايله والتبت وكشمير؛ وليس في بخارى في الوقت الحالي؛ وإنما في خوقند وكشمير ولاداك ولاسا، واللغات المطلوبة: العربية والفارسية والتركية والصينية والهندوستانية والعبرية والقالموقية. العلوم والفنون. السلوك المطلوب في المنصّرين. المنصّرون في الشرق. حوار بين الدكتور وولف وأحد الصّوفيين. أمير بك الداودي. الطريق: عسكرية، شريف آباد، قد مگاه، نيسابور، سبز وار. تقرير غريب ينتشر هناك، في الزيارة الأولى حول الدكتور وولف، يذكر أنه يبلغ من العمر مئتي عام، وأنه على دراية بجميع علوم الأرض. الدكتور يزوره في المرة الثانية حُشود. يتخيل الناس أنه قد تنبّأ بالهزّة الأرضية الحالية. الطريق: ماسانان، عباس آباد، ميان دشت، ميامي؛ الدكتور كورميك توفي في ميامي.

---

(١) انظر التعليق في صفحة (٤١٢).

وفاة عباس ميرْزا. مرض الدكتور وولف. نقاش بين سبحان الله خان والدكتور وولف. خطاب من الكولونيل شيل يُتسَلَّم في الطريق. الطريق: شاه رود، ده ملا، دامغان، دولت آباد، أغوان، سمنان، لازجرد، ده نماك، باه ده، قوش لاغ. الوصول إلى طهران. استقبال كريم من الكولونيل شيل. مسيو لي كومت سارتيجيز.

من الملحوظ أن المخالفين في العقيدة ينتشرون بكثرة الآن في الدين الإسلامي. وقد بدأ أحد السادة في مشهد يذكر في دروسه أن القرآن كافٍ جداً، وأن الحجَّ[1] (الزيارات) غير ضروري. ويُعَدُّ ذلك في مدينة الإمام الرضا العظيمة، عقيدةً غير عادية؛ فهذا الإمام هو الثامن في الأئمة الاثني عشر المُنحدِرين من ذرية محمد، وقد قتله ابن هارون الرشيد في مشهدَ، بعِنَبٍ مسموم. وإلى جانب الإمام الرضا، يوجد أبو مسلم مدفوناً؛ وهو أشرس الفاتحين في دين الإسلام؛ فكانت هناك صرخة قوية تقول بتبديع هذا السيد، غير أن ميرْزا عسكري حَمَاهُ. وبسببه يسود الآن شِقاق عنيف بين الشيعة في مشهد.

وعند عودتي زارني، مرة أخرى، محمد علي صرَّاف، وكيل الكولونيل شيل، وقد لمته لعدم نقله خطابات السير موسى مونتيفيوري وخطابات السلطان المسلَّمه إليه من الكولونيل. ولتعليل ما قام به، أطلعني على خطاب من الكولونيل شيل، كتب له فيه بوضوح ألاَّ ينقل الخطاب بواسطة رسول عاجل، ولكن في أي فرصة أخرى ينتهزها. ولا بد أن الكولونيل شيل لديه أسباب خاصة، لا أعلمها، في توجيهه بهذه التعليمات. وقد يكون مَالَ إلى القناعة بأن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قد أُعدِما في عام ١٢٥٨ هجرية، أو ١٨٤٢م.

---

(١) يقصد هنا حج الشيعة إلى مزاراتهم في كربلاء والنجف وغيرها، وليس الحج إلى بيت الله الحرام.

وسأقدِّم الآن تفاصيلَ إضافيةً حول هذا التاريخ محلِّ التساؤل. وقد قدَّم كلٌّ من النائب والملك التاريخَ: السرطان ١٢٥٩هـ، بعد أن أرسلت الخطاب الذي كتبتُه إلى لجنة ستودارت وكونولي بأمر من الملك، والذي جاء فيه ذكر هذا التاريخ، وكرَّر النائب عبدالصمد خان ١٢٥٩هـ مرة أخرى؛ ولكن في حساب الأشهر منذ وفاتهما يصبح الحساب عشرين شهراً، بدلاً من اثني عشر. وقد عددتها (الأشهر) على خَرَزِ السُّبْحَةِ، كما يفعل الفرس كافة. وعندها قلت: «إذا كان قد انقضى عشرون شهراً، فإن الحادثة يجب أن تكون قد وقعت في عام ١٢٥٨هـ، لأن ١٢٦٠هـ قد بدأ للتوِّ». فقال النائب عندها، بعد تفكير ومع شيء من التردد: «نعم، أنت مُحِقٌّ؛ وكلانا أنا والملك على خطأ».

وأعتقد أنه من المناسب كذلك أن أضيف هنا، أنه كان لدي انطباع بأن النائب كان راغباً في خلط الأمر؛ لأن ذلك قد يكون أمراً مهماً بالنسبة إليه. وعندما سألت كثيراً من الناس في بخارى حول التاريخ، من خلال سعادت والآخرين، ذكروا عام ١٢٥٨هـ. لذلك يمكن قول الشيء الكثير فيما يُرجِّح ١٢٥٨هـ، وقد كان ذلك هو انطباعي وأنا في وضعي القَلِق في طهران. غير أن حاجي إبراهيم، قَبْل وصولي إلى بخارى، أخبرني بشكل واضح أن خطاب اللورد إلينبورو وصل قبل إعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي.

والآن حَسَبْتُ في بخارى تاريخ ملحوظة السير آر. شكسبير، المصاحبة لخطاب اللورد إلينبورو، وقد كُتبتْ تلك الملحوظة، كما أتذكَّر جيداً، قبل عام فقط من وصولي. والآن، فإن حاجي إبراهيم لم يكن ليقول إن خطاب اللورد إلينبورو وصل قبل إعدامهما لو لم يكُن الأمر في الحقيقة كذلك. إضافةً إلى هذا، فإن عباس قولي خان قال لي - كما سيُرى بعد مغادرتي طهران، بشكل نهائي - إنهما قد أُعدِما قبل أحد عشر شهراً فقط من وصولي. وإلى جانب ذلك، فإن آصف الدولة، في طريق ذهابي إلى بخارى، أخبرني الشيء نفسه

كذلك. ولا يمكن إنكار أن عام ١٢٥٩هـ كان التاريخَ الصحيحَ؛ ومع أنني أعلم أن النائب لم يقم بإيصال خطاب اللورد إلينبورو إلى الملك، إلا أنني متأكد أنه تَسلَّمَه قبل وفاتهما، وكتمه، وذلك لخوفه من ارتداد عواقب الخطاب عليه.

وفيما يتعلق بادعاء عبدالصمد خان أن الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قُتلا قبل وصولي بعشرين شهراً؛ فإن تاريخ إعدامهما لا يتوافق في ذلك الوقت مع تصريح صالح محمد، الذي أكَّد أنهما قُتلا في يونيو ١٨٤٣م؛ فقد وصلتُ في الأول من أبريل ١٨٤٤م؛ والآن، بالعدِّ رجوعاً إلى الخلف عشرين شهراً، فإن ذلك يجعل التاريخ سبتمبر من عام ١٨٤٢م.

كنت أتمنَّى كثيراً لو استطعتُ الوصول إلى نتيجة مختلفة، فقد كان ذلك سيكون أكثر إرضاءً لمشاعر كثير من الأصدقاء الأعزَّاء المتألمين، لو علموا أن تَعَاسة سَيِّئَي الحظ اللَّذيْن قاسيا الآلام لم تمتدَّ طويلاً، وأن تقرير أخوند زاده كان دقيقاً؛ بما أن اثنين من الضباط البريطانيين قد تعرّضا لحالة تعذيب مخيفة جداً؛ جعلت لحم جسديهما ينفصل عن عظامهما بكتل كبيرة تنهشها الحشرات، مع المعاناة المخيفة، العقلية والبدنية، التي لا بد أنهما تعرَّضا لها بتلك العملية البطيئة من الطغيان المُرَوِّع الذي مُورِسَ عليهما بتحريض من عبدالصمد خان، ما يثير مشاعرَ عارمة من جانبي تُوشِك أن تدفعني إلى الجنون، بحيث لا أستطيع أن أثير حتى أقل المشاعر بين أولئك الذين يشاركونهما اللحم والدم.

وسيظل الأمر دائماً أحجيةً في نظري؛ فرغم أن الكولونيل شيل اعترف بأن عبدالصمد خان كان نذلاً، ورغم أنه كان لديه معرفة بالسلوك السيئ لحاجي إبراهيم (أخي عبدالصمد خان)، إلا أنه رفض أن يستمع إلى أي انتقاد له، وعندما نصحته بأن يحصل على معلومات كاملة عن سوء طباع عبدالصمد خان من ميرْزا عبدالوهاب، صب نقمته، في الحقيقة بطريقة فَظَّة ومهينة،

على عبدالوهاب. إن تقييمي لشخصية الكولونيل شيل سيتبناه تماماً أي إنجليزي يعرفه معرفة جيدة.

وعلى كل حال، فإن داء الكَبد وداء المفاصل، اللذيْن يعاني منهما، لا بد أن يكونا عُذراً لكلٍّ هذا. وقد تصرَّف تماماً عكس تصرُّف السير إس. كاننج في الشأن الآتي؛ فهو يعرف جيداً، كما يعرف عباس قولي خان، وأعرف أنا كذلك، كيف عاملني دل آسا خان بخِسَّةٍ، ولكنه لم يفكِّر لحظة واحدة في إنصافي، أو جعل آصف الدولة يعاقبه. وعلى العكس من ذلك، فعندما أخبرت السير إس. كاننج. أن الرسول الذي عُيِّنَ لمصاحبتي إلى إنجلترا من بخارى قد أخذ مني نقوداً وَشَالاً، فإنه كان سيُرغِمه على إعادة كل شيء إليَّ لو رغبت في ذلك.

وقد تسلَّمت الخطاب الآتي من آصف الدولة:

إلى الكبير في مقامه، سليل الأسرة العالية، الرحَّالة، صاحب العظمة والكرامة، زعيم الشخصيات العظيمة في الإيمان النصراني، صفوة (أتباع) المسيح اللامعين، فريد الأزمان، پدر[1] جوزيف وولف: عسى أن يدوم سروره وابتهاجه، وأن يحوز الرضا في الحصول على رغباته وأهدافه!

ليكن معلوماً لديكم، من الصداقة الزائدة، أنني كنت متلهِّفاً جداً وراغباً في رؤية ذلك الرجل العظيم؛ وقد حدث أنه عندما عاد من بخارى إلى البلد المقدس[2]، لم أكن موجوداً هناك، الأمر الذي كان مصدر أسف وخيبة أمل لي؛ ولكن بما أن ذلك الشخص الكبير أتى للبحث عن السلام وتعزيز الصداقة والتفاهم بين كلا الشعبين، فإنني مسرور للغاية ومُبتهج.

---

(١) بدَر: الأب، الوالد، كبير العائلة، وبدر هنا يُراد بها: الأب، والظاهر أنه يشير إلى الاصطلاح النصراني في تسمية القسس.

(٢) يريد هنا: مشهد.

وإذا كان ذلك يرضي الله، فإن ذلك الشخص العظيم، بعد رجوعه إلى موطن الحكومة، سيكتُب دائماً خطاباً عن أحواله إليَّ، حيث إنني مسرور بصداقته. سلام!

(ختم آصف الدولة)

عند هذه النقطة من رحلاتي رسمت التصوُّر الآتي حول بعثات التنصير النصرانية:

فخلال رحلتي إلى بخارى حاولت أن أستوثق أين يمكن إنشاء محطَّات تنصير جديدة، واعتقدت أنه لو يُرسلُ أطباء بميول نصرانية إلى داخل خراسان، فإنهم قد يكونون نافعين بصورة جليّة؛ لأنه منذ أن قام الجيش البريطاني بغزو أفغانستان، فإن أهل خراسان يبتهجون عندما يروْن أحد الإنجليز. وقد طُلِبَتْ مني باستمرار نُسَخٌ من الإنجيل؛ وفي مدن سمنان ودامغان ونيسابور ومشهد دُعِيتُ إلى حوارات مفتوحة حول الدين مع كبار الملالي. وفي الحقيقة، عندما غادرت البلد أرسل إليَّ كبير الملالي في مشهد هدايا من الفيروز، وقد أرسلتها من خلال الكولونيل شيل. وكانت كتابات المنصِّر السابق الأستاذ بفاندر الصادرة ضد الإسلام تُقرأ في مشهد ونيسابور بلهفة؛ ولذلك، فإنني أنصح بإرسال أطباء نصارى إلى سمنان، وشاروت، ومشهد؛ للعمل هناك بين المسلمين؛ وأن يُرْسَلَ مُبَشِّرون يهود إلى اليهود في مازندران. وقد أثبت الدكتور تومبسون في دمشق بصورة كافية - وهو الذي يزوره في بعض الأحيان ثلاثة آلاف شخص، كما أُخْبِرْتُ - مدى نفع الطبيب النصراني بين المسلمين.

ويوجد في خراسان عدة مناجم، ويتمنَّى آصف الدولة توفيرَ عمَّال تَعْدِين من إنجلترا؛ ولذلك فإنه إذا كان هناك بضعة أشخاص ممن يتحمَّلون المسؤولية، ويتقنون التعدين ويمكن إرسالهم، فإنهم سوف يثبتون نفعاً عظيماً.

ومن خراسان يمكن للمنصِّرين بكل سهولة أن يبسُطوا تأثيرهم، بمصاحبة اليهود، في صحارى سَرْخَسَ، ومَرْوَ، وأخول، وخيوه. وَسَيُسْتَقْبَلُ الذين يعملون على تنصير اليهود والمسلمين بحفاوة في مدن خوقند وحضرة سلطانية وتركستان وطاشقند؛ حيث إنه لا اليهود ولا المسلمون في تلك المدن شديدو التعصُّب أو غير متسامحين. ومن الجدير بالتنبُّه أنه في شاماي، في الصين التترية، وُجِدَتْ مستعمرةٌ من اليهود البولنديين، يَصِل تعْدادهم إلى ثلاث مئة أسرة، وسيرحِّبون بوصول الإنجليز، حيث أكَّد لي ذلك بعضٌ منهم، ممن التقيتهم في بخارى.

وتعد يارقندُ مدينةً أخرى؛ فإن وجود بعثة تنصيرية لليهود فيها، وكذلك للمسلمين، أمرٌ ذو نفع عظيم، وكذلك في كاشغر وإيله. وفي المدينة الأخيرة تقوم القوافل القادمة من روسيا بإيداع سلِعها؛ ومن هنا يمكن إرسال الأناجيل من خوقند، وطاشقند، وتركستان، وكاشغر إلى داخل التبت وكشمير. كما أن أهل التبت لهم إلمام بفن الطباعة؛ فلو أُرسل إلى تلك الأصقاع طابعون وفَنِّيُّو طباعة حجرية، فربما يكون ذلك في صالح الاتجاه نحو ترويج إنجيل المسيح.

وسوف يُطرح السؤال الآتي: «هل يمكن أن تُقام بعثة تنصيرية في بخارى؟» وأجيب بالقول: «ليس في زمن الأمير الحالي؛ لأنه طاغية كثيرالتقلُّب»؛ ورغم أن لديه رغبةً حماسيةً طاغيةً في معرفة كل شيء، ويقوم بجمع الغرباء حوله، إلا أنه لا يمنحهم حرية الرجوع إلى أوطانهم؛ ونتيجة لذلك، لا يذهب إلى هناك شخص محترم؛ ومادام عبدالصمد خان معه، فإن الأوروبيين سوف يموتون بالتأكيد. وعلى أية حال، فإن ابن الأمير يبشِّر ببعض الأمل في أن يكون رجلاً أفضلَ من والده. وعند وراثته العرش يمكن إنشاء مَقَرٍّ بعثة تنصيرية.

وتمثل الأماكن الآتية أفضلَ المواقع التي يمكن أن تُهيَّأ للبعثات الخاصة باليهود، والوثنيين، والمسلمين؛ وهي: خوقند، وكشمير، ولاداك، ولاسا. وستكون

اللغات الآتية ضرورية قَطْعاً: العربية، والفارسية، والتركية، والصينية، والهندوستانية، والعبرية، ولغة القالموق. وستكون العلوم والفنون الآتية مفيدةً كذلك: الطب، والفلك، والتاريخ المقدَّس والدنيوي، وصناعة الساعات، والهندسة. ويمكن للبعثات التنصيرية أن تقوم برحلات قصيرة من الأماكن المذكورة إلى القازاق والقرغيز، وكافر سياه بوش، وإلى قبائل نفتالي، وأَشير في جبال الهندوكوش.

وأعتقد أنه يجب على المنصِّر في هذه البلدان أن يلبس زيَّ درويش، وأن يسكن في كُوخ خارجَ البلدة، عندها سَيَتَجَمْهَرُ حوله الآلاف لسماع حكمته. ويجب أن يكون كريماً، ويقدم للغريب الخبز والشربات، ويَسْكُب على رأسه ماء الورد، ويهدي إليه وردة، ويسعده بأغنية العَنْدَلِيب. وإذا كان مُنْكَفِئاً في مزاج ذاته، فلن تقترب منه روح إنسان. ويجب أن يكون المنصِّر على غرار شاوفلر وكودويل، ودوايت، وبنيامين، وبيبودي، وجوناس كنج، وبليس، والدكتور كرانت، والدكتور ولسون، ودوف. ورغم اختلافي جذرياً مع هؤلاء الرجال فيما يتعلَّق بسلطة الكنيسة، إلا أنني أقدِّر إخلاصَهم، واجتهادهم، وطيبة قلوبهم، ومواظبتهم. فهم ليسوا على استعداد للتعلُّم من الآخرين فحسب، ولكنهم على استعداد أن يعلِّموا الآخرين ويتعلَّموا منهم كذلك.

أمّا إذا أُرْسِلَ منصِّرون من الكنيسة الأسقفية، فيجب أن يكونوا على شاكلة صديقي المتأخِّر، المأسوف عليه، القسِّ الأستاذ ليفز، القسيس المُلحَق في أثينا، أو القس الأستاذ هيل، وهو منصِّر أسقفي أمريكي في أثينا.

إن حقيقةً واحدةً سوف تسهِّل كثيراً توثيق الصلة الحميمة مع الكنيسة الشرقية، تكمن في الاتحاد التام في الرأي حول عقيدة الوجود الحقيقي، كما تعتنقه كنيسة إنجلترا. فإن جميع الكنائس في الشرق، دون استثناء، تعتقد

بالوجود الروحي الحقيقي لجسد المسيح ودمه. وقد قال لي البابا يويل، وهو الآن كاهن أبرشية الأرثوذوكس في القدس، في عام ١٨٢٩م: «إن الجسد الذي يدخل الغرفة، رغم أنها مغلقة، يملأ الكل في الكل؛ فلماذا لا يكون في وسعه، وهو الذي يداوي الأعمى بالطِّين، أن ينقل جسده ودمه الروحيين إلى المؤمنين؟». ويسمي النصارى السُّوريون في بلاد الرافِدَيْن السِّرَّ المقدسَ كذلك: «الحياةَ». فكيف تمَّ إقحام المسيح في السر المقدس؟! لا أعرف؛ ولكنني أعرف جيداً أن كلمة الله لا يمكن أن تَكْذِبَ، والتي تقول إنه جسد المسيح.

وكلمات قليلة إضافية لجمعيات التنصير: فإن ما أذهلني، في الغالب، أن الجمعيات التنصيرية لم تفكِّر قط في إرسال بعثات تنصيرية إلى سكان الصحراء، رغم أن ذلك يمكن فعلُه بكل سهولة.

أولاً: يمكن أن يحدث ذلك بكل يُسر في الصحراء حول جبل سَيْنَاءَ، وذلك بوضع منصِّر؛ إما في دَيْر سانت كاثرين، الواقع فوق جبل حوريب، حيث سيقدم إليه الرهبان الطعامَ والمَأْوى مقابل تعويض قليل؛ وإما بناء دار تنصير في القرية الصغيرة المسمَّاة طور إليم القديمة، والتي منها يمكنه القيام بزيارات إلى بدو العَقَبة.

ثانياً: يمكن وضع واحدة أخرى في السويس وقُصير.

ثالثاً: كما يمكن وضع أخرى في الكَرِك، حيث يوجد هناك استيطان نصرانيٌّ، وحيث كان أوريجن[1] يعلِّم الناس.

رابعاً: ويمكن كذلك وضع منصِّرين في اللُّحَيَّة، والحُدَيدة، والقُنفذة، وزبيد في اليمن، على ساحل البحر الأحمر.

---

(١) ١٨٥ -٢٥٤م: عالم لاهوتي نصراني، وفيلسوف، وناشر للإنجيل في لغات مختلفة. ولد في الأسكندرية.

خامساً: وحتى في داخل اليمن، بالقرب من مدينة الطائف، سيجد المنصِّر حمايةً من شيوخ الصحراء الأقوياء؛ حيث وَجَدَ صديقي السيد بوتا، القنصل الفرنسي الفعلي في الموصل، حمايةً كافية جداً منهم في بحوثه الفسيولوجية.

ويجب على جمعية نشر الإنجيل في البلاد الأجنبية، خصيصاً، أن ترسل منصِّرين إلى الأديرة القبطية والحبشية؛ على أن يُدْخِلَ هؤلاء المنصِّرون أعضاءً في النظام، وهكذا يحاولون إفادة رفاقهم الرُّهبان، من طريق المثال والكلمة. وقد أرسل فيليب ميلانثيون شباباً إلى روما، دخلوا في الدَّير الذي يَتَرَأسُهُ إغناطيوس دي لويولا[1]؛ من أجل تحويل النُّزَلاء إلى البروتستانتية.

ويجب أن يكون بعض المنصِّرين مثلَ جنود الحامية المُستقرِّين؛ وآخرون مثلَ الفرسان الخفيفين، يشابهون فرق القازاق، وهم دائماً مستعدُّون في وقت الإنذار والمفاجأة، يقدِّمون أنفسَهم عندما لا توجد هناك شكوك حول وجودهم. ويزوِّدنا الهتمان [زعيم قوقازي]، المشهور باسم بلاتوف، بمثال جيد على ذلك: فعندما افترض الفرنسيون أنه كان في هلبرشتات، كان في الحقيقة في بريسلاو، كما لو أنك تبحث عن «جزويتي»؛ وهي طريقة رهبانية؛ فعلى الرغم من طردهم من كل بلد متحضِّر أو بَرْبَرِيٍّ، إلا أنهم موجودون في كل مكان بصور متفرِّقة تقريباً. «ولا بأس من أن يتعلَّم الإنسان على يدي عدوه».

يجب عليَّ أن أعترف أنني لا أحب الأسلوب الذي يتبنَّاه المنصِّرون، فعند عودتهم من البلدان التي يعظون فيها، يملؤون آذان الناس في اللقاءات العامة بوصف الاحتفالات الخُرافية والمخيفة للوثنيين. وبدلاً من تِبيان أنه في صميم

---

(١) ١٤٩١ -١٥٥٦م: راهب إسباني من أصل نبيل. كان عسكرياً في بادئ الأمر، ثم جُرِح في إحدى المعارك، وكان ذلك سبب تحوله إلى الرهبنة. أسس الرهبانية اليسوعية (الجزويت) عام ١٥٤٠م. أُعلن «تقديسه» عام ١٦٢٢م. ترك عدة مؤلفات أبرزها: كتاب «الرياضات الروحية».

أكثر الخرافات سخافةً، يمكننا بسهولة أن نجد آثاراً من الحقيقة؛ وبدلاً من أن يروِّج المنصِّرون خرافات لا معنى لها، وجب عليهم أن يحاولوا أن يبيِّنوا للوثنيين أن حقيقة الكتاب المقدس مثبتة في رواياتهم الخاصة بهم. وهناك تلميحات للرواية المقدَّمة حول الإنسان الأول مثلاً، كما سُردت في شعر أوفيد[(١)]، الكتاب الأول، الفقرة ٧٦:

«ولم يكن هناك حيوان قادر على التفكير بصورة أرقى،
يمكنه أن يكون حاكماً على البقية. عندها وُجد الإنسان.
وسواء كان الخالق إلهاً، مصدر عالم أفضل، هو
مَنْ أوجد بَذْرَتَهُ من السماء، أم إن الأرض حديثة التشكُّل،
التي اشتُقَّت من السماوات العُلى، لا تزال تحوي شَظَيات لها علاقة
بالسماوات، وبذلك صاغها بروميثيوس[(٢)] مازجاً إياهم مع تيارات الأمطار،
في صورة الإله الحاكم كل الآلهة. وبينما تنظر الحيوانات الأخرى
أسفل إلى الأرض، مُنح الإنسان هيئةً مُنْتَصِبَةً للأعلى،
ورفع وجهه إلى النجوم.
وبذلك فإن الأرض - التي كانت قبل دقائق مضت، غير منحوتة
وليس لها هيئة - تغيَّرت وانتحلتْ هيئات الإنسان غير المعروفة».

ولذلك يجب على المنصِّرين أن يثبتوا للعالم الوثني أن المِنُو الهندي،

---

(١) بوبليوس أوفيديوس ناسو؛ شاعر روماني عاش ما بين ٤٣ قبل المسيح وسنة ١٨ بعده، وتوفي في مدينة تومس في رومانيا الحالية. كانت أعماله عظيمة الأثر في الآداب الغربية. من أشهر قصائده: فن الهوى *Ars Amatoria*، وقد تُرجمت أعماله إلى العربية مراراً. وهذا الشعر مُقتَبَسٌ من مجموعته الشعرية «مسخ الكائنات» أو «التحولات» *Metamorphoses*. وإن كان الاقتباس فيه مخالفة للأصل المنشور لميلر، وغيره، وترجمه ثروت عكاشة، ومن بعده أدونيس.

(٢) بروميثيوس: سارق النار من السماء (في الأساطير الرومانية) ومعلِّم البشر استعمالها.

والفوهي الصيني، والأوزيريسي المصري، والأُوانس الكلداني، والديوكاليون الإغريقي، والسَّتورنُوس الإيطالي، هم جميعاً شخص واحد؛ بل الشخص نفسه الذي كان مع نوح. وحتى في طقوس تقديم الضحايا البشرية، فإن عقيدة التوبة يمكن اكتشافُها. ويجب أن يبرهن المنصِّر للفُرس أن هؤلاء الرجال القدماء شغلوا أنفسهم بصورة عميقة في حلِّ أصل الشر. وقد درس زرادشت حالةً من البراءة البدائية، أدت - من ثم - إلى سقوط للإنسان.

وبينما كنت أدون الملحوظات السابقة، قرأت في «جيويش إنتليجنيسر» الصادرة في يونيو، الصفحة ٢٢٣، تحت العنوان «حَلَب» الفقرة الآتية: «وصل الكاهن الدكتور كيرنز إلى مركزه في يونيو الماضي. وقد كانت البعثة إلى اليهود شيئاً جديداً في حَلَبَ، فلم تكن فكرة تحويل اليهود قد دخلت في عقولهم أبداً».

والآن لو أن الناس راجعوا المجلَّد الأوَّل من كتابي «مهمتي إلى حلب» في أعوام ١٨٢٢-١٨٢٤م، وتقارير الجمعية اليهودية لتلك الأعوام، لأدركوا أنني وَعَظْتُ هناك، حتى قبل يوم واحدٍ من وقوع الزِّلْزال؛ ومرة أخرى في عام ١٨٢٤م عندما كنت أعيش حيناً مع القنصل العام الإنجليزي، وحيناً مع الأستاذ ماسيك، عندها كان لديَّ الآلاف من اليهود وغير اليهود؛ فلم تكن هناك محطة تنصير واحدة في الشرق الذي لم أَزُرْهُ. وقد وقع أمر غاية في الكراهة في حَلَبَ؛ وهو أنَّ أحد اليهود قُتل؛ لاعترافه بالمسيح في حضور اليهود. وبعد هذه الحادثة، وُجِدَ مذبوحاً في الصباح التالي.

وقد زارني أحد الصوفيين عندما كنت في مشهد، وقال: «يا يوسف وولف، هل تعتقد أن الدين ضروري للرجل الحكيم؟».

فأجبته قائلاً: «يا صديقي العزيز، إن الرجل الحكيم هو فقط من يشعر ويقتنع بأن الدين هو الوسيلة الوحيدة التي تُعِينُ الطبيعةَ العاجزة؛ وجميع الحكماء في كل عصر علَّمونا، بالإجماع، أن المعرفة التي تَتَّخِذُ من الأشياء

الدُّنيوية فقط هدفاً لها، لا تستحقُّ ذلك الاسم. وَاعْلَمْ أن الله يُجلِّي نفسه للقلب، ويحتجب عن أولئك الذين يبحثون عنه بعقولهم فقط؛ فالإيمان والطاعة لقوانين الله هما جَنَاحا الروح، اللَّذان بهما تتمكَّن من التَّحْليق لحضور الله؛ ومتى فسدت الطبيعة الآدمية وانحلَّت، اخْتَفَتِ المعرفة الإلهية.

الصوفي: ماذا تعتقد عن نبينا محمد ودينه؟

وولف: إن محمداً نبيٌّ من دون معجزات(1)، فهو نبي مُزَيَّفٌ(2)! ونظامه إيمان من دون أسرار؛ لذلك فهو ليس ديناً إلهياً؛ وأخلاق من دون حبٍّ؛ ولذلك فهي أخلاق شيطانية(3). إن النصرانية تَسْتَحْوذُ على القلب من أجل أن تجعله أفضل؛ أمَّا الإسلام فهو يستحوذ على القلب من أجل أن يجعله أَسْوَأَ.

بعد أن توقَّفنا في مشهد واحداً وعشرين يوماً، وصل غلام آخر من أجلي ومعه خطابات من الكولونيل شيل. وكان اسم ذلك الغلام أمير بك، وقد سبق أن اعتقلَه التركمان في عام ١٨٣٨م؛ لحمله مراسلات خاصة بالسير جون ماك نيل من الكولونيل ستودارت، في هراة. وحاول الهرب مرتين من خيوه؛ وفي المرة الثانية أعادوه، وقطعوا أذنيه من أصلهما. وفيما بعدُ اشتراه أبوت، وحصل على تعويض تَقاعُديٍّ من الحكومة البريطانية لفقده أذنيه. ولم يكن مسلماً، ولكنه داودي؛ أي

---

(١) كفى بالقرآن معجزة باقية إلى يوم الدين، وقد أتى محمد ﷺ بمعجزات في حينها، وأخبر بالكثير من الأشياء التي تحقَّقت. وهذا التجديف على الإسلام ونبيه لا منبع له إلا الحقد والحسد. (المترجم).

(٢) ليت شعري، كيف يكون محمد ﷺ نبيّاً مزيفاً، وقد بشَّر به عيسى عليه السلام والأنبياء قبله، وقد جاء ﷺ مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

(٣) بل إن الإسلام كله حب، وكله أخلاق، وكما قال الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق»، ولا نجد ديناً حث على المحبة بين أتباعه، وبين بني البشر كما هو الحال في الإسلام؛ ولكنه السُّخام الذي يرين على قلب المؤلف!

أحد المُنْتَمِينَ إلى طائفة تعتقد أن الملك داود كان إلهاً. وكان الغلام ذا نفع عظيم لي.

خرجْنا سويّاً مع عباس قولي خان والرسولَيْن البخاريين، والمُلاّ مهدي اليهودي، إلى طهران. وقد رافقَنا يهود مشهد والكثير من المسلمين إلى خارج البلدة.

توقَّفنا في اليوم الأول في عسكرية؛ وهي قرية تابعة لميرْزا عسكري، إمام الجمعة في مشهد؛ وتحتوي على قرابة عشرين منزلاً، وتبعد حوالي خمسة أميال إنجليزية من مشهد.

ومن هناك تابعْنا مسيرتنا إلى شريف آباد، المكان الذي أُجْبِرْتُ، قبل أربعة عشر عاماً، على أن أمكث فيه عدة أيام بسبب الهزارة المُتَجَوِّلينَ؛ وهم قبيلة مغولية تقطُن بالقرب من هراة، وقد غزت في ذلك الوقت خراسان من أجل استرقاق البشر. وتحوي شريف آباد الآن قرابة عشرين منزلاً، وتقع بين جبلين، وهي باردة المناخ جداً. وقد وصل رسولٌ من آصف الدولة إلى هناك للترحيب بي، وأهداني شَالاً. وقد دهش غاية الدهشة الرَّسولان من بخارى - ذلك الذي سيصاحبني إلى إنجلترا، والآخر الذي أُرسل إلى محمد شاه - من أن يُولِيني آصف الدولة هذا الاهتمام.

وواصلنا من شريف آباد رحلتنا إلى قدمگاه، التي تعني «مكان القَدَم»؛ حيث إن آثار قَدَمَي الإمام الرضا، وَلِيِّ مشهد وخراسان، لا تزالان تسترعيان النظر هناك؛ لذا فهي مكان مشهور للحَجِّ عند المسلمين[1]. ويُعَدُّ سكانُ ذلك المكان أحفادَ أسرةِ محمد؛ ولذلك لا تستطيع الحكومة أن تُجبِرهم على استقبال الغرباء؛ غير أنهم عاملوني في كلتا المرتين باحترام كبير وكرمِ ضيافةٍ، وتمنَّى كثيرون منهم عليَّ أن أرسل إليهم الإنجيل. وسألني عدد منهم بصورة جادة

---

(١) حج المسلمين الأوحد هو إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة. أمّا حجُّ الشيعة إلى مزاراتهم، وحج المتصوفة إلى قبور أوليائهم، فليس من الإسلام في شيء، ولا هو من فعل المسلمين المتبعين للكتاب والسُّنَّة.

قائلين: «متى سيأتي الإنجليز ويحتلُّون البلد؟». وتحوي قدمگاه قلعة قوية.

ومن قدمگاه وصلنا إلى نيسابور، التي تبعد عشرين ميلاً من المكان السابق، وتعد - بعد بلخ، في رأيهم - أكثر البلدات قِدَماً في العالم، وكانت في السابق مكانَ إقامة الملك. وهناك عدة مناجم حديد في هذا المكان. وقد دمَّرها تيمور لنك. على أنَّ الريف المحيط بها من أكثر المناطق جمالاً.

ومن هناك تقدَّمنا إلى سَبْز وار؛ التي تحوي تقريباً ستةَ آلاف من السكان، وأسواقاً كثيرة جيدة. وعندما كنت هناك في طريقي إلى بخارى، انتشرتْ شائعةٌ بأنني أَبْلُغُ من العمر مئتي عام، وأنني مُطَّلِعٌ على جميع العلوم على وجه الأرض؛ ولذلك خرج سكان البلدة بصورة طبيعية لإلقاء نظرة على هذه الأُعْجُوبة. وعندما أخبرتهم أنني أبلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً، أعلنوا أنني كَذَّابٌ أَشِرٌ.

وعلى أية حال، فعند وصولي الثاني، زارتْني مرة أخرى حُشود من المسلمين، ومن بينهم أحد كبار الملالي، الذي عدَّني نبياً؛ لأنني أخبرته، وأنا في طريقي إلى بخارى، بأنه، قبل مجيء سيدنا المسيح، ستحدث هناك هزَّات أرضية في خراسان وفي جميع أنحاء العالم. ولأن زلزالاً مُرَوِّعاً - قدَّمتُ له وصفاً - حدث حقيقةً، فإن ذلك عُدَّ جزءاً من تنبُّؤي. بل إن بعضهم أكَّد أنني بابا إلياس؛ أحد الدراويش المشهورين. ولم أعارض هذه الشائعات؛ لأن ذلك لا يُجْدِي. وتتغنَّى خراسان بمديح السير جون ماك نيل والسير جون كامبل.

ومن سَبز وار تابعْنا مسيرتنا إلى ماسانان، التي تضمُّ نُزُلاً جميلاً، قام ببنائه شاه عباس. وبها آبار رائعة، وهي مزروعة بشكل كَثيف. ولديهم هناك عدة مدافع لصدِّ التركمان، متى أتوا من أستراباذ لعمل شابو[1].

ومن هناك عبرنا إلى عباس آباد، التي يقطنها أحفاد الجورجيين، الذين

(١) شابو: أي سرقة الناس وبيعهم رقيقاً في الأسواق. (المترجم).

أحضرهم شاه عباس من تفليس؛ ويَحْظَوْنَ بالكثير من الامتيازات الخاصة بالمكان، وتؤكِّدها فَرَمانات من شاه عباس ونادر شاه وعباس ميرْزا ومحمد شاه. وهم الآن يَعتنِقون الإسلام، ما عدا خمس عشرة أسرة منهم، فهم في السِّرِّ نصارى.

بعدها تابعنا مسيرتنا إلى مِيانْ دَشْت؛ وهو مكان صغير قام ببنائه الملك الحالي لفارس؛ ومن هناك إلى ميامي؛ وهو نُزُلٌ جميل. وهنا تُوفي الدكتور كورميك؛ وهو رجل إيرلندي وطبيب كان مقرّباً إلى عباس ميرْزا. وقد كان رجلاً رائعاً، ولكنه غريب الأطوار؛ فقد تزوَّج إحدى النساء الجورجيات، زوَّجه إياها هنري مارتن المشهور. ومن الغرابة القول إنه لم يعترف مطلقاً بذلك؛ غير أنه بعد وفاته، قدَّمتْ زوجتُه شهادة من هنري مارتن، مُثبتة أنها زُوِّجَتْ له. وسكن الدكتور كورميك في تبريز مع عباس ميرْزا. وعندما زحف ميرْزا إلى خراسان، ترك الدكتور كورميك في تبريز؛ فلما رأى الأمير أن إقامته في خراسان ستطول، كتب إلى الدكتور كورميك للَّحاق به؛ فلبَّى أمره؛ غير أنه عقب وصوله إلى ميامي، أصابته حُمَّى عنيفة، قتلتْه في غضون اثنتي عشرة ساعة. وقد ترك قرابة عشرين ألف جنيه إسترليني لزوجته وأطفاله. وعندما أُبْلِغَ عباس ميرْزا بوفاة صديقه الطبيب، قال: «الآن انتهى كل شيء بالنسبة إليَّ؛ سَأَتبَعُهُ قريباً»، وتوفي سمُّوه بالفعل بعد أسابيعَ قليلة.

وخلال رحلتنا إلى طهران كان سبحان الله خان رسولُ ملك بخارى إلى محمد شاه، يأتي كلّ يوم إليَّ، حيث اتَّخذْتُ مأوًى بعيداً من الآخرين؛ لكوني نافراً من رؤية أي شخص. كان عقلي تستبدُّ به الكآبة والانقباض. وكنت أخضع للحجامة يوماً بعد يوم تقريباً، وتناولتُ دواءً في خراسان يُسمَّى عندهم شير خُشك، وهو نوع شديد من المن[1]. ولم أكن أملك القوةَ الكافية للكلام.

---

(١) مادة متحلِّبة من شجر الدردار الأوروبي تجفف وتتخذ ملينا أو مسهِّلاً خفيفاً. (المترجم).

وفي حالتي الواهنة هذه، لم أستطع إلا أن ألحظ كلَّ ما يَنْضَحُ من تلك المشاعر الداخلية التي جرَّبتها بنفسي؛ وقد جذب الكثيرَ من اهتمامي بصورة طبيعية ذلك الهنديُّ الفقير، الذي صاحبني من بخارى؛ من فيض المشاعر الداخلية الواضحة التي ملأت قلبَه؛ فقد عاش حياةً من المشقَّة والتوبة لا يمكن لي أن أنساها. فكيف لهذا الشعور بالإثم أن يتلبَّس الرجال في كل الأعمار في إشارة قَاتِمَةٍ! وكيف لهذا الشعور، كما يقول كلاوديوس، أن يغطِّي الأرض بمذابح الكنائس والصَّوامع والمعابد والهَياكل والمساجد والأَدْيِرَة! ولكون الإنسان قلقاً من الإلهام الإلهي داخله، المدركِ لأصله، فقد رغب على الدَّوام في أن يحرِّر نفسه من الأغلال التي تحيط به. وقد استنفد الاكتشافات من أجل أن يعيد الحياة التي فقدها. ولكن من أجل أن نُعَادَ إلى تلك الحياة، يجب علينا أن نأكل من ذلك الخبز السَّماوي الذي مَنَحَنَا إيَّاه الأبُ.

وأسرد هنا قائمة بالمنصِّرين المميَّزين الذين التقيتهم خلال رحلاتي التنصيرية في الشرق؛ فأولُّ المنصِّرين الرائعين الذين التقيتُهم في عام ١٨٢١م في جبل طارق: منصِّرانِ اثنَانِ من أتباع ويسلي؛ هما القس ريس والقس الأستاذ كروسكامب. وهما مجتهدان ونشيطان ونبيلان، وذوا مبادئَ جيدة.

وفي عام ١٨٢١-١٨٢٢م كنت المنصِّرَ الوحيد في فِلَسْطِينَ؛ إلا أنني في عام ١٨٢٣م انْضمَمْتُ إلى منصِّرَيْنِ رائعَيْنِ من أمريكا: المسيو بلني فيسك، وجوناس كنج، وكلاهما صالح، وهما أبرشيان.

وفي عام ١٨٢٥م التقيتُ في شوشي أحدَ أكثر الرجال روعةً بين منصِّري جمعيات تنصير بَازِل، وأعني به فيليسيان كونت زارمبا، الذي كان في السابق السكرتيرَ الخاصَّ للكونت كابو دي إستريا، عندما كان رئيسَ وزراء الإمبراطور ألكسندر. وقد جرَّب تغيير الدين بلا تردُّد، باستقراء حياة جونج ستلنج. وهو بالتأكيد، باستثناء أوغست ديتريخ، مراقب اللوثريين في موسكو الآن، أكثر الرجال صَلاحاً ممن التقيتهم بين المنصِّرين، وفي الوقت نفسه لديه مواهبُ من

الطِّراز الأول. وقد كان أوغست ديتريخ، المعلِّمَ الخاصَّ للكونت إنسيدلين في دريسدن، وكان أحدَ رفاقي التلاميذ عند البروفسور لي، في كامبردج. وهو أحد النبلاء ذَوِي المواهب البارزة الرائعة.

وفي عام ١٨٢٥م التقيت سالتيت في تفليس. وفي قارص، التقيت فاندر، وكونج، وجالوي، ولانج، وديكسون. وهم رجال رائعون وأتقياء ونزيهون.

وفي عام ١٨٢٨م التقيت في مالطا القس سي. شلينز، وهو رجل نشِيط ومَوهوب وعمليٌّ وتَقِيٌّ.

وفي كورفو التقيت الموهوب الأستاذ هلدنر.

وفي عام ١٨٣٢م التقيت في الهند، من بين منصِّري جمعية التنصير الكَنَسية، الفُضَلاء والنزيهين: ليوبولد وكنورب، وسميث في بنارس؛ وسانديز في كالكوتا؛ وفايتبرخت ولينك وآخرين في بوردوان؛ ورينيس وشافتر ومولر في تينفيالي؛ وميشيل في بومباي.

وتعرَّفت إلى كثير من الفضلاء من جمعية المنصِّرين لنشر الإنجيل؛ مثل: الدكتور روتلر والأستاذ إرفين في مدراس، وتومبسون وشرايفوجت في تريشينوبولي، وآخرين من المعمَدانيين. والتقيت تومبسون في تينفيالي، وكاري ومارشمان والبقية في سيرامبور.

ومن الكنيسة الأسكتلندية صادقت الدكاترة الرائعين والعظماء: دوف ويلسون، وستيفينز، والقس الأستاذ نسبت. ويجب ألاَّ أُغفِلَ ذكر الأستاذ كاندي.

وفي عام ١٨٤٥م أقدِّر كذلك اجتهاد السادة: جودويل، ودوايت، وشاوفلر، في القسطنطينية، وتيمبل في سميرنا(١)، وآخرين، وكما ذكرت سابقاً، أعني الأستاذ الرائع ليفز، وهيل.. إلخ، كما أن البعثة في مصر تبدو لي أنها تتحسَّن باستمرار؛ غير أن البعثة في الحبشة في حالة مُزْرِيَة.

---

(١) هو الاسم القديم لأزمير التركية.

وفي الطريق وصل إليَّ الخطاب الرقيق الآتي من الكولونيل شيل:

سيدي العزيز، حيث إن الشخص الذي احضر مذكرتك سوف يعود، كتبت لأقول لك إنني سعيد لمعرفتي أنك ستصل إلى طهران في غضون ثلاثة أيام، وأن شهيتك وقوّتك تزدادان باستمرار. فإذا طلبت الحِجامة، فإن أيَّ حلاق من حلاقي القرى مؤهَّلٌ لإنجاز العملية.

إن مهجعك القديم جاهز لك.

المخلص لك جداً: جوستين شيل

واصل سبحان الله خان مجيئه كلَّ يوم لرؤيتي، وفي إحدى المناسبات حدَّثني قائلاً: «أستطيع أن أؤكِّد لك ما أخبرك به القاضي كيلون - وأنا أعرف ذلك - بأن ستودارت وكونولي قد قُتلا بتحريض من عبدالصمد خان؛ فقد كان هو الوسيطَ بين الحضرة وبينهما».

وصلت بعد ذلك إلى شاه - رود «نهر الملك». ويتذكر الناس هنا اسم ستودارت بصورة جيدة، ويسمُّونه الراشد «الرجل الشجاع».

وكانت محطتنا التالية ده ملا، إحدى قرى السلطان محمود؛ ويوجد فيها بساتينُ جميلة. ومن هناك عبرنا إلى دامغان؛ وهي بلدة قديمة جداً، معظمها خرائبُ، ويوجد بها بَقٌّ سام يقتل الغرباء.

بعد ذلك وصلنا إلى دولت آباد وأغوان، وفي نهاية المطاف إلى سمنان، حيث أُعْطِيتُ غرفةً في قصر الأمير الحاكم، الذي كان غائباً وقت زيارتي.

وهذه القصور الجميلة تغوص في الدَّمار؛ لأن الحكام لا يعرفون كم سيمكثون فيها؛ لذلك يظنون ألاَّ قيمة للحفاظ عليها، أو ترميمها.

وزارني هنا يهود من مازندران، وهم أفضلُ حالاً بكثير مما عليه اليهود في أجزاء أخرى من فارس؛ ويذكر الفُرس أن اليهود في مازندران هم أفضلُ من المسلمين؛ لأنهم يَصْبُغُونَ لحاهم بالحِنَّاء مرتين في اليوم.

وصلنا من ثَمَّ إلى لازجرد؛ وهو مكان يوجد فيه أقدم قلعة، يقال إن الجن هم من قاموا ببنائها. ومن هناك إلى ده نماك، وباه ده، وقوش لاغ، حيث وَجَدْتُ حصاناً أرسله إليَّ الكولونيل شيل؛ وسرعان ما أتى الأستاذ الرائع ردهاوس للترحيب بي، ومعه الأستاذ كارابيت، وهو أرمني، كان صيدلانياً في مقرِّ المندوب البريطاني. وفي النهاية وصلنا إلى طهران، حيث استقبلني الكولونيل شيل، المبعوث البريطاني، استقبالاً حافلاً.

والتقيت هنا كذلك السيدين تومسون وجلن، وهما ملحقان في السفارة، والأستاذ أبوت القنصل البريطاني. ولأن الملك ورئيس وزرائه كانا خارجَيْنِ للصيد، فقد رافقهما الكولونيل شيل والملحقان، بينما بقيت في السفارة.

وزارني المسيو لي كوميت سارتيجيز القائم بأعمال سفارة ملك الفرنسيين، الذي أُرسل إلى هناك من أجل العمل على إعادة اللازاريين[1] في فارس. وتحدَّثت إليه، وأفهمته ضرورة الكتابة على لساني إلى ملك فرنسا، وأمنيتي الخالصة أن تنضمَّ فرنسا إلى إنجلترا في مسعاها لتحرير مئتي ألف رقيق من فارس في بخارى. وأخبرني أن توجيهي خطاباً للقوى الأوروبية من مدينة بخارى نيابةً عن الأرقاء هو شجاعة عظيمةٌ مني.

وتسلَّمت خطاباً من اللازاري الفرنسي الأستاذ كلوسيل، الذي تبيَّن لي أنه متحمِّس جداً. وقد أسَّس الرهبنة اللازارية ذلك المحسنُ المتحمِّسُ فينسنت دو بول، الذي عانى أَغْلال الرِّقِّ في تونس، ثم هرب منها هو وسيدُه الذي تحوَّل إلى النصرانية. ويعتزم السيد كلوسيل تأسيس بعثته في طهران أو أصفهان.

---

(١) جمعية تنصيرية كاثوليكية منسوبة إلى القدِّيس لازاروس. نشأت في فرنسا أولاً، ثُمَّ أَنشأتْ لها مراكز تنصيرية في كثير من بلدان العالم.

الفصل الثاني والعشرون

الدكتور وولف يعظ في السفارة. تصرُّف الكونت مِيدم بنُبل. الكولونيل شيل يرفض إرجاع خطاب اللورد إلينبورو. لطف السفارة الروسية. خسرو خان. الدكتور وولف يكتب للأمير. استقبال من الشاه. الدكتور وولف يشكر جلالته لإنقاذ حياته. البلاط الفارسي يصون حياتَه مرتين. توقيع (أتوغراف) الشاه. مُلاً بهرام، الزرادشتي. الكولونيل شيل يطلب تاريخ إعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، والدكتور وولف يشير إلى التاريخ ١٢٥٨ هجرية. عباس قولي خان يعتقد أنه كان في عام ١٢٥٩هـ، والدكتور وولف، بعد تَفَكُّرٍ، يوافق عباس قولي خان. فارس لن تستطيع، في الظروف الراهنة، الاستيلاءَ على بخارى. ميْرزا عبدالوهاب. خطاب عباس قولي خان إلى السيِّدة جورجيانا وولف. لطف السفارة تجاه الدكتور وولف. الكنيسة الأرمنية. المنصَّرون البروتستانت يلجؤون إلى السفارة الروسية، وليس السفارة البريطانية. الكونت ميدم يزور عباس قولي خان، ويشكره لِلُطْفِهِ مع الدكتور وولف. زيارة الدكتور وولف إلى الحاجي، رئيس وزراء الشاه، محادثاتهما، حاجي إبراهيم يطالب بستة آلاف تيلاه، الدكتور وولف يُقْسِمُ بأنه لم يَتَلَقَّ هذا المبلغ قط، الدكتور وولف يدفع له ثلاثة آلاف تيلاه. ويَسْحَبُ على حساب الكابتن جروفر أربع مئة جنيه إسترليني. حاجي إبراهيم يدَّعي بثلاثة آلاف تيلاه مُسْتَحَقَّة من كونولي، الدكتور وولف يحتجُّ على هذا الدفع، ويعتقد أنه كان يجب على الكولونيل شيل رفض دفع أيِّ مال للحاجي إبراهيم عنه أو عن الكابتن كونولي. خطاب من الملكة إلى ملك بخارى. زيارة للحاجي بابا. تصرُّف الكولونيل شيل المتعذّر شرحُه. رجب خادم الكولونيل ستودارت.

والآن، يمكنني أن أعيد كتابة التواريخ؛ لأنني بوصولي إلى طهران، التي

هي ريجس[1] توبت[2]، أُخبرت أننا في الثالث من نوفمبر. وفي الرابع من نوفمبر سمح لي الكولونيل شيل بأن أعظ في السفارة، رغم أنه، هو نفسه، لم يحضر كونه كاثوليكياً.

وقد تصرَّف الكونت مِيدم، السفير الروسي بنبل بالغ تجاهي، فلم يَدْعُنِي فقط لأَعِظَ في منزله باللغة الألمانية - وهي المناسبة التي حضرها معاليه وكلُّ الملحقين بالسفارة لديه - وإنما أهداني كذلك شالَيْن، كما أَوْلَمَ لي عَشاءً عامّاً، دعا إليه الكولونيل شيل، وكلَّ الملحقين البريطانيين، والكونت سارتيجيز، وعباس قولي خان، والمسيو لابات، طبيب الملك، وآخرين. وخلال إقامتي في بخارى كَتَبَ بشأني إلى الكونت نيسلرود. وقد أَوْلَمَ الكونت سارتيجيز كذلك عشاءً عاماً لي، دعا إليه جميع من في السفارة البريطانية.

ويجب أن أبيِّن هنا أنني حين كنتُ معتلاً في مشهد، فقد أرسلت مسبقاً، إلى الكولونيل شيل، خطاب اللورد إلينبورو، الذي أعطاني إياه أمير بخارى، ووثائقَ أخرى من كونولي إلى الأمير. وبعد وصولي بأيام قليلة إلى طهران، وعندما رجع الكولونيل شيل من رحلة الصيد، ودخل إلى مكتبه، كتبت إليه من غرفتي، على قُصاصة من الورق:

عزيزي السيد، هلا تَلَطَّفْتَ بإعادة خطاب اللورد إلينبورو إليَّ، مع الوثائق الأخرى الخاصة بكونولي!

وأرسلت القصاصة بصحبة خادمه؛ فكتب إليَّ بخطٍّ يده، على قُصاصة من الورق، الجواب الآتي، الذي لا يزال بحوزتي:

---

(١) الاسم الأسطوري القديم لطهران.

(٢) يهودي كان في نينوى، وهو مذكور في أحد أسفار التَّوراة. أرسله أبوه من نينوى ليأتي له بكنز، فرافقه الملاك روفائيل في سفره، وتعرَّف إلى سارة وتزوَّجها، وجاء بها والكنزِ إلى أبيه في نينوى.

«إن خطاب اللورد إلينبورو مِلْكٌ للدولة، وكذلك الوثائق الرسمية الأخرى».

ولأنني لم أُحَبِّذْ نشوب أيِّ شِقاق، فقد أَذْعَنْتُ بالطبع لحُكمه؛ وإلى جانب هذا لم أرغب في أن أتورَّط مع الحكومة في الوطن. ولا أستطيع هنا إلا أن أبيِّن أن ما لقيتُه من لطف السفير الروسي في طهران، لم يكن له حدود؛ إلى حد أن المُلاَّ مهدي اليهودي، وبعض الأشخاص المسؤولين في طهران، قالوا جميعاً: «إن الروس ألطف بكثير معك من أهل بلادك، الإنجليز». وأمتلك الحجة المُقنِعة لأن أقول: إنني لو كنت أحدَ الرَّعايا الروس، ما كانت الحكومة الروسية لتتركني أدفع فارذنجاً واحداً لأخي عبدالصمد خان؛ غير أن الكولونيل شيل - إلى جانب ذلك - لم يرسل إلى الكابتن جروفر ملحوظة السير آر. شكسبير المُرفَقة مع خطاب اللورد إلينبورو.

لقد سبق أن ذكرت أن لديَّ صديقاً في طهران، يُدعى خسرو خان. وهو كبير مخصيِّي فتح علي شاه، وقد تقلَّد عدة وظائف عالية في ظل حكم ذلك الملك، مثل وظيفة حاكم أصفهان، وفي وقت آخر حكم جيلان. ولكنه الآن، كونه لا يتمتع بحظوة الحاجي، فليست له حَظوة لدى الملك. وقد زارني عند قدومي أول مرة إلى طهران. ولأن الكولونيل شيل لم يأتِ لرؤيته في غرفتي، فقد رفض زيارتي مرة أخرى؛ ولذلك قمتُ بزيارته. وهو، مثل سائر الجورجيِّين، متمسِّكٌ سرّاً بالدين النصراني، ولكنه متأثِّر - بشكل أو بآخر - بالفلسفة البورجيانية السويدية[1]. وهو دائماً ما يَنْزِعُ إلى رؤية قديس من الأزمان الغابرة. وعندما رأيته آخر مرة أخبرني بجدِّية بالغة أنه رأى - مؤخَّراً - صمويل النبيَّ، بل إنه تحدَّث معه، وقد كانت له لحيَةٌ صغيرة بيضاء بالكامل،

---

(١) طريقة تفسير جديدة لطبيعة السيد المسيح جاء بها Emanuel Swedenborg (١٦٨٨-١٧٧٢م)، فنسبت إليه.

وعينان زرقاوان جميلتان، وأنه كان رجلاً بهيئةٍ قوية، ولكنه قصير. وقد رأى موسى كذلك، وسمع صوته، وهو الأكثر جهورية، وكان شديدَ الشَّبَه في مظهره الخارجي بالملك السابق فتح علي شاه. وقال إنه لم يبتسم قطُّ، وكان ساخطاً على اليهود لجحدهم إياه.

وقد انتهزتُ فرصة وجودي هنا لكتابة تقرير شامل لأمير بخارى مضمناً أفكاري عن أسلوب أدائه، مع عرضٍ كامل لنذالات عبدالصمد خان، الذي تمَّ إعدامُه، نتيجة لخطابي.

كان استقبال الشاه لي غاية في اللطف؛ فعندما دخلت إلى حضرته، وقدَّمني إليه الأستاذ تومسون، قال وهو يبتسم: «نلتَ الآن ما يكفي من بخارى؛ لن تذهب مرة أخرى إلى تلك المدينة في القريب العاجل». فأجبت بالقول: «لقد أُنقِذتُ مرتين بمساعدة كريمة من لَدُنِ الحكومة الفارسية. فقبل اثني عشر عاماً، أنقذني جلالة والدكم من يَدَيْ محمد كيراهي، ثم أنقذتني جلالتكم من أمير بخارى». بعد ذلك سألني لماذا قمتُ بتهذيب لحيتي؟ فأخبرته أنها سبَّبت لي مشكلات كثيرة، وقد ضحك من قلبه حين ذكرت ذلك. وقد طلبت من جلالته أن يمنحني توقيعه (أتوغراف) فكتب السطور الآتية:

الحمد لله! الذي أنقذ حياة السيد وولف. ويمكنه الآن أن يذهب بسلام إلى زوجته في لندن.

شعر

صديقان عرفا قيمة كل منهما، عندها اعترض صداقتهما

انقطاع لبعض الوقت، ثم التقيا مرة أخرى.

شهر شوال ١٢٦٠ للهجرة

كتبه شاه فارس، وقُدِّم للدكتور وولف في مجلسه (الشاه) وهو (وولف) في طريق عودته من بخارى.

وزارني المُلاَّ بهرام، زعيمُ الزرادشتيين، الذي كان قد رتَّب أمور مغادرتي قبل اثني عشر عاماً. وقد أخبرني أن الحاجي ميرزّا أقاسي كان صديقاً حميماً للزرادشتيين، وقد بنى لهم قريةً تبعد أربعة أميال من طهران، وجعله ناظراً عليها.

وعند وصولي، سألني الكولونيل شيل عمّا إذا كان الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي قد أُعْدِمَا في عام ١٢٥٩ للهجرة أو عام ١٢٥٨ للهجرة. فأخبرته أن النائب قال: في عام ١٢٥٩هـ، غير أن عشرين شهراً انقضت بين زمن وصولي وإعدامِهما. وأخبرته، في مناسبة ثانية، أنه، وفق هذه الحسبة، كان الإعدامُ في عام ١٢٥٨هـ، فوافقني على ذلك، ثم رغب إليَّ أن أعطيَه تقريراً بهذا الخصوص كتابةً، وقد قمت بذلك.

عند المغادرة إلى تبريز دَارَ الحديثُ بيني وبين عباس قولي خان حول هذا الموضوع، وعندها قال: «لقد أجريت تحرِّياتٍ دقيقةً جداً، انصياعاً للتعليمات الرسمية لديَّ. ويمكنك الاعتماد عليها؛ لأن المعلومات التي حصلت عليها حول إعدامهما أكثر صحة من معلوماتك. فستودارت وكونولي أُعدما قبل أحدَ عشرَ شهراً من وصولك». ثُمَّ أضاف بتأكيد: «لقد أُعدما، كما قال لك النائب في المرة الأولى، في عام ١٢٥٩هـ، وليس في عام ١٢٥٨هـ». ولأنه من المؤكد أن ملحوظة شكسبير مع خطاب اللورد إلينبورو وصلا قبل إعدامهما، فإن معلومات عباس قولي خان، والبيان الرسمي الأول من الملك وعبدالصمد خان صحيحان. ولذلك أَسِفْتُ؛ لأنني أعطيتُ الكولونيل شيل تقريراً؛ لم يكن من المفترض طلبه منِّي وأنا في أقصى حالات الاستثارة والمرض والتعاسة، وأخضع لعلاج الدكتور كاده، طبيب السفارة الروسية.

وهنا يمكن طرح سؤال: لو أن فارس مضت قُدُماً وحدها، من دون مساعدة روسيا أو إنجلترا، هل ستستطيع احتلال بخارى؟

وإجابتي هي: أن نجاحها مشكوك فيه جداً؛ للأسباب الآتية:

أولاً: لا يمكن عمل ذلك بفَعَالية إلا بأمرٍ وسُلطةٍ كاملة تُخَوِّل لآصف الدولة؛ ولكنَّ آصفَ الدولة وحاجي ميرْزا أقاسي عدوَّان لدودان لبعضهما، وكلُّ واحد منهما يَغار من الآخر؛ ولذلك سوف يُخالف أحدهما الآخر، كما فعلا خلال حصار هراة.

أضف إلى ذلك أن الضباط أنفسهم يغارون جداً من بعضهم بعضاً؛ ولن يتَّفقوا على خطة عامة مشتركة؛ ولذلك سوف يفشي بعضهم خطط الآخر بشكل متبادَل لأمير بخارى.

كما أن محمد شاه يخاف آصف الدولة. وأنا على يقين، اعتماداً على أفضل المصادر، أن الملك لديه شكوك مبنية على أكثر التحرِّيات دقةً بأن آصف الدولة يُضمر مُخَطَّطاً لتنصيب نفسه على كل فارس، وإن لم يمكن ذلك، فعلى خراسان.

يجب أن أذكر أنني دفعت في طهران ثلاثين توماناً لميرْزا عبدالوهاب، الرسَّام، مقابل العمل الذي قام به من أجلي؛ لأنه رغم أن النائب أدرجه في حسابه، إلا أنه في الحقيقة لم يُعْطِه فارذنجاً واحداً.

كما يجب عليَّ أن أنوِّه بأن لطف الكونت مِيدم، السفير الروسي، لا يمكن أن يُمْحَى من ذاكرتي. وقد قدَّم لي عباس قولي خان هدية؛ هي عبارة عن شالَيْنِ كشميريين للسيدة جورجيانا. وأرسل إليها الخطاب الآتي، وهو خطاب لطيف وشرقي بحق.

ترجمة خطاب من المبعوث الفارسي إلى بخارى إلى السيدة جورجيانا وولف:

«عسى أن تتمتَّع أختي المبجَّلةُ رفيعة المقام - التي مكانتها تُضارِعُ تلك التي لبلقيس (ملكة سَبَأ) السيدة المحترمة والعزيزة زوجة صديقي وأخي، القس جوزيف وولف - بالصحة الجيدة.

قبل خمسة أشهر، وبناءً على رغبة معالي الدكتور، وجَّهت إليك خطاباً، أختي

رفيعةَ المقام، وقد اكَّدت لك إنني سوف أُحضر معي - باحترام وجلال، وبسلامة تامة - صديقي وأخي الدكتور. الحمد لله! الحمد لله! الحمد لله! فقبل ثمانية أيام من هذا التاريخ، الذي هو السادس عشر من شوَّال، أحضرتُه إلى طهران. وأَحْمَدُ الله وأشكره أنْ لم يكن لديَّ سبب للخجل منك، يا أختي. وارجو الله أن يصل الرجل بنفسه عاجلاً إلى لندن، وسوف يُطلعُكِ، يا أختي، شفاهياً على ما حدث. وسوف تدركين كيف تصرَّفتُ كأخ. آمل ألاَّ تنسيني، يا أختي المحترمة. ولعل خطاباتك تصل إليَّ دائما في فارس.

عباس قولي خان سرتيب (كولونيل)

السادس عشر من شوال، ١٢٦٠هـ

دعاني الكونت ميدم لكي أعظ في منزله، كما قلت، باللغة الألمانية، أمام أعضاء السفارة الروسية كافة؛ وعرض مساعدةً مالية لكنِّي رفضتها، كما عرض كذلك أن يرسل غلامَه إلى تبريز، ويوصي بي إلى السلطات الروسية، وإلى سيدِه الإمبراطوري.

وهنا، يجب عليَّ القول بأن الأستاذ تومسون والأستاذ الرائع ردهاوس كانا بَالِغَي اللُّطف معي، وكذلك السيدة ردهاوس؛ كما أُقر بفضل السادة تومسون وجِلِن وأبوت الذين قدَّموا لي كلَّ ما كان في وُسعهم من مساعدة.

وخلال الوعظ في مثل هذه المناطق، فإنني دائماً ما أستغلُّ المناسبة من أجل أن أَمْـحُـوَ، إن أمكن، تلك التفرقة غير الطبيعية في نظام الطوائف والطَّبَقية الاجتماعية السائدة بشكل كبير في الشرق. ومهما يَكُن الأمر مخيفاً، يبقى يقيناً بأن هناك حاجةً مماثلة من الإحسان؛ ما أدَّى بالسَّامِريِّ إلى أن يرفض منحَ أحد اليهود شَرْبَةَ ماء، وهو أمر يسود بدرجة كبيرة في الشرق. وسيكون أمراً مماثلاً يدفع إلى الدهشة بالنسبة إليَّ أن أرى فارسياً يطلب قطرةَ ماء من يهودي، أو أرمني أو زرادشتي، أو حتى إنجليزي. وسيزداد الأمر

إدهاشاً أن أرى سيخياً أو هندوسياً يطلب قطرة ماء من إنجليزي، أو يطلبها براهمي[1] من أحد المنبوذين. ولا حتى في الولايات المتحدة، سيجلس أحد الأمريكيين البيض مع رجل أسود.

وأتابع الآن الحديث حول الأرمن؛ فقد زارني هوانس سورينو كرميتزكي، أسقف جُلفا، وهندوستان، وطهران، الذي تحتضنه الرَّهبنة الروسية. وهو شيخ جليل متقدِّم في العمر، توَّاق لتحسين وضع الشعب الأرمني. وقد أنشأ مدرسة في جُلفا، يدرس فيها الصبيان الأرمن اللغات الإنجليزية والفرنسية والأرمنية؛ ويتلقَّى مساعدات لذلك الغرض من روسيا وأرمينيا ومن أرمن هندوستان ويافا. وقد أبدى ملحوظة قائلاً: «لقد نُصِحْتُ باستمرار أن أرسلَ الشباب إلى إنجلترا وفرنسا، ولكن خطر إرسالهم إلى هناك يتمثل في أمرين: الأول: أنهم ينسَوْن لغتهم، والأمر الثاني: ستفسدهم المعيشة الرَّغِدَةُ، وعندها يعودون مستائين إلى بلدهم؛ ولذلك فكرت أنه من الأجْدَى أن نعلِّمَهم في بلدهم العلومَ الأجنبية؛ وفي الوقت نفسه لا ينسون لغتهم، ويتحمَّلون المشاقَّ التي يلاقيها رجال بلادهم».

لدى الكنائس الشرقية شَمَامِسَة بكل ما تحويه الكلمة من معنى إنجيلي شامل، ويتمُّ اختيارهم من الناس، ويُرَسِّمُهُمُ المُطْران، ونادراً ما يُسمح لهم بالوعظ؛ غير أنهم - بكل بساطة - يجب عليهم جمعُ التبرُّعات؛ لتوفير المال للفقراء والمرضى، وأن يقوموا بعمل الترتيبات للإدارة الداخلية للكنائس. هذه الوظيفة الخاصة بالشمامسة، من الواضح أن الحواريين استمدُّوها من نظام الكنيس اليهودي.

ويجب أن أبيِّن أنه يوجد حريةٌ ورُخصة واسعة في الوعظ في الكنائس الشرقية والكنائس الكاثوليكية الرومية، أكثر بكثير مما هو موجود في الكنائس

---

(١) أحد أفراد طبقة الكهنوت عند الهندوس. (المترجم).

البريطانية. حقاً: إنه في التجمُّعات الشرقية، وكذلك في التجمُّعات الكاثوليكية الرومية، فإن الشخص العادي، ودون رَسامة أبداً، يُسْمَحُ له بالوعظ في الكنيسة بإذن خاصٍّ من الأسقف. وهكذا كان أغناطيوس دي لويولا وجماعة الجزويت اليسوعيون - مثلاً - يعِظُون من دون رسامة، وبإذن بسيط من البابا.

ويجب أن أنبِّه على أن الكونت ميدم يمنح الأرمن أفضل حماية في أنحاء فارس كافة، وكذلك الكلدان القاطنين في أورمية. وعندما تعرَّض الكلدان النسطوريون في ذلك المكان للقمع من المنصِّرين الكاثوليك الرومانيين، وضع حداً لذلك. ويتمتَّع المنصِّرون البروتستانت في أورمية كذلك بالحماية، ويلجؤون إلى السفارة الروسية لطلب الحماية وقت الحاجة؛ وكانوا في السابق يلجؤون إلى السفارة البريطانية.

وقد سُرِرْتُ لعلمي أن الكونت ميدم زار تَوّاً عباس قولي خان، وشكر له لطفه تجاهي، ودعاه للعشاء. ولا يمكنني أن أُغفل القول بأن السيد ردهاوس وزوجته، اللذين تعرفت إليهما قبل أربعة عشر عاماً في فارس، يشكِّلان بهجة الحياة الحقيقية للسفارة، وستكون الدنيا مملَّةً من دونهما. ويجب ألاَّ أُعْرِضَ عن ذكر لطف الجنرال سيمينو، الذي ألمحْنا إليه في كتابنا هذا.

لقد زرت الحاجي وشكرته. وقد أخبرني بأن الأمر كان سيكون أفضل لو أنني انتظرت، حسب نصيحته، في طهران حتى يوافيني عباس قولي خان هناك؛ لكانت حمايتي ستصبح أكثرَ فاعلية، وستكون متاعبي أقلَّ. هذا الفارسي الذي يشبه وولسي[1] مغرم، مثله تماماً، ببناء القصور، وكذلك القرى. وعندما غادر سفير بخارى السابق طهرانَ، أرسل إلى الأمير يقول له:

---

(١) توماس وولسي (١٤٧٣-١٥٣٠م): كاردينال إنجليزي ورجل دولة في زمن هنري السابع. كان مسيطراً على الدولة، وتمتع بحريات واسعة. أُولع بفن العمارة، ولا يزال قصره (هامبتون كورت) قائماً حتى اليوم.

«كيف يحلم الأمير بشنٍّ حرب مع خيوه؟ فخيوه تابعة لي». ومن الواضح أنه لا يحب الإنجليز.

وفي إحدى المرات قال لأحد الإنجليز، أمتنعُ من ذكر اسمه: «أعرف طريقتكم الإنجليزية. فأنتم، بدايةً، ترسلون طبيباً لأحد البلدان ليَجُسَّ نبضَنا، وبعد ذلك جرَّاحاً لفصدنا [حجامتنا] حتى الموت؛ ثُمَّ يلحق بهم الضباط، ويقرِّرون مصير أرضنا كما فعل الآخرون بأجسادنا».

والتقيت في طهران الأستاذَ الأب كلوسيل، من الرهبنة اللازارية، الذي أرسله مجمع التصير منصِّراً إلى فارس. وبدا لي رجلاً ذا حماسة وتقوى.

وقبل أن أترك هذه المدينة قمت بزيارة ميرْزا عبدالحسن خان، والحاجي بابا حاكم مورير، وسكرتير الشؤون الخارجية لبلاط فارس. ورغم أن الحاجي يبدو أسنَّ من مظهره، إلا أنه يمثِّل البهجة ذاتها.

وقبل مغادرتي وصل الحاجي إبراهيم، أخو عبدالصمد خان؛ لطلب ستة الآلاف تيلاه. وقد أقسمت يميناً بأنني لم أتسلَّم سوى ثلاثة آلاف تيلاه من هذا المبلغ؛ ورغم أنه - من ثلاثة الآلاف تيلاه التي عُهِدَ بها إليَّ - سُرِقَ ما يزيد على ست مئة منها: قسم في الطريق، وقسم ذهب لحساب جمال النائب، كما ذكرنا سابقاً، فقد دفعت له ثلاثة الآلاف جميعها؛ الأمر الذي بسببه اضْطُرِرْتُ لأن أسحب أربع مئة جنيه على حساب صديقي العزيز الرائع الكابتن جروفر. وتقدَّم الحاجي إبراهيم كذلك بطلب ثلاثة الآلاف تيلاه الخاصة بكونولي؛ غير أني احْتَجَجْتُ على ذلك؛ وأثق تماماً بأنني لو كنت تحت حماية العَلَم الروسي، لَمَا طُلِبَ مني أن أدفع للحاجي إبراهيم فارذنجاً واحداً، وقد أحصل - كذلك - على تعويض عن المبلغ الذي عَهِدَ به إليَّ عبدالصمد خان، حيث تعرَّضت - بسبب تحريضه - للسجن في بخارى، وعُومِلْتُ بسوء على الطريق. وكان الفرس، والشخصيات الأُخرى من ذوي الشأن، مندهشين

أن الكولونيل شيل لم يُصرَّ على اعتقال الحاجي إبراهيم، من أجل سماع كلِّ ما جرى، بل حتى سماع أدق المُلابسات والتفاصيل حول إعدام الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، وهو الإجراء البشع الذي كان الحاجي إبراهيم متورِّطاً فيه. وبدلاً من ذلك، ترك الكولونيل شيل ذلك النذلَ يزعجني في غرفتي، مطالباً بعشرين في المئة مقابل النقود، حتى أنشبت في حَلْقِهِ وطردته.

ورغم مرضي وتعاستي وتشاؤمي واستثارتي، إلا أنني ظللت متَحمِّلاً الجميع، لكن هذه الانفعالات سرعان ما نتج منها مرض خَطِيرٌ وهَذَيان عند وصولي إلى تبريز، وإقامتي في منزل معالي الأستاذ بونهام. وقد عانيت من ذلك الكثير فيما بعد.

ويجب أن أضيف هنا، أنه إذا ما قامت الحكومة بدفع دَيْن كونولي لعبدالصمد خان، فهذا يعني أنهم سيدفعون مكافأةً لذلك النذل لقتل إنجليز آخرين، وسرقة رفاقهم المواطنين.

وهناك شيء واحد يبدو لي استثنائياً جداً؛ فقد قال لي الكولونيل شيل، بحضور الأستاذ جلن والأستاذ تومسون، إنه سوف يوصي لدى الحكومة أن تدفع لعبدالصمد خان مئة تيلاه مقابل خطاب اللورد إلينبورو. وأسأل: لماذا؟ فحسب ملحوظة شكسبير، فإن المئة تيلاه كانت ستُدفع لحامل الخطاب بعد أن يقوم بإحضار جواب من الأمير إلى الحاكم العام. والآن لم يقتصر الأمر على أنه لم يرد جواب فحسب؛ بل إن الخطاب لم يتسلمه الأمير إلاَّ بعد وصولي. وهذا السلوك - في رأيي - لا يمكن تفسيره مطلقاً.

وفي أحد الأيام أخبرت الكولونيل شيل أن خطاباً قد وصل من جلالة الملكة فكتوريا، وسألت: لماذا لم يتسلَّمه ملك بخارى؟ فأجابني الكولونيل، بحضور الأستاذ تومسون: «ليس لك حرِّية القول إن خطاباً قد وصل من جلالتها أَوْ لَمْ يصل».

الحق أنني كلَّما تفكَّرت أكثر في سلوك الكولونيل، أدركت عِظم إهماله وعدم مبالاته الجديرة باللَّوم. وعند وصولي من إنجلترا إلى طهران، أخبرني أنه احتجز «رجباً»، الخادم السابق للكولونيل ستودرات، الذي كان مستعداً لمرافقتي إلى بخارى. لقد كان رجب من مشهد، وحالما وصل معي إلى مشهد عبَّر عن مخاوفه، كما بيَّنت، من مرافقتي إلى بخارى. وعلى أية حال، فقد أقنعته أن يصاحِبَني حتى مرو، ومنها عاد إلى مشهد، حيث التقيته مرة أخرى، إذ كان في طريقه إلى طهران من أجل تحصيل مئة وخمسين توماناً يَدِينُ بها الكولونيل شيل له. وقد أخبرني رجب في مشهد - بحضور أمير بك، وميرْزا عبدالوهاب، وعباس قولي خان - أن ذلك الرفيقَ سيِّئَ السُّمعة عبدالله قال للناس في مشهد في السوق العام: «لقد أمسك عبدالصمد خان بثيابي، وقال: «اقتلوا هذا الإنجليزي في الطريق؛ لا تَدَعوه يذهب حياً إلى بلده».

وقد أكَّد الميرزا عبدالوهاب، الرسَّام الفارسي، أن عبدالصمد خان قد قال الشيء نفسه. لذلك رغبت في أن يقوم الكولونيل شيل باستجواب رجب حول الموضوع، فقد وصل إلى طهران قبلي بأربعة عشر يوماً، وأعطيت خطاباً بهذا الفَحْوَى لرجب موجَّهاً إلى الكولونيل شيل؛ غير أن الكولونيل لم يسمح لرجب بالدخول إلى حضرته، وعندما أحضرت إليه ميرْزا عبدالوهاب، فإنه انصرف، وتركه بعيداً بأسرع ما أمكنه. ولهذا رأيتُ كم يختلف سلوك ستراتفودر كاننج؟ إذ عندما أخبرته بما فعل عبدالصمد خان، قال معاليه: «لماذا لم تقترح على الأمير أن يرسل عبدالصمد خان سفيراً له؟».

وعندما أخبرت الكولونيل شيل، ونحن جلوس حول الطَّاولة، بأن عبدالصمد خان كان يتمنَّى أن أُقْتَلَ على الطريق، وأن القَتَلَة يجب أن يعودوا بالنقود إليه، وقد عرض عليهم مكافأة من أجل القيام بذلك؛ ورغم أنني أكَّدت له أن عبدالله نفسه أخبرني أنه على وعد بأن يعود إلى بخارى لمقابلة

عبدالصمد خان لغرض مهم جداً - وقد قال ذلك بلهجة ساخرة شيطانية -؛ أجابني الكولونيل شيل بأسلوب جازم بأنه لا يستطيع أن يصدِّق أن عبدالصمد خان كان يعتزم قتلي؛ كيف وقد أعطاني النقود لتوصيلها إليه. عندها قلت: «إنه على تَوَقُّع بأن يُعادَ إليه المبلغ مضاعَفاً من الحكومة؛ حيث إن لديه إيصالاً به». فأجاب الكولونيل: «إن النقود التي أقرضها عبدالصمد خان لكونولي لم تُدفع إليه بعد؛ رغم مُضِيٍّ ثلاث سنوات منذ أن اقترضها الضابط». وعندها قلت: «لقد استعاد النقودَ من كونولي، وإلى جانب ذلك، كان لديه إيصال كونولي، الذي لم يرسلْه حتى وصل الحاجي إبراهيم به بعد وصولي إلى مشهد؛ لذلك كان واثقاً من استعادة النقود».

وكونه واثقاً يتَّضح من حقيقة أنه في اللحظة التي قدَّم فيها الحاجي إبراهيم الإيصال قال لي الكولونيل شيل: «لا بد من دفع هذه النقود». لذلك فمن المؤكَّد أن النقود هي له؛ فعبدالصمد خان كان موجوداً مدة طويلة في الهند، ما يعني أنه لم يكن على معرفة جيدة بمسار الأمور، وخصوصاً أنه لم يتوقَّع أن أعود إلى بخارى. وإلى جانب ذلك، فإنه لم يرغب في استعادة رأس المال الذي أقرضه لكونولي، وإنما رغب في الفائدة «العشرين في المئة»؛ وكلَّما انتظر أكثر حصل على مالٍ أكثر. حتى إن الفائدة العشرين في المئة لم يُرِدْهَا لنفسه، وإنما لابنه عبدالله خان، البالغ من العمر أربع سنوات. ولم يكن الحاجي إبراهيم قد أُرسل إلى طهران للحصول على المال، بالقدر الذي كان عليه أن يتأكَّد من أن تُدفَعَ الفائدة في النهاية لابن عبدالصمد خان. ومهما كانت غرابة الأمر، فإن النائب الماكر عَدَّ الحكومة البريطانية أكثرَ موثوقيةً من حكومته، حيث لا يوجد في بخارى أمان للحياة، ولا لأطراف الجسد، أو الملكية العَقَارية.

ولكي أبينَ أنني لا أحمل نوايا سيئة تجاه الكولونيل شيل، فإنني أفوِّض هنا

اللورد أبردين ليقدِّم الخطاب الخاصَّ والسِّرِّيَّ الذي كتبتُه إلى سيادته من طهران، في طريقي إلى بخارى، وحاولت فيه أن أبين دوافع ما اتخذه الكولونيل شيل من خطوات قبل مغادرتي من إنجلترا لتحرير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، بناءً على رجاء من الناس في فارس، الذين أَبْدَوْا تخوُّفاً من اعتزامي السفر إلى بخارى. ولكنه رفض أن يعطيني خطاباً للأمير، وتقديمه – بدلاً من ذلك – خطابَ تعريفٍ لأولئك الغارقين في النَّذالة: عبدالصمد خان وأخيه الحاجي إبراهيم، والذي يمكن التعرُّف إلى شخصيته بالوصف الذي قدَّمه عنه الأستاذ ماسون، والمقدَّم السير كلاود مارتن ويد، الآن في ريد، بعد أن أمضى خمسة وثلاثين عاماً في الهند، وأُجبر على طرد عبدالصمد خان من بيشاور بسبب مكائده. فعدم إذعان الكولونيل شيل لسماع معلومات إضافية عن عبدالصمد خان مِنِّي، جعلني بعد ذلك أشكُّ في أن هناك شيئاً يدور في الخفاء لم أستطع سَبْرَ غوره.

وأدعو الشعب الإنجليزي إلى أن يضع هذه القضية أمام سلطة مناسبة؛ من أجل أن أقف أنا والكولونيل شيل وجهاً لوجه أمام تلك المحكمة، وسوف أدعوه إلى الرَّدِّ على سؤالي: لماذا لم يتَّخذ تَدابيرَ أفضل لتحرير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي والـمُلازم ويبورد وآخرين؛ ولماذا كان يتردَّد تماماً في الإذن بسماع أيِّ شيء عن الأمر السابق بعد وصولي من بخارى، ومعي من المعلومات ما لم يكن لديه من الشجاعة القدر الذي يُمكِّنه من أن يحصل عليها شخصياً، ولا حتى أن يحصل عليها بشكل ثانَوي؟ وسوف يسرُّني أن أرى مبعوثنا يواجه الأمير مِثْلَما فعلت، وكما كان سيفعل السير ستراتفورد كاننج على الفور، وبمقدرة أكثر، لو كان في طهران، وليس في القسطنطينية.

الفصل الثالث والعشرون

مغادرة طهران. الطريق: قند، صُنغور آباد، سفر - خوجه. لقاء هنا مع اسد الله بك. الطريق: قزوين، سلطانية، سانجون، قول تبه. مرض الدكتور وولف. استقبال حميم للدكتور وولف في تبريز من بونهام؛ معالجته من قبَل الدكتور كاسولاني. الأستاذ أوزروف والقنصلية الروسية. تقديم الدكتور وولف بواسطة الأستاذ بونهام للأمير باهمان ميرزا. الأمير يهدي الدكتور وولف خاتماً ثميناً من الزمرد. خطاب الأمير باهمان ميرزا. السكان الروس في تبريز يَعُدُّون السماح ببقاء موضوع ستودارت وكونولي في وضعه الراهن أمراً مخزياً للحكومة البريطانية. اقتباسات تبيِّن منازل هؤلاء الوكلاء الدبلوماسيين بالتمام: أولاً، من الكابتن جي. كونولي، أخي الكابتن كونولي إلى أخيه المقتول؛ ثانياً، اقتباسات من مراسلات الكولونيل ستودارت؛ ثالثاً، اقتباس من يوميَّات الكابتن كونولي. الحُمق في عدم التدخُّل. الأماكن المقدَّسة التي يزورها الفُرس. النزاع بين الأتراك والفرس حول مسألة الحدود. الكولونيل تايلور والميجور رولنسون. أتباع يوحنا المعمدان، تاريخهم الفريد، بيانهم حول أنفسهم بأنهم أحفاد الكلدانيين ومن نسل إخوة إبراهيم. الاسم الثلاثي للإله، تعميد يوحنا في القفار. نوعان من القساوسة؛ أحدهما ممثِّل المعمدان، والآخر ممثِّل المسيح. كتابهم، سادرا رابا، مؤلفاه المشهوران سيث ويوحنا المعمدان، سكنهم، محاولات غير مثمرة من الأب أجاتنجيلوس لتحويل المندائيين، أو أتباع يوحنا المعمدان. الدكتور وولف ينشئ مدرسة، يحضرها حتى ابن كنز - أورا، أو ممثل عيسى المسيح. يؤكِّدون أن بَحيرا كان راهباً نسطورياً. ويؤكِّدون كذلك أنهم هاجروا من مصر مع اليهود، وانفصلوا عنهم عند إقامة طقس الختان من يوشع.

لغتهم الكلدانية. كنز - أورا تُقْطَعُ يدُه اليمنى بأمر من حاكم البصرة، وهو يؤكِّد أن عدداً من أفراد طائفتهم يسكنون في المغرب. الكاثوليكية تبين أنها مبدأ طبيعي من السلوك الطائفي.

في السابع من نوفمبر تركتُ طهران، يصحبني عباس قولي خان، والسادة: تايلور، وتومسون، وجلن، وأبوت، وردهاوس، وكارابيت، والملحقون الروس. وقبل مغادرتي قام الكونت ميدم بزيارة السفارة البريطانية، وودَّعنا.

وصلت ذلك اليوم إلى قند، التي تبعد تسعة أميال من طهران؛ وهي قرية جميلة، ذات بساتين. وفي الثامن من نوفمبر وصلنا إلى صنغور آباد، التي تبعد ثمانية وثلاثين ميلاً من طهران، وهي تابعة للحاجي ميرْزا أقاسي.

وفي التاسع من نوفمبر وصلنا إلى سفر خوجه. وقد حدثت حادثة غريبة عند وصولي؛ فقد وصل إلى هذه القرية أسد الله بك، الذي كان رقيقاً لعبدالصمد خان، عندما كنت في بخارى. وقد افتدى نفسه مقابل تسعين تيلاه، رغم أن النائب لم يَشْتَرِه قط؛ وإلى جانب ذلك كلِّه، كان الرجل المسكين قد أُجْبِرَ على إعطائه شالاً يُقَدَّرَ ثمنُه بمئة تيلاه. وأعترف أنني افترضت أنه كان مطلعاً على خطَّة النائب لقتلي بواسطة قَتَلَةٍ مأجورين، وقد ظننت أنه أحدُهم؛ ولكنه سرعان ما حرَّرني من هذه الأوهام، وأكَّد لي أن عبدالصمد خان لم يعاملْه أفضلَ مني. وأسد الله بك الآن هو چاپاري الشاه (ساعي البريد)، وقد كان ذاهباً لجمع الأموال في خوي.

وفي العاشر من نوفمبر وصلت إلى قزوين مع المُلاَّ مهدي. وهي بلدة كثيفة، غير أنها، بسبب الطّاعون وعدم وجود الماء، لا يقطنها إلا القليل. وكان كثير من اليهود يسكنونها في السابق، إلا أنهم رُحِّلوا إلى سبز وار، ونيسابور، وتورباد في خراسان. وكانت مكانَ سكنِ العائلة المالكة قديماً. وقد استقبلني

الحاكم، وهو رجل لطيف جداً، في منزله، وعاملني بسخاء عظيم.

وفي الرابع عشر من نوفمبر وصلنا إلى سلطانية، التي بناها الشاه خدابنده، ويوجد فيها ضريح رائع.

وفي الثامن عشر من نوفمبر وصلت إلى سانجون، التي بناها أهاسوكروس[1] حسب الطريقة اليهودية. وكان هناك أحد الجورجيين، ويُدعى يعقوب خان، يشغل رتبة كولونيل، في خدمة الجيش الفارسي، ويمارس في السر شعائر الدين النصراني. وقد قام بتعميد أطفاله جميعهم؛ ولأن زوجته كانت في حالة وضع، فقد طلب مني أن أعمِّد طفله، وقد قمت بذلك، كما قام المُلاَّ مهدي، الذي تحوَّل إلى النصرانية على يديَّ، بدور العرّاب. وقد شدَّدت على يعقوب خان بوجوب الإقرار باسم المسيح علناً؛ ما جعله يلتمس مني أن أوصي به لدى ملكة إنجلترا، من أجل أن يُعيَّن برتبة كولونيل في الجيش البريطاني، ثم قال إنه سوف يذهب مباشرة إلى إنجلترا ويعلن إيمانه علناً بالنصرانية بزيِّ الكولونيل والسيفُ بيده. ولم أستطع أن أُبدِي له أيَّ تشجيع. ووجدت شاباً آخر من الجورجيين، قال إنه إذا لم آخذه إلى إنجلترا، وأوجِّهه في طريق كسب المال، فإنه سيتحوَّل إلى الإسلام رَغْمَ أَنْفِي؛ فأخبرته أن يفعل ذلك.

في العشرين (من الشهر) وصلت إلى قول تبه. وفي الطريق تجاه ذلك المكان التقيت بالمنصِّرَيْنِ الأمريكيَّيْن: بيركنز وستوكنج، فسألتهما من أين أتيا؟ فقال الأستاذ بيركنز: «أنت الدكتور وولف، كما أُخمِّن؟». وقال ستوكنج: «نعم، إنني أعرفه. إنه الدكتور وولف، إذا كان تخميني صحيحاً!». ولم نتمكن

---

(١) هو أحشويروش الأول ابن داريوس صاحب أستير اليهودية، التي ورد لها وله ذكر في التوراة (سفر أستير)، وأنه هو الذي أعاد اليهود من السبي البابلي.

من الحديث كثيراً بسبب غزارة سقوط الثَّلج.

وفي الرابع والعشرين من نوفمبر حُمِلْتُ، وأنا في غاية التعب من المرض، فوق ظهر حصان، وكنت مريضاً لدرجة أنني تَقَيَّأْتُ كثيراً، وقد استولت عليَّ كذلك رِعْدَةٌ شديدة؛ ولذلك أرسلت في الحال غلامَ الكولونيل شيل، الذي اصطحبني إلى تبريز، إلى الأستاذ بونهام، القنصل العام لجلالة ملكة بريطانيا؛ كي يدبر لي تَخْتِرَوان (حمَّالة للنقل)، ولما لم يجد؛ تدبَّر لي واحدة تابعة لأحد كبار الأرمن في تبريز. وقد استقبلني الأستاذ بونهام وزوجته اللطيفة جداً؛ ليس بسخاء فقط، وإنما بمودَّة بالغة كذلك. وقمت بتعميد طفلهما، الذي وُلد عندما كنت في بخارى.

ومن خلال العناية الوَدُود التي أولانيها الدكتور كاسولاني، طبيب الأمير باهمان ميرْزا، استعدت بعضاً من صحَّتي. وبعدها قام الأستاذ بونهام بإقامة وَليمة عشاء عامَّة من أجلي، دعا إليها المسيو أوزروف، والملحقين الروس بالسفارة، ونُبَلاء الأرمن والأغريق. وفي المقابل قام الأستاذ أوزروف بإقامة وليمة عشاء من أجلي، وأخبرني أن لديه أوامرَ من حكومته بأن يقدِّم لي كلَّ مساعدة إذا اعْتَزَمْتُ السفر عبر روسيا. وأخبرني الأستاذ أوزروف أنه قد عمل سكرتيراً خاصاً للأمير جاليتزين، الوزير السابق للإرشاد العام، وخلال قراءة المراسلات الخاصة بذلك الوزير، رجل الدولة، كان يُصادف اسمي باستمرار، مع الوصف المحترم للمساعي التي أقوم بها.

وقد قدَّمني الأستاذ بونهام لصاحب السمو الملكي باهمان ميرْزا، الأمير الحاكم لتبريز وكل منطقة أذْرَبيجَانَ؛ وهو أخو الملك الحالي. وقد كتب لي التوقيع (أتوغراف) الآتي، أضمِّن منه الترجمة فقط؛ وقد أهداني كذلك هدية: خاتماً من الزمرد، يساوي ما قيمتُه ثلاثون جنيهاً.

ترجمة الخطاب من صاحب السمو الملكي باهمان ميرّزا، الأمير الحاكم لمنطقة أذْرَبيجَانَ، فارس، الموجَّه إلى القسِّ جي. وولف، دكتور اللاهوت والقانون... إلخ.

حيث إنه في وقت النصر والهيمنة لجيش الدولة العظمى إنجلترا في بلاد الأفغان، فُقِد ضابطان من تلك المملكة القوية العُظمى في عاصمة حكومة بخاري، وليس هناك معلومات حولهما؛ وفي العام الهجري ١٢٥٩، قام معالي القس جوزيف وولف، الموهوب بحدَّة الذكاء والمعرفة، والزعيم بين النبلاء النصارى، والعميد بين المتعلمين لدين المسيح، المنتمي لعظمة ونبل ذلك الدين، حسنُ الاطِّلاع والملم بكل اللغات، الفائق التعلُّم، الشديد في شهامته ومبحثه، مرجِّحاً في عمله التضحيةَ بحياته وملكه، لعله يقف على حقيقة هذا الخبر، ووصف عناءَ هذه الرحلة الخطرة، التي كانت الخطوة الأولى فيها توديع الحياة، برضى أكثر من البقاء في الدَّعَة. وفي هذه الرحلة الطويلة، التي قابل في كل طريق منها، عدداً من قُطَّاع الطرق لقبائل يموت، وتركمان، والسبتس، ذوي اللغات التاتارية المُعْوَجَّة، الأمر الذي يُعَدُّ مثل الخروج من العالم، وقد أوْدَعَ شخصه الفرد خطو الكَدِّ، حتى إنه، بعد ألف نوع من أنواع البلوى، استطاع أن يحقِّق هدفه. وفي الحقيقة، فإن الخضوع لمثل هذه الصِّعاب هو فوق احتمال كلِّ شخص. والآن في نهاية العام الهجري ١٢٦٠، عاد ووصل إلى عاصمة حكومة تبريز، لذا كان لزاماً علينا أن نكتب وصفاً لمدى الصعوبات التي رأيناها وسمعنا عنها، بخط يدنا هذا، بأنه في أية ولاية وفي كل بلد قد تفضي كتابتنا إلى زيادة تقديره واحترامه. ونأمر، إضافة لذلك، الحاكِمين والسادةَ والنبلاءَ والزعماءَ في بلد أذربيجان، وعند كل محطَّة، وفي كل رحلة من زمن مروره، أن يُعنَى الجميعُ بالقسِّ سالف الذكر،

ويعاملوه بلطف واحترام. وكذلك، إذا رجع بعد هذا إلى آذربيجان، فإنهم يجب أن يتصرَّفوا حسب هذا الأمر.

كُتب في شهر ذي القعدة ١٢٦٠ هجرية الموافق الثاني عشر من نوفمبر حتى الحادي عشر من ديسمبر ١٨٤٤م.

وقد لحظ السكان الروس في تبريز، وكذلك الإغريق، مع الإنجليز أنه سيكون أمراً مُخزياً للحكومة البريطانية لو تُرك أمر مقتل ستودارت وكونولي يُهْمَلُ هكذا، فليس من شك في أنهما كانا مبعوثَيْن سياسيَّيْن، أرسلتْهما الحكومة، وأن كونولي ذهب إلى بخارى بتوجيه من الكولونيل ستودارت.

ولإثبات صحة هذه الفكرة، أقدِّم:

أولاً: اقتباسات من خطاب للكابتن جي. كونولي، أخي الضابط الفقيد موجَّه إلى أحد الأقارب:

يبدأ آرثر (رحلة) في غضون أيام قلائل متَّجهاً إلى كوركان. وستكون مهمَّته ممتعةً، وستعلم عن أهدافها بقراءة خطاب يعتزم آرثر إرساله إليك.

إن المبعوث هو سعيد الحظ آرثر. وسيكون طريقه عبر الصحراء إلى خيوه، وإذا سمحت الظروف، فإلى بخارى. وسيكون لديه إمكانية اكتساب مجد عظيم. وقد عُرضت المهمةُ على السير إيه. بيرنز بدايَةً، غير أنه رفض السفارة؛ وقال السير وليام إنه يستطيع بصعوبة الاستغناء عن خدماته من هذا المكان، (كابل). ولا شك في أن آرثر سيكتب إليك قريباً بشأن مهمَّته.

ثانياً: الخطاب الآتي من الكولونيل ستودارت:

يوليو، ١٨٤١م

قد تكون قرأتَ أن كونولي سيعود، ومن المحتمل أن يصحبني إلى هناك، فقد وُضع تحت تصرُّفي. لقد دعوته أن يعود من طريق هذا الخط... وقد استفدت

من زيارة الكابتن كونولي هنا؛ ما جعلني أقترح على الأمير أن يرسلَني، حيث إن الكابتن كونولي لديه أمر بأن يتوقَّف هنا إذا ما رغب الأمير في ذلك.

ثالثاً: الاقتباس الآتي من يوميات الكابتن كونولي نفسه:

عندما وصلت إلى هنا، عمل ستودارت كلَّ ما في وُسعه لكي يقدِّمني؛ ولَكنْ مادام الأمير يحتجزه، فسوف أُحيل إليه - بوصفي وكيلاً بريطانياً مُعتَمَداً - كلَّ المراسلات أو الأعمال التي قد يعهَد بها الأمير إليَّ؛ فإنه يعرف الناس هنا جيداً، وإن كرامة حكومتنا بأمان بين يديه.

ومما استرعى انتباهي إلى الحقيقة: أن هذا التوضيح يُناقِض تصريح عبدالصمد خان. وأعترف بأنه ينقُضه بالكامل، وهو يضيف فقط كِذْبَةً أخرى لآثام ذلك الوغد التي لا تُحصى، فإن البيِّنة السابقة كافية تماماً لإثبات أنَّ ترك هذه المسألة نائمة كما هي، لا يمكن أن يُفْضِيَ إلى احترام الحكومة البريطانية؛ فإن أفغانستان وبخارى قد تحطَّمتا من خلال تلك التَّعْويذة التي تقيِّد الجنَّ والعَفَاريتَ في هذه المناطق، بقوة تُضاهي القوة الأسطورية لخاتم سليمان. وإنه لأمرٌ حسنٌ أن يكون هناك حكومة مثل حكومة اللورد إلينبورو ببَسالة وفروسية نابيير في السند، كظاهرة البرق الباهر والمذهل، وكالنصر الأخير الصعب المنال لقواتنا على السِّيخ، التي يخشى الشرق منها الآن؛ ولكن دع النقائض تَتْرَى، وسترى عندها ما إذا كانت إمبراطوريتنا الهندية ذات المئتي مليون لن تكسر التعويذة التي قيَّدتهم دون حراك، لِمَا يقارب القَرْنَ. ومَنْ سيقول بأن ذبح مبعوثَيْنا في بخارى، كونه مَرَّ دون انتباه لم يسهم - بالتَّزامُن مع الأحداث في كابل - في تَجَرُّؤ السِّيخ الأخير في مقاومتهم الأخيرة لقواتنا[1]؟ إن المسألة هي

---

(١) من المثير للسخرية حقاً أن المؤلف، وهو رجل دين يزعم أنه ينشر الرحمة والمحبة=

عدم المبالاة تجاه المبعوثين والضباط. وأنا أتفق مع رأي حكيم الزمان الغابر، القائل بأن أفضل شكل للحكومة: «حيث يكون جَرْحُ أقلِّ الرعايا شأناً، هو إهانة للمجتمع بأسره».

لقد تحدَّث الحكيم عن الإهانة؛ وأتحدَّثُ أنا عن جريمة قتل. وأسأل: أيُّ بلد لديه مثل هذا التساهل في صيانة شرفه، وصون حياة كل شخص من رعاياه الأقل شأناً، مثل إنجلترا؟ ناهيك عن ضباطها المتميِّزين. ويمكنني أن أضيف أكثر... ولكني أمتنع عن استخدام تلك الكلمة؛ التي ستبلغ بنا الذروة في الخزي. ولا أتحدَّث عن الماضي؛ ولا أُجَرِّمُ أحداً، وأترك ذلك للآخرين؛ ولكني أُلِحُّ في السؤال: هل ستبقى الأمور هكذا؟ هل سنسمح لوصمة العار هذه أن تلطخ صفحة شرفنا الوطني؟

يزور الفُرس الأماكن الآتية: أولاً، كربلاء، بقرب بغداد، حيث دُفِنَ الإمام الحسين. ثانياً، الكاظمية، بالقرب من كربلاء[1]، حيث يوجد ضريح الكاظم. ثالثاً، مشهد؛ وهي المدينة التي تضمُّ قبر الإمام الرضا. وبعد زيارة هذه البلدان، يتلقَّى الشخص لقب كربلائي، ومشهدي، وكاظمي. وكنت أمْزَحُ باستمرار معهم، وأقول: «حيث إنني قد زرت مشهد، فيجب أن تدعوني مشهدي يوسف وولف». ولكنهم بعد أن يَحُجُّوا إلى مكة والمدينة، يُسقِطون هذه الألقاب، ويصبح الواحد منهم حاجي، مثل باقي المسلمين.

= والسلام، ينتفض لمقتل اثنين من مواطنيه، لكنه ينكر على الشعوب المحتلة من بني جلدته أنفسهم حقها في الثورة على من يحتلها. إن البشاعات التي ارتكبها الجيش البريطاني في حق الشعب الهندي، ولاسيما مسلميه، يعجز العقل عن تصديقها. انظر التعليق فيما سبق هامش صفحة (٢٩٤).

(١) كربلاء ليست قرب بغداد، والكاظمية ليست بقرب كربلاء، بل في بغداد نفسها، وتقابل الأعظمية، وبينهما نهر دِجْلَة.

ويَسُـود الآن عـداءٌ خطيـرٌ بين الفـرس والأتراك؛ والسـبب الذي من أجله نشب الصـراع، كما بيَّنت، أنه كـان هناك مندوبون إنجليـز وروس في أرضـروم، من أجل الحَيْلُولة دون وقوع حروب. وقد انفجـر الخلاف بدايةً بسبب الحدود؛ ولكن باشـا بغـداد عـمل على زيادته بإرسـال قـوات إلى كـربلاء، وتسبَّب في مذبحـة للشـيعـة فـي ذلك المكان، الأمـر الذي لـن يُنسى أبداً. وإنني آسـف أشد الأسف على أنَّ تصرُّف الكولونيل تايلور، القنصل البـريطاني العام في بغداد، في تلك المناسبـة قـد استُنكِر. وقد تم استبـداله لعدم تدخُّله لمنع الأتراك من الزحف إلى كربلاء؛ فهو رجل رائع، وذو ثقافة مذهلة، وممن يجيدون الكثير من اللغات بصورة مدهشة، وهو يعرف أكثر من عشـرين لغة. وعلى أية حال، يبدو أنه اعتـمـد على مـرؤوسـيـه الأرمن أكثـر من اللازم، وعلى وجـه الخـصـوص خاشيك. وآمل أن تُعيِّنه الحكومة في منصب آخر.

وعلى كل حـال، فـقـد قـامت الحـكومـة، من أجل الحـفـاظ على سُـمـعـتهـا، بإرسـال رجل غـيـر عـادي إلى بغداد؛ هو الميـجـور رولنسـون، الذي كـسب شـهـرة واسـعة في قندهـار، والمفضَّل جداً لدى الحكومة الهندية. وهو إلى جـانب ذلك، عـالم رائع باللغـات العـربيـة والفارسـيـة والتـركـيـة، ومُحسِن متحمِّس. وإنه لأمـر مُسَلٍّ للغـايـة أن تعلم أنَّ هـذين الرجلين (الكولونيل تايلور والميـجـور رولنسـون) مـداومـان على السـهـر حـتى السـاعـة الثـالثـة صبـاحـاً، ويتـحـاوران حـول بعض الجذور العـربيـة، كما نقل لي هذه الأخبـار صديقي الكولونيل فـارانت. وسمعت أن الميجور رولنسون يهتم بتزويد المنصِّرين بالحماية الكافية.

ولن أنسـى أبداً لطف الكولونيل تايلور، والمعـونة التي أَسْـداها إليَّ عنـدمـا مكثت معه ستة أشهر في البصرة، مستغرقاً في عمل البحوث بين أنصار يوحنا المعـمـدان، الذين يُسـمَّوْن كـذلك بـالمندائيـين حـيـاة، أي: «أتبـاع الإله الحي»،

ويتظاهرون بأنهم أحفاد الكلدانيين، وأنهم من نسل إخوة إبراهيم؛ وعندما نادى إبراهيم بوَحْدة الإله الواحد، يَرْوُونَ أن إخوة إبراهيم تبعوه. ولكن عندما أقام إبراهيم طقس الخِتان، نظروا إليه برعب، وانفصلوا عنه. غير أنهم واصلوا عبادة الإله الواحد الحي بثلاثة أسماء: حياة قدميا، وحياة تنيانا، وحياة تيتايا؛ أي: الحي في الدرجة الأولى، والحي في الدرجة الثانية، والحي في الدرجة الثالثة.

وعندما ظهر يوحنا المعمدان، تلقَّوا التعميدَ منه في البريَّة؛ ومنذ تلك اللحظة صار لديهم نوعان من القساوسة؛ فهم يقولون: أحدهما يسمَّى تورميدا؛ الذي هو ممثِّل المعمدان، وكنز - أورا؛ الذي هو ممثِّل عيسى المسيح؛ ويتمُّ تعميد ممثِّل عيسى المسيح كلَّ يومِ أحد من ممثِّل يوحنا المعمدان في نهر الفُرات[1]. ولديهم كتاب عظيم يسمَّى سدرا رابا، ألَّفه شيث ويوحنا المعمدان كما يقولون. ويَرْوُون أن يوحنا المعمدان دُفن في شوستر، السوس القديمة، في خوزستان. وهم أنفسهم يقطُنون في عدة أماكن بالقرب من الفرات؛ هي: البصرة والقرنة وسوق الشيوخ وشوستر ودزبول، ويصل عددهم إلى ستة آلاف.

ويروي البابا أجاتنجيلوس - وهو منصِّر كاثوليكي رومي، قبل قرابة مئة عام، وقد أعطاني القسُّ الكاثوليكي الرومي في البصرة عام ١٨٢٤م يومياتِهِ في مخطوطٍ له، والذي أعطيتُه بدوري لجمعية لندن لتشجيع النصرانية بين اليهود - يروي أنه بذل جهوداً غير مثمرة لتحويل المندائيين إلى الدين الكاثوليكي؛ غير أنني، بمساعدة الكولونيل تايلور اللطيفة، أنشأت مدرسةً في

(١) أغلب الصابئة المندائيين عاشوا ويعيشون على شاطئ دجلة، والقليل منهم يعيش على شاطئ الفرات.

البصرة؛ جعلت الكنز - أورا، ممثل عيسى المسيح، يرسل ابنه إليها، وكان تقدُّمه في تعلُّم الإنجليزية جيداً.

ويغنِّي المندائيون المساكين، وهم كما هم مضطهدون من المسلمين:

نحن مَقْمُوعُونَ من المَخْتُونِينَ،

والدُّفُّ والرقص غادرا نَواظِرَنا.

ويعتقدون أن بَحِيرا - الراهب الذي كان في بُصرى، والذي ساعد محمداً[1]، وكان المؤرِّخون النصارى يقولون إنه راهب نسطوري - كان مندائياً. ويقولون كذلك: إنه عندما كان اليهود في العبودية في مصر، عاشوا معهم، وقد قُمِعُوا مثلهم من المصريين؛ وعندما أُغرِق فرعونُ في البحر، هاجروا مع بني إسرائيل إلى جبل سَيْنَاء، وعاشوا هناكَ متفاهمين مع اليهود، ولكنهم انفصلوا عنهم عندما قام يوشع بإحياء طقس الختان.

ومن الجدير بالذكر أنه في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج قيل إن حشداً مختلَطاً خرج مع بني إسرائيل؛ وأن الختان - حسب يوشع - أُهمل في الصحراء، ثُمَّ أعيد؛ وأن لغتَهم الكلدانيةُ. وقد قام الكنز - أورا - الذي كان أستاذي في لغة الصابئة، وأستاذ الكولونيل تايلور كذلك - بكتابة بعض الرموز الغامضة فوق جزء من جسم زوجة الحاكم - الذي هو في العادة مستور عن الأنظار - من أجل صياغة تعويذة للحفاظ على الحمل؛ ما جعل الحاكم يصدر أمراً بقطع يده اليمنى؛ ولذلك فهو يكتب بيده اليسرى. وأكد أن عدداً كبيراً من طائفتهم كانوا يقطنون في صحاري فاس ومكناس في المغرب.

---

(١) سبق التنبيه على ضعف الروايات التي تقول بلقاء الرسول ﷺ ببحيرا الراهب في أثناء رحلته إلى الشام، وننبِّه هنا على أن بحيرا لم يساعد رسول الله ﷺ في شيء، ولا علَّمه شيئاً مما تزعمه النصارى.

وهناك شيئان جديران بالانتباه فيما يتعلَّق بالطوائف الصغيرة: أنهم عادةً ما يؤكِّدون أن أعداداً كبيرة من كيانهم تعيش في بلدان بعيدة؛ وكذلك يفعل المندائيون. وقد أخبرني السامريون في نابلس الشيءَ نفسه، فقالوا إن أعداداً من أهلهم يعيشون في لندن وباريس. ويبتهج المعمدانيون في إنجلترا كثيراً عند سماعهم أن هناك طائفةً توجد على ضِفاف الفُرات، والذين، هم مثلهم، يُسمَّوْنَ أنصار يُوحَنَّا المعمدان، ويُعَمَّدون في الأنهار. هذه اللهفة من جانبهم تدل على أن الكَثْلَكَةَ مبدأ طبيعي موروث.

الفصل الرابع والعشرون

طائفتان رئيستان عند المسلمين: الشيعة والسُّنَّة. حفلة راقصة يقيمها بونهام، والراقصون كلُّهم رجال. موت السيدة بونهام. شامل بك: طُرْفَةٌ له مع الجنرال نيدهارت. الكلدان في جبال كردستان، الدكتور وولف يعتقد أنهم ليسوا من القبائل العشر، كما يُؤَكَّدُ في العموم. نسطوريون أم كلدان. ادعَاؤُهُمْ بأنهم لم يصبحوا من أتباع نسطوريوس، ولكنهم ببساطة استقبلوه بلطف بينهم. حكومة الأساقفة الموروثة بينهم. مقموعون من الأَكْرَادِ. السير ستراتفورد كاننج يتدخَّل نيابةً عنهم. مار يوحنان، أسقف أورميه: خطابه المكتوب بالإنجليزية. وصف دقيق لعمل الأستاذ آينز ورث حول آسيا الصغرى... إلخ. أرمن تبريز يقيمون حفلَ عشاءٍ عامّاً للدكتور وولف. وثيقة من باهمان ميرْزا للدكتور كاسولاني. داود خان. محاولة لإلغاء الأشكال العتيقة من المنصِّرين البروتستانت، محاولة غير حكيمة. إدوارد بورجيز، ووضعه التَّعس. خطاب موجَّه منه إلى الدكتور وولف. مغادرة الدكتور وولف تبريز. الطريق: مايون، ديسا خليل، تسوج، سيد حاجي، خوي. السَّفَرُ الخطير من هذه النقطة. سرقة السادة تود وأبوت. الأكراد يُجبِرون الأستاذ تود على ابتلاع المَرْهَم الذي بحوزته. الطريق: سورابا، كاراين، ليبا. أواجيك. الثلج يجبر الدكتور وولف على امتطاء الحصان. باشا أرضروم يرسل حرسَ شرفٍ للدكتور وولف. خطابات من الكولونيل وليامز.

سأتناول الآن قليلاً من النقاط التي تتعلَّقُ بالطائفتين الرئيستين عند المسلمين؛ الشيعة والسنة. ولكون الفُرس من الشيعة، فهم يمارسون الخداع حيثما حلُّوا في بلدان يكون السُّنَّة فيها في السلطة. وهذا النظام من الخداع

يسمُّونه تَقية. لذلك، مثلاً، فإن الشيعة يُصلُّون وأيديهم مُسْبَلَةٌ، مثل الجندي عندما يكون في تدريب، ويضيفون اسمَ عليٍّ في صلواتهم، ويلعنون خمسَ مرات في اليوم أبا بكر وعمر وعثمان في صلواتهم؛ ولكنهم عندما يكونون بين السُّنَّة، فإنهم يُؤَدُّونَ عبادتهم وأيديهم مضمومةٌ على صدورهم، ويحذفون اسم عليٍّ، ويحذَرون من لعن أبي بكر وعمر وعثمان.

وقد أخبرني أحد المسلمين في مشهد أن محمداً نفسه أوصى الشيعة بممارسة التقية في حضرة السنة. وعندما ذكَّرته بأنه في زمن محمد لم تكن التفرقة بين السنيِّ والشيعيِّ موجودة، قال لي إن محمداً تنبَّأ، من طريق روح الوحي، بأن مثل هذا التفريق يجب أن ينشأ.

وقام الأستاذ بونهام بإقامة حفل راقص بمناسبة وصولي. وجعل فرقة الأمير تعزف موسيقى أوروبية، غير أن الراقصين لم يكونوا سيداتٍ ورجالاً، وإنما جميعهم رجال. وحضر الحفل القنصل العام الروسي، الأستاذ أوزروف، ومعه كل الملحقين بالسفارة، والتجار الإغريق المحترمين، من بيت رالي، وهي شركة أُنشئت في تبريز والقسطنطينية ومرسيليا ولندن ومانشستر. وقد لبسوا ملابسي التركمانية، والثوب الذي أعطاني إياه أمير بخارى، وكان أكثرَ المناظر إثارةً للضحك. وقد بقيت السيدة بونهام في الغرفة الأخرى؛ حيث كان بعض الفُرس حاضرين.

وقد حزنتُ بصدق عندما سمعت، بعد مغادرتي، عن وفاة تلك السيدة الرائعة، التي ماتت بحُمَّى التيفوس، ورحلتْ عنا الآن. وقد كانت من أكثر النساء وَرَعاً ورَهافةَ حسٍّ، كما أنها جميلةٌ بشكل فاتن، مع بساطة تُشْبِهُ بساطة الأطفال، ولم أقابل مثلَها قط. وكانت ابنةَ السير وليامز فلويد، البارون، الذي يقطن في بروكسل. ولسوف أتذكَّر دائماً السيد بونهام والقديسةَ

زوجته مع مشاعر الامتنان والبهجة.

وقبل مغادرتي سمعت كذلك في تبريز الكثيرَ عن شامل بك[1]، أحد الزعماء الأقوياء في داغستان، الذي ثار وأعلن الحرب على إمبراطور روسيا القوي، وتدور الآن حرب دَمَوية في تلك المنطقة، وقد أُرسل الجنرال وورنزوف لمجالدته. ورغم أن الصراع محتدم، ويساند ساكني الجبال ضباطٌ بولنديون، إلا أنه ليس هناك من شك في أن شامل بك في النهاية، ورغم كونه رجلاً شَهْماً شجاعاً، لا بد أن يستسلم لعملاق الشمال. وقد سمعت طُرْفَةً عن هذا الزعيم والجنرال نيدهارت، الحاكم العام لجورجيا:

فقد أصدر الجنرال نيدهارت إعلاناً بالمعنى الآتي: إن أي شخص سيُحضر رأس شامل بك سوف يتسلَّم وزن الرأس ذَهَباً. وعندما سمع شامل بك بهذا، أرسل خطاباً إلى الجنرال نيدهارت، معبِّراً لمعاليه عن امتنانه للتقدير العظيم الذي أبداه لرأسه، وذلك بوضع قيمة عالية له، غير أنه من جانبه أَسِفَ لأنه لا يستطيع أن يبادله الإطراء؛ إذ يؤكِّد لمعاليه أنه لا يستطيع أن يعطي قَشَّةَ تِبْنٍ لأي شخص سيأتي برأس الجنرال إليه.

---

(١) شامل علي بن دانمغان (١٧٩٧-١٨٧١م): أحد رواد الجهاد الإسلامي في القفقاس. عربي الأصل، قاد جهاد بلاده - دينياً وسياسياً - ضد روسيا. عُرف عهده بـ (عهد الشريعة)، كونه طبق أحكامها في بلاده. أسرته القوات الروسية، وبقي في الأسر نحو عشرة أعوام. سُمح له بأداء فريضة الحج (١٨٧٠م)، ومات في المدينة المنورة. مدحه المؤرخ برنارد لويس، كما أنصفه تولوستوي في روايته: الحاج مراد. أنصفته الموسوعة السوفيتية الكبرى، وعدَّدت صفاته وقدراته ومهاراته، واعترف خصومه المعاصرون له - وعلى رأسهم القيصر الروسي ألكسندر الثاني - بصفاته المدهشة. كُتبت في سيرته عشرات الكتب والمقالات، ووُضع عن حياته مصنف بالعربية لابن شقيقه عبدالرحمن.

وهنا قليل من الكلمات حول الكِلدان القاطنين في جبال كردستان؛ فهؤلاء الكلدان - كما لحظ جيداً المأسوفُ عليه الدكتور جرانت - من أصول يهودية، رغم أنني لا أستطيع أن أتمادى وأؤكِّد أنهم من القبائل العشر، حيث إنهم لا يعرفون نسبَهم. وهم الآن في معظمهم نصارى، وعدد منهم تحوَّل إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولهم بطريرك في ديار بَكْرٍ.

والكلدان الحقيقيون، الذين يُدْعَوْنَ كذلك نسطوريين، لهم بطريرك يُدعى مار شمعون، وكان حتى السنة الفائتة فقط يقطن في خوجانز. وعلى أية حال، هم يحتجُّون بأنهم ليسوا نسطوريين؛ وقد قالوا لي في عام ١٨٢٥م، عندما زرتُهم في سلماست وأورميه: «إن نسطور أتى إلينا، واستقبلناه بلطف، ولم نَعُدَّهُ مرشداً لنا، ولكننا نعده أخاً لنا في المسيح». وهم يشبهون كثيراً البروتستانت في ألمانيا وإنجلترا؛ إذ ليس لديهم تماثيلُ ولا أَدْيِرَةٌ، وقساوستهم متزوِّجون.

وعلى أية حال، فإن الوقار الأسقفي موروث، وكذلك ما يخصُّ البطريرك، ففي الوقت الذي تحمِل أم البطريرك فيه، فإنها تمتنع عن شرب النبيذ وأكل اللحم، وفي حالة ما إذا وُلد لها ولد، يكون هو البطريركَ، أما إذا كانت بنتاً، فإنها مُلزَمة أن تتقيَّد بالعُذْرية الأبدية.

والكلدان الآن مُضايَقون بقسوة من الأكراد؛ الذين ذبحوا عدة آلاف منهم، وجرحوا كثيرين، وهي شَناعات تُرتكب بتحريض من الباشا والقاضي في الموصل؛ وكان هذا أمراً مستغرباً جداً أن يسمح السير ستراتفورد كاننج العظيم بحدوثه. وقد تدخَّل لدى الباب العالي، وتمَّ استدعاء باشا الموصل والقاضي للمُثول أمام السلطان؛ وأُرسل الكولونيل فارانت الشهمُ إلى الأكراد للتحقيق في الأمر، كما بُعِثَ الأستاذ ستيفنز، نائب القنصل البريطاني في

سامسون؛ لكي يفتدي الرقيق الكلدان الذين استعبدهم الأكراد، وقد حقَّق نجاحاً جيداً في ذلك.

وكان صديقاي؛ الكولونيل وليامز، والأستاذ برانت، في أرضروم، قد وظفهما السير ستراتفورد كاننج للحصول على حماية الباشا السابق الرائع لأرضروم، أو الحاجي النصراني الكلداني، كامل باشا، الذي لم يكن باشا أرضروم فقط، ولكنه سيراسكير[1] على كردستان كافة. وقد قام بتلك المهمة بفعالية؛ غير أن الباب العالي كشف في ذلك - كما في كل شيء آخر - عن أكبر قدر من البَلاهة وعدم المُلاءمة التَّامَّة لإدارة الحكومة، باستدعاء ذلك الباشا الرائع بعد رحيلي من أرضروم، وإرسال أتعس مخلوق إلى أرضروم خَلَفاً له.

وزارني في تبريز مار يوحنان، أسقف أورميه في تبريز. وهو رجل ذو ذكاء وافر، وقد تعلَّم اللغة الإنجليزية من المنصِّرين الأمريكيين، وزار أمريكا. وقد كتب إليَّ خطاباً وصل إليَّ في لندن، أضمِّنه كما وردني:

أورميه، ٢٧ مارس ١٨٤٥م

عزيزي وصديقي المحبوب، يسرُّني كثيراً أن أكتب إليك هذه الرسالة، غير أنني لا أجد الوقت المناسب. وأرغب كثيراً في رؤيتك، والتحدُّث إليك. وآمل ألاَّ تنساني. هل ستذكرني في صلواتك في كنائسكم، عندما تصلي من أجل الناس؟ إن صلواتك ستكون بركات لنا، وسوف ترشدنا إلى السماء؛ وستكون نوراً لطريقنا. وقد كتبتُ خطاباً آخر موجَّهاً إلى كبير أساقفة لندن. أرجو منك أن تكتب جواباً، لكي أعلم، حيث إنني أريد أن أحضر إلى بلدكم، وأرى شعبكم. ولو

---

(١) سيراسكير: لفظة تركية تعني: القائد العسكري العام، أو وزير الدفاع.

سمحت، أريد أن أحضر معي صَبِيَّيْنِ أو ثلاثة؛ عَلَّهمْ يتعلَّمون لغتَكم. إنهم يعرفون القليل من اللغة الإنجليزية.

عزيزي، لقد تعاهدنا في طهران على أن نذهب سوياً إلى لندن؛ لكنك تركتَني في تبريز وذهبتَ. وآمل الآن أن ترسل إليَّ خطاباً حول ذهابي إلى بلدكم.

الله يحفظك ببركاته في مملكة السماء!

صديقك المحب، مار يوحنان - أسقف أورميه

إن الخطاب يدل بذاته دلالة كاملة على الشخصية البسيطة لهؤلاء الأساقفة الكلدان. ويسرُّني أنَّ الأستاذ آينزورث يتفق معي على أن الكلدان ليسوا نساطرة، فقد تأكَّد لي، بالتجربة الشخصية، أن التفاصيل الواردة في مُجَلَّديه المُمتِعيْن جداً، المُعَنْوَنَيْن: «رحلات وبحوث في آسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين وبلاد الكلدان وأرمينيا»، هي مما يمكن الاعتماد عليه بالكامل.

أَوْلَمَ لي كبار الأرمن في تبريز مَأْدُبَةَ عشاءٍ عامةً، دُعي إليها القنصلُ العام الأستاذ بونهام، وبقية الإنجليز الساكنين في تبريز، والقنصل العام الروسي، مع الموظَّفين الروس.

ويجب أن أعبِّر هنا عن شكري للدكتور كاسولاني، الطبيب المالطي، الذي عالجني من الهجمة الخطيرة الثانية للحُمَّى الصَّفراوية. وكان الدكتور كاسولاني قد عُيِّنَ طبيباً للأمير الحاكم، باهمان ميرْزا، بوثيقة رسمية تحمل الفَحْوَى الآتية:

«أمر ملكي: إن حَصَافَةَ الدكتور كاسولاني، وذكاءه وعلمه، وروعة الكرامة الرفيعة، والمقام العالي؛ وما يتمتع به من إخلاص وصدق، وكونه موهوباً بحسن التمييز والتقدير، والقُدرة على النفاذ والفهم، وبروزه بين نبلاء العالم النصراني؛ وهو

طبيب وجَرَّاح إنجليزي، كل هذا أثبت في قدح العقل المحترم، وأظهر لفهم اللامعين والفهم الملكي - وخصوصاً في هذا الوقت، ولأن المداواة التي أدَّاها في هذا المكان آتَتْ أُكلَها مَوْسُومَةَ بالحكمة والعلم، والمعالجات التي أجراها في هذا البلد كانت فعَّالةَ ومفيدة في كل تكوين وكل مزاج - أن من الواجب علينا أن نُلْحقَ بمعيتنا - خصيصاً - شخصاً من هذا النوع، مشهوراً، وجديراً بالثناء على مهارته المُجَرَّبة. كما أننا في هذا العام، ذي الدلالة السعيدة، قمنا بتسجيل العالي في مقامه، المذكور أعلاه، في صفوف تابعينا؛ ومن أجل مكافأة هذه الخدمة، منحْنا ووهبْنا ثلاث مئة تومان راتباً للمقام العالي المذكور أعلاه؛ على أن يتسلَّمها كلَّ عام؛ كي يستخدمها في مصاريفه، وينفقها على حوائجه؛ ما يجعله متفرغاً للمداواة والعلاج بهدوء وسَكينة. وبالنظر إلى ما يمكن أن يحدث لكبير أعضاء الأسرة المالكة وأبنائه الأمراء؛ فيمكنه - حسب درجة مهارته - أن يجتهد في فحص ودراسة أجسادنا، بحيث يتيح له ذلك زيادة الفضل الملكي عليه بشكل يومي.

يتسلَّم أعضاءُ سكرتارية الدولة المحترمون نسخةً من هذا الأمر، ويكون مُلزِماً من تاريخه».

قمت بزيارة داود خان، وهو كولونيل في خدمة الجيش الروسي؛ وجورجيٌّ أصيل، لذا فهو ليس مُغرَماً جداً بالأرمن. وقد أخبرني ما أعرفه سلفاً - حين كنت في جورجيا في عام ١٨٢٥م - من أن اليهود الجورجيين الأصليين أَرِقَّاءُ لنبلاء جورجيا، أو، كما يسمَّوْن أولئك النبلاء: كنياز. وأول هؤلاء هو أريستوف أمير الكنياز في سوران؛ والثاني: كوستانتيل، في مخرم باتون؛ والثالث: الأمير كالافنتان، في سيكوي. وأقدِّم هذه الأسماء؛ فربما تشعر الجمعية اليهودية بالميل إلى إرسال بعض الممثلين إلى هناك.

إن أصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة الجورجية هم حسب الدرجات الآتية:

١- الشَّمَّاس؛ ٢- أوديلي (قس)؛ ٣- بهسي (راهب)؛ ٤- ديكانوجي (كاهن)؛ ٥- زينام جواري (أسقف)؛ ٦- كاتوخليكوس (رئيس الأساقفة).

وستكون محاولة المنصِّرين البروتستانت إلغاء الأشكال الكَهَنُوتِيَّة بين النصارى الشرقيين غير ذات جدوى. ويبدو أننا ننسى أن العقل البشري هو مثل الشيء السائل الذي لا يمكن أن يحقِّق الاستمرارية إلا في وعاء. ولقد أدرك الدكتور جرانت، ووتنج، وجودويل ذلك، فتركوا الأشكال كلها دون تغيير. ويجب التنبيه على أن الدكتور ساوثجيت، وهو منصِّر أمريكي أسقفي في القسطنطينية، اكتسب محبَّة الأسقف الأرمني في القسطنطينية وعاطفته؛ وذلك لسلوكه الحكيم حيال هذا الأمر.

ويجب عليَّ ألاَّ أنسى ذكر اسم الشاب المثير للاهتمام، وسيِّئ الحظ في تبريز: إدوارد بورجيز، المطَّلع اطِّلاعاً جيداً على اللغة الفارسية؛ فهذا الشاب الرائع عَمِلَ لدى الأمير باهمان ميرْزا، مترجماً للصحف الإنجليزية، وكان أخوه في خدمة الحكومة الفارسية، التي سلمته عدة آلاف من التومانات وأرسلته إلى إنجلترا لشراء سِلَعٍ، وبقي المسكين إدوارد بورجيز ضامناً لشرف أخيه؛ لَكِنَّ أخاه قام بكل صَفَاقَةٍ تدعو إلى الخجل بإهمال الوفاء لشرفه، وترك إدوارد لنتائج إخلاصه الكبير؛ ولذلك فهو محتجَزٌ في فارس بسبب أخيه المختلس. إن الشاب المسكين سيكون في أقصى حالات الإحباط، إذا لم يقم الأستاذ بونهام، والقنصل العام الروسي، والتجَّار الإغريق، ببذل كل ما في وسعهم لخدمته. وقد أخبرني، والدموع في عينيه، أنه كتب أربع مرات إلى الكولونيل شيل دون أن يتلقَّى أيَّ جواب منه، رغم أنه كتب إليه بصفة

رسمية بوصفه أحد الرعايا البريطانيين. مثل هذا الأمر يجب أن تتمَّ تسويته؛ ففي بلد مثل فارس، لا شيء أكثر احتمالاً من أن يُباع بورجيز رقيقاً عند وفاة الملك. وإنني أتألَّم بشدة حين أضطر لقول مثل هذه الأشياء، ذلك أن توصيل الخطاب الثاني من الشاه إلى بخارى بوساطة الكولونيل شيل، أنقذ حياتي بالتأكيد؛ غير أنني فرد واحد، وقد تمَّت التوصية بي بشدة، لكن يجب على السفير أن يهتمَّ بأقلِّ الرعايا شأناً.

وكانت ترجمة خطاب الأمير باهمان ميرزا، المذكورة سابقاً، من صنع الشاب بورجيز، وقد أرفقها لي مع الملحوظة اللطيفة الآتية، التي أدرجها هنا:

تبريز، الثامن من فبراير ١٨٤٥م

سيدي العزيز، أرسلت إليك ترجمة خطاب الأمير الذي كتبه إليك بوساطة رسول الإرسالية التنصيرية الفرنسية، الذي انطلق في الأول من يناير. وأنا واثق بأنها وصلت إليك بسلام. لم أكتب إليك عندما أرسلت تلك الترجمة؛ لأنه لم يكن لديَّ إلا القليل من العلم حول موعد مغادرة الرسول. آمل أنَّ ترضيك الترجمة. لقد جعلتُها قريبة من الفارسية قدر الإمكان من أجل الخروج بمعنًى منها، وقد حاولت، بالقدر الذي تسمح به لغتنا، أن أُبقي على التعبير الفارسي؛ وأنت تعرف، كونك مطَّلعاً على اللغة الأخيرة، كم هو صعب ذلك؛ فاللقب «معالي» المُعطَى إليك في الخطاب قد يبدو غريباً في أوروبا، ولكنه الترجمة الوحيدة التي يمكنني أن أعطيَها لكلمة جَنَاب. وهي في هذا البلد، تُستخدم فقط لعلماء الدين ذوي المقامات الرفيعة والسُّفَراء، وتُترجَم دائماً كما فعلتُ أنا. وقد أخبرني أحد سكرتارية الحكومة، وهو على اتصال مع الأمير، أن صاحب السموِّ الملكي منحك هذا اللقب؛ لأنه فهم أن لك مقاماً دينياً رفيعاً في إنجلترا، ولذلك رغب في أن يعطيك نفس اللقب والاحترام

كما هي العادة في مخاطبة علمائهم المسلمين.

لقد سمعتَ، ولا شك، بالوفاة المأساوية للمسكينة السيدة بونهام؛ لقد تُوُفِّيَتْ في الثلاثين من ديسمبر، بعد مرض لم يَدُمْ سوى خمسة أيام.

آمل أن يلقاك هذا الرسول وأنت سالم مُتَخَطٍّ الصِّعاب كلَّها. وقد سمعنا عن وصولك إلى أرضروم، وأنك لم تكن على ما يرام؛ ولا شك في أنه قبل أن يصل إليك هذا (الخطاب) فإنك تكون قد عُدت إلى بلدك، وكان اللقاء لقاءً سعيداً مع أسرتك.

لقد غادرت في توقيت جيد؛ فالشتاء كان أكثرَ قسوةً. وأعتقد أن حوالي مئتي إنسان ماتوا في الثلج في الأطراف الملاصقة لهذه البلدة، بجانب أولئك الذين أصيبوا بالضعف والشَّلَل. وكان الثلج في الكثير من الأماكن قد تراكم إلى مستوى يتساوى مع جدران حقول الكرم التي تحيط بالبلدة، وأشار الترمومتر إلى العشر درجات تحت الصِّفْر، أو اثنتين وأربعين درجة تجمُّد. والحياة تقريباً كانت مثل العيش في مكان مُحاصَر، وكانوا باستمرار يأتوننا بأخبار حول فقد مزيد من الرجال. وخلال الأيام العشرة الأخيرة كان الطقس أكثر اعتدالاً، واليوم ويوم أمس كنا نتمتَّع بيومين ربيعيَّيْنِ دافئين، واختفى الثلج والجليد بسرعة.

أنا يا سيدي العزيز خادمك المطيع: إدوارد بورجيز

في النهاية عزمت على مغادرة تبريز. وقام الأستاذ أوزروف، القنصل الروسي العام، بإقامة حفل عشاء لي، وأهداني تختروان (حمَّالة)؛ فَلِكَوْنِي مريضاً، لم أكن قادراً على امتطاء الحصان. غادرت تبريز في التاسع من ديسمبر؛ وقد صاحبني السادةُ بونهام، وأوزروف، والدكتور كاسولاني، وداود خان الأرمني، وكلُّ الملحقين الروس، والتجار الإغريق مسافة طويلة، وصاحبني

أخو الدكتور كاسولاني حتى خوي. وقد قام الأوروبيون كلُّهم بتحيتي من القلب عند مغادرتي، مع الكثير من الهُتاف النابع من الأعماق.

في مساء التاسع من الشهر نمنا في قرية تُدعى مايون، وتبعُد ثمانية أميال إنجليزية من تبريز. وفي العاشر منه ذهبنا إلى ديسا خليل، التي تبعُد أربعةً وعشرين ميلاً إنجليزياً من المكان الأخير. وفي الحادي عشر وصلنا إلى تَسُوج، على بعد أربعة وعشرين ميلاً. وفي الثاني عشر، وصلنا إلى سيد حاجي، التي تبعد أربعة وعشرين ميلاً. وفي الثالث عشر وصلنا إلى خوي، وقد كانت بلدةً ذاتَ شأن في سالف الزمان، ولكنها مدمَّرةٌ تقريباً بالكامل من الزلزال. وهي الآن في اضطراب عظيم، إذ إن لها حاكماً، وبجانبه أحد إخوة الحاجي، رئيس الوزراء، ويزعُم أنه حاكم كذلك، ويقوم بعمل كل شيء رغماً عن أنف الحاكم الحقيقي، ولا يجرؤ الأمير باهمان ميرْزا، الأمير الحاكم لأذربيجان على ردعه، خوفاً من إغضاب أخيه الحاجي.

وقد توقَّفت هناك حتى الخامس عشر من الشهر في منزل أحد الفُرس الذي كنت أحمل إليه خطاباً من أرمن تبريز، بعدها توجَّهت إلى بِيريا، وكنت دائماً في التختروان، فلم يكن ضعفي المتناهي وداءُ الكبد ليسمحان لي بالركوب على ظهر الحصان. وهنا لاح الخطر العظيم للسَّفَر، بسبب الأكراد، الذين يهجُمون كلَّ مسافر، والذين هجموا، قبل بضع سنوات، السيدين تود وأبوت، وسلبوهما كلَّ ما يملكان. وبعد أن جرَّدوا المسكين تود من كل شيء، أخذوا مَرْهَمَهُ العِطْريَّ، وسألوه عمَّ يكون؟ فقال إنه زُبْد؛ فتذوَّقوه، ولم يَسْتَسِيغُوهُ، فأجبروا المسكين تود على التهام عدة علب منه. وقد أُخبرت أنه لم يستطع أن يتحمَّل أكل لحم الخنزير منذ ذلك الحين، وكان مُشمئزّاً من البلد، وقد أقسم قسماً مغلَّظاً ألاَّ يبقى في فارس؛ وقد تركها بالفعل، مع أنه كان

يُدفع له مبلغ جيد، وعاد إلى القسطنطينية، حيث كان ملحَقاً دون مقابل، ولكن من دون مَرْهَمٍ عِطْرِيٍّ، إلى أن نُقل ملحقاً في هانوفر.

لقد حصلت على هذه الرواية من مسؤول كبير، هو صديقه الحميم، الأستاذ ليارد، الذي يُنعم النظر في التفاصيل الكاملة لكل شيء، ولا يترك شخصيةً في منصب دون أن يسبُر غوْرَها. وعلمت أن الأستاذ تود كتب عني شيئاً، وهو مجاملةٌ أرجو إعفائي من ردها. إنه، على أية حال، شخص ممتاز، على الرغم من كل هذا.

وفي السادس عشر من ديسمبر وصلنا إلى سورابا؛ التي تبعد أربعةً وعشرين ميلاً إنجليزياً من خوي. وكان البرد شديداً والثلج قد بدأ في السقوط، وازداد تأثير داء الكبد عليَّ. وعلى أية حال، واصلنا رحلتنا، ووصلنا إلى كاراين، التي تقطن فيها ثماني أُسَرٍ أرمنية، وكان أفرادها من القذارة بمكان؛ ولكن بما أنهم يعرفون الطريق، فقد اتفقتُ مع أحدهم على أن يرافقني إلى أرضروم، من أجل أن يُجَهِّزَ في كل مكان نحُلُّ به مأوًى لنا بين الأرمن؛ لأن صحَّتي كانت غيرَ مستقرَّة، وأملت أن أبقى في منازلَ نصرانية، بحيث لو مِتُّ، فقد أُدفن بصورة مقبولة، وعلى الطريقة النصرانية. وبعد أن اتَّفقت معه على أن أعطيَه اثنين من الدُّوقات ومؤونته مقابل مرافقتي، أخبرني القسُّ الذي أوصى به أنه لن يسمح له بالذهاب ما لم أمنحه شيئاً مقابلَ توصيته؛ فأعطيته شيئاً من المال مقابل سماحه أن يغادر ابن أخيه معي.

ورغم أنني مُحايدٌ تجاه الأرمن عموماً، إلا أنه يجب عليَّ القول: إن الكهَانة حول تبريز وخوي - مع أولئك القساوسة من الشعب الكلداني الذين تحوَّلوا إلى الرومانية، والقاطنين في سالمست، وباشقالا، وخسرو، وأورميه - تجلب أكثر الناس فساداً، وهم يؤدُّون دور المشاكسين للأوربيين ذوي النزعات المنحرفة.

وهناك، بعد عدة أميال من كاراين، يوجد دير أرمني، يُدعى تاتوس أراكيل، التي تعني الحواري ثاديوس، حيث يُعتقد أن ذلك الحواري وعظ هناك. وفي ذلك الدير ستة قساوسة، ويسمُّون وردابيت.

وقد احتجزتْنا في كاراين: كولاك (عاصفةٌ). بعدها وصلنا إلى سيبا، التي تبعُد سبعة أميال. وفيها سقط الثلج بقوة، وتجمَّد السكان الأصليون ذلك اليوم حتى الموت، فأُجبرت على أن ألزم المنزل؛ لكنَّ الأرمني الذي اصطحبته معي أصابني بالاشمئزاز بعاداته القذرة. إن قذارةَ ذلك الرفيق شيء لا يمكن استيعابُه تقريباً.

وفي العشرين من ديسمبر توجَّهنا إلى أواجيك، وهي البلدة الحدودية الأخيرة لفارس. واستقبلني خليفة قولي خان، حاكم ذلك المكان، بلطف بالغ، وسألني - في سياق حديثه معي - ما إذا كنت سمعت أيَّ شيء عن ماك نيل صاحب، وكامبل صاحب.

ورأيتُ في منزله حالةً غريبة جداً؛ رأيت هناك خادماً فارسياً للكولونيل فارانت، من أرضروم، أرسله مُكَبَّلاً بالحديد إلى فارس، من أجل أن يتلقَّى العقاب المُلائم من الحاجي في طهران. وقد دخل غرفتي وقَدَماه مقيَّدتان بالحديد، تصطلم إحداهما بالأخرى، ثم جلس بهدوء ودخَّن غليوناً، وسألني عدة أسئلة بعَجْرَفَةٍ بالغة. وبعد أن سألتُ عن سبب كونه مُكبَّلاً بالحديد، أمرته أن يغادر الغرفة، فامتثل للأمر. واضطررت أن أترك التختروان خلفي، بسبب سقوط الثلج غير العادي، ولأنه وجب عليَّ تَسَلُّق جبال أرمينيا؛ فقد كنت مضطراً إلى امتطاء صهوة الجواد.

رافقني خليفة قولي خان نفسه بعض المسافة، ثم أرسل اثني عشر خيَّالاً معي، وكانت لديهم أوامرُ بمرافقتي حتى قِزل - ديسا، التي تبعد خمسة عشر

ميـلاً من أواجيك، وتقع ضـمن سـيـادة السلطان. وبوصـولي إلـى هناك، وجدت قَوَّاساً؛ أي: حـرس شـرف، أرسله إلى هنـاك قبل أربعة وعـشـرين يومـاً مـعـالي باشـا أرضـروم، الحـاجي كـامل باشـا، مع خطاب ترحـيب من صـديقي العـزيز الكولونيل وليـامز، الذي أفادنـي بأنني سـأجد هـنـاك الكولونيل فارانت، الجسور والودود، وبـأنني عند اقـتـرابي من أرضـروم يجب أن يخـرجـوا لاسـتـقـبـالي، ويقـدِّمـوا لي ثلاثة هتـافـات؛ وفي الوقت نفسه يذكِّرني بوعدي أن أمكث مـعـه، وليس مع صديقي الأستاذ برانت، القنصل البريطاني. كم كان هذا مبـهـجاً لي! ولو كان وليامز موجوداً في طهران عند عودتي إليها، فإنه بالتأكيد كان سيجعل من دِل آسا خان والحاجي إبراهيم أُمْثُولَةً تُعْتَبَر!

الفصل الخامس والعشرون

الطريق: قزل ديسا، أوج كيليسا. روح نيرسيس، كاتوخليكوس الكنيسة الأرمنية، جهود قَيْصَر لتوحيد الكنيستين الأرمنية والروسية. الطريق: يونج آلو، قره كيليسا، مُلاَّ سليمان، سيديكان. الدكتور وولف يُجْرَحُ بسبب سقوطه عن ظهر حصانه. الطريق: دهلي بابا، كوماسور، كوبر كوي، حسن قلعة. خطابات من الكولونيل وليامز والأستاذ برانت. خطاب من الكولونيل وليامز إلى الكابتن جروفر. الوصول إلى أرضروم. المعاناة المريرة للدكتور وولف. لطف الكولونيل وليامز، والأستاذ برانت، والسيد والسيدة ردهاوس تجاه الدكتور وولف. موت السيدة بونهام. الرسول من بخارى إلى إنجلترا يصل إلى أرضروم. خطاب من السير ستراتفورد كاننج. لقاء الدكتور وولف والأستاذ برانت والكولونيل وليامز والكولونيل فارانت، مع كامل باشا. كامل باشا يروي لهم لقاءه مع الرسول المرسَل من بخارى إلى إنجلترا. مغادرة أرضروم. الطريق: مي منصور، سازا، ماساد، بيبوت، حاجي كوي، جوموش خانه، أرداسي، يركوبري، ياسير أوغلو. خطاب من السيد ستيفنز.

اتجهنا إلى قزل ديسا، وتابعنا المسير باتجاه ديادين. وفي طريقنا إلى هناك كانت السماء صافية، ولم تُشاهَد سحابةٌ واحدة حتى عبرنا بين جبلين مُغَطَّيَيْن بالثلوج؛ عندها فجأة هبَّت الريح من كلا الجانبين، وأثارت مِنْ على القمَّتين كميات كبيرةً من الثلج في وجوهنا. قام القوَّاس بالإمساك بلجام حصاني، وقال وهو يهمز حصانه: «دعنا نحاول العبور من ذلك الممرِّ المرعب بأسرع ما يمكننا؛ فإننا إذا لم نفعل، فسوف نُدْفَنُ في الثلج، فإن هذا هو الكولاك» (أي: العاصفة، أو الإعصار). وبعد دقائقَ قليلة من الركوب تَلَبَّدَت السماء بالضَّباب، الذي حجز الريح، وبذلك عبرنا سالمين من خلال ذلك

الممرِّ الخطير، ووصلنا إلى ديادين. وهناك خطرٌ في هذه البلدان عندما تكون السماء صافيةً، أكثر من كونها ملبَّدةً بالضَّباب الكثيف.

في الثالث والعشرين وصلنا إلى الدَّير الأرمني الخاص بـ أوج كيليسا، أي (الكنائس الثلاث) التي قدَّمتُ وصفاً لها، إذ سبق أن أتيت إلى هنا مرتين. وفي ذلك الدير وجدت مخطوطاً قديماً للإنجيل باللغة الأرمنية؛ وَسَيُسَرُّ صديقي جاي. إتش. فرير، حين يعلم أنني نظرتُ - من أجله على وجه الخصوص - في سفر دانيال، الإصحاح الثامن، الفقرة ١٤، والتي يوجد فيها الرقم ألفان وأربع مئة[1]. وهكذا فإن المخطوطات العبرية في بخارى وفي أدريانوبل وفي أوج كيليسا تؤكِّد فَرْضِيَّته.

تقع أوج كيليسا بالقرب من مراد، أي الفرات. وقد وُضِعَ الدَّيْرُ مباشرةً خلف جبل، ويكون عبور مراد بوساطة جسر؛ لذلك فإن الجو في الشتاء يكون بارداً جداً، وهناك تقريباً كولاك مُتَوَاصِلٌ.

وقد أخبرني رئيس رَهْبَنَةِ الدَّيْرِ، بما كنت أعرفه من قبل، أن نيرسيس الكبير، الذي كان رئيسَ الأساقفة في تفليس سابقاً، قد نفاه باسكيوفتش إلى بيسرابيا، بسبب شخصيته غير المَرِنَةِ، ورفضه التخلِّي عن أي حقوق للكنيسة الأرمنية. وقد قام الإمبراطور نيكولاس، في لفتة ودية باقتراح نيرسيس للكنيسة الأرمنية بوصفه مرشَّحاً يستحقُّ أن يتمَّ اختياره كاتوخليكوس في إتش ميازين.

وقد تعرَّفت إلى نيرسيس عندما كنت في تفليس عام ١٨٢٥م؛ لقد كان رجلاً جليلاً، عالماً باللغتين الأرمنية والروسية. وكان فكره موجَّهاً بالكامل نحو المحاولة الكبيرة لإحياء روح نيرسيس شنور - هال، ونيرزير اللامبروني في شعبه. وقد حاول إصلاح شعبه دون أن يشبعهم بروح التجديد الألماني. وأنشأ المدارس لشعبه في جميع أنحاء جورجيا، وهناك تُقْرَأَ كتابات ميسروب، وتلك

---

(١) انظر التعليق فيما سبق ص (٢٦٢).

التي كتبها نيرسيس شنور - هال وموسى كوريناري. وفي هذه الخطابات يذكّر أبناءَ بلده بأنهم أحفاد الملك أبغار، الذي يقارَن مع إلهنا. وقد جعل شعبه يتعلَّم؛ ليس اللغة الأرمنية فحسب، ولكن الأدب الروسي كذلك.

وقد تحدَّث إليَّ هذا النيرسيس العظيم، عندما كنت في تفليس، بالأسلوب الآتي حول المسيح: «كلُّ أداة، وكل مادة استُخْدِمَتْ لصلب المسيح، تُعَلِّمنا درساً:

١- الثلاثون من الفضة: هي رمز للسعر البَخْسِ الذي من أجله ينبذ المذنب إمكاناته للحياة الأبدية.

٢- المِشْكاة التي بواسطتها قاد يوداس[1] العِصَابة إلى المسيح: هي رمزية للضوء الكاذب الذي تنشره الحضارة الحديثة.

٣- القيود التي أُوْثِقَ بها المسيح: هي رموز لقيود المحبَّة التي أحبَّنا بها، وهي على الضدِّ من قيود الخطيئة التي تستعبدنا.

٤- صوت الديك: رمز لصوت الضمير.

٥- السِّياط: رموز للتهذيب الأبدي.

٦- الحبل الأرجواني: عقوبة ذنب الدم.

٧- إكليل الشوك: الصعوبة التي يحصل المرء معها على تاج المجد.

٨- صَوْلَجان القصب: تَذَبْذُبُ الإرادة.

٩- العَفص والمرَّة: مرارة القلب.

١٠- الحوض الذي غسل فيه بيلات[2] يديه: رمز النفاق، وتزكية الذات، والتي من خلالها يبحث الضمير القَلِقُ عن مسوِّغات وأعذار.

١١- النقش على الصليب ومع الصليب: يُظهر مَنْ هو ضده، وأن قلب الإنسان

---

(١) يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح. (المترجم).

(٢) بانتيوس بيلات الحاكم الروماني لجوادي (في القرن الأول من الميلاد)، الذي ترأَّس محاكمة المسيح. (المترجم).

متمرِّد، ويُبَيِّنُ إلى أي مدًى يمكن حمل عداء الإنسان ضدَّ الله.

١٢- إلقاء القُرْعَة: رمز حماقة الإنسان في تعريض الإنقاذ الأبدي للخطر والشك».

كان لنيكولاس الكبير آمالٌ في توحيد الكنيسة الأرمنية مع الكنيسة الروسية، ورغم أن رأيي في كون الملك رئيساً للكنيسة هو مبدأ إنجيلي، إلا أنني أعتقد أنه سيجد صعوبة في تنفيذ الأمر. وقد أثبتت محاولات إنشاء اتحاد بين البروتستانت عجزها؛ وليس ذلك فحسب، ولكنَّ المجتمعات النصرانية، التي عاشت بسلام بين بعضها، تفكَّكت لُحْمَتُها فور أن كانت هناك محاولة مباشرة لإنشاء اتِّحاد بينها؛ وهكذا. فمثلاً، ما سُمِّي إفانجليتش كرخه؛ أي اعتقاد الطائفة السويسرية، التي عاشت في تناغُم تامٍّ مع الطائفة اللوثرية، حتى حاول ملك بروسيا السابق توحيدهما؛ ما جعل البروفسور كروتزر، في هايدلبرج، وآخرون معه يثورون على ذلك. وهكذا أخفقت المحاولة لإنشاء اتحاد بين الكنيستين الإغريقية والأنجليكانية؛ وكذلك ستخفق المحاولة الأخيرة التي جرت لتوحيد الكنيسة اللوثرية مع كنيسة إنجلترا، بل إنها أخفقت فعلاً. إن أفضل طريقة لتوحيد الكنائس النصرانية هي منح كلٍّ منها المساعدة للأخرى في تلك الأشياء التي تحتاج إليها الكنائس النصرانية، وإبداءُ مشاعر الوُدِّ تجاه بعضها بعضاً؛ من طريق محاولة كلِّ فرع في محيطه أن يدفع بروح الحماسة المقدَّسة من أجل مجد الإله، وإعلاء مملكته، ومن خلال إبراز كل فرع منافسة مقدسة في ممارسة القيم النصرانية، وعندها يتحقَّق أفضل اتِّحاد بينها.

وأنا أسأل هنا: هل هناك اتِّحاد داخل نطاق الكنيسة الكاثوليكية الرومانية؟ وأسأل كذلك: هل هناك أي اتِّحاد بين الكاثوليك الرومان؟ وحتى قبل أن يُستثار رونج لاحتجاج علنيٍّ ضد جلباب تريفز[1] كانت مدارس هرمس، وسيلر، وجوسنر

(١) coat of Treves: هو جلباب مقدَّس عند النصارى، يعتقدون أن السيد المسيح كان يرتديه عند الصلب، وهو محفوظ في كاتدرائية تريفز الواقعة على نهر موزل بألمانيا.

تَلَقَّى المعارضة نفسها، ليس فقط ضد روما، ولكن أيضاً لمدرسة كيلي، وحتى أكثر من اللوثريين والإيفانجلكان.

وأسأل: هل معهد اللاهوت في براغ، حيث يدرس كاسبار رويكو، وبولزانو، وبيزل، على وئام مع الوحدة التي تُدَرِّس في روما؟ أليس هناك فرق جليٌّ حدث في النمسا بين الكاثوليك الرومان وما يسمَّى روملنج؛ أي الرومانيون؟ ولماذا يَتَّهِمُ الكاردينال سيفيرولي علناً يوهانس يان، أستاذَ الأدب الشرقي، بالهَرْطَقَة؟

وأطرح سؤالاً إضافياً: هل المدارس اللاهوتية في إيطاليا موحَّدة؟ ومثلاً: هل هناك فرق بين تدريس تامبوريني في بافيا، وما يفعله البروفسور بياتي، أستاذ اللاهوت العَقَدي السابق في كوليجو رومانو في روما؟.

وأسأل أيضاً: هل سيجرؤ الدكتور وايزمان على التدريس في روما كما يفعل في أوسكوت؟.

ليس هناك اتحاد بين الكنائس، ولا توجد قاعدة متَّسقة تعيد تأسيس تلك الوَحْدة؛ ولن تقوم وَحْدة حتى مجيء سيدنا إلهنا عيسى المسيح ليحكم الأرض؛ عندها سيذهب الشعب إلى القدس، وسيتحدَّث الناس لغةً واحدةً.

توقَّفت في دير أوج كيليسا يوماً واحداً، وعاملني رُهبانه بلطف. وكان هناك أحد الأرمن من أنقورا، وقد تذكَّر أنه سمعني أعِظ اليهود في أنقورا، أو أنقورو كما يسمِّيها الأتراك.

وأنقورو أقصى نقطة في الشمال الشرقي الذي أخضعه الأسكندر الأكبر، وهي عاصمة غالاطيا. ويشيرون هناك إلى المنزل الذي وعظ فيه القدِّيس بول. وقد أخضعها كذلك هارون الرشيد وابنُه المأمون. وهي المركز التجاري الرئيس لتجارة آسيا الصغرى، وهي بالتأكيد، من ناحية الموقع والخصب، أجمل مكان في آسيا الصغرى؛ فشَعَرُ الحرير من المَعْزِ، والأَلياتُ السمينة من الأغنام، وحلاوة الكُمَّثْرَى فيها، وتفَّاحها فوق جبل آلم تاغ، تَفُوقُ - كما أخبرني ماكارديتش

الأرمني - كلَّ فواكه الجَنَّة، بينما تَسْبي الصخور الرومانسية المحيطة بالمكان عينَ أكثر الرَّحَّالة بلادةً. ويشتهر سكانُها بكونهم راقصين حاذقين على الحبال. والمدينة مملوءة بالأديرة الخاصة بدراويشَ مشهورين، ويوجد بها كلية طاش كبري زاده، الموسوعي الكبير. وقد أخضعها كذلك السلطانُ مراد.

إن نصارى أنقورو الأرمن والكاثوليك والإغريق هم أكثرُ نصارى الشرق وُدّاً ونظافة وكرماً وتعلُّماً، ويعاملون اليهود معاملةً جيدة. وقد تحدَّثتُ مع رئيس رهبان أوج كيليسا والرهبان فيه حول الحياة الأبدية، وترجمت لهم كلماتِ الملعون، كما وصفه أوغسطين:

«أوه! سَرْمَدِيَّة عظيمة ومملوءة بالرعب! الويل لنا - وإلى الأبد - ويل! الويل لنا حين وُلدنا! الويل لنا بأننا لا نستطيع أن نموت! نحن نحيا موتاً أبدياً! ونحن غائبون عن الوعي، ونحن نَذْبُلُ ونضعُف، ومع ذلك نحن نتحمَّل إلى الأبد، حيث لا موتَ يُنهي موتَنا! إن نهايتَنا ليس لها نهاية! إنها لحظة عشناها ببهجة، ولكننا مصلوبون إلى الأبد!».

في الرابع والعشرين وصلنا إلى يونج آلو، التي تبعد من أوج كيليسا خمسةً وعشرين ميلاً إنجليزياً، وفيها أخبرني أحد القساوسة أن اللِّتُرجي الأرمنية ألَّفها نِيرسيس، ومِيسروب، ويِكنيشا، وإسحاق، في القرن الرابع.

وفي الخامس والعشرين (وكان يوم عيد الميلاد) وصلنا إلى قره كيليسا، التي يسكنها الأرمن كذلك، والذين كانوا متلهِّفين جداً لمعرفةِ ما إذا كان الشعب الإنجليزي متَّحداً مع كنيسة روما أم لا. وقد أعطيتُهم شرحاً كاملاً لهذه النقطة. وتمنَّيت أن أرحل في ذلك اليوم نفسه إلى مُلاَّ سليمان، ولكنني فوجئت بسقوط الثلج، الأمر الذي أجبرني على البقاء، وإلى جانب ذلك كنت واهناً جداً، ما جعلني أرسل رسولاً مُسْتعجلاً إلى الكولونيل وليامز، مخبراً إياه بقدومي الوشيك.

وفي السابع والعشرين اتَّجهت إلى مُلاَّ سليمان. ولا يمكن بحال من الأحوال

وصفُ الكراهيـة المُسـتحكِمـة بين الأرمن والأرمن الكاثوليك. وقـد رفض الخـادم الأرمني والقسُّ الأرمني اللذان صـحـبـاني، أن يذهبـا مـعي إلى منزل القس الكاثوليكي الأرمني، وبدلاً من ذلك فضَّلا تَركِي والذَّهابَ إلى منزل أحد المسلمين.

ومن مُلاَّ سليمان ذهبنا إلى سيديكان، التي تبعد خمسة أميال إنجليزية. وقد حجزني الثلج هناك. ويتَّسم سكانها من الأرمن بالقذارة الشديدة، إلى حدٍّ أنه سيكون من غير اللائق وصفُها.

وفي الثلاثين من ديسمبر وصلنا إلى جبل طاهر؛ ولأنني رغبت في عبور الجبل بسرعة، إذ كنت متخوِّفاً من أن نُفاجَأ بكولاك، فقد نَهَزْتُ حصاني للأمام؛ ما أدى إلى سقوطي سقطة عنيفة، وسقوط الحصان معي، وحُملتُ وأنا فاقدُ الحسِّ، وأُحضرت مربوطاً على ظهر الحصان إلى كرد علي، التي يقطنها الأكراد، وتوقَّفت في منزل حسن آغا. وقد أثار الباشا الحالي لأرضروم الرعبَ بين الأكراد في جواره المباشر؛ لكنني عُومِلْتُ بشكل حضاري، غير أني تُركت في حظيرة مع الأبقار والخيل. ولا يرتدي معظم الأكراد في القرى العمامات، ولكنهم يرتدون قبَّعات تَتَسَدلُ إلى الخلف، مثل أهل مالطا. ولغتهم أكثر اللغات فساداً؛ وهي خليط من التركية والفارسية، ولذلك يَشيع هذا المثل بين الفرس:

أربي واسع آست — فارسي شيرين آست

تركي هونور آست — كردي خار آست

والذي يعني أن: العربية لغة واسعة؛ والفارسية حلوة؛ والتركية قوية، أما الكردية، فهي لغة الحمير.

وفي الحادي والثلاثين من ديسمبر وصلنا إلى دهلي بابا، التي يُوجد فيها كنيسة أرمنية واحدة وثلاثةُ قَساوسة.

وفي الأول من يناير نمنا في كوماسور.

وفي الثاني من يناير وصلنا إلى كوبر كوي، وكان الطقس فيها شديد

البرودة؛ ومن هناك واصلنا إلى حسن قلعة، وقد استقبلني الحاكم التركي بكرم بالغ، وسلَّمني الخطابات اللطيفة الآتية من الكولونيل وليامز وقنصلنا:

أرضروم، الثالث من يناير ١٨٤٥م

عزيزي الدكتور وولف، أتوسل إليك أن تجتهد وتأتي إلى أرضروم. سيكون من الجنون أن تلتمس العلاج وأنت قريب جداً منا؛ سنقوم بتمريضك، وسنعيدك إلى الوضع الطبيعي في أيام قليلة. وقد أرسل إليك برانت بعضَ النبيذ، الذي قد يكون سيئاً بالنسبة إليك في نهاية المطاف. وسوف أخرج لأول قرية هذا المساء؛ لذلك أتوسَّل إليك أن تتشجَّع وتأتي. نحن كلُّنا مستعدُّون لاستقبالك، وإذا لزم تنويمك، فإننا سنكون من يمرِّضُك.

المخلص لك دائماً:

دبليو. إن. وليامز

أرضروم، الثاني من يناير ١٨٤٥م، مساء الخميس

عزيزي وولف، يسرُّني أن تكون قريباً جداً منا. تسلَّمت ملحوظتك من دهار، وطلبت من الباشا أن يرسل إليك تختروان أو مَزْلجَةً. وسوف يرسل رجلاً ليأمر أمير حسن قلعة كي يبذل لك كل عناية، ويزوِّدك بتختروان أو مزلجة. وقد قال الباشا إن أمير حسن قلعة يمتلكهما؛ ولكن في حال لم يفعل، فإن الباشا يطلب منك الانتظار حتى يرسل إليك شخصاً من هناك. وفيما يتعلق بالدكتور ديكسون، فإنه سوف يذهب مسروراً إلى حسن قلعة، لو كنت مريضاً جداً ويتطلب الأمر مساعدتك في الحال؛ غير أنه يعتقد أن من الأفضل أن تؤجِّلَ تلقِّي العلاج حتى تصل إلى هنا؛ لذا لا تضيِّعْ أي وقت في المجيء إلينا. وقد أرسلتُ إليك قنِّينَةَ مارسالا، يوصي بها الدكتور ديكسون، مفضِّلاً إياها على النبيذ الفرنسي؛ ولكن استخدِمْها باعتدال، لأنها قد تكون نافعة لك.

أعلمُ أنك تعتزم اقتسام مسكنك مع الكولونيل وليامز، ورغم أنني أعتقد أنه يجدُر بك استعمال منزلك القديم (ذا كوين آرمز)؛ إلا إنني لا أودُّ الحؤول بينك

وبين رغبتك. وعلى أي حال، بما إنك تحتاج إلى تمريض وتطبيب، فأعتقد أنه من الأفضل أن تأتيَ إليَّ، حيث إنك ستحصل على غرفة أوسع مما سوف يقدِّمه لك الكولونيل ويليامز، ومنزلٍ لن تتعرَّض فيه لنَزَلات البرد. وإلى جانب ذلك ستكون أقربَ إلى الطبيب، الذي يمكنه أن يعودك بسهولة أكثر، وباستمرار في منزلي، مما يمكنه لو سكنتَ على مسافة كَتِلْكَ. وأحسب أنك لن تصل إلى حسن قلعة حتى مساء السبت، وآمل أن تكون هنا يوم الأحد، أو الاثنين باكراً.

شكراً لك على عرض خدماتك لتزويجي، ولكنني لا أنوي الاستفادة من إحسانك الآن. آملاً أن أستضيفَك عاجلاً، وأن أراك تستعيد صحَّتك لتواصل رحلتك.

وصدِّقني، عزيزي وولف، أنني صديقك المحب:

جيمس برانت

وأضيف هذا الخطاب الموجَّه إلى الكابتن جروفر لأبيِّن الاهتمامَ الكبير الذي يوليه ذلك المحسن البارز، الكولونيل ويليامز، لمهمتي:

أرضروم، ٢٨ نوفمبر ١٨٤٤م

عزيزي الكابتن جروفر، عليَّ أن أشكر لك ملحوظتك المؤرَّخة في الخامس من سبتمبر، والتي وصلت إليَّ، بواسطة التَّتَري التركي، وقد تسلمتها بالأمس فقط، وأعتقد أن ذلك نتج من تأخيرها في وزارة الخارجية. ومنذ ذلك التاريخ لا بد أنك تسلَّمت خطاباتي التي تعلن عن الهروب المحظوظ للدكتور وولف من بخارى، ووصوله إلى مشهد، ولم يكن ذلك قبل قيامك، على أية حال، برحلتك الخيِّرة إلى سانت بطرسبورج، التي علمتُ بنبأها حين أعلنتِ «الجالجناني»[1] في إصدارها الأخير نبأ عودتك إلى لندن.

لقد أرسلت يوميات الدكتور العجوز الطيب إلى السفير قبل أسبوعين، بختم على الصفحة الأولى، وموجَّهة إليك؛ ولا شك في أنها في طريقها الآن إلى لندن.

---

(١) جريدة كانت تصدر في باريس للناطقين بالإنجليزية في أوروبا.

وبوساطة الغلام الذي أحضر هذا الخطاب المطوَّل، تسلَّمتُ ملحوظة خاصة من الدكتور الشجاع، يخبرني أنه لا بد أن يغادر طهرانَ في الوقت المحدَّد لكي يصل إلى تبريز، ثم يغادرها بحلول السابع عشر من الشهر الجاري؛ لذلك أرسلت اثنين من القوَّاسين التابعين للحكومة، أو الحرس، إلى بلدة بايزيد، على الحدود الفارسية، لمصاحبة الدكتور إلى بيتي. وقد أرسل معالي كامل باشا خطاباتٍ إلى بالول باشا، حاكم بايزيد، مخبراً إياه أن يوفر الحراسة الضرورية عبر منازل القبائل الكردية؛ كما أصدر معاليه أوامرَ تُقَدَّم إلى كل زعماء القرى على طول الطريق، موجهاً إياهم إلى استقبال الدكتور وولف بوصفه صديقاً له، وأن يزودوه بكل ما يمكن أن يحتاج إليه (خيل، وغيرها). وقد كتبت إلى وولف بوساطة القواسين، ما يعني أنه سيكون على علم بكل هذا اللطف من جانب حاكمنا الرائع.

ورغم أنني لم أسمع عن وصوله إلى تبريز، إلا أنني أتوقَّعُ ذلك قُرب الأول من ديسمبر، وسوف أبذل أقصى جهودي كي أوصلَه إلى طرابزون في الرابع (من الشهر). وحتى أراه، فإنني سأكون قلقاً بشأن ملابسه، فإن الطقس لدينا الآن عاصف وبارد مثل ذلك الذي مر به في طريقه إلى بخارى، وأخشى أنه قد سُلبت منه الجلودُ التي زوَّدتهُ بها! وعندها كانت بهجته لتكون مساوية لتلك التي يحسها تجاه منحه معطفاً واحداً كبيراً؛ والآن، يحمل الحاج الطيب أسفاً على رفاقه في السفر للبحث عن ضحايا بخارى، وتعاسة الركوب اليومي والاستراحة في زرائب الأرمن القذرة. لقد أدَّى عملاً ليس له مثيل تقريباً في الإحسان، وآمل أن يحظى بمكافأة تتناسب مع ما قام به؛ وأعني في هذا العالم.

بينما كنت أكتب لك هذه السطور العَجْلى، زَمْجَرَتْ عاصفة ثلجية في الخارج، وسوف يجعل المظهر المُقْفِرُ أيَّ إنجليزي (إذا ما استطاع معاينته) يُقَدِّرُ جهد وولف الشجاع. وآمل أن أُعلنَ في الأسبوع القادم مُروره عبر أول الممرَّات الثلجية.

وصدِّقني بأنني المخلص لك:

دبليو. إن. وليامز

وفي يوم السبت، الرابع من يناير، غادرتُ حسن قلعة، ووصلت إلى قرية صغيرة، وجدت فيها تختروان أرسله إليَّ معالي كامل باشا حاكم أرضروم، وسراسكير كردستان. وفي الخامس من يناير رحلت عن تلك القرية في تختروان الباشا، واتَّجهت إلى أرضروم. وقد خرج الكولونيل وليامز والأستاذ ردهاوس والكولونيل فارانت للقائي. وكنت في حال لايُوصف من الوَهَنِ والتَّوَتُّرِ النفسي، كما أن جسمي كلَّه كانت تَنْهَشُه الحشرات الطفيلية، ما جعلني لا أستطيع المشي؛ ولذلك ركب الكولونيل وليامز عائداً إلى أرضروم أمامي، وأمر في الحال بإعداد حمَّامٍ تركيٍّ جيد، وأعطاني ملابسَه الكِتَّانية، ثُمَّ أخذني إلى مسكنه المِضْياف، حيث وجدت أصدقائي القدماء الأعزاء؛ السيد والسيدة ردهاوس، والقنصل الأستاذ برانت، والأستاذ كالفرت، والدكتور ديكسون، والأستاذ بيبودي، المنصِّر الأمريكي، الذي أرسل إليَّ ملابس. وقد صافحني الكولونيل فارانت بوُدٍّ. إنه جندي إنجليزي منفتح وممتاز، وكان السكرتيرَ المعيَّنَ للبعثة في طهران.

وقد انشغل الكولونيل وليامز المسكين مدة خمسة أيام في تنظيف جسدي من الطفيليات، ولم يكن ذلك ليجدي نفعاً لو لم يُعطني الدكتور ديكسون مَرْهَماً لقتلها. ولم يسمح لي الكولونيل بالمشي والتجوُّل في الشوارع، فقد كانت مغطاةً بالجليد، وكانت زَلِقَة؛ ولأنه كان لدينا مصطبة جميلة، فقد كان الكولونيل وليامز يأخذني إلى هناك كلَّ يوم، لابساً معطفَ السيدة ردهاوس ذا الفراء، ولفاعاً صوفياً أحمرَ للعنق، وقُفَّازي فرو، وحذاءَي السيد ردهاوس الكبيرين، ما جعلني أبدو بمظهر أحد النبلاء الروس. وقد أنعشتْني تلك التمشِّيات كثيراً، وجعلتني أحسُّ بالتجدُّد في آمالي - التي كنت قد تركتها - بأنني يجب أن أتحمَّل إرهاق المرحلة الأخيرة من رحلتي من طريق البَرِّ إلى طرابزون، عندما قال لي الطبيب: إن هواء البحر سوف يعيد إليَّ صحَّتي وقوَّتي ومعنوياتي تماماً. ولقد أرسل معالي الباشا أخاه للسؤال عن صحتي؛ وكذلك فعل المسؤولون الأتراك الآخرون.

وبما أنني قدَّمت وصفاً لصديقَيَّ العزيزين: جيمس برانت، والكولونيل وليامز، وجب عليَّ أن أقول كلماتٍ قليلةً فقط عن الكولونيل فارانت، الذي أرسلته الحكومة إلى الموصل؛ من أجل التأكُّد من أسباب المذبحة التي وقعت للنصارى النسطوريين على أيدي الأكراد. إنه رجل رائع وصريح. وقد سمع الكثيرَ عني، كما قال؛ وقد أخبره السير جون ماك نيل قصة الزُّنْبُورِ الذي لدغني قبل عشرين عاماً في البصرة، والتي بسببها أحدثتُ هَرَجاً في المنزل، تسبَّب في إيقاظ أسرة الكولونيل تايلور كلها من النوم. ومن الغريب أن مثل هذه القصة غير ذات الأهمية ترحل من البصرة إلى بوشهر؛ ومن هناك إلى طهران، وتثير انتباه الدبلوماسي الكبير السير جون ماك نيل، ثم أُذكَّر بها، بعد عشرين عاماً، من الكولونيل شيل في طهران، والكولونيل فارانت في أرضروم، والسيد أليسون في القسطنطينية؛ وأستطيع أن أقول: ما دام السير جون ماك نيل في أدنبرة، فإنه سيُطلع الجمعيات العلمية لأثينا والشمال على القصة، ومن المحتمل أن تكون قد وصلت إلى داوننج ستريت.

كان الأستاذُ ردهاوس الترجمانَ الرسميَّ للباب العالي؛ وقد كتب قاموساً تُركياً، أمر السلطان بطبعه، وأصدر كذلك كتابَ نحو اللغة العثمانية، وأعتقد أن كلَّ شخص يأمُل أن يوظَّف في أي سفارة شرقيَة يجب أن يحصل عليه؛ ويجب على الحكومة البريطانية كذلك أن تعيِّن الأستاذ ردهاوس أستاذاً للأدب التركي في إحدى جامعاتنا الإنجليزية.

تسلَّمت في أرضروم خطاباً حزيناً من الدكتور كاسولاني، يعلن عن وفاة العزيزة السيدة بونهام، من تبريز، الأمر الذي هزم تقريباً معنوياتي المتدنِّية.

وخلال إقامتي في أرضروم وصل الأمير أبو قاسم، السفير المُرسَل من بخارى إلى جلالة الملكة فكتوريا؛ ورغم أن الكولونيل شيل أخبره أن بلاط سانت جيمس لن يستقبله، إلا أنه كان عاقدَ العزمِ على المُضيِّ قُدُماً في طريقه

إلى القسطنطينية، حيث كان يحمل كذلك خطاباتٍ للسلطان.

وقبل مغادرتي أرضروم، تلقَّيت الخطاب اللطيف الآتي من السير إس. كاننج:

بويوكدير، الأول من أكتوبر ١٨٤٤م

سيدي العزيز، آمل أن يصادفَك هذا الخطاب في عودتك من بخارى؛ وإذا لم يحدث ذلك، فقد تكون الخطابات التركية، التي أُسرعِ الآن في إرسالها، ذاتَ نفع لك. وفي كل الأحوال، ستبيِّنُ الاهتمام الذي يوليه الأتراك، والنصارى جميعاً، فيما يخصُّ سلامتك. وقد أبدت حكومة جلالتها حماسةً تُشكَر لها من أجلك، وذلك بتكليفي رسمياً أن أتفرغ لك. وأخشى، أنه إذا لم تُعنِكَ الخطابات السابقة، فإن هذه أيضاً ليس من المحتمل أن تجلب كثيرَ نفع لك.

ولا بد أن يواسيَك الاهتمام الذي أحدثْتَه أنتَ على العموم؛ وأنا متأكد أن لا أحد يرى أنه يشاركك في ذلك الاهتمام أكثر من الليدي سي. وأنا.

الله يحفظك، سيدي العزيز، ويعيدك إلى أولئك الذين بإمكانهم تقديرُ مواهبك وقيَمك.

وصدقني بأنني المخلص لك جداً:

ستراتفورد كاننج

لن أنسى أبداً صديقي النبيل السير إس. كاننج. وأشعر تجاهه بحماسة لم أشعر بها تجاه أحد آخر؛ وكيف يكون شعوري مغايراً تجاه شخص سدَّد لطمةً قوية للإسلام أكثر مما فعله أيٌّ سفير آخر؟ فبكلمة واحدة منه، وبمساعدة جوزو[1] في باريس، نسف أحد القوانين الإسلامية الأساسية. إن إلغاء القانون الوحشي في دستور المسلمين الخاص بعقوبة إعدام المرتدِّين عن

(١) فرانسيس جوزو: رئيس وزراء فرنسا في سنة ١٨٤٧م، وتوفي في سنة ١٨٧٤م، وكان بروتستانتياً كالفتياً متعصباً.

الإسـلام، لَهُـوَ إنجـاز سـتـفـخـر به أية حكومـة[1]، ويديـن اللورد أبـردين بذلك لسفيرنا المميز في القسطنطينية. ولست متلهّفاً لأن أنكر على سيادته الفضلَ الكاملَ المُستحَقَّ لأي إجـراء من سـياسـته الخـارجـيـة؛ فـقـد بيَّنت خـلال هذا الكتـاب كيف كـان الخَلَلُ والتردِّي في بعض إدارات مكتب وزارة الخارجية؟ غير أنني لست مـعـارضـاً للحكومـة السـابقـة، ولا منحـازاً لأي هـجـوم عـامٍّ على سياستها، وأنا مستعدٌّ في أية مناسبة لأن أعترف بأي منفعة يمكن أن أراها نابعةً من إجراءاتها؛ سواء كان ذلك بإلغاء قانون وحشيٍّ من الإسلام، أم إقامة كنيسة نصرانية داخل حدود القنصلية البريطانية، أم أي إجراء يمكن أن ينزع إلى إعلاء إضافي للخير والمشاعر النصرانية، ومن أجل تقدُّم الأول، فنحن مرتبطون به كرجال، وأمّا الأخير فأكثر من رجال؛ بل بصفتنا نصارى.

لقد قمت مع الكولونيل وليامز، والكولونيل فارانت، والأستاذ برانت، بزيارة معالي كامل باشا. وقد أخبرني أن الرسول القادم من بخارى قد زاره، وعندما سأله عن حجم قوة بخارى، قدَّم له الوصف الآتي المبالَغ فيه: إن حكومة بخارى تحتلُّ ست مئة فرسخ طولاً، وإن ملك بخارى لديه مئتا ألف من القوات النظامية، يدفع لهم رواتب بصورة منتظمة، ولديه ثماني مئة قطعة من المدفعية.

بعد ذلك سأله كامل باشا عمّا حلَّ بستودارت وكونولي؟ فأدْلى بإفادة

---

(١) لا يوجد مسلم يمكن أن يقر بهذا الكلام الذي ينضح غُلاً وكراهية من المؤلف للمسلمين وشريعتهم؛ فالشرع الإسلامي بقوانينه وأحكامه لا يمكن لأي سلطة مهما عَلَتْ أن تلغي أياً منها. وقد يكون لسياسةٍ ما اتخذ الباب العالي إجراءً محدداً في حق أشخاص معينين، وليس الأمر بإلغاء أحكام شرعية في الوقت الذي كانت فيه الدول النصرانية تتدخَّل في شؤون السلطنة العثمانية الضعيفة إذ ذاك.

كاذبة، قال فيها: إن ستودارت وصل إلى بخارى، وبعد وصوله سرعان ما لحظ الملك أن الكثير من السركردها تمرَّدوا؛ فبحث الأمر، واكتشف أن الكولونيل ستودارت كان المحرِّضَ على التمرُّد. وفيما يتعلَّق بكونولي، قال: إنَّ كونولي كان في خوقند، عندما وصل الملك من بخارى إلى هناك مع جيشه؛ وإنه أُسِر ووُضع في السجن، ولم يُعْرَفْ مصيره. وأنكر جملةً وتفصيلاً أنه كان مرسَلاً إلى إنجلترا، وقال ببساطة إن مهمته كانت في ابتعاثه إلى السلطان.

تجمَّع كلُّ أصدقائي الإنجليز، وكذلك الكولونيل داينيزي، المفوَّض الروسي، والسيد جاريبالدي، نائب القنصل الروسي، والسنيور بيرتوني، والمنصِّرون الأمريكيون، في المساء الذي سبق مغادرتي أرضروم، في منزل الكولونيل وليامز، حيث تناولوا طعام العشاء، وشربوا نَخْبَ صحَّتي بمجامع قلوبهم.

وفي السابع والعشرين من يناير، وصل قوَّاس من كامل باشا وقواس آخرُ من الأستاذ برانت، القنصل، ومعهما سائق تختروان، وأناخوا عند باب الكولونيل وليامز. وركب كلٌّ من الكولونيل وليامز، والكولونيل فارانت، والأستاذ برانت، والأساتذة كالفرت، وجوراسينو، وجاريبالدي، وبكر باشا - أحد النبلاء الأتراك الذي زار إنجلترا - خيلَهم، ودخلتُ أنا في التختروان المعدِّ لي، ورافقوني مدة ثلاث ساعات حتى إليجه؛ عندها ودَّعني أصدقائي ذوو القلوب الطيبة بحرارة، وضمُّوني إلى صدورهم، ثُمَّ عادوا إلى أرضروم، بينما تابعتُ أنا رحلتي تجاه طرابزون. وقد أصبح الكولونيل فارانت، وهو جنديٌّ ودود مُفْعَم بالحياة، صديقاً حميماً لي، بحيث كنت أدعوه ابن أخي، وهو يدعوني عمي.

واصلت رحلتي، فوصلت في الثامن والعشرين من يناير إلى مي منصور، التي يسكنها مسلمون. وفي التاسع والعشرين وصلنا إلى سازا؛ وفي الثلاثين إلى ماساد، وفي الحادي والثلاثين إلى بيبوت، حيث سكنت في منزل أحد

الأرمن، وإن لم يكن من أفضلها تنظيماً. وفي الأول من فبراير اضطررنا للبقاء في بيبوت. وكان الدكتور فرانكفورتر؛ وهو يهودي من بريسبرج، في هنغاريا؛ يقيم هناك، وقد وضعتّه الحكومة التركية؛ بوصفه رجل طب؛ للإشراف على الحَجْر الصحِّي. وفي الثاني من فبراير وصلنا إلى حاجي كوي. وفي الثالث من فبراير وصلنا إلى جوموش خانه، حيث سكنت في منزل أحد الأتراك المحترمين، والذي كان رجلاً مسناً، ويُدعى مصطفى. وفي الرابع من فبراير وصلنا إلى أرداسي، وفي الخامس منه إلى يركوبري، وفي السادس من فبراير إلى ياسير أوغلو؛ وهناك تلقَّيت الخطاب الآتي من الأستاذ ستيفنز، نائب القنصل في طرابزون:

طرابزون، السادس من فبراير ١٨٤٥م

سيدي العزيز، تلقَّيت البارحة مذكَّرتك من أرداسي، وتعجلت في أن أرسل إليك محمد آغا القواس التابع لي، ومعه خطابات لك، تراكمت هنا؛ كما تعجلت في كتابة هذه الأسطر للترحيب بعودتك إلى طرابزون، حيث آمل أن تصل بسلام غداً صباحاً. سأكون في المَحْجَر الصحِّي، وسأحضر معي زملائي. وقد تم إعداد شقة خاصة لك. وأفترض أن رسول بخارى سيصل اليوم.

إن القواس التابع لي لديه أوامرُ بأن يتواصل معك، وأن يضع نفسه تحت أوامرك في المحجر الصحِّي. أَرْسِلْه إلى المستشفى الداخلي على الأقل قبل وصولك في الغد بساعة؛ لكي ينبِّهَني. تبعث لك السيدة ستيفنز وأختي تحياتهما.

المخلص، فرانسيس. جي. ستيفنز

الفصل السادس والعشرون

الوصول إلى طرابزون. حماقة وجود الحجر الصحي البري هناك. وصول سفير بخارى. المَخْرَم - أحد أصدقاء الدكتور وولف القدامى - يقوم بزيارته. الدكتور وولف يشعر بالتردُّد في تجديد الصداقة. الزيارات التي تلقَّاها الدكتور وولف عندما كان في الحجر الصحي. خطاب من الكولونيل فارانت. خطاب من السير ستراتفورد كاننج. سفير بخارى يحصل على براءة حجر صحي قبل يوم واحد من مغادرة الدكتور وولف. تصرُّف غريب من باشا طرابزون. خطاب من الأستاذ برانت. المغادرة نحو القسطنطينية. سينوب وسامسون. الوصول إلى القسطنطينية. الدكتور وولف يعظ فوق سطح السفينة فيراجو. خطابات من السير ستراتفورد كاننج، والموقَّر السيد ويليسلي، والسيدة كاننج. لطف القنصلية. رسم غريب للقديس بيرنارد. خطاب من القس إتش. دي. ليفز. وصول سبعة رُهْبَان فرانسيسكان إلى القسطنطينية، مطرودين من روسيا لرفضهم حَلْفَ يمين الولاء للقيصر، والتعاطف يتنامى لصالحهم. سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومية تقلَّص بصورة كبيرة من القيصر. خطاب من السير ستراتفورد كاننج. زيارة إلى سانت صوفيا. المنصَّرون يزورون الدكتور وولف. شاوفلر؛ وتحصيله الخارق في اللغات. محادثات مع الكونت ستورمر. سانتا كلارا، واعظ البلاط في فينا، وتصوُّراته حول التجلِّي، ووصفه للإيمان. إلغاء عقوبة الإعدام بسبب الرِّدَّة: إعلان الباب العالي. خطاب من الأستاذ برانت. تقديم الدكتور وولف لكبير الوزراء، والريس أفندي، وشكيب أفندي، وشيخ الإسلام. تقديمه لبطريرك الإغريق، وإهدائه ليترجيا القديس كريسوستوم، والقديس بازل، والقديس جريجوري. البطريرك يزور الدكتور وولف. الدكتور وولف يعظ في القنصلية، وفي أماكن أخرى. لطف

الليدي كاننج. خطاب من الموقَّر السيد ويليسلي. الدكتور وولف يتوجَّه إلى إنجلترا. يصل إلى سميرنا، ويلتقي هناك اللورد كلارنس باجيت والقس إتش. دي. ليفز. الحجر الصحي في مالطا. اللورد لورتون يزور الدكتور وولف في الحجر الصحي، وأسقف جبل طارق يلتقيه هناك كذلك. الدكتور وولف يبحر نحو جبل طارق، وعند وصوله إلى هناك يتسلَّم خطابات من الحاكم، السير روبرت ويلسون، والقس الدكتور بورو. يصل إلى ساوثهامبتون في التاسع من أبريل. خطاب الأسقف دوان. يلتقي في ساوثهامبتون الكابتن جروفر، والليدي جورجيانا، وابنه. يتَّجه نحو لندن، ويشكر الله العظيم لحفظه إياه، في كنيسة الثالوث، شارع كراي إن. لقاء عام في قاعة إكستر. شخصية الكابتن جروفر النبيلة. مراسلات وأوراق لها علاقة بمصير المُلازم ويبورد، والدكتور وولف يرفض المكافأة المقدَّمة مقابل استرداد خطاب اللورد إلينبورو. مراسلات مع الأستاذ شفارتز بخصوص جيوفاني. البابا بيوس الحادي عشر صديق شخصي وتلميذ للدكتور وولف؛ آراؤه الليبرالية؛ تقواه وإحسانه. الأمير هوهينلوه تاجر المعجزات: صفاته التافهة، نفاقه يُكتشَف ويُعاقَب. الحكومة تعيد ٤٠٠ جنيه إسترليني قدَّمها الكابتن جروفر. خاتمة.

وصلتُ في السابع من فبراير إلى الحجر الصحي في طرابزون. وإنه لأمر غريب أن نسمع بحجر صحي على اليابسة، إنه أحد أكثر الأشياء التي سمعت بها حماقةً؛ ذلك أنه حتى وصول القافلة إلى طرابزون، فلا بد أن تحتكَّ بالأماكن المجاورة التي ليست ضمن الحجر الصحي جميعها. وكلُّ ما أستطيع قوله هو أن المحاولات التي يقوم بها الأتراك للحاق بركب الحضارة تبدو جميعها هزلية. وقد خُصِّصَتْ لي غرفةٌ قريبة من سفير بخارى، والعجيب أنه لم يقترب مني بنفسه، أمّا ما هو أعجب فإن أحد المَحْرَمِيَّة، الذي أرسله الأمير على إثرنا، زارني، وأخبرني أنه يعتقد أن النائب عبدالصمد خان قد نال

ما يستحق من عقاب، أو أنه سينال العقاب قريباً بالتأكيد. وأعترف أنني لم أكن مطمئناً لصحبته؛ ورغم أنني أعرف أن الناس سيعتقدون أن مخاوفي كانت متخيَّلةً، فإنني لا أخجل من الاعتراف بها؛ لأنه لا بد من التنبيه على شيء واحد، أغفلتُ ذكره في الحديث عن بخارى، وهو أنَّ الملك وعبدالصمد خان لهما علاقة مع أناس يُسمَّون الإسماعيلية، يرسلهم الأمير للمهمات الكبيرة، ودائماً ما تكون قَتْلَ أشخاص يشكُّ فيهم، مثلما فعله عجوز الجبل، زعيم الحشَّاشين[1]. وهكذا، مثلاً، قتل أحد السركردها التابعين له، كان قد شكَّ في أمره، فهرب إلى شهر سبز، ومكث في قصر خان شهر سبز، لكنَّ رأسه أُحضر إلى بخارى، قبل شهرين من وصولي. وقد قيل إنه شكَّ في كونه صديقاً لستودارت.

لقد أشرتُ إلى حادثةِ قتل أحد إخوة الأمير في خوقند، وأخ له آخر في أورينبورج؛ وإلى جانب هذا، فإن المَخْرَم، الذي كان اسمه شريف سلطان، كان حين يأتي إليَّ، يودُّ لو أُبعِد خدمي. ويمكن الاعتراض بأن الأمير لن يُعَرِّضَ سفيره للخطر؛ ولكني أجيب على هذا بأن هذه الحُجَّة سخيفة جداً، فإن هَمَجيّاً مثل الأمير لا يهتمُّ مقدار قَشَّة بحياة سفيره. وإذا كان التقرير المنشور في التايمز صحيحاً، فإنه قَتَلَ ذلك الرسول في طريق عودته، عندما أكَّدت أنه لن يهتمَّ إذا ما قام السلطان بقتل سفيره. ويمكن الاعتراض كذلك بأن النائب لن يقوم بفعل

---

(١) فرقة من غلاة الشيعة، أسسها الحسن بن علي بن محمد الصباح الحميري (٤٣٠-٥١٨هـ)، وجعل مهمتها اغتيال معارضي دعوته، ولاسيما من الملوك والأمراء. استولى على قلعة أَلَمُوت قرب دامغان ليدير منها دعوته، ومكث فيها عشرات السنين لا يُغادرها. اغتال أتباعه الوزير نظام الملك وابنه فخر الملك، وحاولوا اغتيال السلطان صلاح الدين؛ غير مرة؛ إلا أنهم أخفقوا.

هذا؛ كونه واقعاً تحت سلطة الأمير؛ غير أنني أجيب عن هذا بأن الأمر سيظلُّ خفياً سواء قتل الأميرُ النائبَ، أو أن النائب قتل الأمير، فكلٌّ منهما ينزع نحو تدمير الآخر، لكنَّ مصالحهما الشخصية تتسبَّب في إرْجَاءِ تنفيذ الأمر.

وخلال إقامتي في الحجر الصحي زارني القناصل البريطاني والتركي والروسي، وكذلك المنصِّرون الأمريكيون: السيد بنيامين، والسيد بلس. وكانوا يرسلون إليَّ يومياً عشاءً أوروبياً، ويزورونني بشكل يومي؛ كما أنني خلال إقامتي، تسلَّمت خطاباً من الكولونيل فارانت، أضمِّنه هنا:

أرضروم، الحادي والثلاثون من يناير ١٨٤٥م

عزيزي الدكتور، أكتب إليك أسْطُراً قليلة للسؤال عن صحة عمي العجوز الطيب، وآمل بإخلاص أن تصلك هذه الأسطر في طرابزون وأنت سالم وبصحة جيدة. جميعنا افتقدناك كثيراً هنا. ولم تصل أيةُ أخبار من فارس. ولقد وصل غلامنا في غضون سبعة وعشرين يوماً من طهران، وكان قد أمضى اثني عشر يوماً بين تركمانتشاي وتكمه تاش. يا لها من نجاة سعيدة حققتَها! إن بونهام كتب إليَّ أنه منكسر ومحطَّم، وأنه سيأخذ ابنَه الصغير ويعود به إلى الوطن في مايو. الكتاب الذي توقَّعتَه وصل إلى هنا من أجلك.

إلى اللقاء، عزيزي الدكتور؛ وأتمنى لك الصحةَ وكلَّ أمر جميل، ولقاءً سعيداً مع الليدي جورجيانا والسير هنري دروموند تشارلس وولف، وأن تلقى مِحَنُك الشديدةُ المكافأةَ العادلةَ، فقد قمت برحلة طويلة ومحفوفة بالمخاطر.

حفظك الله، ودائماً أنا المخلص لك:

جي. فارانت

تذكر ألاَّ تروي الأُحجية، «أول شيء لي...». لم تحدث عندنا زلازل منذ أن غادرتَ. ويرسل إليك المُلاَّ مهدي مليونَ سلام، وتمنَّى عليَّ أن أخبرك أن الخاتمَيْن الفيروزيين قد أرسلهما إليك أخو كبير ملالي مشهد. مع السلامة، اعتَنِ بنفسك.

جي. إف

وفي آونة أخرى وصل إليَّ الخطاب الآتي من السير ستراتفورد كاننج:

القسطنطينية، السابع من فبراير ١٨٤٥م

عزيزي الغالي، سعدت كثيراً بتلقِّي خطابك المرسل من ارضروم، وأُهَنِّئُكَ من مجامع قلبي على تغلُّبك - مع صبر كثير - على الصعوبات الجَمَّة التي واجهتها، وتجريدك من حريتك، مع الأخطار التي كان عليك مكابدتُها في مسيرة مشروعك الخيري والجَسور. حقاً؛ إن رجالاً في مثل شخصيتك الكريمة يجب أن يكونوا تحت الحراسة والتوجيه الإلهيين.

وسنكون سعداءَ أن نراك هنا، وان نساعد في جَعْل توقُّفك في القسطنطينية مُرضياً ومُريحاً لك. لقد فهمت أنك سوف تنزل في منزل ساوثجيت، رغم أنني لا أعرف كيف سيتم ذلك في غياب الأُسقف.

لم يصل إلينا صندوق الشالات قط؛ ولو حدث، لأسعد الليدي كاننج أن تعيد إرسالَه دون أن تتلطَّف (أنتَ) بالإذن لها.

لقد هجر الدكتور بينيت أفكارَه حول التقاعد في الوقت الحالي. وفهمت أن صديقك المتحوِّل (للدين النصراني) قد عاد إلى مشهد؛ وأعتقد أن الكولونيل وليامز قد نصحك بحنكة بخصوص ذلك. ولا أستغرب منك التعبير عن نفسك بقوة لصالح الكولونيل؛ فقد كان دائماً شديدَ الاهتمام بك. ومع أطيب التمنيات من الليدي كاننج والأطفال، أرجو أن تصدقني.

المخلص لك جداً:

ستراتفورد كاننج

قبل يوم من مغادرتنا الحجر الصحي، تلقَّى سفير بخارى رخصةَ مغادرته، إذ كان قد دخل قبلي بيوم. وخلال إقامته في الحجر الصحي، كان يتلقَّى كلَّ يوم تموينَه من الباشا، واسمه عبدالله، الذي أجبره البابُ العالي قبل أسابيع، على أن يقدِّم اعتذاره شخصياً لنائب القنصل البريطاني، فقد أهانه بشكل

بَذِيءٍ. ويختلف هذا الشخص بصورة كبيرة عن الباشا السابق لأرضروم؛ فهو لا يستطيع إخفاء كراهيته للنصارى، وعلى وجه الخصوص الأوروبيين منهم؛ لذا تراه يعامل رسولَ بخارى بكل تميُّز، ومع ذلك لم يُبْدِ أدنى التفاتة تجاهي.

ويجب أن أقدِّم مثالاً في صميم الموضوع، من أجل إيضاح شخصية سفير بخارى. لقد ترك بخارى مع سبعة من المرافقين، ووصل إلى طهران مع أولئك السبعة. لكنه، لدهشتي العظيمة، وصل إلى طرابزون ومعه أربعة وعشرون مرافقاً، وقد تدبر ذلك بالأسلوب الآتي: لقد جمع في بخارى عدة تجَّار من بخارى وخيوه، وقال لهم: «إذا دفعتم إليَّ مبلغاً معيَّناً من النقود، فإنني سوف أُدخِلُ بضائعكم مجاناً إلى بخارى». وعند وصولي إلى القسطنطينية أخبرت الوزير والريس أفندي بما شهدت.

لقد غفلت عن تقديم الخطاب الآتي المميَّز من قنصلنا في أرضروم:

أرضروم، الحادي والثلاثون من يناير ١٨٤٥م

عزيزي وولف، آمل في أنك انطلقت هذا الصباح من بيبوت، وأنك ستكون في طرابزون في مساء الخامس من فبراير. سأكون متلهِّفاً لأن أسمع أنك تسير قُدُماً على مَهَلٍ؛ وقد نقل إليَّ أحدُ الرجال أنك في حالٍ حسنٍ في مي منصور؛ لكنّي أخشى أنك لن تصل إلى خوش أبوناه في المساء التالي. اتَّجه إلى إنجلترا بأسرع ما يمكنك، ولا تتريَّث في طرابزون والقسطنطينية. وحالما تكون مع الليدي جورجيانا ستكون سعيداً ومطمئناً، وسوف يُعتنى بك عناية مناسبة؛ وأنا واثق بأنك ستستعيد صحتك سريعاً، وستنسى قَطْعَ الحناجر في بخارى.

اكتب إليَّ عندما تصل إلى الوطن، ودعني أعرف أين تعيش، فسوف آتي لرؤيتك يوماً. واذكرني لصديقك الرائع اللطيف ديفيد بيلي.

حفظك الله وأبقاك، صديقي العزيز القديم، وأعادك لزوجتك وطفلك؛ وعسى أن تتمتَّع بالكثير الكثير من سنوات الصحة والهناء في عيش مريح؛ وبعد حياة

طويلة من النفع، لعلك تنزل إلى القبر محترماً، تواسيك ذكرى حياة أَحْسَنْتَ إمضاءَها، والآمال والتوقُّعات المنفتحة لحياة أفضل. مع الاحترام والتقدير الصادقَيْن.

صدقني، عزيزي وولف، أنني صديقك المحب:

جيمس برانت

بعد أن غادرت الحجر الصحي سكنت مع السيد ستيفنز، الذي استقبلني استقبالاً وُدّياً مُفعَماً بالمشاعر القلبية؛ وبعد أن قمت بزيارة الكنيسة الإغريقية، أقلعتُ في باخِرَة بخارية نمساوية قاصداً القسطنطينية، مع الكابتن كليسيان. وصعد سفير بخارى مع مرافقيه جميعهم على متن السفينة، غير أنه لم يحصل على مكان في القُمرة.

وقد توقَّفتِ السفينة البخارية لساعات قليلة في مكانَيْنِ مهمَّيْن: سامسون وسينوب، في بافلاجونيا. وأميسوس هو الاسم القديم لسامسون، التي استعمرها الأثينيون، وزخرفها الميثراديتيون، واحتلَّها لوكوللوس، ثُمَّ أنتوني، ودمَّرها الطاغية سترابو، وأعاد مجدَها أوغستوس، بعد الانتصار بالقرب من أكتيوم. وكان كلا المكانين: سينوب وسامسون، قد حكمهما بعد ذلك ابن إسفانديار، ثُمَّ احتلَّهما بايزيد الأعرج، وبعده بايزيد الصاعقة. وقد كان خاصي تسليب[1]، ابن أخي غياث الدين، من السلالة السلجوقية، سيِّدَ سينوب. وقد قام بأعمال القَرْصَنَةِ ضد أهل جنوه. ويوجد في كلا المكانين كثيرٌ من المناجم، ويسكنهما اليونانيون والأتراك والمسلمون من أصول يونانية، الذين يمارسون في السر الدين اليوناني. وسينوب هي مكان ميلاد ديوجينس.

(١) هذا الاسم شأنه شأن غيره من الأسماء الكثيرة التي وردت في هذا الكتاب محوَّرة مكسَّرة، ولا ندري ما صوابُها الآن.

وهناك وصف ممتع لهذين المكانين، كتبه جوزيف فون هامر، في كتابه «**تاريخ الإمبراطورية العثمانية**».

غادرت طرابزون في العشرين من فبراير، ووصلت إلى القسطنطينية في الثالث والعشرين. وفي لحظة وصولي إلى مَرْفَأ القسطنطينية، كانت السفينة البخارية (تاجوس) تبحر نحو إنجلترا؛ وبما أن (فيراجو) سفينة جلالة الملكة كانت موجودة هناك، يقودها الكابتن أوتوي، فقد أرسلت مذكرةً تفيد بوصولي، دون معرفته شخصياً. فأرسل في الحال قارباً إليَّ مع ضابط بحري. كان ذلك اليومُ يومَ أحد، فوعظت على متن سفينة جلالتها للضبَّاط وطاقم السفينة؛ وقبل أن أنهي موعظتي بقليل وصلت المذكرة الآتية من صديقي العزيز، السير ستراتفورد كاننج:

السفارة البريطانية، الأحد، الثالث والعشرون، ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، ابتهجت عند سماعي بأنك وصلت إلى القسطنطينية هذا الصباح، وآمل بأن تكون في حال جيدة تُمكِّنك من أن تشاطرنا عشاءنا هذا اليوم عند الساعة السابعة. تفضل بزيارتنا إذا كنت تستطيع، وامنحني الفرصة لأقول شخصياً: كم أهنئك من القلب على نجاتك الإلهية من الأخطار الكثيرة جداً، والمشاقِّ المحفوفة بالمخاطر.

صدقني أنني المخلص لك:

ستراتفورد كاننج

بعد أن أنهيت موعظتي، وتناوُل طعام الإفطار، وبعد أن قام أحد البحَّارة بقص شعري، زرت معالي السير ستراتفورد كاننج والليدي كاننج الرائعين. وقد أخبرتني سيادتها في الحال أنها كانت قد أعدَّت لي غرفةً في القصر؛ غير أنه بسبب وصول ملحق جديد، هو الأستاذ دوجلاس، لم يعد باستطاعتها

استقبالي في القصر، ولكنها حجزت غرفاً من أجلي في فندق إنجلترا، وقد دُفِعت نفقاتها كاملة. وفي الفندق البريطاني الذي يملكه السادة إم. ميسيري، التقيت اللورد كلارنس باجيت، واللورد ميدستون، واللورد أنسون، والأستاذ راشلي، عضو البرلمان، والأستاذ بونسونبي، والأستاذ هاموند، وآخرين.

وفي الرابع والعشرين من فبراير تلقّيت الخطاب المرفق، من الأستاذ الموقر ويليسلي، السكرتير الأول في البعثة البريطانية:

بيرا، الرابع والعشرون من فبراير ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، رغم أنني لم أَحْظَ بشرف معرفتك شخصياً، إلا أنني أثق بأن معرفتك بوالدتي ستمنحني الحقَّ في أن أضع جانباً كلَّ الشكليات، وأقترح عليك أن تأتي لتناول العشاء معي غداً في الساعة السابعة. إن ذلك سيمنح السيدة ويليسلي ويمنحني السرور العظيم، لاقتناص فرصة التعرُّف إليك.

صدِّقني، عزيزي الأستاذ، أنني المخلص لك:

إتش. ويليسلي

وتلقيت كذلك، ضمنَ الكثير من الرسائل، الرسالة الآتية من العزيزة الليدي كاننج:

الأحد:

عزيزي الدكتور وولف، إذا لم يكن يتعبك كثيراً، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تكون معنا في الساعة الثالثة؛ عندها يمكنك أن تلقي محاضرة قصيرة على الأطفال، كما وعدتهم. فبعد العشاء يكون الوقت متأخِّراً، ويمكنك أن ترضي كذلك رغبات أصدقائك في فندق ميسيري؛ وذلك بالعودة باكراً إلى هناك. نتمنى أن نقوم بترتيب خطط الأحد القادم هذا المساء.

وصدقني، أنني المخلصة:

إي. سي. كاننج

أقدِّم هذه المستندات للتدليل على الروح الكبيرة، واللطف والعاطفة اللتين تُدْفِئَان كلَّ صدر في البعثة البريطانية، بدءاً من رئيسها المتميِّز، وزوجته الفاتنة، نزولاً إلى كل فرد متواضع مثل حالي. وقد رأيت هناك - في القسطنطينية، في منزل القس الكاثوليكي الروماني، الذي زرتُه - صورةً عتيقةً تمثِّل القديس بيرنارد، رئيس دَيْرِ الرهبان في كليرفو، وَوَصَفُها كما يأتي: رأسه محاطٌ بتاج من الأشواك، وعلى كتفيه صليب ثقيل؛ وبالقرب منه رمح وصَوْلجَانٌ، وعلى طرفها وضع إسفنجة؛ وحول جسمه لُفَّتْ حبالٌ؛ وفي اليد اليسرى أمسك بمشْكَاةٍ، وفي اليد اليمنى سلة بسياط، ومسامير، ومطارق، وملقط؛ وهناك عمود ينتصب أمامَه، بالقرب منه حوض فيه ماء، وعليه ديك. وتحته كُتِبَتْ كلماتٌ من رسالة بولس الرسول إلى أهل أَفَسُسَ، الإصحاح السادس، الفقرة ١١: «البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس».

آخر رسالة تلقيتُها كانت من شخص تجعلني فضائله فخوراً بمعرفته كفَخْري بأيٍّ من الأشخاص المميزين هنا، وهو صديقي السابق المأسوف عليه والمحبوب، القَسُّ إتش. دي. ليفز، القس الملحق بأثينا. وأقدمها هنا كاملة:

سميرنا، الخامس عشر من مارس، ١٨٤٥م

عزيزي الدكتور وولف، بسماعي أنك في الجوار، أكتب إليك أسطراً لتهنئتك بإخلاص على نجاتك من أخطار رحلتك الجَسور، ولأقول إنني آمل أن أقوم بمثلها شخصياً، مع ابنتي ماري آن. نحن هنا سوياً في طريقنا إلى سورية والقدس، ونقيم في منزل المضياف الأستاذ لويس. وعلمنا أنك ستأتي على متن السفينة التي تغادر القسطنطينية يوم الاثنين، وبذلك ستكون هنا يوم الأربعاء؛ وقد كلَّفني الأستاذ لويس هذا الصباح إخبارك أنه كان يعتزم الكتابة إليك؛ لكنِّي اقترحتُ أن أقوم بذلك في حال مجيئي إلى البلدة، فطلب مني إخبارك بأنه يأمُل - عند وصولك - أن تأتي إلى بوجاه، وتسكن معه. وآمل أنا أيضاً أن

تفعل ذلك، حيث سنكون جميعاً تحت سقف واحد، ونبقى سوياً خلال إقامتنا. لن نستطيع المغادرة إلى سورية حتى السابع والعشرين. وأفترض أنك ستتوقف لوقت قصير قبل أن تتابع إلى إنجلترا. سأرسل هذا إلى عناية السفير، الذي تتلقى منه - دون شك - ومن الليدي كاننج كلَّ لطف ومساعدة. مع تمنياتي الطيبة، وأتوقع سريعاً جداً أن أصافحك يداً بيد.

وأنا، عزيزي وولف، محبك:

إتش. دي. ليفز

وصل سبعةٌ من الآباء الرهبان الفرنسيسكان إلى القسطنطينية، كانوا قد طُردوا من روسيا لرفضهم الحلف على الولاء للإمبراطور. وقد أثاروا نحوهم تعاطفاً كبيراً بين الرومان الكاثوليك في القسطنطينية. وليس هناك شك في أن السلطة البابوية قد تلقَّت بذلك لطمة، وسوف تتلقَّى لطمةً أشدَّ في الإمبراطورية الروسية.

وقد تسلَّمت في الأول من مارس الخطاب الآتي من السير ستراتفورد كاننج:

بيرا، السبت، الأول من مارس ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، سوف يتم توصيل خطاباتك كما ينبغي عندما يذهب المراسل. ولو وقر في صدري أنك ستكون مستعداً بخطبتك - خطبة كنسية معتادة - في الغد، لكنتُ اقترحتُ على الدكتور بينيت أن يوفر لك منبراً، دون الانتظار لأسبوع آخر؛ غير أنني لم أرَ الدكتور حتى الآن؛ ولعل المطر حبسه في الريف. لقد فهمت أنك تريد فَرَمَاناً تسافر به؛ ولكن إذا كنت مسافراً في البحر، فكيف تريد فرماناً؟ وفيما يتعلَّق بتخصيص اسمي لإهدائي يومياتك؛ فإن كنت ترغب فيه حقاً، فهو في خدمتك؛ وإن كنت أود أن أرى تسجيلاً بهذه الإنسانية الوافرة وهذا الثبات يُوضَعُ تحت رعاية اسم أكثر نُبلاً وأكثر إشراقاً. أعتقد أنك أخبرتني

أنك ستتناول طعام العشاء مع المبعوث الروسي هذا اليوم. آمل أن نسعد برؤيتك على العشاء غداً.

وصدقني، عزيزي الأستاذ، أنني المخلص لك:

ستراتفورد كاننج

قام اليوم كلٌّ من اللورد كلارنس باجيت، وميدستون، وأنسون، وبونسونبي، والكابتن أوتوي، والأستاذ راشلي، عضو البرلمان، وآخرون، بزيارة المسجد الكبير في سانت صوفيا، وقد دعوْني إلى الذهاب معهم، ففعلت. وبذلك أكون قد رأيت أكبر الكنائس على وجه الأرض: سانت بيتر في روما، وسانت بول في لندن، وسانت صوفيا[1] في القسطنطينية.

زارني أصدقائي المنصِّرون: شاوفلر، وجوديل، ودوايت. ووقتها عُيِّنَ الأستاذ ساوثجيت أُسْقُفّاً، من الكنيسة الأسقفية في أمريكا، على تركيا والبلدان التابعة لها كافة. والأستاذ ساوثجيت رجل كُفْءٌ، غير أنني أمتنع عن إصدار أية أحكام حول مؤسَّسة الأسقفية والأعمال التي تقوم بها؛ إما كنيسة إنجلترا أو أمريكا، وأحتفظ بذلك لعمل مستقبلي، سأبين فيه فائدة تلك الأسقفيات، والانطباع الذي أوجدَتْه بين الكنائس الشرقية.

وأود هنا أن أقول كلمات قليلة فقط عن وليام شاوفلر: إنه شاب ألماني، وهو رجل غير عادي؛ فعندما سافرت من فارس عبر القرم، ووصلت إلى

---

(١) هذه التي يزعم المؤلف أنها كنيسة، لم تكن كذلك حين زارها. فآيا صوفيا - كما يقول الأتراك - أو هاجيا صوفيا - كما يلفظها اليونانيون - كانت في البدء كنيسة مرت بمراحل مختلفة من العمران، وأصابها الحريق مرتين فأتلفها. أمر ببنائها - في شكلها الحالي - الإمبراطور جوستتيان عام ٥٣٢م؛ واتخذها محمد الفاتح مسجداً بعد أن فتح القسطنطينية (إستانبول) عام ١٤٥٣م، ثم أضاف إليها مآذنها الأربع. تحولت إلى متحف عام ١٩٣٥م في العهد الكمالي المشؤوم.

أوديسا، التقيته هناك، وقام بنسخ يومياتي، رغم أنه لا يفهم اللغة الإنجليزية بشكل كامل. لقد كان من المشتغلين بالخرائط، وتلك كانت تجارته. وقد أرسلته على نفقتي إلى أمريكا، وأوصيت به إلى الآنسة المشهورة حَنَّا آدمز، مؤلِّفة كتاب «**تاريخ اليهود**»؛ وإلى جرمايا إفيرتس، سكرتير الهيئة الأمريكية للمنصِّرين والبعثات الخارجية. دَرَسَ شاوفلر في معهد أندوفر، في أمريكا، تحت إشراف موسى ستيوارت؛ ثم بعد ذلك في باريس، عند سلفستر دي ساسي. بعدها ذهب إلى فيينّا، وترجم الإنجيل كاملاً إلى اللغة الإسبانية - اليهودية. وهو يعرف الآن أربعاً وعشرين لغة، ويُعَدُّ - دون أدنى شك - أبرز منصِّر في تركيا. ولا أستطيع التحدُّث عنه وعن بقية المنصِّرين دون امتنان، لجميل لطفهم معي.

دعاني الكونت ستورمر، السفير البابوي النمساوي، وزوجته الكونتيسة، والأستاذ تيتوف السفير الروسي، ومدام تيتوف، بصورة مستمرة إلى العشاء، وكانت محادثاتنا تدور حول مواضيعَ لها أهمية كبرى. ورأيت وليام بالمر، من كليَّة ماجدولين، معروفاً جيداً للكنيسة الروسية، عزيز المكانة لديهم.

وفي هذه المناسبة تحادثت مع الكونت ستورمر المثقَّف عن الأدب النمساوي، وخصوصاً عن رويكو في براغ، وفون هامر، ويوستيل، ولورنز، وجروبر، وآخرين؛ وكذلك الواعظ الشهير أبراهام واعظ البلاط في فيينّا وصاحب سانتا كلارا. ورغم أن هذا الرجل يكشف في خُطَبه عن خشونة واضحة، إلا أن العُمق الذي يبديه في اللاهوت مدهش.

وفي رأيي أن تصوُّرَه حول تجلِّي ربِّنا على الجبل هو الصحيح: «أخذ ربنا المسيح لوقت ثلاثة من حواريِّيه المحبوبين معه فوق جبل طابور، وأراهم، في تجلِّيه، المجد مُوجَزاً، الجنة في مشهد، غبطة في نموذج. وأراهم كذلك ما لا

يستطيع وصفه قلمُ أيِّ رسَّام، وما لا يستطيع أن ينطقَه لسان. وبالتأكيد فإن مجد جلالاته، وجلال مجده، لا يمكن أبداً أن يدخل أي قلب».

وهذا ما أقوله عنه دائماً؛ بأنَّ التجلِّي هو دُنُوٌّ ذو ظلال للمجيء الثاني للمسيح في مجده. فإن وصف الإيمان المقدَّم من سانتنا كلارا بالذات رائع: «كلُّ الفضائل تأخذ منشأها من الإيمان، كما تأخذ الأنهار الصغيرة أصولها من ينبوع كبير». ولذلك فإن أوغستين يقول: «كما أنه في جذر الشجرة لا يُدرك أقل مقدار من الجمال، ورغم ذلك، فكلُّ ما هو جميل وحسن يوجد على الشجرة مستمدٌّ من ذلك الجذر. وكذلك، فإن كلَّ شيء ينبع من الأساس العظيم للإيمان».

ولذلك فإن علماء النصرانية الأوائل (الآباء) قارنوا الإيمان بالشمس؛ حيث إن كلَّ المخلوقات في العالم تستمدُّ النور من الشمس، وبالطريقة نفسها، فإن تلك الحقائق الخارقة المنكشفة للناس لها أصلُها في فضيلة الإيمان. وليس هذا فحسب، بل أكثر؛ فكلُّ المخلوقات تستمدُّ عونها على الحياة من الشمس؛ وهكذا فقط، يجب على الإنسان أن يعزو البداية، وكذلك تقدُّمه في الحياة الروحية، إلى الإيمان؛ ومثلما تستمدُّ كلُّ الأشياء على الأرض جمالَها وزينتها من النور بوساطة الشمس، فهكذا الكلُّ يستمد الكمال والبركة بوساطة الله من قوة الإيمان، ومهما فعل الإنسان. وأخيراً، فكما يستمد كلُّ شيء حرارتَه الضرورية من الشمس، فهكذا يستمد الإنسان نار المحبة وحماسة الحُرْقة من خلال الإيمان. وأبعد من ذلك؛ فإن الإيمان هو ذلك العمود من النور، الذي يقود العقل الآدمي للأمام من مصدر الظلام والخطأ كمرشد مؤمن.

وقد تُوِّجَتْ - بنجاح باهر - جهودُ السير ستراتفورد كاننج، مع جهود السفيرين الفرنسي والروسي، في التسبُّب في إلغاء القانون الوحشي القاضي بإعدام النصارى الذين يعتنقون الإسلام، ثُمَّ يعودون إلى النصرانية

وكان أن أصدر الباب العالي الإعلان الآتي:

«لقد كانت النية الخاصة والدائمة لسُموّ السلطان، أن تكون العلاقات الحميمة مع القوى الكبرى محفوظةً، وأن تتحقّق العلاقات القوية المتبادَلة وتزداد. وقد انشغل الباب العالي باتّخاذ إجراءات فعّالة من الآن فصاعداً لمنع إعدام أو الحكم بالموت على النصراني المرتَدّ»(١).

كان في أرضروم عدةُ أشخاص من الأرمن، اعتنقوا الدين الإسلامي. وقد أخذهم الكولونيل وليامز والأستاذ برانت من قصر الباشا، وعادوا الآن علناً إلى الدين النصراني. ويجب أن تُنشأ جمعيةٌ لحماية النصارى الشرقيين واليهود.

وبينما كنت هناك، تسلّمت من الأستاذ برانت الخطاب الآتي:

أرضروم، الثامن عشر من فبراير ١٨٤٥م

عزيزي وولف، تسلّمت أَسْطُرَك المؤرَّخة في الأول (من الشهر) من بيبوت، والآخر المؤرَّخ في الحادي عشر (منه) من المحجر الصحي في طرابزون. وقد أوصلتُ الخطاب المضمَّن في الأول، وكلَّ الرسائل والتحيات المضمَّنة في الأخير. وسوف يسعدني أن أسمع أنك ركبت سفينة بخارية مباشرة إلى إنجلترا من القسطنطينية. فإن إحداها يجب أن تبحر قرابة العشرين من الشهر الحالي من القسطنطينية، وآمل أن تكون هناك في الوقت المناسب للاستفادة منها؛ لأن ذلك سيوفر عليك شهراً.

لقد كنت مبتهجاً للغاية لسماع أن الطاولة قد انقلبت، وأن إلجي بخارى خائف منك، بدلاً من أن تكون أنت خائفاً منه؛ هل يخشى من أن تدسَّ له السُّم؟

وسوف يسعدني سماع تأكيد تقرير موت عبدالصمد خان، فمثلُ هذا الوحش

---

(١) قد يكون الأمر يعني حالةً خاصةً أو وقتاً معيناً خاصاً، ولكن ذلك لا يعني إلغاء حكم رباني. انظر التعليق فيما سبق ص٥٠٠.

لا يليق أن يطأ أرض الله؛ وكان بالتأكيد يستحق العقاب، إذا كانت الجرائم تستحق العقاب في هذا العالم. وآمل أنه لن يعكّر عليك صَفْوَكَ بعد الآن.

سعدت بالسماع منك، ومن آخرين كذلك، أن صحتك تحسَّنت كثيراً؛ وآمل في الوقت الذي تصل فيه إلى إنجلترا، أن تعود مثلما كنت في السابق. وبعد وصولك، في لحظة من لحظات فراغك، تذكَّر أرضروم، ودعني أسمع منك. زوِّدني بعنوانك، وسوف أكتب إليك. وآمل أن تحظى بمعيشة ريفية في أحد أجزاء الوطن، وستزول عندها الأفكار المتعلِّقة برحلات أُخَرَ من فكرك. ولا تنس أن تذكرني لصديقنا الرائع ديفيد بيلي، عندما تراه. إنَّ فارانت يتحدث عن رحيله إلى فارس في غضون أيام قليلة؛ غير أن الطرق في غاية السوء، ولن تتحسَّن بسقوط الثلج الذي يحدث حالياً. لقد استُدعي الباشا من هنا، وقد أسِف كلُّ الناس في أرضروم وجوارها المباشر غايةَ الأسف على ذلك، وخصوصاً أن مَنْ خلفه لا يحظى بالمديح مثله.

قدِّم تحياتي المحترمة إلى الليدي جورجيانا؛ وأتمنى أن تجد سيادتَها وابنَك بصحة جيدة، وأن تكون أنت كذلك عندما تلْقاهما.

صدقني، ياعزيزي وولف، أنني صديقك المخلص والمحب لك:

جيمس برانت

أقدِّم هذا الخطاب اللطيف بُغْيَةَ أن يبدو واضحاً تماماً لقُرَّائي، أن المشاعر التي يُضمِرها الكولونيل شيل تجاه عبدالصمد خان لا يشاركه فيها الضباط الآخرون في قنصليتنا الخارجية؛ فأنا أنتظر يومياً الأخبار الواردة من بخارى، التي سوف تؤكِّد موت عبدالصمد خان بأمر من الأمير. وأعتقد أنه يمكنني القول إن كلَّ موظَّفي بعثتنا الدبلوماسية (ما عدا الكولونيل شيل) وكلاًّ من الروس، والنمساويين، والفرنسيين، يؤيِّدونني في مقتي التام لذلك القاتل.

وبأمر من السير ستراتفورد كاننج، وبوساطة الأستاذين فريدريك وستيفن بيساني، قُدِّمتُ إلى كلٍّ من: معالي كبير الوزراء، رؤوف باشا، والريس أفندي، وشكيب أفندي، الذي كان في السابق في إنجلترا، وإلى شيخ الإسلام. وقد عبَّر كلٌّ منهم عن تعاطفهم الكبير مع معاناتي، وابتهاجهم برؤيتي مرةً أخرى. وقد عمل معاليه على تقديمي إلى بطريرك الإغريق، الذي خلف سانت كريسوستوم في كنيسة القسطنطينية، وقد أهداني ليترجيا (*Liturgy*) سانت جون كريسوستوم، وبازل الكبير، وجريجوري ثيولوجوس، وهو يحتوي على كتاب الصلوات: الذي يتضمَّن الصلوات الإلهية والقربان المقدس الخاصة بجون كريسوستوم، وبازل الكبير، وجريجوري ديالوجوس (المسمَّى: ثيولوجوس)؛ أعني: من أجل التقديس. كما يحوي، علاوةً على ذلك، أوامر لكافة الرِّسامة؛ وقُدَّاس عهد الزواج، والتتويج؛ وقداس الطهارة الصغرى، وجزءاً من العشاء الرباني؛ وصلوات أخرى ضرورية لكبار القساوسة. وهو منشور الآن لاستخدام كبار القساوسة، بعناية مشتركة من أكثر المشرفين قداسةً على الطباعة البطريركية في القسطنطينية، عام ١٨٢٠م، في المطبعة الإغريقية في البطريركية، بإذن وأمر من قداسة السينود (المجمع الكنسي).

وقام قداستُه بِرَدِّ الزيارة لي. وقد تحدَّث، وكذلك البطريرك الأرمني، بإكبار عالٍ عن الدكتور توملينسون، ودعَوْه: أخاهما العزيز. وقد علَّق البطريرك الإغريقي قائلاً: «إن هذا أسقف ذو حِسٍّ». وأما تعليقاته الأخرى، فسوف أكتب عنها في مقالة مستقبلية.

زرت البطريرك الأرمني، والكاثوليك الأرمن. وقد عاملوني كلُّهم بلطف بالغ، وامتدحوني بأنني كنت أعمل دائماً في المساعي التنصيرية بأسلوب لا يُحزن الكنائس الشرقية، حيث إنني وجَّهت عنايتي لأولئك الذين هم خارج الكنيسة.

وتحدَّث أسقف الأرمن الكاثوليك كثيراً عن التعقُّل النصراني، وروى لي القصة الآتية برهاناً على هذه الفضيلة: سكن بيرسين، وهو قس كاثوليكي روماني، في لندن خلال حكم الملكة إليزابيث، وذلك من أجل توفير مساعدة روحية للكاثوليك الرومان هناك. وكان عزيزَ المكانة بين النبلاء بسبب تعليمه، وبسبب ما حقَّقه من أعمال، غير أنه كان مُجبَراً على أن يخفي عنهم أنه كان قساً كاثوليكياً رومانياً؛ لأن حياته كانت في خطر. وفي أحد الأيام كان مدعُوّاً من النبلاء، وبحسب عادة البلد، عند شرب النَّخب يهتفون: «تعيش الملكة إليزابيث، رئيسة الكنيسة!». فما الذي يمكن أن يفعله بيرسين؟ في هذه اللحظة بالذات، أتى أحد الأشخاص من الشارع يعرض حذاءً للبيع؛ ففتح بيرسين نافذة، وأمر صانع الأحذية أن يصعد الدَّرَج، عندها أقام رهاناً مع صانع الأحذية، بأنه يستطيع أن يصنع دزينة من الأحذية في غضون نصف الساعة. وهمس شيئاً ما لخادمه، الذي قام بإحضار اثني عشر خُفّاً له، وقام بقطع أجزائها العُلوية، وبذلك تحوَّلت إلى أحذية. وبهذه الحيلة نُسِيَ أمرُ هتاف شرب النخب.

لقد وعظت عدة مرات، ليس في السفارة الإنجليزية فقط، ولكن في منزل السير ستراتفورد كاننج كذلك، وشرحت أفكاري حول الحكم الشخصي للمسيح، في قصر الكونت ستورمر والأستاذ تيتوف، بحضور الأمير دولجوروكي، والأستاذ ليكوك، السفير البروسي، وآخرين.

وفي مساء اليوم الذي غادرت فيه، قام السير ستراتفورد والليدي كانغ بترتيب الأمور، بحيث لم يكن عليَّ أن أدفع شيئاً؛ سواء مقابل إقامتي في القسطنطينية، أم في رحلتي إلى إنجلترا. وقد قامت الليدي كاننج بنفسها بالاهتمام بترتيب صناديقي، وأرسلتْ هديةً - منديلاً أرمنيّاً للرأس - إلى الليدي جورجيانا. وتسلَّمتُ الخطاب المرفق من المبَجَّل الأستاذ ويليسلي:

القسطنطينية، العشرون من مارس ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، هذا هو الخطاب الذي تمنيتُ أن تحملَه لوالدي. آمل أن أجد دقيقةً هذا الصباح لكي أودِّعَك؛ ولكن، في حال منعني مانع، رجائي أن تتقبَّل أمنيات السيدة ويليسلي وأمنياتي لرحلة موفقة إلى الوطن.

المخلص: إتش. ويليسلي

بعد ذلك صعدت إلى متن السفينة البخارية التجارية المملوكة لشركة بيننسولر الشرقية، ديوك كورنوول، متَّجهاً إلى إنجلترا. توقفنا مدة اثنتي عشرة ساعة في سميرنا. ومباشرةً، عقب وصولي إلى هناك، أرسل اللورد كلارنس باجيت، الذي كنتُ التقيته في القسطنطينية، قارباً من سفينته الـ «إيجل»؛ وذلك لدعوتي إلى الإفطار، حيث التقيتُ القسَّ دبليو. لويس، وصديقي العزيز الذي رحل عنا الآن، القس إتش. دي. ليفز. ومن بعدها عدت إلى السفينة مرة أخرى، مع رفيقَيْ سَفَر؛ هما: الكابتن إرفاين، والكابتن ماكفيرسون، اللذان منحاني اهتماماً أخوياً خلال رحلتي حتى مالطا، حيث نزلا هناك.

توقفت في الحجر الصحي في مالطا مدة يومين، من أجل انتظار المسافرين من الهند عبر الأسكندرية. وخلال إقامتنا القصيرة في مالطا زارني اللورد فيكونت[1] لورتون، الذي كان لي الشرف أن أكون قسيساً ملحقاً لديه، في وقت سابق، والقس المحترم اللورد أسقف جبل طارق، وأسِفا أنهما لم يستطيعا مصافحتي في الحجرالصحي. وفي نهاية المطاف وصل السير جوزيف ساكفيل والكولونيل أوفنز، وسبعون آخرون من المسافرين من الأسكندرية.

أبحرنا في اليوم نفسه، ووصلت في الثاني من أبريل إلى مَرْفَأ جبل طارق، حيث تلقَّيتُ الخطابين الآتيين: أحدهما من معالي الحاكم السير روبرت

---

(١) نبيل؛ دون الكونت، وفوق البارون. (المترجم).

ولسون، والآخر من ذلك الشخص الرائع والممتع، الدكتور بورو:

جبل طارق، الثاني من أبريل ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، يسعدني جداً أن أوفِّر لك أيَّ شيء يرضيك. لقد اصطحبناك في مسيرتك السَّخية بتمنياتنا الطيبة، ونثق بأن صحتك لم يصبها العطب.

آر. ويلسون جي. جي

الأربعاء، الثاني من أبريل ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، لا يمكنني أن أعبِّر عن مقدار أسفي وخيبة أملي إذ لم يكن في مقدرتي مصافحتك باليد، وأن أهنئك على وصولك سالماً تحت مدافع القلعة البريطانية. وقد تطلَّعت بتلهُّف بالغ إلى الباخرة التي تعيدك إلى الوطن من مشروعك الخطير، ذي الروح النصرانية الحقة. وجميعنا يحمد الله على أن رضي وحفظك في ظلِّ ظروف شاقة كثيرة مرَّت، منذ أن التقينا آخرَ مرة. وثق بأنه يخبئ لك كذلك، حتى في هذه الحياة، مكافأةً لجهودك الخيرة. ولو كان ممكناً، لركبت قارباً، لمجرد اقتناص فرصة تبادل كلمات قليلة معك على انفراد؛ ولكنني، لسوء الطالع، حبيس المنزل بسبب نَزْلَة بَرْدٍ حادَّة، استقرَّت في وجهي، وتهدِّد بمنعي من أداء واجبي، إذا لم أعتنِ بها.

وآسف أن أقول إنه ليس لدي جرائد تخصُّني لكي أرسلَها إليك، غير أني سأسعى لتدبُّر بعضها دون تضييع للوقت.

يشترك كلٌّ من السيدة بورو وأسرتي بالأماني الطيبة معك؛ عزيزي الأستاذ.

خادمك المخلص جداً:

إي. جي. بورو

في التاسع من أبريل وصلت إلى محاذاة شاطئ جزيرة وايت. وفي الحادي عشر نزلت في ساوثهامبتون، حيث التقيت على الشاطئ أعز وأروع صديق عزيز لي: الكابتن جروفر، والكثيرَ من الأصدقاء الآخرين، وكلهم يحييني. وبعد

دقائق قليلة التقيت زوجتي العزيزة وولدي. وقد حصل الكابتن جروفر على أمر من لورد الخزانة (وزارة المالية) يقضي بأن تكون الهدايا التي تلقيتُها من الملوك والسفراء المختلفين، مَعْفِيَّةً من الضرائب.

وفي ساوثهامبتون تسلَّمت المذكِّرة الآتية من القس المحترم جورج واشنطن دوان، كبير أساقفة نيوجرسي:

ريفوندي، عشية القديس أندرو ١٨٤٥م.

عزيزي الدكتور وولف، هذا الخطاب يحمل إليك ترحيبي القلبي في وطنك. لقد امتلكتَ مكاناً في عواطفه منذ أن التقينا في أحد الأيام في نيويورك. لقد ميَّزت نفسك في إقدامك على مشروعك الكريم في بخارى. ولو كان هناك وقت بين سماعي وبين انطلاقك، لأرسلتُ إليك مباركتي. ولأن الأمور كانت كذلك، فقد لحقَتْك (المباركة) مع الصلوات اليومية من أجل نجاحك وسلامتك. وعندما كنتَ تبدو في خطر، فإنني كنت أدعو نيابةً عنك صلوات كل المصلين في الكنيسة. ولقد ابتهجت مع شكري لله بما ورد في التقرير الحديث عن إنقاذك ووصولك سالماً. والآن أكتب لأطلب منك ذكرك الجميل لي لدى الليدي جورجيانا وابنك؛ ولكي أؤكِّد لك أن كلَّ مَنْ في بيتي وكل أصدقائك الأمريكيين - بمن فيهم أنا - يشتركون في ذكرك، ولك محبتي وإخلاصي:

المخلص جي. دبليو. دوان

في الثاني عشر من أبريل وصلت إلى لندن، وانتهزت أول فرصة سَنَحَتْ لي لكي أشكر الله العظيم لحفظي في بخارى، وفي صحارى مَرْوَ وسَرْخَسَ، وذلك في كنيسة الثَّالوث في شارع كراي إن، التي يَرْأَسُها صديقي القس جي. دبليو. وورثنجتون؛ وهو دكتور في اللاهوت. ووعظت هناك جموعاً غَفيرة من المصلِّين، وتلقيتُ في طريق عودتي إلى إنجلترا زيارات كثير من الشخصيات المميَّزة وتبريكاتهم.

وكان أن رأت لجنة ستودارت وكونولي أن من المناسب عقدَ لقاء شعبي في قاعة إكستر. وحضرتُ ذلك الاجتماع، وتحدَّثت عدة ساعات، وأنصت لي الناس باهتمام عميق.

ويجب أن أبين للجمهور هنا أن الكابتن جروفر صرف أربع مئة جنيه من ماله الخاص من أجل تحمُّل نفقات رحلتي؛ وإلى جانب ذلك، أنفق أكثر من مئتي جنيه، من أجل حَثٍّ الحكومة الروسية نيابةً عني، على رحلته لذلك الغرض إلى سانت بطرسبورج. ومنذ عودتي استغرقت في المراسلات الآتية التي لها علاقة بالمأسوف عليه المُلازم ويبورد، والتي أضمِّنها في الطبعة الحالية. وبينما كنت في مالينز، في كنيستي الصغيرة، التي كنت أتقاضى فيها مرتباً قدره ٢٥ جنيهاً في السنة، وصل إليَّ الخطاب الآتي من السيدة فوريل، أخت المُلازم ويبورد:

فيكوريج بليس، كنزنجتون، الحادي والثلاثون من أكتوبر ١٨٤٥م

عزيزي الأستاذ، إن النسخة المرفقة من خطاب مكتب وزارة الخارجية هي رَدٌّ على خطاب مني موجَّه إلى اللورد أبردين، أطلب فيه أن يحصل منك، مباشرة، على تفصيل كامل، وتفاصيلَ رسمية عن كل ما تعرفه عن المصير المفترض لأخي، سيِّئ الحظ. لذا هل من الممكن أن أرهقَ ذاكرتك مرة أخرى نيابةً عنا، وتقوم بتقديم المطلوب إلى اللورد أبردين، أو إليَّ أنا شخصياً. وإذا كنت سترسل إلى اللورد أبردين، فسوف أكون ممتنَّةً لك إذا قمت بإرسال نسخة إليَّ عن الموضوع نفسه.

ومع الذكر المقر بالجميل لليدي جورجيانا، أبقى المخلصة لك:

آن فوريل

نسخة من الخطاب المرفق:

مكتب وزارة الخارجية، الثالث والعشرون من أكتوبر ١٨٤٥م

يهدي اللورد أبردين تحياته إلى السيدة فوريل، ويخبرها أنه تسلَّم خطابها المؤرَّخ في ٢٣ من الشهر الجاري، ويطلب منها الإذن في أن يبين لها أن المعلومات الإضافية المتعلِّقة بالمُلازم ويبورد، التي أشارت إليها الآنسة ويبورد والسيدة فوريل

في خطابيهما في الخامس عشر من الشهر الجاري، كانت قد أُرسلتْ إلى السيدة فوريل في الأول من الشهر الجاري مباشرة من الدكتور وولف. ويرى الدكتور وولف أن من المناسب أن تحصل بنفسها على المعلومات المفصَّلة منه، وبسبب الظروف التي مرت بها، لا يبدو أنها علقت بذهنها بصورة كافية، بحيث تسلم بنقل مادتها بوضوح إلى اللورد أبردين، دون أية إشارة أخرى إلى الدكتور وولف. والدكتور وولف موجود في الوقت الراهن في مالينز، وأي خطاب توجِّهه السيدة فوريل أو الآنسة ويبورد إليه، بخصوص الغرض السابق ذكرُه، سوف يصل من خلال بعثة جلالتها في بروكسل، إذا ما أُرسل إلى اللورد أبردين في أيٍّ من أيام الثلاثاء أو الجمعة.

أما فيما يتعلَّق بالطلب المضمَّن في خطاب السيدة فوريل، المؤرَّخ في الثالث والعشرين من الشهر الجاري؛ لتزويدها بنسخة من التعليمات المرسلة إلى الكولونيل شيل بخصوص المُلازم ويبورد، فإن اللورد أبردين يطلب الإذن ليُبيِّنَ أنه إذا كان جواب الدكتور وولف على طلب السيدة فوريل يقول بضرورة توجيه أيٍّ تعليمات إضافية إلى الكولونيل شيل، فإن اللورد أبردين سوف يكون له الشرف في أن يتراسل مرة أخرى مع السيدة فوريل.

بعدها وصلتني المراسلة الآتية من مكتب وزارة الخارجية:

مكتب الخارجية، الرابع عشر من نوفمبر ١٨٤٥م

سيدي، لقد وُجِّهْتُ من لدن إيرل[١] أبردين، بأن أرسل إليك نسخةً من خطاب يُوهِم بأنه كُتب من قِبَلكم، والذي أرسل إلى سيادته من السيدة فوريل؛ وأطلب أن تزوِّد هذا المكتب بما يمكن أن تملكَه من معلومات بخصوص مصير المُلازم ويبورد، وخصوصاً وجوده المفترَض في بخارى.

وأنا يا سيدي خادمك المتواضع المطيع:

إتش. يو. أدينجتون

(١) إيرل: لقب إنجليزي؛ أدنى من مركيز، وأرفع من فيكونت. (المترجم).

وكانت إجابتي عن هذا الخطاب بالتفاصيل الآتية:

مالينز، الثامن عشر من نوفمبر ١٨٤٥م

سيدي، كان لي شرف أن أتسلَّم بالأمس خطاباً من الأستاذ أدينجتون، مرفقاً معه نسخة من خطابي إلى السيدة فوريل، الذي أطلب الإذن للاعتراف به. ولي الشرف الآن، حسب أمر سيادتكم، أن أزوِّدكم بالمعلومات الآتية عن مصير المُلازم ويبورد، رغم أنني كنت عازماً على الاحتفاظ بها، مع تلك التي لا زالت بحوزتي المتعلقة بمصير الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، لطبعتي الثالثة، التي ستظهر في غضون شهرين.

فعند وصولي إلى مَرْوَ، في طريقي إلى بخارى، زارني آق محمد آغا سكال يالاتان، في منزل الخليفة، وقدَّم لي الوصف الآتي: «في عام ١٢٥٣هـ، الموافق حوالي ١٨٣٥م، كنا أنا وساهر بك صاحب تيري سالور، وآخرون من قبيلة (تيري) من تيمور تورا، يصاحبنا سفير (إلجي) إنجليزي من أستراباذ (إذا لم أكن مخطئاً)، وكنا في الطريق إلى أوركنج، عندما رأينا (حرام زاده جي) (ابن الزنى)، (الامان من بادر سُخط) (الذي يجب أن يُحْـرَقَ والده)، أمير بهادر صاحب بخارى، متَّجهاً نحونا. وعرفنا في الحال أن الإلجي هو المطلوب، وقال كاولي من أوركنج، إن هؤلاء الحرام زاده جي من بخارى لن يظفروا به. وضرب صاحب بخارى الإلجي حتى طرحه أرضاً وأخذ نقوده؛ غير أنه لم يكن يحمل الكثير منها. واعتقدنا أنه مات، فركبنا وهربنا. ولكننا أُخبرنا مؤخَّراً أنه كان مشوَّشاً فقط (مخشوش)، ولم يكن ميتاً. وأُحضر إلى بخارى، حيث وُضع في السجن؛ وسمعنا بعد ذلك أنه حُكم عليه بالإعدام، رغم الالتماس (التدخل) من القوش بك (حفظه الله!) في بخارى. وكان اسم الإلجي: ويبورد صاحب».

وأضاف الخليفة قائلاً: «حذَّرت الأمير في ذلك الوقت، ولكنه كان منقاداً بشكل كبير لأحد القزل باش».

عند وصولي إلى جهار جو، تلقَّيت المعلومات عن المُلازم ويبورد المذكورة في مجلدي الأول، ص٣٠٧ برواياتي، الطبعة الثانية؛ أما فيما يتعلَّق بمعلوماتي عنه، المضمَّنة في المجلد الأول ص٣٢٦، فإنني الآن أتابع إعلامك: في إحدى الليالي أمر أمير شاب (التي تعني أمير الليل، وتوازي مدير الشرطة) بأن تُدَقَّ الطبول. وكان منزل عباس قولي خان مغلقاً. ولكون أمير ساروق وقاهر قولي، مرافقَي التركمانييْن، وعبدالله خادمي، ودِل عسا خان مع أصحابه، مدعوِّين في الخارج في بيت أحد المروزيين، ومن غير توقُّع دخل القاضي كيلون إلى غرفتي، يصاحبه الكثير من الخدم، وبعد دقائقَ قليلة لحقه شاب ذو مظهر جليل، مع عدة رجال آخرين؛ فنهض القاضي كيلون وحضنه. وابتدرني الشاب: «احلف بألاَّ تخبر أي شخص هنا أنني كنت معك». فوعدته بوقار بأنني: «لن أخبر روحاً حية». فأجاب قائلاً: «ذلك لا يرضيني، احلف برأس المسيح وأمه مريم، بأنك لن تخبر أحداً هنا. يمكنك في بلدك فقط أن تخبر البادشاه والوزير، وبشرط ألاَّ تنشره. وإذا لم تحلف، فسوف تموت». فحلفت. بعدها تابع الشاب: « إن ستودارت وكونولي صاحب، مسكينان، لقد حاولتُ إنقاذهما، وحاولتْ أمي كذلك، ولكن دون جدوى. سننجح معك». فقلت: «كيف تعرف أنهما قُتلا؟». عندها قدَّم لي - هو والبقيةُ من مرافقيه - أكثرَ القرائن التي لا تقبل الاختلاف والجدل، والتي ستظهر في طبعتي الثالثة.

بعد ذلك قال الشاب والقاضي كيلون: «ولكنك تعرف فقط نصف (الحقيقة). كان ويبورد صاحب، وهو رجل ذو مظهر نحيل، وشخصية متماسكة، ويتحدَّث اللغتين العربية والتركية، في طريقه إلى خيوه، وقد فوجئ، وأُحضر إلى هنا، وأُرسل إلى سياه چاه (البئر السوداء)، وبعد ذلك إلى الملعون كلب الدماء عبدالصمد خان، ومن ثم إلى الحريم. حاول القوش بك إنقاذه، وحتى أحد مُمَتِّعي الحضرة... حاول إنقاذَه؛ غير أن القوش بك الطبيب كان قد فقد نفوذه،

وسُئل الصبي... وهكذا أُعدم ويبورد صاحب دون رحمة؛ كما أوضحت في الصفحة ٣٢٦، المجلد الأول، الطبعة الثانية، وقد رأى القاضي كيلون ومحمد رسول رأسَه.

وأضاف القاضي كيلون وهو يبتسم: «ويبورد صاحب كره الإسلام، ولم يكن ليدخل في الخدمة معنا»؛ وعندما قال له الحضرة: «إذا أنت تحولت إلى الإسلام، ودخلت في الخدمة، فسوف أُظهر لك المودَّة»، أجاب ويبورد، رغم أنه كان ضئيلاً وهزيلاً وباهتاً مثل الحائط: «اعْلَمْ أنني إنجليزي، وبذلك لن أغيِّر ديني، ولن أدخل في خدمتك. وسوف ترى كيف يستطيع الإنجليزي أن يموت!».

بعد ذلك قال الشاب لي: «أنتم أيها الإنجليز تحبون دينكم»؛ فنهضت من مقعدي، وقلت: «نعم، كثيراً جداً». فرغب إليَّ أن أجلس، وقال: «قل عندما تذهب إلى الوطن، إنني سأكون دائماً صديقاً لإنجلترا، وكذلك كلُّ الملالي؛ ويجب أن تعطيني الفتخة «المباركة» فنحن نعلم أنك درويش عظيم».

ثم تحوَّلت المحادثة إلى سيرة ستودارت وكونولي، وأعيدَ ذِكْرُ دليل إعدامهما مرة أخرى. وتمنيت أن أحصل على رفاتهما، لكنهم بينوا لي أن ذلك غير ممكن، حيث إن كلا الجسدين رُمِيَ في بئر، فيها رفات الكثير من الموتى. وبعد أن غادروا بقي وكيل شير علي خان، صاحب خوقان، وكان اسمه الحاجي محمد حسين خوقاني، يتفاهم مع أولئك الخدم التابعين لأمير شاب المطَّلعين على المقابلة، مثل: محسون، وحبيب، ومولام، وشيبك. ودخل تيمور الغرفة، وسألني: «أتعرف من كان هذا؟»: فقلت «نعم».

وذكر لي الحاجي محمد حسين خوقاني أنه عرف ويبورد. وفي أحد الأيام دخل غرفتي المُلاَّ بنيامين كاشي، وهو يهودي، وقال: «إذا كان لدى بادشاهكم (ملككم) عملٌ لي، فأنا مستعد. لقد عرفت مور كروفت، الذي قُتل في أنخوي؛ وكوثري

وتريبك، اللذَيْن دُسَّ لهما السم في مرو؛ واعرف وييورد صاحب، الذي أخذه الامان بخارى وهو في طريقه إلى خيوه. وقد أخبرني البيجارا «المسكين» أن أهل خيوه طرحوه أرضاً في البداية، وجرَّدوه من كل شيء، ثَمَّ أحضره الامان بخارى إلى هنا، حيث تعرَّفت إليه في سياه چاه. وقد تحرَّرت، ولكنه لم يتحرَّر، بل قُتل».

عليَّ أن أكون في لندن في السابع والعشرين من نوفمبر، في فندق بيرنار، في شارع بيرنار، وشارع أكسفورد، حيث آمل في أن أقوم بترتيبات تخصُّ الطبعة الثالثة. وسأغادر أنتفيرب في السادس والعشرين منه (الأربعاء). ويجب أن أضيف أنه لم يطَّلع شخص آخر على هذه المراسلة، حيث طلب سيادتكم ذلك.

المخلص، جوزيف وولف

وبعد أن تسلَّم اللورد أبردين هذه التفاصيل الحزينة، خصَّني بالامتنان المختصر الآتي؛ مقابل خدماتي:

مكتب وزارة الخارجية، الخامس والعشرون من نوفمبر ١٨٤٥م

سيدي، لقد وُجِّهت من لَدُنْ إيرل أبردين أن نقرَّ بتسلُّم خطابك المؤرَّخ في الثامن عشر من الشهر الجاري، ولنشكر لك التفاصيل المضمَّنة فيه بخصوص المُلازم السابق وييورد.

وأنا، يا سيدي، خادمك المتواضع المطيع:

إتش. يو. أدينجتون

هناك إشارة في هذه المراسلة، تتعلَّقْ بالبينة التي لا تقبل الاختلاف حول موت ستودارت وكونولي، والتي ربما تطلَّبت بعضَ التوضيح. وأقدِّم هنا تفاصيل حول هذا الموضوع، لم يتضمَّنها الخطاب، ولكنه ألمح إليها. لقد تَمَّ إحضار رأسَي الضابطين إلى الأمير والقاضي كيلون؛ وقد رأياهما، ولقد صاح أحد الدراويش الذي كان حاضراً أمام الملك: «إن دم هذين الرجلين المغدورين

سيصعد صراخاً إلى العليِّ ضدَّك». ولهذا ثار الأمير غضباً، فأمر بأن يُجلَدَ الدرويش ويُنفَى من البلاد. وبعد ذلك أمر بدفن الرأسين، فرُميا في بئر، مع جسديهما.

وقال القاضي كيلون: «لقد نتفتُ لحيتي عندما رأيت الرأسين، وبَدَيا وكأنهما يتحدَّثان إليَّ، ويلومانني لماذا لم أصدر فتوى ضد الأمير لمنعه». وأضاف قائلاً: «لقد عملت كلَّ ما بوسعي، ولكن دون جدوى». وقال عدد من خدم الشاب: «لن ننسى ما حَيِينا الانطباعَ الذي أحدثه منظر هذين الرأسين. لقد بكت زوجاتنا في المنازل، وأتى إلينا العجوز إبراهيم قولي خان، وقال: إن مأساةً ستحُلُّ على البلد بسبب هذه الجريمة الغبية. وقال آخرون: إن سليمان وعدداً آخر من اليهود، عبروا أمام الأرك في اللحظة التي أُحضر فيها هذان الرأسان من حضرة الأمير خارج الأرك، ولم يستطع اليهود الإمساك عن البكاء وضرب الصدور».

من الضروري التنبيه على أن هؤلاء اليهود هم أنفسهم، الذين أتوا بعد ذلك إليَّ، وأخبروني بالحدث نفسه. وقد قال الشاب أيضاً: «تجمَّع عدد ممن كان في البلاط في غرفتي، وتشاورنا حول الإجراءات التي يمكن أن تضع حداً لتلك الشناعات؛ واتفق الجميع على أنه لا يمكن عمل ذلك من دون التسبُّب في موت عبدالصمد خان». بعد ذلك قال القاضي كيلون: إن عبدالصمد خان، عندما نُقِلَ إليه خبرُ مقتلهما هتف صائحاً: «دعهما يذهبان إلى الشيطان؛ لم أنجح مع دوست محمد خان، ولكني نجحت مع هؤلاء الفرنجة حرام زاده جي».

أعتقد أنه من المناسب أن أضيف إلى ما سبق ذكره من ملحوظات، أن اليهود يقولون: إن أولئك الأشخاص من خيوه هم فلسطينيون قدماءُ، وهم الهيفيتيون أصحاب الكتاب المقدَّس (*Hivites*)، ويدَّعي أهل مَرْوَ أنهم أحفاد

أهل ميروز. وأُضمِّن لعنة ميروز من سفر القضاة، الإصحاح الخامس، الفقرة ٢٣: «العنوا ميروز، قال ملاك الرب؛ العنوا ساكنيها لعناً؛ لأنهم لم يأتوا لمَعُونة الربِّ، معونة الرب بين الجبابرة».

ولا يَتَّفِقُ الموضع الجغرافي مع هذه التعاليم، غير أن التعاليم القديمة تؤكِّد - لزمن طويل - أن ميروز كان ملاك الكنعانيين، الذي لعنه ميكائيل، الملاك الحارس لإسرائيل. وكل ما أستطيع قوله إنه إذا ثبت أن البغضاء ذات أصل يتعلَّق بالقُربى، فإن أهل خيوه - فيما يبدو - يماثلون تماماً الهيفيتيين *Hivites*، أو أيَّ شعب كنعاني آخرَ؛ فإن سوء سمعتهم يوشك أن يغري الأرض الجامدة بأن ترميهم باشمئزاز من فوق صدرها، وقد وُصِفَتْ بأنها فعلتْ في زمن الأقدمين عندما سئمتْ قبائح الكنعانيين، عندما أسلمهم الرب في النهاية لسيف يشوع الذي أفناهم، وبذلك طهر المحيط الأخلاقي بعملية مشابهة لتلك التي تُطهِّر الجسد.

ولم أتأثَّر في حياتي قدْرَ تأثُّري من تسطير الأنباء الحزينة التي سبق ذكرها، وقد دهشت غاية الدهشة أن أجد أنه بينما تتسلَّم أخوات ستودارت تقاعداً مالياً من الملكة، تُهمَل أخوات ويبورد بصورة غير قابلة للتعليل. ومن الجدير بالذكر أن الكاثوليك الرومان - وحتى فابر السابق - يؤكدون أن الكنيسة الإنجليزية ليس لها شهيد حقيقي واحد. وأقول: إن كونولي وويبورد هما شهيدان بقدر شهادة القديس جوستين والقديس سيبريان. ولذلك فإنني مندهش من أن تحصُل أخوات الكولونيل ستودارت - الذي ارتدَّ مدة وجيزة، ما جعل ذلك يلطِّخ الشخصية الإنجليزية - على راتب تقاعدي، بينما يتم تجاهل أخوات ويبورد الرائعات كليةً من الحكومة البريطانية، مع أنهن أبدين قدراً كبيراً من التعاطف مع مصير ستودارت.

مثل هذا التصرف لا يمكن تفسيره؛ لذا، فمهما بَدَوْتُ عدواً للحكومة، إلا أنه يجب عليَّ أن أكرِّر أن اللامبالاة الظاهرة بوضوح تجاه السيدة فوريل وأخت ويبورد غير المتزوجة، غير قابلة للتعليل. وأودُّ فقط إبداء إعجابي بالثبات النبيل للملازم ويبورد تحت وطأة المرض، والتعذيب، والحرمان، مخلصاً حتى النهاية لبلاده وربه؛ لأجل هذا الإصرار.

عند وصولي إلى إنجلترا، علمت أن الدكتور بورينج قدَّم لمجلس العموم التماسَ هاتين السيدتين الحزينتين؛ ليس من أجل أنفسهنَّ أو احتياجاتهنَّ، ولكن من أجل التحقيق في الوقائع المتَّصلة باختفاء أخيهن. وهن يتمسَّكن بآمال حياتِه بصورة طبيعية كأقارب، واهتمامهنَّ به أكثر من اهتمامهن بأنفسهن.

خلال إقامتي في مالينز وصلت إليَّ المراسلة الآتية من الكولونيل شيل:

مخيم بالقرب من طهران، الثالث عشر من أغسطس، ١٨٤٥م

سيدي، لقد حصلت على تفويض من حكومة الهند؛ لأحوِّل إليك المبلغ الذي أنفقتَه في بخارى، في سبيل استعادة خطاب مرسَل من الحاكم العام للهند موجَّه إلى حاكم ذلك البلد، والذي لم يبلغ محطَّته. وبناءً على ذلك أحول إليك حوالة بمبلغ ٥٦ جنيهاً و٦ شلنات و٩ بنسات، المساوية لمئة تيلاه.

ولي الفخر أن أكون، يا سيدي.

خادمك المطيع، جوستين شيل

لم أشعر قط بسخط عند تلقِّي أي مراسلة في حياتي كلها مثلما شعرت به الآن؛ وتبدو أنها تضع تقييماً لخدماتي نيابة عن وكلاء الشركة، وهي بالتأكيد أكثر بقليل من ثلاثين قطعة من الفضة[1]؛ ولو أنني قبلتها، فسأشعر

---

(١) يشير إلى المال الذي تسلَّمه الإسخريوطي لقاء خيانته للمسيح عليه السلام، كما ورد في الإنجيل.

بانحطاطي إلى موقع أكون فيه شريكاً لذلك الوغد عبدالصمد خان. ومع ذلك، فسوف أُثبت للشعب البريطاني أنني نظرت إلى الأمور بصورة أكثر دقةً مما فعل مندوبه في طهران؛ حيث إنني تحقَّقت من مصير هذا الخطاب، الذي يجهله الكولونيل شيل تماماً. وكان رَدِّي كالآتي:

مالينز، الثالث عشر من أكتوبر ١٨٤٥م

عزيزي، تسلَّمت بالأمس خطابك اللطيف ومعه الحَوالة المرفقة، التي تُخَوِّلُنِي سحبَ مئة تيلاه مقابل ما دفعته لاستعادة خطاب اللورد إلينبورو. وهذه المئة تيلاه كانت واحدةً من الأشياء التي اعترضتُ عليها في طهران، ثم مرة أخرى عندما أُرسلت إليَّ في لندن في مايو الماضي؛ فلا أنا، ولا عبدالصمد خان - الذي أوصيته (أنت) بي لمساعيه الخيِّرة في رحلتي إلى بخارى - قد دفع فارذنجاً واحداً مقابل الخطاب المذكور أعلاه، والذي أُعطي لي هديةً، بأمر من أمير بخارى. وأنا لا أستطيع الاستفادة من الحوالة التي أرسلتها إليَّ متلطفاً بأمر من حكومة الهند، لأنني لا أنزع إلى مكافأة القاتل عبدالصمد خان لارتكابه جريمة قتل الكولونيل ستودارت وصديقي كونولي، والكابتن ويبورد وآخرين. ولذلك سيسرُّك أن تعيد الحوالة المرفقة إلى حكومة الهند، وتأذن لي من أجل تبرئة نفسي، أن أنشر المراسلة الحالية. وسوف أُقرُّ بفضلك لو أنك استطعت أن تزوِّدَني بأية معلومات حول الـ ٣٣٠٠ روبية من الهند، التي خُوِّلتَ أنت بسحبها، ولم يصل منها فارذنج واحد إلى هذا البلد؛ بينما كُنْتَ مدركاً أن عبدالصمد خان جعلني أدفع كلفة ترحيل ممتلكاته من بخارى إلى مشهد، والتي أحضرتُها فوق ثمانية جمال؛ مع أن جميع ممتلكاتي الشخصية كانت ضئيلة بحيث يكفي لحملها حمار صغير؛ ما جعلني بسبب رحلتي إلى بخارى، مديناً بأربعمئة جنيه.

جوزيف وولف

وقد رأيت أنَّ هذا الموضوع المتعلِّق بالمال هو موضوع يجب أن يبحثه مكتب وزارة الخارجية، وبناءً عليه أرسلتُ الخطاب الآتي إلى اللورد أبردين:

مالينز، الثالث عشر من أكتوبر ١٨٤٥م

سيدي، تسلَّمت بالأمس خطاباً من الكولونيل شيل، مؤرَّخاً، في مخيم بالقرب من طهران، في الثالث عشر من أغسطس ١٨٤٥م، مع الحوالة المرفَقة، التي أسمح لنفسي أن أطلب من سيادتكم إعادتَها إلى الكولونيل شيل، مع الخطاب المرفق معها؛ لأن المئة تيلاه، التي أرسلَتْها حكومة الهند مقابل استعادة خطاب اللورد إلينبورو، كانت أحدَ وسائل الاحتيال للنائب عبدالصمد خان قاتل وناهب الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي، والذي احتججتُ ضدَّه بإصرار عندما كنت في طهران، ومرة أخرى عندما أرسل الكولونيل شيل إليَّ في لندن الأشياء التي أُخِذَتْ مني عَنْوَةً في حديقة النائب؛ ولذلك فإنه لم يحدث أن صُرف فارذنج واحد في سبيل استعادة ذلك الخطاب؛ سواء مني أو من النائب، ولا أجد مسوِّغاً لأخذ منحة حكومة الهند اللطيفة بهذا الخصوص. وأكرِّر ما ذكرته في روايتي، لو أن النائب تسلَّم ثلاثة الآلاف تيلاه نيابةً عن كونولي، فهذا يعني أن الحكومة البريطانية تكافئه على اغتيال الضباط الشجعان.

ولي الشرف أن أكون، سيدي، خادمك المتواضع المطيع:

جوزيف وولف

حاشية: ألتمس من سيادتكم إخباري، ما إذا كان لديكم أيُّ اعتراض على نشر هذه المراسلة الحالية.

ولم يعترض سيادتُه على نشر هذه الوثائق؛ لذا فأنا أقدِّمها إلى المجتمع البريطاني لكي يبنيَ عليها حكمه.

وقد استثارت ملحوظاتي حول جيوفاني أورلاندو، صانع الساعات في

بخارى، اهتمامَ الأستاذ شفارتز، القنصل الأمريكي في فييناّ، ونتج من ذلك المراسلة الآتية:

فييناّ، الحادي عشر من أكتوبر، ١٨٤٥م

الدكتور القس، الشكر الجزيل، ليس فقط للردّ السريع، المؤرَّخ في السابع والعشرين من أبريل، على خطابي المؤرَّخ في الرابع من أبريل، ولكن كذلك لما عبَّرتَ عنه في ذلك الخطاب من نزعة خيريَّة وافرة. لقد برهنتَ بشكل كامل على أنك محسن، الأمر الذي عُرِفْتَ به عالمياً. وألتمس أن أؤكّد لك أنني لم أُضَيِّعْ وقتاً لكي أضمن النجاح لقصدك الخيِّر. وقد أرسلتُ خطابَك والصحفَ إلى صديقي في بارما؛ وقد أخذت جلالة دوقة بارما (التي تتصرف كالأم تجاه رعيتها الجاحدين) الأمرَ بحماسة بالغة، واتَّخذت الخطوات الضرورية، كي يحاول مكتب الدولة النمساوي تحرير جيوفاني أورلاندو سيِّئ الطالع، الذي أيَّد قضيته بحرارة كذلك الأمير مترنيخ. وقد قُدِّم الأمر إلى السفير النمساوي في سانت بطرسبرج مع كل التأكيدات الممكنة، وليس هناك من شك في أن حاكم أورينبورج قد تلقَّى الأمر الضروري من حكومته.

إن الرغبةَ في أن يكون لديَّ شيءٌ نافع أرسله من روسيا، هي التي أخَّرت استجابتي حتى الآن؛ ولكن لخوفي من أن أبدُوَ عاقاً في نظرك، فلن أنتظر وقتاً أطولَ كي أشرع في تنفيذ واجب مقبول للغاية.

ولا يمكن تقديم طلب بوساطة الأمير مترنيخ إلى شاه فارس، انسجاماً مع نصيحتك، لأن مكتب وزارة الخارجية النمساوية ليس على تواصل مباشر مع تلك السلطة؛ غير أن بعض الأمور القليلة نُفِّذت من قِبَلِ الباب العالي، ولكن لأنه لم يكن واثقاً من جلية الأمر؛ فقد فضّل اقتراح الموضوع على الحكومة الروسية ذات النفوذ.

لقد علمنا هنا بعملك الذي يستحق المكافأة، والذي قدمته بروح متواضعة، ولا أشك في أنْ يسعى الشعب البريطاني، ذو الروح العالية، لمكافأتك على دأبك وسط الأخطار؛ ومهما تكن الظروف، فلعلك مقتنع بأنك مشهور في أوروبا كافة بتضحياتك الإحسانية التي قمت بها، وكل شخص مطّلع على هذه الحقائق لا بد أن يشعر بميل إلى خدمتك، ومن بينهم رجاءً، يا سيدي القس، أن تعتمد على خادمك المتواضع المطيع.

جي. جي. شفارتز

يسرني جداً أن أدرك أن أقلَّ الدول الأوروبية شأناً لديها العزم على إنقاذ أقلِّ رعاياها شأناً - ممن يطالب تلك الدول بالمواطنة - من طغيان الأمير.

ولم أقطع الأمل في أنَّ رفيقي في التَّلْمَذَة في كلية رومانيو: الكاردينال فيريتي، الذي تم اختياره بابا الآن، سيسهم بدرجة ليست قليلة في توحيد الكنيستين الرومانية والأنجليكانية. لقد كان صديقي الشخصي، وقد أعطيتُه دروساً في اللغة العبرية، وتناقشت معه في عِصْمَة البابا، وخَلاص البروتستانت. وقد عبّر في النقطة الأخيرة عن أفكار متحرِّرة للغاية، غير أنه كان معارضاً بشكل حاسم، ليس للوثريين فقط، ولكن كذلك للحكومة النمساوية. ولد كونت فيريتي في أنكونا[1]، وهو رجل وَرِعٌ، ومتحمِّس، وصاحب خير وأُنْس؛ كما أنه ذو تعليم راق. ولقد كان سبباً في تنصير أحد الزنوج، الذي كان عرَّاباً له، وسمَّاه باسمه (فيريتي) وقد أُرسل الزنجي إلى مجمع التنصير لكي يتعلَّم. وربما يعمل البابا على ترفيع الكاردينال أوستيني لمركز رفيع، حيث إنه كان أستاذاً له في كلية رومانيو.

وسأذكر هنا، بفخر قليل، تلميذاً آخرَ من تلاميذي في اللغة العبرية؛ إنه

(١) مدينة تقع في الشمال الشرقي من إيطاليا على بحر الأدرياتيك.

البرنس ألكسندر هوهينلوه شيلينجفورست، الذي اشتهر فيما بعد بأنه يتاجر في المعجزات في فييناّ وإلفانجا؛ والذي رأيته كاذباً ومتهتِّكاً ومنافقاً. لقد طُرد من معهد تيراناو اللاهوتي في هنغاريا، وحذَّرني منه رئيسُ الأساقفة هوهينفارت في فييناّ، ويوهانس يان عالم الآثار المشهور. وعندما كنت في روما، أتى إلى هناك، ونال الشهرةَ القدسية العظيمة. لقد عاش مع اليسوعيين (الجزويت) وكان أثيراً لديهم بشكل خاص. وكان بيوس السابع على وشك أن يرسِّمه أسقفاً؛ ولكنني أخبرته أنه، إذا قام بذلك، فسيُغضِب ذلك ألمانيا كلها. وقد حنق عليَّ اليسوعيون (الجزويت)، وكذلك سفراء النمسا، وفورتمبرج، والساكسون. وعلى ذلك طلب الكاردينال ليتا مني أن أقدِّم إثباتاتي. فقدمت إليه أولاً: رأي الكونت هوهينفارت؛ وثانياً: رأي يان؛ وثالثاً: رأي البارون باوكلر؛ ورابعاً: رأي الراهب شليجيل؛ وخامساً: رأي هوفباور؛ وسادساً: شهادة معهد تيراناو اللاهوتي. وبعد ستة أسابيع، أرسل إليَّ الكاردينال ليتا مذكرةً بواسطة الأستاذ أوستيني - الكاردينال الآن - تقول: «شي جوزيف وولف، ها بارلاتو لا فيريتا» أي: إن جوزيف وولف قد قال الحقيقة. وقد خرج الأمير هوهينلوه بناءً على ذلك من دون الوصول إلى أسقفيته. وهكذا منعت أحد الأشخاص غير الجديرين من الحصول على حكومة الأساقفة (في كنيسة).

في الختام يجب أن أضيف، أنه بفضل صديقي الكولونيل ميشيل، فإنني قَسٌّ أستفيد من دخل رتبة في الكنيسة الإنجليزية؛ وآمُل الآن أن أنهي أيامي بهدوء في إنجلترا، وأوقف التَّرحال نهائياً، فإن ميولي الطبيعية تفضِّل الراحة واليُسر، وأؤكد هنا لقرائي، أنني دائماً ما كرهت الترحال من أجل الترحال، فلستُ أحبُّ الحياة غير المتحضِّرة، أو العادات غير الراقية. ومن السخف تماماً أن نتحدَّث عن قدسية «كلمة العربي»، أو «الشخصية النبيلة» للكردي

السارق الجشع، أو «كرم» التركمان الغدَّارين، الذين يطالبون دائماً بثمن لكرمهم، مضاعفاً عشرة أضعاف لِمَا يقدِّمونه لمتجوِّل مُنهَك. غير أنني دُفعت إلى الأمام بذلك الغرض؛ ولو استُدعيت مرةً أخرى للعمل على افتداء أسرى إنجليز أو غيرهم من أيدي الخيبريين الفاسدين، أو الأفغان عديمي الرحمة، أو من سلطة «كلب الدماء» عبدالصمد خان، فآمل ألا أصبح دون المستوى المطلوب لما يُطلب مني.

والشخص الأخير المذكور بذلك، وَجَدَ له مؤِّيداً في إحدى صحفنا الأسبوعية. وقد حمتْني السماء من الرحمات الرقيقة لذلك النائب الملوَّث بالدماء!

وستُثبت الاقتباسات الآتية من خطابات تلقَّاها السير كلاود مارتن ويد، مندوبُنا البريطاني في لاهور، وهي من مراسلاته الرسمية، من أحد الرجال (لم يُؤذَن لي بنشر اسم هذا الرجل) مقدار الأذى الذي أحدثة هذا الفارسي الوضيع في أماكنَ أخرى للمصالح الإنجليزية. وهو الذي يدينه الكولونيل ستودارت والكابتن كونولي بسجنهما وتعذيبهما وقتلهما؛ والذي أسلمني الكولونيل شيل لرحماته الرقيقة بشكل خاص.

الحادي والثلاثون من مايو، ١٨٣٥م

لقد فُهِم أن عبدالصمد خان، الفارسي، قد أرسل نقوده وممتلكاته سراً من كابل؛ ونُقل أنه يعتزم الفرار؛ إما بسبب خوفة من الأمير، دوست محمد خان، وإما لشكوك تتعلق باضطرابات سياسية يُتوجَّس منها في ذلك الوقت. وحديثاً، لا يتمتَّع بتلك المكانة العالية التي كان يتمتع بها في السابق لدى الأمير. وكان بعض الأشخاص يحاولون التأثير على الأمير ليتحامل على مراسلي، ويصفونه بأنه جاسوس، وخصوصاً سيِّئ السمعة عبدالصمد.

هذا الخطاب يُثبت مدى كيده في تلك الفترة، الأمر الذي نضج لاحقاً، كما سنرى، وتحول إلى فاكهة مرة.

ويبين الخطاب الآتي بوضوح أنه واصَل اللعبة الثابتة في بلاط دوست محمد، التي أشرت إليها في بخارى، وذلك بتأمين مصلحة الحريم:

العشرون من سبتمبر ١٨٣٥م

ربما لا يكون دوست محمد خان قادراً على تبيُّن النتائج المتوقَّعة منه (عبدالصمد خان) في مثل هذه الضربة الشجاعة في السياسة، ولكن يمكن اعتبارها إظهاراً جلياً لمخطَّطاته، وربما إشارة للقيام بسلسلة من أعمال عنف، يغريه بها مَنْ نصحوه بالعملية. وهي عملية يشجُبها كل أفغاني إلا هو، والتي لن يؤيِّدها أيُّ قزل باش إذا حدثت. كما يتَّضح أنه واقع، بصورة رئيسة بوساطة شخص تافه مثل عبدالصمد، الذي تعهَّد للأمير بإجابة موافقة لطلبه. وقد وجه عبدالصمد خان - في الوقت نفسه - خطابات إلى بعض الضباط الروس، الذين يدَّعي أنه على معرفة بهم، ومنها خطابٌ وجَّهه إلى جنرال يُدعى شيباتو ستور. ولا أعرف بعدُ ما إذا فعل الأمير الشيءَ نفسه أم لا؛ وربما يكون قد فعل. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه سيُعلم في غضون أيام قلائل. هذا ما كتبه مراسلي. وقد لحظت أن بعض التعريض الكريه قد نقل للأمير، ومما لا شك فيه أن ميوله الجديدة قد تستحثُّه على الإنصات لهم. إن محرِّضه عبدالصمد، وهو كذلك وغد من الطراز الأول، له تأثير في حريم الأمير، يكفي لحجب أي نصيحة يمكن أن تُقدَّم للأمير.

وهذا يشير بوضوح إلى عواطف هذا القزل باش المقيت تجاه المصلحة البريطانية، ورأي الوكيل البريطاني هناك فيه.

والآن أُدرج خطاباً يربط حاجي إبراهيم بأخيه عبدالصمد خان، ويشير إلى طبيعة التلاحم بينهما، هذا التلاحم الذي كنت أنا، وستودارت، وكونولي، من الذين قاسَوْا منه بشدَّة، والذي لو بُذِلَ أدنى اهتمام من الكولونيل شيل لمنعه، فربما أدَّى إلى حمايتنا جميعاً منه.

الثلاثون من نوفمبر ١٨٣٥م

أخبركم كواجب من واجباتي، عن صدور خطابات من الأمير، موجهة إلى محمد شاه، وآخرين، ومن المحتمل ألاَّ تصل هذه الخطابات إلى أصحابها. ومن الممكن أنّ عبدالصمد أرادها ألاَّ تصل، مع أنه المحرِّض على إرسالها، وكان قد خدع الأمير بذلك. وهناك سبب يجعلنا نعتقد أن الحاجي إبراهيم سيقوم بأعمال تجارية لحساب أخيه، عبدالصمد، الذي أرسل على إثر مغادرته، حمولةً من البضائع. وقد كنَّس عبدالصمد بعض الأموال في خدمة الأمير، وكان من الأفضل ترحيلُها من كابل. وقد يكون الأمير اعترض على مغادرة أخي عبدالصمد، كما فعل عندما اقترح الأمرَ في البداية، وأصبح من الضروري أن يسمح له بالمغادرة تحت ستار أن مصلحة الأمير الخاصة هي المعنيَّة. وقد منحتْه التقاريرُ الكاذبة والمُبالَغُ فيها والشائعة في ذلك الوقت في كابل، عن طبيعة الأوضاع في فارس، فرصةً أن يفرض ذلك على الأمير، وخلق أهمية آنيَّة لنفسه. وقد يكون الأمير لا يزال يتوقع أن يتسلم، وقت النيروز، إجاباتٍ على خطاباته؛ ولكن الحاجي هناك لديه القليل من الشك في أنه سوف يمضي النيروز بارتياح في بخارى.

والآن أربطه بصورة إضافية بالتآمر والمغالطة والخِسَّة التي نتجت منها الحرب الأفغانية، من الخطاب الآتي:

الثالث من أغسطس ١٨٣٧م

لقد تسلَّم عبدالصمد خان إذناً بالمغادرة، آخذاً الطريق إلى بخارى؛ وقد احتجز الأميرُ ممتلكاتِه. وأعطاه خان شيرين خان سبعةَ جياد أو ثمانية، وأعطاه مير علي، خان مرادخاني العددَ نفسه. وهكذا، وبمساعدتهم ومساعدة أصدقاء آخرين، فإنه سوف ينطلق مع خمسة عشر خيَّالاً يمكن أن يعدَّهم تابعين له. وسوف يوفِّر خان شيرين خان كذلك خمسةَ وعشرين خيالاً لمرافقته إلى خلف الهندوكوش.

وسيغادر اليوم أو غداً. ومنذ وصول محمد أكبر خان، عقد عدة لقاءاتٍ خاصَّةً مع عبدالصمد، وكذلك فعل ميْرزا سامي خان وآخرون؛ ولن يدهشني أن يكون الفارسي، قبل مغادرته، قد دبَّر معهم بعض الخطط غير العادية. إنه يأخذ أصحابه معه؛ غير أن واحداً منهم، والذي يدعو نفسه شاه صاحب، سيعود من بخارى.

ونجده هنا على اتصال مع السَّفاح المشهور، قاتل السير وليام ماك ناجتن: أكبر خان، وهو يدبِّر لتلك الحرب التي حفلت بنتائجَ كارثية على مصالحنا. وأعتقد تماماً إما أنه هو المتسبِّب في تلك الحرب، وإما أنه مطَّلع على كل خططها وتصميماتها.

ويبين الاستخلاص الآتي من خطاب آخر، مؤرَّخ في الحادي عشر من أغسطس ١٨٣٧م، أنه مهما بلغ كُرْهُ دوست ْمحمد واحتقاره لذلك النذل عديم الإحساس، إلا أن وكيلَنا البريطاني ذا البصر النافذ رأى فيه أعمقَ مما يبدو أن الكولونيل شيل قد رآه، وأنه استشفْ أن نفوذه يتركَّز مع أكبر خان وليس مع الأمير. لقد أثبتت الأحداث، على نحو مميت، أن الإجراءات ذات العلاقة قد خُطِّط لها جيداً، ونُفِّذتْ بتأنٍّ وعمدٍ، الأمر الذي أسِف عليه بشدة المسكينُ السير ألكسندر بيرنز.

الحادي عشر من أغسطس ١٨٣٧م

منذ كتابتي الأخيرة غادر كلٌّ من نائب حاجي خان وعبدالصمد مدينة كابل. وقد سلك الأول الطريق إلى غزني، ولكن من غير المعروف ما إذا كانت محطتَه هي توبا، أو قندهار، أو في النهاية بيشاور. وقد سلك عبدالصمد الطريق إلى باميان. ومحطته كذلك ليست معروفةً، وما إذا كان سيتابع إلى بخارى، أو عبر هزارة جات، إلى هراة ومشهد. وقد زوَّده مير علي، خان مراد خاني، بحرس من الخيل إلى باميان، الأمر الذي أثار سخط الأمير. وإذا كان الفارسي، قبل

مغادرته، قد قام بأيٍّ ترتيبات كيدية مع القزلباشية، فيبدو أن الأمير لم يكن مطَّلعاً عليها.

لن يثير المجتمعَ الإنجليزي الدخولُ في تفاصيل مكائد فارسيَّيْن نذلَيْن؛ غير أنه إذا أراد اللورد أبردين أي إثبات إضافي على التصرُّف الحقير من الوكلاء الفارسيين، الذين عُهد إليهم بحياة رجالنا وشرفهم بشكل مطلق، فسأكون سعيداً أن أزوِّده برُكام من التفاصيل يبين عدم الجدارة الكاملة للوكلاء والمستخدَمين من الكولونيل شيل؛ فالتزوير والكذب والاختلاس والسرقة والقتل، أصبحت أشياء مألوفةً في طبائع هؤلاء الناس. فمحاولات الغشِّ والالتفاف على كل الأطراف - سواء أكان محمد شاه، أم دوست محمد، أم البريطانيين، أم مبعوثين آخرين - كانت متواصلة، وتثبت دائماً إخفاقها. إلا أن اللطمة المزمع توجيهها للمصالح البريطانية، إذا كانت قد أخفقت في كابل لوقت ما، فقد حققتْها العملية المشتركة للحاجي إبراهيم وعبدالصمد خان في رأسَي ستودارت وكونولي المخلصَيْن في بخارى.

فوَّضني السير كلاود مارتن ويد أن أبين أنه كان مُجبَراً على أن ينجز ذلك الطرد من بيشاور الذي ساق عبدالصمد خان إلى بخارى. وقد أجبر تآمر عبدالصمد خان ونذالتُه السير كلاود على سلوك هذا الطريق. ويصفه ميسون في تقاريره كذلك بالنذل من الطراز الأول. وتنبع دوافعه في إعدام كلِّ أفرنجي - بعيداً من تأثُّمه المعتاد في حياته - من الخوف الذي يسيطر عليه من أن ينكشف جهلهُ الحقيقي بفنون الحرب، وكذبه وتوجُّسه من العقاب بشرٍّ أكثر سوءاً مما تكبَّده جزئياً، ألا وهو فقده لأُذنَيْه. لقد حذَّرتُ المندوب في طهران، والقناصل المختلفين، في أثناء سفري، وصديقي النبيل السير ستراتفورد كانِنج، ومكتب وزارة الخارجية، من هذا الوغد. وإلى جانب نشر

الحسنة يوجد الاستنكار الواضح للإثم، ولكن في البداية كان نقائي، وهو أفضل ما لديَّ، مكافأتي الوحيدة.

وسيفرح قرَّائي حين يتلقَّون المعلومات الآتية: إنهم يَعُونَ أنني كنت قد عزمت على تقديم التماس للبرلمان كي يمنح صديقي الرائع، الكابتن جروفر، أربعمئة جنيه إسترليني، وهي التي صرفها من أجلي؛ غير أن صديقي الأستاذ وليام بيكيت، من ليدز، تحدَّث عن الموضوع، بناءً على طلبي، مع السير روبرت بيل، راغباً في أن يقوم السير روبرت بتوصيل المال إليَّ، كي أُسدِّدَ دَيْني للكابتن جروفر. وقد رغب إليَّ السير روبرت بيل، مع الموافقة الكاملة من وزير المال البريطاني واللورد أبردين، في مايو الماضي، أن أذهب إلى الخزانة بنفسي؛ لكي أُحضر المال، ولكن قبل ذهابي إلى هناك، دُفعت الأربعمئة جنيه باسمي إلى المصرفيين الذين أتعامل معهم، السادة دروموندز وشركائهم، تقاطع شارنغ، وفي الحال سدَّدت دَيْني للكابتن جروفر.

لا أستطيع أن أختم هذه الملحوظات من دون أن أوصي - مرةً أخرى - بجمعية ترويج المعرفة النصرانية، وجمعية الإنجيل البريطانية والأجنبية، للمجتمع البريطاني؛ حيث إنه ما لم تصاحب قاطرات السلم في جميع أرجاء الأرض تقدُّمَ اللورد هاردنج، وكل المحاربين الآخرين، فإن الشعوب سوف تظن أننا نحب سفك الدماء، وتَنكِص برعب عن سبيلنا. ولكن إذا بَيَّنَتِ القضية العملية العظيمة لمملكة المسيح: «السلام على الأرض، والخير بين الناس» فسوف نحتاج إلى قليل من الجهود الودية من جمعية سلام، حينئذ ستشعر الشعوب بالأُخُوَّة، وسيشكِّلون رباطاً واحداً من الوَحْدة والاتحاد.

الكشاف العام

(ش)

(ص)

(غ)

(ل)

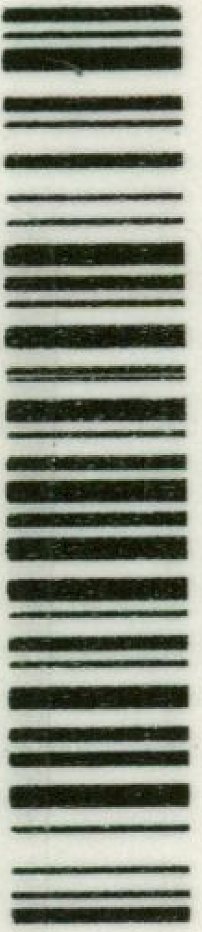
(و)

(ي)

مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية



صورة الغلاف

قصر الحكم، وسكن أمير بخارى ١٨٩٠م من كتاب (بخارى) **Bukhara** بإذن من البروفيسور فيتالى نعومكين محرر سلسلة:

CAUGHT IN TIME: GREAT PHOTOGRAPHIC ARCHIVES

تصميم الغلاف: أزهري النويري